



المركز القومي للترجمة

مدخل إلى البحث النسوي ممارسة وتطبيقاً

ننارلين ناجي هيسي - بايبر
باترينتا لينا ليفي

ترجمة وتقديم

هالة كمال

2356

مدخل إلى ..

البحث النسوي

(ممارسة وتطبيقا)

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة العلوم الاجتماعية للباحثين
المشرف على السلسلة: فيصل يونس

- العدد: 2356
- مدخل إلى.. البحث النسوي: ممارسة وتطبيقا
- شارلين ناجي هيسى - بايبر، وباتريشا لينا ليفي وآخرون
- هالة كمال
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:

Feminist Research Practice

By: Sharlene Nagy Hesse-Biber and Patricia Lina Leavy

Copyright © 2007 by Sage Publications, Inc.

تصدر هذه الترجمة بالتعاون مع Sage Publications, Inc وهي الناشر الأصلي للطبعة
الإنجليزية بالولايات المتحدة الأمريكية ولندن ونيودلهي

هذا العمل يصدر بالتعاون مع مؤسسة فورد

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org

Tel: 27354524

Fax: 27354554

مدخل إلى..

البحث النسوي

ممارسة وتطبيقا

تأليف: شارلين ناجي هيسي- بايبر

باتريشا ليننا ليفي

ترجمة وتقديم: هالة كمال



2015

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية
نزار الحكيم، شاذلي ناجي



مدخل إلى البحث النسوي: ممارسة وتطبيقا/ تأليف شاذلي ناجي ميسى، بايبر، باتريشا لينا ليفي،
ترجمة وتقديم هالة كمال- القاهرة: وزارة الثقافة، ٢٠١٥
عدد الصفحات : ٥٢٠ صفحة
المقاس: ١٧ × ٢٤ سم
تدمك ٩٧٨ ٩٧٧ ٩٢ ١١٧ ٧
١ - البحوث الاجتماعية.

١- ليفي، بايبر، باتريشا لينا (مؤلف مشارك)
ب- كمال، هالة (مترجم، مقدم)
ج- العنوان

٠٠١،٤٣٣

رقم الإيداع
٢٠١٥ / ٤٣٥٧

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي، وتعريفه بها. والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

٧	تقديم : البحث النسوي والترجمة النسوية
١٧	شكر وتقدير
٢١	تصدير : فلسفة الكتاب التعليمية
٢٣	الفصل الأول: دعوة إلى البحث النسوي بقلم : أيجيل بروكس ، وشارلين ناجي هيسي-بايير
٥٧	الباب الأول: مقاربات نسوية إلى الإبستمولوجيا والنظرية
٥٩	الفصل الثاني: الإمبريقية التجريبية النسوية: مواجهة التحيز الجنسي و«تصحيح الأوضاع» . بقلم : دينيز ليكيني
٩٧	الفصل الثالث: إبستمولوجيا الموقعية النسوية: بناء المعرفة والتمكين من خلال تجارب حياة النساء . بقلم : أيجيل بروكس
١٣٧	الفصل الرابع: ما بعد الحداثة النسوية وما بعد البنيوية النسوية بقلم : باتريشا لينا ليفي
١٧٥	الباب الثاني: مقاربات نسوية إلى المنهجيات ومناهج البحث
١٧٧	الفصل الخامس : عقد المقابلات النسوية المعقدة بقلم : شارلين ناجي هيسي-بايير
٢٢٧	الفصل السادس : ممارسة التاريخ الشفاهي النسوي ومقابلات مجموعات النقاش بقلم : باتريشا لينا ليفي
٢٨٥	الفصل السابع : ممارسة الإثنوجرافيا النسوية بقلم : إلانا د. بونش و كارين م. ستالر
٣٣٧	الفصل الثامن : الممارسة النسوية في تحليل المضمون بقلم : باتريشا لينا ليفي
٣٧٥	الفصل التاسع: مقاربات نسوية إلى البحث متداخل المناهج بقلم : دينيز ليكيني ، وشارلين ناجي هيسي-بايير
٤٣٥	الفصل العاشر: البحث الاستطلاعي النسوي بقلم : كاثرين ماينز-روبينو ، وتوبي إيستين جايارانتي
٤٧٩	الباب الثالث: البحث النسوي في الممارسة والتطبيق
٤٨١	الفصل الحادي عشر: التجميع والتركيب: ممارسة البحث النسوي وتطبيقه بقلم : شارلين ناجي هيسي-بايير

تقديم

البحث النسوي والترجمة النسوية

يأتي كتاب "البحث النسوي: ممارسة وتطبيقاً" ليقدّم إضافة بارزة ومهمة في مجال العلوم الاجتماعية والدراسات النسوية. وهو إصدار حديث نسبياً، إذ صدر عام 2007 عن دار نشر سيج، وهي من أبرز دور النشر الأكاديمية والمتخصصة. وقد جاء الكتاب نتاج جهود مجموعة من الباحثات المتخصصات في مناهج البحث النسوي، حيث قام بتأليف الكتاب كل من شارلين ناجي هيسي-بايير وباتريشا لينا ليفي، وذلك في إطار عمل جماعي، اشتركت فيه باحثات بكتابة فصول الكتاب بالإضافة إلى فكرة جديدة تبناها الكتاب، ممثلة في مقاطع "ما وراء الستار" التي تتضمن مساهمات من التجارب الشخصية والخبرات الميدانية، ليكون مجمل المشاركات والمشاركين في تأليف الكتاب حوالي عشرين باحثة وباحث (واحد). وينطلق الكتاب من قاعدة فكرية نسوية تتجلى في شكل الكتاب ومضمونه، إذ يجمع بين النظرية والممارسة، أي التنظير على أساس التجارب (البحثية) المعيشة. كما أنه يقوم على فكرة دمج المنظور النسوي في أبحاث العلوم الاجتماعية؛ ليخلق بالتالي خارج إطار تخصص معرفي واحد أو مجال بحثي بعينه نحو رحابة الدراسات البينية.

وتجيء في مستهل الكتاب دعوة لنا بوصفنا قارئات وقراء؛ للتعرف على البحث النسوي وتطبيقاته وممارساته، وللانضمام كباحثات إلى مدارس البحث النسوي على تنوع مناهجه. ويضم الكتاب ثلاثة أبواب، يعرض الباب الأول عدداً من المقاربات النسوية إلى الإستمولوجيا والنظرية، ويركز تحديداً على طرح مفاهيم الوضعية النسوية (feminist empiricism)، وإستمولوجيا الموقعية النسوية (feminist standpoint epistemology)، وكلٌّ من ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية النسوية. وينتقل الباب

الثاني إلى قضايا المنهجية النسوية؛ إذ يأتي بقدر من التفصيل بناء على التجارب البحثية، والممارسات الميدانية، وتطبيقات مناهج البحث في العلوم الاجتماعية من منظور وبأسلوب نسويين؛ فيقدم لنا نماذج لممارسات البحث النسوي وتطبيقاته في عقد المقابلات النسوية، والتاريخ الشفاهي النسوي، والإثنوجرافيا النسوية، والمنهج النسوي في تحليل المضمون، والمقاربات النسوية للبحث متداخل المناهج، واستطلاعات الرأي النسوية. بينما يُختتم الكتاب بالباب الثالث الذي يقدم نموذجا متكاملًا لمشروع بحث نسوي، بدءًا من مرحلة الإعداد ووضع خطة البحث وانتهاء بعملية كتابة البحث ونشره.

ويدلنا الكتاب - من عنوانه وعبر صفحاته - إلى عدة نقاط جديرة بالتأمل؛ فهو ينطلق من كونه مدخلا إلى مناهج البحث النسوي بجوانبها النظرية والميدانية. وتتأكد قيمة الكتاب التعليمية في كونه يعتمد كثيرا على تقديم الخبرات والتجارب السابقة مشفوعة - عادة - ببعض الملاحظات والإرشادات غير المباشرة التي تساعد الباحثة والباحث على فهم النظرية من خلال تطبيقاتها، واكتساب أهم المهارات النظرية المشجعة على الممارسة الميدانية. ومن هنا ينجح الكتاب في الربط بين الأطر المعرفية والنظريات العلمية ومناهج البحث المتنوعة، مع تقديم أمثلة مباشرة على كيفية القيام بأبحاث في العلوم الاجتماعية، وخاصة في مجال الأنثروبولوجيا والإثنوجرافيا وعلم الاجتماع وعلم النفس، وذلك باستخدام منظور نسوي، أي دمج المنظور النسوي في العلوم الاجتماعية. ولا تقتصر فائدة الكتاب على الباحثات والباحثين في العلوم الاجتماعية، بل تتجاوزهم، إذ يحمل الكتاب قيمة لكل المهتمات والمهتمين بمناهج البحث النسوي عبر مختلف التخصصات، سواء في العلوم الاجتماعية أو الدراسات الإنسانية أو الدراسات النسائية بشكل عام. كذلك تتمثل أهمية هذا الكتاب كأداة تعليمية في أسلوب كتابته، الذي يميل إلى مخاطبة قرائه (وفي أحيان كثيرة نجد الخطاب موجها إلى القارئات والباحثات تحديدًا)، وذلك في أسلوب أقرب إلى الحوار لا الاستعراض أو التوجيه، وأكثر اهتمامًا بالعلاقات التبادلية بين مختلف الأطراف.

واعتقد أن من أهم مزايا هذا الكتاب هو نجاحه في التناول المفصل لكيفية دمج المنظور

النسوي في مناهج البحث المختلفة؛ بما يخلق ممارسات جديدة في البحث النسوي . فلا يدعي الكتاب خلق منهجيات نسوية جديدة ، بل ينطلق من مناهج أبحاث العلوم الاجتماعية ذاتها ، على اختلاف مجالاتها وتنوعها ، فيشرح تلك المناهج التقليدية ويوضح تطبيقاتها ، ثم ينتقل إلى الكشف عن كيفية نجاح باحثات نسويات في إضفاء البعد النسوي وتطبيق النظرية النسوية واستخدام المنظور النسوي بما يؤدي إلى ترسيخ البحث النسوي في العلوم الاجتماعية . ومن هنا نجد أن عناوين فصول الكتاب تجمع بين النسوية ومناهج البحث المعروفة في مجالات البحوث الاجتماعية والإنسانية ، ذلك مع التركيز على الجانب التطبيقي وتجارب العمل الميداني . وفي نفس الوقت الذي يتم فيه إضفاء المنظور النسوي على البحوث الاجتماعية ، ينجح الكتاب في إلقاء الضوء على أهم القيم والمفاهيم النسوية على مستوى النظرية والتطبيق والتجارب المعيشة . فيؤكد الكتاب على أهمية ”المطاوعة“ لدى الباحثة أو الباحث كقيمة نسوية ، وعلى الأخلاقيات المهنية في المسار البحثي ، وعلى إدراك علاقات القوى القائمة بين طرفي البحث .

بناء المعرفة

من المبادئ الراسخة في الفكر النسوي عامة والبحث النسوي تحديدا قضيتان هما بناء المعرفة البديلة وتحقيق التغير الاجتماعي . وتعتمد مسألة بناء المعرفة البديلة على مراجعة المعرفة السائدة التي تكشف النسويات عن مواضع غياب وإقصاء النساء وإسكات أصواتهن مع تغييب التجربة النسائية وتجاهلها . ومن هنا تلتفت مناهج البحث النسوي على وجه الخصوص إلى تجارب النساء وأصواتهن في بناء معرفة بديلة قائمة على حيوات النساء وتجاربهن المعيشة بشكل عام ، في إطار علاقات القوى السائدة في المجتمع . وتحرص مناهج البحث النسوي على الربط المستمر بين كافة أشكال التمييز ، والمساحات التي تتقاطع فيها قضايا النوع والأصل والعرق والانتماء الطبقي والمكانة الاجتماعية وغيرها من الفئات والعناصر التحليلية . وهكذا يكاد يشير كل فصل من فصول هذا الكتاب إلى دور البحث النسوي في بناء المعرفة ودمج معارف النساء كباحثات و ”مبحوثات“ في بنية تلك المعرفة البديلة التي لا تقتصر على صوت سائد ولا على معرفة مهيمنة ، وهو ما يرد

بشكل مباشر في الفصل التاسع من هذا الكتاب حين تتحدث المؤلفتان عن أهداف البحث النسوي في تسمية ما هو غير مسمى ، وفي الكشف عما هو غير مرئي في "أنماط إنتاج المعرفة التقليدية" (Feminist Research Practice, p. 276) .

ومن جانب آخر يتفق التوجه العام للمشاركات والمشاركين في تأليف هذا الكتاب مع النسوية كفكر وممارسة وحركة سياسية هادفة إلى إحداث تغيير اجتماعي أساسه الكشف عن أوجه الظلم والعمل على تحقيق العدالة الاجتماعية بين الجنسين . بل ولا يقتصر الأمر هنا على علاقات النوع ، وإنما يمتد هذا المبدأ النسوي فيتم تطبيقه منهجيا في إطار البحوث الاجتماعية لتحقيق توازن في علاقات القوى لا بين الجنسين فحسب ، بل وبين طرفي كل علاقة يتمتع أحد طرفيها بامتيازات أو سلطة ، كما هو الوضع في علاقات البحث بين الطرف القائم بالبحث والطرف الخاضع للبحث . فيأتي الباب الثالث من هذا الكتاب مفردا جزئية تتناول تجارب النساء باعتبارها خارطة لتحقيق العدالة الاجتماعية ، التي تبدأ بوعي النساء بأن تجارب كل واحدة منهن ليست مجرد تجربة ذاتية منفردة ، وإنما هي جزء من منظومة مجتمعية متكاملة تضع النساء في مكانة أدنى وتخل بالتالي بميزان العدالة الاجتماعية . وهو وعي جعل النساء يدركن أن ما يتعرضن له ليس قدرا بيولوجيا طبيعيا حتميا لا فكاك منه ، وإنما هو نتاج أدوار تم تشكيلها وبنائها في إطار المنظومة الأبوية وفرضها عليهن . كما أن تنامي هذا الوعي "مكن النساء من مقاومة التصورات الاجتماعية السائدة" ومكنهن من أن يقمن بصياغة حيواتهن وأن يسكن طرقا في الحياة تتجاوز حدود تلك الأدوار (Feminist Research Practice, 62) . وهكذا يطرح هذا الكتاب - بقوة - نفسه باعتباره فعلا سياسيا من أجل التغيير الاجتماعي ، يسعى من خلال الجهد البحثي والممارسة الميدانية إلى الإسهام في صياغة معرفة بديلة تعمل على تمكين النساء وتحقيق العدالة الاجتماعية .

الترجمة النسوية

بعد عقد من انطلاق الموجة الثانية من النسوية ، التي دخلت المجال الأكاديمي باعتبارها منهجا فكريا تعليميا تحرريا بمسمى الدراسات النسائية (Women's Studies) ، صدر

في ثمانينات القرن العشرين كتاب عن "تغيير الذهنية: التحولات النسوية في المعرفة"، تتحدث محرراته جماعيا في الفصل الختامي عن إشكاليات دمج المنظور النسوي في المقررات التعليمية. وقد أفردت الكاتبات جزئية من هذا الفصل تتناول "مشكلة الترجمة" (The Problem of Translation)، والمثير في الأمر أن الترجمة هنا لا تشير إلى نقل نص إلى لغة أخرى بالمعنى اللغوي، وإنما تعني "ترجمة" الفكر النسوي في سياق الخطابات الفكرية والأكاديمية السائدة، وهي الإشكالية التي أوردُ جزءا منها فيما يلي:

على مدار الندوات والسمينارات وجد العديد من المشاركين والمشاركات فيها أن الخطابات حول النوع (الجندر) غريبة ومزعجة جدا. وكنا قد قللنا من شأن أثر السنوات الطوال التي قضيناها في تناول تلك القضايا بما جعلنا نملك أسلوبا رمزيا يكاد يكون مختزلا في التعبير اللغوي الذي كنا نجده، بينما لم يتمكن هؤلاء المشاركون والمشاركات من ترجمته أو الحديث به. فصار -بالتالي- أمامنا تحدٍ لإيجاد مستوى من الخطاب يصل إلى غير العارفين بالفكر النسوي، مع احتفاظ هذا الخطاب في نفس الوقت بقدر من الرصانة تعبر عما يحمله من عمق وتعقيد. فلم يكن من الكافي أن نعرض المنظومات النسوية ونقدمها للمشاركين والمشاركات، وإنما قضينا الكثير من الوقت في شرح المفاهيم الأساسية، وتعريف المصطلحات المحورية، وتصحيح المفاهيم الخاطئة الناجمة عن الفهم الجزئي غير الشامل للموضوع. (Changing Our Minds, p. 142)

إن السطور السابقة تشير إلى نقطة جوهرية ألا وهي مسألة صعوبة طرح منظومة فكرية جديدة وخطاب نسوي في إطار المعرفة والخطاب السائد. وهي مشكلة تتمثل أعلاه في نقل ذلك الخطاب النسوي داخل إطار لغوي واحد (اللغة الإنجليزية المتداولة في هذه الحالة)، والتي تتحول إلى مشكلة بل وأزمة عند طرح خطاب جديد في إطار لغوي مختلف. فإذا كانت هؤلاء الباحثات النسويات قد واجهن صعوبات في الحديث عن "قضايا النوع" إلى جمهور يتحدث نفس اللغة (لغويا) دون معرفة بالخطاب (معرفيا)،

فلنتخيل معاً مدى صعوبة ترجمة هذا الفكر النسوي إلى لغة أجنبية وسياق ثقافي ومعرفي مغاير. وهو التحدي الذي واجهته خلال الفترة التي عكفت فيها على ترجمة هذا الكتاب من الإنجليزية إلى العربية. وكما تخبرنا نظرية الترجمة (Translation Theory) ودراسات الترجمة (Translation Studies) فإن الترجمة ليست مجرد نقل نص من لغة إلى أخرى بل هي نقل نص من ثقافة إلى نص في ثقافة مغايرة، بما يتطلبه ذلك من إجادة تامة للغتين ومعرفة عميقة بالثقافتين. ويضاف إلى هذا وذاك نقل نص في مجال غير مألوف من ثقافة ما إلى نص في مجال غير مألوف في ثقافة مغايرة، وهو ما ينعكس على الترجمة إذ تحمل غربة و غرابة: غربة اللغة و غرابة الموضوع واختلاف السياق الثقافي.

ومن هنا فإن ترجمة الفكر النسوي إلى اللغة العربية يستدعي في رأيي عدة شروط أساسية لضمان دقة الترجمة لغوياً وصحة نقل الفكر معرّفياً، وهي شروط يمكن إيجازها في الآتي: (1) الفهم العميق للمفاهيم الفكرية ولتطور النظرية النسوية ومصطلحاتها. (2) إدراك خصوصية الخطاب النسوي من حيث توجهه إلى النساء أساساً في سبيل رفع الوعي النسوي، بما قد يتطلبه ذلك من تأنيث النص العربي. (3) الوعي بعلاقات القوى الكامنة في فعل الترجمة، من حيث دور المترجمة أو المترجم في الوساطة بين النص الأصلي والنص المترجم وسلطة التحكم في كيفية هذا النقل. (4) التعامل مع ترجمة النص النسوي باعتباره فعلاً سياسياً يسعى إلى بناء معرفة جديدة نسوية باللغة العربية، بالإضافة إلى إنتاج نص (مترجم) باللغة العربية يساهم في إحداث تغيير اجتماعي من خلال رفع الوعي وتمكين النساء معرّفياً.

وقد سعيت خلال عملي على ترجمة هذا الكتاب المهم في البحث النسوي على الالتزام بتلك الشروط.

أولاً: جاءت موافقتي على ترجمة الكتاب انطلاقاً من تخصصي الأكاديمي في النظرية النسوية والدراسات النسائية، وهو المجال الذي قررت - منذ سنوات - التخصص فيه بحثاً وترجمة، وبالتالي لدي معرفة دقيقة بالفكر النسوي ومصطلحاته وجهود ترجمته خلال العقدين الماضيين منذ بدأ طرح قضايا النساء والنوع (الجنس) باللغة العربية. وقد

كنت أرجع في أحيان كثيرة إلى مصادر في النظرية النسوية للتيقن من بعض المفاهيم النسوية، ومنها "قاموس النظرية النسوية" لصاحبه ماجي هم، وغيره من المصادر النسوية. أما فيما يتصل بمصطلحات العلوم الاجتماعية، فمنها ما هو معروف لي في إطار الدراسات الثقافية، ومنها ما كنت أتثبت منه بالرجوع إلى "معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية". وقد جمعت في الترجمة بين معرفتي بالنظرية النسوية والعلوم الاجتماعية وبين اهتمامي بالترجمة، نظرية وممارسة. ولعل من أهم المفاهيم التي استلزمت مني اختيار الترجمة الملائمة لها هي مفهوم "gender"، والذي تتنوع صيغ ترجمته إلى اللغة العربية ما بين كلمة "الجنوسة" و"النوع الاجتماعي" و"النوع" و"الجندر". ونظرا لأن كلمة "النوع" صارت مألوفة كترجمة لمفهوم "gender" في العلوم الاجتماعية، فقد أثرت استخدامه عنه بديلا عن البدائل الأخرى التي قد تكون هي الأنسب في تخصصات معرفية أخرى.*

ثانيا: من المعروف في اللغة الإنجليزية أن الأسماء لا تأتي إلا على شاكلة واحدة، وهو ما لا ينطبق على اللغة العربية التي تكون الأسماء فيها إما مؤنثة أو مذكرة. وبالتالي فإن كلمة مثل "researcher" باللغة الإنجليزية لا تشير إلى جنس بعينه وإنما هي اسم محايد ينطبق على الباحث أو الباحثة. وقد لاحظت في فصول الكتاب أن بعض المؤلفات يوجهن خطابهن إلى النساء، وهو ما لا يتضح من صيغة الاسم "researcher" وإنما عند استخدام ضمائر الغائبة، إذ عادة ما يتم استخدام "she" كضمير عائد على "researcher". ومن هنا حرصت على ترجمة الاسم إلى صيغة المؤنث في اللغة العربية "الباحثة" حين يكون من الواضح أن الاسم يشير إلى المؤنث، وفيما عدا ذلك اخترت أن أستخدم صيغة "الباحثة أو الباحث" كترجمة لكلمة "researcher" وصيغة "الباحثات والباحثين" كترجمة لصيغة الجمع "researchers". وهو ما طبقته كمنهج في ترجمة الأسماء عبر صفحات الكتاب تأكيدا على تواجد النساء كطرف أساسي يخاطبه الكتاب وبالتالي لا يجوز تجاهله أو تغييبه باستخدام صيغة جمع المذكر السالم.

* للمزيد عن ترجمة المصطلحات المتعلقة بقضايا النساء والجنس، يمكن الرجوع إلى المقالة التالية:

Hala Kamal, "Translation Women and Gender," in WSQ: Women's Studies Quarterly, 36: 3&4, Fall/Winter 2008 pp. 254-268.

ثالثاً: تعلمنا نظرية الترجمة ودراسات الترجمة أن فعل الترجمة يعتمد على الوساطة، فالترجمة أو المترجم ناقل للمعرفة من لغة إلى لغة، ومن نص إلى نص. وبالتالي توضح سوزان باسنيت في كتابها عن "دراسات الترجمة"، أن الترجمة من منظور النظرية الأدبية (Literary Theory) تجمع بين علم اللغويات (linguistics)، وبين نظرية التلقي (reception theory)، وبين نظريات التأويل والتمثيل (interpretation and representation). فأنا كـمترجمة أقوم بنقل النص اعتماداً على قواعد لغوية، كما أنني في الوقت نفسه أقرب من النص أساساً كقارئة أولاً، ثم أقوم بترجمة ما فهمته بناءً على تأويلاتي؛ لينتهي الأمر بتقديم نص جديد ليس صورة مطابقة للنص الأصلي بقدر ما أقرب إلى تمثيل لذاك النص (Translation Studies, p. 80). ولذا وجب على المترجمة والمترجم الأمين الوعي بدورهما كوسيطين في نقل المعرفة الاقتراب من النص بأكبر قدر ممكن من الدقة وتأمل الذات والحذر من عدم الوقوع في فخ ترجمة تصوراتهما أو تأويلهما للنص بدلاً مما يحمله النص ذاته. ومن هنا التزمت في الترجمة بأكبر قدر من الدقة وما يكاد يقرب من الترجمة الحرفية كي لا أفرض موافقي أو تفسيري الشخصي أو تأويلاتي على النص، مع أهمية تأكيدتي هنا على وعيي بأن ذاتي بلا شك كامنة داخل الترجمة العربية سواء عبر حصيلتي اللغوية أولاً واختياراتي في الترجمة التي قد تعبر عن مساحات معرفية حاضرة أو غائبة أو كامنة. ولضمان أكبر قدر من الدقة في ترجمة المفاهيم والمصطلحات حرصت على وضع المصطلحات في أصلها الإنجليزي بين قوسين عند أول ورود لها في النص، كي أرشد القارئة أو القارئ إلى الأصل وإدخال القراء طرفاً في فاعلاً وربما مساهماً في الترجمة دون أن أحتكر ترجمة المصطلحات الجديدة وغير المألوفة أو أدعي أن ترجمتي هي المقابل المعادل الوحيد للمصطلح الأصلي.

رابعاً: إنني أعتبر ترجمة النص النسوي في حد ذاتها فعلاً سياسياً. فمن خلال قيامي بنقل الفكر النسوي الغربي إلى اللغة العربية أعتقد أنني أساهم في تمكين الباحثات والباحثين العرب من التعرف على ما يتم إنتاجه من فكر ونظرية ومناهج بحث وتطبيق في العالم، بما يضيف إلى بنيتنا المعرفية ويمكننا من الإمساك بأدوات البحث ومناهجه

المختلفة بما يحقق لنا، نساء ورجالا، قدرا من التمكين المعرفي والقدرة على المقارنة والاختيار والنقد والخلق والإبداع. كما أن ترجمة النص النسوي هي في رأيي نشاط نسوي لما ينتج عنه من بناء معرفة نسوية جديدة باللغة العربية تساعد النساء على مزيد من الوعي وامتلاك أدوات التحليل والتعبير والتعرف على أنماط المقاومة والفعل نحو التغيير. وإنني أعتبر قيامي بترجمة أي نص نسوي بمثابة إسهام في بلورة خطاب نسوي مصري وعربي، يكون نتاجا للتواصل المعرفي، ودافعا لمزيد من الفهم والنقد والمواجهة والاعتقاد والرفض، وكافة أشكال التفاعل البناء، بما يؤدي إلى زيادة الوعي بقضايا النساء والعمل على إحداث تغيير اجتماعي أساسه العدالة على كل المستويات، في تقاطعاتها ونقاط التماس بين النوع والطبقة والأصل وغيرها من عناصر التمييز بين البشر.

وفي هذا السياق يحضرني تعريف جيردا ليرنر للوعي النسوي باعتباره يشير إلى وعي النساء بأنهن ينتمين إلى فئة ثانوية مستضعفة، وأنهن تعرضن للظلم والأذى جماعيا كفئة، وأن وضعهن الدوني في المجتمع ليس أمرا طبيعيا بل هو محدد اجتماعيا، وأن عليهن الاتحاد مع غيرهن من النساء لمواجهة ما يعانين منه من أذى وظلم، وأخيرا أن عليهن وفي استطاعتهم طرح رؤية بديلة للنظام الاجتماعي تتمتع فيه النساء والرجال على السواء بالاستقلالية وحق اتخاذ القرار (The Creation of Feminist Consciousness, p. 14). وختاماً أود أن أؤكد أنني حاولت نقل نص الكتاب من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية، وكلي أمل أن يمثل هذا الكتاب حلقة في حلقات رفع الوعي النسوي وتمكين النساء معرفيا وبلورة رؤية بديلة لمجتمع يسوده العدالة الاجتماعية على كافة المستويات. ومن جانب آخر فإنني أمارس الترجمة من منطلق السعي إلى ترجمة نص نسوي ترجمة تلتزم بشكل النص الأصلي ومضمونه ورسالته، وجهد يتم في إطار ما تطلق عليه شيري سايمون "التحالف بين دراسات الترجمة والنسوية" (Gender in Translation, p. 8). كما أن طموحي كمتترجمة ونسوية يجعلني أمل أن أعمل كمتترجمة لا يقتصر همها على ترجمة كتاب فحسب، وإنما تسعى إلى إنتاج ترجمة نسوية لنص نسوي.

المصادر:

- Aiken, Susan Hardy et al. (Eds.). *Changing Our Minds: Feminist Transformations of Knowledge*. State University of New York Press, 1988.
- Bassnett, Susan. *Translation Studies*. London and New York: Routledge, 1980.
- Hesse-Biber, Sharlene Nagy, and Patricia Lina Leavy. *Feminist Research Practice*. Sage Publications, 2007.
- Humm, Maggie. *The Dictionary of Feminist Theory*. Ohio State University Press, 1990.
- Simon, Sherry. *Gender in Translation: Cultural Identity and the Politics of Transmission*. London and New York: Routledge, 1996.
- محمد الجوهري، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية: إنجليزي-عربي، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010.

هالة كمال

شكر وتقدير

إننا نعبر عن تقديرنا لما حصلنا عليه من عون من أشخاص دعموا الجهود الرامية إلى إصدار هذا الكتاب . ونقدم بالشكر إلى الباحثات النسويات اللاتي سمحن لنا بالتواجد معهن "ما وراء الستار" حيث شاركننا رواياتهن الشخصية وآراءهن الخاصة بالبحث النسوي ، ذلك إلى جانب كل الباحثات والباحثين الذين شاركوا بفصول في هذا الكتاب .

ونشعر بالامتنان تجاه طالباتنا وطلابنا لدورهم في إلهامنا ودعمنا . ونود أن نعبر عن تقديرنا لمساعدات ومساعدتي البحث الذين جاؤونا من عدة جهات . فمن كلية بوسطن جاءت كولي هورنر وميليسا ريكر وفيث كيرباتريك بما أضيفينه على العمل من طاقة وجهد في إعداد مخطوطة هذا الكتاب ، كما نعبر عن شكرنا لهن لما قمن به من جهد في التحرير والبحث في المصادر . كذلك نتقدم بالشكر إلى مكتب منح أبحاث التعليم الجامعي في كلية بوسطن .

ونتقدم بالشكر العميق إلى طالب الدراسات العليا في كلية ستونهيل ، بول ساكو؛ لما قدمه من فائق العون في عرض الأدبيات ومراجعة طباعة الكتابة ومتابعة العمل اليومي . والشكر كذلك للطالبتين في كلية ستونهيل ، كيم فولي وكريستينا نيكاسترو لمراجعة الشكل النهائي للمخطوطة استعدادا للطباعة؛ ولجهدهما عموما كمساعدتين للبحث . وكذلك نشكر الطالبة في كلية ستونهيل ، كاثرين مالوني؛ لما قدمته من عون في عرض الأدبيات المتعلقة بالفصل الخاص بنسوية ما بعد الحداثة ، وأيضا طالبتَي الدراسات العليا في كلية ستونهيل ، لورين شاردي ولياندراسمولين ، لمساعدتهما لنا في عرض الأدبيات المتعلقة بالفصل الخاص بالتاريخ الشفاهي النسوي وتحليل المضمون النسوي ، وطالبة الدراسات العليا في كلية ستونهيل لورا ماكفي لما قدمته من مساعدة . ونشعر بالامتنان

نحو كل من بوني تروب وكاثي كونروي ، مديرتي برنامج ”المدرسة الصيفية في تجربة البحث الجامعي“ (SURE: Summer Undergraduate Research Experience) في كلية ستونهيل ، والذي حصلنا من خلاله على مساعدة من الدرجة الأولى لمشروعنا هذا . وتقدم باتريشا بالشكر إلى نائبة رئيس كلية ستونهيل للشؤون الأكاديمية ، كاتي كونبوي ، ولعميدة الكلية كارين تالينتينو ، ورئيسة قسم علم الاجتماع ، سوجوارينو ، لرعايتهن ودعمهن من خلال منحها تفرغا من التدريس لتيسير الانتهاء من هذا الكتاب ولدعمهن المستمر لأهداف هيئة التدريس البحثية . كذلك نعرب عن امتناننا لصديقتنا ديبورا لافتن لما قدمته من مساعدة في كتابة مشروع الكتاب . ونود التعبير عن تقديرنا للدعم والحماس الذي وجدناهما لدى العاملين في دار نشر سيج ، وننقدم بالشكر تحديداً إلى أليسون موديت ، وليسا كويغاس شو ، ولورين شيا ، وكارين جرين .

شارلين: أود أن أعبر عن حبي وعميق تقديري لأسرتي ، وتحديدًا ابنتي جوليا أرييل وساره ألكسندرا للصبر والحب والاحتمال . وأعبر عن تقديري الخاص إلى زوجي مايكل بيتر بايبر (الطبيب) لما يقدمه من صداقة وحب ودعم . كذلك أود أن أشكر جودي ويجرين لتشجيعها ونصحها لي ، وأشكر كيرا ستوكس ، مدرّبتني الخاصة التي تذكرني بمدى أهمية الحفاظ على التوازن بين عقلنا وجسدنا وروحنا .

باتريشا: إنني أهدي الجهد الذي بذلته في هذا الكتاب إلى والدي ، بوب ليفي ، الذي يدعمني باستمرار وبكافة الطرق الممكنة ، ودوما بروح محبة لا تعرف الأنانية . أبي ، حين يسألونني عنك ، أجيب دائما بنفس الرد قائلة: ”أبي ببساطة هو الخير“ . إنك شخص مدهش في الاتساق والمسؤولية والكرم والطيبة والخير والفكاهة ، وهي كلها أمور جديرة بالملاحظة والتقدير . وفوق كل شيء لديك قدرة مدهشة فعلا على أن تحب الآخرين بما هم عليه ، بكل ما يحملونه من اهتمامات وغرابة أطوار وعيوب ، وعلى أن تحثني بمن تحبهم لما هم عليه . وهو ما يجعلك شخصا مميزا جدا ، وأنا أحبك بجنون ! أمي ، أشكرك على كونك أفضل أصدقائي أنت وأبي . فأنا أعشّك وأقدرك

أنت أيضا! وكما هو الحال دائما أهدي كتابي أيضا إلى ابنتي الرائعة مادلين كلير التي تستفيد من تضحيات النسويات الرائدات ، والتي ستقوم بلا شك بالمساهمة بطريقتها الخاصة والجميلة في رحلتنا الجماعية. وأخيرا أهدي الكتاب إلى كل النساء القويات اللاتي ساعدنني على صياغة حياتي، وخاصة أينا سميلتنس ، مولي ليفي ، هيلين ليفي ، ليديا فيزبوليس ، بيجي إيفانجيلاكوس ، ليز لوفيري ، تارا ديريكو ، ليندا ليفي ، ألي فيلد ، باتريشا آرنند ، جانيت لاندوا ، ومرة أخرى إلى والدتي الماهرة المدهشة سيفيا ليفي .

تصدير

فلسفة الكتاب التعليمية

البحث النسوي ليس أمراً يمكن - ببساطة - تعلمه من خلال الشرح المكتوب . فكما تعلم كل الباحثات والأكاديميات النسويات ، إن فهم البحث النسوي ممارسة وتطبيقاً لا يتحقق عن طريق قراءة قائمة من المناهج فحسب . فالبحث النسوي عملية معقدة تترابط فيها النظرية والإبستمولوجيا والمنهج ترابطاً حميماً . وفي سبيل تقريب هذا الكتاب إلى الطالبات والطلاب وإلى الباحثات والباحثين المتخصصين على السواء ، ومن أجل سبر أعماق ممارسات البحث النسوي ، قمنا بتضمين خاصية مميزة في هذا الكتاب ، إذ نقدم مقاطع "ما وراء الستار" المثوقة والتي نتحدث عن تجارب الباحثات والباحثين في علم الاجتماع ممن يحرون ويستكشفون مساحات ومستويات جديدة من البحث العلمي .

وعند التفكير في التعقيد الكامن في الكتابة عن البحث النسوي سرعان ما أدركنا أمرين: أولاً ، أن النسوية ليست كياناً واحداً ، كما أنه لا توجد منهجية نسوية في حد ذاتها . فالنسوية نافذة على الواقع الاجتماعي وتشتمل على نطاق واسع من الرؤى والممارسات . وبالتالي فالنسوية متعددة الأصوات . ومع أخذنا ذلك في الاعتبار أردنا التيقن من أن الأصوات النسوية المتعددة تجد لها مساحة في هذا النص . وكان من سبيل تحقيق ذلك الهدف أن ندعو البعض للمشاركة في كتابة بعض فصول هذا الكتاب ، فدعونا بعض الباحثات والباحثين لتأليف الفصول التي شعرنا بأنهم سيقدمون مستوى من المعرفة والأفكار والتجارب يصفونها إلى الموضوع .

كذلك أردنا التيقن من تقديم أصوات متعددة في كل فصول الكتاب . ومن هنا - وبوحي من مفهوم إيرفينج جوفمان بشأن "مقدمة المسرح" و"خلفية المسرح" -

بدأنا في إدراك أن المعلومات المتاحة في كثير من الكتب والتي تتناول مناهج البحث هي معلومات تمثل "مقدمة المسرح" في مسار البحث. وبمعنى آخر، فإن معظم الكتب التي تتناول مناهج البحث تقدم تعريفات لأهم المصطلحات والمفاهيم متنوعة بتوصيفات لمناهج البحث ونماذج لكيفية إعداد خطة مشروع بحثي. إن مثل هذه المقاربة تعجز عن التوصل إلى التعقيد القائم في ممارسات البحث الاجتماعي. فما الذي يوجه اختيارات الباحثات والباحثين من حيث موضوعات البحث؟ كيف تؤثر القنوات الإستمولوجية والالتزامات النظرية على مسار البحث؟ ما القيم والقضايا والدوافع التي يضيفها الباحثون والباحثات على مشروعاتهم؟ كيف تتجلى أخلاق المهنة في الممارسة؟ ما حقيقة الجوانب العاطفية الخاصة بمشروع البحث؟ لماذا يختار البعض مناهج معينة؟ وكيف تعمل تلك المناهج على تقوية البحث؟ إنها كلها أسئلة وأفكار محورية في ممارسات البحث النسوي، وهي تتطلب بشكل قاطع تفاعلا بين مكونات مسار البحث على تعددها. وفي سبيل تناول بعض تلك القضايا تناولا عميقا قمنا بدعوة باحثات نسويات بارزات للمشاركة بالكتابة عن نطاق من القضايا الإستمولوجية والمنهجية، بالإضافة إلى "حكايات من العمل الميداني" إن جاز لنا القول، وهي التجارب التي تمر بها النسويات عند استخدامهن لبعض الخيارات المنهجية المعروضة في هذا النص. إن النصوص الغنية التي شاركننا فيها ترد عبر صفحات هذا الكتاب فيما نطلق عليه مقاطع "ما وراء الستار"، وهي مقاطع تقدم لمحة لما وراء ستار البحث النسوي، أي نافذة تطل على منظور الباحثة النسوية.

الفصل الأول

دعوة إلى البحث النسوي

أبيجيل بروكس
وشارلين ناجي هيسي-بايير

ركوب القطار مع أليس وماري

بينما كانت شارلين تقوم مؤخرا برحلة بالقطار ما بين مدينتي نيويورك وبوسطن، أذهلها حوار دائر بين شابيتين في سن الجامعة جالستين بالقرب منها. ونظراً إلى أن الشابيتين كانتا تتحدثان عن النسويات وما يحملنه من أفكار، فلم تستطع شارلين منع نفسها من الاهتمام بفحوى الحديث. وقد اتضح خلال الحوار أن هاتين الشابيتين، ولنطلق عليهما اسم أليس وماري، كانتا ملتحقتين بجامعة من جامعات القمة، كما قضتا معظم سنوات حياتهما المدرسية في مدارس خاصة. وفيما يلي مقتطف من الحوار الذي دار بينهما طبقاً لما تتذكره شارلين:

أليس: أعتقد حقاً أن النسويات قد تجاوزن الحد، إذ يرين أن النساء يعاملن معاملة ظالمة طول الوقت. فمنذ أيام قابلت مصادفة إحدى صديقاتي من المدرسة الثانوية ووجدتها قد تغيرت جداً - فلم تكن تضع أي مساحيق تجميل وقد قصت شعرها كله فأصبح قصيراً جداً، أما ملابسها، فلم تبد عليها أية مظاهر من الأنوثة على الإطلاق! وعلى أية حال، كانت تجعجع وتهذي حول تدني أجور النساء وتعرضهن للتحرش في أماكن العمل. لم أكن قادرة على مواصلة الاستماع إليها، كما تعلمين.

ماري: إن هؤلاء النساء تغلبهن الأيديولوجيا، يتخذن مواقف راديكالية دون أن تتوفر لهن أية حقائق داعمة! إن صديقتي سالي على هذه الشاكلة تماما، فتظل تردد وتكرر الحديث عن غياب المساواة. أنا عن نفسي لم أتعرض قط للتمييز ضدي وأشعر أن الحركة النسائية هي أمر عفا عليه الزمن. أما هؤلاء الفتيات، فهن غير قادرات على تجاوز تلك المرحلة، كما تعلمين.

ونحن إذ ننتقل في رحلة هذا الكتاب، لا يمكننا أن نمنع أنفسنا من التفكير في الحوار الذي دار في رحلة القطار تلك، ونود أن نشرك قراءنا معنا. فإن آراء أليس وماري بشأن الهوية النسوية ومفهوم النسوية هي أفكار تشكلت بطريقة أو بأخرى بفعل تجاربهما اليومية، فباعتبارهن من نساء الطبقة الوسطى العليا الملتحقات بجامعة عريقة من جامعات القمة، ربما لم تتعرض أي منهما للتمييز على أساس الجنس في حياتهما اليومية. ولا يبدو أن النسوية تحتل جانبا محوريا في عالم أليس وماري، ولا تؤثر على حياة أشخاص ضمن دائرة معارفهما أو شبكات علاقاتهما الشخصية والعائلية. فبالنسبة لهما تمثل القضايا التي تنادي بها النسويات أمورا من الماضي، إذ تريان أن اهتمام النسوية بقضايا العدالة الاجتماعية والتغيير الاجتماعي لصالح النساء هي أمور ذات طبيعة أيديولوجية وغير موجودة على أرض الواقع. كما أن لدى كل منهما صورا تنميطية وآراء منمطة حول النسويات (بلا مسباحيق تجميل، والشعر القصير، وانعدام الأنوثة)، كما تعتبران النسويات فئة واحدة موحدة بما يوحي بأن النسويات جميعا يحملن نفس الأفكار السياسية والصورة الجسدية.

فما الذي عسانا نقوله لكل من أليس وماري عن النسويات والنسوية لو أتاحت لنا فرصة الدخول في حوار معهما؟ سنبدأ حينها بالقول إن النسويات يأتين في كل الأحجام والأشكال والألوان، وترتدي بعضهن ملابس من أعرق بيوت الأزياء مثل نيمان ماركوس وشعورهن طويلة، كما أن البعض الآخر منهن لا يملك القدر الكافي من المال لشراء أدوات التجميل أو الملابس المواكبة للموضة، بل ومنهن من لا يؤمن بتلك

الأفكار الخاصة بالجمال والأناقة. ومن النسويات نساء متزوجات أو يرتبطن بعلاقات مستقرة، بأطفال أو بدون أطفال. ومنهن العازبات، وبعضهن هوياتهن الجنسية مثلية (gay) والبعض الآخر هوياتهن الجنسية غيرية (straight)، وأخريات هوياتهن الجنسية متحولة (transgendered). كما أن منهن المتدينات وغير المتدينات. وبالتالي فإن الفكرة القائلة بوجود هيئة أو تصرف أو سلوك محدد للنسويات في الحياة هي فكرة إنما تعمل على ترسيخ الصور النمطية التي تبعد أليس وماري عن الهموم والقضايا النسوية.

وتنتمي النسويات إلى طبقات وأعراق وثقافات مختلفة، كما مررن بتجارب حياتية مختلفة، وبينما تشترك الكثيرات منهن في بعض الأهداف المشتركة، كالمساواة بين الجنسين (gender equality)، والعدالة الاجتماعية للنساء، والتأكيد على هموم وقضايا النساء وغيرها من الفئات المقهورة، إلا أن النسويات جميعا لسن على نفس الشاكلة ولا يشتركن في نفس القيم والرؤى والاهتمامات. إن أليس تعرف امرأة نسوية قصيرة الشعر ولا تضع مساحيق التجميل، وتعتقد مواقف قوية، وهي ناشطة نسوية. وفي الوقت الذي تنظر فيه أليس إلى تلك الخصائص نظرة سلبية، إلا أنها يمكن بسهولة أن تمثل تلك الخصائص نفسها بالنسبة لامرأة أخرى مزايا إيجابية، وتضفي على التوجه النسوي جوانب إيجابية. ولكن الأمر الذي يجعل الاستنتاج الذي توصلت إليه أليس وماري استنتاجا خاطئا تماما -ويطلب ترابطا منطقيا غائبا تماما- هو الفرضية التي يقوم عليها هذا الاستنتاج والقائل بأن كل النسويات قصيرات الشعر، ولا يضعن المساحيق ويعتقدن نفس الآراء والتصورات.

وربما لم تواجه أليس وماري في حياتهما اليومية أي تحيز أو تمييز ضدهما على أساس الجنس (gender-related bias)، ولا عايشتا القهر أو النضال المتعلق بكونهما من جنس النساء، ولكنه من الضروري مع ذلك الاعتراف بأن غالبية الآراء ووجهات النظر النسوية ليست مجرد أفكار أو أيديولوجيات، وإنما تضرب بجذورها في حيوات النساء ونضالهن وتجاربهن الحقيقية. ويمكن في الواقع إرجاع الغياب الظاهري

لتعرض أليس وماري للتمييز والتحيز على أساس الجنس، إلى حد كبير، إلى العمل الشاق والجهد النسوي المتواصل الذي تقوم به النساء على مدار العقود الأخيرة. إن المكاسب التي حققتها الباحثات والناشطات النسويات ومساهماتهن، سعياً للقضاء على الصور النمطية واسعة الانتشار لكلا الجنسين (gender stereotypes) ولتحسين أوضاع النساء من حيث الحقوق والمساواة على مستوى العالم، هي مكاسب ومساهمات مهمة ولا يجب اعتبارها بالأمر البسيط. فإن العديد من الكليات ومؤسسات التعليم العالي لم تفتح أبوابها أمام النساء إلا خلال السنوات الخمس والعشرين إلى الخمس والثلاثين الأخيرة. كما أن القوانين التي تحمي النساء من التحرش الجنسي في مكان العمل لم تؤت ثمارها إلا في بداية التسعينيات من القرن العشرين. كذلك فإننا نرى انضمام النساء إلى القوى العاملة والتحاقهن بمهن كانت في السابق حكراً على الرجال، مثل المحاماة وإدارة الأعمال، والطب، وذلك بأعداد كبيرة، كما تناقصت معدلات التمييز ضد النساء على أساس الجنس في التعيين والترقي. ولكن من ناحية أخرى، تظل المرأة تحصل على نسبة 70% من الراتب الذي يحصل عليه الرجل في الوظائف المعادلة لها، كما تنخفض نسب تمثيل النساء في مجالات العلوم والهندسة وفي المناصب العليا في المحاماة وإدارة الأعمال والطب. إن عدم توفر خدمات رعاية الأطفال بمقابل مادي مقدور عليه، وبيئات العمل التي تنفقد إلى المرونة في الشركات الكبرى يمكن أن تجعل من الصعب على الكثيرات من النساء العاملات تحقيق توازن بين العمل والأسرة. كذلك فإن تأنيث الفقر في تزايد مستمر - إذ تشكل النساء والفتيات نسبة كبيرة ومتزايدة من الفقراء على مستوى العالم - كما أن العنف ضد النساء والفتيات يواصل اتساعه عالمياً متخذاً أشكالاً جديدة ومؤذية للغاية (انظر/ي: Hesse-Biber & Carter, 2005).

إن آلاف النساء من كل أرجاء العالم يواجهن مجموعة متنوعة من التحديات بشكل يومي، كما أن هنالك العديد من أشكال النضال والفعل التي تتفاعل معها ونشارك فيها من منطلق كوننا نساء. إن القضايا الموصوفة أعلاه إنما تمثل حفنة من القضايا والهموم العديدة المتمحورة حول النساء، والتي لا تزال تحفز الناشطات النسويات على

العمل ، والتي تؤكد أهمية وجود بحث نسوي متمحور حول النساء . ولعل القول مع ذلك بأن معظم النسويات ، سواء من الناشطات أو الباحثات أو كليهما ، مازلن يشتركن في بعض الهموم والأهداف والالتزامات الحورية ، بما فيها منح صوت لحيوات النساء وتجاربهن ، وتحسين نوعية وفرص وخيارات الحياة بالنسبة للنساء والفتيات ، والقضاء على عدم المساواة والقهر الواقع على النساء على أساس الجنس .

ما البحث النسوي؟

إن البحث النسوي في الأساس "متصل من حيث المبدأ بالنضال النسوي" (انظر/ي: Sprague & Zimmerman, 1993, p. 266). فالبحث النسوي يتصدى للبنى الفكرية والاجتماعية والأيدولوجيات القائمة على قهر النساء ، وذلك عبر توثيق حيوات النساء وتجاربهن وهمومهن ، وإلقاء الضوء على الأنماط والتحيزات القائمة على أساس الجنس ، والكشف عن معارف النساء التي طال إغفالها . كما أن أهداف البحث النسوي تعزز تمكين وتحرير النساء وغيرهن من المجموعات المهمشة ، وعادة ما تقوم الباحثات النسويات بتطبيق نتائجهن التي توصلن إليها في سبيل تشجيع التغيير الاجتماعي وتحقيق العدالة الاجتماعية للنساء .

وإذا كنا لا نستطيع اختزال كل النساء في مجموعة واحدة ذات تجربة أو عرق أو طبقة أو ثقافة موحدة ، فمن نفس المنطلق لا يوجد منهج أو منهجية أو إبستمولوجيا (نظرية المعرفة) واحدة يقوم عليها البحث النسوي ، إذ تتبع الباحثات النسويات وجهات نظر مختلفة ، ويطرحن أسئلة مختلفة ، ويعتمدن على مجال رحب من المناهج والمنهجيات ، ويطبقن رؤى متعددة بما يعلي من وعينا بالأيدولوجيات والممارسات المتحيزة جنسيا ، والمعادية للمثلية الجنسية ، والعنصرية والاستعمارية . ونجد بعض النسويات يستخدمن المنهجيات التقليدية ، ولكن مع طرح أسئلة جديدة تتضمن قضايا وهموم النساء ، بينما

تقوم أخريات بإعادة صياغة أو حتى إحداث زعزعة جذرية، للمعارف والمنهجيات التقليدية. وفي الواقع فإن بعض الباحثات النسويات يواصلن جهودهن لتطوير معارف ومنهجيات وأساليب بناء المعارف تتسم كلها بالجدة، وذلك في سبيل الكشف عن الجوانب الخافية والمخفية من حيوات النساء وغيرهن من الفئات المهمورة، واستعادة المعرفة التي طال إغفالها.

إن البحث النسوي هو مشروع شامل يتضمن كافة مراحل العملية البحثية، من النظرية إلى التطبيق، من صياغة أسئلة البحث إلى كتابة نتائج البحث، كما أن الباحثات النسويات يؤكدن على التداخل القائم بين نظرية المعرفة والمنهجية والمنهج، وينصب اهتمامهن على الطرق المختلفة التي تتفاعل بها رؤية الباحثة للواقع ومدى تأثيرها في كيفية قيامها بجمع وتحليل مادتها (انظر/ي: Charmaz, 2006; Hesse-Biber & Leavy, 2006). إن الإيستمولوجيا (epistemology) هي "نظرية المعرفة" التي تحدد مجموعة من الفرضيات عن العالم الاجتماعي وعن الشخص الذي يمكن أن يكون عارفا والأشياء القابلة للمعرفة، (انظر/ي: Harding, 1987, p. 3). ويقوم الباحث أو الباحثة باتخاذ القرارات المتأصلة في تلك الفرضيات والتي تؤثر على موضوع الدراسة (بناء على ما يمكن دراسته) وكيفية القيام بالدراسة. أما المنهجية (methodology) فهي النظرية الخاصة بكيفية القيام بالبحث أو كيفية مواصلته (ص 3 من المرجع السابق)، وأخيرا فإن المنهج (methodology) هو "آلية (أو أسلوب مواصلة) جمع الأدلة" (ص 2 من المرجع السابق).

ويأتي على رأس المهام التي يقوم بها هذا الكتاب تقديم فهم عملي لكيفية قيام النسويات ببناء المعرفة عبر ممارسة البحث، وهو ما يعني عدم الاكتفاء بتقديم النظريات التي قامت الباحثات النسويات بتطويرها والتي يعتمد عليها البحث النسوي، وإنما يتضمن أيضا تقديم كيف تقوم الباحثات النسويات بتطبيق تلك النظريات في مشروعاتهن البحثية.

فما العلاقة بين نظرية ما من نظريات بناء المعرفة أو الإطار الإيستمولوجي المعرفي، والأسئلة التي تطرحها الباحثة النسوية، وبين المناهج والأساليب التي تستخدمها في جمع مادتها؟ وكيف يمكن للأسئلة التي تطرحها الباحثة النسوية أن تؤثر على اختياراتها للمناهج والأساليب المتبعة؟ وكيف تصوغ إطارها الإيستمولوجي؟ ونأمل في هذا الكتاب أن نعرفك على مجال متنوع من الأطر النظرية والمعرفية، والمنهجيات والمناهج والأساليب والأسئلة البحثية التي تشكّل البحث النسوي. وأخيرا فلا يمكننا التقليل من قدر التداخل القائم بين البحث والعمل النسوي. وسوف نعرفك في هذا الكتاب على الطرق الكثيرة التي يمثل بها العمل النسوي مكونا أساسيا ودافعا للنسويات خلال كافة مراحل العملية البحثية، من حيث الأسئلة مرورا بالمناهج وانتهاء بالنتائج.

أصول البحث النسوي؟

إنه لمن غير المنطقي ولا المعقول، بل وحتى من المستحيل، أن نناقش البحث النسوي دون أية إشارة إلى العمل النسوي (activism)، وذلك لأن البحث النسوي يضرب بجذوره وترجع أصوله إلى سياق الموجة الثانية من الحركة النسوية.¹ فمع مشاركة الباحثات وال طالبات في مجموعة رفع الوعي النسوي على مدار الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، تزايد إدراكهن للتناقض الجلي بين تجاربهن الحياتية باعتبارهن نساء وبين نماذج البحث والدراسات ونتائج البحث السائدة. وطبقا للباحثة في علم الاجتماع النسوية دوروثي سميث (Dorothy Smith) فإن النظريات والمناهج التي كان يتم تدريسها لم تنطبق على "ما كان يحدث" تبعا "لتجارب" الطالبات (Smith, 1987, p. 86). وقد أدت هذه التناقضات بالباحثات النسويات الأوليات إلى تسليط الضوء على أحد أوجه القصور في عدد من التخصصات الأكاديمية وفي التوجه السائد في بحوث العلوم الاجتماعية، والذي يتمثل في إلغاء النساء وعدم وجود تمثيل دقيق لتجارب

النساء . فكثيرا ما كان يتم إغفال النساء أصلا في الدراسات وفي عينات البحث ، كما أن الموضوعات البحثية تجاهلت باستمرار الالتفات إلى أنشطة وتجارب النساء ولم تأخذها في الاعتبار . كذلك فإن الأطر النظرية والمنهجية السائدة أثبتت -في العادة- عدم فاعليتها والعجز عن التعبير الكامل عن وجهات نظر النساء . إن فشل الدراسات الأكاديمية والبحوث السائدة في "منح صوت" لأنشطة النساء وتجاربهن ووجهات نظرهن هو الذي دفع الباحثات والأكاديميات النسويات الأوليات إلى السعي لإيجاد علاج لهذا القصور والإغفال ، وتمثلت أشكال هذا العلاج في إعادة صياغة الآليات النظرية والمنهجية التقليدية بل وإيجاد نماذج بحثية جديدة .

نقد النسوية للنظرية الوضعية

لقد وجهت النسويات نقدا قويا لإحدى أكثر المنظومات انتشارا في العلوم الاجتماعية ، أي النظرية الوضعية² (positivism) ، وذلك عبر لفت الانتباه إلى اختفاء تجارب النساء في بحوث العلوم الاجتماعية ، وإلى التناقض بين تجاربهن كنساء وبين النتائج التي تتوصل إليها الدراسات السائدة في العلوم الاجتماعية . وترجع النظرية الوضعية إلى نهايات القرن التاسع عشر ، ونشأت وتطورت من رحم الحركة العقلانية (rationalism) وحركة التجربة العملية الإمبريقية (empiricism) الأوروبيتين . فالفكر العقلاني القائم على المنهج الديكارتي في الفصل بين العقل والجسد مع تفضيل العقل على المجالات الجسدية والذاتية والعاطفية من ناحية ، والمنهج الإمبريقي الذي يركز على الملاحظة الموضوعية وجذوره المتأصلة في الثورة العلمية من ناحية أخرى ، اشتركا معا في وضع قاعدة المنظومة الوضعية في علم الاجتماع . ونجد أن علماء الاجتماع الوضعيين ، مثلهم في ذلك مثل أصحاب المنهج العقلاني والإمبريقي ، يؤكدون على وجود واقع موضوعي أو حقيقة راسخة في انتظار من يكتشفها . كما يدعون إلى تطبيق مناهج محددة لإلقاء الضوء المناسب على تلك الحقيقة الموضوعية .

وتقوم المنظومة الوضعية على وجود واقع خارجي أو موضوعي يقوم مقام الأساس لكل من "الواقع" و"الحقيقة"، وبالتالي لابد من البحث عن المعرفة العالمية العامة والثابتة غير المتغيرة والنقية البحتة داخل ذلك الواقع الموضوعي، حيث يمكن التوصل إليها. إن عالم الاجتماع الكلاسيكي إميل دوركهايم (Émile Durkheim) (1938/1965)، وانطلاقاً من التراث الوضعي، يميز بين الحقائق والقيم، فيرى أن القيم تنبع من الوعي الفردي وبالتالي ليست سوى تأويل يحمل متغيرات، بينما تقع الحقائق "خارج العقل الإنساني" ولها "وجود مستقل خارج الوعي الفردي"، وهي بالتالي موضوعية وغير متغيرة وغير معرضة للتلوث. أي أن الحقائق "بعيدا عن كونها نتاجا للإرادة... هي التي تحدد الإرادة من الخارج" (ص 20 من المرجع السابق).

ومن خلال تشجيع عملية اكتشاف "الحقائق" لزيادة المعرفة بالواقع الموضوعي والحقيقة العامة غير المتغيرة، يدعو الوضعيون إلى استخدام أدوات قياس موضوعية ومحايدة كالتي يطبقها الباحث الموضوعي المتحرر من المعايير القيمية (value-free). وطبقا لما يراه جون ميرفي (John W. Murphy) فإن "الوضعية تتضمن كون الآليات المنهجية خالية من المعايير القيمية... فمن خلال تتبع بعض الآليات يمكن التغلب على التأويل والكشف عن الحقائق" (Murphy, 1989, p. 38). وفي كتابه عن "قواعد المنهج الاجتماعي" (The Rules of Sociological Research)، يقدم لنا دوركهايم (Durkheim 1938/1965) مجموعة من الإرشادات أو المناهج التي يجب بالضرورة تطبيقها للقيام ببحث موضوعي خال من المعايير القيمية، بما يؤدي في نهاية الأمر إلى الكشف عن الحقيقة العامة أو المعرفة المطلقة أو طبقا لدوركهايم "الحقائق الاجتماعية" (social facts). والمناهج التي يدعو إليها دوركهايم هي في أغلبها مناهج كمية في طبيعتها، كما تظل النظرية الوضعية تقدم الأساس الإستمولوجي النظري المعرفي للبحوث الكمية. وعادة ما يستخدم الباحثون الكمّيون البيانات الاستطلاعية والتحليل

الإحصائي لا اختبار الفرضيات والعلاقات السببية، وذلك لقياس الأنماط وساعة النطاق والتنبؤ بها، وللتوصل إلى نتائج تعتبر قابلة للتعميم.

انطلاقاً من تجارب النساء التي سبق أن كانت مخفية، وبالكشف عن ندرة تمثيل تلك التجارب داخل منظومة البحث الوضعي، ومع تسليط الضوء على كثرة طرق التناقض بين تجارب النساء ونتائج البحث السائد، وجهت النساء تحدياً مهماً لما يطلق عليه الحياد القيمي للعلوم الاجتماعية الوضعية. إن ما قامت به الأكاديميات والباحثات النسويات من إلقاء الضوء على تجارب النساء أدى إلى زعزعة ما تدعيه النظرية الوضعية من امتلاك زمام المعرفة العامة، وما يطلق عليه المنهجيات الموضوعية التي تصاحب هذا الادعاء وتبرره. فقد قامت النساء -حقاً- بالكشف عن سيادة المنظومة الوضعية باعتبارها ترجع إلى موقعها المتميز داخل مجموعة علاقات القوى الأبوية التاريخية والمادية والاجتماعية، لا موضوعيتها وعمومها. وباختصار فعلى الرغم من كافة الدعاوى الخاطئة، فإن بناء المعرفة لم يكن قط عملية خالية من المعايير القيميّة، وإن الواقع الاجتماعي لم يكن ساكناً، وإن النظرية الوضعية أو مناهج البحث في العلوم الاجتماعية عموماً لم تقع قط خارج عالم الحياة الاجتماعية.

إن النص التالي من "ما وراء الستار" يتضمن مقطعاً من مقابلة تمت مع الباحثة والفيلسوفة النسوية الشهيرة ساندرا هاردينج (Sandra Harding) بعنوان "بدءاً من الحيات المهمشة: حوار مع ساندرا هاردينج: "Starting from Marginalized Lives: (A Conversation with Sandra Harding)، وهي المقابلة التي قام بها كل من إليزابيث هيرش وجاري أولسون (Elizabeth Hirsch and Gary A. Olson, 1995). وتقوم فيها إليزابيث هاردينج بتنفيذ ادعاءات الوضعيين بالتزام الموضوعية والحياد القيمي، كما تنقد المعايير والمناهج التقليدية المصاحبة لتلك الادعاءات. كذلك نجدها تلقي ضوءاً على الطرق المختلفة التي تم بها إقصاء وتهميش النساء من التراث المعرفي الغربي

السائد على مدار التاريخ. ولكن وبخلاف بعض الأكاديميات والباحثات النسويات، فإن إليزابيث هاردينج لا ترفض مفهوم "الموضوعية" تماما، وإنما تقوم باستعادته وإعادة تعريفه وإعادة تسميته بمسمى "الموضوعية القوية"، بحيث لا يقتصر الأمر على إدراج تجارب وأصوات الآخر المهمش، بما في ذلك النساء، بل إنها تجعل من تلك التجارب والأصوات نقطة انطلاق لبناء المعرفة. فالباحثات والأكاديميات اللاتي يمارسن "الموضوعية القوية" لا ينطلقن من موقع ما يطلق عليه الحياد القيمي، وإنما يكون لديهن التزام سياسي واجتماعي واضح بشأن تقوية الادعاءات الخاصة بالحقيقة الصادقة والموضوعية التي تتسم بها المعرفة، أي -وبمعنى آخر- أخذ أصوات وتجارب الفئات الخاضعة للإسكات والتهميش في الاعتبار.

ما وراء الستار مع ساندرا هاردينج

س: لقد أكدت في كثير من أعمالك على أن "الوصول إلى أقصى درجات الموضوعية في البحوث الاجتماعية لا يتطلب الحياد القيمي التام، وإنما يتطلب التزاما من الباحثة أو الباحث ببعض القيم الاجتماعية المعينة." ثم تقومين بتوضيح أن "البحث الاجتماعي الموجه بواسطة بعض القيم الاجتماعية المعينة يمكن أن يفوق في موضوعيته البحث الذي لا تلعب فيه هذه القيم أي دور." فهل بوسعك تقديم المزيد من الإيضاح لمفهوم "الموضوعية القوية"؟

ج: بداية فهناك نطاق ما من القيم الاجتماعية (إن أردت التعبير عنها هكذا)، والمصالح التي لا يكون من الممكن لمعايير الموضوعية التقليدية التوصل إليها، ألا وهي القيم أو المصالح التي يشترك فيها دعيني أطلق عليه "المجتمع العلمي" بأكمله. وهي ليست مشكلة من اختراع النسوية أو بالتأكيد ليست من اختراعي

أنا ، وإنما هي المشكلة التي يتحدث عنها الباحث "كون" (Kuhn) حين يتناول التحولات التي تطرأ على المنظومات ، إنها قضية من قضايا المعرفة . فقد أصبح لدينا الآن تاريخ طويل ، يمتد إلى ثلاثة عقود أو أكثر ، في الغرب من التشكك في أن ما يقوم الغرب بالإعلاء من شأنه هو معيب وأن الطرق المتعارف عليها التي تسعى إلى البلوغ بتلك المفاهيم المعيبة إلى أقصى مدى لم يثبت في الواقع أي فاعلية . ومرة أخرى أكرر أنني أحاول الإشارة إلى أن الأمر لم تثره المجموعات "الراдикаلية" ، وإنما أثاره أشخاص مثل ريتشارد بيرنستين (Richard Bernstein) على سبيل المثال . ففي كتابه "ما وراء الموضوعية والنسبية" (Beyond Objectivism and Relativism) يقوم بمراجعة المشاكل القائمة في التيارات المختلفة في العلوم الاجتماعية والفلسفة والتي ترتبط بمفهوم الموضوعية ، ويبدو في كل حالة منها أن الأمر يرجع إلى نفس النقطة: أي المنظومات والأطر الفكرية التي تتحدد المناهج في داخلها . وبالتالي لا يمكن لتلك المناهج أن تحول منظورها لتأمل الإطار الفكري الذي أوجدها أصلا ، أليس كذلك؟ وهو الأمر الذي يمثل بالطبع الموقف الفكري الذي تم تصعيده بقوة في الفكر النسوي والفكر المناهض للعنصرية وما إلى غير ذلك . فالأمر لا يتعلق بالتحيز الجنسي (sexism) لدى الأفراد ، وإنما يتعلق الأمر بالفرضيات المتمحورة حول الرجل (androcentric) في النظم الفكرية للفلسفة وعلم الاجتماع والاقتصاد .

ودعوني أقدم بعض الأمثلة الواضحة من مجال تخصصي . فلنتأمل المفاهيم السائدة عن الطبيعة الإنسانية في التراث الفلسفي . يقول أرسطو إن الإنسان حيوان عاقل ، بينما يتم وصف النساء باستمرار ، منذ أرسطو وكل من تبعه ، باعتبارهن عاطفيات مهمومات بمشاعرهن وغير عقلانيات . وبالتالي يمكن القول إنه لا يمكن إضافة "النساء كحيوانات عاقلة" في النظام الفكري الذي تم تعريفه أصلا باعتباره نظاما فكريا ضد الأنوثة . وبالتالي تكون المحصلة النهائية هي أن مفهوم المرأة العقلانية

يعتبر - بشكل ما - مفهوما متناقضا في حد ذاته في إطار هذا النظام الفكري . ولكن تظل تلك النقطة فرضية غير ملحوظة إلى أن يتم محاولة إدخال فئة كاملة سبق وأن تم إقصاؤها من داخل تلك المنظومة . كذلك يقول أرسطو إن ما يميز الإنسان هو أنه حيوان سياسي - أي يبني طريقة حياته عبر الخطاب العام والاجتماعات العامة - ومع ذلك تم إقصاء النساء من المشاركة في المجال العام . ويمكننا أن نتبع كل تعريف لما يميز البشر لنلاحظ أنه تم إقصاء النساء منه . فبالنسبة لمفهوم "العامل" الذي اهتم به تحديدًا ماركس (Marx) ، تم إقصاء النساء من مواقع العمل المأجور التي كان ماركس يقصدها عند تأمله أوضاع بروليتاريا القرن التاسع عشر . فإذا انتقلنا إلى مفهوم "البشر باعتبارهم مستخدمين للغة" ، فنجد أن المرأة الصالحة كالطفل يجب أن تكون مرئية ولكن غير مسموعة . فلم يسمح للنساء بالخطابة على الملأ . ويمكننا أن نتوقف أمام طرق علم الاجتماع في تعريف المجتمع باعتباره بناء مبنيا بفاعلين مرئيين ومتحركين من العامة ، لا من منطلق الطرق المرئية والمتحركة بقدر أقل في المجتمعات التي تنتمي إليها النساء وغيرهن من المجموعات المهمشة والتي تقوم في إطارها بالإسهام في تنظيم المجتمع . ويمكننا تأمل أي تخصص أو فرع معرفي لنجد أن المناهج المتعارف عليها للوصول إلى أقصى درجات الموضوعية هي مناهج غير قادرة على التوصل إلى تلك الفرضيات والمصالح الكبرى والمشاركة والتي تقوم في الواقع بتحديد وتعريف الأطر الفكرية لهذا المجال المعرفي . وبمعنى آخر ، فإن الطريقة التي يقوم بها المنهج العلمي المتبع في أي فرع معرفي بمحاولة تعريف وتحديد العوامل الاجتماعية إنما تتم بواسطة تكرار الملاحظات على أعداد من الأفراد - أي يتم تكرار التجربة باستخدام شخص آخر لاختبار مدى صحة الافتراض - ولكن إذا كان كل الناس القائلين بتكرار التجربة مشتركين في نفس القيم ، كما هو الحال بالنسبة للأعضاء المنتمين إلى ثقافة ما ، عندها يكون هذا المنهج المستخدم معيبا . وهكذا فإن مفهوم الموضوعية القوية يسعى إلى تطوير معايير أكثر قوة . لقد قامت النسويات ومناهضو العنصرية

وغيرهم من أعضاء الحركات الاجتماعية الجديدة ، قطعاً ، بنقد مفهوم الموضوعية بعدة طرق ، ولكنهن في الأغلب يريدن الحصول على روايات أكثر موضوعية . إننا في حاجة إلى روايات أكثر موضوعية نتناول كيف تعمل أجسادنا؟ وكيف يعمل الاقتصاد السياسي العالمي؟ وما الذي يسبب الدمار البيئي؟ وما تداعيات التصنيع المستقبلية على البيئة وعلى البنية الاجتماعية؟ وهلم جرا . فنحن لسنا في حاجة إلى روايات أقل موضوعية ، ولسنا في حاجة إلى روايات ذاتية . فالمشكلة تكمن في أننا قد حصلنا على روايات ذاتية - أو ربما الأدق أن نطلق عليها روايات متمحورة حول الإنسان (ethnocentric) . ومن هنا فإن الموضوعية القوية هي القضية المتعلقة - وببساطة متناهية - بأن نتعلم رؤية أنفسنا كما يرانا الآخرون . (وكما قال الشاعر روبرت بيرنز (Robert Burns) "أه لو منحتنا قوة ما هبة/ أن نرى أنفسنا كما يرانا الآخرون!") إنه منطق يدفع للخروج من الإطار الفكري ، بإطلاق المشروعات البحثية ، وإطلاق فكرنا بشأن أية ظاهرة معينة ، انطلاقاً من خارج الإطار الفكري السائد . إن الحيوانات المهمشة تمثل على الأقل موقعا واحدا جيدا ، واستراتيجية واحدة جيدة للقيام بذلك . إن إطلاق الفكر حول المفاهيم الغريبة للعقلانية والانطلاق من حيوات البشر الذين تعرضوا للإقصاء والذين يتم الادعاء بكونهم عاجزين بطبيعتهم الجسدية عن التعبير عن تلك العقلانية - كالأقليات العرقية ، والطبقة العاملة ، والمثليات والمثليين ، والنساء من المجموعات العرقية المتنوعة - هي أسلوب جيد للتمكن من تحديد تلك القيم والمصالح المشتركة على نطاق واسع والتي قامت بصياغة الأساليب السائدة في التفكير حول مفهوم العقلانية .

المصدر: Hirsch and Olson (1995)

ومن جوانب عدة ، فإن المنهج الإمبريقي النسوي (feminist empiricism) ، الذي يتم تناوله في الباب التالي ، يتضمن ممارسة "الموضوعية القوية" . وتظل غالبية

النسويات اللاتي يتبعن المنهج الإمبريقي ملتزمات بتحقيق نتائج بحث موضوعية، ولكنهن مع ذلك ينقدن الادعاءات الخاصة بالموضوعية والحياد القيمي في مناهج ونتائج البحث الوضعي التقليدي، وذلك لأن تلك المناهج والنتائج تظل قاصرة عن أخذ حيوات وتجارب النساء في الاعتبار. وتسعى هؤلاء الباحثات النسويات إلى إنتاج نتائج أكثر قوة وأكثر موضوعية وأكثر صدقا عبر إدراج النساء في دراساتهم البحثية وبواسطة توثيق حيوات النساء وتجاربهن التي سبق أن تعرضت للتهميش أو الإغفال التام في التراث المعرفي السائد.

تعديلات نسوية على المنظومة الوضعية

لا تزال بعض الباحثات النسويات يشعرن بحميمية تجاه الخصائص المعرفية والمنهجية الأساسية التي يتسم بها البحث الوضعي (من حيث كون المعرفة الموضوعية الخالية من المعايير القيمية موجودة وقابلة للتوصل إليها عبر تطبيق أدوات القياس المحايدة والخالية من المعايير القيمية)، مع دعوتهن إلى إعادة صياغة المقاربات المنهجية الوضعية التقليدية بحيث تتضمن تجارب النساء. وهناك باحثات نسويات أخريات يرفضن المنهج الوضعي أساسا ويركزن جهودهن على تطوير أطر معرفية ومنهجية بديلة، وربما يفضلن في ذلك البحث الكيفي باعتباره أكثر اتساقا مع أهدافهن البحثية وقناعاتهن المعرفية.

إن الباحثات النسويات اللاتي يواصلن التزامهن بالمبادئ الأساسية للمنهج الوضعي، مثل إمكانية تطبيق مناهج البحث الخالية من المعايير القيمية والتوصل إلى نتائج بحث موضوعية، يطلق عليهن في العادة مصطلح النسويات الإمبريقيات³ (feminist empiricists). ولكنهن مع ذلك سعين إلى تحسين درجة الدقة والموضوعية في البحث الوضعي بواسطة تعديل المناهج الوضعية التقليدية بحيث تأخذ في اعتبارها أنشطة وتجارب النساء. كما قمن بجهود من أجل إدراج النساء في عينات البحث،

ولتوجيه البحوث لتتضمن موضوعات وقضايا تهتم النساء، وإعادة صياغة بعض المناهج الوضعية التقليدية بما يعكس تجارب النساء بقدر أكبر. وتؤكد بعض النسويات الإمبريقيات أن هذه الآليات الجديدة في مناهج البحث الوضعية، بما تتضمنه من إدراج لأنشطة وتجارب النساء، تزيد من إمكانيات تحقيق نتائج بحث موضوعية وقابلة للتعميم.

إن البيانات والمواد الإمبريقية الجديدة التي تجمعها الباحثات النسويات تساهم في "إصلاح الأوضاع" بالكشف عن تجارب الكثيرات من النساء والتي سبق أن تعرضت للإسكات أو النسيان. . كما اعتمدت الباحثات النسويات أيضا على نقاط القوة في المنهج الوضعي وذلك في توثيق التشكيل الاجتماعي لأدوار الجنسين، وفي جمع أدلة جديدة من أرض الواقع مما يمثل تحديا لأنماط الأنوثة السائدة. فعلى سبيل المثال نجد أن البحث الأرشيبي الذي قامت به لوريل ثاتشر أولريخ (Laurel Thatcher Ulrich) (1991)، يعلمنا درسا في الشجاعة والمهارة التي تمتعت بهما امرأة أمريكية تعمل مولدة في نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن العشرين. كذلك استخدمت جوان جينسين (Joan M. Jensen, 1977) المواد والبيانات الأرشيفية في توثيق مظاهر السلطة والسيطرة السياسية التي زاولتها نساء أمريكا الأصلية المنتميات إلى قبيلة سينيكا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. كما أن تحليل المضمون الأرشيبي الذي قامت به روث ميلكمان (Ruth Milkman, 1987) يعمل على توثيق إعادة التشكيل والتفكيك الراديكالي لأدوار النساء في الإعلام الأمريكي، وذلك خلال الحرب العالمية الثانية وفي أعقابها، بينما نجد أن تحليل السرد الذي قامت به إميلي مارتن (Emily Martin, 1991) يكشف عن سيادة صور نمطية وتحيزات على أساس الجنس متأصلة في وصف العملية الإنجابية في الكتب التعليمية السائدة في مجالي الطب والبيولوجيا. وما سبق لا يمثل سوى النزر القليل من فيض البيانات والمادة الإمبريقية التي جمعتها باحثات نسويات بما يكشف عن تجارب النساء التي سبق أن كانت مجهولة و/أو مقموعة، وبما يزعزع المعتقدات

الجمهورية التقليدية بشأن قدرات وتصرفات النساء . وعن طريق جمع المواد والبيانات الإمبريقية الجديدة تواصل الباحثات النسويات علاج أوجه القصور والحذف ، بل ويعملن على تحسين الموضوعية والدقة الإمبريقية ، في الدراسات والنماذج والنتائج البحثية السائدة . ويتم في الفصل الثاني من هذا الكتاب عرض المساهمات الكبيرة التي تقوم بها النسويات الإمبريقيات .

البدائل النسوية للمنظومة الوضعية

كما سبق أن ذكرنا أعلاه ، تواصل الكثيرات من الباحثات النسويات ، ومنهن النسويات الإمبريقيات ، إعادة صياغة وتعديل جوانب من المنظومة الوضعية بحيث يتم إدراج تجارب النساء مع الالتزام بالمبادئ والأهداف الوضعية الأساسية الخاصة بمناهج البحث الموضوعية والخالية من المعايير القيمية ، وبإمكانية التوصل إلى نتائج بحثية محايدة وقابلة للتعميم . وقد قامت بعض الأكاديميات والباحثات النسويات الأخريات (بما في ذلك - مؤخرا- بعض النسويات الإمبريقيات) بتوجيه نقد أعمق للمنظومة الوضعية ، مع مواجهة الآليات المنهجية المصاحبة لها والفرضيات المعرفية التي تقوم عليها . ولكن بدلا من تعديل المناهج الوضعية لتحسين إمكانيات القيام بأبحاث خالية من المعايير القيمية بما يؤدي إلى التوصل إلى نتائج عامة موضوعية ، تصرح الكثيرات من النسويات بشكوكهن حول قابلية تطبيق مناهج البحث المحايدة والخالية من المعايير القيمية وفائدتها ، وكذلك التشكيك في مفهوم الموضوعية نفسه في المنهج الوضعي ، فيطرحن السؤال التالي: هل يمكن لما يطلق عليه البحث الخالي من المعايير القيمية أن يمنح الصوت كاملا لمعارف وتجارب النساء؟ وأخيرا فإن المنهجيات التي تنبع من المنهج الوضعي كثيرا ما تعتمد على الفصل الصارم بين الطرف الحامل للمعرفة أي العارف ، وبين الأمر الذي يعتبر قابلا للمعرفة . وبمعنى آخر ، فهناك خط فاصل بين الذات والموضوع ، بين الباحث والمبحث . وفي نماذج البحث الوضعي ، قد يتمتع

الباحث بوضع مميز باعتباره الطرف العارف ، ويحتل موقعا أعلى من المبحوث ، وهو الشكل الذي تقوم نسويات كثيرات بالتشكيك في فائدته وجوانبه الأخلاقية .

وتؤكد هؤلاء الباحثات والأكاديميات النسويات على أنه في سبيل تسليط المزيد من الضوء على معارف وتجارب النساء ، يتعين علينا الانخراط في ما تطلق عليه دوروثي سميث (Dorothy Smith) "أسلوب تفكير بديلا" (Smith ، 1990 ، p. 20) بشأن البحث وبناء المعرفة .⁴ إن هذا الأسلوب البديل في التفكير يدحض المفهوم الوضعي الخاص بوجود واقع اجتماعي ثابت وغير متغير أو وجود حقائق "هناك" في انتظار من يكتشفها ، ويرفض قابلية وجود باحث موضوعي وقابلية تطبيق أدوات الملاحظة التجريبية المحايدة والخالية من المعايير القيمية . ولكن الأمر الأكثر أهمية يتمثل في أن هذه المقاربة المنهجية تعمل على دمج عناصر التأويل والذاتية والعاطفة والتجسد داخل عملية بناء المعرفة ، وهي عناصر ارتبطت تاريخيا بالنساء وتم استبعادها من البحث الوضعي السائد . وقد بدأت بالفعل باحثات وأكاديميات نسويات عديدات في إلقاء الضوء على مصادر جديدة ممكنة للحصول على المعرفة والفهم من داخل تجارب النساء المعيشة وتأويلاتهن وذواتهن وعواطفهن . وبدلا من النظر إلى تلك الجوانب باعتبارها ملوثات أو معوقات تحول دون الكشف عن الحقيقة الموضوعية ، توضح الباحثات النسويات كيف أن الالتفات إلى التجارب المعينة ووجهات النظر المحددة للبشر ، باحثين ومبحوثين على حد سواء ، قد يصبح في الواقع أداة لبناء المعرفة والفهم العميق .

وتعتبر كل من جويس ماكارل نيلسين (Joyce McCarl Nielsen ، 1990) ، ودونا هاراواي (Donna Haraway ، 1991) ، وأليسون جاجر (Alison Jaggar ، 1997) ، وهيلين لونجينو (Helen Longino ، 1999) ، مجرد نماذج للأكاديميات والباحثات النسويات اللاتي يواصلن توسيع نطاق إمكانات قيام أشكال مفيدة وجديدة للبحث خارج الإطار الوضعي الإمبريقي . وتثير جويس ماكارل نيلسين انتباهنا إلى الحقيقة التي مفادها أن كل الباحثات والباحثين يحملون آراءهم العامة وتواريخهم وسير

حياتهم معهم عند قيامهم بالمشروعات البحثية، بينما تقوم دونا هارواي باستكشاف مواقع بناء المعرفة. وطبقا لجويس ماكارل نيلسين فإن الآراء العامة ليست بالضرورة مفسدة للمعرفة أو الحقيقة، بل يمكن اعتبارها بمثابة "خرائط" ترشد الباحثين والباحثات إلى موضوعات بحثية معينة يشعرون نحوها بالحميمية، أو توجههم صوب مبحثين يبادلونهم مشاعر الألفة والتواصل. كذلك تؤكد دونا هارواي على أنه لا يجب النظر إلى موقعنا -أي سيرة حياتنا وتاريخنا ومكاننا- باعتباره حائلا يعوق التواصل إلى المعرفة أو الحقيقة، بل يمكنه أن يوفر لكل منا أسلوبا فريدا لرؤية العالم، وبمعنى آخر "أداة تركيز للرؤية" ("focusing device") قد نتمكن من خلالها من إدراك و/أو رؤية و/أو فهم الظواهر بطرق لا يستطيعها الآخرون.

وتقوم كل من هيلين لونجينو وأليسون جاجر بإلقاء الضوء على التداخلات القائمة بين المعرفة والجسد من ناحية والمعرفة والعاطفة من ناحية أخرى. فمن خلال استعادة مجالي الجسد والعاطفة باعتبارهما مصادر للمعرفة، تقوم الباحثتان بتنفيذ الفصل بين العقل والجسد تبعا للمنطق الديكارتي العقلاني (حيث اعتبر ديكارت الجسد مرتبطا باللاعقلانية والعاطفة والخداع، وليس سوى العقل، أو "الذات المنزهة عن الجسد"، قادرا على القيام بأفعال العقل الصرف)، وكذلك دحض المذهب الإمبريقي الوضعي بشأن المراقب الموضوعي المنفصل والمنزه عن المعايير القيمية. وترى لونجينو (Long-ino 1999)، أن المعرفة تكون "ممكنة للذات المتجسدة" وأن أجسادنا تقع في "أماكن معينة، وأزمة معينة، وفي علاقة معينة ببيئاتها" (ص 133 من المرجع السابق). إن مواقع أجسادنا لا تمثل مصادر ملوثة لبناء المعرفة بل "مصادر معرفية" توجه انتباهنا إلى "ملاحم... كنا في الحالات الأخرى سنغفلها [تأكيد أضافته المؤلفة]" (ص 335 من المرجع السابق). وكذلك تدعونا أليسون جاجر إلى عدم تنقية أنفسنا من عواطفنا للتوصل إلى شيء من الحقيقة أو المعرفة الموضوعية، بل تطالبنا بتوجيه قدر أكبر من الانتباه إلى مشاعرنا والإنصات إليها بقدر أكبر من الاهتمام. إذ تعتبر أليسون جاجر

العاطفة "ملمحا ضروريا من ملامح المعرفة بأكملها ومفاهيم المعرفة كافة" (Jaggar، 1997، p. 190)، فالعواطف تمنح حياتنا معنى وتساهم في بقائنا أحياء، فنتبهن متى "نلامس أو نعانق" ومتى "نقاتل أو نفر" (ص191 من المصدر السابق).

وتصرح هؤلاء الأكاديميات والباحثات النسويات بأننا باستبعاد الفرضيات الوضعية بشأن الباحث المتحرر من المعايير القيمية، ووجود حقيقة موضوعية، وإمكانية التوصل إلى حقيقة عامة وثابتة وموضوعية، لا نفقد قدرتنا على بناء المعرفة. بل إننا في الواقع بدلا من تنحية العاطفة والذاتية الإنسانية، والتجارب المعيشة الفريدة، والمواقف العامة من الحياة، باعتبارها جميعا ملوثات أو معوقات في رحلة البحث عن المعرفة، يمكننا تبني هذه العناصر لاكتساب رؤى وفهم جديد، أو بمعنى آخر، اكتساب معرفة جديدة. فلماذا إذن تقوم الباحثات والباحثون باختيار موضوع بعينه، في الوقت الذي يمكنهم دراسة موضوع من ضمن عدد لانهائي من الموضوعات، ومن عدد لانهائي من الزوايا؟ إن التجارب الشخصية والعواطف والمواقف العامة لدى أي باحث أو باحثة تمثل دافعا وراء صياغة مشروع بحثي ما أو موجهها لاختيار موضوع بحثي معين. فعلى سبيل المثال، إذا كانت مسألة العنف المنزلي أو اضطرابات الطعام قد مست حياتك بشكل ما أو إذا كانت لديك قوة تدفعك للعمل في سبيل تحقيق المساواة والأمان للنساء أو الفتيات، قد تصبح تلك الموضوعات مجالا لاهتمامك البحثي. فبدلا من الابتعاد والانفصال عن عواطفك، قد يصبح مشروعك البحثي مشتقا منها أو على الأقل من مجالات اهتماماتك، والتي تشكلت بفعل عدة عوامل.

إن هذا الإطار المعرفي النسوي يقدم شكلا وتطبيقا جديدا في البحث بحيث يتضمن بالضرورة عناصر كالتجربة الشخصية والذاتية والموقع والموقف العام من الحياة والعواطف، كما يوجه إليها الكثير من الاهتمام. فكما أوضح هيلين لونجينو، إن هذا الشكل الجديد من البحث النسوي هو "أمين ومحمل بالقيم" في آن واحد (Longino، 1999، p. 349). ولكن كيف تقوم الباحثات النسويات فعلا بجمع مادة بحثهن داخل

هذا الإطار المعرفي النسوي الجديد؟ وكيف تتداخل قضايا التجربة والموقع والذاتية والعاطفية والتجسد وتتفاعل مع عملية البحث النسوي ، وتؤثر في نوعية الأسئلة التي تطرحها النسويات والمناهج التي يستخدمونها؟ ويمكننا هنا الرجوع إلى مقولة دوروثي سميث عن علم الاجتماع: "إن لم يستطع علم الاجتماع تجنب خضوعه لموقع معين ، فيجب على علم الاجتماع بالتالي اعتبار ذلك نقطة بداية له وأن يدخلها ضمن استراتيجياته المنهجية" (Dorothy Smith ، 1990 ، p. 22) ، وأن نطبقها على العديد من التخصصات التي تقوم النسويات بأبحاثهن فيها . وسيتم في هذا الكتاب تعريفك بالاستخدامات الجديدة والابتكراة التي تقوم بها النسويات في آليات وتقنيات المقابلات الشخصية والتاريخ الشفاهي والإثنوجرافيا . فسنقوم على سبيل المثال بتتبع أساليب المقابلات المشتركة حيث يؤدي فيها "التفاعل" بين الباحثة والمبحوثة/المبحوث إلى "إنتاج مادة البحث" . (Anderson & Jack ، 1991; Charmaz ، 1995 ، p. 9) ، كما تعتمد الباحثة على تجاربها الشخصية في "الصياغة المشتركة" لفردات جديدة تعكس بقدر أكبر من الدقة مشاعر وتجارب الطرف المبحوث (DeVault ، 1990) . وبالفعل فهناك تزايد في صراحة الباحثات النسويات بشأن مواقعهن ووجهات نظرهن ومواقفهن العامة ، كما يتزايد انخراطهن في العمل المشترك مع مبحوثيهم خلال كافة مراحل العملية البحثية ، بداية من جمع البيانات والمعلومات والتحليل (Borland ، 1991) ، انتهاء بالكتابة والتأليف (Horne & McBeth ، 1998) .

إن معظم الأبحاث والدراسات النسوية التي يتم تناولها في هذا الباب تشير إلى وجود تحول بعيد عن تحقيق أهداف الحياد القيمي وادعاءات الموضوعية في العملية البحثية ، إذ يتم تشجيع الباحثة على الاعتراف الصريح ، بل والاعتماد على منظورها القائم على موقعها خلال قيامها بمشروعها البحثي . وفي النص التالي من "ما وراء الستار" (والمقتبس أيضا من المقابلة التي قامت بها إليزابيث هيرش وجاري أولسون (Hirsch & Olson ، 1995) ، تتوقف ساندرا هاردينج مجددا أمام مفهوم الموضوعية القوية .

ونجد أن العديد من الأكاديميات والباحثات النسويات يتحدّين قابلية تطبيق الموضوعية ومدى فائدتها في مشروع البحث النسوي ، ولكن ساندرا هاردينج تلقي الضوء على جانب آخر من جوانب الموضوعية القوية - والتي يطلق عليها "المطاوعة القوية" ("strong reflexivity") - والتي تذكرنا بالتأكيد النسوي على موقعية المعرفة التي سبق وصفها أعلاه . فالمطاوعة القوية هي إحدى تجليات الموضوعية القوية عبر المنهج المتبع في البحث ، وتتطلب من الباحثة أن تكون على معرفة وأن تقوم بتأمل نقدي للطرق المختلفة التي يمكن لموقعها أن يمثل في نفس الوقت عائقاً ومصدراً نحو التوصل إلى المعرفة على مدار العملية البحثية .

ما وراء الستار مع ساندرا هاردينج

لقد شرع بعض الناس في التوصل إلى فهم أن الوصول بالموضوعية إلى أقصاها يتطلب استخدام منهج أقوى ، ومفهوم أكثر اتساعاً للمنهج ، وهو إنتاج مطاوعة قوية (strong reflexivity) ، أي التوصل إلى إدراك أن كون الطرف القائم بالملاحظة يتغير ، وكونه أو كونها تتفاعل مع موضوع الملاحظة أي مع ما يقوم أو تقوم بملاحظته ، ليس بالضرورة أمراً سلبياً ، أو يؤثر بالسلب على نتائج البحث ، بل يمكن استخدامه بطريقة إيجابية . أي أنه يعني أن نفهم أن في إمكاننا استخدام الموارد المتعلقة بالموقع الذي نتحدث منه ، وذلك في سبيل تحقيق منهج أقوى وموضوعية أقوى ، وهو ما تتطلبه المطاوعة القوية .

والآن ، ما معنى وجود معرفة ذات موقع محدد اجتماعياً ، أي استخدام الموقع الذي نتحدث منه باعتباره مورداً وجزءاً من المنهج وجزءاً من أدوات البحث؟ دعوني أأخذ من نفسي مثالاً على ذلك . فالجميع يتحدثون عن المطاوعة

(reflexivity) بطرق شتى، ولكن قلما يتضح استخدامها كمورد، بل تعتبر مشكلة أو مازقا أو شيئا لا بد من التعامل معه، أو يتم النظر إليها برزانة: "للأسف هي أمر لا يمكن تجنبه." وبالتالي يتم -عادة- التعبير عنها بطريقة تتعامل معها على أنها بمثابة الاعتراف: "أنا امرأة بيضاء من مدينة نيوارك، ديلوير... فتبدئين بالاعتراف، ثم تنتقلين إلى التحليل كما لو كان الاعتراف يفي بالأمر... ولكن هذا الأسلوب لا يقترب من المشكلة ذاتها، بل يترك للقراء القيام بالتحليل، أي يترك القارئة أو القارئ متسائلا: "حسنا، فما هي العلاقة بين كون ساندرا هاردينج امرأة بيضاء وأكاديمية من ديلوير وبين التحليل الذي تقدمه؟ وهي فيلسوفة، ونسوية، وهلم جرا، فما أثر ذلك على ما تقدمه من تحليل؟" فالغرض هنا هو قيام المؤلف أو الملاحظة بهذا التحليل، أي أن تقوم هي بطرح الأسئلة والإجابة عليها. فترك هذا الجهد للقراء هو من باب التكاسل وعدم المسؤولية، ويوحى كما لو كان الأمر غير ذي أهمية على الإطلاق. إن نظرية الموقف النسوية (feminist standpoint theory)، والتي شاركت في تطويرها، تمكننا من إدراك قيمة هذا الأمر. كما أن الموضوعية القوية تطالبنا بالنظر إلى الأنظمة الفكرية أي الأطر التي تتضمن موقعنا الاجتماعي نظرة نقدية. فما هي الفرضيات التي أطرحها باعتباري أنتمي إلى الفلسفة التحليلية الأنجلو-أمريكية في هذه اللحظة التاريخية، باعتباري متخصصة في الوضعية المنطقية؟ فكيف تؤدي بي تلك الخلفية إلى صياغة أسئلة ومشروعات هي في الواقع أقل من الموضوعية القصوى، ومقيدة بموقعي الاجتماعي المحدد؟ وهكذا فإن المجموعة الأولى من الأسئلة التي تمكن المرء من تقوية المطاوعة واستخدام المطاوعة بمثابة مورد، هي تلك الأسئلة التي تجعلنا نقول بهذا التحليل وأن نتأمل الأطر الفكرية للمجال البحثي. فالأمر لا يقوم على "أنا، ساندرا هاردينج، امرأة بيضاء..."، وإنما يمثل ذلك في حد ذاته قضية للمناقشة. فالسؤال هنا هو: "كيف تمت صياغة الأطر الفكرية التي أستخدمها بحيث تتماشى مع مشاكل النساء البيض في الغرب عموما؟"

وهكذا فإن الخطوة الأولى تكون في القيام بنوعية النقد الذي تقوم به في الواقع الحركات الاجتماعية الجديدة المتنوعة تجاه الأطر الفكرية في الغرب وأفرعه المعرفية وسياسة الغرب وفلسفته. ولكن هنالك خطوة تتجاوز ذلك، وهي محاولة إعادة التفكير كيف يمكن -مع ذلك- للمرء استخدام موقعه الاجتماعي كمورد؟ على الرغم من أننا ننتمي إلى مجموعات مهيمنة. فهنالك ميل عام للتفكير في أن الخاضعين للهيمنة فقط وأن المهمشين فقط هم القادرون على استخدام موقعهم الاجتماعي كأداة لإنتاج المعرفة. وهم بالقطع يستطيعون استخدامه وفعلا يستخدمونه، ولكن ذلك لا ينفي أن المنتمين إلى المجموعات المهيمنة يمكن أن يتعلموا كيفية استخدام موقعهم (كامرأة بيضاء في حالتي، ولنقل باعتبار الشخص رجلا أبيض في حالة أخرى) لطرح نوعية الأسئلة والتفكير في نوعية الأفكار التي يمكنها أن تستفيد من الموارد التي يقدمها موقع ما. فعلى سبيل المثال، أنا على دراية كبيرة بالفلسفة الغربية، وبالتالي فإن عدم طرحي أسئلة بأن فرضياتها يمثل عقبة أمام اكتسابي منظورا للعالم والفلسفة أقل في درجة مركزيته الأوروبية. ولكني أيضا على علم بهذا التراث بقدر جيد، بما يجعلني قادرة على التعلم إذا غيرت اتجاه النظرة النقدية وحولتها نحو الفلسفة الغربية، حيث إن موقعي يمكنني من ذلك، كما أنه أمر أشعر بالتزامي بالقيام به. فأنا أستخدم موقعي بطريقة قد لا يستطيعها شخص منتم إلى تراث آخر. فلماذا يكون عليهم قضاء وقتهم كله في نقد الفلسفة الغربية؟ ولا أعتقد أن علينا أن نترك لضحايا الغرب عبء القيام بالنقد الكامل الغرب، فهو مورد علينا التزام باستخدامه، ونحن على دراية به فيجب أن نتعلم القيام بهذا النقد بأنفسنا. والموجودون منا في تلك المواقع المهيمنة، هم موجودون في مواقع مهيمنة: فلأصواتنا سلطة كبيرة، وهو مورد لنا. وإنه لمن المؤسف أن يكون العالم خاضعا لنظام تراتبي، وأن هنالك علاقات قوى، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فأعتقد أن من لديهم فصول يدرسون فيها، ومن تنال أوراقهم البحثية القبول للنشر في دوريات مقروءة

على مستوى العالم ، ومن يقوم الناشر بنشر كتبهم ، هم جميعا موارد محلية يمكننا استخدامها بأساليب تقدمية علميا وسياسيا .

المصدر: (Hirsch and Olson 1995)

إن ساندرا هاردينج تدعو كل الأفراد ، بما في ذلك النساء ، المنتمين إلى مجموعات مهيمنة إلى نقد الذات واستخدام سلطتهم بـ "طرق تقدمية سياسيا . " وفي الجزئية التالية سنستمع إلى نساء ينتمين إلى مجموعات أقل هيمنة . ويتم تذكيرنا بالاكتراث واحترام الاختلافات بين النساء ، والوعي بوجود طرق وفيرة تتداخل بها عناصر العرق والطبقة والنوع في تجربة حياة المرأة الواحدة ، كما تذكرنا بإدراك ومراقبة أوجه تفاعل وتباين القوى على مدار مسار البحث .

التحول نحو الاختلاف في النظرية والممارسة النسوية

لقد لفتت الأكاديميات والباحثات النسويات الأوليات الانتباه إلى اختفاء (invisibil-ity) ، وسوء تمثيل (misrepresentation) النساء في البحوث الأكاديمية عبر العديد من التخصصات وفي بحوث العلوم الاجتماعية السائدة . وأصبح العمل على الكشف عن هذه التحيز للمحورية الذكورية (androcentric bias) الشائعة وتصحيحه هو مجال العمل الأساسي لكثيرات من الباحثات النسويات . كما دعت باحثات وأكاديميات نسويات أخريات إلى طرح أسئلة جديدة وتطوير أطر معرفية ومناهج بحث جديدة بحيث تأخذ في الاعتبار حيوات النساء وتجاربهن ، وتقدر قصص حياة النساء باعتبارها معرفة . ولكن أي قصص نسائية هي التي تحكى؟ ومن هن النساء اللاتي تم إدراج تجاربهن؟ ومن هن اللاتي تم إغفالهن؟ ودون إنكار أهمية ودلالة تلك المساهمات النسوية المبكرة ، يظل من المهم أيضا الإشارة إلى أن العديد من النسويات الرائدات

ركزن على النساء باعتبارهن فئة عامة وأغفلن التعددية والتنوع القائم فيما بين حيوات وتجارب النساء. وهكذا ركز قدر كبير من تلك البحوث النسوية المبكرة على القضايا التي تهم النساء البيض من الطبقتين الوسطى والعليا، مع إغفال القضايا ذات الأهمية بالنسبة للنساء الملونات والنساء المنتميات إلى الطبقة العاملة.

وقد كشفت النسويات الملونات (feminists of color) أوجه النقص في البحوث النسوية المبكرة، وطالبن النسويات البيض (white feminists) بدراسة امتيازات البيض كشكل من أشكال القهر (McIntosh، 1995). وطبقا لما ورد عن ماريان هيرش وإيفيلين فوكس كيلير فإن "النسويات الملونات كُشفن لنسويات الطبقة الوسطى البيض مدى عنصريتهن هن أنفسهن" (Hirsch & Keller, 1990, p. 379). وقد أدركت النسويات ذوات الامتيازات أن الإنصات إلى تجارب "الأخريات"، والدخول في حوار مع النساء الفقيرات والنساء الملونات، يكسبهن فهما أكثر اكتمالا ودقة وتنوعا للواقع الاجتماعي. وتؤكد عالمة الاجتماع النسوية السوداء، باتريشا هيل كولينز (Patricia Hill Collins, 1990)، على سبيل المثال، أن بقاء وازدهار النساء السود، في مجتمع يغلب عليه البيض، لا يتحقق إلا بقيام النساء السود بالتعامل مع قواعد عالم البيض ذوي الامتيازات في الوقت الذي يقمن فيه بالتعامل مع موقعهن الاجتماعي المهمش، وهو موقع يعكس اللون والطبقة والنوع. ومن خلال فهم تلك الجوانب من حيوات النساء السود يصبح من الواضح جدا أن الموقعية (positionality) الأكاديمية ذات الامتيازات، والتي تتمتع بها الشخصية المنتمية إلى الداخل الاجتماعي، إنما تضعها "في موقع لا تلحظ منه التناقضات التي تتضح للنساء الأفرو-أمريكيات، نظرا لأن المنتمين إلى الداخل الاجتماعي أنفسهم قد أنتجوا تلك التناقضات" (Collins, 1990, p. 35).

كذلك تلقي الباحثات والأكاديميات النسويات الملونات الضوء على التداخل الشديد بين فئات الاختلاف الخاصة بالنوع والعرق واللون والطبقة (Anzaldúa، 1987; Collins، 1990; hooks، 1984، 1990; Mohanty، 1988). وتؤكد باتريشا

هيل كولينز (Patricia Hill Collins ، 1990) على أوجه الترابط المعقدة بين اللون والطبقة والنوع - أو ما تطلق عليه منظومة الهيمنة (matrix of domination). ويمكن تطبيق منظومة الهيمنة تلك عند التفكير في الاختلاف (difference) على مدار أشكال اللامساواة المتداخلة فيما بين اللون والطبقة والنوع ، إذ تؤثر تلك العوامل الناتجة عن عملية التشكيل الاجتماعي في بعضها البعض ، فلا يمكننا فهم تجربة حياة فردية ما دون الدراسة الجماعية للعلاقات المعقدة القائمة بين تلك العوامل .

ومن خلال طرح الأسئلة عن "أية نساء؟" و "تجارب مَنْ؟" قامت النسويات الملونات بتوسيع مجال البحث النسوي ، وما زالت الباحثات والأكاديميات النسويات الملونات يواصلن تطوير أطر نظرية واستراتيجيات منهجية جديدة تأخذ في الاعتبار نطاقا متنوعا من حيوات وتجارب وثقافات النساء . وفي الفصل الخاص بإستمولوجيا الموقف النسوي (الفصل الثالث) من هذا الكتاب ، سأعرفك كيف قامت الأكاديميات النسويات الملونات بتناول إشكاليات مفهوم موقف النساء (standpoint of women) ، وذلك بتأكيدهن على أن النساء يشغلن مواقف متعددة عبر طبقات وثقافات متنوعة . فعلى سبيل المثال ، تلقي باتريشا هيل كولينز موقف النساء السود ومن أجل النساء السود ، مع تأكيدها على العلاقات المتداخلة بين اللون والطبقة والنوع والتي تساهم في صياغة ذلك الموقف (Collins ، 1990). وفي الفصل المخصص لتقنيات وآليات المقابلات الشخصية (الفصل الخامس) ، سأعرفك على بعض الموضوعات والمآزق ، والإمكانات والمخاطر ، التي تواجه الباحثات النسويات في سياق الدراسات عبر الاختلاف . فما الذي يمكننا أن نتعلمه على سبيل المثال من أبحاث ودراسات النسويات الملونات حول دراسة الاختلاف؟ وهل توجد استراتيجيات محددة للمقابلات الشخصية التي تحمل قدرا أكبر من الاحترام وتنجح بدرجة أكبر في بناء علاقات عبر أوجه الاختلاف مقارنة بغيرها من الاستراتيجيات؟

تحديات وإمكانيات منظور ما بعد الحداثة بالنسبة للبحث النسوي

يوجد تقارب، من عدة أوجه، بين مسعى وأهداف البحث النسوي وبين منظوري ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية. ونتيجة -إلى حد كبير- للدراسات والأبحاث التي تقوم بها النسويات الملونات، وكذلك لتفاعل الفكر النسوي مع المنظور ما بعد الكولونيالي وما بعد البنيوي وما بعد الحداثي، قامت غالبية النساء برفض المفهوم القائل بوجود تجربة واحدة جوهرية للنساء، مع تبني تعددية تجارب النساء في الحياة. إن تأكيد ما بعد الحداثة على إدراج "الآخر" في العملية البحثية "يتماشى جيدا مع التيارات العامة القائمة داخل المشروع النسوي ذاته"، إذ إن النسويات من كل المذاهب الفكرية عملن دائما على "الاهتمام بإدراج النساء في أبحاثهن لتصحيح اعتماد التاريخ على الرجال كموضوعات بحث" (Hesse-Biber، Leavy، and Yaiser، 2004، p. 18). ومثلن في ذلك مثل الكثيرات من النسويات، يقوم باحثو وباحثات ما بعد الحداثة بنقد منظومات بحوث العلوم الاجتماعية، كالوضعية، ورفض مفاهيم التعميم والموضوعية والحقيقة بمعناها العام، وذلك مقابل تبني تأويلات للواقع الاجتماعي، قائمة على التعددية والموقعية والتشكيل. وأخيرا فإن تأكيد ما بعد الحداثة على تمكين الفئات المقهورة يجد أصداء في الالتزام النسوي نحو "المقاومة الثقافية السياسية للأنماط التراتبية في بناء الحياة الاجتماعية، وفي التفات النسويات إلى "ديناميكيات السلطة والمعرفة" (ص18 من المصدر السابق).

ويمكن لوجهات النظر ما بعد الحداثية وما بعد البنيوية أن تنشط النظريات والممارسات النسوية، ولكن بعض النسويات يخشين مع ذلك من أن اهتمام ما بعد الحداثة بالتشكيل الاجتماعي والتأويل والتعددية والاختلاف قد يؤدي إلى تخفيف وتناثر الالتزام النسوي بتحقيق التغيير الاجتماعي والمساواة الاجتماعية للنساء. وتطرح بعض النسويات السؤال التالي: "مع تركيز الاهتمام بالتأويلات المتعددة للواقع الاجتماعي، وأوجه الاختلاف بين النساء، هل تفقد النساء القدرة على تحديد أوجه التشابه والدخول

في حوار والتجمع معا كقوة منظمة من أجل التغيير الاجتماعي؟“، كما تتساءل نسويات أخريات: “هل يمكننا أن نتعامل بجدية ونواجه تجارب القهر الحقيقية والمادية الملموسة، إذا نحن خضعنا لمنحى ما بعد الحداثة في تفضيل تناول التأويل والتشكيل الاجتماعي؟“ وكما تشير كل من شارلين هيسي-بايير وكريستينا جيلمارتن وروبين ليدنبرج (Sharlene Hesse-Biber، Christina Gilmartin and Robin Lydenberg، 1999) فهناك بعض المجازفة والمخاطر والخسارة المحتملة التي تصاحب زيادة التشتت والانقسام فيما بين النظرات والباحثات والناشطات النسويات. وترى كل من ميشيل باريت وأن فيليبس (Michelle Barrett and Ann Phillips) أن المخاوف التي تعبر عنها الآن بعض النسويات هي أنه مع “تغير الصيحات النظرية [ومن بينها ما بعد الحداثة] . . . فقد ينتهي بنا الأمر بالابتعاد عن مشروع النسوية الأصلي“ (Barrett & Phillips، 1992، p. 6). إن فائدة المنظور ما بعد الحداثي وقربه من البحث النسوي، وأشكال النضال والجدل القائم فيما بين النسويات بشأن مزايا وأوجه قصور ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية هي موضوعات سيتم عرضها بالتفصيل في الفصل الرابع من هذا الكتاب.

ترتيب هذا الكتاب

إن هدفنا الأساسي من تأليف هذا الكتاب هو تقديم فهم متأصل للمقاربات المنهجية الرئيسية، المعرفية والنظرية والمنهجية، التي تؤثر في البحث النسوي. ويعكس ترتيب هذا الكتاب الممارسات النسوية العامة، كما يسلط الضوء على التفاعل القائم بين الجوانب المعرفية والمنهجية للعملية البحثية. ويركز الباب الأول من هذا الكتاب على الأسس المعرفية والنظرية الأساسية التي توجه العديد من النسويات في أعمالهن البحثية، كما يتضمن فصولا حول الإمبريقية النسوية، ونظرية الموقف النسوية، وما بعد الحداثة النسوية. وفي الباب الثاني، نعرض نطاقا واسعا من مناهج البحث التي تستخدمها

الباحثات النسويات ، كما نتناول العلاقات التي تربط بين مناهج بعينها وبين الأطر ووجهات النظر المعرفية النسوية . وسوف نعرفك كيف تم استخدام مناهج معينة في خدمة أجندات البحث النسوي ، وكيف تتحقق فائدة المناهج والمنهجيات المختلفة في أزمنة مختلفة وفي سياقات مختلفة . وقد قمنا بتضمين فصل حول الخطط متعددة المنهج (mul-timethod designs) ، لتوضيح كيف تجمع النسويات أحيانا بين المنظومتين (الكيفية والكمية) في خدمة أهداف البحث النسوي . وسيتم تقديم نماذج من البحث الإمبريقي . أما الباب الثالث من هذا الكتاب ، فيتناول الممارسة النسوية الممثلة في تحليل وتأويل نتائج البحث .

وإننا نأمل أن بقراءتك هذا الكتاب سيمكنك إدراك الطرق العديدة المختلفة التي يمكن للبحث النسوي أن يساهم بها كوسيلة لتمكين النساء . إن البيانات والمواد التي جمعتها النسويات الإمبريقيات تمثل تحديا للانحيازات القائمة على أساس الجنس و"تعيد الأمور إلى نصابها" . كذلك فإن التحليلات الأرشيفية النسوية ، من حيث تحليل المضمون والسرد ، تعمل على توثيق التشكيل الاجتماعي والتاريخي لأدوار الجنسين (gender roles) . وتقوم الباحثات الإثنوجرافيات النسويات بإلقاء الضوء على الصلات القائمة بين المفاهيم السائدة والمقيدة كمفهوم الأنوثة ، وتجربة النساء اليومية ، وأنظمة/ بنى السلطة على نطاق أوسع . إن النساء اللاتي سبق تعرضهن للإسكات والحرمان يتحدثن اليوم من خلال منبر التاريخ الشفاهي النسوي والمقابلات المركزة . كل هذا لا يقدم سوى أمثلة على الطرق العديدة التي يقوم بها البحث النسوي بتمكين النساء .

وإننا نمد إليك دعوتنا الشخصية لك للقيام معنا بتلك الرحلة المثيرة!

الهوامش

1- لايعني هذا استبعاد أعمال الكثيرات من النساء ذوات الشجاعة والموهبة اللاتي ساهمن في بناء المعرفة قبل الستينيات من القرن العشرين. ولكن ما نقصده هنا هو أن البحث النسوي -باعتباره فرعاً جديداً من أفرع النظريات والمنهجيات والمناهج- تمت تسميته وصياغته الواعية كجزء ونتيجة من نتائج الحركة النسائية في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين.

2- إن المنظومة (paradigm) تشير إلى رؤية أو نموذج أو مقارنة منهجية معينة إلى بناء المعرفة. وتتضمن المنظومة الوضعية باقة معرفية من الفرضيات، أي تتضمن بمعنى آخر مقارنة إلى بناء المعرفة أو البحث المعرفي، والنماذج النظرية والمنهجية المصاحبة لتلك المقاربة. (للحصول على شرح أكثر تفصيلاً لاستخدامنا لمصطلح المنظومة، انظر/ي Nielsen, 1990; Kuhn, 1962).

3- صفة الإمبريقي (empiricist) تشير إلى تبني مقارنة إمبريقية تجريبية إلى بناء المعرفة، تعتمد على المنهج العلمي التقليدي بشأن الملاحظة الموضوعية المحايدة (القائمة على الحواس).

4 بينما تستخدم دوروثي سميث هذه العبارة أو المفهوم في سياق تناولها علم الاجتماع بالنقاش، إلا أننا نرى فائدة في تطبيق هذا المفهوم على أبحاث وبناء المعرفة في العلوم الاجتماعية بشكل أعم. (للحصول على المزيد من التفسير والتحليل، انظر/ي: Dorothy Smith, The Conceptual Practices of Power: A Feminist Sociology of Knowledge, 1990, pp. 19-24).

- Anderson, Kathryn, & Jack, Dana C. (1991). Learning to listen: Interview techniques and analyses. In Sherna Berger Gluck & Daphne Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 11–26). New York: Routledge.
- Anzaldúa, Gloria. (1987). *Borderlands/la frontera: The new mestiza*. San Francisco: Spinster/Aunt Lute.
- Barrett, Michele, & Phillips, Anne. (1992). *Destabilizing theory: Contemporary feminist debates*. Stanford, CA: Stanford University Press.
- Borland, Katherine. (1991). "That's not what I said": Interpretive conflict in oral narrative research. In Sherna Berger Gluck & Daphne Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 63–75). London: Routledge.
- Charmaz, Kathy. (1995). Grounded theory. In Jonathan A. Smith, Rom Harre, & Luk van Langenhove (Eds.), *Rethinking methods in psychology* (pp. 27–49). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Charmaz, Kathy. (2006). What's good writing in feminist research? What can feminist researchers learn about good writing? In Sharlene Nagy Hesse-Biber (Ed.), *Handbook of feminist research: Theory and praxis*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Collins, Patricia Hill. (1990). *Black feminist thought: Knowledge, consciousness, and the politics of empowerment*. Boston: Unwin Hyman.
- DeVault, Marjorie. (1990). Talking and listening from women's standpoint: Feminist strategies for interviewing and analysis. *Social Problems*, 37(1), 96–116.
- Durkheim, Émile. (1965). *The rules of sociological method* (8th ed.; S. A. Solovay & J. H. Mueller, Trans.). New York: Free Press. (Original work published 1938)
- Haraway, Donna J. (1991). *Simians, cyborgs, and women: The reinvention of nature*. New York: Routledge.
- Harding, Sandra. (1987). Introduction: Is there a feminist method? In S. Harding (Ed.), *Feminism and methodology* (pp. 1–14). Bloomington: Indiana University Press.
- Hesse-Biber, Sharlene, & Carter, Gregg Lee. (2005). *Working women in America: Split dreams*. New York: Oxford University Press.
- Hesse-Biber, Sharlene, Gilmartin, Christina, & Lydenberg, Robin (Eds.). (1999). *Feminist approaches to theory and methodology: An interdisciplinary reader*. New York: Oxford University Press.
- Hesse-Biber, Sharlene Nagy, & Leavy, Patricia. (2006). *The practice of qualitative research*. Thousand Oaks, CA: Sage.

- Hesse-Biber, Sharlene Nagy, Leavy, Patricia, & Yaiser, Michelle, L. (2004). Feminist approaches to research as a *process*: Reconceptualizing epistemology, methodology, and method. In Sharlene Nagy Hesse-Biber & Michelle L. Yaiser (Eds.), *Feminist perspectives on social research* (pp. 3–26). New York: Oxford University Press.
- Hirsch, Elizabeth, & Olson, Gary A. (1995). Starting from marginalized lives: A conversation with Sandra Harding. *JAC: A Journal of Composition Theory*, 15(2), 193–225. Retrieved July 7, 2006, from <http://Jac.gsu.edu/jac/15.2/Articles/1.htm>
- Hirsch, Marianne, & Keller, Evelyn Fox. (1990). Practicing conflict in feminist theory. In Marianne Hirsh & Evelyn Fox Keller (Eds.), *Conflicts in feminism* (pp. 370–385). New York: Routledge.
- hooks, bell. (1984). *Feminist theory: From margin to center*. Boston: South End Press.
- hooks, bell. (1990). *Yearning: Race, gender, and cultural politics*. Boston: South End Press.
- Horne, Esther Burnett, & McBeth, Sally. (1998). *Essie's story. The life and legacy of a Shoshone teacher*. Lincoln: University of Nebraska Press.
- Jaggar, Alison M. (1997). Love and knowledge: Emotion in feminist epistemology. In Sandra Kemp & Judith Squires (Eds.), *Feminisms* (pp. 188–193). Oxford: Oxford University Press.
- Jensen, Joan M. (1977). Native American women and agriculture: A Seneca case study. *Sex Roles: A Journal of Research*, 3, 70–83.
- Kuhn, Thomas. (1962). *The structure of scientific revolutions*. Chicago: University of Chicago Press.
- Longino, Helen E. (1999). Feminist epistemology. In John Grecco & Ernest Sosa (Eds.), *The Blackwell guide to epistemology* (pp. 327–353). Malden, MA: Blackwell.
- Martin, Emily. (1991). The egg and the sperm: How science has constructed a romance based on stereotypical male-female roles. *Signs*, 16(3), 485–501.
- McIntosh, Peggy. (1995). White privilege and male privilege: A personal account of coming to see correspondences through work in women's studies. In Margaret L. Andersen & Patricia Hill Collins (Eds.), *Race, class, and gender: An anthology* (pp. 76–86). Belmont, CA: Wadsworth.
- Milkman, Ruth. (1987). *Gender at work: The dynamics of job segregation by sex during World War II*. Urbana: University of Illinois Press.

- Mohanty, Chandra. (1988). Under Western eyes: Feminist scholarship and colonial discourses. *Feminist Review*, 30, 61–88.
- Murphy, John W. (1989). *Postmodern social analysis and criticism*. New York: Greenwood Press.
- Nielsen, Joyce McCarl. (1990). Introduction. In Joyce McCarl Nielsen (Ed.), *Feminist research methods: Exemplary readings in the social sciences* (pp. 1–37). Boulder, CO: Westview Press.
- Smith, Dorothy E. (1987). Women's perspective as a radical critique of sociology. In Sandra Harding (Ed.), *Feminism and methodology* (pp. 84–96). Bloomington: Indiana University Press.
- Smith, Dorothy E. (1990). *The conceptual practices of power: A feminist sociology of knowledge*. Boston: Northeastern University Press.
- Sprague, Joey, & Zimmerman, Mary K. (1993). Overcoming dualisms: A feminist agenda for sociological methodology. In Paula England (Ed.), *Theory on gender/feminism on theory* (pp. 255–280). New York: Aldine de Gruyter.
- Ulrich, Laurel Thatcher. (1991). *A midwife's tale. The life of Martha Ballard based on her diary 1785–1812*. New York: Vintage Books.

الباب الأول

مقاربات نسوية

إلى

الإبستمولوجيا والنظرية

الفصل الثاني

الإمبريقية التجريبية النسوية

مواجهة التحيز الجنسي

و"تصحيح الأوضاع"

دينيز ليكنبي

يوجد تصور خاطئ أن النسوية والإمبريقية التجريبية (empiricism) لا تتماشيان معاً. ومع ذلك فما زالت أبحاث مهمة تجمع بين مذاهب النسوية والإمبريقية تساهم بقوة في فهمنا لقضيتي النوع وعدم المساواة.

• ما الذي يجعل البحث النسوي بحثاً إمبريقياً؟

• ما الذي يجعل البحث الإمبريقي بحثاً نسوياً؟

إن عملية الإجابة على هذين السؤالين الأساسيين تتبع اتجاهين بارزين داخل نطاق المقاربات الإمبريقية النسوية إلى علم المعرفة (epistemology) وما تستخدمه من منهجيات ومناهج. وتطرح الباحثات الإمبريقيات النسويات (feminist empiri-

(cists ، أنواعا متعددة من الأسئلة ضمن أنواع متعددة من التخصصات البحثية. وبخلاف بعض الباحثات النسويات الأخريات ، فإن عملهن لا يقتصر على العلوم الطبيعية أو العلوم الاجتماعية ، فمع انطلاقهن من أسس علوم المعرفة الإمبريقية نجدهن يعملن عبر العديد من المناهج والكثير من أسئلة البحث تاركات بصمات مهمة مؤثرة على المنظومات التقليدية الخاصة ببناء المعرفة. وتشير الإمبريقية التجريبية (empiricism) إلى الموقف والقناعة بأن المصدر المعرفي الوحيد المتاح لنا هو ذلك القابل للتجربة والقياس بواسطة الحواس. ويرى ريتشموند كامبل (Richmond Campbell ، 1994) ، أن الإمبريقية التجريبية تعتمد على ”معايير النجاح المتوقع ، واستقلال الملاحظة ، والقوة الشارحة“ (ص90). ويستخدم كامبل ذلك التقسيم (de-lineation) للمعايير الإمبريقية لمعارضة مقولات ساندرا هاردينج (Sandra Hard-ing 1986 ، cited in Campbell 1994) ، في نقد الإمبريقية النسوية ، قائلا: ”إذا كانت النسوية مستبطنة في الإمبريقية ، أما كان لها إذن أن تتضمن التناقض نفسه الذي يصف به نقاد النسوية مفهوم العلم النسوي (feminist science)؟ فإذا كانت المعايير الإمبريقية تتطلب بطبيعتها أن يكون الباحث منزها تماما عن المواقف السياسية عند اختبار فرضيات البحث ، فكيف يمكن وجود منهجية لبناء وتقييم الاختبارات العلمية تجمع بين الإمبريقية والنسوية في آن واحد؟“ (Campbell 1994 ، p. 93). ويدعو كامبل إلى إدماج الأهداف النسوية السياسية في باطن البحث الإمبريقي ، وهو تكتيك مغاير للدعوة إلى ضرورة أن تصبح مناهج البحث الإمبريقي في باطن الأهداف النسوية السياسية.

ونجد أنه في داخل هذا التراث الطويل من الجهد والبحث تسعى النسويات الإمبريقيات إلى فهم العالم المحيط بهن ، بحيث تضرب منهجياتهن البحثية بجذورها في ما يمكنهن إدراكه بحواسهن وما يمكنهن قياسه بمناهج بحثهن. ونجد أن النسويات الإمبريقيات ،

جنباً إلى جنب الإمبريقيين الآخرين ، ينطلقن من قواعد راسخة في القناعة الوضعية (positivist) بشأن إمكانية بلوغ العالم الاجتماعي والطبيعي وقابليته للفهم . وتسعى النسويات الإمبريقيات ، باعتبارهن وضعيات ، إلى تطوير معرفة تتسم بالموضوعية والصدق ، ويحملن قناعة كبيرة بإمكانية بلوغ وتحقيق هذا النوع من المعرفة . ونجدهن مبهرات في التزامهن بأدوات البحث الوضعية حيث يحتل عملهن موقعه داخل البنى الاستمولوجية والمنهجية القائمة¹ فعلياً . وتتسم كتاباتهن بقوة القول ، وهي تلفت الانتباه لانطلاقها من داخل مؤسسة العلوم الوضعية .

وعلى الرغم من رسوخ موقعهن داخل الوضعية ، فإن النسويات الإمبريقيات يقمن مع ذلك بنقد ممارسات ونتاج المؤسسة العلمية التقليدية . فالبحث الإمبريقي النسوي مرتبط بمنظوره النسوي بنفس القوة التي يتفاعل بها مع المقاربات الوضعية . ونجد مؤرخة العلوم لوندا شيبينجر (Londa Schiebinger ، 2003) تشير في مقدمتها للعدد الخاص من مجلة ساينز (Signs) حول الجندر والعلوم قائلة:

إن ذلك البحث يشتمل على العديد من القيم النسوية الأساسية . . . مزيجاً البحث المؤدي إلى استغلال الطبيعة أو البشر الآخرين ، ومقاوما التفسيرات المنزوعة من السياق الاجتماعي والسياسي . . . معترفاً بقيمتنا ومعتقداتنا ، من حيث الصدق في فرضياتنا والمسؤولية في اللغة التي نستخدمها . (ص 861)²

إن مثل هذه الأهداف هي أهداف نسوية في منظورها ، بما يعمل على صياغة وتشكيل البحث بطرق متنوعة ، مع بقائها مفتوحة أمام جهود النسويات الإمبريقيات للحفاظ على موقعهن داخل المنظومة الإمبريقية . وتؤكد هيلين لونجينو (Helen Longino ، 1990) ، أن "النسوية تعني عدة أشياء للعديد من البشر ، ولكنها في جوهرها تختص بتوسيع الإمكانيات البشرية" (ص 190) . وقد كان مثل هذا التوسيع للإمكانيات البشرية

مستحيلا عندما كانت النساء مستبعدات من مضمون ومسارات بناء المعرفة . وقد شرعت النساء الباحثات منذ بدايات القرن العشرين في إدراك ومواجهة عمليات إقصاء النساء وتجارب النساء من أسئلة وعينات البحث ، وهي عمليات إقصاء منها ما هو إقصاء منهجي منظم أحيانا وإقصاء شامل على الدوام . وقد سعت هؤلاء الباحثات إلى خلق علم "أفضل" وأكثر موضوعية ، محملات في ذلك بمنظورهن النسوي وأدواتهن الوضعية . وقد نجحن في توضيح كيف تم ترسيخ الإنحيازات الذكورية (androcentric) ، الوضعية التقليدية واستمرار رسوخها داخل الوضعية ، بما يتركنا أمام معرفة ذاتية بدلا من المعرفة الموضوعية بشأن عالمنا . ومع التزامهن بتطوير معرفة تشتمل على النساء ، سعت النسويات الإمبريقيات إلى المعرفة التي تفيد حيوات النساء وتمثل حياتهن تمثيلا دقيقا وتلقي بالضوء على حقيقة واقع البشر . وتؤكد هؤلاء النسويات الإمبريقيات على ضرورة أن يصبو العلم -في مجمله- إلى تحقيق دراسة أفضل وأكثر موضوعية ، حيث يصبح البحث عملية تتسم بقدر أكبر من التعقيد والوقائع الفعلية عندما يتم أخذ التداعيات السياسية والاجتماعية والثقافية للبحث في الاعتبار .

وضع النساء في الاعتبار: بحثا عن الحقائق التي تم تجاهلها وتغييبها

تهدف النسويات الإمبريقيات ، من خلال انخراطهن في الإيستمولوجيا النسوية السياسية ، إلى تضمين النساء في الأسئلة البحثية التي درجت العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية على طرحها . ونظرا إلى انتمائهن وتأثرهن بالموجة الثانية من الحركات النسوية تمثلت المهمة الأولى أمام النسويات الإمبريقيات في استهداف تغيير وجه العلوم الذكورية التقليدية ، إذ نجد أن العلوم الذكورية لا تأخذ في اعتبارها سوى المنظور ووحدة التحليل الذكورية والخاصة بالرجل في المسار البحثي ، وهي أبحاث تستخدم (extrapolates) المعرفة المكتسبة من تلك الأسئلة البحثية المطروحة وتعممها

على الجنس البشري بأكمله ، مع تجاهل أصوات النساء وتجاربهن ، بل واستبعاد التجربة الأنثوية برمتها . ولا تتناول النسويات الإمبيريقيات هذه المشكلة بتغيير أنماط البحث التقليدية والمنظور الإستيمولوجي والأنطولوجي (ontological) ، المعرفي والوجودي ، تغييرا جذريا فيما يتعلق بطبيعة الحقيقة أو التخلص من مناهج البحث القائمة ، بل تسعى هؤلاء النسويات الإمبيريقيات إلى الدفع بأسئلتهن التجريبية-em (pirical) ، ومناهجهن الإمبيريقية في مواجهة ومعالجة التحيزات التي تجعل المنظومة الوضعية التقليدية تؤدي إلى نتائج أقل من أن تنقسم بالموضوعية . كما يسعين إلى إبراز وإثبات كيف يمكن للنساء عادة تغيير نتائج البحث في حال دمجهن ضمن عينات البحث التقليدية . إن تضمين النساء ومنظور النوع في الجهود البحثية ينتج معرفة أكثر اقترابا من الحقيقة وأقل تحيزا للرجل . وقد سعت النسويات الإمبيريقيات وكافحن لتوضيح أن إهمال أخذ تجارب النساء في الاعتبار أدى إلى إضعاف الأهداف الموضوعية التي تسعى العلوم لتحقيقها . إن العلوم الوضعية ، أي المنظومة التقليدية للجهود البحثية في العلوم الاجتماعية ، تأسست على قواعد الموضوعية والعقل والبحث عن الحقيقة . ومع بدء النسويات الإمبيريقيات في جذب النساء إلى داخل الجهود الإمبيريقية التجريبية نجدهن وقد بدأت في توضيح مدى ابتعاد الوضعية التقليدية عن الموضوعية .

بحثا عن حقيقة غير المسمى: التحرش الجنسي

ما شكل التحيز الذكوري؟ وما الشعور المتولد عنه؟ فلنتخيل لحظة أن كافة الكتابات والأدبيات الخاصة بقضايا الجنسانية (الحياة الجنسية: sexuality) والعنف تخلو تماما من أي تناول للوقائع المتعلقة بالتجربة اليومية التي تمر بها امرأة ما من جانب رئيسها في العمل الذي يواصل الضغط عليها (proposition) ، مقابل إقامة علاقة جنسية معها . فلنتخيل فعلا عدم وجود مسمى لمشكلة تلك المرأة تحديدا ، وعدم وجود مصطلح يصف هذا الموقف . نجدها عاجزة عن البحث عن أمثلة لما تمر به في النصوص القانونية ، كما

أن مدير شؤون الأفراد في عملها لا يملك أي سياسة أو معايير لمواجهة مشكلتها . ولا تتم دراسة تجربة هذه المرأة في البحوث الاجتماعية حول أماكن العمل ، بل إن تلك النصوص لا تذكر سوى النزر اليسير عن دورها كأمراة في تلك الشركة ، ناهيك عن الحديث عما يجب عمله عند تعرض المرأة لضغوط جنسية من رؤسائها أو زملائها الذكور . وهكذا يظل هذا الموقف المستمر في حياة المرأة غير معلوم لأحد . وقد ظل التحرش الجنسي ، حتى السبعينيات من القرن العشرين ، مسألة غير مطروحة للنقاش في المجال الأكاديمي والعام ، لأن ”التحرش الجنسي من منظور الرجال لم يكن أمرا جديرا بالاهتمام أو يمثل مشكلة أصلا . فنظرا لعدم تعرضهم للتحرش الجنسي لم يوجد لدى الرجال أي سبب قوي لتمييزه عن مجريات الحياة العادية من خلال تسميته بمسمى خاص“ (Bingham ، 1994 ، p. 14) . فلتتخيل أن جزءا مزعجا ومدمرا من حياتك العملية لا يرد حتى ذكره باعتباره مسألة ذات جدوى . إن العلوم الذكورية تبدأ وتنتهي عند تجارب الرجال ، وفي هذه الحالة تحديدا كانت العلوم الذكورية في تقييمها وفهمها لمكان العمل تحمل رؤية غير موضوعية باعتبار التحرش الجنسي غير ذي شأن .

وقد حددت النسويات الإمبريقيات- جنبا إلى جنب- مع غيرهن من الباحثات والناشطات النسويات ، وجود مشكلة جدية بالدراسة والفهم من أجل توسيع إمكانات النساء داخل مكان العمل . ومن منطلق الجمع بين المساعي السياسية النسوية والسعي نحو المعرفة الإمبريقية ، شرعت النسويات الإمبريقيات في القيام بدراسات استطلاعية للنساء في أماكن العمل وذلك للتوصل إلى فهم أكثر موضوعية لما يحدث . وقد كانت لين فارلي (Lynn Farley ، 1978) أول نسوية تصوغ فهما ونظرية للتحرش الجنسي في مكان العمل ، وقد أسست مفاهيمها البحثية والنظرية بناء على مجموعات رفع الوعي (consciousness-raising groups) من النساء العاملات ممن تعرضن لتجارب شبيهة بالمرأة التي سبقت الإشارة إليها: ”وقد تطلب الأمر في النهاية إطلاق مسمى على هذا السلوك الرجالي ، وجاء مصطلح التحرش الجنسي كأقرب رمز لغوي متاح

معبر عن تلك المشكلة“ (Farley، 1978، p. xi). وبمجرد أن بدأت صياغة مفهوم التحرش الجنسي، سرعان ما أصبح السؤال المطروح هو عمّ الذي يحدث للنساء؟ وعن عدد النساء اللاتي يتعرضن للتحرش الجنسي؟ وسرعان ما شهدت السبعينيات من القرن العشرين علاج مسألة غياب التحرش الجنسي باعتباره أمرا فعلياً ومعروفاً مع كونه مخفياً بفعل التحيز الذكوري في مجال بناء المعرفة. وقد تمثلت الخطوة الثانية أمام الباحثات في تناول الأسئلة الخاصة بالتحرش الجنسي من حيث: من، ماذا، متى، أين، وكيف. ولم تكن النسويات هن الطرف الوحيد الذي تناول التحرش الجنسي، كما أن الإمبريقيات لم يكن هن النسويات الوحيدات الباحثات في هذا المجال. إلا أن إسهامات النسويات الإمبريقيات في مجال الأبحاث الخاصة بالتحرش الجنسي وسياساته أضافت أبعاداً مهمة وحاسمة أدت إلى تأصيل وترسيخ المعرفة المتوفرة لدينا حالياً بشأن التحرش الجنسي في سياقه الاجتماعي والسياسي.

وتعمل العلوم الذكورية على تقليص وجهات النظر والقضايا والسياقات التي تلعب دوراً محورياً في إنتاج المعرفة التي يجب أن تحقق مستلزمات المنهج الوضعي من حيث الصدق والموضوعية والتي يمكنها أن تحقق الأهداف النسوية بشأن توسيع نطاق الإمكانات البشرية. ”إن النسويات الإمبريقيات يؤكدن أن التمييز الجنسي والتحيز الذكوري يمثلان أشكالاً محددة من الانحياز لدى أصحاب المعرفة والتي يمكن التخلص منها بتطبيق المنهجيات العلمية والفلسفية تطبيقاً أكثر صرامة“ (Goldman، 1999، p. 34). وتؤمن النسويات الإمبريقيات بأن كل ما نحتاج إلى معرفته بشأن الحقيقة الموضوعية لحياتنا هو متوفر فعلاً، وما علينا سوى استخدامه استخداماً أفضل. فلنتخيل كيف يمكن لباحثة نسوية إمبريقية أن تهدف إلى اكتساب معلومات أعمق عن التحرش الجنسي بشكل عام. إن منظورها الوضعي سوف يقودها في الغالب نحو طريق التفكير الاستنباطي (deductive reasoning)، حيث ستؤدي معرفتها وفهمها لما تم إنجازه بحثياً عن التحرش الجنسي إلى مساعدتها على صياغة فرضية ما. وربما تجعلها قراءتها للأبحاث السابقة تلاحظ أن التحيزات الذكورية تلعب دوراً واضحاً في الأبحاث

السابقة، إذ نجدها تلحظ -على سبيل المثال- أنه لم يسبق لأحد التفكير في تناول التحرش الجنسي بالبحث من منظور يأخذ في الاعتبار عدم المساواة بين الجنسين. فلا يوجد أحد قائم على تتبع العلاقة الوارد قيامها بين عدم المساواة في السلطة بين الجنسين وبين حالات التحرش الجنسي وردود الأفعال حياله.

ففي داخل إطار مجال معرفي ما، لا يعمل التحيز الذكوري إلى تيسير التعرف على والاعتراف بالسياق المعقد للمواقف السياسية والاجتماعية بحيث تصبح جزءا من أجزاء البحث القائم. ولكن النظرة النسوية التي ترى بها تلك الباحثة العالم وسياق البحث هي نظرة تمكنها من إنتاج بحث ومعرفة أكثر موضوعية. إن قيام تلك الباحثة النسوية الإمبريقية بأخذ سياق علاقات القوى وعدم المساواة بين الجنسين في بيئة العمل في الاعتبار يجعلها تطرح أسئلة جديدة بشأن الحقيقة الموضوعية للتحرش الجنسي. وقد يؤدي منظورها الإمبريقي إلى جعلها تختبر فرضيتها الجديدة من خلال تجربة اجتماعية أو بحث استطلاعي إحصائي أو حتى بواسطة سلسلة من المقابلات الكمية، مدفوعة في ذلك -دوما- بسعيها للحصول على البيانات الإمبريقية (empirical data)، التجريبية التي تقيس الواقع وتمثله. إن التحيزات الذكورية تبني بيئة لا يقوم فيها البحث والمعرفة بشأن العالم عامة باختبار أو قياس الواقع، ولا تحقق أي شيء في سبيل توسيع الإمكانات البشرية. إن النسويات الإمبريقيات يسعين نحو علم أفضل وأكثر موضوعية عن طريق تنحية العلوم الذكورية.

بحثا عن الحقيقة كميًا

إن أخذ النساء في الاعتبار في الجهود الإمبريقية نحو المعرفة هو أمر لا يشير فقط إلى التخلص من التحيز الذكوري في العلوم، كما نراه في مثال التحرش الجنسي، بل يشير أيضا إلى التضمن الكمي للنساء في عينات البحث ومجموعاته. وبخلاف غيرهن من

الباحثات النسويات ، نجد أن النسويات الإمبريقيات هن الأكثر ميلا لتقبل مناهج البحث التقليدية كمناهج البحث الكمي³ (quantitative research methods). وتقوم العديداً من النسويات الإمبريقيات باستخدام المنهجيات وأدوات الاستطلاع الكمية في دراسة الأسئلة المطروحة. ونجد أن مناهج البحث الكمي، ورغم كونها واحدة من أدوات البحث المتاحة، فإنها تتلاءم مع أغراض البحث الإمبريقي. ويستلزم البحث الكمي بالنسبة للكثير من النسويات احتلال موقع داخل المنظومة الوضعية، سعياً إلى معرفة ملائمة قابلة للتعميم ومؤثرة كمياً.

وقد أكدت نسويات إمبريقيات عديدات وأوضحن أن استخدام المناهج الكمية ليس بالضرورة متعارضاً ومتناقضاً مع الأغراض السياسية النسوية (Jayaratne، 1983). وعلى الرغم من حرص النسويات الإمبريقيات على مواصلة العمل بما يتمتع به البحث الإحصائي من سلطة، فإنهن أضفن أيضاً إليه نظرتهم النسوية ومنظورهن النقدي بما يجعل المنهج المستخدم أفضل. وقد اهتمت الأجيال الأولى من النسويات الإمبريقيات بنقد التحيزات القائمة في البحوث الاستطلاعية، والتي كانت محملة بفرضيات نوعية (gendered) وثقافية لم تلتفت إليها العلوم الوضعية التقليدية، وهي التحيزات التي حددتها هؤلاء الباحثات باعتبارها إحدى المشاكل التي قللت من موضوعية تلك الأداة البحثية (Unger، 1979). وقد سعت النسويات الإمبريقيات خلال الثمانينيات من القرن العشرين إلى التنظير واستخدام المنهجيات والمناهج المنزهة عن التمييز الجنسي، مع تطوير أبحاث لا تعمل على التمييز ضد جنس ما، (Griffin & Phoenix، 1994)⁴. إن قيام النسويات الإمبريقيات بتضمين قضايا النوع والثقافة والسياق في مناهج الاستطلاعات الكمية أدى إلى تسليط الضوء على الافتراضات الذاتية والأبوية التي كانت قد ترسخت داخل أدوات البحث المستخدمة مسبقاً.

وقد كانت مناهج البحث الاستطلاعي الوضعية التقليدية تنحو إلى تغييب النساء وجعلهن غير مرئيات. ونجد أن تضمين عنصر النوع (gender) كمياً باعتباره

عنصرا متغيرا في البحث الاستطلاعي ، قد عمل على تسليط الضوء وتعقيد نتائج البحث في عدد من التخصصات البحثية المتنوعة . إن القيام ببحث استطلاعي من منطلق نسوي يتضمن موقفا سياسيا في دراسة العالم دراسة تلتفت إلى الأبعاد والاختلافات النوعية (gender). وقد أصبحت قضايا النساء والنوع -جزئيا- حاضرا مرثيا في الحقائق الإحصائية التي تدرسها النسويات الإمبريكية . وبالعودة إلى المثال الذي سبق ذكره بشأن التحرش الجنسي ، فمن الممكن بالطبع أن نتخيل خطة البحث الكمي التي يستخدمها باحث وضعي تقليدي غير نسوي من حيث ما قد يشكل مضمون ونتائج هذا البحث ، إذ سيرى مثل هذا البحث أن التحرش الجنسي هو حدث حقيقي ومعروف يؤثر على أعداد معتبرة من النساء في أماكن عمل متنوعة ، كما سيسعى ربما إلى التوصل إلى إجابات وحلول لمشكلة التحرش الجنسي .

ولكن فلنتخيل أوجه القصور عند عدم تطبيق المنظور النسوي في مراحل صياغة أسئلة الاستطلاع الكمي ثم تحليل البيانات والبحث النهائي في صيغته النصية . إن عدم وجود نظرة نسوية في تلك المسألة الإمبريكية تحديدا سيؤدي في الغالب إلى عدم دراسة مفهوم التحرش الجنسي باعتباره من معوقات ترقى النساء في أماكن العمل . فعلى سبيل المثال ، نجد أن التحليل الإمبريقي النسوي سيتطلب طرح أسئلة ووضع عناصر متغيرة في تصميم الاستطلاع بما يقيس معدلات رواتب وترقيات الرجال والنساء ، إذ إن هذا القياس والتحليل يتطلب الالتفات إلى مساواة النساء بالرجال . وهكذا فإن الاختلاف بين الجنسين والأسئلة المتعلقة بعلاقات القوى لن تخضع للدراسة داخل خطة بحث كمي يفتقد إلى المنظور النسوي .

إن قيام أبحاث تتناول حياة النساء لا يعني بالضرورة أنها تتم من أجل النساء . وتهدف القيم النسوية إلى مقاومة التفسيرات الخاوية من سياقها الاجتماعي والسياسي . وتؤمن الإمبريقيات النسويات أن السياق الاجتماعي والسياسي لسؤال البحث هو سياق قابل للقياس والملاحظة ، كما تؤمن هؤلاء الباحثات بأن السياق جزء محوري

من البحث الجيد، فبدون السياق يكون البحث الناتج أقل من أن يوصف بالموضوعية. ويمكن للبحوث الاستطلاعية الكمية أن تتناول أموراً ذات أهمية قصوى بالنسبة للنساء (كالتحرش الجنسي)، ولكن وضع النساء في الاعتبار من منظور نسوي هو أمر يتطلب أن تكون السياقات الاجتماعية والسياسية لقضايا النوع والسلطة جزءاً لا يتجزأ من الحقائق التي يتم الحديث عنها. وتؤكد النسويات الإمبريقيات اللاتي يستخدمن مناهج البحث الكمي على أنهن يتمتعن بموقع متميز في سبيل تحقيق التغيير الاجتماعي للنساء بطرق فعالة⁵، إذ يؤكدن على أن الإحصائيات تصب في صالح أصحاب السلطة. وترى كل من روبيرتا سبالتر-روث وهايدي هارتمان (Roberta Spalter-Roth and Heidi Hartman، 1999)، على ضرورة وجود رؤية تسعى إلى "الجمع والتوفيق بين آراء جيلين من أجل قيام بحوث تتوافق مع معايير العلوم الاجتماعية الوضعية وبين الأهداف النسوية في قيام أبحاث "من أجل" النساء لا "عن" النساء (ص333). ونجد أن النسويات الإمبريقيات ينطلقن في أبحاثهن من موقع في داخل المؤسسة العلمية والسياسية.

إن أخذ النساء في الاعتبار لا يشير فقط إلى وجود النساء وهمهن ضمن الجهود البحثية، بل يتضمن أيضاً قيام النساء بإفراد مساحة خاصة بهن داخل مواقع البحث الأكاديمية، أو الأبحاث الطبية المجتمعية، أو النقاش حول السياسات العامة، وما إلى ذلك. وفي ذلك تشير مارجوري دي فولت (Marjorie DeVault، 1996) قائلة "إن الاهتمام بالتمييز الجنسي في مسار البحث ربما يعتمد في الغالب على تواجد النسويات داخل فرق البحث المتنوعة، حيث يكن هن الأقرب من غيرهن إلى لفت الانتباه إلى تلك التحيزات" (ص36). إن قيام الكثيرات من النسويات الإمبريقيات، مثل روبيرتا سبالتر-روث وهايدي هارتمان، بالجمع بين رؤاهن الإستمولوجية وأهدافهن السياسية النسوية يجعلهن صاحبات "رؤية مزدوجة تجاه... البحث" (ص337). وفيما يتعلق بما قامتا به من بحث في السياسات العامة الإحصائية بشأن أوضاع النساء في العمل وبرامج الرفاهية الاجتماعية (welfare)، تشير الباحثتان إلى الآتي:

إن البحث الذي قمنا به يعكس كلا من الآراء المنهجية السائدة والآراء النقدية المعارضة لها ، وذلك لاستخدامنا تقنيات العلوم الاجتماعية الشائعة مع قيامنا بغربلتها عبر منظور نسوي يتوقف نقدياً أمام كيفية قيام تلك التقنيات بإعادة إنتاج وإضفاء الشرعية على علاقات السيادة وعدم المساواة على مستوى النوع والعرق والطبقة (Roberta Spalter-Roth and Heidi Hartman ، 1999 ، p. 337).

إن العمل داخل النظام القائم لمناهج البحث ، ومتطلبات السياسة العامة والساحات التقليدية الخاصة بمعايير البحث العلمي هو عمل يستدعي تقديم تنازلات تجدها بعض النسويات مسألة ضرورية وعملية وذكية عند العمل من أجل التغيير الاجتماعي . ولكنها في الوقت ذاته تمثل تنازلات باهظة بالنسبة لنسويات أخريات ممن يتطلب موقفهن السياسي ومنظورهن الإستمولوجي المعرفي الخروج من قيود المنظومة الوضعية . إلا أن النسويات الإمبريقيات يدركن وجود حاجة لتواجد النساء والنسويات على كل مستويات البحث المعرفي ، وداخل كل الساحات التي تشهد جهوداً من أجل التغيير الاجتماعي ، وفي كل تخصص يسعى إلى صلاح البشرية ورفاهيتها .

الكشف عن اللاحقائ ورصد التنميط

إن التدمير العملي الإمبريقي للصور النمطية والأيديولوجيات الأبوية واللاحقائ هو إحدى الساحات الكبرى التي تميل النسويات الإمبريقيات إلى العمل فيها . وقد أخذ العمل على التخلص من التحيز الذكوري ، والسعي لتضمين النساء في الجهود البحثية خلال السنوات الأخيرة ، في الانتقال من التضمين المباشر لحيوات وتجارب النساء نحو قيام النسويات الإمبريقيات بطرح أكثر تعقيداً للأسئلة حول كيفية تمثيل النساء داخل النشاط البحثي في حد ذاته . فعندما نجد أن الفكر النسوي يوفر أرضية سياسية

للعمل الإمبريقي، فنجد أن الباحثة "ملزمة أيضا بالتوقف أمام الطرق التي يعمل بها الخطاب العلمي على ترسيخ الصور النمطية الاجتماعية والثقافية القائمة، بما يجعلها تبدو "طبيعية" (Weasel، 2001، p. 30).

وعودة إلى مثال مختلف من دنيا الواقع، فلنتخيل مرة أخرى لوهلة أن كل الدراسات الطبية التي تتناول تجارب والعلاج الفعال لأمراض القلب هي دراسات تمت على حالات من الرجال، ولنتخيل أنه لا توجد دراسة واحدة تتضمن السؤال التالي: كيف تعايش النساء الأمراض القلبية؟ وهل تختلف تجاربهن عن تجارب الرجال؟ وكيف يجب أن يتخذ علاج النساء مسارا يحقق أفضل النتائج؟ ونقوم كل من كيم ماكورميك وشيلا بنتينج (Kim M. McCormick and Sheila M. Bunting، 2002) بدراسة أثر النظرية النسوية على البحوث التي تتناول التمريض، حيث تتبعان الأبحاث الصادرة حديثا والتي توضح أن تجربة النساء المتعلقة بالإصابة بأمراض القلب تختلف كثيرا عن تجربة الرجال. إن مثل هذه الدراسات تقوم بتضمين النساء في خطة البحث، مع طرح أسئلة عما إذا كانت الأعراض التي أصيبت بها النساء وتجربة المرض والتعافي والعلاج ملائمة وناجحة عند قيامها تبعا للنموذج العام الصادر عن الأبحاث التي تتناول الرجال. وقد أثبتت هذه الدراسات أن النساء يعانين من أعراض وتجارب مختلفة كما أن التعافي يتطلب أشكالا من العلاج مختلفة عما يلائم الرجال.

إلا أن الباحثين كيم ماكورميك وشيلا بنتينج لا تتوقفان عند حديثهما عن النسويات الإمبريقيات عند نقطة تضمين عينات من النساء المريضات في الدراسات وعند توضيح أوجه التحيز الذكوري في الأبحاث القائمة، ففي رأيهما لا يكفي "إضافة النساء ثم الانقلاب"، وإنما تواصلان حديثهما بالتعليق على الصعوبات في التعبير عن الاختلافات بين الرجال والنساء في الدراسات المنشورة وتمثيل تلك الاختلافات في تلك النصوص، بما لا يلحق مزيدا من الضرر بأوضاع النساء أو الرعاية الصحية. إن الجهود الساعية لإيقاف البحوث التي تستغل النساء دفعت بعض النسويات الإمبريقيات

إلى عدم التوقف عند الجهود لتقليل التحيز الذكوري وتجاوزها في التعمق بشأن المسائل المتعلقة بالتداعيات السياسية والاجتماعية المترتبة عن البحوث والدراسات التي يتم القيام بها. وفي هذا الصدد توضح الباحثتان أن "التحدي الذي يواجه الباحثات يتمثل في تناول النساء بشكل يتيح ظهور أوجه الاختلاف دون تصويرهن باعتبارهن أدنى من الرجال" (ص820). وتقوم الباحثتان بتحليل كمي لأنماط تمثيل النساء في أدبيات التمريض بشأن أمراض القلب، ونجدهما تحاولان تقديم صورة هي الأكثر موضوعية ومكتملة السياق عند تمثيل النساء، بينما تقومان - في الوقت نفسه - بنقد البنى المعرفية التي تسيء إلى النساء وإلى الأنوثة. إن البحث عن الحقيقة بتضمين النساء داخل خطط وأسئلة البحث لا يتسم بالعمق الكافي.

إن الدراسة الإمبريقية وتناول إشكاليات المفاهيم المختلفة أصبحت جزءاً لا يتجزأ من العمل النسوي الإمبريقي. كذلك نجد باحثة الآثار النسوية مارجريت كونكي (Margaret W. Conkey، 2003)، شير قائلة: "نعم، توجد لدينا الآن نساء، ولكن وجودهن قاصر على أدوار وأنشطة وأهمية لا تتال قدرها من التناول الإشكالي" (ص876). وهكذا فإن النسويات الإمبريقيات يقمن بمواجهة مجالات بحثهن وتخصصهن في سبيل توجيهها نحو الالتفات لتمثيلهن للنساء، ولكن النسويات الإمبريقيات يضعن مجالاتهن وتخصصاتهن أمام كم من الأسئلة يماثل كم الإجابات المطروحة.

وفي سبيل إلقاء المزيد من الضوء على جهود النسويات الإمبريقيات البحثية، يمكننا التوقف أمام مسألة كيف يمكن لتمثيل النساء في بحث يتناول التحرش الجنسي أن يقوم على مزيد من استغلال النساء. فالبحث الإمبريقي التجريبي الذي لا يقوم على القيم النسوية المناهضة للاستغلال قد يؤدي إلى تصوير النساء باعتبارهن ضحايا، كما قد يقوم مثل هذا البحث على فرضيات أبوية محددة تؤدي إلى تحليل مقولات تمثل النساء باعتبارهن "يطلبن" هذا التحرش عن طريق ارتداء الملابس المثيرة في مكان العمل أو

التفاعل مع أنماط من الغزل . ولكن القيام بالبحث الإمبريقي من منطلق نسوي يتطلب أن يتسم تمثيل النساء في التحليل والنص المكتوب بمبادئ المسؤولية والأخلاق ، ومن هنا ترى بعض النسويات الإمبريقيات أن نتائج البحث التي تضع المرأة في موقع الضحية أو "طلب التحرش" هي نتائج تستدعي اعتماد الباحث على افتراضات محملة بالأبوية والتحيز الذكوري وكونها أقل من أن توصف بالموضوعية .

وعلى الرغم من مثل تلك المقاصد السياسية التي تتبناها بعض النسويات الإمبريقيات سعيا للتوقف أمام وإصلاح البحث العلمي القائم على الاستغلال ، فإن هنالك العديد من النسويات الإمبريقيات ، صاحبات خلفيات إبستمولوجية معرفية مختلفة ، ممن يؤكدن على أن ارتباطهن الصارم بالمنهج الوضعي والمؤسسة التي ينتمي إليها هو ارتباط يجب أن يتعرض للخلعة ، ويرين أن النسويات الإمبريقيات مستمرات في "إضافة النساء والتقليب" على الرغم من حسن نواياهن ، وذلك في اعتمادهن على أدوات البحث الأبوية غير الناجعة والتابعة للمؤسسة العلمية ، بما يجعل ما يتم إنتاجه من معرفة قابلا للاستخدام بشكل في استغلال للنساء . وعادة ما تواجه النسويات الإمبريقيات مثل هذا النقد بقناعة وإيمان بإمكانية التغلب بالجهود الإمبريقية النسوية على تلك الأمور بالجمع بين الحرص والمنظور السياسي والمعايير الموضوعية في بناء المعرفة .

ويتسم مضمون الصور النمطية للنساء والرجال بالتنوع والحيوية بل والطرافة أحيانا ، فلنأخذ- على سبيل المثال - ما قامت به باحثة الأنثروبولوجيا إيميلي مارتن (Emily Martin ، 1999) في عملها الرائد كاشفة عن التحيز الذكوري في العلوم الطبيعية . فقد قامت بدراسة الكتب الدراسية التي تتناول النشاط الإنجابي لدى البشر ، فوجدت أن تلك الكتب تميل إلى صياغة حكاية تقوم على خلق وإعادة صياغة وترسيخ الصور النمطية للبويضة والحيوان المنوي على أساس من علاقات القوى بين الجنسين . فقد اتضح لها أن الإشارة تتم عادة إلى البويضة بما يعكس سلبيتها ، حيث أن البويضة "يتم نقلها" و "تتم إزاحتها" بل وأنها "تنجرف" ، بينما نجد على النقيض من ذلك أن

الحديث عن الحيوان المنوي يتم عادة باستخدام مصطلحات تعبر عن الحركة والعدوانية والنشاط مثل استخدام تعبيرات "السرعة" (velocity) و "القوة" (propelling) إذ "يحفر طريقه عبر غشاء البويضة" و "يخترقها" (Emily Martin ، 1999 ، p. 17). وتبرز لنا إيميلي مارتن أن ما يعتبر كتباً دراسية طبية موضوعية هي كتب مليئة بالصور النمطية غير الموضوعية، بما يجعلها تعمل على تشكيل كل من الفهم الطبي والثقافي للأحداث الطبيعية. إن موقف إيميلي مارتن الإمبريقي النسوي يؤكد على أن هنالك واقعا موضوعيا قابلا للفهم بشأن ما يدور بين البويضة والحيوان المنوي، كما تؤكد الباحثة أن الكتب الدراسية الطبية كانت تقدم صوراً نمطية لعلاقات القوى بين الجنسين باستخدام لغة ليس لها أساس فعلي في الواقع.

وتشارك إيميلي مارتن مع العديديات من النسويات الإمبريقيات اللاتي يرين أن تسليط الضوء على مثل هذه الصور النمطية يؤدي إلى تقليص آثارها على المجتمع. إن الهدف من كشف الصور النمطية والتحيزات الذكورية هو هدف سياسي، ونجد أن النسويات الإمبريقيات يتعمقن إلى ما هو أسفل قشور البحوث التقليدية المتحجرة، فيتوقفن عند مساحات الظلام حيث يتم تقديم النساء والأنوثة في شكل سلبي وقمعي. وبالعودة مرة أخرى إلى المثال الذي قدمناه مسبقاً بشأن تجربة تلك المرأة مع التحرش الجنسي، فلنتخيل لو أن تجربتها تلك قد تمت دراستها من خلال نظرة وضعية لباحثة أو باحث يتبنى النظرة النمطية للنساء في صورة الكائنات الراعية العاطفية باعتبارها هي النظرة الواقعية الفعلية. وبالتالي سيتبنى هذا الباحث نظرة نمطية فيما يتعلق بأدوار الجنسين، فيرى الرجال باعتبارهم عدوانيين، مسيطرين وغير قادرين على التحكم في دوافعهم الجنسية. فلنتخيل لو هلة كيف يمكن لتلك الصور النمطية غير الموضوعية والتي لم تخضع للاختبار أن تؤثر على نتائج البحث. فبدون المسعى النسوي لتجاوز تلك الصور النمطية والتي تمثل في حد ذاتها جزءاً من السياق الاجتماعي والسياسي الأعم للتحرش الجنسي، فإن نتائج البحث حينها ستميل نحو إعادة إنتاج مستمر للصور

النمطية المعهودة . وتقوم النسويات الإمبريقيات ، ومن بينهن إيميلي مارتن ، بملاحظة ودراسة واختبار تلك الصور النمطية بدرجات متفاوتة . فعلى سبيل المثال ، وفيما يتعلق بالتحرش الجنسي ، نجد أن جين ستوكارد ومiriam Johnson (1992) ، قد تجاوزتا الصور النمطية التي تتكرر في أسئلة البحث ونتائجه ، إذ أكدتا أن التفاعل الاجتماعي (socialization) يشجع النساء على تجنب الصراعات (وهو ما يتعارض مع الصور النمطية التي توحي بأن النساء بطبيعتهن سلبيات في مواجهة الصراعات) وأنه يؤثر على أنماط تعبير النساء عن تعرضهن للتحرش الجنسي . إن المقصد الإمبريقي في اختبار وملاحظة الإجابات على ذلك السؤال النسوي يؤدي ببعض الباحثات ، مثل جين ستوكارد ومiriam جونسون ، إلى تقديم أسس أكثر موضوعية لبناء المعرفة .

إن صياغة أسئلة جديدة على قاعدة من التحليل الإمبريقي إنما يمثل إحدى نقاط قوة المنهج الإمبريقي النسوي .⁶ وفي سبيل التوصل إلى فهم أفضل للأثر الحقيقي الناتج عن الجمع بين خصائص المنهج النسوي والمنهج الإمبريقي ، فلننتقل إلى المثال التالي ؛ ففي المقطع المتعمق التالي من "ما وراء الستار" تدعونا الباحثة النسوية المعروفة ديانا راسل (Diana E. H. Russell) إلى التعرف على الدراسة الكمية التي قامت بها حول الاغتصاب ، وإلى التعرف على الموقف النسوي الذي وجه مسار هذا البحث .

ما وراء الستار مع ديانا راسل

مساهمة النسوية في البحث الذي قمت به حول الاغتصاب

”إنك لم توضحني ما إذا كان الاغتصاب مشكلة مهمة، أم أنه مجرد موضوع يهم حفنة من النساء المختلات.“

جلاديس هاندي،

المؤسسة القومية للعلوم، 1971

إن كلا من تجربتي الشخصية مع الاعتداء الجنسي في الطفولة وانتمائي النسوي لعبا أدوارا رئيسية في قراري بشأن القيام بأبحاث عن الاغتصاب وغيره من العنف والاعتداء الجنسي الذكوري (misogynist) ضد الإناث، وهي الأبحاث التي بدأت منذ عام 1971 واستمرت حتى يومنا هذا. إن المحاكمة التي جرت في سان فرانسيسكو في عام 1971 لقضية اغتصاب كانت عاملا في إثارتي بالغضب النسوي تجاه ازدواجية المعايير في التمييز الجنسي التي اتضحت من خلال تصوير الضحية باعتبارها هي المتهمه بسبب حياتها الجنسية النشطة، بينما على النقيض من ذلك تم استخدام النشاط الجنسي للمغتصب، جيري بلونكين، كوسيلة للدفاع عنه ضد تهمة الاغتصاب، إذ طرح المحامي المدافع عنه سؤالا لهيئة المحلفين بنبرة متشككة قائلا: ”ما الذي يجعله يغتصب امرأة إذا كان لا يجد صعوبة في العثور على إناث يقبلن إقامة علاقة جنسية معه؟“

وقد أصابني ذلك ”المنطق“ القائم على التمييز بغضب أدى بي إلى الانضمام إلى وقفة احتجاج نسوية أمام المحكمة ضمت نساء شاركنني مشاعري بشأن التمييز الجنسي الذي اتسمت به تلك المحاكمة. وقمنا في هذا الصدد بتوزيع منشورات تستنكر ”الاغتصاب في قاعة المحكمة“، وقد قامت العديد من النساء

المشاركات في الاحتجاج بالإشارة بشكل تلقائي غير رسمي إلى العدد الكبير من النساء المعروفات لهن ممن تعرضن للاغتصاب ، بما يوحي بأن الاغتصاب صار أمرا شائعا يمارسه الرجال . وقد أذهلتني تلك المقولة ، كما أدهشني كوني غير مدركة لتعرض أي من معارفي من النساء للاغتصاب .

وقد أوضحت لي تلك التجربة مدى قلة معلوماتي عن الاغتصاب من منظور الضحية ، فقررت تتبع ما هو مكتوب في الأدبيات الأكاديمية في هذا الشأن . ومرة أخرى مكنتي منظوري النسوي من إدراك - وبصدمة بالغة - مدى التمييز الجنسي ولوم الضحية الموجود في تلك الكتابات . ثم مكنتي منظوري النسوي لاحقا من إدراك الدور الذي يلعبه التحيز الذكوري (misogyny) في أشكال أخرى عديدة من الاستغلال الجنسي ، والإجبار الجنسي ، والعنف ضد النساء والفتيات ، ذلك كله إلى جانب الاغتصاب .

ولكني مع ذلك أعتقد أن تجربة الأذى الجنسي الصادمة التي تعرضت لها في الخامسة عشرة من عمري كانت هي الحافز الأقوى وراء دراستي الممتدة للأذى الجنسي والعنف الجنسي الذي يمارسه الرجال ضد النساء والفتيات . ولم أكن حينها واعية بمصدر هذا الحافز القوي ، ولم أدركه إلا في مرحلة لاحقة جدا .

لقد ثرت غضبا لحكم هيئة المحلفين بأن جيري بلوتكين "غير مذنب" ، ونظرا لإدراكي أن الشهادات التي استمعت إليها هيئة المحلفين كانت بالغة التحيز ، عزممت على أن تقوم دراستي بعرض وجهات نظر الضحايا (victims) (لم يتم البدء في استخدام مصطلح الناجيات (survivors) سوى بعد فترة طويلة) ، وهو منظور توقعت أن يختلف تماما عن الطريقة التي ظهر بها في سجلات المحكمة والتقارير الصحفية .

وقد أوردت في بداية حديثي هنا رد الفعل الجاهل والمهين وغير المحترم والقائم على التمييز الجنسي ، والذي حصلت عليه من جلاديس هاندي ، أحد العاملين في المؤسسة القومية للعلوم والمسؤول عن تقييم طلب لتمويل بحث . ونظرا لأسفي البالغ على رد فعله العدائي ، شرعت في القيام ببحث استكشافي حول تجارب الناجيات من الاغتصاب في بيركلي وأوكلاند بكاليفورنيا ، دون التمتع بمزايا التمويل . فقامت مع ثلاث طالبات متطوعات بمقابلات شخصية مع ما يزيد على عدد 80 متطوعة من الناجيات من الاغتصاب . وقد أدت هذه الدراسة إلى إصدار كتابي عن "سياسات الاغتصاب: منظور الضحايا - Rus (sell, The Politics of Rape: The Victims' Perspective, 1975) ، والذي أؤكد فيه أن الاغتصاب لم يكن فعلا رجاليا منحرفا ، بل فعلا متماشيا مع مفاهيم الذكورة الشائعة في مجتمعنا الأبوي .

ونظرا لأن الناشر (Stein & Day) طالب بحذف الفصل النظري الأساسي الموجود في المخطوطة ، تعرض الكتاب لتأخر في نشره لما يزيد على العام . ومع ذلك جاء هذا الكتاب ليكون ثالث كتاب نسوي يساهم في تثوير أدبيات العلوم الاجتماعية حول الاغتصاب ، ثم التأثير لاحقا بالمثل على أعداد كبيرة من الأمريكيين (وكان الكتابان الآخران المنشوران عن الاغتصاب هما: Cornell 1974; Medea & Thomson ، 1974; Wilson ، & ، ولم أكن على علم بهما أثناء عملي في كتابي) .

ونظرا لكوني كنت قد سمعت قول الكثيرات من النسويات إن الاغتصاب جريمة شائعة ضد النساء ، وعلى النقيض من افتراض غالبية غير المؤمنين بالنسوية ممن يعتبرون الاغتصاب جريمة غير شائعة نسبيا ، فقد قررت أنه من المهم للغاية أن أحاول الحصول على تمويل للقيام بدراسة علمية على نطاق واسع نسبيا حول مدى انتشار الاغتصاب في منطقة سان فرانسيسكو ، وذلك للتحقق

من هذين النقيضين والتوصل إلى الرأي الصحيح فيهما. وكان المعهد القومي للصحة العقلية قد قام وقتها بتوفير تمويل خاص بأبحاث الاغتصاب، فجاء مشروع البحث الاستطلاعي الذي تقدمت إليهم به ضمن أوائل طلبات التمويل التي تم تمويلها في عام 1977.

وإضافة إلى رغبتني في التحقق من شيوع الاغتصاب من خلال عينة محتملة من النساء المقيمات في سان فرانسيسكو والبالغات من العمر 18 عاما وما فوق، سعت أيضا إلى تأكيد مدى انتشار زنا المحارم، والأذى الجنسي للأطفال من خارج الأسرة، والأذى الجنسي من أفراد يتمتعون بسلطة ما، وأثار كل تلك الأشكال من الانتهاك والعنف الجنسي على الضحايا/الناجين. ولكنني سأركز حديثي هنا على أثر منظوري النسوي على المنهجية التي اتبعتها في تقدير مدى شيوع الاغتصاب.

المنهجية

فكرت وقتها في التعاقد مع مركز الأبحاث الاستطلاعية في جامعة كاليفورنيا ببيركلي، وذلك لتنفيذ مرحلة العمل الميداني في مشروعي، ولكنني علمت أنهم لن يسمحوا لي بأي تأثير على أسلوب تدريب القائمين بالمقابلات الشخصية، فكان هذا هو السبب الرئيسي الذي جعلني أراجع عن تلك الفكرة. أما السبب وراء ذلك فهو كالاتي: من أهم الخصائص الأساسية في البحث الاستطلاعي هي عدم ضرورة إخبار من يتم عقد المقابلات الشخصية معهم بموضوع الدراسة، أو اختيارهم تبعاً لمواقفهم حيال موضوع البحث، حتى عندما يتطرق موضوع البحث إلى المحرمات في المجتمع. ولكنني قررت أن تلك القاعدة السائدة في البحوث الاستطلاعية لا تتلاءم مع دراستي بسبب طبيعة الموضوعات،

واعتبارها من المحرمات ، والتي رغبت في تناولها ، ومواقف معظم الناس حينذاك والقائمة على لوم الضحية فيما يتعلق بالاغتصاب وغيره من أشكال الاعتداء الجنسي . وتميل الكثيرات من النساء عادة إلى التزام الصمت عندما يسألن في مقابلة شخصية من قبل شخص غير معلوم لهن ليتحدثن عن تجربة الاغتصاب ، وذلك بفعل شعورهن بالعار ولوم الذات والقلق من التعرض للوم من قبل القائمين بالمقابلة ، وخاصة حين يوحى أحدهم ، ولو بشكل غامض ، عن مسؤولية الضحايا عما يتعرضن له . وبالتالي فإن إرسال من يفترض إنهم باحثون محايدون للقيام بالمقابلات الشخصية في الميدان دون إعدادهم وتعريفهم بالقضايا التي يتضمنها البحث ، هو أمر كان سيؤثر تأثيرا سلبيا بالغاً على محاولتي في الحصول على أكثر درجات الكشف والحديث عن الاغتصاب وزنا المحارم وغيرهما من أشكال الاعتداء الجنسي .

ومن هنا قررت أن أتعاقد فقط فيما يخص مرحلة إعداد عينة البحث ، وقمت في سبيل ذلك بالتعاقد مع شركة البحوث الميدانية "فيلد ريسيرتش كوربوريشن" (Field Research Corporation) ، وهي شركة تتمتع بسمعة رفيعة في بحوث التسويق ودراسات الرأي العام في سان فرانسيسكو . وقد نتج عن ذلك حصولي على عينة إمكانية (probability sample) من 960 امرأة من سكان سان فرانسيسكو في الفئة العمرية من الثامنة عشرة وما فوقها . وقد قام فريق من 33 باحثة من ذوات هويات عرقية وطبقية متنوعة بعقد مقابلات مع تلك العينة من النساء خلال صيف عام 1978 (وللمزيد من المعلومات بشأن المنهجية المتبعة في تلك الدراسة يمكن الرجوع إلى: Russell ، 1984) .

وقد تضمن الزمن المخصص بواقع 65 ساعة للتدريب المكثف لهؤلاء الباحثات عشر ساعات - على الأقل - لتعريفهم بالاغتصاب وزنا المحارم . وقد تضمن هذا التدريب الاستماع إلى شهادات شخصية لتجارب اغتصاب وزنا محارم

التي تطوعت بتوفيرها بعض الباحثات وغيرهن من العاملين في المشروع ، كما تضمن أيضا مشاهدة فيلم سينمائي نسوي عن الاغتصاب ، وتلقي إرشادات مباشرة بشأن الاغتصاب ، ومنها على سبيل المثال أن الكثيرات من النساء يكن ضحايا للاغتصاب المتكرر . وبالتالي تم تنبيه الباحثات كي لا تصيبن الدهشة عند تعرضهن لمثل تلك الحالات في المقابلات الشخصية .

ومع ذلك فإن تخصيص 10 ساعات من التدريب لا يمكن أن يحول شخصا متعصبا إلى شخص محايد بلا تحامل أو مواقف مسبقة . ومن هنا تم اختيار الباحثات القائمات بالمقابلات بناء على مواقفهن في عدم لوم ضحايا الاعتداءات الجنسية ، إضافة إلى مهاراتهم في عقد المقابلات الشخصية . كذلك ، ونظرا لأن الاستطلاع كان قاصرا على عينة من النساء ، لم أتوقف أمام فكرة الاستعانة بباحثين من الذكور .

وقد رأيت أنه من المهم للغاية إعداد جدول للمقابلات بحيث يتم تجنب أي إيحاء بلوم الضحية ، فعلى سبيل المثال كان يطلب من المستجيبات الإشارة إلى مدى موافقتهن أو معارضتهن لعدد من المقولات التي كانت تستهدف ذلك الأمر قبل البدء في طرح الأسئلة عليهن عن تجاربهن مع الاغتصاب والتعرض للأذى الجنسي سواء من الأقارب و/أو غير الأقارب ، وهلم جرا . ومن تلك المقولات التي كان يتم البدء بها ما يلي: "يمكن لأية امرأة أن تكون ضحية للاغتصاب أو الأذى الجنسي" ، "تتعرض معظم النساء إلى نوع ما من أنواع الأذى الجنسي على الأقل مرة - واحدة في حياتهن" ، "في حالة توفر الظروف المناسبة ، فإن معظم الرجال قادرون على ارتكاب الاغتصاب" ، "ضحايا الاغتصاب غير مسؤولات عن تعرضهن للاغتصاب" . كما تمت صياغة مقولة أخرى بحيث تشجع المستجيبات على الكشف عن تجاربهن: "من المفيد عادة الحديث عن التجارب الأليمة" . إن التعبير عن الانحياز في صياغة الأسئلة بتلك الطريقة

هو أمر يتعارض مع قاعدة أساسية من قواعد إعداد الاستبيان الذي يتطلب من الباحثين أن يتجنبوا الكشف عن مثل هذا الانحياز ، بحيث تتم صياغة أسئلة تعبر عن "الموضوعية" في تناول موضوع البحث .

وقد جعلتني معرفتي عن الاغتصاب أتجنب استخدام هذا المصطلح (الاغتصاب) سوى في الحالات التي تبرر ذلك ، فعلى سبيل المثال ، لم أدرج في جدول المقابلات المشتمل على 38 سؤالاً ، والذي استخدمته في البحث ، سوى سؤال واحد يتضمن كلمة الاغتصاب ، وذلك لإلقاء الضوء على عدد النساء اللاتي يدركن تجاربهن باعتبارها تجارب اغتصاب . وهو مفهوم قمت بتعريفه باعتباره يشير إلى الممارسة الجنسية الإجبارية ، أو الممارسة الجنسية التي تتم بتهديد استخدام القوة ، أو الممارسة الجنسية التي تتم أثناء وقوع المرأة تحت تأثير مخدر ما أو في حالة فقدان الوعي أو التعرض لشل حركتها الجسدية بأي شكل من الأشكال ، أو أية محالات تتم لتحقيق ذلك الفعل (وكان هذا هو التعريف القانوني للاغتصاب في كاليفورنيا في ذلك الوقت ، باستثناء كون دراستي تتضمن حالات من اغتصاب الزوجة) . وقد قمت باستبعاد المصطلحات المحرمة (الطابوهات) لما توقعته من قيام كثير من المستجيبات من عدم تطبيق مثل تلك المصطلحات المحملة بالقيم على تجاربهن . وقد أكدت صحة توقعاتي كما يتضح في الباب التالي .

نتائج بشأن معدلات الانتشار

إن الحكمة التي حملها فهمي النسوي لتجارب النساء في التعرض للاغتصاب أكدت بما حصلت عليه من معدل صراحة مرتفع وغير مسبوق ، وذلك نتيجة منهجيتي في البحث الاستطلاعي . فعلى سبيل المثال ، كشفت نسبة 22% من مجموع 930 مستجيبة عن تجارب من الاغتصاب¹ المكتمل و/أو محاولات

الاغتصاب في إجاباتهم على السؤال الذي تضمن كلمة الاغتصاب . * وعند الجمع بين الاغتصاب المكتمل ومحاولات الاغتصاب ، وهو ما يتم عادة في إحصائيات مكتب التحقيقات الفيدرالية (FBI) ، انضح أن 44 % من العينة تحدثن على الأقل عن حالة واحدة من الاغتصاب المكتمل أو محاولة الاغتصاب . ومن هنا نجد أن طرح السؤال المباشر بشأن الاغتصاب لا يكشف سوى عن نصف تجارب الاغتصاب الفعلية التي تبلغ عنها المستجيبات .

خاتمة

إنني أرى أن المعدلات المرتفعة التي حصلنا عليها باتباع منهجيتي في البحث جاءت نتيجة لفهمي النسوي فيما يتعلق بالاغتصاب . وفيما يلي ملخص لبعض أهم الملامح المنهجية التي أعتقد أنها تفسر الأسباب وراء حصولي في الاستطلاع على هذا الارتفاع النسبي في معدلات انتشار الاغتصاب ، وهي معدلات تفوق بشكل ملحوظ أي دراسة شبيهة تمت منذ ذلك الحين انظر/ي: (Russell & Bolen ، 2000):

- الاستعانة بمجال واسع من الأسئلة في جدول المقابلات بما ساعد في استحضار ذكريات النساء لما تعرضن له من تجارب اغتصاب .
- إدراج أسئلة تكشف عن مواقف لا تلوم الضحية ، وبلا تحيز من جانب الدراسة .
- تجنب استخدام كلمة الاغتصاب في كل أسئلة جدول المقابلة باستثناء سؤال واحد .
- الاقتصار على الاستعانة بإنات في عملية عقد المقابلات .
- الاختيار الدقيق للقائمات على المقابلات الشخصية ممن لا يعترفن بالأساطير السائدة بشأن الاغتصاب .

- التدريب الجاد للقائات بالمقابلات الشخصية من حيث إدارة مسار جدول المقابلات ومن حيث تعريفهن بكل ما يخص الاغتصاب .
- محاولة التوفيق بين الخلفية انعرقية لكل من المستجيبة والقائمة بالمقابلة بقدر المستطاع .

ولأسباب غير معلومة لم تقم أي باحثة في الولايات المتحدة الأمريكية بتكرار بعض الملامح المهمة المستخدمة في منهجي البحثي في تلك الدراسة، فيما عدا ما يتعلق بالاستعانة بباحثات من الإناث لعقد المقابلات . فهل من المثير للدهشة إذن أنه لا يوجد بحث استطلاعي آخر نجح حتى في الاقتراب من معدلات الانتشار مثل تلك التي توصلت إليها في بحثي الاستطلاعي بالنسبة للاغتصاب؟ (وممي مقولة يتم تفسيرها في: Russell & Bolen ، 2000) . إنني أرى أن بحثي الاستطلاعي يوضح الأهمية الكبرى لتوظيف منهجية بحث نسوية لتقدير مدى انتشار الاغتصاب وغيره من الأذى والعنف الجنسي . ولم يمنعني سوى ضيق المساحة هنا من إدراج وصف لمنهجيتي النسوية ونتائج بحثي حول انتشار الأذى الجنسي للأطفال سواء من ذوي المحارم أو من خارج إطار الأسرة . وأنا أعتقد أن المنظور النسوي سيثبت نفس القدر من الأهمية عند تطبيقه في دراسات وأبحاث حول العديد من الموضوعات الأخرى .

لقد أحدثت البحث النسوي والتحليل النسوي للاغتصاب ثورة في مفهوم الاغتصاب في الدول الغربية وغيرها ، وأنا أعترز لكوني ممن مهدن هذا الطريق أنا ومعني عدد من الباحثات الأخريات والعديد من النساء الشجاعات الناجيات من الاغتصاب ممن أعربن عن استعدادهن للحديث عن تجاربهن .

هامش

* قمت مع اثنتين من المساعدات (coders) بتقييم ما إذا كانت كل تجربة مما وصفتها المستجيبات بالاغتصاب تتماشى مع تعريف البحث لكل من الاغتصاب ومحاولة الاغتصاب .

مساحات (chasms) إبستمولوجية: الموضوعية

تهدف النسويات الإمبريقيات إلى تناول القضايا المعرضة للتجاهل والإهمال مما يجعلها بالتالي غير ملحوظة في منظومة البحث الوضعي التقليدي . وهي تتضمن قضايا النساء وتجاربهن ووجهات نظرهن باعتبارها موضوعا مباشرا للبحث يتم تناوله بالتساؤل والدراسة والمعرفة خلال عملية البحث . كما تهدف النسويات الإمبريقيات إلى مواجهة المشاكل القائمة داخل المنظومة الوضعية التقليدية ، بما في ذلك التحيزات الذكورية وإعادة صياغة الصور النمطية . ويعتمد كل من هذين الهدفين العاملين لدى النسويات الإمبريقيات على الأهداف الشاملة للقيم النسوية وأخيرا فإن المسار الأكثر أهمية الذي تتبعه النسويات الإمبريقيات والذي يميزهن عن غيرهن من الباحثات النسويات الأخريات هو سعيهن لتحقيق الموضوعية . إن الجهود التي تقوم بها النسويات الإمبريقيات في تناول القضايا المذكورة أعلاه هي جهود تتم بهدف تتبع وتحديد واستخدام شكل أفضل من أشكال الموضوعية مقارنة بما يقوم به الوضعيون التقليديون . وتعتبر النسويات الإمبريقيات أن تجاهل وتغييب النساء وتجاربهن هو أمر يحد من موضوعية البحث ، كذلك فإن التحيزات الذكورية والأبحاث المتأثرة بالصور النمطية تعوق المساعي الموضوعية للتوصل إلى المعرفة . وتعمل النسويات الإمبريقيات على معالجة تلك المشكلة من داخل المنظومة الوضعية ، بما يميزهن عن غيرهن من الباحثات النسويات كما يعرضهن في نفس الوقت للنقد .

إن المدخل الذي تتخذه النسويات الإمبريقيات نحو الموضوعية هو ما يميزهن عن غيرهن من الباحثات النسويات . ونجد أن موقع النهج الإمبريقي (empiricism) داخل المنظومة الوضعية يقربنا من التوصل إلى فهم أكثر تجريدا فيما يتعلق بالأسس التي يقوم عليها كيانهن باعتبارهن مفكرات وعارفات . فمن الناحية الإبستمولوجية والمنهجية ، يشكل التمييز بين الذات/الموضوع أساس الصيغة الوضعية للعلوم الاجتماعية ، بحيث تحتل الباحثة/الباحث موضوع الذات المنفصلة (detached subject) . وتقوم الوضعية على وجود واقع "واقعي" قابل للمعرفة ويمكن فهمه وبلوغه

بالممارسات العلمية الموضوعية (objectivist)، كما أن ذلك الواقع الواقعي القابل للفهم مبني على التمييز والفرقة بين موضوع الدراسة القابل للمعرفة وبين الذات، أي ذات الباحث صاحب المعرفة. وهكذا عبر ثنائية (dichotomy) (الذات/الموضوع) يكون موقع (الباحثة/الباحث) صاحبي المعرفة موقعا غير ذي تأثير ومنفصلا بطبيعته عن الموضوع القابل للمعرفة. وبالتالي يتم نفي وجود أي تأثير للباحثة أو الباحث، كما أن الصوت المتنامي من النص المعرفي هو صوت يعبر عن "عالم منزه عن المصلحة" باعتباره ناقلا للمعلومات عن صناع القرار وصناع السياسات وعوامل التغيير" (Guba & Lincoln، 1994، p. 112). إن مدخل المنهج الإبيريقي إلى بناء المعرفة يقوم على شكل من أشكال الوضعية التي ترى أن الحد الفاصل بين الذات/الموضوع لا يمكن فهمه ومعرفة سوى باستخدام الحواس.

إن التمييز بين الذات/الموضوع يشكل ثنائية أساسية يقوم عليها قدر كبير من المنظومة الوضعية. وتتمتع النسويات الإبيريقيات بأساليب معينة للتفاوض ومناقشة النقد الموجه لذلك الموقف الإبستمولوجي والمنهجي. ونجد أن الباحثة النسوية الإبيريقية وفيلسوفة العلوم، إيفيلين فوكس كيلير (Evelyn Fox Keller) تؤكد أن الصيغ الوضعية للموضوعية هي صيغ ثابتة غير متغيرة بما يستدعي أن تكون ذات البحث، أي الباحث أو الباحثة، منفصلة تماما عن موضوع البحث، أي موضوع الدراسة. وترى إيفيلين فوكس كيلير أنه يجب على الباحثات النسويات التحرك نحو شكل من الموضوعية الديناميكية المتحركة التي "تصبو نحو شكل من المعرفة يضمن للعالم المحيط بنا اتساقه واستقلاله، ولكنها تحقق ذلك بطريقة مدركة بل ومعتمدة على اتصالنا بالعالم" (Evelyn Fox Keller، 1985، p. 117). وهي تعتبر أن علاقات الموضوع (object relations)، والتي تتطلب وجود أيديولوجيا السيطرة على الموضوع (أي الطبيعة والنساء) تشكل قاعدة العلوم الإبيريقية.

وتوحي التعريفات التقليدية للموضوعية بوجود انفصال بين الأيديولوجيا والعلوم، أي ملاحظة العالم بأكمله دون مؤثرات المعتقدات السياسية والفردية. إن هذا التقييم

(normative valuation) برفع العلم إلى مرتبة أسمى من الأيديولوجيا ، والتعبير عنه من منطلق إما/أو لا من منطلق الجمع بين الاثنين ، هو ما يبدو على سطح البحث الموضوعي في العلوم الاجتماعية . وتقوم النسويات الإمبريقيات بالتعامل مع مازق (tight rope) الفاصل القائم بين ما هو أيديولوجي وما هو علمي ، مؤكدات أن الاعتراف والعمل في مساحة حدود التمييز بين الذات/الموضوع والأيديولوجيا/العلم هو ما يجعل مقاربتهم المنهجية هي الأكثر موضوعية . وتشير كارولين رمزانوجلو (Caroline Ramazanoglu ، 2002) أن النسويات طالما تناولن مفاهيم عصر التنوير عن العقلانية والموضوعية تبعاً لديكارت وكانط ، وقد وجدن صعوبة في محاولة ”التوصل إلى قرار بشأن ما إذا كان في إمكانهن أو يجب عليهن ”التحليق في الفكر“ بحيث يمكن للنساء التجول حول الكون والغوص في طبيعة المرأة في علاقتها بالرجل (Caroline Ramazanoglu ، 2002 ، pp . 25-26) .”(wo/man)

إن التوقف للتساؤل حول الحدود القائمة بين العلم والأيديولوجيا جعل النسويات الإمبريقيات يكشفن عن المدى الذي وصل إليه العلم الموضوعي التحيز . فمع تعمق النسويات الإمبريقيات في تجاوز سطح الوضعية التقليدية ، وجدن أن المعتقدات الأيديولوجية والشخصية تعكر شفافية مياه عملية إنتاج المعرفة . وتهدف النسويات الإمبريقيات إلى التعامل مع المرء الواصل بين الأيديولوجيا والعلوم ، بحيث يقمن بصياغة وتشكيل مجال علمي أفضل يصلح لبناء معرفة حول النساء . ومع ذلك تشير كثير من الأعمال النقدية بشأن النسوية الإمبريقية إلى أن مثل تلك المحاولات ليست بعد معرفة من أجل النساء . وتؤكد كارولين رمزانوجلو أنه ”يمكن للنسويات أن يكن عقلانيات ومنطقيات ومنظمات في أبحاثهن دون التعامل مع العقلانية باعتبارها قوة مؤدية للحياة . ففي إمكانهن (بصورة إشكالية) تتبع الحقيقة بمعنى ادعاء امتلاكهن لـ ‘حكاية أفضل‘ ، ولكن ليس في وسعهن ادعاء الموضوعية“ (Caroline Ramazanoglu ،

(49 p. ، 2002. وعلى الرغم من مثل تلك الانتقادات ، فإن النسويات الإمبريقيات يُقنن على التزامهن بما يقدمنه من تنازلات ورضاهن عنها.

وتتناول الفيلسوفة ساندر هاردينج (Sarah Harding ، 1992) ، جنباً إلى جنب النسويات الإمبريقيات ، مفهوم الموضوعية بالنقد ولكن دون رغبة منها في الاستغناء تماماً عن المصطلح. وهي ترى أن الموضوعية باختصار ليست موضوعية بالقدر الكافي ، وأنها تحول وتحد من تمثيل الصيغ المعبرة عن العالم والتي تتسم بكونها أقل تشويهاً وإفساداً. إذ تعمل تلك الصيغ على إفساد فرص تشكيل وخلق الموارد التي تأتي بها المعرفة الموضوعية "كالعدل والأمانة والبعد و... دفع عجلة الديمقراطية" (Sa-rah Harding ، 1992 ، p. 574) ، فالأيدي التي تنتزع سلطة كلمة الموضوعية إنما تستخدمها من موقعها ولتحقيق مكاسبها الشخصية بالمعنى البنيوي والشخصي. كما ترى ساندر هاردينج أن "المناهج والأنماط القائمة في التخصصات المعرفية هي أضعف من أن تتيح للباحثين والباحثات العمل ، بشكل منظم ومن داخل نتائج البحث ، في تحديد واستخلاص تلك القيم والمصالح والأجندات الاجتماعية المشتركة بين أعضاء المجتمع العلمي بأكمله" (Sarah Harding ، 1993 ، p. 52). وهكذا فإن الإضافة إلى المناهج القائمة بالفعل وتدعيم سلطتها في بلوغ المعرفة الموضوعية هو هدف النسويات الإمبريقيات.

وبينما تجتمع غالبية الباحثات النسويات من مختلف الخلفيات الإستمولوجية على نقد والنقاش حول القضايا المتعلقة بالتمييز بين الذات/الموضوع ، فإن الإجابات التي يتوصلن إليها والأدوات التي يستخدمنها في تناول تلك المسألة تشكل نقطة تباين فيما بينهن. فنجد أن النسويات الإمبريقيات في مسيرتهن للتفاعل وتشجيع أهداف البحث النسوي وتوظيفه ينطلقن من أسس قوية تضرب بجذورها العميقة في الموضوعية. إلا أن رؤيتهن للموضوعية تصبو إلى تتبع واقع أكثر ثراء وتفصيلاً وحيوية مقارنة بذلك "الانعكاس المنفصل والموضوعي لواقع 'طبيعي' أوحده" (Weasel ، 2001 ، p. 27).

إن الموضوعية الخالية من المواقف القيمة (value-free) توحى باشتغالها على جهود المنظومات الوضعية التقليدية الساعية لحمل مرآة أمام العالم ورؤيته تبعاً لما هو عليه:

إن الموضوعية الخالية من المواقف القيمة تتطلب أيضاً نظرية خاطئة بشأن العامل المثالي -أي وجود ذات- للعلم والمعرفة والتاريخ. وهي تتطلب مفهوماً عن الأنا باعتبارها حصناً لا بد من الدفاع عنه ضد المؤثرات الملوثة له من المحيط الاجتماعي. (Harding، 1991، p. 158)

إن تحديد موقع مؤثرات المحيط الاجتماعي باعتبارها مؤثرات مصيبة بالتلوث، بما فيها المؤثرات الكامنة داخل الباحثة أو الباحث نفسيهما، يؤدي بالعلوم الوضعية إلى تجاهل كم كبير من المعلومات والمؤثرات والملاحظات القيمة التي يمكنها في ظرف آخر إضفاء المزيد من الموضوعية على نتائج البحث⁸. إن الأوهام المتعلقة بالباحث المنفصل وغير المتواصل عاطفياً ببحثه هي أوهام تعوق المساعي الموضوعية تجاه الحقيقة. كما أن مثل تلك الموضوعية الخالية من المواقف القيمة ليست موضوعية بالقدر الكافي نظراً لسعيها إلى تجاهل السياقات المهمة التي تجعل المعرفة التي يتم التوصل إليها معرفة تتمتع بالزخم والوضوح والالتزام.

ويمكننا أن نرى اتحاد الأهداف السياسية النسوية مع المقاربات الإمبريقية إلى الموضوعية في أبحاث زوليمّا تانج هالبين (Zuleyma Tang Halpin، 1989)، والتي تجمع بين منظوري علم البيولوجيا والدراسات النسائية، في تناولها لأسوأ سمات استخدام المؤسسة العلمية للموضوعية العلمية، إذ تحدد لنا الباحثة مشكلتين من مشاكل الموضوعية العلمية بما يؤدي إلى إعادة بناء أنظمة القمع والقهر (subjugation)، والعنف تجاه كل من ينتمي إلى فئة الآخر. والمسألة الأولى التي تتناولها تخص الانفصال والبعد العاطفي الذي تفرضه ممارسات وأهداف الموضوعية العلمية. أما المسألة الثانية التي تستشهد بها الباحثة -باعتبارها تعيد إنتاج أنظمة القهر- فهي مسألة

الفصل الإبستمولوجي للموضوع ، أي الطرف الخاضع للدراسة ، عن الذات ، أي الطرف المنتج للمعرفة . وتوضح تلك المسألتان البعد الأساسي للمقاربات الإبستيمولوجية النسوية لعملية بناء المعرفة العلمية . ومع ذلك تواصل الباحثة الدعوة إلى الحفاظ على الموضوعية كمعيار أساسي ، قائلة:

بينما نجد أن الموضوعية الحقيقية هي بلاشك ضرورية للمسعى العقلاني للعلوم ، إلا أن مفهوم الموضوعية العلمية بصورته الشائعة في فهم وممارسات العلماء كثيرا ما تمت صياغته بطرق جعلت الموضوعية العلمية في واقع الأمر متعارضة مع البحث العلمي الموضوعي وغير المنحاز .

(Zuleyma Tang Halpin ، 1989 ، p . 285)

إن التوظيف المتعارض (antithetical) للمناهج العلمية في تتبع المعرفة الموضوعية تطلب من النسويات الإبستيمولوجيات حدوث نقلة إبستمولوجية رشيقة وعميقة ، وهي نقلة لم تدفعهن بعيدا عن المفاهيم الأسبق بشأن الموضوعية ، بل سعيًا لتقديم تفاصيل راسخة وأساسية . وهكذا فإن الممارسة العلمية واستخدام المناهج الوضعية واستهداف منهج بحث علمي موضوعي حقا أدت جميعها إلى تدعيم وتقوية البحوث النسويات عبر التخصصات .

فما الذي يحدث عند استكشاف الوعي والإحساس بالخفايا والكوامن الأيديولوجية والمحملة بالقيم؟ وعودة بنا إلى المثال المقدم مسبقا ، نجد أنه قد ثبت غياب الكثير من التفاصيل والموضوعية تبعا للباحثات النسويات فيما يتعلق بالمنظومات التقليدية للمعرفة بشأن التحرش الجنسي . ومع ذلك يواصل الباحثون والباحثات غير النسويين التمسك بافتراضات وتحيزات بعيدة عن الموضوعية من المنظور الإبستيمولوجي النسوي . ومن الفرضيات التي حملت ثقلا كبيرا في الثمانينات ، أثناء تناول قضية التحرش الجنسي إياها ، ورغم عدم وجود بيانات ومادة إبستيمولوجية لتأكيد لها ، هي الادعاء بأن القائمين

بالتحرش الجنسي يعانون من خلل نفسي . p ، 1997 ، Hotelling & Zuber (100) . وبتوسيع دائرة تلك التفسيرات الشخصية والنفسية فإننا نجد أنفسنا داخل معمعة (morass) الفرضيات بشأن قوة الدوافع الجنسية لدى الرجال بما يجعلهم عاجزين عن التحكم في أنفسهم . وقد ساد العديد من الافتراضات الأخرى داخل أبحاث المنظومة الوضعية التقليدية ، بما يحد من الإمكانيات البشرية وإمكانيات حدوث تغير اجتماعي وإمكانيات البحث . وقد دخلت النسويات الإمبريقيات بتقلهن في مناقشة تلك الافتراضات ، بهدف تقديم أدلة إمبريقية على السياق الاجتماعي للتحرش الجنسي .

الخاتمة

إن الإسهامات المتنوعة والحيوية التي أضفتها النسويات الإمبريقيات أوجدت بيئة تشهد- بالفعل- نقلات في الأنساق والمنظومات ، وهي مساهمات تؤدي إلى علم أفضل وأكثر موضوعية ، وكثيرا ما تنفذ إلى مفاهيم المؤسسة العلمية عن العلم الجيد ، وعادة ما تترك هؤلاء النسويات الإمبريقيات بصمتهن النسوية على هذا العلم الموضوعي الجيد . ولا تعتبر النسويات الإمبريقيات كتلة واحدة من حيث الاستمولوجيا والمنهجية واستخدام المناهج ، ولكنهن يتركن تأثيرا تراكميا على المنظومة الوضعية . ومع كثرة الأبعاد التي توفر شبكة من أسس التوقف أمام الباحثات النسويات ، فإن النسويات الإمبريقيات يملن إلى البقاء على مقربة من أسلافهن الوضعيين ، فنجدهن ينقدن العلوم الوضعية من الداخل ، فيدعون ويدفعن نحو معرفة أكثر قوة وجودة وموضوعية والتي يمكن اكتسابها عندما تصبح الدراسة الدقيقة للسياق السياسي والخطابي لبناء المعرفة جزءا من العملية البحثية . كما يؤكدن على أن العالم قابل للمعرفة ، وأن الحقيقة قابلة للعثور عليها ، وأن الكثير من العلم قد بنى حواجز تخفي ما يتمتع به سياق مسارات وواقع المعرفة من ثراء وتنوع ، بما يصب في تقوية والحفاظ على المنظومة والوضعية

والبنى الأبوية للنظام القائم . وتستخدم النسويات الإمبريقيات رؤيتهن المزدوجة للأهداف السياسية والوسائل الإمبريقية التجريبية، مؤكدات على نجاحهن في التوصل إلى أسلوب متوازن لبلوغ أفضل ما هو موجود في عالمي النسوية والإمبريقية.

وعلى الرغم من إسهامات الإمبريقية في المشروع النسوي الأشمل، كما يتضح في الفصلين الثالث والرابع من هذا الكتاب، فإن هنالك الكثيرين ممن يرون في الإمبريقية النسوية كتلة يتم بمقتضاها إلحاق النساء بالأنظمة الموجودة مسبقا، مع التقليل، ثم الافتراض بأن الأمور صارت "أفضل". لقد قامت النسويات الإمبريقيات بدور ريادي في صياغة مقاربات إبستمولوجية ومنهجية جديدة في بناء المعرفة، مع الكشف عن بعض "أسس" الإمبريقية. فإذا نظرنا إلى المواقف الإبستمولوجية باعتبارها تشكل خطا متصلا متواصلا، فربما سنرى حينها الإمبريقية عند إحدى نهايات هذا الخط، يتبعها إبستمولوجيا الموقعية (standpoint epistemology) ثم ما بعد الحداثة (post-modernism)، وهو ما يتعارض تماما مع النزعة الجوهرية (essentialism)، اللازمة للإمبريقية والموقعية. وسوف نتناول في الفصل التالي إبستمولوجيا الموقعية باعتبارها أول نقد قوي موجه للنسوية الإمبريقية، وبديلا عنها.

الهوامش

1- يرى ريتشموند كامبل أن الوضعية في واقع الأمر تقبل بإمكانية تأثير الجوانب الميامية على "اكتشاف" فرضية ما أو بيانات ما، ولكنه يصر على أن مسألة ما إذا كانت تلك الفرضية "ف" مثبتة بذلك الدليل "د" هي مسألة أخرى. وطبقا للوضعيين فإن مدى تأكيد الدليل للفرضية هي مسألة متعلقة بالمنطق، بصرف النظر عن مصدرهما، وهو أمر يتجاوز نطاق السياسات. (Richmond Campbell, 1994, p. 90)

ويؤكد ريتشموند كامبل أنه يجب علينا الحرص، إبستمولوجيا ومنهجيا، على تحديد ما إذا كنا نتحدث عن تأثير المييمات في سياق الاكتشاف أم سياق التبرير. ويتفق كامبل مع ساندرا هاردينج (Sandra Harding, 1986, cited in Campbell, 1994) في تأكيدها على أن السياسات والتحيزات الاجتماعية توجه الباحث أو الباحث في مدخلهما إلى سياق الاكتشاف، كما يرى كامبل أيضا أن "ما يتم التثبت منه، في حالة إثبات "د" لـ"ف"، هو أمر يعكس تلك التحيزات" (Campbell, 1994, p. 95). ولكنه مع ذلك يؤكد أن نقد ساندرا هاردينج للإمبيريقية النسوية هو نقد مبالغ فيه، مشيرا إلى أن "علاقة التثبت في حد ذاتها هي علاقة لا تتأثر بالمسائل الميامية"، كما يؤكد أن "منطق التثبت في حد ذاته ... يعتمد على سياق الاكتشاف، أي أنه لا يمكن تحديد ما إذا كان دليل ما يثبت فرضية ما بشكل مستقل عن سياق الاكتشاف" (Campbell, 1994, p. 95).

2- قدم هذا الإصدار من مجلة "ساينز" (Signs) العديد من الأمثلة المفيدة والمتعمقة على البحث النسوي في كل من العلوم الطبيعية والاجتماعية. ومن الجدير بالذكر تحديدا ما قدمته المشاركات في هذا العدد من تقييمات تأملية لأدوارهن باعتبارهن باحثات هادفت إلى إنتاج معرفة إمبيريقية وباعتبارهن نسويات صاحبات قيم ورؤى سياسية. وقد تم تناول بعض تلك المساهمات في هذا الفصل من الكتاب.

3- بالرغم من الانقسام الكمي/الكيفي الذي يكثر الجدل حوله في أدبيات المنهجيات النسوية، فإن داينا دن وديفيد والر (Dana Dunn and David Waller, 2000) وجدا أن من بين مجموع 1826 مقالا ذا محتوى يتناول قضايا النوع، منشورا في الفترة من 1984 إلى 1993، فإن نسبة 93 % منها تعتمد على مادة كمية. ومن بين ما مجموعه 544 مقالا نسويا تتناول قضايا النوع، نسبة 83 % منها تعتمد على مادة كمية. وهكذا فإن مناهج البحث الكمية ما زالت تمثل المساحة السائدة لبناء ونشر المعرفة المتصلة بقضايا النوع والتوجه النسوي. ومن اللافت للانتباه أن عددا أكبر من المقالات كان يتصدره اسم باحث رجل مقارنة بأسماء الباحثات.

4- فعلى سبيل المثال نجد أن مارجريت أيكلر وجين لابوينت في كتابهما "حول معالجة الجنسين في البحث" (Margrit Eichler, Jeanne Lapointe, On the Treatment of the Sexes in Research, 1985) قدمتا إرشادات محددة ودقيقة لمعايير البحث الاستطلاعي لتضمين عنصر النوع وتجنب التحيز الذكوري.

5- وفي ذلك تشير مارجوري ديفولت قائلة إن "من المقاربات الشائعة في الدراسات الكمية النسوية مقارنة تتضمن تصحيح التحيزات القائمة على أساس النوع وغيرها من التحيزات الثقافية القائمة في الممارسات المعتادة". وهي مقاربات تخدم الأهداف النسوية، وذلك على سبيل المثال من خلال الإشارة إلى الطرق العديدة التي تقوم عبرها تقنيات البحوث الاستطلاعية المعتادة بترسيخ افتراضات غير ملحوظة بشأن النوع والثقافة. وقد بدأ المتعاملون والمتعاملات مع البيانات الاستطلاعية في تعديل خطط البحث وعمليات التحليل بحيث يتم تقليل والتخلص من مصادر التحيز تلك" (Marjorie DeVault, 1996, p. 36)

6- تستشهد جانيت سالنزمان تشافيتز بالعديد من الأمثلة التي أسهمت بها كل النسويات في تخصصاتهن عبر

نقد الجهود العلمية التقليدية، باعتبار ذلك من المساحات التي يجب على النسويات الإمبريقيات طرقها. وترى أنه ليس من الكافي الإقتصار على النقد، وبناء نظريات ومفاهيم ومتغيرات جديدة، بل يتعين على الباحثات النسويات العمل من أجل الإجابة على الأسئلة التي يطرحنها في مجالات تخصصاتهن. وتعليقا على مفاهيم مثل الأبوية، والتحيز الجنسي، والعرق/الطبقة/النوع، تقول: "حسب علمي، لم يتطرق أحد لتلك المهمة الصعبة وبالغة الأهمية، للقيام بدراسة إمبريكية للتعرف على مجموع المتغيرات الأكثر أهمية في الحفاظ على (أو تغيير) أنظمة عدم المساواة على أساس النوع، وللتعرف على أيها يشكل بنى مستقلة وأيها بنى متداخلة؟" (Janet Saltzman Chafetz, 1990, p. 13)

7- على الرغم من عدم كونها نسوية إمبريكية في كتاباتها الحالية، فإن هيلين لونجينو توضح إمكانات إثراء وتعميد عملية إنتاج المعرفة من خلال علوم أكثر موضوعية، حيث يأخذ الباحث أو الباحثة في الاعتبار السياق السياسي للباحث أو الباحثة نفسيهما. وتقول:

ما أطرحه هنا هو أن الممارسة العلمية النسوية تعترف بالاعتبارات السياسية كقيود على النشاط العقلي، بحيث تعمل على تشكيل المحتوى تبعا لتأثيرها على النشاط العقلي والتأويل. وفي هذه الحالة تحديدا تعمل تلك الاعتبارات مع الظواهر على دعم نموذج تفسيري يقوم على قدر كبير من التفاعل والتعقيد. (Helen Longino, 1990, p. 193)

إن أخذ السياق المعقد لعملية البحث في الاعتبار لا يقع على مسؤولية الباحث أو الباحثة فقط، وإنما تمضي هيلين لونجينو مطالبة بتولي قراء المعرفة قدرا من المسؤولية في عملية التعلم والتواصل العلمي، حيث:

تتمثل الخطوة الأولى في التخلي عن الفكرة القائلة بأن الفحص الدقيق للبيانات يولد شبكة من المعرفة. أما الخطوة الثانية فتتمثل في التفكير الدقيق في مجال ما مع محاولة فهم الافتراضات الأساسية الكامنة وكيفية تأثيرها في مسار البحث. كما أن اكتساب قدر من المعرفة بتاريخ ذلك المجال العلمي هو أمر ضروري لتلك العملية وهو ما ينطبق بالمثل على مواصلة الحوار مع النسويات الأخريات. (Helen Longino, 1990, p. 193)

8- تشير ماريان جانك إلى أن:

الصلة بين الموضوعية والحقيقة هي أداة مهمة لعمل النسويات وغيرهن من المشروعات التحررية، إلا أن أوجه فشل الموضوعية ليست على الدوام أو مجرد أوجه فشل معرفي. إن القول باستمرار وجود تحيز جنسي في العالم هو أمر لا يمكن أن ينكره سوى شخص عاجز عن الموضوعية، وهو عجز أو فشل ذو وجهين اثنين مختلفين ومنفصلين. فهو فشل إبستمي (epistemic) معرفي من حيث ما يتضمنه من تجاهل مقصود لأدلة واضحة تماما. ... كما أنه نموذج لنظرية أو ادعاء يفشل في التوافق مع الحقائق. (Marianne Jamack, 2002, p. 268)

- Bingham, Shereen G. (Ed.). (1994). *Conceptualizing sexual harassment as discursive practice*. Westport, CT: Praeger.
- Campbell, Richmond. (1994). The virtues of feminist empiricism. *Hypatia*, 9(1), 90-115.
- Chafetz, Janet Saltzman. (1990, August). *Some thoughts by an "unrepentant positivist" who considers herself a feminist nonetheless*. Paper presented at the 85th Annual Meeting of the American Sociological Association, Washington, DC.
- Conkey, Margaret. (2003). Has feminism changed archaeology? *Signs*, 28(3), 867-880.
- Connell, Noreen, & Wilson, Cassandra (Eds.). (1974). *Rape: The first sourcebook for women*. New York: New American Library.
- DeVault, Marjorie. (1996). Talking back to sociology: Distinctive contributions of feminist methodology. *Annual Review of Sociology*, 22, 29-50.
- Dunn, Dana, & Waller, David V. (2000). The methodological inclinations of gender scholarship in mainstream sociology journals. *Sociological Spectrum*, 20(2), 239-257.
- Eichler, Margrit, & Lapointe, Jeanne. (1985). *On the treatment of the sexes in research*. Ottawa, Ontario, Canada: Social Sciences and Humanities Research Council of Canada.
- Farley, Lin. (1978). *Sexual shakedown: The sexual harassment of women on the job*. New York: McGraw-Hill.
- Goldman, Alvin. (1999). *Knowledge in a social world*. Oxford, UK: Oxford University Press.
- Griffin, Christine, & Phoenix, Ann. (1994). The relationship between qualitative and quantitative research: Lessons from feminist psychology. *Journal of Community & Applied Social Psychology*, 4(4), 287-298.
- Guba, Egon G., & Lincoln, Yvonna S. (1994). Competing paradigms in qualitative research. In Norman Denzin & Yvonna S. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (pp. 105-117). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Halpin, Zuleyma Tang. (1989). Scientific objectivity and the concept of "the other." *Women's Studies International Forum*, 12(3), 285-294.
- Harding, Sandra. (1991). *Whose science? Whose knowledge? Thinking from women's lives*. Ithaca, NY: Cornell University Press.
- Harding, Sandra. (1992). After the neutrality ideal: Science, politics, and "strong objectivity." *Social Research*, 59(3), 567-587.
- Harding, Sandra. (1993). Rethinking standpoint epistemology: What is "strong objectivity"? In Linda Alcoff & Elizabeth Potter (Eds.), *Feminist epistemologies* (pp. 49-82). New York: Routledge.
- Hotelling, Kathy, & Zuber, Barbara A. (1997). Feminist issues in sexual harassment. In William O'Donohue (Ed.), *Sexual harassment: Theory, research and treatment* (pp. 99-111). Boston: Allyn & Bacon.
- Janack, Marianne. (2002). Dilemmas of objectivity. *Social Epistemology*, 16(3), 267-281.

- Jayarathne, Toby Epstein. (1983). The value of quantitative methodology for feminist research. In Gloria Bowles & Renate Duelli Klein (Eds.), *Theories of Women's Studies* (pp. 140–161). Boston: Routledge & Kegan Paul.
- Keller, Evelyn Fox. (1985). *Reflections on gender and science*. New Haven, CT: Yale University Press.
- Longino, Helen E. (1990). *Science as social knowledge: Values and objectivity in scientific inquiry*. Princeton, NJ: Princeton University Press.
- Martin, Emily. (1999). The egg and the sperm: How science has constructed a romance based on stereotypical male-female roles. In Sharlene Hesse-Biber et al. (Eds.), *Feminist approaches to theory and methodology: An interdisciplinary reader* (pp. 15–28). Oxford, UK: Oxford University Press.
- McCormick, Kim M., & Bunting, Sheila M. (2002). Application of feminist theory in nursing research: The case of women and cardiovascular disease. *Health Care for Women International*, 23, 820–834.
- Medea, Andra, & Thompson, Kathleen. (1974). *Against rape: a survival manual for women: How to avoid entrapment and how to cope with rape physically and emotionally*. New York: Farrar, Straus, & Giroux.
- Ramazanoglu, Caroline (with Holland, Janet). (2002). *Feminist methodology: Challenges and choices*. London: Sage.
- Russell, Diana, E. H. (1975). *The politics of rape: The victims' perspective*. New York: Stein & Day. (Reprinted by iUniverse, On-Demand Book Service, New York, 2003. Available at Backinprint.com)
- Russell, Diana. E. H. (1984). *Sexual exploitation: Rape, child sexual abuse, and workplace harassment* (8th printing). Newbury Park, CA: Sage.
- Russell, Diana. E. H., & Bolen, Rebecca M. (2000). *The epidemic of rape and child sexual abuse in the United States*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Schiebinger, Londa. (2003). Introduction: Feminism inside the sciences. *Signs*, 28(3), 859–886.
- Spalter-Roth, Roberta, & Hartmann, Heidi. (1999). Small happiness: The feminist struggle to integrate social research with social activism. In Sharlene Hesse-Biber et al. (Eds.), *Feminist approaches to theory and methodology: An interdisciplinary reader* (pp. 333–347). New York: Oxford University Press.
- Stockard, Jean, & Johnson, Miriam M. (1992). *Sex and gender in society*. Englewood Cliffs, NJ: Prentice Hall.
- Unger, Rhoda Kesler. (1979). Toward a redefinition of sex and gender. *American Psychologist*, 34(11), 1085–1094.
- Weasel, Lisa. (2001). Dismantling the self/other dichotomy in science: Towards a feminist model of the immune system. *Hypatia*, 16(1), 27–44.

الفصل الثالث

إبستمولوجيا الموقعية النسوية

بناء المعرفة والتمكين من خلال

تجارب حياة النساء

أبيجيل بروكس

لقد . . . سعيت مخلصاً لتقديم حكاية صادقة وعادلة عن حياتي في العبودية . . .
وأن أقرب منكم كما أنا باعتباري مجرد أم عبدة فقيرة - وأنا لا أحكي ما سمعته
بل ما رأيته بنفسى - وما عانيته¹.

(Jacobs ، 1861/1987 ، p. 242)

هذه كلمات هاربيت جاكوبس التي تولت توثيق سنوات عمرها ، التي قضتها عبدة في الجنوب الأمريكي خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وقد اتخذت هذا القرار بعد هروبها ثم حصولها في نهاية الأمر على حريتها . وهي إذ انطلقت في حديثها من موقع الخبرة الشخصية المباشرة ، فقد ملأ كلماتها الصمت والجهل المنتشران بشأن أوضاع العبيد من النساء ، كما واجهت الكثير من المفاهيم المغلوطة السائدة حينذاك عن العبدات . وقد جاء هدف هاربيت جاكوبس الساعي إلى تعريف سكان شمال الولايات المتحدة الأمريكية بقسوة وظلم العبودية ، ومعاناة العبيد من جنس النساء من العبودية ، فمنحها هدفها هذا الشجاعة والقوة والحافز اللازم لتحكي حكايتها . فقد جرأت على امتلاك الأمل في أن قيامها بمشاركة الآخرين في قصة حياتها كأمراة عبدة ، وأن اعتمادها على ما شهدته وعاشته هي نفسها ، سيتيح لها فرصة إقناع أهل الشمال بالحقائق الوحشية المتعلقة بالعبودية . وكما تقول هاربيت جاكوبس نفسها :

لم أسجل تجاربي من أجل شد الانتباه إلى نفسى ، بل على النقيض كان

الأسعد بالنسبة لي هو الصمت عن الحديث عن تاريخي الشخصي . كما لا يهمني استثارة العطف تجاه أوجه معاناتي . ولكنني أرغب بشدة في إثارة نساء الشمال نحو الإحساس والإدراك لأوضاع مليونين من النساء في الجنوب ، ما زلن في برائن العبودية يعانين مما عانيته ، بل ومعظمهن في حالة أكثر سوءا مما كنت عليه . وأود أن أضيف شهادتي إلى من أقدر مني تعبيرا بالكتابة وذلك لإقناع أهل الولايات الحرة بالعبودية كما هي في الواقع . إن التجربة وحدها هي التي تجعل المرء قادرا على إدراك مدى عمق ، ومدى حلقة ، ومدى سوء هاوية ذلك العذاب (abomi- nations) . فلتحل بركة الرب على هذا الجهد القاصر ، وذلك نيابة عن شعبي المضطهد! (Harriet Jacobs ، 1861/1987 ، p. 1-2)

وقد نجحت هاربيت جاكوبس في إثارة الوعي لدى نساء الشمال من خلال كشفها عن الاستغلال الشديد والألم الجسدي والقلق الذهني الذي أجبرت على احتماله لكونها عبدة ، بما في ذلك سنوات من التحرش الجنسي الذي مارسه مالكها ، الدكتور فلينت . إن ذلك الوعي المتنامي الناجم عما كتبه هاربيت جاكوبس عن فظائع العبودية ، وعن العنف النفسي والجسدي الذي تتحمله تحديدا النساء من العبيد ، قد ألهم في نهاية الأمر نساء الشمال البيض لمواجهة العبودية وأسهم في تنامي حركة مقاومة العبودية في الشمال الأمريكي .

لقد عاشت هاربيت جاكوبس ومارست الكتابة منذ حوالي 150 عاما ، إلا أننا نتوجه إليها طلبا للمشورة والتوجيه إذ نستهل مناقشتنا حول المقاربات النسوية المعاصرة للبحث وبناء المعرفة . فلماذا؟ ذلك أن قصة حياة هاربيت جاكوبس -والاستراتيجيات التي طبقتها والأهداف التي أملت في تحقيقها من خلال قصصها علينا- تتماشى جدا مع مشروع البحث النسوي ومساره الحالي . فمن خلال روايتها لتجاربها الشخصية كفتاة عبدة ، فتحت هاربيت جاكوبس أعين الناس على ما سبق أن كان مسكوتا عنه وغير

معروف ، أي ماهية الحياة بالنسبة لامرأة من العبيد . وباعتبارها رواية عن العبودية صادرة مباشرة عن منظور نسائي ، قدمت حكايتها رؤى جديدة وعميقة لمدى وحشية مؤسسة العبودية ، كما ساعدت على تدعيم (galvanize) النقد والمقاومة العامة تجاه تلك المؤسسة . كذلك فإن الكثير من الدراسات والأبحاث النسوية المعاصرة تسعى إلى منح حيوات النساء صوتا بعد طول إسكات وتجاهل ، مع الكشف عن المعرفة الخفية الكامنة داخل تجارب النساء ، وتحقيق التضامن النسائي والتغيير الاجتماعي . ويأتي هذا الفصل مركزا على فرع من الدراسات والأبحاث النسوية قام وتأسس على قاعدة من تلك الأهداف كما يحافظ على الالتزام القائم نحو تحقيقها ، أي إبستمولوجيا الموقعية النسوية (feminist standpoint epistemology) .

إن إبستمولوجيا الموقعية النسوية هي نوع فريد من فلسفة بناء المعرفة التي نتحدثنا في سبيل: 1) رؤية وفهم العالم عبر عيون وتجارب النساء المهورات ، 2) تطبيق رؤية ومعرفة النساء المهورات على العمل الاجتماعي والتغيير الاجتماعي . وتتطلب إبستمولوجيا الموقعية النسوية التحام المعرفة بالممارسة ، فهي تجمع بين كونها نظرية لبناء المعرفة ومنهج للبحث - أي مدخل لبناء المعرفة ودعوة للفعل السياسي .

- ولكن كيف نقوم فعلا بدمج إطار الموقعية النسوي في ممارساتنا البحثية؟
- ما هي بعض تلك الرؤى ووجهات النظر التي تكشفها تجارب حياة النساء بشأن العالم الاجتماعي الأوسع؟
- كيف نقوم بترجمة ما نتعلمه من حيوات النساء اليومية ، ومن مواقع القهر المختلفة التي تسكنها النساء في المجتمع ، وننقله إلى مجال الفعل السياسي والاجتماعي؟

إن تلك الأسئلة سترشدنا في تتبعنا أدناه لتطور إبستمولوجيا الموقعية النسوية ، منذ نشأتها انتهاء بتطوراتها المستمرة .

بناء معرفة جديدة من واقع تجارب النساء

في الوقت الذي تم فيه الاعتراف وتسجيل حياة الآلاف من الرجال على مدار قرون وعبر الثقافات ، فإن قصص حياة النساء لم توثق إلا قليلا بل وتعرضت للنسيان . وكما تقول جويس ماكارل نيلسون ، فإن ثقافة النساء وتاريخهن وحيواتهن ظلت "تحت الأرض وغير مرئية" ، وتمت تهميتها "أسفل" ثقافة الرجال وتاريخهم وحيواتهم (Joyce McCarl Nielsen ، 1990 ، p. 10) . وقد شرعت النساء ، بداية من أواخر الستينيات وخلال السبعينيات من القرن العشرين ، ونتيجة لجهود رفع الوعي النسوي داخل وخارج المجال الأكاديمي ، بالبدا في جذب الانتباه إلى ما تم من حذف واستبعاد لأصواتهن وتجاربهن في مجالات متعددة: السياسة ، والسياسات العامة ، ومهن القانون والطب وإدارة الأعمال ، وفي تخصصات العلوم والعلوم الاجتماعية والإنسانيات على سبيل المثال لا الحصر . ففي فصول علم الاجتماع ، على سبيل المثال ، بدأت الطالبات في التعبير عن إحباطهن من أن النظريات والمفاهيم السائدة والمتمحورة حول الرجال ، والتي كان يتم تدريسها ، لم تأخذ تجاربهن كنساء في الاعتبار . وطبقا لعالم الاجتماع النسوية دوروثي سميث ، فإن نظريات ومناهج علم الاجتماع التي كان يتم تدريسها لم تطبق "ما يحدث" تبعا "لتجارب" الطالبات (Dorothy Smith ، 1987 ، p. 86) . وقد أدى وعي النساء المتنامي بالتناقض القائم بين تجارب حياتهن المعيشة وبين الأبحاث والأطر النظرية التي يدرسنها ، مع فشل تلك الدراسات والأطر في تصوير حياتهن تصويرا دقيقا ، بما ألهمهن لإقامة نماذج جديدة لبناء المعرفة . وهي نماذج جديدة أو "طرق تفكير بديلة" أخذت تتطور بأيدي النساء ومن أجل النساء ، وذلك بهدف ضمان تقديم تعبير وتمثيل أصلي لحيوات النساء . ومن تلك النماذج البديلة لبناء المعرفة هو ما عرف فيما بعد بمسمى إبستمولوجيا الموقعية النسوية .

وتتطلب إبستمولوجيا الموقعية النسوية منا وضع النساء في مركز مسار البحث: أي أن توفر تجارب النساء الملموسة نقطة الانطلاق لبناء المعرفة . ومثلما نجد أن واقع

حياة النساء العبدات لم يظهر إلى النور سوى من خلال تجربة حياة هارييت جاكوبس الفعلية في العبودية، فكذلك نجد باحثات الموقعية النسوية يؤكدن ضرورة البدء بحيوات النساء، تبعا لمعايشتهن الشخصية لها، في سبيل التوصل إلى فهم دقيق وأصلي لماهية حياة نساء اليوم. إن بناء المعرفة من واقع تجارب حياة النساء الفعلية أو الملموسة هو أمر تراه باحثات الموقعية النسوية أمرا بالغ الأهمية إذا كنا نأمل في معالجة الخطأ في التوجه التاريخي القائم على سوء تمثيل النساء وإقصائهن عن مجالات (canons) المعرفة السائدة. إن جعل تجارب حياة النساء الملموسة مصدرا أوليا لأبحاثنا هو السبيل الوحيد لنجاحنا في بناء معرفة تعكس وتمثل النساء بشكل دقيق. وفي ذلك ترى باحثة الموقعية النسوية باتريشا هيل كولينز أنه عند ادعاء المعرفة في الحديث عن النساء يجب علينا أن نتذكر دائما أن "التجارب الملموسة" للنساء هي التي تقدم "معياري المصادقية" الأكبر في ادعاءات المعرفة تلك (Patricia Hill Collins، 1990، p. 209). ولكن ما الذي نعينه تحديدا بتجارب النساء الملموسة؟ وكيف تقوم الباحثات النسويات بالكشف عن تجارب النساء الملموسة؟ وما الذي يمكننا أن نتعلمه من تلك التجارب؟ فلنتنقل الآن إلى بعض الأمثلة.

تتكون تجارب النساء الملموسة من ما تفعله النساء، وهي نطاق الأنشطة الواسعة والمختلفة التي تنخرط فيها النساء كجزء من حيواتهن اليومية. فمن مجالات حيوات النساء والتي لم تكن تلقى سوى القليل من الاهتمام البحثي وضعف القيمة، والتي تواصل الباحثات النسويات إلقاء الضوء عليها، هي الكم اللانهائي من مهام الرعاية والعناية، من الطهي والتنظيف ورعاية الأسر (DeVault، 1991)، مروراً برعاية أطفالهن وأطفال الغير (Collins، 1990)، ورعاية أطفالهن عن بعد (Hondag- neu-Sotelo & Avila، 1997)، هي أمثلة على تجارب النساء الملموسة. كذلك، وانطلاقاً من تلك التجارب الملموسة، اكتسبت النساء معرفة معينة ومجموعة فريدة من المهارات المتنوعة.

وفي سبيل إلقاء الضوء على حيوات وتجارب النساء المهورات، وللكشف عن معارف ومهارات النساء الكامنة و/أو غير المعترف بقيمتها الحقيقية، كثيرا ما نجد الباحثات النسويات يستخدمن مناهج البحث استخداما جديدا، ويطورن استراتيجيات بحث بديلة، بل ويقمن ببناء تقنيات منهجية جديدة تماما². فعلى سبيل المثال، وجدت مارجوري دي فولت (Marjorie DeVault, 1990, 1991) في بحثها حول تجارب النساء في التسوق والتخطيط وإعداد وطهي الطعام لأسرهن أن مجرد طرح الأسئلة والإنصات إلى الإجابات لم يكن كافيا. ففي كثير من الحالات لم يكن قد سبق لكثير من هؤلاء النساء أن أتحت لهن فرصة الحديث عن أنشطة حياتهن اليومية لشخص ما مهتم بالأمر، وبالتالي واجهن صعوبة في نقل أفكارهن ومشاعرهن بشأن أنشطة حياتهن اليومية إلى كلمات. وقد تجاوزت مارجوري دي فولت (DeVault, 1990, 1991) شكل المقابلة التقليدية متبينة ما أطلقت عليه كاثرين أندرسون وداينا جاك (Kathryn An-derson and Dana Jack, 1991) مسمى "الدخل التفاعلي" (interactive approach). فقد عملت بالاشتراك مع مجموعة المستجيبات في البحث على "المشاركة في صياغة" كلمات جديدة تعكس بدقة تجاربهن وأفكارهن ومشاعرهن.

ويقوم بحث مارجوري دي فولت (DeVault, 1991) بتوثيق المهارات التنظيمية والتنسيقية التي اكتسبتها وطورتها النساء جراء قيامهن بالتخطيط والإعداد وطهي الطعام لأعضاء أسرهن. وتؤكد باحثة الموقعية النسوية، أليسون جاجار (Alison Jaggar, 1997)، أن النساء ومن خلال ممارساتهن المستمرة كراعيات ومعتنيات بالآخرين، قد اكتسبن مهارة خاصة في التعبير عن العواطف وقراءة المشاعر، وهي مهارة مهمة لما تقوم به المشاعر من وظائف عديدة أساسية: "فالعاطفة ضرورية من أجل بقاء الإنسانية، والعواطف هي التي تدفعنا للقيام بالفعل المناسب، والاقتراب من بعض الناس والمواقف وتجنب أناس آخرين ومواقف أخرى، والمداعبة أو الاحتضان، والهروب أو الفرار. فلا يمكننا تصور حياة بشرية بلا عواطف" (Jaggar, 1997, pp. 190, 192).

ويكشف البحث الذي قامت به باتريشا هيل كولينز عن مهارة النساء الأفروأمريكيات في بناء الجماعة، وهي مهارة اكتسبنها من دورهن الفريد في رعاية أطفال الأسرة الممتدة والصديقات والجيران. فمن خلال القيام بدور الرعاية التي تسميها الباحثة "الأمومة الأخرى" (other mothering) -أي المساعدة في ملء الفراغ الناجم عن عدم القدرة المادية على الاستعانة بمؤسسات رعاية الأطفال، والصعوبات الاقتصادية، والتعب الذي يصيب الأمهات اللاتي يرعين أطفال غير أطفالهن- فإن هؤلاء "الأمهات الأخريات" اللاتي يعرفهن ويثق فيهن الكثير قد يلعبن دورا مهما في الجمع بين أعضاء المجتمع وفي توجيه مسار المجتمع إلى الأمام. وبالإضافة إلى "الأمومة الأخرى"، هنالك شكل آخر مستجد من الأمومة، وهو "الأمومة عبر الحدود" بما يعكسه من تمتع النساء بمهارات محددة. إذ نكتشف من البحث الذي قامت به هونداجنو-سوتيلو وأفيللا (Hondagneu-Sotelo and Avila، 1997) وجود أمهات من أمريكا اللاتينية ممن يعيشن ويعملن في الولايات المتحدة الأمريكية لتوفير الدعم المادي لأطفالهن، مع انفصالهن عن أطفالهن الباقين في أمريكا اللاتينية ومع ما يتعرضن هن أنفسهن له من مخاطر. فنجدهن يرسلن معظم دخلهن إلى أرض الوطن لضمان رفاهية أطفالهن، إذ تغطي تلك الأموال تكاليف طعام وملابس والنفقات الطبية ومصاريف التعليم المدرسي لأطفالهن. وقد قامت هؤلاء الأمهات في هذا الصدد باكتساب مهارات رعاية وعناية جديدة تقع خارج الدور التقليدي للأم في توفير الدعم العاطفي. فعلى الرغم من قيام هؤلاء الأمهات بتقديم الدعم العاطفي لأطفالهن عبر الاتصالات الهاتفية والمراسلات، فإن أسلوبهن الأساسي في الدعم أصبح هو الدعم المادي الذي كان هو أسلوب الدعم التقليدي الذي يختص الأب بتقديمه لأطفاله.

إن جعل تجارب النساء الملموسة هي "مدخل" البحث والدراسة والكشف عن النطاق المتسع من المعرفة الجديدة الكامنة في تجارب النساء هو ما بدأت باحثات الموقعية النسوية في استخدامه لملء الفراغ القائم حول النساء في العديد من التخصصات. إلا أن ضمان

فرصة التعبير الأصلي عن تجارب النساء والتعبير عن المعرفة التي اكتسبتها النساء من تلك التجارب ليس هو الهدف الوحيد لإبستمولوجيا الموقعية النسوية، التي تعمل كذلك على دفعنا إلى دراسة المجتمع دراسة نقدية من منظور النساء.

• فما الذي نتعلمه من تجارب النساء فيما يتعلق بوظائف المجتمع ككل؟

• وهل تقدم لنا تجارب النساء، والمعرفة المستقاة من تلك التجارب، رؤى وأفكاراً

فريدة عن العالم المحيط بنا؟ وإن كان الأمر كذلك، فكيف يحدث ذلك؟

فهم المجتمع عبر منظور تجارب النساء

إن باحثات الموقعية النسوية، مثلن مثل هاريت جاكوبس التي دفعت قراءها إلى تقييم مؤسسة العبودية من خلال نظرتها هي كفتاة عبدة، يعملن هن أيضاً على تشجيعنا على استخدام تجارب النساء كعدسة نتدارس عبرها المجتمع بأكمله. وبالعودة إلى البحث الذي قامت به باتريشا هيل كولينز (Patricia Hill Collins، 1990) حول أمومة النساء الأفروأمريكيات لتوضيح تلك النقطة، فإننا نجد الباحثة تكشف لنا بقدر مهم عن جانب لم تسبق دراسته إلا قليلاً بشأن الحياة اليومية للنساء الأفروأمريكيات فيما عرف بمسمى الأمومة الأخرى (other mothering)، وهي ممارسة تقوم خلالها النساء برعاية أطفال صديقاتهن والجيران وأعضاء العائلة ممن تمارس أمهاتهن الطبيعيات (biological mothers) العمل خارج البيت. وتلقي باتريشا هيل كولينز الضوء على ممارسة الأمومة الأخرى باعتبارها مؤشراً على ما تتمتع به النساء الأفروأمريكيات من قدرات، فهي مهارة فريدة ومفيدة قامت النساء بتطويرها بواسطة النساء ومن أجل النساء. إلا أنه في الوقت نفسه، وكما تشير باتريشا هيل كولينز، فإن تجارب النساء اليومية في ممارسة الأمومة الأخرى، واعتمادهن عليها، إنما يسلط ضوءاً على قضايا

اجتماعية واقتصادية أشمل، أي عدم توفر دور رعاية الأطفال التي تتسم بالجودة والتي تكون في متناول اليد ماديا في الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك الصعوبات التي تواجهها الكثيرات من الأمهات الفقيرات.

وتقدم لنا الدراسة التي قامت بها أليسون جاجار (Alison Jaggar, 1997) نموذجا آخر لتجارب الحياة اليومية للنساء وما يصاحبها من معرفة من حيث كونها تتيح أداة مفيدة نحو فهم العالم في إطاره الاجتماعي الواسع. فحينما تنخرط النساء في الأعمال المنزلية اليومية ويخضعن للأدوار المفروضة عليهن اجتماعيا، ومنها دور الرعاية، فنجدهن ينمين مجموعة فريدة من الخبرات التي تتماشى مع تلك الأعمال المنزلية والأدوار الاجتماعية. وتقوم أليسون جاجار بتحديد مفهوم "الفطنة العاطفية" (emotional acumen) بوصفها قدرة حدسية فريدة على قراءة وتفسير الألم والعواطف الخفية مع فهم أصل تلك العواطف، وتعتبر الفطنة العاطفية واحدة من مجموعة الخبرات الفريدة التي تتمتع بها النساء (Alison Jaggar, 1997, p. 192). إلا أن استخدام فطنة النساء العاطفية لا يقتصر على مجالي البيت والأسرة، بل تؤكد أليسون جاجار على أنه في حالة امتدادها خارج هذا النطاق وتطبيقها على العالم الاجتماعي يمكن للفطنة العاطفية أن تقوم بوظائف حيوية عديدة. إذ يمكن لفطنة النساء العاطفية أن تساعد على "تحفيز مدارك جديدة" في مجالات علم الاجتماع والفلسفة، كما يمكنها أن تولد حزمة جديدة من "أدوات العلاج النفسي" في مجال الطب النفسي (Jaggar, 1997, p. 192). ولعل أكثر إمكانيات تطبيق الفطنة العاطفية تأثيرا تتمثل في التحليل السياسي والمحاسبة. ونظرا إلى أن الفطنة العاطفية تمكن النساء من التكيف بسرعة مع مواقف "القسوة أو الظلم أو الخطر"، فيمكن لتلك الفطنة العاطفية أن تتحول إلى وسيلة فعالة لكشف صور الظلم السياسي والاجتماعي، فمن خلال تقديم "مؤشر أولي بوجود خطأ ما في كيفية تشكيل الوقائع المفترضة، مع وجود تفهم مقبول لمجريات الأمور" يمكن للفطنة العاطفية أن تقوي النساء وتمكنهن من صياغة "ملاحظات تقويمية تواجه التصورات السائدة التي يفرضها الوضع القائم" (Jaggar, 1997, p. 191).

وتقوم كل من أليسون جاجار وباتريشا هيل كولينز (1997 ، Alison Jaggar and Patricia Hill Collins 1990) ، في دراستيهما بتوضيح كيف يمكن الاستعانة بتجارب النساء وما يتولد عنها من معرفة واستخدامها كوسيلة للفت الانتباه إلى أشكال عدم المساواة والظلم القائم في المجتمع ككل . وفي الواقع فإننا حين نتفهم المجتمع عبر منظور تجارب النساء -وننقل على سبيل المثال أن ننظر بعيون الأمومة الأخرى التي تمارسها النساء الأفروأمريكيات - فإننا عندئذ نكون قد خطونا الخطوة الأولى نحو تشكيل موقعية نسوية . فالموقعية النسوية هي طريقة لفهم العالم ، ووجهة نظر بشأن الواقع الاجتماعي ، وتنطلق من تجارب النساء . أما الخطوة الثانية فتقوم على البناء على ما نتعلمه من تجارب النساء ، أي تطبيق تلك الموقعية النسوية نحو تحسين أوضاع النساء وتحقيق التغيير الاجتماعي . إن تجارب النساء لا تقتصر على توجيهنا للتعرف على العيوب القائمة في الأنظمة السياسية والاقتصادية ، وإنما تقدم لنا أيضا حولا ممكنة للتغلب على تلك العيوب . وفي ذلك تقول أليسون جاجار موضحة أنه نظرا إلى أن تجارب النساء والموقعيات النسوية الناشئة عنها تقدم لنا فهما عميقا لـ "آليات السيطرة" فإنها تساعدنا أيضا على "تصور أساليب حياة أكثر حرية" . (Jagger ، 1997 ، p. 193).

تجارب النساء باعتبارها خارطة للتغيير الاجتماعي

إن حكاية هاربيت جاكوبس (Harriet Jacobs ، 1861/1987) الشخصية عن تجربتها مع الاعتداء والاستغلال الجنسي الذي اضطرت إلى تحمله بوصفها امرأة من العبيد أضفت دفعة على النشاط المناهض للعبودية في شمال الولايات المتحدة الأمريكية . فعند تعرف الناس على تجربة هاربيت جاكوبس أدرك الناس طبعية مؤسسة العبودية ككل وذلك كما تراها وبعيون نساء من العبيد ، أي من موقعية النساء العبيد . إن موقعية النساء العبيد -ومع ما كشفت عنه من معرفة وفهم للعبودية- كانت نقطة انطلاق قوية ،

أو موقعا يتم منه النضال ضد تلك المؤسسة الوحشية . كذلك فمع منح مساحة للتعبير الصادق عن تجارب النساء المعاصرات مع القهر يسعى البحث القائم على الموقعية النسوية إلى إثارة المقاومة ضد تلك التجارب الخاصة بالقهر ، وفرض حلول للتغلب عليها . فتجارب النساء الأفروأمريكيات مع الأمومة الأخرى تعلمنا أن النظام الرأسمالي برمته يعجز عن توفير الدعم المناسب للأمهات العاملات الفقيرات . إضافة إلى ذلك ، فإننا حين نتأمل النظام الرأسمالي من موقعية الأفروأمريكيات اللاتي يمارسن الأمومة الأخرى تتكشف أمامنا لا أوجه قصور النظام الرأسمالي فحسب ، بل وأيضا الحاجة إلى التغيير وطرح حلول جديدة مثل دور رعاية الأطفال التي تتصف بالجودة وفي تناول يد الجميع ماديا . وفي الواقع فإن عملية تمكين النساء من التعبير عن تجاربهن مع القهر كثيرا ما تؤدي إلى رفع الوعي بين النساء وغيرهن بشأن الصعوبات التي تواجهها مختلف النساء ، كما تمثل مصدرا ملهما للحركة نحو التغيير . ولنتنقل الآن إلى المزيد من الأمثلة على ذلك .

في كتابها عن "السحر الأنثوي" تحدثت بيتي فريدان (Betty Friedan ، *The Feminine Mystique* ، 1963) ، عن طبيعة حياة ربة البيت (البیضاء) من الطبقة الوسطى في منتصف القرن العشرين بأمريكا . وانطلاقا من تجربتها الذاتية وتجارب الكثيرات من نساء الطبقة الوسطى قامت بيتي فريدان بمواجهة التصورات السائدة عن ربات البيوت الأمريكيات حينذاك ، فقد تجاوزت المؤلفة الصور الإعلامية والصحافية المرحلة لربات البيوت وهن يدفعن بالمكانس الكهربائية ويقمن بغسل الملابس ويعبرن عن بهجتهم بثلاجاتهن الجديدة ، وكشفت عن مشاعر عدم الرضا والتملل السائدة بين هؤلاء النساء . فقد وجدت بيتي فريدان أن الكثيرات من النساء يعانين من الملل والوحدة ويواجهن الإحباط من حياتهن اليومية . وحينما كانت تسعى النساء طلبا للمساعدة في محاولة التغلب على تلك المشاعر التعيسة ، كثيرا ما كان ينتهي بهن الأمر بلوم أنفسهن : "عندما كانت امرأة ما تذهب إلى طبيب نفسي طلبا للعون ، وهو ما لجأت إليه الكثيرات ،

كانت تقول لنفسها "كم أشعر بالخجل!" أو "أكيد أنني مصابة بحالة اضطراب عصبي ميثوس منها" (Friedan ، 1963 ، p. 389) : فقد تم تربية النساء على الطموح للقيام بدور ربة البيت: حيث إن الخضوع لدور ربة البيت يفترض أن يحقق لهن قمة السعادة والرضا، ومن هنا كانت المرأة التي لا تشعر بالسعادة والتحقق في دورها كربة بيت تعيش نهبا لمشاعر القلق متسائلة: "هل أعاني من عيب ما؟"

ولكن انتهى الأمر بأن صناعة الطب النفسي الذكورية نفسها بدأت تشك في أن تعاسة النساء ترجع فقط إلى عوامل فردية أو نفسية، فقد انتشرت المشكلة انتشارا بالغا، إذ تخبرنا بيتي فريدان "إن طبيبا نفسيا من أطباء ضواحي المدن تساءل منزعا: "لست أدري ماذا دها نساء هذا العصر؟" وأضاف قائلا: "كل ما أعرفه أن هنالك خطأ ما لأن معظم مرضاي من النساء" (Friedan ، 1963 ، p. 390). وقد أضفت بيتي فريدان مسمى على "تلك المشاعر الغريبة الملحة من عدم الرضا والشوق إلى شيء ما" والذي كانت تشعر به الكثيرات من النساء، وقد أطلقت عليه مسمى معبرا بعبارة "المشكلة التي لا اسم لها" (Friedan ، 1963 ، p. 387). ومن خلال التعبير عن التعاسة التي عايشتها العديد من ربات البيوت الأمريكيات ساعدت بيتي فريدان النساء على إدراك أنهن غير مضطرات للمعاناة من تلك المشاعر والتغلب عليها بمفردهن، كما أن قيامها بتسمية تلك المشكلة على الملأ نجحت بيتي فريدان في إلهام النساء بالقيام بأفعال للتغلب عليها.

إن تلاقي النساء وتبادلهن الحديث عن تعاستهن ومشاعر عدم الرضا التي تنتابهن أدى إلى توقفهن عن لوم أنفسهن على العجز عن الخضوع لصورة ربة البيت السعيدة، بل بدأن في دراسة المجتمع بشكل نقدي من خلال تجاربهن الذاتية، ومواجهة الأنماط والتوقعات الاجتماعية بشأن نموذج المرأة باعتبارها ربة بيت. وعن طريق المعرفة المشتركة بحقيقة حياة ربات البيوت الأمريكيات قامت النساء بصياغة موقعية نسوية، أي منظور نقدي للواقع وموقع للوعي السياسي، يتناول بجدية مدى شرعية الرؤية

السائدة للعالم التي ترى أن المصير الطبيعي والبيولوجي للنساء يقتصر على أدوارهن كزوجات وأمّهات . وفي ذلك توضح جويس مكارل نيلسن قائلة: "مع انعدام الجهد الواعي لإعادة تأويل الواقع بناء على التجارب المعاشة لكل منا -أي مع انعدام الوعي السياسي- يصبح من المتوقع أن تتقبل المستضعفات رؤية العالم السائدة في المجتمع" (Joyce McCarl Nielsen ، 1990 ، p. 11). وهكذا اعتمادا على الموقعية النسوية تمكنت النساء من تقييم تجاربهن بوصفهن ربّات بيوت وأمّهات بتأملها من منظور جديد، فاستوعبن تجاربهن في الحياة المنزلية لا باعتبارها قدرا بيولوجيا وطبيعيا محتوما، بل بوصفه دورا تم تشكيله وفرضه عليهن بواسطة المجتمع الأبوي . إن هذا الوعي المتصاعد مكن النساء من مقاومة التصورات الاجتماعية السائدة التي تحصرهن في أدوار الزوجة والأم، كما منحتهن قوة دافعة للانطلاق في طرق حياتية وعملية خارج نطاق تلك الأدوار.

ونجد أن شهادة أنيتا هيل عام 1991 عن التحرش الجنسي الذي تعرضت له من قبل وكيل النيابة آنذاك كلارنس توماس، وما أعقب تلك الشهادة من تزايد الوعي وأشكال الحماية القانونية من التحرش الجنسي في أوساط القوى العاملة، تقدم جميعها مثالا واضحا على العلاقة القوية بين منح صوت للتعبير عن تجارب النساء مع القهر وتنشيط الحراك نحو تحقيق تغيير اجتماعي. فقد عبرت أنيتا هيل في عام 1991 عن تجربتها في التعرض للتحرش الجنسي متحدثة عنها في جلسة استماع عامة عقدت أمام لجنة قضائية لمجلس الشيوخ. وقد كانت أنيتا هيل شاهدة عامة مترددة وتحدثت ببساطة ورقة، إلا أن وصفها لما تحملته من تحرش جنسي لاقى صدى لدى العديد من النساء الأمريكيات. فبعد سماع حكاية أنيتا هيل تقدمت آلاف من النساء الأمريكيات وتحدثن عن مواقف من التعدي والأذى الذي عانين منه في أماكن العمل، فوجد أن النساء اللاتي سبق أن عانين في صمت من التحرش الجنسي في العمل أخذن في التقدم بعدد غير مسبوق من شكاوى التحرش الجنسي. وتمت إعادة صياغة وتشديد قوانين التحرش الجنسي في

مجال العمل وفي الحكومة. وقد تم تسمية عام 1992، وهو العام التالي على شهادة أنيتا هيل، بمسمى "عام المرأة"، إذ شهد انتخاب عدد غير مسبوق من النساء في الكونجرس الأمريكي وهو ما يمكن إرجاعه بقدر كبير إلى "أثر أنيتا هيل" (George-Graves، 2003، p. 16).

وقد أضفت شهادة أنيتا هيل على النساء الشجاعة والقوة لصياغة نقدية للتحرش الجنسي ومحاربتة. فمع تجمع النساء وتشاركهن حكايات التحرش الجنسي، لم تعد كل امرأة تعاني وحدها ولوم نفسها على ما تعرضت له من تحرش، ولم تعد النساء يعتبرن التحرش الجنسي مشكلة شخصية عليهن احتمالها ذاتيا كما توقفن عن التساؤل عما إذا كان مثل هذا التحرش هو نتيجة لقصور شخصي لديهن. بل وبناء على تجاربهن الخاصة مع التحرش الجنسي أخذت النساء في تطوير وجهة نظر وموقف جديد، أي موقعية نسوية، بشأن ثقافة مكان العمل ككل. ومع قيام النساء بدراسة مكان العمل من منظور تجاربهن الذاتية، بدأت في الكشف عن العلاقات القائمة بين التحرش الذي تعرضن له وبين عدة جوانب متعلقة ببنية مكان العمل، أي عدم التوازن الشائع في علاقات القوى بناء على الجنس، والغياب الفج للقوانين التي تمنع التحرش الجنسي بالنساء والتي لا توفر للنساء مرجعية قوية لمحاربتة. وهكذا، فمن خلال عملية التشارك والتعبير عن تجارب التعرض للتحرش الجنسي، اكتسبت النساء درجة عالية من الوعي بهذا الموضوع وشرعن في تفسير تجاربهن وتأويلها من منظور جديد، وهو المنظور، أو الموقعية النسوية، التي مكنت النساء من تحديد السبب الحقيقي والعميق للتحرش الجنسي، وتمكين النساء بما يجعلهن قادرات على العمل على تغييره.

تجارب النساء والوعي المزدوج

إن الأبحاث التي تنطلق من الموقعية النسوية تعلمنا أن تجارب النساء مع القهر تقدم منظورا قويا يمكن من خلاله تقييم المجتمع وقاعدة لتغييره . ونقوم في هذه الجزئية بتناول جانب واحد من المنظور الناتج عن تجارب النساء مع القهر بقدر أكثر من التفصيل، وهو الجانب الذي تطلق عليه باحثات الموقعية النسوية مفهوم ”الرؤية المزدوجة“ أو ”الوعي المزدوج“.

وننتقل الآن إلى الأسئلة التالية:

- ما الوعي المزدوج؟
- كيف ينشأ عن تجارب النساء مع القهر؟
- كيف يقدم للنساء رؤى فريدة للمجتمع ككل؟
- وماذا عن قابلية استخدامه لإحداث تغيير اجتماعي؟

تؤكد باحثات الموقعية النسوية أن النساء، باعتبارهن ينتمين إلى فئة مقهورة، قمن بصقل وعي مزدوج، أي وعي بالغ لا بحياتهن فحسب بل أيضا بحياة الفئة السائدة (الرجال). وكثيرا ما يظل عمل وحياة النساء اليومية جانبا خفيا غير مرئي بالنسبة للفئة السائدة، بينما نجد النساء على دراية بـ”الرؤية العامة السائدة للمجتمع وكذلك منظورهن الخاص كأقلية“ (Nielsen، 1990، p. 10)، وبكلام آخر فللنساء ”وعي فاعل نشيط“ بكلا المنظورين (Smith، 1990، p. 19). وفي بعض الحالات تنشأ قدرة النساء على الوعي المزدوج من خضوعهن للأدوار المفروضة اجتماعيا، مثل دور الزوجة والأم. وفي حالات أخرى تقوم النساء بتطوير وعي مزدوج لضمان البقاء البدني والاقتصادي لهن ولأسرهن.

الرجال لا يدركون -بالضرورة- ولا يعون على الدوام الأعمال اليومية التي تؤديها النساء في البيت واعتمادهم عليهن . ولكن الكثيرات من النساء مضطرات إلى الالتفات إلى المهام اليومية من طهي وغسيل ورعاية الأطفال ، وكذلك يتعلمن التعامل أو على الأقل التعرف العملي على الحيز العام (الخاضع للسيادة الذكورية) لسوق العمل الرأسمالي . وفي هذا الصدد تقوم النساء بالوساطة بين عالمين: عالم "الأنشطة المحلية المنصبة على أفراد آخرين محددين ، والحفاظ على النظافة، وإدارة شؤون البيت والأسرة والأطفال" وعالم سوق العمل الذكوري ، وهو عالم يتسم بالتجريد والعقلانية (Smith ، 1990 ، p. 20). ونجد في دراسة سوزان أوستراندر (Susan Ostrander ، 1984) ، على سبيل المثال أنه إلى جانب إدارة شؤون البيت ، يكون من المتوقع من النساء عادة الإلمام بتفاصيل عمل الزوج واكتساب معرفة مناسبة في هذا المجال . إن معرفة النساء بأسماء زملاء أزواجهن في العمل ومجريات الأمور اليومية في مكان عمل الزوج بما يتيح للزوجات تقديم الدعم العاطفي اللازم لأزواجهن ، وهو الدعم الذي يؤدي في نهاية الأمر إلى مواصلة الزواج المشاركة والنجاح في الحيز العام (Ostrander ، 1984; Smith ، 1999).

وبينما تقوم بعض النساء بتطوير وعي مزدوج في محاولتهن الالتزام بأدوار وتوقعات اجتماعية معينة ، نجد نساء أخريات يعتمدن على قدرتهن على الوعي المزدوج لحماية أنفسهن وضمان البقاء . وهو ما توضحه جويس ماكارل نيلسن قائلة إنه إذا كانت المرأة في موقع المقهورة فعادة ما يكون من مصلحتها "الالتفات والانتباه" لنظور الرجل ومنظورها الخاص بها ، فلضمان البقاء "اجتماعيا بل وأحيانا حتى جسديا" يتعين على النساء التعرف الجيد على كيف "يرى الرجال الدنيا" مع القدرة على "قراءة وتوقع وفهم مصالح ودوافع وتوقعات وتوجهات الرجال" (Joyce McCarl ، 1990 ، p. 10). وتقدم قصة حياة هاربيت جاكوبس وخروجها من محنة تجربة التحرش مثالا قويا في هذا الصدد ، فسعيها لحماية نفسها بقدر المستطاع من الأذى

الجنسي الواقع عليها من سيدها، كان عليها أن تصبح عارفة خبيرة بطريقة تفكيره وحالاته المزاجية، وهي تفسر ذلك قائلة: "لقد كان رجلاً ماهراً وكان يلجأ لأساليب عديدة لتحقيق أغراضه"، فأحياناً كان يستخدم "طرقاً هائجة مرعبة تصيب ضحاياه بالارتعاش، وأحياناً كان يدعي الرقة التي يراها سبيلاً أكيدا لإخضاع الغير"، ومع تعرفها على نفسية سيدها توصلت إلى أن حالات "مزاجه الهادئ" كانت هي الأكثر خطورة، "فمن بين حالتيه المزاجيتين كنت أفضل حالاته المزاجية الهائجة رغم أنها كانت تجعلني أرعد" (Harriet Jacobs، 1861/1987، p. 27)، فكنت حينها أجد أبتدع أساليب جديدة وماهرة لتجنب تلك الحالات المزاجية.

وتقدم لنا حكاية بل هوكس (bell hooks، 2004) عن نشأتها كفتاة فقيرة وسوداء في جنوب كنتاكي مثالا آخر على كيفية تشكل الوعي المزدوج إذ يحاول الفرد الكفاح من أجل البقاء، وتحديد البقاء المادي، فقد كانت بل هوكس وجيرانها يعبرون الطريق مروراً إلى الجزء الذي يقطنه البيض في المدينة الصغيرة، وحيث كان عملهم في الخدمة بالمنزل وحراسة وتنظيف العقارات والدعارة يضمن لهم أجراً بالكاد يكفي الحصول على المأكل والملبس والمأوى لأنفسهم وأسرهم. وكان يسمح لهم العمل في الجزء الأبيض من المدينة بما فيه من "شوارع مرصوفة ودكاكين لم يكن يحق لنا دخولها، ومطاعم لم يكن بوسعنا تناول الطعام فيها، وأناس لم يكن يسمح لنا بالنظر مباشرة في وجوههم" طالما كان العمل في مجال "العمل الخدمي". ولم يكن يسمح لهم بالإقامة هناك. ففي نهاية كل يوم عمل، كانت بل هوكس وجيرانها يعبرون الطريق عودة إلى "الأكواخ والبيوت المهجورة الواقعة في طرف المدينة"، "وقد كانت هنالك قوانين تضمن عودتنا، فعدم العودة كان يعني المخاطرة بالتعرض للعقاب" (bell hooks، 2004، p. 156). ومن خلال عبور الطريق يومياً إلى العمل، نشأ لدى بل هوكس وجيرانها "وعي عملي" بعالم الأناس البيض وكذلك عالمهم، أما البيض فقلما عبروا الطريق في الاتجاه الآخر.

إن حكاية بل هوكس تركّز على الأفروأمريكيين باعتبارهم فئة مقهورة في مقابل البيض بوصفهم فئة مهيمنة ، بدلا من الاقتصار على النساء مقابل الرجال . ولكن تفسيرها لكيفية نشأة الوعي المزدوج إذ يكافح الأفراد للبقاء المادي يمكن تطبيقه تحديدا على النساء أيضا . ولعل بعض الأفراد الأفروأمريكيين الذين تصفهم بل هوكس كانوا من النساء اللاتي عملن لدى رجال بيض واعتمدن في بقائهن المادي على الرجال البيض . وفي الواقع فإن بعض باحثات الموقعية النسوية يقارن بين قدرة النساء على الوعي المزدوج وقدرة الوعي المزدوج لدى الفئات المقهورة كالأفروأمريكيين . وفي ذلك تقول جويس ماكارل نيلسن الآتي:

أخذا في الاعتبار أن السود في ثقافتنا يتعرضون لسيادة الثقافة البيضاء في المدارس وعبر وسائل الإعلام وكذلك في تعاملاتهم مع البيض ، فيمكننا أن ندرك كيف يمكن للسود أن يعرفوا الثقافتين البيضاء والسوداء ، بينما لا يعرف البيض سوى ثقافتهم . ويمكن القول بالأمر نفسه فيما يتعلق بالنساء مقابل الرجال .³ (Joyce McCarl Nielsen ، 1990 ، p . 10)

ويجب أن يكون من الواضح الآن أن قدرة النساء على الوعي المزدوج تتيح لهن منظورا فريدا ، أو عينا فريدة يمكنهن من خلالها تقييم المجتمع ككل . إذ تخرج النساء من تجاربهن مع القهر والاستغلال وقيامهن بأدوار (ثانوية تابعة) على أساس النوع وقد طورن كما تقول بل هوكس "نمطا من أنماط الرؤية غير معروف لمعظم قاهرينا" (bell hooks ، 2004 ، p . 156) . فالنساء قادرات على استيعاب أنشطة الرجال وتوجهاتهم وتصرفاتهم كما يدركن ما يخصهن . ولكن الرجال باعتبارهم ينتمون إلى الفئة المسيطرة ذات السيادة لا يكونون بالضرورة قادرين على التقاط أنشطة النساء وتصرفاتهن ، وإنما يبدو نمط رؤية الرجال للحقيقة أقرب إلى الانطلاق من أعماق تجاربهم . إن قدرة النساء على الوعي المزدوج تمكنهن من رؤية وفهم "معالم معينة من الحقيقة . . . المجهولة بالنسبة لغيرهم (الرجال)" (Jaggar ، 2004 ، p . 60) .

إن هذا النمط الفريد "من أنماط الرؤية"، أي تلك القدرة على معرفة وفهم توجهات وتصرفات الفئة المسيطرة وكذلك معرفة وفهم توجهاتهن إنما هي قدرة تضع النساء في موقع مميز يمكن منه تغيير المجتمع إلى الأفضل. ومن أجل تحسين مجتمع ما من الضروري فهم الكيفية التي يعمل بها هذا المجتمع ككل، والتعرف عن قرب على الحياة اليومية للفئات السائدة والفئات المهمورة، وفهم العلاقات فيما بينها. وهكذا يمكن تطبيق المعرفة المكتسبة من الوعي المزدوج لدى النساء لتشخيص أوجه عدم المساواة والظلم الاجتماعي، وصياغة وتفعيل الحلول لذلك. ونجد بل هو كس وقد أحسنت إيجاز تلك النقطة بقولها إن الوعي المزدوج يمثل في نفس الوقت "حيزا للمقاومة" قويا، و"موقعا للإمكانات الجذرية" (bell hooks، 2004، p. 156).

تجارب النساء والموضوعية القوية

تؤكد بعض باحثات الموقعية النسوية أن وضع النساء الثانوي في المجتمع، وقدرتهن على الوعي المزدوج الصادر عن ذلك الوضع، يضع النساء في مكانة متميزة يمكن منها توليد المعرفة عن العالم. إن مفهوم الموقعية النسوية هذا، والذي يطلق عليه أحيانا مسمى "الموضوعية القوية"⁴ (strong objectivity) يعلمنا أن النساء أكثر قدرة على إنتاج تأويل أكثر دقة وشمولا وموضوعية بشأن الواقع الاجتماعي مقارنة بالرجال. وتوضح أليسون جاجار أن "الموقع الاجتماعي المميز" للنساء يتيح فرصة لـ "رؤية العالم بشكل أكثر دقة وأقل تشويها" مقارنة بما هو متاح "للطبقة الحاكمة" (أو الرجال، 56، 57، Alison Jaggar، 2004). كما تؤكد بعض باحثات الموقعية النسوية على أن البحث الذي ينطلق من حيوات النساء اليومية باعتبارهن منتميات إلى فئة مهمورة سيؤدي إلى مقولات معرفية "أقل محدودية وتشويها" من البحث الذي ينطلق "من حيوات الرجال المنتمين إلى فئات مسيطرة" (Harding، 1991، p. 185). وللإجابة على السؤال: لماذا؟ ننتقل الآن إلى تفسير أكثر تفصيلا مصحوبا بالأمثلة.

تؤكد باحثات الموقعية النسوية أنه في كثير من المجتمعات يتم إنتاج المعرفة والتحكم فيها من قبل الطبقة الحاكمة، ومن هنا يكون تأويل الواقع السائد في مجتمع ما عاكسا لمصالح وقيم الطبقة الحاكمة. ونظرا لالتزام الطبقة الحاكمة بالحفاظ على السلطة، نجد أنها تسعى إلى إخفاء الطرق التي تقوم بها بالسيطرة على بقية أفراد المجتمع واستغلالهم. ويصبح تأويل الواقع تبعا للطبقة الحاكمة مشوها بحيث "يتم تجاهل أو معاناة الطبقات الثانوية والتابعة، وإعادة وصف هذه المعاناة باعتبارها مصدر متعة، أو تبريرها بوصفها مختارة أو مستحقة أو حتمية" (Alison Jaggar، 2004، p. 56). إن مواقع السلطة والامتياز التي يحتلها أعضاء الطبقة الحاكمة تتيح لهم فصل وعزل أنفسهم عن معاناة المقهورين، وأن يصبحوا أسهل ميلا للاقتناع بأيديولوجيتهم (المشوهة)، فأعضاء الطبقة الحاكمة يعيشون "النظام الحالي للمجتمع باعتبارها نظاما مرضيا في الأساس، وبالتالي يقبلون تأويل الحقيقة بما يبرر هذا النظام. وهم لا يواجهون في حياتهم اليومية ما يتعارض مع ذاك التأويل" (Alison Jaggar، 2004، p. 56).

إن أعضاء الطبقة الحاكمة يكونون راضين عن النظام القائم ولا يكون لديهم سبب للتساؤل عن صحة التأويل السائد للواقع. ومن الناحية الأخرى فإن المعاناة اليومية التي يعيشها أعضاء الفئات المقهورة تقدم سلسلة من "المشاكل الجديرة بالتفسير ذات الأهمية الخاصة" (Harding، 1993، p. 54) كما تتطلب مزيدا من التدقيق. وأحيانا تنجح الأيديولوجيا السائدة (الصادرة عن الطبقة الحاكمة) في إقناع الفئات المقهورة، وبشكل مؤقت، بأن تقبل الألم، أو أن تلوم نفسها، أو أن تنفيه أساسا. ولكن في نهاية الأمر فإن انتشار وقوة واستمرارية تلك المعاناة تدفع بالفئات المقهورة إلى إدراك أن ثمة خطأ ما في النظام الاجتماعي. وما يعانونه من ألم يقدم لهم دافعا لمعرفة وجه الخطأ، ولنقد تأويلات الواقع التي تلقى قبولا، ولصياغة طرق فهم للعالم تكون جديدة وأقل تشوها.

⁵ (Alison Jaggar، 2004، p. 56)

وباعتبارهن منتميات لفئة مقهورة لا تتوفر للنساء أسباب أو دوافع لتثويته الواقع . فعلى العكس من الرجال الذين باعتبارهم أعضاء في الطبقة الحاكمة قاموا بصياغة تأويل مشوه للواقع لحماية مصالحهم والحفاظ على سلطتهم ، نجد أن الوضع الثانوي للنساء يعني أنهم أقرب إلى صياغة "فهم أكثر وضوحا ومصداقية للعالم" ، (Jaggar ، 2004 ، p. 62) . ولنبدأ بنموذج هاربيت جاكوبس . فإذا تناولنا مؤسسة العبودية من موقعية هاربيت جاكوبس ، أي من منظورها ومن خلال تجربتها الشخصية المعيشة ، فسنبصر على تأويل لتلك المؤسسة يختلف عن التأويلات السائدة حينذاك . فقد قام ملاك العبيد بصياغة خطاب أبوي عن العبودية: فكان العبيد لا حول لهم ولا قوة ، ضعاف الفكر ، بل وفصيلة أدنى من البشر ، أما الأسياد فيبدون في صورة الآباء الطيبين ممن يراعون العبيد ويضمنون لهم سبل العيش . أما النساء من العبيد فكثيرا ما كان يتم تصويرهن في صورة أقرب إلى الحيوانات ، بالغات السمات الجنسية ، وفي حاجة "للترويض" تبعا لفضائل وأخلاق سيداتهن البيض . ولكن حكاية هاربيت جاكوبس تحدثنا عن حقيقة المعاملة القاسية والوحشية الشائعة تجاه العبيد ، كما نتعرف على الجانب الإنساني تحديدا للنساء من العبيد ، ومعاناتهن وشجاعتهن . فبالكشف عن حقيقة العنف والاستغلال الجنسي الذي كان على الكثيرات من العبيد من النساء احتماله تنجح هاربيت جاكوبس في مواجهة الأيديولوجيات (المشوهة) بشأن العبيد من النساء ، والتي كانت هي الشائعة والرائجة حينذاك .

إن دراسة بيتي فريدان (Betty Friedan ، 1963) عن ربات البيوت الأمريكيات خلال الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين تقدم نموذجا آخر لما يتيح الوضع الثانوي للنساء في المجتمع من موقع تقوم منه النساء ببناء المعرفة وتشكيل صورة أكثر دقة للواقع الاجتماعي . فكما رأينا في جزء سابق من هذا الفصل ، فإن الأيديولوجيات المسيطرة والصور الإعلامية السائدة في الخمسينيات من القرن الماضي كانت تصور النساء بوصفهن ربات بيوت سعيدات ، حيث الدور الحقيقي والوحيد للنساء في الحياة

هو دور الزوجة والأم . ولكن في واقع الأمر كانت الكثيرات من النساء يشعرن بالتعاسة وعدم الرضا والقيود التي يفرضها ذلك الدور المحدود ، وقد دفعت مشاعر الألم العاطفي والإجباط النساء إلى التحرك ومواجهة تلك الأيديولوجيا الشائعة ، أي أيديولوجيا سعادة ربة البيت وهنائها . وقد نجحت النساء في التشكيك في صحة التأويل السائد والمقبول للواقع - بشأن سعادة ربة البيت وهنائها - بناء على ما لدى النساء من معرفة وتجربة معيشة بوصفهن ربات بيوت . وأخيرا ، فمن خلال قلب تلك الأيديولوجيا (المشوهة) عن سعادة ربة البيت وهنائها ، تمتعت النساء بحرية تخطي الحدود والقيود المتعلقة بدور ربة البيت ، وحرية المضي لتحقيق أهداف وتتبع اهتمامات واكتساب مهارات أخرى ، أي صياغة واقع جديد يعكس بدقة أكبر النطاق الكامل لما تتمتع به النساء من إمكانيات وطاقات باعتبارهن من جنس البشر .

وبإيجاز ، فإن مفهوم الموقعية النسوية الخاص بالموضوعية القوية يعلمنا أن تمثيل الواقع من موقعية النساء هو تمثيل "أكثر موضوعية وحيادية عن التمثيلات السائدة التي تعكس موقعية الرجال" (Jaggar، 2004، p. 62) . وتتبع الموضوعية القوية من موقع النساء كمقهورات في المجتمع ، ومن قدرتهن على امتلاك وعي مزدوج ناتج عن ذلك الموقع . ونظرا إلى أن النساء قادرات على معرفة وفهم تصرفات وأيديولوجيات المجموعات المسيطرة في المجتمع ، إلى جانب معرفة وفهم ما يخصهن ، فإن الانطلاق من النساء في البحث يعني أن "بعض المساحات أو جوانب الحياة لا تخضع للإقصاء والاستبعاد" (Jaggar، 2004، p. 2) ، وهو ما يذكرنا بقول ساندر هاردينج: "إن انطلاق البحث والبدء بحيوات النساء سيؤدي إلى توليد حكايات أقل تحيزا وتشوها لا فيما يتعلق بحيوات النساء فحسب ، بل وحيوات الرجال والنظام الاجتماعي بأكمله" (Sandra Harding، 2004b، p. 62) .

تعقيدات جديدة وموقعيات عديدة

كما رأينا أعلاه، تؤكد بعض باحثات الموقعية النسوية أن الوضع الثانوي للنساء في المجتمع بالإضافة إلى قدرتهن على الوعي المزدوج يوفر لهن نوعاً من "الامتياز المعرفي" (epistemological privilege; Jaggar ، 1997; Narayan ، 2004) الذي تخرج منه أسئلة بحثية نقدية وجديدة ، وهي أسئلة يمكن لها في حال دراستها أن تنتج فهماً للواقع الاجتماعي "أقل تشوهاً" وأكثر "مصادقية" (Harding ، 1993; Jaggar ، 1997 ، p. 192). وربما الأمر الأكثر أهمية هو أنه نظراً إلى أن البحث الذي ينطلق من حياة النساء يقدم صورة أكثر دقة بشأن كيفية عمل مجتمع ما ، فإنه يكشف في الوقت نفسه عن المكونات الضرورية للتغيير الاجتماعي. إن الكشف عن التفاعلات داخل المجتمع ككل يعرفنا بالعناصر التي تتطلب التعديل وإعادة التشكيل بحيث يمكن صياغة مجتمع أكثر إنسانية وعدالة. وكما توضح أليسون جاجار ، فنظراً إلى أن البحث الذي يبدأ بالنساء يوفر "تقييماً صادقاً" وأكثر دقة للمجتمع ، فإنه أيضاً يمنحنا "فرصة أفضل" كي يتم "ترسيخ بدايات ممكنة" لمجتمع جديد يمكن لكل أفراد أن تتاح لهم فرص متساوية للتطور والنماء (Alison Jaggar ، 1997 ، p. 192).

ومنذ فترة قريبة بدأت بعض باحثات الموقعية النسوية في مواجهة وإعادة طرح الدعوى بقدرة النساء على تحقيق فهم أشمل للواقع الاجتماعي وإمكانية قيامهن بإنتاج نتائج أكثر "موضوعية" عند البدء بتناول حيوات النساء. إذ ترى جويس ماكارل نيلسن أن مقولات الموقعية النسوية بشأن الدقة والموضوعية تتسم بكونها "مثيرة للأمل ومحملة بالإشكالية" في نفس الوقت (Joyce McCarl Nielsen ، 1990 ، p. 25). فمن ناحية نجد باحثات الموقعية النسائية على التزامهن بما تحمله تلك المقولات من "أثر تحرري" بما يصاحبها من أهداف تحقيق العدالة الاجتماعية والتغيير الاجتماعي. ففي نهاية الأمر يكون الغرض الأساسي من الحصول على فهم أدق وأشمل للمجتمع هو القدرة على تغييره من أجل "ما هو أفضل للجميع". ومن ناحية أخرى ، يعترض الكثيرون على

المفهوم نفسه والكامن في مقولات الموقعية النسوية بشأن الدقة والموضوعية من حيث إن تجارب ورؤى مجموعة ما (وفي تلك الحالة نقصد النساء) هي أقرب إلى "الواقع (أي أفضل أو أدق) مقارنة بغيرها" (Joyce McCarl Nielsen ، 1990 ، p. 25).

وبخلاف صعوبة التأسيس لكون النساء كفئة يتمتعن ، بعكس الرجال كفئة ، بقدرة فريدة خاصة بهن على فهم التعقيدات الكامنة في الواقع الاجتماعي ، فإننا نجد أيضا إشكالية أخرى في اختزال النساء كافة في مجموعة واحدة تشترك في تجربة واحدة ووجهة نظر أو موقعية موحدة تقوم على تلك التجربة. إن هذا الشكل من أشكال المنطق الجوهرى (essentialism) هو سلاح ذو حدين ، إذ تتزايد صعوبة التعامل مع مفاهيم الموضوعية وموقعية النساء "الأكثر دقة" أو "الأكثر مصداقية" كلما تم الأخذ في الاعتبار التعددية وتنوع نطاق تجارب النساء. وهو الأمر الذي يفرض التساؤلات التالية:

• كيف تتغير طبيعة إبستمولوجيا الموقعية النسوية مع التناول والكشف عن

الاختلافات العرقية والثقافية والطبقية بين النساء؟

• هل تفقد باحثات الموقعية النسوية القدرة على إنتاج نتائج بحث تتسم بالصدق

ولها معنى في ظل قيام هؤلاء الباحثات بالتعرف والاعتراف بتعددية واقع النساء

الاجتماعي؟

• هل تقدم لنا تجارب وموقعيات بعض النساء تقييما أكثر موضوعية وأكثر دقة بأن

الواقع الاجتماعي مقارنة بتجارب الأخريات وموقعياتهن؟

• وإذا كان الأمر كذلك ، فما معايير تحديد التجارب والموقعيات التي تعتبر

الأكثر أو الأقل مصداقية؟

ولنتنقل الآن إلى تلك الأسئلة بقدر أكبر من التفصيل .

إن غالبية باحثات الموقعية النسوية يعترفن الآن بأن النساء "يشغلن عدة موقعية مختلفة ويعايشن أنواعا مختلفة من الواقع" (Hekman، 2004، p. 227)، أي إن هؤلاء الباحثات باختصار يتعاملن مع الاختلافات القائمة بين النساء بجدية. ولكن بينما تمت إزاحة الدعوى بإمكانية تصنيف النساء ضمن فئة واحدة ذات خصائص موحدة وموقعية واحدة، نجد أن باحثات الموقعية النسوية يواصلن النقاش حول أفضل طريقة لتضمين أوجه الاختلاف بين النساء داخل عملية البحث. وقد تم في هذا الصدد طرح عدد من الاستراتيجيات. وقد اقترحت ساندرا هاردينج (Sandra Harding، 2004a، 1993، 1991، عدة استراتيجيات، سيتم تسليط الضوء على اثنتين منها فيما يلي. تتطلب الأولى الالتفات نحو موقعية النساء المختلفة، مع التمسك في نفس الوقت بأن بعض الموقعية قد تؤدي إلى معرفة أكثر صدقا وموضوعية مقارنة بغيرها. وهي آلية تشير إلى أنه كلما زاد معدل القهر ازدادت موضوعية الرواية: أي إن موقعية فئات النساء الأكثر تعرضا للقهر ستولد أكثر نتائج البحث صدقا. وهو ما توضحه ساندرا هاردينج قائلة:

يجب أن يكون من الواضح أنه إذا كان من المفيد البدء بالبحث والدراسة والنظرية من مواقع النساء البيض، فيتعين علينا بالتالي أن نتمكن من التعرف على المزيد عن الأنظمة الاجتماعية والطبيعية في حال ما إذا بدأنا من مواقع النساء المنتميات إلى الأعراق والطبقات والثقافات التي تتعرض للقهر وتقليل قيمتها. (Sandra Harding، 1991، pp. 179-180)

وتقوم ساندرا هاردينج في مقاربتها تلك بدعوة الباحثين والباحثات إلى الانخراط في عملية "التقييم النقدي" لتحديد المواقع الاجتماعية التي "تميل إلى توليد دعاوى المعرفة الأكثر موضوعية" (Harding، 1991، p. 142).

وفي مقاربتها الثانية تطالب ساندرا هاردينج بتوجيه المزيد من الانتباه إلى الاختلافات بل وحتى الصراعات القائمة بين موقعية النساء:

لقد انطلقت المعرفة النسوية من حيوات النساء ، ولكنها انطلقت من حيوات مختلفة للكثيرات من النساء . فلا توجد حياة امرأة نموذجية أو جوهرية ينطلق منها الفكر النسوي على تعدده . كما أن تلك الحيوات المختلفة للنساء تتعارض فيما بينها في جوانب مهمة . (Harding ، 1993 ، p. 65)

وتؤكد ساندرا هاردينج في هذه المقاربة على أن الاختلافات والتعددية والتنوع بل وحتى الصراعات القائمة بين تجارب النساء هي تحديدا التي تمكننا من فهم أكثر ما يمكن بشأن المجتمع ككل ، وهو ما توضحه قائلة:

سيتعين على كل فئة مقهورة أن تملك رواها النقدية بشأن الطبيعة والنظام الاجتماعي الأوسع وذلك من أجل المساهمة في جمع المعرفة الإنسانية .
ونظرا إلى أن الفئات المختلفة تتعرض للقهر بطرق مختلفة ، فكل منها إمكانية (لا الثقة الأكيدة في) التوصل إلى رؤى مميزة عن أنظمة العلاقات الاجتماعية بشكل عام والتي يمثل القهر الذي تتعرض له ملمحا من ملامحها . (Sandra Harding ، 2004a ، p. 9)

ومع ذلك ، وعلى الرغم من مطالبة ساندرا هاردينج الاعتراف بالاختلافات – وأن "الذوات/عناصر نظرية الموقعية النسوية" تتسم بأنها "متعددة ومتجانسة ومتناقضة" – فإنها تواصل التأكيد على أن تجارب المقهورين ، بغض النظر عن تنوعها ، هي تجارب تنتج روايات وحكايات أكثر دقة حول النظام الاجتماعي مقارنة بتلك الصادرة عن الفئات المسيطرة في المجتمع . وتؤكد قائلة: "ومع ذلك ، فإن الفكر الذي ينطلق من كل نوع من أنواع الحياة المختلفة تلك يمكنه أن يولد حكايات عن الطبيعة والحياة الاجتماعية تتسم بكونها أقل تحيزا وتشويها" (Harding ، 1993 ، p. 65) .

وعلى العكس من مفهوم ساندرا هاردينج الخاص بالموقعية "ذات أقصى موضوعية"، فإننا نجد ما يتماشى مع تأكيد ساندرا هاردينج مؤخرا على الاختلاف، إذ تركز باحثات نسويات أخريات على النطاق المتنوع للمعرفة الموجود في تعددية الموقعية. فبدلاً من محاولة العثور على آليات تختزل كل الموقعية في "الأقل تشوهاً" أو توليد دعاوى وجود معرفة عالمية عامة من نموذج إضافي للموقعية المتعددة، نجد أن هؤلاء الباحثات النسويات يتساءلن عن مدى إمكانية، أو ما إذا كان من المرغوب فيه، "إنتاج توصيف واحد وموحد وكامل للعالم" (Longino، 1999، p. 339). فكل موقعية نسائية تقدم تجربة حياتية ووجهة نظر فريدة، ويجب أن تخضع للتقييم على هذا الأساس. وترى باحثات الموقعية النسوية أن الالتفات إلى الخصائص المميزة لموقعية كل امرأة بذاتها، والتعددية والتنوع القائمين بين تجارب النساء، هو أمر لا يتدخل في قدرتنا على بناء المعرفة. ففي الواقع أننا نأمل في التوصل إلى معرفة جديدة تحديداً داخل تلك الخصائص المميزة لموقعية ما، أو ما تحمله تجربة امرأة ما من سمات فريدة.

وتؤكد كل من دونا هاراواي وهيلين لونجينو (Donna Haraway، 1991; Hel- en Longino، 1999)، أن المعرفة تأتي من تجارب حياة النساء الفريدة، والتأويلات المعينة للواقع الاجتماعي (أو الموقعية) والتي تصاحب تلك التجارب. فبدلاً من محاولة المرور بالاختلافات القائمة بين النساء مرور الكرام، تشير دونا هاراواي إلى الرؤى القيمة الناجمة عن الاختلافات القائمة بين موقعية النساء وبين "الخصوصية المفصلة" لكل منهن (Donna Haraway، 1991، p. 190). كذلك تؤكد هيلين لونجينو على أن معرفة النساء تقع في "أماكن معينة وفي أزمنة معينة" (Helen Longino، 1999، p. 333). فللساء موقعية مختلفة، وتجسد معارف مختلفة، بناءً على كيفية توجيه النساء نحو بيئاتها، وكيفية تفاعلهن مع تلك البيئات. وهكذا فإن التجربة والموقعية الفريدة الخاصة بكل امرأة توجه انتباهنا إلى التفاصيل والملاحم التي ربما ما كنا لنلتفت إليها في سياق آخر (Longino، 1999، 335).

إن تطبيق استراتيجيات بناء المعرفة التي طرحتها ساندرا هاردينج ودونا هارواي وهيلين لونجينو على بعض حيوات النساء كما تعرفنا عليها في هذا الفصل من الكتاب ، يكسبنا فهما للكيفية التي تعمل بها كل استراتيجية عند التطبيق الفعلي . فطبقا للآلية الأولى التي اقترحتها ساندرا هاردينج على سبيل المثال ، فإن حيوات وتجارب النساء الأفروأمريكيات الفقيرات (كما سلطت عليها الضوء دراسة باتريشا هيل كولنز: Pa- tricia Hill Collins ، 1999) -تحمل إمكانيات تقديم صورة أكثر دقة واكتمالا للواقع الاجتماعي مقارنة بحيوات وتجارب ربوات البيوت البيض من الطبقتين الوسطى والوسطى العليا (وهو ما سلطت عليه الضوء دراسة بيتي فريدان: Betty Friedan ، 1963) . ولا تتمثل تداعيات ذلك في نفي تجارب القهر والمعاناة التي تعيشها النساء البيض . ولكن نظرا لأن القهر والمعاناة التي تعيشها النساء الأفروأمريكيات كفة اجتماعية هي تجارب تفوق تلك التي تعيشها النساء البيض ، فإن البدء بحيوات وتجارب النساء الأفروأمريكيات هو ما يوصلنا إلى موقعية أكثر موضوعية بشأن المجتمع ككل .

وطبقا لكل من دونا هارواي وهيلين لونجينو يمكننا أن نعرف أكثر بتوجيه المزيد من الانتباه إلى المنظور الفريد أو الموقعية التي تقدمها لنا تجارب النساء الأفروأمريكيات والنساء البيض بشأن الواقع الاجتماعي . فكل تجربة من تجارب هؤلاء النساء تعلمنا شيئا مختلفا وقيما عن المجتمع . فالبدء بالحياة اليومية للنساء الأفروأمريكيات يعلمنا أشياء عن المجتمع من منظور النساء اللاتي يضطررن إلى العمل خارج البيت . كما يعلمنا ذلك أشياء عن انخفاض الدخل ، وعدم وجود دور رعاية أطفال تتصف بالجودة وفي حدود الإمكانيات المادية ، وكذلك الاستراتيجيات البديلة والمبتكرة لرعاية الأطفال والتي ابتدعتها النساء الأفروأمريكيات . ومن ناحية أخرى فإن البدء بالحياة اليومية لربوات البيوت البيض من الطبقتين الوسطى والوسطى العليا يعلمنا أشياء عن المجتمع من منظور النساء غير المضطرات إلى العمل خارج البيت ، فتتعرف على مشاعر عدم الرضا والعزلة التي تعيشها هؤلاء النساء أثناء قيامهن بمهامهن اليومية في البيت

من إدارة شؤون المنزل والرعاية ، كما تكشف لنا عن الزيف الذي يحوط الصورة والأيدولوجيا القائلة بسعادة ربة البيت . كذلك نتعلم أشياء عن رغبات النساء في توسيع دائرة حياتهن لتتجاوز حدود أدوار الزوجة والأم ، والدخول إلى دنيا العمل الخارجي .

تجاوز النسبية

إذا كان الأمر كما تدعو له كل من دونا هاراواي وهيلين لونجينو وساندرا هاردينج وغيرهن بأن نشعر بقيمة المنظور الفريد للواقع ، أو الموقعية الناتجة عن التجارب المعيشة لكل امرأة ، وأن نحترم تعددية وتنوع المعرفة المتولدة عن تجارب النساء المختلفة ، فهل يتعين علينا أيضا أن نتنازل عن فرص العمل السياسي؟

• هل من الممكن أن نعترف بقيمة مجال متنوع من رؤى النساء وتجاربهن وأن نجتمع لخلق قوة منظمة للتغيير الاجتماعي؟

إن جويس ماكارل نيلسن تعبر عن تلك العضلة في الآتي: ”بمجرد أن يرفض المرء الموضوعية ، يصبح البديل نوعا من النسبية غير المرضية“ (Joyce McCarl Niels- en ، 1990 ، p . 28) . فمن الصعوبة تجميع تجارب النساء العديدة داخل موقعية عامة واحدة ، دون المجازفة بقمع الاختلافات بين النساء أو اختزال النساء في فئة واحدة ذات خصائص موحدة . ومن ناحية أخرى ، فإن اعتراف باحثات الموقعية النسوية بقيمة التعددية والتنوع في تجارب ووجهات نظر النساء على قدم المساواة يفرض على هؤلاء الباحثات الحذر لتجنب الوقوع في حالة من الشلل التي تعوق النساء عن المضي قدما معا واتخاذ موقف من القضايا الاجتماعية . فإذا قامت كل الفئات بإنتاج ”فكر متخصص ، وأن يتمتع فكر كل فئة بنفس القدر من الصحة“ مع عدم قدرة أي فئة منها الادعاء

بأن لديها "تأويلاً أفضل" للحقيقة مقارنة بغيرها" (Collins، 1993، p. 625)، فهل يؤدي ذلك بنا لخطر الوقوع في النسبية السياسية (political relativism) وهي حالة "عدم الوجود في أي مكان مع ادعاء الوجود في كل مكان بنفس القدر" (Harway، 1991، p. 191)، يبدو واضحاً أنه إذا كانت النساء سيعملن للتأثير وتغيير وخلق سياسات اجتماعية جديدة، فمن اللازم أن يوجدن مساحة ما مشتركة أو وجهات نظر يتشاركن فيها لتحقيق النجاح في مساهن. وهو ما توضحه جويس ماكارل نيلسن قائلة:

يمكن القول بعدم وجود حاجة لتحديد رأي ما باعتباره أكثر صحة من غيره، وأنه يمكن لتعددية الرؤى أن تسود. ولكن ستأتي لحظة ما -مثل لحظة ضرورة اتخاذ قرارات مهمة ما- سيتعين فيها تبني رأي ما بشأن الواقع الاجتماعي. إن تطوير سياسة عن الإجهاض على سبيل المثال سيتطلب اتخاذ موقف في مساحة تخلو من الآراء المتناقضة والتي تبدو في ظاهرها غير متصالحة. (Joyce McCarl Nielsen، 1990، p. 27)

ولكن كيف يمكننا تيسير جميع النساء بما يحملنه من تجارب حياتية مختلفة ورؤى فريدة، مع تشجيع مد الجسور بين الموقفيات لشن معركة ناجحة في سبيل التغيير الاجتماعي، دون أن يصاحب ذلك كبت للتنوع والتفرد الفردي؟

نجد أن الكثيرات من باحثات الموقعية النسوية يؤكدن على الحاجة إلى فتح حوار بين النساء، وعبر مختلف الرؤى بخطوة أولى نحو بناء أنواع شبكات التحالف أو القواعد المتينة اللازمة كأرضية للانطلاق منها. وتشجع هيلين لونجينو على تطوير مواقع "الخطاب النقدي" داخل المجتمعات وفيما بينها، بحيث يمكن لأعضاء المجتمع في تلك المواقع التعبير بحرية عن رؤاهم وكذلك الدخول في حوار مع مجتمعات أخرى حيث "تختلف الخلفية المشتركة" (Longino، 1999، p. 343). كذلك تعلن بل هو كس الحاجة إلى "النقاش المجدي والمواجهة البناءة" بين الرؤى المختلفة، كما تدعو

إلى خلق مساحات آمنة "حيث يمكن للحوارات النقدية أن تتم بين أفراد لم يسبق لهم أن اضطروا... إلى التفاوض فيما بينهم" (bell hooks ، 1990 ، p. 133).

إن نوعية الحوار الذي تدعو إليه باحثات الموقعية النسوية هو حوار يتيح الإنصات إلى كل تجربة ورؤية فريدة أو موقعية للمرأة بناء على تجربتها. ونجد أن بعض باحثات الموقعية النسوية يؤكدن فعلا على أنه من خلال عملية خلق مساحة مفتوحة للحوار عبر تجارب وموقعيات النساء على اختلافها، وحيث يتاح لكل الأصوات النسائية وموقعياتهن نفس القدر من التواصل، حينها يمكننا فعليا بناء مجتمع. وتدعونا باتريشا هيل كولنز إلى الإنصات إلى صوت النداء والرد الأفريقي التقليدي والذي يقوم على تعلم الجميع الحديث والإنصات لضمان الانتماء إلى الجماعة: "كل فرد له صوت، ولكن يجب على كل فرد الإنصات والرد على الأصوات الأخرى لضمان السماح بالبقاء في المجتمع" (Patricia Hill Collins ، 1990 ، pp. 625-626). ففي سياق مثل هذا المجتمع، حيث يمثل المجتمع موقعا للتجمع فتتداخل فيه الموقعية المتعددة، وحيث يتم تشجيع الإنصات باحترام والحديث الحواري، هو سياق يمكننا من أن نتخيل إمكانات الفهم المتزايد بين النساء وفيما بينهما بما يحملنه من خلفيات وثقافات مختلفة، وتجارب حياتية مختلفة.

وتصف باتريشا هيل كولنز إمكانات نمو تفهم بدافع مجتمعي بين فئات المجتمع ممن ينتمون إلى موقعيات مختلفة فيما يلي:

كل فئة تتحدث من موقعيتها وتشارك في معرفتها المناحزة والخاصة بموقعها، ولكن نظرا لأن كل فئة تدرك حقيقتها باعتبارها منحازة وخاصة بها، تكون معرفتها غير مكتملة. وتصبح كل فئة أكثر قدرة على الأخذ في الاعتبار موقعيات الفئات الأخرى دون انتقاص من موقعيتها الفريدة أو قمع لرؤى الفئات الأخرى. (Patricia Hill Collins ، 1993 ، p. 626)

وهكذا ، فمن خلال حوار مجتمعي يتم التشارك والإنصات إلى تعددية الآراء . ومع قدرة كل عضوة من أعضاء المجتمع على الثقة في أن منظورها الفريد سيلقى الاهتمام والاحترام تصبح هي قادرة تماما على سماع آراء الآخرين واحترامها . ويمكن لمثل هذا الحوار المجتمعي أن يوصلنا إلى النقطة التي يمكن -طبقا للإزباركلي براون- "لكل الناس أن يتعلموا وضع تجارب الآخرين في المركز ، والتأكد من صحتها ، والحكم عليها تبعا لمعاييرها دون الحاجة إلى عقد مقارنات أو احتياج لتبني ذلك الإطار الآخر" (وردت في: Patricia Hill Collins ، 1993 ، p. 625) . ولكن بخلاف تيسير التفهم عبر الموقعيات النسائية وكذلك احترام التنوع والتفرد ، هل يمكن لمثل هذا الحوار المجتمعي أن يؤدي إلى قيام تحالفات فعالة بين الموقعيات؟

في واقع الأمر ، وكما تشير باحثات الموقعية النسوية ، فإن الحوار المجتمعي الذي يدعم التفاعل بين النساء في الوقت ذاته الذي يحافظ فيه على الاحترام لتعددية الرؤى النسائية ، هو حوار يعد الساحة لقيام صلات ما بين الفئات كما يمكن من نمو التحالفات اللازمة للسيطرة على السلطة وصياغة التغيير الاجتماعي . ومع حدوث تشارك للموقعيات النسائية المتنوعة ، يمكن خلق صلات قائمة على الإنصات والاحترام والثقة "في مواقع لم يسبق وجودها فيه" ، (Walker ، cited in Collins ، 1993 ، p. 625) . فعندما تشارك امرأة ما أخريات في حكاية تعرضها للتحرش الجنسي في مكان العمل ، أو تعرضها للحرمان من الحصول على إجهاض قانوني آمن ، على سبيل المثال ، سيكون من الوارد جدا أن تتواصل وتتفاعل نساء أخريات مع هذه التجربة حتى ممن لم يتعرضن لنفس التجربة وإنما واجهن استغلالا على أساس الجنس أو مشاعر المغلوبة على أمرها .

ولا توجد ضرورة لقيام تلك الصلات على حساب التعددية والتنوع ، كما أنها لا تهدد بإنكار تجارب حياة النساء المختلفة والفريدة ، وإنما يمكن للنساء أن يتواصلن عبر تحديد "خيطة مشتركة" أو "فكرة موحدة ضمن التنوع الكبير" ، (Walker ، cited in Collins ،

(p. 625، 1993. فننقل على سبيل المثال إن مجموعة من النساء العاملات من خلفيات اقتصادية اجتماعية وعرقية وثقافية متنوعة اجتمعن معا للتشارك والإنصات لتجاربهن ورؤاهن بشأن أمور العمل والأسرة، فسنجدهن دون إنكار أو عدم احترام ما بينهن من اختلافات وقد توحدن في الأغلب حول بعض المشاكل المشتركة وانضممن معا للنضال من أجل تحقيق بعض الأهداف المشتركة، مثل المساواة مع الرجال في الأجر، وتحسين أوضاع إجازة الوضع، وإيجاد أماكن رعاية للأطفال تتسم بالجودة وفي متناول اليد، وأشكال أفضل للحماية من التحرش الجنسي في مكان العمل. وتصف جويس ماكارل نيلسن هذه العملية بأنها "اندماج الآفاق": "مع وجود تواصل عبر وما بين موقعيات نسائية متنوعة، يمكن تكبير كل موقعية منها أو إثراؤها أو توسيعها بحيث يحدث اندماج أو توليفة بين الموقعيات" (Joyce McCarl Nielsen، 1990، p. 29).

إن التجمع والتشارك في التجارب والرؤى الفريدة يمكن النساء من بناء التحالفات وصياغة موقف مشترك واتخاذ مواقف من قضايا بعينها دون تنازلات بشأن اختلافاتهن. إن التوصل إلى موقف مشترك أو موقعية بشأن موضوع معين يدعم المسار المأمول للعمل من أجل التغيير الاجتماعي، أي يؤسس لقاعدة راسخة ينطلق منها العمل. وفي نفس الوقت يتعين علينا أن نتذكر أيضا أن تجارب ورؤى النساء والقضايا التي يواجهنها هي أمور تتطور باستمرار وتتغير عبر الزمان والمكان، ومن هنا جاءت أهمية ألا ينتهي الحوار بين النساء بالتوصل إلى خلق تحالف معين أو موقف مشترك، بل يجب على الحوار أن يستمر، وهو ما تؤكدته الكثيرات من باحثات الموقعية النسوية. يجب علينا العمل للتوصل إلى طرق لتوظيف الإنصات والتبادل المستمر داخل جماعات النساء، أو ببساطة أكبر، أن نبني مجتمعا تبعا لمفهوم باتريشا هيل كولينز لكلمة مجتمع (community). وفي حالة الإدماج الناجح لمثل هذا الحوار والنقاش المتواصل داخل مجتمعاتنا فإنه يدفع بل ويضمن وجود عملية متكاملة من التقييم الصحي، وهي العملية التي تسميها هيلين لونجينو "تبرير التفاعل الاجتماعي" (socializing justification).

(Helen Longino، 1999). فالحفاظ على مساحة آمنة للحوار والنقاش المتواصل - ولخلق وإعادة خلق تحالفات وموقعيات جديدة ما بين النساء وفيما بينهن - يظل أمراً بالغ الأهمية مع ظهور قضايا جديدة على الساحة، مع اتخاذ النضال النسائي من أجل العدالة صوراً وأشكالاً جديدة.

وهكذا ومن جوانب عدة نجد أن الالتزام بالتبادل الحوارى الجدلي وعمليات التقييم ما بين موقعيات النساء وفيما بينها هو التزام يعبر في الوقت ذاته عن الالتزام بالنضال المستمر من أجل تمكين النساء. ففي نهاية الأمر نجد أن نضالات النساء ليست موحدة أو راکدة، بل هي مستمرة ومتواصلة وخاضعة للتغير. فلنأخذ على سبيل المثال مسألة النساء والعمل، وسنجد أن النساء كافحن في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين من أجل الانضمام إلى القوى العاملة⁷. ثم جاء النضال من أجل المساواة في الأجر. والآن تناضل النساء من أجل سياسات أفضل لإجازة الوضع، وأماكن رعاية للأطفال تتصف بالجودة وتكون في متناول اليد⁸. إن الحقيقة القائلة بأن تجارب النساء، وموقعيتهن بشأن الواقع الناتج عن تلك التجارب، التي هي تجارب قابلة للتغير والتطور عبر الزمان والمكان، هي مقولة لا تقلل من واقعية أو شرعية تلك المسألة. فكما تؤكد ليندا ألكوف، يمكن للنساء بلوغ موقع أو موقعية تنسم بأنها "محددة" و"متحولة" في آن واحد (Linda Alcoff، 1989، p. 325). وبكلام آخر، فإن في إمكاننا التعامل مع موقعيات النساء بشأن مسألة ما أو عدد من المسائل المعينة باعتبارها موقعيات مشروعة وجادة وراسخة في أرضية الواقع الاجتماعى، بينما نعترف في الوقت ذاته بموقع تلك الموقعيات داخل "سياق تاريخى متحرك"، بل إن تركيزنا على "الحركة التاريخية وقدرة الذات على تغيير سياقها" (Linda Alcoff، 1989، p. 325) يعني أننا نأخذ موقعيات النساء بعين الاعتبار دون اختزال النساء كافة في فئة عامة لها نفس التجارب والاحتياجات والخصائص.

الخاتمة

إن إبستمولوجيا الموقعية النسوية هي مقاربة مبتكرة لبناء المعرفة، وتعمل على تحطيم الحدود القائمة بين المجال الأكاديمي والعمل السياسي، وبين النظرية والتطبيق. وتسعى باحثات الموقعية النسوية إلى منح صوت لأعضاء الفئات المقهورة -أي النساء-، وإلى الكشف عن المعرفة الكامنة والخفية التي نمتها النساء من حياتهن "في الهامش". وإبستمولوجيا الموقعية النسوية لا تطالبنا فقط بأخذ النساء في الاعتبار بوصفهن عارفات، ولكن تطالبنا بأن نترجم معرفة النساء إلى ممارسة، وأن نطبق ما نتعلمه من تجارب النساء نحو تحقيق التغيير الاجتماعي ونحو الحد من القهر، لا قهر النساء فحسب بل قهر كل الفئات المهمشة.

وقد ازدادت إبستمولوجيا الموقعية النسوية تعقيدا وتنوعا، ويستمر تطورها عبر الزمان. فباحثات الموقعية النسوية لم يعدن يتحدثن عن تجربة النساء ولا يجمعن النساء كافة داخل فئة مقهورة واحدة، بل يعترفن بأن النساء يأتين من نطاق متنوع من الخلفيات الطبقية والثقافية والعرقية، وأنهن يعشن في عدة مواقع اجتماعية مختلفة، ويتحملن أشكالا مختلفة من القهر والاستغلال. ونتيجة لذلك فإن التطورات النظرية التي طرأت على إبستمولوجيا الموقعية النسوية هي تطورات متعددة الأبعاد ومستمرة، كما أن الباحثات العاملات في إطار الموقعية النسوية يواصلن تطبيق أساليب بحث جديدة ومبتكرة من أجل التمكن من تناول حيوات النساء وتجاربهن على تنوعها، وهي أساليب سيتم عرض بعضها في فصول أخرى من هذا الكتاب. وأخيرا، فبينما تتفهم باحثات الموقعية النسوية ويعترفن بالاختلافات القائمة بين النساء وفيما بينهن -من حيث مختلف تجارب القهر ومختلف الموقعيات أو الرؤى القائمة على تلك التجارب- نجدهن أيضا يواصلن التأكيد على أهمية الحوار بين النساء وفيما بينهن، والحاجة إلى التفهم، وإمكانية تحقيق تحالفات. فالتحالفات بين النساء وفيما بينهن ممكنة -دون خطر قمع الاختلاف- وضرورية، إذا كنا نأمل في الكفاح من أجل مجتمعات أكثر عدلا، وتحسين وضع النساء فيها.

الهوامش

1 - هذا الجزء مأخوذ من رسالة كتبها هاربيت جاكوبس لناتشر كتبها في عام 1857، وتقوم في تلك الرسالة بوصف دافعها من وراء كتابة سيرتها الذاتية عن "أحداث في حياة فتاة من العبيد، بقلمها": Harriet Jacobs, *Incidents in the Life of a Slave Girl, Written by Herself*.

2- من المهم الإشارة إلى أن بالرغم من عدم كون مناهج البحث النسوي هي الموضوع المحوري لهذا الفصل، فإنه قد تم استخدام مناهج البحث النسوي في العديد من الدراسات التي تناولت حيوات النساء وتجاربهن التي يتم الاستشهاد بها في الفصل. فالمناقشات التي تتناول حيوات النساء وتجاربهن هنا تهتم بالمضمون أكثر من المنهج. ومع ذلك ونظرا لأن الكثير من حيوات النساء وتجاربهن المذكورة هنا ما كانت لتعرف لولا تطبيق مناهج نسوية جديدة ومبتكرة، فإن أهمية تلك المناهج كامن هنا حتى وإن لم يصرح بها. فالإطار العام لإستمولوجيا الموقعية النسوية يستدعي أن تكسر حيوات النساء وتجاربهن القيود وتلقى أذنا مصغية، وهي التي "كانت تتعرض حتى الآن للإنكار والقمع والوضع في مكانة ثانوية" (Smith, 1990, p. 12). وكثيرا ما يتطلب المرء استخدام مناهج نسوية جديدة ومبتكرة للوصول إلى حيوات النساء وتجاربهن والكشف عنها. إن المقابلات الشخصية النسوية، وكتابة السيرة الذاتية، وأساليب التاريخ الشفوي، والإثنوجرافيا المؤسسية كلها نماذج للمناهج النسوية المستخدمة للحصول على معلومات عن حيوات النساء وتجاربهن المذكورة في هذا الفصل من الكتاب. وسوف يتم مناقشة تلك المناهج النسوية وغيرها بالتفصيل، وستركز عليها فصول الكتاب التالية.

3- إن مفهوم "جنسية السيد-العبد" لدى الفيلسوف هيجل (G.W.F. Hegel, 1967) يسهل تطبيقها هنا ولكن مع تحويلها لحالة النساء والرجال. ويوضح هيجل أن السيد لا يمكنه سوى امتلاك وهم الاستقلالية، وهم الوعي المستقل، بسبب اعتماده على عبده، فبدون ما يقدمه العبد من عمل عاطفي ومادي، ما كان لسيد أن يكون حرا في الانخراط في "مضاع مستقلة" أما العبد، ففي سبيل ضمان البقاء يظل مضطرا إلى الوعي لا بعالمه هو وحده بل بعالم سيده أيضا، أما السيد وبسبب وضعه المتميز فيكون قادرا على البقاء غير واع بالعالم الذي ينتمي إليه عبده. حقا، بقدر ما يوجد رجال غير واعين باعتمادهم على عمل النساء (العمل الذي يضمن دوام السيطرة في أيديهم) كذلك يكون السيد غير واع باعتماده على العبد.

4- لقد تم تطوير مفهوم "الموضوعية القوية" بواسطة باحثة الموقعية النسوية ساندرا هاردينج، وهي التي أطلقت على هذا المفهوم مسماه. وللمزيد من كتابات ساندرا هاردينج عن الموضوعية القوية، انظر/ي أولى المقاطع الخاصة بـ "ما وراء المشهد" في الفصل الأول من هذا الكتاب. انظر/ي كذلك كتاب ساندرا هاردينج (Sandra Harding, *Whose Science? Whose Knowledge?* 1991) ing, "Rethinking Standpoint Epistemology: What is 'Strong Objectivity?'" in *Feminist Epistemologies*, 1993) والذي صدر في صورة منقحة في كتاب (Harding, *The Feminist Standpoint Theory Reader: Intellectual and Political Controversies*, 2004a) وجدير بالذكر أيضا أن مفهوم "المطوعة القوية" (strong reflexivity)، وهو جانب مهم من مفهوم ساندرا هاردينج بشأن "الموضوعية القوية" والمتعلق بالبحث منهجا وتطبيقا، ليس محور الحديث هنا، فالمطوعة القوية تتطلب من الباحثات والباحثين الاعتراف الفعلي وتأمل كيفية تفاعل مواقعهم الاجتماعية وتواريخ حياتهم والروى للعالم ومدى تأثيرها وتأثرها بالعملية البحثية. وللمزيد عن تناول ساندرا هاردينج لمفهوم المطوعة القوية، انظر/ي المقطع الثاني من جزئية "ما وراء الستار" في الفصل الأول من هذا الكتاب. وأخيرا يتم في الفصل الخامس من

الكتب تناول بعض ظواهر المطاوعة القوية، أي ممارسة المطاوعة وتطبيقها بشأن الموقع الاجتماعي وتاريخ الحياة ورؤية العالم فيما يتعلق بالباحثة أو الباحث خلال البحث.

5- ولكن في بعض الحالات، وبينما تلعب معاناة النساء دورا كبيرا، فإن الألم ليس هو الدافع الوحيد للبدء في نقد النظام القائم وتحديه، كما علمنا بأن حالة ربوات البيوت الأمريكيات في الخمسينيات من القرن العشرين، أو من النساء اللاتي تعرضن للتحرش الجنسي في تسعينيات القرن العشرين، فإنه من الضروري أحيانا وجود عملية رفع الوعي، فمع تجمع النساء وتشاركهن الحكايات المختلفة نجدهن وقد أخذن في إدراك انهن لسن وحيدات في معاناتهن، ويتوقفن عن لوم أنفسهن على ما يعشنه من معاناة، كما تتولد لديهن القوة للنظر خارج نطاق الذات، ونحو المجتمع، ومواجهة الأنماط المجتمعية والأينولوجيات السائدة التي تقهرهن. وهكذا يجب التوصل إلى المنظور النقدي لدى النساء أي موقفهن من الوعي السياسي، أو موقعيتهن النسوية- (Hartsock, 2004) وذلك من خلال عملية رفع للوعي بدلا من الانطلاق مباشرة وبلا تأمل نقدي لما يتعرضن له من ألم ومعاناة.

6 - وهناك مثال افتراضي آخر لمفهوم ووكر (Walker, cited in Collins, 1993) بأن "فكرة موحدة عبر التعددية البالغة"، ومفهوم جويس مكارل نيلسن عن "اندماج الأفاق" (Nielsen, 1990)، وهو المثال التالي: إذا اجتمعت مجموعة من النساء لمناقشة حقوق الإجهاض، فقد تزداد موقعية كل امرأة منهن عمقا أو اتساعا حين تتعرف على خبرات وهموم ووجهات نظر غيرها من النساء. والمرأة التي تتمتع بامتيازات اقتصادية واجتماعية قد يقتصر تركيزها على الحق القانوني في الإجهاض. أما المرأة المنتمية إلى منطقة ريفية فقد يكون مما يؤرقها هو عدم توفر مقلار أو عيادات للأطباء في المنطقة التي تقطنها ممن يقومون بعمليات إجهاض. وأخيرا فقد تعبّر امرأة فقيرة عن قلقها مما إذا كانت قادرة ماديا على دفع مقابل لعملية إجهاض آمنة وقانونية. ومن خلال التشارك والإنصات إلى همومهن المختلفة قد تقوم هؤلاء النساء بصياغة موقعية أعمق وأكثر تطورا فيما يتعلق بحقوق الإجهاض، بالتحول من موقف مباشر لحق الاختيار إلى موقف قائم على حق الاختيار يطالب بتوفير عدد من العيادات على مستوى كل منطقة، وكذلك توفر الدعم الحكومي للمساهمة في ضمان حصول النساء الفقيرات على عمليات إجهاض آمنة وقانونية.

7- وليس في ذلك إنكار للآلاف من النساء التي عملن في حث الأرض والعمل الخدمي وفي مجالات الصناعة والتعليم والطب قبل ستينيات القرن العشرين وسبعينياته فعلى مدار مئات السنين اضطرت النساء في جميع أرجاء العالم إلى العمل لضمان سبل المعيشة لأنفسهن وأسرهن.

8- ومن المهم أيضا أن نذكر أن كل صراع من تلك الصراعات ما زال قائما، فالنساء ما زلن أقل عددا من الرجال في الوظائف العليا على سبيل المثال، كما انهن يحصلن على أجور أقل من الرجال الذين يشغلون نفس المواقع والمناصب في العمل.

- Anderson, Kathryn, & Jack, Dana C. (1991). Learning to listen: Interview techniques and analysis. In Sherna B. Gluck & Daphne Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 11–26). New York: Routledge.
- Alcoff, Linda. (1989). Cultural feminism versus post-structuralism: The identity crisis in feminist theory. In Micheline R. Malson, Jean F. O'Barr, Sarah Westphal-Wihl, & Mary Wyer (Eds.), *Feminist theory in practice and process* (pp. 295–326). Chicago: University of Chicago Press.
- Collins, Patricia Hill. (1990). *Black feminist thought: Knowledge, consciousness, and the politics of empowerment*. Boston: Unwin Hyman.
- Collins, Patricia Hill. (1993). Black feminist thought in the matrix of domination. In Charles Lemert, (Ed.), *Social theory: The multicultural and classic readings* (pp. 615–626). Boulder, CO: Westview Press.
- DeVault, Marjorie. (1990). Talking and listening from women's standpoint: Feminist strategies for interviewing and analysis. *Social Problems*, 37, 96–116.
- DeVault, Marjorie. (1991). *Feeding the family: The social organization of caring as gendered work*. Chicago: University of Chicago Press.
- Friedan, Betty. (1963). *The feminine mystique*. New York: Norton.
- George-Graves, Florence. (2003, January 16). The complete Anita Hill. *Boston Globe Magazine*, pp. 15–24.
- Haraway, Donna J. (1991). *Simians, cyborgs, and women*. New York: Routledge.
- Harding, Sandra. (1991). *Whose science? Whose knowledge?* Ithaca, NY: Cornell University Press.
- Harding, Sandra. (1993). Rethinking standpoint epistemology: What is "strong objectivity"? In L. Alcoff & E. Potter (Eds.), *Feminist epistemologies* (pp. 49–82). New York: Routledge.
- Harding, Sandra. (2004a). Introduction: Standpoint theory as a site of political, philosophical, and scientific debate. In Sandra Harding (Ed.), *The feminist standpoint theory reader: Intellectual and political controversies* (pp. 1–15). New York: Routledge.
- Harding, Sandra. (2004b). Rethinking feminist standpoint epistemology: What is "strong objectivity"? In Sandra Harding, (Ed.), *The feminist standpoint theory reader: Intellectual and political controversies*, (pp. 127–140). New York: Routledge.

- Hartsock, Nancy C. M. (2004). The feminist standpoint: developing the ground for a specifically feminist historical materialism. In Sandra Harding (Ed.), *The feminist standpoint theory reader: Intellectual and political controversies* (pp. 35–53). New York: Routledge.
- Hegel, G. F. W. (1967). *The phenomenology of mind* (J. B. Baillie, Trans.). New York: Harper & Row.
- Hekman, Susan. (2004). Truth and method: Feminist standpoint theory revisited. In Sandra Harding (Ed.), *The feminist standpoint theory reader: Intellectual and political controversies* (pp. 225–241). New York: Routledge.
- Hondagneu-Sotelo, Pierrette, & Avila, Ernestine. (1997). "I'm here but I'm there:" The meanings of Latina transnational motherhood. *Gender and Society*, 11(5), 548–571.
- hooks, bell. (1990). Culture to culture: Ethnography and cultural studies as critical intervention. In *Yearning: Race, gender, and cultural politics* (pp. 123–133). Boston: South End Press.
- hooks, bell. (2004). Choosing the margin as a space of radical openness. In Sandra Harding (Ed.), *The feminist standpoint theory reader: Political and intellectual controversies* (pp. 153–159). New York: Routledge.
- Jacobs, Harriet. (1987). *Incidents in the life of a slave girl, written by herself*. Cambridge, MA: Harvard University Press. (Original work published 1861)
- Jaggar, Alison M. (1997). Love and knowledge: Emotion in feminist epistemology. In Sandra Kemp & Judith Squires (Eds.), *Feminisms* (pp. 188–193). Oxford, UK: Oxford University Press.
- Jaggar, Alison M. (2004). Feminist politics and epistemology: The standpoint of women. In Sandra Harding (Ed.), *The feminist standpoint theory reader: Intellectual and political controversies* (pp. 55–66). New York: Routledge.
- Longino, Helen E. (1999). Feminist epistemology. In John Grecco & Ernest Sosa (Eds.), *The Blackwell guide to epistemology* (pp. 327–353). Malden, MA: Blackwell.

- Narayan, Uma. (2004). The project of feminist epistemology: Perspectives from a non-Western feminist. In Sandra Harding (Ed.), *The feminist standpoint theory reader: Political and intellectual controversies* (pp. 213–224). New York: Routledge.
- Nielsen, Joyce McCarl. (Ed.). (1990). Introduction. In Joyce McCarl Nielsen (Ed.), *Feminist research methods* (pp. 1–37). Boulder, CO: Westview Press.
- Ostrander, Susan A. (1984). *Women of the upper class*. Philadelphia: Temple University Press.
- Smith, Dorothy E. (1987). Women's perspective as a radical critique of sociology. In Sandra Harding (Ed.), *Feminism and methodology* (pp. 84–96). Bloomington: Indiana University Press.
- Smith, Dorothy E. (1990). *The conceptual practices of power: A feminist sociology of knowledge*. Boston: Northeastern University Press.
- Smith, Dorothy E. (1999). *Writing the social: Critique, theory, and investigations*. Toronto, Ontario, Canada: University of Toronto Press.

الفصل الرابع

ما بعد الحداثة النسوية وما بعد البنيوية النسوية

باتريشا لينا ليفي

حين يعود "المقهرون" في ثقافتهم ومجتمعهم ، فإن عودتهم تأتي متفجرة ، وتكون مدمرة وصاعقة وانقلابية تماما ، مدفوعة بقوة لم يسبق لها الانطلاق قط . (Cixous and Clément ، 1996 ، p. ix)

إن جهود التقويض... تنبع من داخل الثقافة ومن داخل اللغات التي تنطق عنا ، والتي يتعين علينا أن نقلبها بما يخدم أغراضنا .

(Du Bois ، 1988 ، p. 188)

لا أدري ماذا عن مصطلح "ما بعد الحداثة" ، ولكن إذا كانت هنالك نقطة محورية واضحة بالنسبة لما أعرفه باعتباره ما بعد البنيوية فهي أن السلطة متمكنة من الجهاز الفكري ذاته الذي يسعى للتفاوض حول شروطه ، بما في ذلك الموقع الذاتي للناقدة أو الناقد ، وكذلك أن ما يترتب هنا على شروط النقد في مجال السلطة ليس بشيرا بمجيء النسبية العدمية العاجزة عن وضع قواعد ، بل هو شرط مسبق للنقد ذي التوجه السياسي .*

(Butler ، 1992 ، p. 6-7)

* ملحوظة : المقاطع المأخوذة من كتاب جوديث بتلر تخضع لحقوق الملكية الفكرية التالية :

Butler (1992) are Copyright © 1992 from *Feinists Theorize the Political* by Butler, J., & Scott, J.W. Reproduced by Permission of Routledge/Taylor&Francis Group, LLc.

كثيرا ما يتم النظر إلى الإمبريقية النسوية (feminist empiricism) باعتبارها إحدى النقاط المنتهى خط ممتد يتأصل فيه البحث النسوي ، بينما تقع ما بعد الحداثة في الطرف الآخر من نفس الخط . وعلى الرغم من كثرة ما يقال عن كون ما بعد الحداثة منظورا نظريا ، أعتقد أن ما بعد الحداثة تعكس موقفا إبستمولوجيا معرفيا . ولعل من الأسباب التي جعلت ما بعد الحداثة موضوعا لكثير من الخلاف هو أنها تخرج الهموم النسوية خارج المجال المهني وتدخله داخل النطاق المعرفي ، أي إن ما بعد الحداثة تطرح أسئلة حيوية بشأن طبيعة المعرفة وبناء المعرفة . إن هذا الأساس الإبستمولوجي المعرفي هو محور هذا الفصل من الكتاب .

وبينما سأقدم في مرحلة لاحقة من هذا الفصل عرضا مفصلا لما بعد الحداثة النسوية (feminist postmodernism) ، وتمييزها عن الإمبريقية النسوية وإبستمولوجيا الموقعية النسوية (feminist standpoint epistemology) ، فإنه من الأهمية أن أوضح كيف تقع ما بعد الحداثة النسوية على الخط الممتد للإبستمولوجيا أو علم المعرفة في علاقتها بتلك المواقع الأخرى . وتبين لنا باحثات ما بعد الحداثة النسويات أن كلا من الإمبريقية النسوية وإبستمولوجيا الموقعية النسوية ، كل بطريقتها المميزة ، تنتهي بمواجهة الدعاوى الجوهرية وقلبها في استخدامها لمفهوم "النساء" باعتباره فئة محددة للهوية . وفي هذا الصدد ، نجد أن نسوية ما بعد الحداثة تطرح "فاصلا مزيفا" بين الإمبريقية النسوية والموقعية النسوية ، وقد فشلنا في وضع نهاية لقهر النساء ، وتعتمدان على نفس المفاهيم الجوهرية ، وهو الأمر الذي أدى بالنسويات اللاتي يتبنين منظور نسوية القهر (oppression feminists) إلى عدم الاعتماد على أي من الإمبريقية أو الموقعية النسوية (Cosgrove ، 2003) . وباختصار فإن الإمبريقيات النسويات والمتخصصات في إبستمولوجيا الموقعية النسوية يرجعن إلى الجوهرية حين ينظرن إلى الجندر باعتباره عاملا متغيرا مستقلا (أي إضافة النساء مع التقلب داخل النماذج المسبقة) في الإمبريقية النسوية ، وباعتباره سمة متأصلة في الموقعية النسوية (Cosgrove ، 1999; Hekman ، 2003) . إن المراجعة النقدية لما بعد الحداثة للإمبريقية

النسوية تركز على مدى اعتماد الإمبريقية النسوية على العلم الوضعي الذي فشل في نهاية الأمر في تحقيق المساواة بين الجنسين . وفي هذا الصدد تقول ليسا كوسجروف :

إن التركيز المتواصل على الأبحاث القائمة على الاختلاف على أساس الجندر (gender difference research) ، مع الفشل في مواجهة كيفية ترميز الجندر وإنتاجه ، ساهما في الاعتقاد بأن الاختلافات بين الرجال والنساء هي اختلافات جوهرية وعامة ولا تاريخية . (Lisa Cosgrove ، 2003 ، p. 91)

وطبقا لنسوية ما بعد الحداثة فبينما قامت نظرية الموقعية (standpoint theory) بتنبيه الباحثات والباحثين بموقعيتهم داخل المشروع البحثي ، والتي يمكنها أن تؤدي إلى "تجذير أو تثوير" (radicalize) المسار البحثي ، فإن الموقعية لا تقطع شوطا أكبر وتلجأ إلى بعض المفاهيم الجوهرية مثل "صوت النساء" . فعلى سبيل المثال نجد أنه في دراسة ليسا كوسجروف التي تعتمد فيها على لين ليتون (Layton ، 1998 ، p. 217) ، نجدها توضح أن هنالك اختلافا أساسيا بين القول بأن النساء يملن إلى الارتباط بعلاقات مع الآخرين وأن "الأنوثة يرمز إليها بالميل للعلاقات" (Cosgrove ، 2003 ، p. 89) . إن نظرية الموقعية تحقق المقولة الأولى أعلاه دون النظر إلى كيفية إنتاج الجندر داخل المجال الرمزي . كما أن تركيز منظري ومنظرات الموقعية على مفهوم "الصوت" كثيرا ما يؤدي إلى تعطيل التأمل العميق للخلاف و "عدم التماهي" (disidentifica- tion) . (Cosgrove ، 2003; Pujal ، 1998) . وتعتبر ليسا كوسجروف بإيجاز عن أوجه قصور الموقعية وحدودها فيما يلي:

المسألة الخلافية لا تقتصر على نظرية الموقعية أو مجاز الصوت في حد ذاتهما ، بل المشكلة في أن الفرضيات الكامنة بشأن مفاهيم الجندر والتجربة

والهوية هي فرضيات لا تتيح مجالا لتحليل تعقيدات علاقات القوى التي تتضمنها مفاهيم الجندر والهوية والتجربة. (Lisa Cosgrove، 2003، p. 89-90).

وقد نشأت نظرية ما بعد الحداثة النسوية كبديل لهذين المنهجين، اللذين يعرضان -عادة- باعتبارهما رأيين متقابلين على طرفي النقيض، بينما هما في واقع الأمر يلجآن إلى المنطق الجوهري الذي انطلق منه قهر النساء. وهكذا فإن نسوية ما بعد الحداثة تقع على الطرف الآخر من الخط الممتد للإبستمولوجيا النسوية في الوقت الذي تقوم فيه بتناول إشكاليات الاستقطاب للإمبيريقية النسوية وإبستمولوجيا الموقعية النسوية.

ولعل نظرية ما بعد الحداثة قد نالها نصيب من النقد داخل المجال الأكاديمي يفوق أي حركة أخرى في الفترة التاريخية الحديثة، كذلك فإن العلاقة بين النسوية وما بعد الحداثة، داخل البحث النسوي، كانت مصدرا لانقسامات كبرى وفزع كبير خوفا من أنه مع بداية دمج النساء في العملية البحثية ومنحهن "صوتا" أن يمثل هذا الرأي الجديد بشأن بناء المعرفة مصدر تهديد بالتقليل من قدر النجاح الذي حققته النسوية. وبشكل ما أو بآخر فإن أقوى المراجعات النقدية لنسوية ما بعد الحداثة جاءت من داخل النظرية النسوية، وعلى الرغم من أهمية تلك المراجعات النقدية فإنها في أغلب الوقت تحجب إبستمولوجيا ما بعد الحداثة النسوية. وفي هذا الصدد سأبدأ بتناول بعض من خلفيات تطور الفكر ما بعد الحداثي، ثم أعرض التأويلات النسوية لما بعد الحداثة. وبعد تأسيس مفهوم ما بعد الحداثة ومساهمات النسويات في ذلك سأنتقل إلى عرض أهم المراجعات النقدية لما بعد الحداثة النسوية والتي تتمحور حول قضايا البراجماتية السياسية والهوية وموقع الذات والفاعلية (agency).

ومن المهم أيضا أن أذكر منذ البداية أن ما بعد الحداثة هي فئة شاملة أشبه بمظلة تم استخدامها لتصنيف وتجميع رؤى نظرية وإبستمولوجية معرفية متفرقة. وتشير

ليندا مارتن الكوف إلى ما بعد الحداثة باعتبارها "مصطلحا مهشما من الصميم" (Al-coff، 1997، p.6)، ففي حالات كثيرة نجد الباحثات والباحثين يلصقون بأنفسهن صفة ما بعد الحداثة دون أن يصفوا أو يعرفوا أبحاثهم باعتبارها ما بعد حداثة. وفي أحيان أخرى، نجد أن الآراء التي تعتبر ما بعد حداثة تختلف فيما بينها إلى درجة صعوبة تحديد خط واصل فيما بينها. بل ويتساءل البعض في الواقع عما إذا كانت ما بعد الحداثة تشير إلى لحظة تاريخية، أم إطار نظري، أم إبستمولوجيا، أم مجموعة ما من الهموم والاهتمامات. فإذا أخذنا في الاعتبار النقد اللاذع وغير المسبوق الذي نالته ما بعد الحداثة داخل النظرية النسوية وفي المجتمع البحثي عموما، فإن تجميع عدد من النظريات تحت مسمى ما بعد الحداثة يصبح مسألة أهم مما هو مفترض. وقد تحدثت جوديث بتلر بوضوح حول مسألة تجميع عدة مواقف نظرية ومعرفية تحت مسمى "ما بعد الحداثة" وتتساءل عن الغرض السياسي من ذلك. فعلى سبيل المثال حينما يتم جمع بعض الآراء المتفرقة وربطها ببعضها البعض برابط زائف لصياغة إطار نظري "كلي"، يصبح من الممكن استخدام أي من ذلك الإطار الكلي (استخدام أي نظرية منها) لتمثيل "ما بعد الحداثة"، وهو أمر تعتبره جوديث بتلر (Judith Butler، 1992) بالغ الإشكالية، كما يمثل في حد ذاته اختزالا شديدا. وتستهل جوديث بتلر دراستها الشهيرة عن "الأسس العرضية: النسوية ومسألة ما بعد الحداثة"

(Butler، "Contingent Foundations: Feminism and the Question of Postmodernism"، طارحة سؤالا عن ما بعد الحداثة، ثم تكتب قائلة ما يلي:

من هم هؤلاء ما بعد الحداثيين؟ هل هو اسم يلحقه المرء بنفسه، أم أن الأكثر شيوعا هو أنه اسم يطلق على المرء إذا وحينما يقدم المرء مراجعة نقدية للموضوع، أو تحليلا خطابيا له، أو يطرح تساؤلات حول مدى الاتساق أو التماسك في إجمال التوصيفات الاجتماعية؟ (Butler، 1992، p. 3)

وباستخدام منظور ما بعد حدثي تواصل جوديث بتلر حديثها متأملة كيف يقدم مفهوم السلطة (power) الإطار الأشمل الذي يحتوي ما بعد الحداثة، وتتوقف أمام أصحاب المصلحة المستفيدين من هذا التصنيف:

ولكن إذا كنت أفهم جزءا من مشروع ما بعد الحداثة فهو طرح التساؤلات بشأن الطرق التي تؤدي بها تلك "الأمثلة" و"المنظومات" إلى جعل ما تسعى إلى تفسيره أمرا ثانويا وتابعا، بل ومحوه. حيث إن "الكل"، أي مجال ما بعد الحداثة على اتساعه المفترض، هو كل "ينتج" بفاعلية عن المثال الذي يتم صنعه ليصبح عرضا ومثالا على الكل... وحينها تكون قد فرضنا إحلال مثال محل المجال بأكمله، بما يؤدي إلى اختزال عنيف للمجال في قطعة واحدة من النص الذي يود الناقد قراءته، وهي قطعة تستخدم مصطلح "ما بعد الحداثة" لتحقيق الغرض. وهكذا وبشكل ما فإن هذه الحركة من البراعة الفكرية والتي تقوم بتجميع مجموعة من المواقف تحت ما بعد الحداثة، والتي تحول ما بعد الحداثة إلى عصر أو كل متألف، والتي تدعي أن بوسع الجزء أن يمثل ذلك الكل المصطنع، هي براعة فكرية تقوم بتفعيل استخدام معين منضبط للسلطة. (Butler، 1992، p. 5)

وبينما تتمتع النقطة التي أثارها جوديث بتلر بأهمية في الجدل الدائر حول ما بعد الحداثة في الدوائر الأكاديمية، فإنني لا أجد هذا الجدل مثمرا ومفيدا في توضيح غرض هذا الكتاب، وبالتالي سأتوقف في تناولي له عند هذه النقطة. ولكن يجب علي أن أعترف أنني مذبذبة في استخدامي لمصطلح ما بعد الحداثة (postmodernism) باعتباره فئة شاملة وإطارا عاما، بل وحتى في استخدامي إياه لوصف بعض أنواع الدراسات التي قد لا يصفها أصحابها به. ولعل بعض الدراسات التي أشير إليها يجدر وصفها بالفئة الأصغر، أي مسمى ما بعد البنيوية (poststructuralism)، بل وربما لا تتسق بعض الدراسات بأي من هذين المصطلحين. ومن هنا فإنني أعترف تماما بأنني قد أظلم في ذلك قدرا كبيرا

من الجهود البحثية والتفاوت القائم داخل مجال "ما بعد الحداثة". كذلك وبسبب اتساع مجال استخدام هذا المصطلح، فهناك قدر كبير من الجهود البحثية التي لن أتمكن من تسليط الضوء عليها في هذا الفصل من الكتاب. وبالتالي توجد عملية اختيار وانتقاء ينتج عنها تمييز بعض مفكرات ما بعد الحداثة النسوية مقارنة بغيرهن، ولكنه اختيار لا بد منه في سبيل عرض أهم إسهامات فكر ما بعد الحداثة في تطبيقات النظرية النسوية.

تطور فكر ما بعد الحداثة: عرض عام

نشأت نظرية ما بعد الحداثة بشكل عام كرد فعل لأوجه القصور في الحداثة والنظريات الكبرى، أو السرديات العليا (metnarratives) التي أنتجها الحداثيون. ويستخدم ليوتار (Lyotard، 1984) كلمة الحداثة كمصطلح يشير إلى أي علم يكتسب شرعيته الذاتية في إطار مرجعية نظرية كبرى ما (وبالتالي إضفاء جانب ملموس على النظرية من خلال مزيد من الكلام)، وهكذا تحتفظ النظرية بأساسها الخطابي وتظل تدور حول نفسها. وبكلام آخر فإن النظريات الكبرى هي مقولات محددة عن كيفية شيء ما، وهي تفسيرات تكسب ذاتها الشرعية دون أن تكون ادعاءاتها مثارا للتساؤل والجدل، فتصبح تلك السرديات العليا بمثابة تفسيرات محسومة كأمر واقع بشأن الواقع الاجتماعي. وتشير ما بعد الحداثة إلى التشكيل الاجتماعي للواقع، وكيف يمكن خدمة بعض المصالح بواسطة تشكيل وصياغة معينة (Lyotard، 1998). وهو أمر مهم بالنسبة للباحثات النسويات المهتمات بالتشكيل الاجتماعي لمفهوم الجندر، والاختلاف بين الجنسين، وما إلى غير ذلك. فعلى سبيل المثال تهتم نسويات كثيرات بمفاهيم الأنوثة والذكورة ذات الخصوصية الثقافية والاجتماعية، وتحديدًا فيما يتعلق بكيفية نشأتها والأطراف التي تخدمها أشكال فهم مفهوم الجندر دون تأمل باعتباره مفهوما محسوما وأمرًا واقعا. وسوف أتطرق إلى ذلك بمزيد من التفصيل عند تناولي التمازج بين النسوية وما بعد الحداثة.

السرديات العليا هي حكايات أو سرديات منظمة تخلق توحيدا للأفكار والمنهجيات التي يمكن استخدامها لفهم كافة أوجه العالم الاجتماعي .
(Hepburn ، 1999 ، Postmodern Politics section ، para . 5)

إن التركيز على السرديات العليا التي تتسم بها الحداثة ضمن هذا المنظور خدم فكرة "القوة القصصية" (exclusionary force) والتي تعجز عن التوقف أمام الاختلاف والتفاوت (Hepburn ، 1999). وفيما يتصل بالسأم المحيط بالسرديات العليا نجد أن ما بعد الحداثة ترفض أيضا المفهوم الوضعي لبناء المعرفة على قاعدة من الموضوعية والحياد والعلاقات السببية وتحديد الأنساق والمنهج العلمي الساعي الممارسة القائمة على المطاوعة والوعي الدقيق بالسلطات (Haraway ، 1991; Pfol ، 1992). وبدلا من السرديات الكبرى (grand narratives) وادعاءات معرفة الحقيقة، تطرح ما بعد الحداثة دراسة متسعة للاختلاف ولل علاقة غير القابلة للفصم بين السلطة والمعرفة، بل ويتجاوز ما بعد الحداثيين "المعارف المحددة بالموقع" في نظرية الموقعية، فينظرون إلى العالم الاجتماعي في تدفقه وانصهاره. كذلك ترفض ما بعد الحداثة التفكير القائم على الاستقطاب والذي كان مائلا خلال الحداثة، فعلى سبيل المثال، وكما سيرد عرضه لاحقا في هذا الفصل من الكتاب، يقاوم ما بعد الحداثيون الانفصال المصطنع بين العقل والجسد، والذكر والأنثى، والذات والموضوع. وفيما هو أبعد من مجرد مقاومة التفكير القائم على الانقسام الثنائي، تقدم ما بعد الحداثة طرقا جديدة للتفكير في فرضيات ظلت تعتبر محسومة وأمرا واقعا لفترات طويلة، بشأن طبيعة الموضوع والمعارف والمعرفة.

وبالإضافة إلى الشؤون المتعلقة بالنظريات الكبرى في الحداثة، قامت ما بعد الحداثة أيضا بالتطور بحيث تدمج النظرية بالممارسة في عصر رأس المال العالمي. وتبين لنا الباحثة النسوية ماري بوفي أهم التغيرات التي طرأت على ما بعد الحداثة فيما يلي:

لا يقتصر الأمر على تعديلات ملحوظة في الاقتصاد الأمريكي ونظام الرفاهة، بل تحولات في الاقتصاد العالمي... ابتكارات تكنولوجية في الحفظ والاسترجاع والإرسال الإلكتروني، والتقدم الطبي في الأبحاث الوراثية والتركيبات البروتينية، ومسيرة الأمراض الجديدة عبر كوكب الأرض (Poovey، 1992، p. 39).

وهكذا يمكن القول بأن ما بعد الحداثة تشير إلى تحول من العصر الحديث إلى العصر ما بعد الحديث، والذي حدده فريدريك جيمسون باعتباره "المنطق الثقافي للرأسمالية المتأخرة" (Frederic Jameson، 1984)، والذي يكون شكلا جديدا متخللا للسلطة الاجتماعية، متكاملا بما فيه من تغيرات كبيرة في الاقتصاد والتكنولوجيا/الاتصالات. وفي هذا العصر الجديد أصبح هنالك انفجار داخلي في الأشكال الإعلامية مما أوجد ما أطلق عليه جان بودريار مسماه الشهير "الواقع المفرط" (hyperreality) حيث صار "الحقيقي" و"الخيال" ضبابيين بما يكاد يحول دون (إعادة) إدراكهما (re)(cognition):

إنها عملية توليد باستخدام النماذج لما هو حقيقي دون أصول أو واقع: أي واقع مفرط... فعصر التقليد تم افتتاحه بمحو كافة المرجعيات، بل والأسوأ من ذلك هو إعادة إحياء مصطنع للمرجعيات في أنظمة للعلامات، ومادة أكثر ميوعة من المعنى إذ تتماشى مع كافة أنظمة المعادلات وكل المتقابلات الثنائية، والجبريات المركبة. فلم يعد الأمر مسألة المحدودية أو التكرار ولا حتى المحاكاة الساخرة، وإنما هي مسألة إحلال علامات دالة على ما هو حقيقي محل ما هو حقيقي. (Jean Baudrillard، 1999، p. 1-2)

وفي هذا السياق، كيف يتم بناء ما هو رمزي؟ وكيف تقوم الأبنية الرمزية بخدمة مصالح معينة؟ إنها بالطبع أسئلة بالغة الأهمية بالنسبة للنسويات اللاتي قد يطرحن أسئلة أكثر تحديدا مثل ما يلي:

- كيف يتم خلق الأبنية الرمزية للأنوثة والذكورة؟ ومن الذي تخدمه تلك الأبنية تحديدا؟ هل تخدم الأبوية، وإن كان الأمر كذلك، فكيف؟
- كيف يتم خلق أبنية رمزية للاختلاف (على أساس الجنس، والعرق، والطبقة، والميل الجنسي، ... إلخ)؟ وهل يتم استخدام تلك الأبنية الخاصة بالاختلاف في خدمة عدم المساواة أو القهر؟ ومن الذي تخدمه تلك الأبنية تحديدا؟
- ما أبعاد الأبنية الرمزية للجنس وما ورد أعلاه (أي: الخيال البالغ، والصور الكاريكاتورية، والأجساد المتجزئة، وأبنية معينة للغة، وما إلى غير ذلك؟)

تأثير فوكو وديريدا على الفكر النسوي: السلطة-المعرفة، التفكيكية، وتحليل الخطاب

إن ميشيل فوكو (1978، Michel Foucault)، الذي أثرت مجمل أعماله على الفكر النسوي بقدر كبير، قام بتغيير جذري في طريقة فهم وتصور الكثير من الباحثين والباحثات بشأن السلطة. وقد كان فوكو مهتما في الأساس بالسياسات الصغيرة للسلطة (micropolitics of power)، وقد قام بالتنظير بأن السلطة والمعرفة متصلان اتصالا غير قابل للفصل في شبكة معقدة من علاقات السلطة-المعرفة. وبكلام آخر، فإن أعمال فوكو تجاهر بأن كل المعرفة مرتبطة بالسياق ويتم إنتاجها داخل مجال من علاقات القوى المتحولة. والباحثات والباحثون المنتمون إلى تلك المدرسة الفكرية قد يستجوبون النصوص الثقافية للكشف عن معالم علاقات القوى التي أنتجتها، بما في ذلك آثار الرؤية السائدة للعالم والكامنة داخل النص بالإضافة إلى أشكال "الصمت". وعلى وجه الخصوص، يقوم الباحثون والباحثات في تلك المدرسة بتناول الممارسات الخطابية الكامنة في النص، مع الإشارة إلى الطرق المحددة التي يتم بها استخدام اللغة في النص. وقد طرح فوكو منهجا تنقيييا (archeological) في البحث للكشف عن

كيفية وصول النص إلى ما هو عليه (Prior ، 1997). إنه منهج راسخ ينطلق من رؤية إبستمولوجية للسلطة والمعرفة، ويعتمد على تتبع عملية إنتاج النص وتوزيعه. ويوضح لنا ستيفوارت هول (Stuart Hall ، 1981 ، cited in Storey ، 1996)، المؤثر في مجال الدراسات الثقافية البينية، أن الهيمنة (hegemony) تتبدى فاعليتها داخل النصوص الثقافية، ويواصل شرحه قائلا إن النصوص الجماهيرية (popu-lar texts)، تملك هي الأخرى إمكانية "تعارضية"، كما تتعرض الهيمنة للمناقشة والمقاومة والتحدي داخل النصوص أيضا. وهكذا فإن النصوص جزء حيوي فاعل في تشكيل الواقع الاجتماعي أو "الواقع المفرط" (hyperreality).

وقد جاء جاك ديريدا (Jacques Derrida ، 1966) في مقدمة مطوري النظرية ما بعد البنيوية. ومن أهم معالم نظرية ما بعد البنيوية هي استخدام أداة التفكير البحثية (بما يوضح مرة أخرى العلاقة بين تطوير النظرية والمناهج). وقد صاغ ديريدا مصطلح التفكيرية (deconstruction) كمنهج للقيام بنقد داخلي (internal critique)، للنصوص. هذا وتقوم التفكيرية على مفهوم كون معنى الكلمات يحدث في علاقة بالتمائل والاختلاف، ففي كل نص هنالك بعض الأشياء المؤكدة كالحقيقة والمعنى والتأليف والسلطة، ولكن يوجد دوماً "آخر" أو شيء آخر يتناقض مع ما هو مؤكد. إن ما تم إغفاله أو إخفاؤه، أي "الآخر"، يبدو غائبا في النص ولكنه يكون فعليا متضمنا داخل النص باعتباره معنى مختلفا أو مؤجلا (Hesse-Biber & Leavy ، 2006). وقد قام ديريدا بالتنظير بأنه عبر عملية التفكير يمكن الكشف عن تلك المعاني المختلفة والمؤجلة، والهدف من التفكير هو تغيير مواقع الفرضيات داخل النص. ونجد أن الباحثة النسوية لوسي إريجاراي، والتي أتناول عملها في الجزء الخاص عن "ما بعد الحداثة النسوية الفرنسية"، تطرح التفكيرية باعتبارها طريقة لـ "تعطيل الآلية النظرية" (Lucy Irigaray ، 1985 ، p. 78). ويوضح هؤلاء الباحثون والباحثات أن معنى النص لا يكون أبداً واحداً أو ثابتاً وساكناً.

وبالإضافة إلى التفكير ، كثيرا ما يستخدم ما بعد الحدثين أيضا تحليل الخطاب :

متأثرا بما بعد البنيوية والمنهجية الإثنوجرافية (ethnomethodology) وعلم اللغويات ، فإن تحليل الخطاب هو استراتيجية يتم استخدامها عند الاهتمام بالمعاني الاجتماعية الموجودة داخل اللغة والممارسات الخطابية. وبكلام آخر ، يهتم تحليل الخطاب بعملية التواصل. ويرى فوكو أن الخطابات هي ممارسات تتكون من أفكار وأيديولوجيات ومرجعيات تقوم بشكل منظم ببناء وتشكيل الذوات والموضوعات التي تتحدث عنها ، وبالتالي تكون الخطابات جزءا أساسيا في صياغة الواقع الاجتماعي. ويقوم الكثيرون من الباحثين والباحثات بممارسة تحليل الخطاب عند دراستهم للنصوص ، وذلك في سبيل الكشف عن الأفكار الخفية الكامنة داخل اللغة المكتوبة. ويمكن للباحثات والباحثين دراسة كيفية إنتاج الخطاب السائد ، وكيف يتم نشره ، وما الذي يتم استبعاده ، وكيف يتم وضع بعض صور المعرفة في مكانة ثانوية ، وما إلى غير ذلك. وتنتقل جذور مثل هذا البحث من الفكر ما بعد الحدثي وما بعد البنيوي القائم على تصور اللغة باعتبارها تعكس السلطة. كذلك فإن بنية المجتمع تكمن داخل اللغة (والأشكال التمثيلية). (Hesse-Biber ، & Leavy ، 2006 ، p. 293)

ويمكن للباحثات النسويات المتأثرات بنظرية ما بعد الحدث أن يهتمن بدراسة المجالات الخطابية المتأثرة بعلاقات الجندر التي يدور فيها البشر ، وكيف يتم عبر الخطاب توصيل الأساليب الأبوية والذكورية في النظر إلى العالم ، بما في ذلك الخطاب من لغة ورموز وأيديولوجيا وغيرها.

الإبستمولوجيا النسوية ما بعد الحداثية: الفرار من السرديات العليا

كما رأينا في الفصل السابق الخاص بإبستمولوجيا الموقعية، فإن المقاربات النسوية إلى بناء المعرفة قد تطورت أحيانا باعتبارها نقيضا في مواجهة الوضعية (positivism) والتصورات الفكرية القائمة على الجمع بين الموضوعية والحقيقة. كما نشأت نسوية ما بعد الحداثة (postmodern feminism) بشكل ما على النقيض من أهم خصائص الوضعية وما شابهها من رؤى حول صياغة المعرفة. وأولا وقبل كل شيء، نجد أن ما بعد الحداثة تنظر إلى عملية بناء المعرفة باعتبارها عملية خلق وذلك على النقيض من النموذج العلمي التقليدي بشأن اعتبار بناء المعرفة عملية "اكتشاف". وكما سبق القول، يذكر ليوتارد أن الحداثة أوجدت سرديات كبرى مرجعيتها ذاتية، فلم تكن منتبهة للاختلاف مما أدى بها في نهاية الأمر إلى استبعاد تلك الآراء والتجارب التي لم تمتزج بتلك النظرية. وهنا تقع نقطة تقاطع أساسية بين النسوية وما بعد الحداثة: كيفية حدوث التهميش إذ يتم إنتاج النظريات الكبرى والتي تصبح بدورها ذاتية الشرعية. لقد كانت النظريات الكبرى تاريخيا مجحفة وقاهرة للنساء وكافة الأقليات لأنها لا تتناول الاختلاف على تنوعه ولا تواجه الفرضيات التي تقوم عليها (والتي هي في حد ذاتها نتاج لعلاقات قوى معقدة).

وتقدم ليسا كوسجروف (Lisa cosgrove، 2002) مثالا على كيفية قيام عالمات النفس النسويات، أحيانا، بالتمسك بالفرضيات الوضعية بشأن العالم الاجتماعي الذي يقهر النساء. فكما توضح ليسا كوسجروف، فعند تناول الانحياز الذكوري (androcentric bias)، وتضمن النساء في أسئلة البحث اعتمدت بعض عالمات النفس النسويات بل ناصرن مفاهيم مثل "تجارب النساء" و"أدوار الجنسين" دون مراجعة الفرضيات الراسخة داخل تلك المفاهيم، وهكذا لا يتم مواجهة مفهوم الجندر باعتباره أمرا "يملكه الشخص"، بل وحتى لا يتم ملاحظته. ونتيجة لذلك يصبح كل من مفهومي الجندر والتجربة مفهومين "أساسيين" تبنى عليهما النظرية والبيانات. فعلى سبيل المثال ربما تود ليسا كوسجروف منا التوقف أمام الأسئلة التالية:

- ما الفرضيات التي يقوم على أساسها مصطلح تجارب النساء؟
- حين يشير الباحثون والباحثات إلى مفهوم مثل أدوار الجنسين أو أدوار النوع ، فكيف يفترضون في ذلك ثبات مصطلح الجندر أو الجنس؟
- حينما نقوم نحن كباحثات بأخذ النساء في الاعتبار ونحاول إصلاح التحيز الجنسي ، فنضيف ”منظور النساء“ إلى المزيج ، فهل نقوم حينها بتحديد مفهوم النوع بشكل مادي ملموس وبأسلوب يتسق مع الوضعية؟

إن المفاهيم المكونة للنظريات الكبرى يجب أن تخضع للدراسة والتحدي في أبحاث العلوم الاجتماعية إذا كان للنساء وغيرهن أن يصبحن أكثر من مجرد عناصر مضافا إلى النماذج القائمة لصياغة المعرفة . ونجد أن ما بعد الحداثة تقدم للباحثات النسويات قاعدة إبستمولوجية يمكن منها رؤية بناء المعرفة بشكل مختلف . وقد كتبت المؤلفة النسوية أليكسا هيبورن الآتي بشأن النظريات العليا (metatheories):

إن تلك عناصر الثقة/تعيد خلق ”عنف تجاه الآخر“ ، تهميشا لبعض قطاعات السكان -كالنساء والأطفال والأقليات العرقية- بما يؤدي إلى ما يتبعه ذلك من التحول إلى فئة مغلوبة على أمرها ويترتب على ذلك أن التحليل ما بعد الحداثي لخطاب المشاركين والمشاركين ، عند كونه متنبها للطرق التي يمكن للسلطة بها أن تعمل من خلال السرديات العليا ، قد يوفر لنا نحن النسويات الأدوات التي نحتاجها لمواجهة وتحدي الحكايات الكبرى التي تنظم حياتنا- (Hepburn ، 1999 ، Postmodern Poli-
tics section ، para .6)

وهكذا تكون ما بعد الحداثة النسوية (feminist postmodernism) متنبهة جدا لكيفية تواطؤ النظريات الشاملة مع تهميش النساء وغيرهن من الأقليات ، وكذلك

إضفاء الجوهرية على الاختلاف . وتقدم ما بعد الحداثة منهجا لتفكيك الفئات الشاملة (totalizing categories) ، بما فيها تلك التي تهم النسويات ، مثل فئة النوع (gender) . وهكذا يمكن لما بعد الحداثة النسوية أن تواجه على سبيل المثال السرديات الثقافية حول الأنوثة والذكورة والتي كان يمكن لها أن تمر دون مواجهة ، على الرغم من أن الدراسة المتفحصة تكشف كيف أن الأفكار المتنوعة أو أجزاء السردية تعمل بحيث تدعم إحداها الأخرى .

وقد احتلت جوديث بتلر صدارة التنظير النسوي في هذا المجال ، إذ تتحدى أعمالها وتواجه الأسس النظرية للسرديات الكبرى ، بينما تقدم بديلا قويا للنسويات يقوم في جوهره على التوقف أمام الكيان الذي تتكون عليه الذات .

الإبستمولوجيا النسوية ما بعد الحداثيّة: الذات

إن الباحثات النسويات المتأثرات بالمقاربات ما بعد الحداثيّة لبناء المعرفة ، وتحديدًا المدرسة الفكرية الفرنسية ، اعتمدت على فكرة "موت الإنسان" ، والتي تتساءل حول إبستمولوجيا الحداثة المتمحورة حول الذات (subject-centered epistemology) . عن الذات الحداثيّة المشتقة من الفلسفة الديكارتية تقوم على تصنيفات ثنائية مثل العقل/الجسد والذكر/الأنثى ، وهو منظور للذات قام بتشكيل النساء باعتبارهن أدنى مرتبة من الرجال . وقد ارتأت الكثيرات من نسويات ما بعد الحداثة أنه إلى حين تغير تصورنا عن "الذات" لن نتمكن من تغيير عدم المساواة الراسخة في بناء المعرفة في العلوم الاجتماعيّة الحديثة . وبالتالي تعتبر نسويات ما بعد الحداثة أن تغيير تصورنا عن الذات هي مهمة حيوية ضرورية إذا كان لنا أن نحقق أهداف النسوية . فبينما نجد أن مفكري ما بعد الحداثة الذين تم تناولهم في الجزء السابق من هذا الفصل قد طرحوا تحديات شبيهة بذلك أمام مفهوم الذات الديكارتية ، فإن غالبية الجهد التنظيري لم يقم

سوى بالنزr اليسير من حيث التوقف أمام مفهوم النوع ، ومن هنا أضافت مفكرات ما بعد الحداثة النسويات إضافات بالغة إلى الأدبيات في هذا المجال بما قمن به من إضافة النوع إلى النقد ما بعد الحداثي للذات (Hekman ، 1991 ، p. 46). وإن الاهتمام بالتأمل الفكري ووضع تصور للذات ليس مجال اهتمام نسوي جديد ، فعلى مدار عقود طرحت النسويات أسئلة مثل ”كيف يتم تشكيل وتعريف النساء بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها؟“ فكما تشير سوزان هيكرمان ، لقد وجهت سيمون دي بوفوار جزءا كبيرا من كتابها الشهير عن ”الجنس الثاني“ (Simone de Beauvoir ، The Second Sex ، 1972) ، لتناول مثل تلك المسائل . وكذلك قطعاً لطلالما اهتم باحثو وباحثات إبستمولوجيا الموقعية بالذات ، وتحديدًا كيفية اكتساب الذات الأنثى لتجارب حياة ورؤية وصوت معين بناء على شغلها مكانة اجتماعية تابعة . وعلى الرغم من التاريخ الطويل للنسويات في التعرف على والاعتراف بمركزية مفاهيم الذات ، فإن مفكري ما بعد الحداثة يرون أن البحث النسوي لم ينظر لإعادة صياغة الذات وتكوينها التي يؤدي في نهاية الأمر إلى فكفكة المنطق الديكارتي القائم على التشكيلات الثنائية التي طالما قهرت النساء (وغيرهن من الأقليات) . واعتماداً على التطورات في نظرية ما بعد الحداثة (ونظرية التحليل النفسي) قدمت النسويات تحدياً كبيراً أمام الآراء المسبقة بشأن الذات ، كما قدمن إعادة صياغات عدة تتماشى مع خصائص كل من النسوية وما بعد الحداثة . وتشير سوزان هيكرمان إلى تأثير ما بعد الحداثة على البحث النسوي الصادر مؤخراً في هذا المجال ، قائلة:

لقد لجأت العديداً من المنظرات النسويات إلى نظريات ما بعد الحداثة للتعبير عن مقاربة جديدة للذات . فما بعد الحداثة ترفض إبستمولوجيا الحداثة الثنائية مؤكدة على أن التعارض ظاهري فحسب ، وأن الاستقطاب المفترض كامن داخل طرفيه . إن مفهوم اللغة والمعنى الذي تبنته ما بعد الحداثة يتضمن إزاحة الذات الحداثية عن الصدارة هي وما

تبعها من ثنائيات. كما يفرض ما بعد الحداثيين المفهوم القائل بأن المعنى مشتق من العلاقة بين الكلمات والعالم، طارحين مقولة بديلة مفادها أن المعنى نتاج داخلي لآليات اللغة. كما يرون أن المعنى يأتي من تفاعل العلامة والمدلول داخل الصيغ الخطابية للغة. ومن تداعيات المفهوم ما بعد الحداثي للغة والمعنى هو أنه يتم بموجبه إزاحة الذات عن مكانها المركزي كأصل للمعنى والحقيقة. ويؤكد ما بعد الحداثيين على الطريقة التي يتم بها تكوين الذات داخل الصيغ الخطابية، ولكنهم لا يحلون الذات المتكونة محل الذات المكونة، وإنما يدهمون مفهوما للذات يعمل على تفجير الثنائية بين ما هو متكون وما هو مكوّن، وذلك من خلال إزاحة المعارضة.

(Hekman، 1991، p. 47).

وبكلام آخر فإن النسويات المتأثرات بما بعد الحداثة قمن بأشكال متنوعة بتطوير مفاهيم جديدة للذات ترى الذات باعتبارها إلى حد كبير متكونة (بدلاً من أن تكون مكونة)، على الرغم - وكما سنرى لاحقاً - من أن ذلك لا ينفي الفاعلية (agency). وتدعو جوديث بتلر النسويات إلى عدم الخوف من دعوى ما بعد الحداثة بأن الذات قد "ماتت" باعتبارها بالضرورة مقولة تهدد مشروع النسوية، وإنما تشجعهن على التوقف أمام كيفية إنتاج الذات وكيف يمكن للمفهوم التقليدي لـ "الذات" أن يكون في الواقع في خدمة القهر:

توجد مقولة متكررة حالياً بأنه في اللحظة التي بدأت فيها النساء في احتلال موقع الذات، إذا بالمواقف ما بعد الحداثية آتية لإعلان موت الذات.... ومن المؤكد وجود موضع حذر هنا، وهي أنه في خضم النضال نحو الحصول على الحقوق السياسية والتحوللات الديمقراطية، قد نجد أنفسنا نتبنى نفس نماذج السيطرة التي كنا نخضع لقهرها، دون إدراك أن أحد الأساليب التي تعمل بها السيطرة هي عبر تنظيم الذات وإنتاجها. فما هي

صور الإقصاء والاستبعاد التي مر بها تشكيل الذات النسوية ، وكيف تقوم تلك المجالات المستبعدة بالعودة لتلوح في أفق "اتساق" و "وحدة" صيغة الجمع "نحن" النسوية؟ وكيف يمكن لنفس الفئة ، أي الذات ، أي "نحن" التي يفترض أنها موجودة لغرض التضامن تقوم هي نفسها بإنتاج الانقسام الذي من المفترض قيامها بإخماده؟ هل تريد النساء أن يصبحن ذواتاً طبقاً لنموذج يتطلب وينتج نطاقاً أمامياً من المذلة؟ أم يجب على النسوية أن تصبح عملية تقوم على نقد الذات بشأن المسارات والعمليات التي تنتج وتخلخل تصنيفات وفئات الهوية؟ (Judith Butler ، 1992 ، p. 14-15)

النسوية الفرنسية والذات ما بعد الحداثية

لقد احتلت النسويات الفرنسيات موقع الصدارة في إحداث تفجير جذري وإعادة تشكيل الذات ، وقد استوحين ذلك على خلفية نظرية ما بعد الحداثة وما بعد البنيوية الفرنسية . وقد قامت كل من لوسي إيريجاراي (Luce Irigaray) وإيلين سيكسو (Hélène Cixous) وجوليا كريستيفا (Julia Kristeva) بتطوير نظريات مهمة عن الذات ، ولكن نظراً لضيق المساحة هنا فسوف أركز على أعمال جوليا كريستيفا . وقد تأثرت جوليا كريستيفا بعلم السيميوطيقا واللغويات والتحليل النفسي ، فأصبحت من قادة تجذير وتثوير هذا الموضوع (وشخصية مثيرة للجدل في هذا المجال) . فبناءً على مدرسة لاكان (Lacan) طرحت جوليا كريستيفا وجود ثلاث ذوات (جمعية) تتشكل تبعاً لأنواع خطاب مختلفة ، فتقول:

الذات لا تكون أبداً موجودة ، وإنما الذات هي مجرد عملية التدليل (sig-nifying) ، ولا تتبدى الذات إلا باعتبارها ممارسة تدليل ، أي مجرد عند غياب الذات داخل الموقع الذي يتكشف عنه النشاط الاجتماعي والتاريخي

والتدليلي. فلا يوجد علم عن الذات، وأي فكرة بشأن التمكن من الذات هي فكرة صوفية: فكل ما هو موجود إنما هو مجال الممارسة، حيث يمكن عبر تمدد الذات أن يتم توقعها في مستقبل مسبق دائما. (Julia Kris-teva، 1980، p. 215).

وبكلام آخر، فإن الذوات لا تشكل، وإنما يتم تشكيلها تبعا لعدد من الممارسات الخطابية، وهي نقطة انطلاق تبتعد جذريا عن الذات الديكارتية التي تخلق المعرفة، وتكون عارفة، ومنتجة، وسيدة على معرفتها. أما بالنسبة لجوليا كريستيفا فإن الذات هي نتاج الثقافة، وتحديدًا أن الخطابات المتعددة هي التي تشكل الذوات. وهو أمر مهم خاصة بالنسبة للنسويات التي يتعاملن مع فكرة ما إذا كانت هنالك "أنوثة" فطرية كامنة (وإذا كان الأمر كذلك، فمن الذي يحددها ولأية أغراض). وتعرض جوليا كريستيفا على هذا الشكل من أشكال الجوهرية، واتساقا مع بقية نظريتها توضح لنا أن "الأنوثة" تتشكل عبر تعددية الخطابات، وتشير بالتالي إلى "الذات" لا باعتبارها كيانا ثابتا، بل على أنها "ذوات ضمن عملية". وهو مكون أساسي في نظريتها، إذ يتيح للذات المتسمة بالتحديد والإصرار أن تحتفظ بإمكانياتها الثورية، أي القدرة السياسية وإمكانية المقاومة، أي الفاعلية (agency). وسوف أعود إلى سياسات النسوية ما بعد الحداثة لاحقا في هذا الفصل، وسأواصل حاليا حديثي عن إستمولوجيا ما بعد الحداثة النسوية.

إستمولوجيا ما بعد الحداثة النسوية

إذا أخذنا في الاعتبار فكفة الذات الديكارتية التي شكلت بناء المعرفة على مدى قرون، فليس من المستغرب أن تكون ما بعد الحداثة قد ألهمت الباحثات النسويات بإعادة التفكير في "التجربة" (experience) كفة من فئات بناء المعرفة.

• ما التجربة؟

بالنسبة للذات المتشكلة خطابيا ، والتي لم تعد هي مركز بناء المعرفة وحاملة "الحقيقة" ،
فما التجربة؟

إن النسويات اللاتي طال اهتمامهن بغياب "تجربة النساء" في بناء المعرفة (وبناء المجتمع بشكل أوسع) أكثر من تأكيد تجربة/تجارب النساء كدليل على الموقعية الفريدة للنساء في المجتمع تراتبي البنية ، و/أو تقديم الدليل على مواقع النساء وأفكارهن ومشاعرهن ، وما إلى غير ذلك . وباختصار فإن التجربة تعتبر بالنسبة لكثير من النسويات بمثابة حجر الأساس الذي يقوم عليه عملهن . ونجد أن ما بعد الحداثة ومفهوم "الذات ضمن عملية" يضيفان الإشكالية على هذه الرؤية بشأن "التجربة" مما أدى إلى نشأة طرق بديلة يمكن للنسويات تأمل التجربة من خلالها .

وترى جوان سكوت أنه بتشكيل التجربة كنقطة مركزية في بناء المعرفة ، قامت النسويات -عن غير قصد- بتغييب العمليات والمسارات التاريخية والخطابية التي تخدم كأساس لتلك التجربة . ومثلها في ذلك مثل الذات المتشكلة خطابيا ، فإن التجربة تتشكل بالممارسات الخطابية ، ولا يمكن أن تنشأ "المعاني" التي نوجدها من حكي تجاربنا بدون عملية الدلالة (signification) ، فالتجربة متصلة اتصالا وثيقا بالخطاب ، وفي ذلك توجز جوان سكوت موقفها كما يلي:

ليس الأفراد هم من يملكون التجربة ، بل الذوات التي يتم تشكيلها هي التجربة . وطبقا لهذا التعريف فإن التجربة لا تصبح بالتالي أصل التفسير ، ولا الدليل الحاسم (بسبب تمتعه بسلطة مرئية أو محسوسة) الذي يحدد أساس ما هو معروف ، وإنما التجربة هي ما نسعى لتفسيره ، وما يتم إنتاج المعرفة عنها . (Joan Scott ، 1992 ، p. 25-26)

وحين يتم طرح الذات الديكارتية للتساؤل وتفكيكها فلا تعود الذات مركزا لبناء المعرفة ودعاوى الحقيقة، حينها يحدث تحول أيضا في رؤيتنا للتجربة. فالتجربة بمعناها ما بعد الحدائي النسوي جزء من المجال الخطابي الذي تتشكل فيه الذوات وتتحول. كذلك نجد أن نظرية جوديث بتلر عن الاستعراضية (performativity) ترى أن النوع (gender) يتشكل داخل المجالات الخطابية.

إن العلاقة بين ما بعد الحدائة والأهداف النسوية هي علاقة واضحة للبعض، ولكن يبدو للبعض وجود فجوة بينهما بسبب رفض ما بعد الحدائة للفئات الجوهرية مثل "تجربة النساء" والتي أثبتت فائدتها الجمة بالنسبة لكثيرات من الناشطات النسويات. ومن هنا يوجد نقاش متسع بين النسويات بشأن مكان نظرية ما بعد الحدائة داخل النسوية، وهي قضايا يتم تناولها في الجزئية اللاحقة التي تناقش الإمكانيات السياسية للنسوية ما بعد الحدائية. ولكن قبل الانتقال إلى تلك النقطة قد يكون من المفيد أن نستمع إلى آراء الباحثة النسوية ما بعد حدائية التي تجد تزاوجا وثيقا بين ما بعد الحدائة والنسوية في أبحاثها في مجال علم النفس. فلننتقل الآن إلى مقطع "ما وراء الستار" مع عالمة النفس النسوية الشهيرة ليسا كوسجروف حيث تتوجه مباشرة إلى داخل هذا الجانب من النقاش محدثة عن بداياتها الأكاديمية، والجدل الإستمولوجي الأوسع القائم بين النسويات، وتقديم مثال على البحث الإمبريقي، ثم تنتهي بإيضاح جميل أن "النسوية ما بعد الحدائية" ليست تعبيراً متناقضاً بل إن "الطريق الوحيد للخروج هو العبور".

ما وراء الستار مع ليسا كوسجروف

"الطريق الوحيد للخروج هو العبور". (الأنيس موريسيت)

عند التعرض للمواجهة بصعوبة القيام بأبحاث في العلم الإنساني، تعتمد الكثيرات من النسويات على مناهج مجربة وصادقة. وببساطة، حين يحل

الشك، عليك بالعدّ. فهناك افتراض بأن "النتائج الصالحة" لا يمكن الحصول عليها سوى بإعداد دراسات تستخدم مناهج إحصائية متعددة المتغيرات، فإذا كان بوسعك إطلاق المسميات -مثل بناء النماذج العلية، الدوران قائم الزاوية، وانحدار المستقيم -lin- orthogonal rotation، causal modelling (ear regression)- فأنت بلا شك باحثة/باحث "حقيقي". وعلى مدى العقدين الماضيين، أخذ عدد متزايد من النسويات في مراجعة ذلك الافتراض، مع التأكيد على أن مناهج البحث الكيفي، لا الكمي، هي الأنسب لدراسة التجارب المتأثرة بالأنوع. وقد تم إفرد العديد من المقالات في الدوريات، والكثير من المقالات، وربما المئات من المشاركات في المؤتمرات لمناقشة ذلك الجدل المحتدم بشأن الأسلوب الأفضل لدراسة تجارب النساء.

ونظرا لبداية تخصصي في مجال على النفس الإكلينيكي، قمت بأبحاث كمية وكيفية، وأرى أن القضايا الإستمولوجية هي المسألة الحقيقية (انظر/ي على سبيل المثال: Ussher، 1999) إذ نجد أنفسنا نتناقش حول مزايا كل مدخل أو مقارنة أو حتى حين نتصور أننا قد قمنا بحل المشكلة بالقول "حسنا، يجب استخدام كلا المنهجين، الكمي والكيفي". ولكن لا يوجد حل بسيط، والطريق الوحيد للخروج من تلك العضلات الإستمولوجية هي الدخول فيها وعبورها منها، فعلينا أن نتعامل مع التخييط والتعقيد الذي يشوب محاولة "القيام ببحث نسوي... وخلق خطط بحثية تحمل تمكينا" (Lather، 1991، p. 71) في عالم ظالم. وقد وجدت فائدة فيما بعد الحادثة من حيث استجابتها للمسألة المعقدة الخاصة ببناء المعرفة في عالم ظالم. ولكني لا أرى بأية حال من الأحوال أن ما بعد الحادثة هي الحل "الأوحد".

لقد بدأت بداية تعرفي على البحث ما بعد الحداثي في فترة مبكرة من دراستي، فعلى العكس من معظم برامج علم النفس الإكلينيكي، كان البرنامج الذي درسته يتضمن تركيزا فلسفيا كبيرا. وقد كان تعرضي للبحث ما بعد الحداثي أثره في

مساعدتي وإرباكي في نفس الوقت كباحثة نسوية، فقد وجدت تحديدا في التركيز على استحالة التوصل إلى علم حيادي القيمة (value-neutral) ما يتماشى مع المبادئ النسوية. فكل شيء يمضي دوما في خدمة المصالح والفارق بين الحقائق والقيم، وبين السياسة والعلم، هي فروق مصطنعة. فقد تم وصف ما بعد الحداثة باعتبارها مشروعا يكشف عن طبيعة الحقيقة التي يتم تشكيلها اجتماعيا وعن المصالح المتنوعة التي تتم خدمتها بتشكيلات وصيغ معينة (Layton، 1998)، وانظر/ي أيضا: Fairfield، Layton، & Stack، 2002. ونجد أن ما بعد الحداثيين يأخذون مأخذ الجد مقولة نيتشه بأنه حين يؤكد شخص ما حقيقة ما، فيجب سؤاله أو سؤالها: "وماذا يعود عليّ من ذلك؟" وهكذا يرى ما بعد الحداثيين أنه من المستحيل اكتشاف حقائق عامة عن السلوك الإنساني، ويطرحون الأسئلة بشأن الفئات والتصنيفات في حد ذاتها التي يتمسك بها علماء الاجتماع، كالاضطراب العقلي أو النوع. وبالتالي تقوم ما بعد الحداثة بوضع القضايا الإستمولوجية والمنهجية والسياسية في موقع الصدارة.

ولعل ذلك الوصف الموجز يدفعك للتفكير في وجود اتساق كبير بين النسوية وما بعد الحداثة. وهو كذلك بالفعل، فالنسويات وما بعد الحداثيين والحداثيات يعترفون بما في التجربة من ثراء وكثير من التناقض، كما يعترفون بأهمية مقاومة الإجابات السهلة، ومدى التعقيد في القوى وعلاقات القوى. ولكن توجد أيضا بعض النقاط الخلافية الكبرى، والتي توجد مساحات لصراع لا يسهل حله، فعلى سبيل المثال قد يكون من الممكن معارضة الفكرة القائلة بأن "الاضطراب العقلي" هو فئة تصنيفية عامة يمكن تحديدها وقياسها إمبريقيا، ولكن معارضة فكرة النوع هي مسألة مختلفة تماما. فالنوع (gender) هو في نهاية الأمر المثال التقليدي، الذي يقدم في مقررات مناهج البحث في مستوى الدراسة الجامعية، على المتغير المنقسم (على النقيض من المتغير المتصل). إن طرح فكرة كون النوع مسألة غير فطرية، وأنه ليس متغيرا مستقلا بل يفضل

فهمه باعتباره استعراضا، أي أمرا نفعله لا أمرا بداخلنا نملكه (انظر/ي على سبيل المثال: Butler، 1993)، أليس في ذلك الطرح مبالغة؟ وفي حالة عدم وجود حقائق عامة، فكيف يمكن التأكيد على وجود مبادئ نسوية؟ وبكلام آخر، ألا يؤدي تبني منظور ما بعد حدثي إلى نزع السمة السياسية عن برنامج البحث النسوي؟ ودون إنكار حقيقة وجود علاقة ملتبسة بين النسوية وما بعد الحداثة، سأوضح في الجزئية التالية ما الذي أوصلني إلى نتيجة مفادها أن "ما بعد الحداثة النسوية" ليست تعبيراً متناقضاً.

فمنذ عدة سنوات، بدأت مع مجموعة من طالباتي في الدراسات العليا، بالقيام ببحث حول الدورة الشهرية، وعلى وجه التحديد انصب اهتمامنا على العلاقة بين تشكيلات الهوية النوعية الأنثوية وبين تجارب التوتر المصاحب للطمث. ومع إدراكنا للجدل الدائر حول مدى صحة "توتر ما قبل الطمث" (PMS) -إذ تؤكد بعض النساء بشدة على أن توتر ما قبل الطمث هو كيان إكلينيكي مميز واضطراب "حقيقي"، بينما تؤكد أخريات على عدم وجود "توتر ما قبل الطمث" - فأردنا وضع خطة بحث تتجنب تحديد خيار ما بين إما/أو، أي إننا لم نكن نريد تحويل أجساد النساء ووظائفها الإيجابية إلى حالة باثولوجية مرضية، كما أننا لم نكن نريد إبطال تجربة النساء اللاتي يرين أنهن يعانين من توتر من قبل الطمث. وكان اتباعنا لمنظور ما بعد حدثي دور في مساعدتنا على تجنب تلك الثنائية الزائفة نظرا لكونه منظورا يؤكد طبيعة التجربة باعتبارها خاضعة للتشكيل أو الوساطة، من حيث كون توتر ما قبل الطمث يتكون أو يتم إنتاجه من خلال لغة النموذج الطبي*.

إذ تضع النساء أنفسهن في مواقع بعينها، كما يتم وضعهن في مواقع معينة، بواسطة ممارسات عديدة (على سبيل المثال من خلال المجلات التي تتضمن مقالات على شاكلة "هل عندك توتر ما قبل الطمث؟"، والأدوية مثل بروزاك/

سارافيم "لعلاج" توتر ما قبل الطمث)، والتكتائيات (مثل اعتبار الطمث عارا أو نجاسة، . . . إلخ)، والخطابات (مثل النموذج الطبي لخطاب توتر ما قبل الطمث). وقد ساعدنا الإطار المرجعي ما بعد الحدائي في إدراك أن طرح السؤال "هل توتر ما قبل الطمث حقيقي؟" ليس سؤال البحث الأنسب. وقد جعلنا هذا الإطار العام نركز انتباهنا على الطرق التي تفسر بها النساء توترهن الجسدي والعاطفي داخل الخطابات السائدة عن الأنوثة وتوتر ما قبل الطمث. وبكلام آخر، فبدلاً من محاولة التوصل إلى حقيقة كامنة أو عامة حول تجارب النساء، حاولنا وضع خطة بحث تتناول السياق الاجتماعي والسياسي لتلك التجربة.

ولذا انطلقنا من فكرة أن معنى "وجود توتر ما قبل الطمث" يتم تناوله داخل صور مجازية سائدة عن الأنوثة والطمث. وكان من أكثر الجوانب المثيرة للانتباه في دراستنا هو أن خطاب توتر ما قبل الطمث قد انتشر في الثقافة الدارجة بما يجعل النساء يتوقعن تعرضهن لتوتر ما قبل الطمث، بحيث أصبح مسألة معيارية حتمية لا حالة شاذة. كذلك قامت المشاركات بوصف تجربتهن لا من حيث مرورهن بتوتر ما قبل الطمث وإنما أيضاً من حيث كونهن ذواتاً مختلفة، أي إن الذات في حالة توتر ما قبل الطمث جاءت باعتبارها ذاتاً "سيئة" أو إشكالية بشكل أساسي، ومتناقضة مع ذات المرأة الحقيقية أو غير الخاضعة لتوتر ما قبل الطمث. وفيما يتعلق بمشاعر "التوتر" أو "الغضب"، وهما العاطفتان الأساسيتان اللتان اعتبرتهما النساء من أعراض الذات الخاضعة لتوتر ما قبل الطمث، هي مشاعر لم تمر بها النساء باعتبارها تجربة تعبر عن استجابة عاطفية جديدة بالاهتمام. ومن اللافت للانتباه ملاحظة أن الأنوثة المعيارية تتطلب سكوناً وانسجاماً لا تلوثة أية مشاعر سلبية، فمن المستحيل الجمع بين الأنوثة والتوتر. عن وضع الذات داخل خطاب توتر ما قبل الطمث يتيح لنا مواصلة السعي لتحقيق الصور المثالية للأنوثة، وإن "أنا الحقيقية" أو الذات غير الخاضعة لتوتر ما قبل الطمث

هي الذات التي تحقق تلك الصورة المثالية، بينما الذات الخاضعة لتوتر ما قبل الطمث هي انحراف مضطرب عن ذلك المثال . وهكذا يعمل خطاب توتر ما قبل الطمث على تشجيع النساء على إنكار التجارب الشعورية السلبية التي تزعزع صور الأنوثة الراسخة ثقافياً (أي: "أنا لست غاضبا حقا، إنه مجرد توتر ما قبل الطمث"). وهكذا ساعدنا استخدام مقارنة ما بعد حدثية على دراسة تجربة النساء دون وضع النوع في شكل مادي ملموس أو جوهري .

وإنني أتمنى أن يكون ذلك المثال الموجز قد أوضح أن إدماج بعض الأفكار ما بعد الحدثية في البحث النسوي يضيف عليه البعد السياسي ويدعم جهودنا البحثية، فهو يضيف البعد السياسي على البحث لأننا حينها نتحول من تفسيرات للتجارب ما بين الأفراد إلى تفسيرات بنيوية وسياسية اجتماعية . إن ما بعد الحدثية تدعم عملنا لأنها تشجعنا على مقاومة الفكر الانقسامى، وعلى إعادة دراسة فرضياتنا الكامنة، وعلى إدراك أن الطريق الوحيد للخروج هو العبور .

الهوامش

* لم نكن نحاول إنكار تجارب النساء اللاتي يقلن بأنهن يتعرضن للتوتر قبل فترة الطمث أو خلالها، كما لم نكن نشير إلى أن التغيرات الهرمونية لا يمكن أن تؤثر سلبيا . حقا إن طرح سؤال حول عما إذا كانت معدلات الهرمونات تختلف على مدار الدورة الشهرية ليس سؤالاً ضد النسوية، وإنما ما هو ضد النسوية هو أن نفترض أن الجسد مجرد شيء طبيعي أو "متغير مستقل نسبياً، بدلا من أن يكون متغيراً أيديولوجياً غير مستقل" (Zita, 1989, p. 200) .

لقد قدمت ليسا كوسجروف مثالا قويا على كيفية إمكان أن تكون ما بعد الحدثية والنسوية جزءا من إضفاء البعد السياسي على البحث، وهو مثال مخالف لكثير من المراجعات النقدية الناقصة . ومن هنا أنتقل إلى مناقشة النشاط النسوي ما بعد الحدثي ومكوناته المختلفة.

ما بعد الحادثة والعمل النسوي: الفاعلية والتقويض والمقاومة/ الثورة السياسية

في مكان ما يكون لكل ثقافة حيز خيالي لما تقوم تلك الثقافة باستبعاده، وهو الحيز الذي يجب علينا اليوم تذكره. (Cixous & Clément, 1996, p. 6)

لعل ساره هيربولد هي أفضل من عبرت عن الوضع بقولها إن الأمر بالنسبة للبعض يبدو وكأن ما بعد الحادثة والنسوية لهما أهداف متناقضة. فالنسوية تسعى إلى القضاء على قهر النساء عبر سياسات الهوية، وتسعى ما بعد الحادثة إلى تفكيك مصطلحات مثل النساء باعتبارها فئة شاملة زائفة (Sarah Herbold, 1995, p. 85). وأرى أن ما نسمعه من نقد عال لما بعد الحادثة داخل المجتمع النسوي هو نتيجة لتلك الأهداف التي تبدو متناقضة، مع وجود اعتقاد بعدم إمكانية تجاوز تلك الفجوة. فالتنقد الأساسي الموجه لما بعد الحادثة النسوية يركز على السؤال التالي: إذا أخذنا في الاعتبار رأي ما بعد الحادثة القائل بأن الذات تمر بعملية مستمرة، وكذلك موقف ما بعد الحادثة ضد الفئات الجهرية، فهل تتماشى ما بعد الحادثة مع الالتزامات السياسية النسوية؟

إن الخوف الذي يدفع بذلك السؤال هو كالاتي:

• هل ستدفع ما بعد الحادثة النشاط النسوي إلى الخلف؟

بالنسبة للباحثات النسويات فإن الإجابة على هذا السؤال هي إجابة تصدح بكلمة لا. ففي الواقع تتسق ما بعد الحادثة اتساقا عميقا مع الأهداف السياسية للنسوية، فهي تعقد سياسات الهوية ولكنها لا تهجر جهود الرائدات النسويات.

ولا شك في أن النسويات حققن تقدما كبيرا عبر ما يشار إليه عموما بعبارة سياسات الهوية (identity politics). وبخلاف ما في نظرية ما بعد الحادثة من تشابك وتعقيد يجعل من الصعب فهمها، فإن النقد والخوف الأكبر من تلك النظرية يتمثل في أن ما بعد

الحدثات تنكر بشكل ما صوت النساء ، في حين أنه لأسباب عملية وبراجماتية كانت الفئات الجوهرية مثل "تجارب النساء" مفيدة في النضال النسوي ، وبالتالي فالنسويات قلقات من التنازل عما ثبتت فاعليته . وقد سارعت النسويات ما بعد الحدثيات في التحذير من أن الاعتماد على فئات تصنيف مثل "تجارب النساء" إنما يسعى إلى تعضيد الهيمنة وتطبيع التصورات السائدة حول النوع دون الالتفات إلى المجالات الخطابية التي يتم فيها التعبير عن النوع . إن نسوية ما بعد الحدثات تتيح للباحثات تفكيك أنماط النوع بدلا من تحديدها ماديا أو تنظيمها (Cosgrove ، 2003) ، وبالتالي فإن الأبحاث التي تتم من منظور النسوية ما بعد الحدثات تواجه ما في الإمبريقية النسوية وإبستمولوجيا الموقعية من جوهرية . عن مابعد الحدثات تقدم للباحثات النسويات أساليب جديدة لخلق التضامن .

وكما سبق الحديث ، فإن كتابات فوكو تذكر أن السلطة والمجالات الخطابية التي نتحرك فيها هي التي تنتج الذات ، وتضيف جوديث بتلر إلى ذلك موضحة أن هوية النوع (gender identity) يتم إنتاجها في منظومة خطابية حيث الأنوثة فيها هي "حضور مثالي" (Butler ، 1993 ، p. 232) . ومن الممكن خلق سياسة نسوية موحدة ترى هوية النوع كنتيجة لعوامل القوى ، وباعتبار الهوية مسألة عارضة (وهو أمر لا يجعلها أقل "حقيقية" في تجارب الناس معها) . وبالتالي يمكن للنسويات حقا البدء في كشف الأفكار الخاصة بالنوع والتي تصبح سائدة وتشكل الذوات الفردية كلا على حدة .

في حالة وجود خوف من أن النسوية ستنتهز عندما تتوقف عن اعتبار الذات أمرا مفروغا منه ، من حيث نوعها وجنسها أو وجودها المادي ، فربما يكون من الحكمة تأمل التداعيات السياسية المترتبة على الحفاظ على الفرضيات التي عملت منذ البداية على ضمان تبعيتها . (Butler ، 1992 ، p. 19)

وقد قررت أن أختم هذا الفصل بطريقة قد تكون غير تقليدية ، بما أشعر أنه يتماشى مع بعض ما جاء في البحث ما بعد الحدثي . وفيما يلي مقطع "من وراء الستار" عن الباحثة النسوية المعروفة باتي ليزر .

ما وراء الستار مع باتي ليدر

مقدمة المسرح/خلفية المسرح: أي عرض وأين؟

فيما يلي مقتطفات من مراسلات تمت بالبريد الإلكتروني والخطابات ما بين عامي 1996-1997 مع إليوت ميشلر ، أستاذ علم النفس الاجتماعي في كلية طب جامعة هارفارد ، والذي كنت قد أرسلت إليه نسخة من مطبوعة لي عن صحة وجود الملائكة (Lather ، 1995) ونسخة إلكترونية من طبعة كتاب عن "إزعاج الملائكة" (Lather & Smithies ، Troubling the Angels ، 1997) . وقد جاء رد فعله على الكتاب "متقلب المزاج وضيق الصدر" ، ولم أكن متيقنة على الإطلاق من إمكانية قيام "حوار بناء" مع ما به من "إزعاج من الكتاب" . وقد جاء خطاب ممتد لأكثر من أربع صفحات من الطباعة بمسافة واحدة صغيرة بين السطور محددا "رد فعله السلبي" ، ولكني لا أعتقد أنني أرسلت إليه الخطاب التالي ، رغم التقائنا لتناول القهوة في مقهى كولومبوس بعدها بسنوات ، وظل يرسل لي "قصاصات عن الملائكة" لأنه لم يكن "قد حلف يمينا بعدم فعل ذلك" .

ويأتي العنوان مستوحى من جوديث بتلر التي تطرح في كتابها عن "مشكلة النوع" سؤالاً هو "أي عرض وأين؟" من حيث تقويض ثنائيات النوع (Judith Butler ، Gender Trouble ، 1990 ، p. 139) . كما يأتي العنوان مستوحى أيضاً من رواية إثنوجرافية درامية لصاحبها إيرفينج جوفمان (Erving Goffman ، 1959) ، مع قلب فرضياته بأن الشيء الأصدق والأكثر أصالة موجود فيما وراء الستار . عند توسيع تلك المقارنة للحديث عن كتاب أوضح أنه إذا كانت "خلفية المسرح" هي المكان الذي يدور فيه العرض الخاص غير المواجه وغير المقصود الاستهلاك العام ، فإن "مقدمة المسرح" هي ما يتم نشره . ومع ذلك فإن فيما يلي الكثير مما تم إعداده للعرض على جمهور ، وما أدعيه لا يحمل أي صدق أو أصالة أكثر من عرض كتاب "إزعاج الملائكة" في مقدمة المسرح ، والمتملئ فعلياً بكثير من مطاوعة ذات (self-reflexivity) . ولكن بدلاً من ذلك

أقدم هنا طبقة أخرى من الموضوع بغرض الإشارة إلى حدود عروض مطاوعة الذات وما يذكره فوكو على أنه الثمن الذي ندفعه لقول الحقيقة عن أنفسنا. إن هدفي هو "عرض" ما هو بعد حدثي في تلك الإيماءة التي تستخدم وترتك في الوقت نفسه مفهوما من مفاهيم الإطار العام الذي نفكر في أننا لا نستطيع أن نفكر دونة: أي في حالة محو. (للحصول على نموذج كلاسيكي لفك التفكير، انظر/ي: 1976، Gayatri Spivak، وللحصول على رأي أحدث انظر/ي: 1997، Caputo، ولتال ممتد انظر/ي: 2007، Lather).

عزيزي إليوت،

في قراءتي لقراءتك، أود أن أظن متفاعلة مع عدم اليقين، فلا أسمح لقراءة دون الأخرى أن تمتلك الكتاب. وبشكل ما فإنه أمر يختلف جدا عن انتقاد الذات في الحادثة، وأنا أحاول أن أنتبه إلى الطريقة التي يقع فيها الكتاب فيما يجب أن يرفضه. ولذا أشكرك على تفاعل الصريح.

لقد كنت أحاول تجنب كل سذاجة عاطفية وتفاهة وانغماس ذاتي. ألا أخشى من إثارة عواطف كبيرة، ولكن أن أفعل ذلك بمسؤولية كثيرا ما كنت أشعر بأنها مهمة أكبر مني، وربما أنني لست متمكنة من الكتابة بالقدر الذي يجعلني أنطلق. وقد تعددت طموحاتي لهذا الكتاب على عدة مستويات، وكنت متأهبة لمواجهة قصوري، يدفعني إحساس قوي بالمخاطر التي صاحبتني مثلاً عند الحديث عن الملائكة. ربما أكون قد تجاوزت حدود نفسي، أخرجت نفسي، مجال البحث، أيا ما كان الأمر، بنزعة نسوية متسربة، تجاوز للحدود. والآن وقد أرسلت مراجعتي النهائية (أكتوبر 1996) أجد نفسي أمام فشل النص في تحقيق أهدافه الطموحة، مع نوع من الإحساس بالسلام الداخلي. عبر قراءة والتر بنجامين أرى أن الكتاب "تألف من بدايته" وأستشهد بقولي من الكتاب قائلة "أكثر مما يجب، أقل مما يجب، متعجل أكثر مما يجب، متأخر أكثر مما يجب".

تقول إن الكتاب "يضغط على القراء لقبول أفكاره" ومليء بأبعاد "أوزيو" (Ozhio) عن "كريس وباتي متقافزين على الطريق الطوبى الأصفر لرؤية الساحر ، بأجنحة ملائكية مضافة." إنه أشبه برأي ناقدة فن الرقص أرلين كروتشي (Arlene Croce ، 1994/1995) بشأن عمل بيل ت . جونز (Bill T. Jones ، Still Here) ، حيث تكتب عن كيفية قيام منظور الشخص غير المؤمن بإنكار الشرعية فيما يتعلق بفن "القهر" الذي يضع القارئ غير الراضي عن العمل في موقع ذات غير قابلة للتحقق.¹

لقد وجدت أنت البلاغة اللاهوتية تحديدا قسرية. إنه أكثر كتيبى نزعة كاثوليكية بالتأكيد، ولكنني أعقتُ ذلك المسار عبر "الرب كخطاب متاح" و"وعي روحاني مابعد ويكي" [وهي عقيدة تتخذ من الديانات الأوروبية ما قبل المسيحية أساسا لها]. وقد كنت حريصة جدا على استخدام الملائكة لإعاقة ما لدينا من "تعاليم لاهوتية متخفية": التقدم ، والخلص العلماني عبر "المعرفة كعلاج" ، والعلم الذي يحل محل الرب ، ... إلخ.

إنك ترى الملائكة كعلامة على "النزعة الترانسندنالية السهلة" (Bloom ، 1996) ، ولكنني أستخدم كلا من بنجامين وريلكه لمحاولة القيام بشيء آخر ، حركة تغريب اعتمادا على حب بنجامين للوحة بول كلي "أنجيلوس نوفوس" (Paul Klee ، Angelus Novus) والتي وصفها بنجامين على أنها تواجه إلى الخلف كارثة الماضي ، رغبة في جعل ما تحطم يعود كلا كاملا ، ولكن مع التورط في عنف عاصفة التقدم التي تحمل الملاك إلى المستقبل ، Benjamin ، 1968).

إن مفتاح فهم علم الملاك لدى بنجامين هو ما يذكره بول دي مان (Paul de Man ، 1986) ، عن ميل بنجامين إلى القيام في نفس الوقت باستخدام أنماط مألوفة وتغريبها بحيث تشير إلى جاذبيتها الإنسانية بالنسبة لنا . وهو يستخدم تحديدا جاذبية مفهوم المسيح لتغريب إحساسنا بما هو إنساني ، وزعزعة الأصل ، والترجمة مع تجاوز النص الأصلي ، والحفاظ على النص في حالة انتشار

ودوران ، وخلع قيمته الراسخة بجعلنا على وعي بما فيه من أشكال التنافر والتفكك والتكيف والضعف والخديعة والقوالب الثابتة (Paul de Man ، 1986 ، p. 97) . ويعمل بنجامين على نزع القدسية من خلال إضفاء انحرافات على الصور المألوفة لنزع كل ما يتصل بها . إنه التناقض الذي يقع فيه الملاك : تمثيل كيف للغة ألا تستطيع ألا تحمل معنى ، وكيف تؤدي إلى التماهي والذاتية والسرد ، فأستخدم الملاك لا لاسترجاع نموذج مألوف بل لتقديم الملاك تفكيكا معبرا عن تاريخه ، وتعبيرا عن فشله في أن يحمل أي معنى . لقد أردت تفرغ سرديتنا مقدما وأن أجعلها تولد نفسها متجاوزة استحالتها .

إن ما تراه "عقد ألفية تسينه الملائكة" ، فإن رأي بلوم لا يركز على الملائكة بل على ما نصنعه بها . وقد أجهدت نفسي أيضا في التفكير في هذا الاستخدام للدين والأفكار الروحانية عند تناول ما طرحه بنجامين من مجاورة ومقارنة اللاهوت والماركسية في نظريته عن اللغة والمادية . إن وضع الملاك باعتباره محتالا ، وهو عرض يتيح للنزعة الترانسيندينالية المتجاوزة للواقع أن تكون صاحبة الكلمة الخيرة فقط باعتبارها "رمزا للوهم" (rosen ، 1977 ، p. 38) ، هو وضع يعمل على تسليط الضوء على التناقض الحتمي بين العلامة المرئية وصورتها أو معناها ، ووضع ذلك التناقض في محل الصدارة . وإنني إذ فعل ذلك فإنما أخذو حذو بنجامين في محاولته انتحال ما تبقى من ثقافة دينية تحتضر ، وخاصة في تياراتها الصوفية النقية ، بإضفاء شكل علماني عليها بما يجعلها متاحة مرة أخرى عبر ترجمة أطلالها .

لقد وجدت من المثير للاهتمام أن ما لفت انتباهك هو ملحوظة بحثية وردت في الجزء الثالث من سلسلة الحكايات ، وهو ما اعتبرته أنا ربما أكثر لمحة بحثية تقليدية في الكتاب ، "تنظير" حيوات الآخرين ، و"تحديد موقعهم" ضمن عرض الأدبيات ، ... إلخ . لقد كان ذلك نوعا من حركة "التحليل مع التعرض للمحو" . فمن خلال عرض مقتطفات من تسجيلات المقابلات وتداخلها بحيث توجد رواية من الحيز المشترك و"الأفكار الناشئة" ، أرى أن الشذرات المأخوذة

من تسجيلات المقابلات تنتج محاكاة ساخرة لنص بلا وساطة، تمثيلاً بالمحاكاة. إن استخدام الصمت لملء الفجوات حيث يكون من المتوقع إيجاد تعليق من الباحثة أو الباحث هي استراتيجية لمقاومة سلطة "شهادة أهل الخبرة"، ثم القيام بمجاورة ومقارنة ذلك ببعض أجزاء النص السفلي الساري، حيث أقوم أنا وكريس حقاً بـ"قول ما تعنيه الأشياء"، فإنما نقلد أشكال شهادة أهل الخبرة، مع تعرضها للمحو، ووضع النظرة للعرض، وجعلها قابلة للمحاسبة.

إنك تثير مسألة عدم القدرة على تتبع نفس الشخص، وهو تشييء يجعل النساء مجهولات، حيث نحيط أصواتهن بأشخاص "حقيقيين"، وهي طبيعة الروايات الأشبه بـ"البيان الصحفي". عن مساعي هنا كان استبدال نظرية الإرجاء (de-ferral)، لتحل محلها نظرية الجوهر. وباعتباره عملاً أقرب إلى الإرجاء من التصوير، فالكتاب بالتالي غير قابل للاختزال تبعاً لمفهوم الواقع. إنه تفكير من منطلق الإرجاء، وتعقيد للغة الوجود: إنه طموح فكري رهيب يستدعي بالضرورة عدم الالتزام بمسار مباشر، انحراف عن الطريق وتأخر لإعاقعة المسعى إلى الوجود. إنه فرض للتعقيدات الجذرية لأية حكاية تعدنا بنقل رسالة ما إلى المرسل إليه الصحيح - أي استسلام وتسليم لدعوى بساطة الوجود. فبدون مركز، كيف لمثل هذا الشيء أن يبدو للعيان؟

لقد كان هدفي هو الوصول إلى ممارسة تتجاوز نية المؤلف أو المؤلفة وقدرة القارئة أو القارئ التأويلية في إنتاج عمل لا عظيم. إنها ممارسة معقدة وطموحة، ومكان للأشباح والأطلال لا الوعي. وفي إطار هذا الطموح قلقت بشأن المعايير العليا التي تحول دون الانتهاء من العمل أبداً.

وعند تقييم فاعليته، أفترض أننا ننجز بذلك من بعض الأسئلة الوضعية غير المحكمة. إنني من خلال خلق التمثيلات لمجرد وضع قصورها في الصدارة إنما أرسل رسالة أساسية وهي ألا شيء بوسعها أن ينجينا من عدم إدراكنا. وهو أمر لا يمكن تنحيته جانباً، وإنما يجب إدراكه والتعامل معه من كافة الجوانب، إنها أشكال لا نستطيع قراءتها بشكل مستقر كما يحلو لنا، وربما تكون في أفضل

حالاتها مدونات متحولة ومتنقلة. إن مقدار انفصالي مسبقا/حاليا إنما هو في انفصام العمل عن نفسه.

وإنني أمل لقرائي الحصول على ما هو أكثر من قراءة لا تجد سوى ما تبحث عنه، ربما أمل في قراءة تثير الدهشة، أمل في مكان يشهد انفصالا منفرجا، بحيث يجبرنا النص على رؤية ما نراه خارج إطار عادات القراءة الحتمية، أمل في قراءة تختلف أو تفوق ما نريده منها، دوما فائقة ومختلفة، متحولة ومتغيرة.

وعند الاستماع إلى ردود أفعال القراء، يكون هدفي عدم التعبير بنبرة اعتذارية أو ساخرة، في محاولة لتحديد معالم شيء يجمع بين الكون والجسد. وقد تم المرور بالعديد من المجازفات، والمخاطرة بالتعرض للإجراج، سعيا لتفعيل رغبة التأويل في تحقيق السيادة والعظمة في وجه مقاومة الشيء للفهم التام بواسطة آلية التأويل، وعالم لن يسمح لنا جزئيا بولوجه. لقد كان الشاعر الذي أكرره هو مقولة موريس بلانشو "هذا العمل بعيد عني" (Maurice Blanchot، 1982، p. 126). وقد كنت أشعر على الدوام بعجزني عن إعطاء الموضوع حق قدره، وفي محاولتي لوقف نزعتي الرومانسية، رأيت أن مهمتي المحورية في أن أكون عن عمد غير مفهومة داخل الأطر المتعارف عليها، وذلك كي أنتج كتابا عن الوقائع المتنقلة والمتعددة، كتابا عنيدا يعاكس الرغبة في الإجابة التأويلية ويورط الجمهور بدلا من الإقناع أو الإغراء.

إنني أرى نفسي حضورا موجودا إراديا في الكتاب بدلا من أن أكون عارفة تملك سلطة بما يجب قوله وفعله. ومع ما فيه من مجازفة "كالمجد أو الجرم" (Melville، 1996، quoting Stanley Cavell) فإن المخاطر علم يتشكل في نوع من المادية التي تدرك غياب الأشياء وعدم براءة جهودنا لأن نعرف.

1-إن عرض بيلت. جونز الراقص (Bill T. Jones, Still/Here) يدور حول الحياة مع مرض يهددنا بالموت. وقد قامت أرلين كروتشي (Arlene Croce, 1994/1995)، وهي ناقدة لفن الرقص في صحيفة "نيويورك" (New Yorker) بتسعال عاصفة نارية برفضها كتابة عرض نقدي لما اسمه "فن الضحية". وللأسف فإن الموقف الذي كان من الممكن أن يفتح مجالا لمناقشة قضايا مهمة بشأن موقع الذات من شهادة شخصية مرعبة انحرف مساره بسبب قرارها باتخاذ موقفها من العرض دون مشاهدته.

المراجع

- Alcoff, Linda Martin. (1997). The politics of postmodern feminism, revisited. *Cultural Critique*, 36, 5-27.
- Baudrillard, Jean. (1999). *Simulacra and simulation* (Sheila Faria Glaser, Trans.). Ann Arbor: University of Michigan Press. (Original work published 1981)
- Benjamin, Walter. (1968). Theses on the philosophy of history. In Hanah Arendt (Ed.), *Illuminations* (pp. 253-264). New York: Schocken Books. (Original work published 1940)
- Blanchot, Maurice. (1982). *The space of literature* (Ann Smock, Trans.). Lincoln: University of Nebraska Press. (Original work published 1955)
- Bloom, Harold. (1996). *Omens of millennium: The gnosis of angels, dreams and resurrection*. New York: Riverhead Books.
- Butler, Judith. (1990). *Gender trouble: Feminism and the subversion of identity*. New York: Routledge.
- Butler, Judith. (1992). Contingent foundations. Feminism and the question of post-modernism. In Judith Butler & Joan W. Scott (Eds.), *Feminists theorize the political* (pp. 3-21). New York: Routledge.
- Butler, Judith. (1993). *Bodies that matter: On the discursive limits of "sex."* New York: Routledge.
- Caputo, John. (1997). *Deconstruction in a nutshell: A conversation with Jacques Derrida*. New York: Fordham University Press.
- Cixous, Hélène, & Clément, Catherine. (1996). *The newly born woman* (Betsy Wing, Trans.; Introduction by Sandra M. Gilbert). Minneapolis: University of Minnesota Press. (Original work published 1975)
- Cosgrove, Lisa. (2002). Resisting essentialism in feminist therapy theory: Some epistemological considerations. *Women and therapy*, 25(1), 89-112.
- Cosgrove, Lisa. (2003). Feminism, postmodernism, and psychological research. *Hypatia*, 18, 85-247.

- Croce, Arlene. (1994/1995, December–January). Discussing the undiscussable. *New Yorker*, pp. 54–60.
- de Man, Paul. (1986). *The resistance to theory*. Minneapolis: University of Minnesota Press.
- Derrida, Jacques. (1966). The decentering event and social thought. In A. Bass (Trans.), *Writing and difference* (pp. 278–282). Chicago: University of Chicago Press. (Original work published 1968)
- Du Bois, Page. (1988). *Sowing the body: Psychoanalysis and ancient representations of women*. Chicago: University of Chicago Press.
- Fairfield, Susan, Layton, Lynne, & Stack, Carolyn. (Eds.). (2002). *Bringing the plague: Toward a postmodern psychoanalysis*. New York: Other Press.
- Foucault, Michel. (1978). *This history of sexuality: An introduction* (Vol. 1). New York: Vintage Books.
- Goffman, Erving. (1959). *The presentation of self in everyday life*. Garden City, New York: Doubleday.
- Haraway, Donna. (1991). *Simians, cyborgs, and women: The reinvention of nature*. New York: Routledge.
- Hekman, Susan. (1991). Reconstituting the subject: Feminism, modernism, and post-modernism. *Hypatia*, 6, 44–63.
- Hekman, Susan. (1999). *The future of differences: Truth and method in feminist theory*. Malden, MA: Blackwell.
- Hepburn, Alexa. (1999). Postmodernity and the politics of feminist psychology. *Radical Psychology*, 1(2). Retrieved June 30, 2005, from www.radpsynet.org/journal/v011-2/hepburn.html
- Herbold, Sarah. (1995). Well-placed reflections: (Post) modern woman as a symptom of (post) modern man. *Signs*, 21, 83–115.
- Hesse-Biber, Sharlene Nagy, & Leavy, Patricia. (2006). *The practice of qualitative research*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Irigaray, Luce. (1985). The power of discourse and the subordination of the feminine. In *This sex which is not one* (pp. 68–85, Catherine Porter & Carolyn Burke, Trans.). Ithaca, NY: Cornell University Press.
- Jameson, Frederic. (1984). Postmodernism, or, the cultural logic of late capitalism. *New Left Review*, 146, 59–92.

- Kristeva, Julia. (1980). *Desire in language: A semiotic approach to literature and art* (Thomas Goray, Alica Jardine, & Leon S. Roudiez, Trans.). New York: Columbia University Press.
- Lather, Patti. (1991). *Getting smart: Feminist research and pedagogy within/in the postmodern*. New York: Routledge.
- Lather, Patti. (1995). Troubling angels: Interpretive and textual strategies in researching the lives of women with HIV/AIDS. *Qualitative Inquiry*, 1(1), 41–68.
- Lather, Patti. (2007). *Getting lost: Feminist efforts toward a double(d) science*. Albany: State University of New York Press.
- Lather, Patti, & Smithies, Chris. (1997). *Troubling the angels: Women living with HIV/AIDS*. Boulder, CO: Westview Press.
- Layton, Lynne. (1998). *Who's that girl? Who's that boy? Clinical practice meets post-modern gender theory*. Northvale, NJ: Jason Aronson.
- Lyotard, Jean-François. (1984). *The postmodern condition: A report on knowledge* (Geoff Bennington & Brian Massumi, Trans.). Minneapolis: University of Minnesota Press. (Original work published 1979)
- Melville, Stephen. (1996). Color has not yet been named: Objectivity in deconstruction. In Jeremy Gilbert-Rolfe & Stephen Melville (Eds.), *Seams: Art as a philosophical context (Critical voices in art, theory and culture)* (pp. 129–146). Amsterdam: G&B Arts. (Introduced by Jeremy Gilbert-Rolfe)
- Pfohl, Stephen. (1992). *Death at the Parasite Café*. New York: St. Martin's Press.
- Poovey, Mary. (1992). Feminism and postmodernism: Another view. *Boundary 2*, 19, 34–52.
- Prior, Lindsay. (1997). Following in Foucault's footsteps: Text and context in qualitative research. In David Silverman (Ed.), *Qualitative research: Theory, method and practice* (pp. 63–79). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Pujal, i Llobart Margot. (1998). Feminist psychology or the history of a nonfeminist practice. In Erica Burman (Ed.), *Deconstructing feminist psychology*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Rosen, Charles. (1977, November 10). The ruins of Walter Benjamin [Review of the book *The Origin of German Tragic Drama*]. *New York Review of Books*, 24(17), 30–40.
- Scott, Joan W. (1992). Experience. In Judith Bulter & Joan W. Scott (Eds.), *Feminists theorize the political* (pp. 22–40). London: Routledge.

- Spivak, Gayatri. (1976). Translator's preface. In Jacques Derrida, *Of grammatology* (pp. ix–xc). Baltimore: Johns Hopkins University Press.
- Storey, John. (1996). *Cultural studies & the study of popular culture: Theories and methods*. Athens: University of Georgia Press.
- Ussher, Jane M. (1999). Eclecticism and methodological pluralism: The way forward for feminist research. *Psychology of Women Quarterly*, 23, 41–46.
- Zita, Jacquelyn N. (1989). The premenstrual syndrome: “Dis-easing” the female cycle. In Nancy Tuana (Ed.), *Feminism & science* (pp. 182–210). Bloomington: Indiana University Press.

الباب الثاني

مقاربات نسوية

إلى

المنهجيات ومناهج البحث

الفصل الخامس

عقد المقابلات النسوية المعمقة

شارلين ناجي هيسي-بايبر

حكاية اللياقة البدنية

إعداد المشهد

الساعة تقارب الثالثة مساءً في الجيمنازيوم (مركز التمارين الرياضية) في انتظار عقد مقابلة مع أنيت، مدربة اللياقة البدنية. وهو تعمل في مجال اللياقة البدنية منذ ما يزيد على العشرين عاماً، كما تعمل مدربة للياقة البدنية بشكل شخصي لعدد من النساء وغالبية زبائنهن من النساء الموهبات البيض. وتمثل هي نفسها صورة مثالية بالغة حد الكمال، إذ لا يحمل جسدها جراماً من الدهون، وتسعى زبائنهن للوصول إلى نفس هيئتها الجسدية، فطولها خمس أقدام وثلاث بوصات، وذراعها مرسومتان بدقة، بطنها مستو وعضلاتها متناسقة في جسدها بأكمله. فكثيراً ما أسمع زبائنهن يرددن بنبرة مازحة: "أريد جسديك"! وقد وافقت أنيت على الحديث معي بشأن تجاربها كمدربة، وأنا أعرفها منذ سنوات، إذ حضرنا تدريبات كثيرة معاً وخاصة في اليوجا. ولدي ما يمكن تسميته بصداقة عابرة من خلال الجيمنازيوم، وتربطنا ما اعتبره معرفة أكثر منه صداقة. وقد أوضحت لها أنني مهتمة بفهم قضايا صورة الجسد لدى النساء. وقد

انتقلنا إلى حجرة هادئة أعلى مركز التدريب ، بعيدا عن الحركة والضوضاء في قاعة التدريب . وقد سمحت لي آنيت بتسجيل المقابلة على شريط كاسيت ، وفيما يلي مقطع من مقابلة طويلة عقدتها مع آنيت واستغرقت حوالي ساعتين .

فما الذي تريده النساء منك حين يأتين إليك؟

آنيت: حسنا ، تختلف النساء في ذلك تبعا للاختلافات فيما بينهن . فالكثيرات يردن التغيير التام . وأنا أحاول أن أجد في جسد كل واحدة موضعا تحبه ، موضعا في جسدها تتفاعل معه بشكل إيجابي . وبعضهن يفقدن حتى إلى موضع واحد يمكنهن التفاعل معه بشكل إيجابي . يردن تغييره تماما .

وكيف يكون ذلك؟

آنيت: يردنه أصغر حجما ، يردنه أكثر تماسكا . كما تعلمين ، يردن النقص ، أو يردن الزيادة . ولكن الغالبية تريد النقص .

هل من مواضع معينة؟

آنيت: المؤخرة والأرداف .

حسنا ، وهل تعتقدين أنهن سيحققن تلك الصورة المثالية؟

آنيت: لا تلك هي الخدعة الدفينة ، فالنموذج المثالي مستحيل التحقيق ، والأهداف غير ممكنة . ربما تبلغ النسبة 1 من 500 . فكم عدد الأجساد المثالية بالغة الكمال طبقا للمعايير السائدة؟ وكم عدد الأجساد الجميلة والأشخاص بارعي الجمال فيمن ترينهم حولك؟ 1 من 500؟

فما الذي يجعلهن يأتين إليك؟

أنيت: أي شيء وكل شيء تقريبا. بل وإيذاء الآخرين لتحقيقه. إذ يحدث تعارك على جهاز المشي، وتعارك على الأماكن في قاعة الأيروبيك، وتعارك على المقاعد. أعني أن الأجواء العامة عصبية.

هل يمكنك أن تعطيني مثلا على نموذج متكرر لامرأة تأتي للتدريب معك؟

أنيت: يوجد مثال جيد مما حدث صباح اليوم. جاءت امرأة اليوم. وأنت تعلمين مقصدي، فأنا أحاول تعليم الناس الاستمتاع بالعملية بأكملها. فالغاية في الواقع غير قابلة للتحقق الملموس لأن تلك الغاية تكون في ذهنك وترغبين في تحقيقها. فبدلا من أن أقول لهن إنك لن تحققي ذلك أبدا، بما يحمله ذلك من شعور بالضالة، فإنني أفضل التركيز على العملية والاستمتاع بالعملية نفسها. ولكن جاءني صباح اليوم امرأة زائدة الوزن، وقد كانت أقل وزنا، ولكن كما تعلمين فكما زاد وزنك كنت أقل وزنا في الماضي، وبالتالي فقد كنت أفضل حالا... أعتقد أنها بذلت جهدا كي تأتي أصلا إلى الجيمنازيوم. وهي تريد أن تصبح أقل وزنا. تريد التخلص من المؤخرة والأرداف، فقد زاد وزنها في المؤخرة والأرداف. وهي تزن حوالي 200 رطل، وهي سبب كاف للقلق حتى من وجهة النظر الصحية... وكانت تريد في الواقع تغيير جسدها. ولكني أخبرتها أنها لن تتمكن من تغيير البنية الوراثة لجسدها، ولكن يمكننا أن نزيد جسدها تماسكا، وأنها يجب أن تقوم بذلك دون عجالة. فهو ما فهمته منها، هي لم تخبرني بأنها تريد أن ترى النتيجة فورا، ولكني أدركته بالحدس، فهي قلقة من اقتراب الصيف، فماذا ستفعل حينها؟

إذن فقد جاءتك من أجل نوع من تغيير الجسد؟

أنيت: صحيح. إذا كنت -عموما- تحاولين تحقيق هدف محال، فإنك تكونين أيضا غير واقعية فيما يخصك أنت نفسك. أعني أنك لن تستطيعي أن تري نفسك كما أنت، وإنما ترين نفسك من منظور الأمر الذي أتى بك هنا. فإذا أتيت محملة بالكثير من الإحساس بالخلل، فسوف تنظرين إلى نفسك نظرة مليئة بالخلل.

النسوية وعقد المقابلات الشخصية

باعتباري نسوية أقوم بعقد مقابلات شخصية أهتم فيها بالتوصل إلى المعرفة المستضعفة لواقع النساء لنساء على تنوعهن، تلك المعرفة التي كثيرا ما تظل مخفية وغير معبر عنها. وأقوم بطرح أسئلة وتناول قضايا ذات اهتمام خاص بالنسبة لحيوات النساء، وأنا مهتمة بقضايا التغيير الاجتماعي والعدالة الاجتماعية من أجل النساء وغيرهن من الفئات المهمورة. وباعتباري نسوية أقوم بعقد مقابلات شخصية فإنني واعية بطبيعة علاقتي بالنساء اللاتي أقوم بعقد مقابلات معهن، وحريصة على فهم موقعيتي الشخصية والبحثية، والدور الذي ألعبه خلال المقابلة من حيث ما أتمتع به من سلطة في سياق المقابلة. فأنا أدرك، على سبيل المثال، في مقابلاتي مع أنيت مدربة اللياقة البدنية، أنني أقوم بذلك من موقع كوني "من الداخل" و"من الخارج" (an "insider" and an "outsider")، فأنا جزء من عالم اللياقة البدنية لكوني عضوة في مركز أنيت لتمرينات اللياقة البدنية، ولكني أيضا باحثة تعيش في عالم اجتماعي مغاير لعالم أنيت. وأنا أ طرح أسئلة معينة على أنيت، أي إن لي برنامجا وأجندة خاصة بي، فأنا أريد أن أعرف "شيئا ما". ولكنني منفتحة في نوعية الأسئلة التي أ طرحها على أنيت، فهي ليست أسئلة تتطلب إجابة بـ "نعم" أو "لا"، ولا أ طرح أسئلة تتضمن مجموعة من الإجابات تختار هي من بينها. وأقوم بعقد المقابلة طبقا لما يصطلح عليه في المقابلات الشخصية بمصطلح المقابلة غير محكمة البناء (unstructured interview)، فأحيانا تأتي أسئلتي استجابة

لما تخبرني هي به، أو أقوم باستيضاح أمر ما في إحدى إجاباتها. ولكن مع ذلك لدي بعض التصورات المحددة لما أريد التوصل إليه، ولكني لا أحمل مجموعة محددة من عناصر الاستبيان أنطلق منها. وأنا أميل إلى "المضي مع مسار" المقابلة فأتركها تقودني إلى حيث تمضي. ولكنني في هذه المقابلة لا أتعلم في تتبع مشاعر أنيت بشأن قيامها بتمرينات مع هؤلاء النساء تحديداً، وإنما تتبدى مشاعرها تجاه النساء وأجسادهن من خلال الحوار الدائر بيننا.

إن عقد المقابلات الشخصية هو منهج بحثي (research method) ذو أهمية خاصة، يمكن للباحثات النسويات استخدامه لاكتساب معرفة عميقة بعالم المستجيبات للمقابلات. فهو منهج تستخدمه نسويات يعملن في نطاق واسع من العلوم الاجتماعية والطبيعية، من علم الأنثروبولوجيا حيث تقوم الباحثة بالعمل الميداني داخل ثقافة ما، مروراً بعلم الاجتماع حيث تسعى الباحثة النسوية إلى اكتساب منظور جديد بشأن حيوات المستجيبات ممن يعشن في مجتمع أو مجموعة ما، وكذلك مجال التمريض والطب حيث ترغب المرضات والطبيبات في فهم أثر بعض الأمراض وأساليب العلاج على قدرة بعض المريضات على التعامل مع حياتهن اليومية على سبيل المثال. كما تتم الاستعانة أيضاً بالمقابلات الشخصية بواسطة الباحثات النسويات في مجال الاستطلاعات ودراسات السوق، على أمل إمكانية تعميم نتائج أبحاثهن فيما يتعلق بقضايا النساء على قطاع أكبر من السكان. وهكذا على سبيل المثال تهتم باحثات الاستطلاع النسويات اهتماماً خاصاً بفهم مواقف الرأي العام تجاه العنف ضد النساء، بصرف النظر عما إذا كان الرأي العام مؤيداً لزيادة مخصصات الإنفاق على البحث في قضايا صحة النساء. إنها مجرد أمثلة محدودة على المجالات التي تلعب فيها المقابلات الشخصية دوراً مهماً في التوصل إلى فهم أفضل للأوضاع الإنسانية. وفي إمكاننا أن نرى أن نطاق المقابلات الشخصية التي تقوم بها النسويات يمتد من تلك المقابلات غير محكمة البناء والمعمقة انتهاءً بمجموعة محددة من الأسئلة التي تنطوي ضمن إطار الاستطلاع.

أنواع المقابلات الشخصية

تتخذ المقابلات أشكالاً متنوعة، ويمكننا أن نتصور منهج المقابلة الشخصية باعتباره "ممتداً" من "غير الرسمي" إلى "الرسمي". والمقابلة غير الرسمية (informal inter-view) ، تعتمد على قدر قليل من البناء المحكم، ويتم استخدام هذا النوع من المقابلات عادة لبناء علاقة مع المستجيبين للبحث، ولاستكشاف ما يمكن أن يمثل موضوعات ذات صلة بالبحث لها أهمية بالنسبة لهم، وكذلك يستخدم للكشف عن الموضوعات التي قد يسهو عنها الباحث أو الباحثة. فعلى سبيل المثال، في حالة ما إذا كنت لم يسبق لي التعرف على أنيت، ولم أكن أعرف سوى القليل عن دور تمارين اللياقة البدنية في علاقتها بصورة الجسد لدى النساء، عندها كنت سأبدأ المقابلة بطرح مجموعة من الأسئلة لبناء قدر من الثقة ببني وبين أنيت، وكانت تلك الأسئلة ستسعى أيضاً إلى إتاحة المجال لها للحديث عما تعتبره ذا أهمية، والتعبير عن مشاعرها بشأن التدريب عموماً وقيامها بتمارين مع زبائن معينات. وكنت سأبدأ حينها المقابلة بالنوعية التالية من الأسئلة المفتوحة (open-ended questions):

• "هل لك أن تخبريني كيف أصبحت مدربة؟"

• "ما طبيعة العمل بالتدريب؟"

• "كيف حدث أن بدأت العمل بالتدريب في هذا النادي الرياضي؟"

أما المقابلات غير محكمة البناء (unstructured interview) فهي تماثل تلك التي عقدتها مع أنيت، بحيث يكون لدي خطة أساسية في ذهني للمقابلة، ولكنني أتمتع بأقل قدر من التحكم في كيفية رد المستجيب (respondent) على الأسئلة. وعادة ما أقوم في المقابلة بتتبع المستجيبين، فأتابعهم إلى حيث يريدونني أن أمضي معهم، مع احتفاظي بالموضوع بأكمله في ذهني. ومن هنا يمكنني حينها أن أطرح الأسئلة التالية:

- “هل تعتقد أن لدي النساء توقعات غير واقعية بشأن ما يمكنهن عمله في أجسادهن؟”
- “ولماذا تعتقد أن الأمر كذلك؟”

في هذا النموذج ينصب اهتمامي في المقابلة على الموضوع العام الخاص بالتصورات الموجودة لدى المدربات بشأن زبائنهن ، وكيف يرين التوقعات حول التغير الذي يطرأ على أجسادهن خلال جلسات التمرين؟

أما المقابلة شبه محكمة البناء (semistructured) فتتم مع إعداد دليل خاص للمقابلة يتضمن قائمة من الأسئلة المكتوبة التي أحتاج إلى تغطيتها خلال مقابلة ما . ولا أكون حريصة على إتباع ترتيب تلك الأسئلة ، وإنما يكون من المهم أن أغطيها خلال المقابلة . وأتمتع حينها بقدر من التحكم في كيفية صياغة بنية المقابلة وكيفية استجابة المستجيبة ، ولكنني أظل مع ذلك مستعدة لطرح أسئلة جديدة خلال المقابلة . فيكون لي أجندة أو برنامج ، ولكن دون أن يكون محكما مع ترك مساحة للتلقائية من جانب الباحثة والمستجيبة للمقابلة .

- “هل تعتقد أن النساء اللاتي يأتين إليك لديهن توقعات غير واقعية بشأن تغير أجسادهن؟ ولماذا؟”

- “إلى أي حد تكون النساء غير واقعات بشأن أجسادهن؟ أو واقعات؟”

- “ولماذا تعتقد أن الأمر كذلك؟”

- “هل تقبلين تدريب شخص ما تعتقد في إصابته باضطراب في الأكل؟ لماذا تقبلين أو لا تقبلين ذلك؟”

هذه بعض الأسئلة التي يمكن أن أحاول طرحها في مقابلي مع أنيت (تعبير عن أجندتي) ، ولكنني لن أكون مهمومة بتوقيت طرحها . الأفضل ألا أقاطع مسار المقابلة وإنما أن أحاول تضمينها في اللحظة التي أشعر فيها بوجود مساحة جديدة لها خلال الحوار .

أما المقابلة محكمة البناء (structured) فهي تلك التي تتمتع فيها الباحثة بالتحكم التام في برنامج المقابلة، فيتم طرح الأسئلة نفسها وبنفس الترتيب على المستجيبين. وتكون الأسئلة أحيانا مفتوحة (open-ended)، كالأسئلة التي طرحتها على أنيت، ولكن الكثير منها يكون مغلقا (closed-ended) يتضمن مجموعة من الاختيارات الثابتة، كالآتي:

• "في المتوسط، ما عدد زبائنك ممن يعترف بوجود مشكلة لديهم مع صورة أجسادهم؟

'الكثير'، 'البعض'، 'القليل'، 'لا يوجد'؟"

• في المتوسط، ما عدد زبائنك ممن ترين أنهم يعانون من أحد اضطرابات الأكل؟

'الكثير'، 'البعض'، 'القليل'، 'لا يوجد'؟"

• "أي مما يلي يصف مشاعرك الحالية تجاه صورة جسدك؟

'سعيدة جدا'، 'سعيدة'، 'سعيدة نوعا ما'، 'غير سعيدة'."

وأطلب حينها من المستجيبة أن تختار واحدا فقط من بين تلك الاختيارات عند الإجابة على السؤال. ويمكننا استخدام السؤال الأول للتعرف على مدى تكرار ظهور تصرفات ما لدى زبائن أنيت، وبالتالي نصل إلى تصور عام لزبائننا من حيث تكرار صورة الجسد ومشاكل الأكل بين زبائننا ككل. ويمكننا أن نرى في النقطة الثالثة سؤالا عن المواقف بما يحدد مشاعر أنيت وإحساسها بصورة جسدها. وفي هذا السؤال أنا لا أطلب من أنيت أن تتحدث عن مشاعرها بالتفصيل، وإنما أريدها أن تستجيب إلى إجابة محددة الاختيارات. وأقوم بطرح الأسئلة في ترتيبها القائم هنا ولن أغير من الترتيب حين أبدأ في عقد مقابلات مع مدربات أخريات للباقة البدنية.

ويمكننا أن نرى هنا عددا من الأشكال المتنوعة لعقد المقابلات. فأيهما الأفضل؟ تعتمد الإجابة على هذا السؤال على الأهداف الشاملة لمشروعك البحثي. إن الانتقال من الطرف غير الرسمي لعقد المقابلات إلى الطرف الأكثر إحكاما ورسمية هو انتقال

من هدف المشروع القائم على جمع المادة جمعا استكشافيا والفهم المتعمق ، إلى ما هو أقرب إلى مجموعة أهداف لاختبار النظرية . وتقوم النسويات باستخدام هذين الشكلين من أشكال المقابلات . وكما سنلاحظ في الفصل العاشر (حول البحث الاستطلاعي) ، فإن النسويات يطلقن أسئلة تتطلب مقابلات محكمة البناء لاختبار العلاقات الكامنة داخل البيانات ، وهي مقابلات محكمة البناء تتطلب مجموعات واسعة المدى من البيانات تتضمن نقاطا محددة الاختيارات . أما النسويات اللاتي يقمن بأبحاث تتضمن مناهج مختلطة (mixed-methods research) ، كما سنرى في الفصل التاسع ، قد يضطرون أيضا إلى الجمع بين هذين الأسلوبين من مناهج عقد المقابلات ، على أن يقوم أحدهما بتسليط الضوء على الآخر . فعلى سبيل المثال ، يمكن للنسويات اكتساب معلومات وأفكار عميقة من المقابلات غير محكمة البناء ، والتي يمكنها أن تكشف لهن عن الأسئلة المحددة التي يحتجن إلى طرحها في بحث استطلاعي ، والنقاط محددة الاختيارات التي يجب أن يتضمنها الاستطلاع .

إن تلك الأساليب من المقابلات كثيرا ما يكمل أحدها الآخر أو حتى يتم دمجها معا في مشروع بحثي ما . أما ما يجعل كل أسلوب من تلك الأساليب يتسم بالنسوية هو أنواع الأسئلة التي تطرحها النسويات . فمن القضايا التي تهتم الباحثة النسوية هي الأبحاث التي تصل إلى فهم لحيوات النساء وغيرهن من الفئات المهمورة ، والأبحاث التي تدعم العدالة الاجتماعية والتغيير الاجتماعي ، والأبحاث التي تلتفت إلى علاقة الباحثة-المبحوثة ومدى القوة والسلطة الكامنة في دور الباحثة . كما تمارس الباحثات النسويات المطاوعة (reflexivity) على مدار المسار البحثي ، وهي ممارسة تبقى الباحثة أو الباحث على دراية بالواقعية الشخصية للطرف الباحث والطرف المستجيب . كذلك تهتم الباحثات النسويات بقضايا التمثيل (representation) لدى المستجيبة ، فيتم تمثيل الطرف الذي تعقد معه المقابلة من ناحية والذوات البحثية من ناحية أخرى تبعا لكيفية تأويل الباحثة وتقديمها لنتائج البحث ، وهي القضايا التي ننقل إليها فيما يلي .

عقد المقابلات المعمقة: منظور نسوي

سنركز في هذا الفصل على المقابلة المعمقة هي واحدة من الأنواع الثلاثة للمقابلات التي يتم تناولها في هذا الكتاب (وسنعرض في الفصل التالي التاريخ الشفاهي ومقابلات المجموعات المركزة). وتسعى المقابلة المعمقة إلى فهم "التجارب المعيشة" للفرد، ونحرص فيها على التوصل إلى الفهم "الذاتي" (subjective) الذي يضيفه الفرد على موقف ما أو حزمة من الأوضاع القائمة. والمقابلات المعمقة تتمحور حول موضوع ما (issue-oriented)، أي إن الباحث أو الباحثة قد يستخدمان ذلك المنهج لاستكشاف موضوع ما وللحصول من المستجيبين والمستجيبات على معلومات مركزة حول الموضوع. أما منهج المقابلات القائمة على التاريخ الشفاهي (oral history) فيعمل عادة على تناول قصة الحياة الكاملة للمستجيب أو المستجيبة. ومقابلات المجموعات المركزة (focus group)، فتقدم للباحث أو الباحثة فرصة اكتساب المعلومات من مجموعة من الناس في فترة زمنية قصيرة، كما يمكن للباحثة أو الباحث ملاحظة أنماط التفاعلات القائمة بين أعضاء المجموعة فيما يتعلق بموضوع ما.

المقابلة المعمقة

تحرص النسويات تحديداً على التوصل إلى التجارب التي عادة ما تكون مخفية. وتتيح المقابلات المعمقة للباحثة النسوية الوصول إلى أصوات الفئات المهمشة في المجتمع، ومنهم -على سبيل المثال- النساء، والملونون والملونات، والمثليون والمثليات، والفقراء. وتوضح شولاميت رينهartz (Shulamit Reinharz، 1992) كيف يمثل عقد المقابلات طريقة سعت الباحثات النسويات بها للوصول إلى المعرفة الخفية لدى النساء:

إن عقد المقابلات يتيح للباحثات والباحثين الوصول إلى آراء الناس وأفكارهم وذاكراتهم كما يعبرون عنها بكلماتهم هم بدلا من كلمات الباحثة أو الباحث.

وهي ميزة تتسم بأهمية خاصة عند دراسة النساء لأن هذه الطريقة للتعليم من النساء تعالج قرونا شهدت تجاهل آراء النساء تماما أو قيام الرجال بالحديث نيابة عن النساء . (Shulamit Reinharz ، 1992 ، 19)

إعداد خطة دراسة لمقابلة معمقة

• ما سؤال البحث؟

من الأهمية الإشارة إلى أن سؤال البحث سيحدد في الغالب منهجك البحثي . فلنفترض رغبتك في دراسة اضطرابات الأكل بين طلاب الجامعة من موقع نسوي . فإذا أخذنا هذا المنظور في الاعتبار يصبح هدفك البحثي هو فهم الموضوع من وجهة نظر المجموعة الخاضعة للدراسة . فيمكنك -على سبيل المثال- طرح الأسئلة التالية:

• ما "التجربة المعيشة" لعلاقة طالبات الجامعة بالطعام وصورة أجسادهن؟

إن القيام باستطلاع ذي أسئلة مغلقة مستقاة من أدبيات البحث حول هذا الموضوع لن تلتقط التجارب المعيشة لهؤلاء الطالبات . فالاهتمام هنا منصب على حكاياتهن . وقد نقرر البدء بمقابلة غير محكمة البناء للوصول إلى أقصى درجات الفهم للعملية التي تجعل قضايا الأكل وصورة الجسد مسألة متأثرة بالنوع (gendered) ، بل وربما نبداً في بناء آراء نظرية بشأن هذا الموضوع أثناء البحث .

إعداد عينة البحث

إن المنطق الذي يحكم البحث الكيفي (qualitative research) يهتم بالفهم المتعمق ، وعادة ما يتضمن العمل مع عينات صغيرة . فالهدف هو تأمل "العملية" أو "المعاني"

التي يضيفها الأفراد على الموقف الاجتماعي الخاص بهم ، وليس الهدف بالضرورة هو القيام بالتعميم . فعلى سبيل المثال ، فإننا ننتبج مواقف النساء تجاه أجسادهن لا بهدف التعميم بشأن عدد النساء اللاتي يعانين من مشاكل مع صورة الجسد ، وإنما بهدف فهم كيفية معاشتهن لتجربة زيادة الوزن في مجتمع نحيف مثلاً . فما يهمنا هنا هو العملية التي تقوم بها النساء ، أو التي يعجزن -من خلالها- عن التعامل مع صورة أجسادهن ، والطريقة التي يتفاعلن بها مع الرسائل التي يرسلها المجتمع بشأن النحافة عبر وسائل الإعلام ومن يهمن في حياتهن .

وعادة ما يهتم الباحثون والباحثات من مستخدمي منهج البحث الكيفي بانتقاء عينات عمدية أو حكمية . وتعتمد نوعية العينة العمدية المختارة على سؤال البحث مع الأخذ في الاعتبار للموارد المتاحة للباحثة أو الباحث . وقد قام في الواقع مايكل باتون (Michael Patton ، 2002 ، pp. 243-244 ، بتحديد 16 نوعاً مختلفاً من العينات العمدية -pur positive samples) ، مع إمكانية استخدام أكثر من نوع منها داخل بحث كفي ما .

وبينما يتم عقد العديد من المقابلات الكيفية وجها لوجه ، فإنه يمكن عقد البعض بواسطة اتصال هاتفي بل وعبر الإنترنت . ولكن المقابلات التي يتم عقدها بصورة غير شخصية تزيد من صعوبة خلق ألفة بين الباحث أو الباحثة والمستجيبين للمقابلة ، كما يفقد الباحث أو الباحثة حينها أثر الإيماءات البصرية واللفظية ، كالإيماءات الجسدية أو التواصل البصري . وسوف نركز في هذا الفصل على المقابلات الشخصية رغم رغبتنا في لفت الانتباه إلى تلك الخيارات الأخرى كذلك . ويرى مايكل باتون أنه "لا توجد قواعد لحجم العينة في البحث الكيفي" (Patton ، 2002 ، p. 244) ، ويواصل حديثه مشيراً إلى أن جزءاً من تحديد حجم عينتك يعتمد على سؤال البحث ، ومواردك الاقتصادية وعلى السياق الذي يتم فيه مشروعك البحثي (والسؤال المطروح هنا: هل قمت بتغطية الظاهرة موضوع الدراسة؟ وفي حالة قيامك بتحليل لنظرية ما على أرض الواقع: هل أضفت عينات جديدة بناء على المعلومات الناشئة عن البحث؟) . وفي حالة

قيامك بالبحث بتمويل من جهة خاصة أو حكومية ، على سبيل المثال ، فربما يكون لديهم معايير صارمة لما يعتبرونه عينة مقبولة الحجم لمشروع كفي . وفيما يتعلق بحجم العينة يتركنا مايكل باتون مع النصيحة التالية:

إن ملاءمة حجم العينة ، مثلها في ذلك مثل كافة جوانب عملية البحث ، هي مسألة تخضع للمراجعة والتحكيم العلمي ، والتوافق في تأكيد صحة البحث ، والحكم عليه . والأمر الأساسي هنا هو تقديم وصف وشرح وتبرير مفصل لإجراءات الاختيار والتعامل مع عينة البحث وما تتضمنه تلك العملية من قرارات ، بحيث يتوفر لمستخدمي تلك المعلومات والمحكمين السياق المناسب للحكم على العينة . فيجب على الباحث أو مقيم البحث مناقشة أثر العينة على نتائج البحث ، وكذلك أوجه القوة والضعف في إجراءات التعامل مع العينة ، وغيرها من القرارات المتصلة بالإعداد للبحث من حيث علاقتها بتأويل النتائج المذكورة وفهمها . ومما يزيل المخاوف حول العينات صغيرة الحجم هو توخي الحذر لعدم المبالغة في التعميم بناء على العينات العمدية ، مع العمل على تحقيق أكبر قدر من مزايا التعامل مع العينات العميقة والعمدية . (Patton ، 2002 ، p . 246)

الحصول على موافقة واعية

من المهم الحصول على موافقة واعية (informed consent) لكل مستجيبة ومستجيب مقدما بعد شرح طبيعة مشروعك البحثي . فإذا كان مشروعك يتم برعاية جامعة أو مؤسسة ما ، فسيكون لكل جهة منها في الغالب مجلس ما يقوم بمراجعة المشروعات والموافقة على الدراسة لضمان التزامك بالقواعد الأخلاقية التي تكون تلك الجهة قد حددتها مسبقا لحماية الذوات الإنسانية . ورغم ما يتم مسبقا من مناقشة الدراسة والمشاركة الواعية والتطوعية ، فإنه من المهم الإشارة إلى ذلك الأمر قبل بدء المقابلة ،

كما يجب منح المستجيبين والمستجيبات للمقابلة الفرصة الكاملة لطرح الأسئلة، وأن يشعروا أيضا بحرية عدم الإجابة على الأسئلة غير المريحة لهم.

متى يكون لي أن أستخدم دليلا للمقابلة؟

إذا كانت لديك مجموعة محددة من المسائل والقضايا التي ترغبين في مناقشتها مع المستجيبة، فقد تكون حينها الاستعانة بمقابلة ذات بنية أكثر إحكاما هي النهج الأفضل لتحقيق أغراضك. وبكلام آخر، إذا كان لديك برنامج محدد ترغبين في استكشافه خلال المقابلة فقد يفيدك إعداد دليل للمقابلة (interview guide)، ويتضمن دليل المقابلة مجالات للموضوعات والأسئلة التي يود الباحث أو الباحثة من القائمين على المقابلة طرحها خلال المقابلة. ويقترح روبرت وايس (Weiss، 1994) أن يبدأ دليل المقابلة بـ "إطار ملموس" يتم استخدامه لإعداد دليل لعملية عقد المقابلة. وكثيرا ما يكون من المفيد التفكير في موضوعات محددة قبل إعداد واختيار الأسئلة المعينة التي تودين في طرحها خلال المقابلة، وهو الأمر الذي قد يجعل الجزء الابتكاري الخلاق في دليل المقابلة أبسط وأكثر تنظيما. أي يمكن إعداد دليل المقابلة بالبدء بالتركيز على مجالات البحث الأوسع والأكثر تجريدا، ثم صياغة سلسلة من أسئلة المقابلة. فابدئي بكتابة قائمة "أشياء يجب أن أتعرف عليها"، ثم تصبح تلك الموضوعات المختارة "خطا بحثيا" أو "مجالا بحثيا" يمكنك تتبعه خلال المقابلات. ثم يمكنك صياغة وتنظيم أسئلة البحث "للوصول إلى" المعلومات التي قد تتصل بتلك "الخطوط". وهكذا يصير دليل المقابلة في آخر الأمر قائمة بالموضوعات وقد يتضمن كل موضوع منها قائمة من الأسئلة المتصلة بـ "خطوط البحث" التي تم وضعها خلال الإعداد البدئي لدليل المقابلة (Weiss، 1994، p. 48). إن عملية إعداد دليل المقابلة، حتى في حال عدم استخدامه مطلقا، هي أداة مهمة يمكن الاستعانة بها في التحضير للمقابلة، لأنها تساعد عادة في تحديد القضايا المحورية والتوقف أمام الأمور التي قد يرغب الباحث أو الباحثة في طرحها

على المستجيبين والمستجيبات. إن المقابلات الاستطلاعية (pilot interviews) تقدم فرصة للباحثات والباحثين لاختبار مدى فعالية دليل البحث:

• هل دليل المقابلة واضح ومقروء؟

• هل يقوم الدليل بتغطية كافة الموضوعات ذات الاهتمام بالنسبة لك؟

• هل هنالك موضوعات أو أسئلة عامة غائبة عن الدليل؟

وبناء على تجاربك الأولية مع دليل المقابلة، يمكنك لاحقاً تعديل الدليل بما يلائم احتياجاتك بشكل أفضل.

ويتحدث ديفيد كارب (David Karp) عن إعداد أدلة المقابلات باعتبارها عملية تحليلية، كما يرد في المقطع التالي في "ما وراء الستار" (Hesse-Biber & Leavy، 2006):

ما وراء الستار مع ديفيد كارب

أبحث عن الأفكار الرئيسية التي أراها "مجالات للبحث". وهي لا تأتي بالطبع من لا شيء، وذلك لأنني قد قمت بالكثير من العمل المبدئي مسبقاً. وهو أمر بالغ الأهمية حقاً، حيث إنه يغلب على الكثيرين ممن يقومون بعقد مقابلات معقدة أنهم ينظرون إلى عملية إعداد دليل المقابلة بمنطق "حسناً، يجب عليّ التخلص من تلك الخطوة وتنحيها جانبا". بينما أرى أنا تلك المهمة الخاصة باكتشاف مجالات البحث باعتبارها خطوة تحليلية مهمة في مسار البحث، وإذا تحدثنا عن العملية برمتها، أي مرحلة الكتابة، وفي حالتني الخاصة كتابة الكتب أو المقالات، فإن العملية تنتهي بإغلاق دائرة مكتملة لأن كمية الوقت والطاقة التي أضعها في إعداد دليل المقابلة تمثل في الحقيقة صورة مبدئية لما سيتخذ شكل النصوص المحورية التي سأكتبها في نهاية الأمر. ولكنه في المحصلة النهائية

مجرد دليل، ولعل 60% من الأسئلة التي أ طرحها خلال المقابلة ليست موجودة في ذلك الدليل. فأنت في حوار مع شخص ما، وتتمثل فنية القيام بتلك المقابلة المعمقة في معرفة متى يتم تتبع نقطة يقولها الشخص في لحظتها. وبانتهاء المقابلة أود التأكيد من أنه قد تمت تغطية كافة الموضوعات التي أردت تغطيتها، ولكن حصولك على مجرد إجابات للأسئلة الموجودة في الدليل فقط إنما يعني فقدانك الكثير مما كان متاحا لك.

من المهم ألا تتسم أدلة المقابلات بزيادة في الطول أو التفاصيل، فالقصد منها هو أن تكون عاملا مساعدا للباحث، وألا يعتمد عليها بدرجة مبالغ فيها، لأن التركيز على دليل المقابلة نفسه قد يبعد الباحث أو الباحثة عن الانتباه التام إلى المستجيبين. فالقصد من دليل المقابلة هو وجوده بحيث يلمحه الباحث عند الحاجة أو أن يذكره في حالة السهو، دون استخدامه استخداما مباشرا. كما يمكن أن يستخدم دليل المقابلة باعتباره "قائمة" يراجع الباحث أو الباحثة محتوياتها عند نهاية المقابلة، للتأكد من طرح كل موضوعات البحث حتى وإن لم يتم الالتزام بترتيبها الوارد في الدليل. (Weiss، 1994، p. 48)

عقد مقابلة معمقة

يمكن أن تكون المقابلة المعمقة مفيدة تحديدا عندما ترغب الباحثة النسوية في التركيز على مجال ما في حياة الفرد، إذ تميل المقابلة إلى الاكتمال خلال جلسة واحدة، رغم احتمالية عقد جلسات متابعة متعددة للتوسع أو تطوير بعض الأفكار والآراء الواردة في الجلسة الأولى. إن الهدف من المقابلات المكثفة هو جمع بيانات وفيرة من منظور عدد من الأفراد المختارين بشأن موضوع ما. فعلى سبيل المثال، وفي بحثي حول صورة الجسد بين فئات مختلفة من السكان، تولد لدي اهتمام بطريقة حياة الشابات في مرحلة الدراسة الجامعية ومعايشتهن لاضطرابات الأكل خلال الدراسة الجامعية. ولنتأمل

مقطعا من مقابلة عقدتها مع أليسون ، وهي طالبة جامعية بيضاء من الطبقة الوسطى في العشرين من عمرها . وينصب اهتمامي على معرفة المزيد عن تجارب أليسون مع اضطرابات الأكل خلال الدراسة الجامعية ، وتحديدًا كيف أثر انتقالها من المدرسة الثانوية إلى الكلية على تعاملها مع اضطرابات الأكل لديها . وهي أمريكية من أصول آسيوية ، ويأتي ترتيبها الثانية بين خمس أخوات ، إحداهما أخت غير شقيقة من زوجة والدها الثانية . وقد بدأت أليسون الشرهية والاستفراغ (binging and purging) منذ دراستها بالمرحلة الثانوية . وقد تزوج والدها وزوجته الثانية وهي في السنة الدراسية الخامسة ، ولكن طبقا لقولها ”إنه الوقت الذي بدأت فيه تقريبا مشاكل مع الأكل“ . وفي المقطع التالي تتحدث أليسون عن مشاكلها مع الأكل وبوارها الحالية في حياتها كطالبة في كلية مشتركة تضم طلابا وطالبات . والدة أليسون تعاني من الشرهية القهرية (compulsive binge eater) ، ويبدو أن اضطرابات الأكل لديها بدأت في أعقاب طلاقها من والد أليسون . وها نحن ندخل إلى الحوار حيث تبدأ أليسون في الحديث عن اضطراب الشرهية (binge-eating disorder) لديها ، ومشاكل والدتها مع الأكل :

أليسون : لقد كانت والدتي تأكل بشرهية ليلا ، فهي تعاني من الشرهية القهرية . وكنت أراها ، وأعتبر الأمر عاديا . وكان الأمر يحدث على دقائق ، فكانت تنهض ليلا من نومها فتأتي بوعاء كبير من طعام ما ، ثم تلتهمه بأكمله . وأنا أذكر تلك الأصوات جيدا . ذلك إلى جانب أنني كنت أعتبر نفسي سميئة بسبب كثرة ما أكله ، وكانت معدتي تؤلمني وأشعر أنني في حالة سيئة . كما تعلمين . . . كنت خاضعة لها جس الطعام طوال المرحلة الثانوية . ولم أكن أستفرغ سوى ، كما تعلمين ، كمية كبيرة ، ولكنني لم أعتبر ذلك بوليميا . فلم يكن يحدث إلا مرة كل شهرين ، أسبوعين ، أو ما شابه ذلك .

فما الذي حدث حين انتقلت من المدرسة الثانوية إلى الكلية؟

أليسون: مضت السنة الأولى في الكلية بشكل حسن ، وقد كنت خاضعة شيئا ما لهاجس الطعام كما كان حالي سابقا ، ولكني لم أستفرغ مطلقا . وفي السنة الثانية ، بعد ، كما تعلمين ، فقد أخبرتك عن صديقي ، ولم يكن هو موجودا هناك وإنما كنت أنا هناك . فكما تعلمين أصبح ذلك هو العكاز الذي أستند إليه ، كما تعلمين ، واستخدمته بالضبط كما يستخدم مدمن الخمر شرب الخمر . هذا هو ما كنت أفعله .

هل يمكنك أن تخبريني عن مشاعرك خلال تلك الفترة؟

أليسون: في ليلة جمعة كنت وحدي في غرفتي داخل كلية لا تعجبني . تعلمين . لم يكن لي حياة اجتماعية متسعة . كانت لدي صديقة مقربة ، ولكنها لم تكن كافية . كان لي الكثير من المعارف ، ومنها واحدة مقربة حميمة وأهل للثقة ، ولكني لست أدري ، لم يبد الأمر كافيا بصورة ما أو بأخرى .

وعندما قلت ”لم يبد الأمر كافيا بصورة ما أو بأخرى“ ، ماذا كنت تقصدين؟

أليسون: كان موعد تناول الوجبات صعبا دائما لأنني كنت دائما أفرط في الطعام ، وكانت المشكلة تكمن في أنني كنت أحضر المحاضرات دائما من حوالي الساعة 9 وحتى الساعة 12 ، أو ما شابه ذلك ، ثم كان أمامي بقية اليوم . وكنت أحب المدرسة الثانوية لأنه كان هنالك جدول من الساعة كذا وحتى الساعة كذا ، ثم كان المفترض قيامك بأداء الواجبات ، وكان عليك تنظيم وقتك ووضع برنامج للعمل ، ولكني لا أعلم ماذا أفعل ، وأظل أفكر دائما هل أذاكر أكثر مما يجب؟ فأنا أشعر كما لو كنت أذاكر منذ الأزل ، ولكني إن لم أفعل فسأشعر بالذنب . ولم أكن أدري ماذا أفعل بنفسني . ولكن الأمر أفضل الآن لأن لدي جدولا أكثر إحكاما .

فكنت تذهبين إلى البيت وتأكلين؟

أليسون: كنت أكل تقريبا وقت العشاء ، ثم ، كما تعلمين ، في الدراسة ما قبل كلية الطب

يجب عليك المذاكرة طول الوقت ، والوقت الوحيد الذي يمكنك أخذ استراحة فيه هو وقت تناول الطعام أو التمرينات الرياضية . ولكن في حالة الشراهة لا يكون الأمر هو تناول وجبة طعام فعليا . لا أدري . وكنت بعد العشاء ، أقوم فقط ، أعتقد أن الأمر أصبح مسألة جسدية بمرور الوقت . حقا لقد كنت مجبرة على النزول ثانية ، كما تعلمين لدي بطاقة طعام . ويمكنني إضافة أي شيء على بطاقة الطعام . وبالطبع كنت فيما بعد أنفق الكثير من المال الذي لم أكن أملكه أصلا ، ثم كنت أتوجه إلى الحمام ، وهو حمام مشترك لسكان الطابق كله .

بمجرد انتهائك من الطعام؟

أليسون: نعم . وبعدها كنت أنا وصديقتي نشترك في جلسات المذاكرة . وكنت أعود حوالي الساعة العاشرة مساء ، وكانت لدي ثلاثة في حجرتي ، وكنت أشتري أشياء من البقالة ، فكنت أعد لنفسني شطيرة خبز مع زبدة الفول السوداني والمربى ، أو المربى والزبدة ، أو أيا ما كان متوفرا لدي . وكنت أعلم بوجود آلة بيع في المبنى ، فكنت أنزل وأعود ، ثم أنزل وأعود . كذلك فإن صديقتي الحميمة التي كانت تسكن في الحجرة المجاورة لي كانت تذهب إلى بيتها في نهايات الأسبوع مرة شهريا أو ما شابه ذلك ، وكنت أبقى أنا . وكنت أشعر بالوحدة . كان هناك أشخاص يمكنني الوجود معهم ، ولكن لم يكن هناك أحد يعرفني جيدا ، فكنت أذهب إلى آلات البيع ، وأذكر أنني كنت أفكر بيني وبين نفسي ”هذا لن يسعدني . ولن يجعل مساء الجمعة مثيرا ، ولكن لم لا؟“ وهكذا . . . كنت أمارس شراهة الطعام 4 مرات أسبوعيا . وأحيانا كنت أتوقف عن ذلك .

نعم . وإلى متى استمر ذلك؟

أليسون: خلال معظم دراستي في السنة الثانية ، وقدرًا كبيرًا من صيف تلك السنة .

وكننت تمارسين شراهة الطعام عند عودتك إلى البيت أيضا؟

أليسون: أذكر حين عدت إلى البيت في إجازة الكريسماس أن شقيقتي . . . ياه ، لقد كان الكريسماس هو الأسوأ في بيتنا . فهو المكان الذي ترجع إليه كل الذكريات . فقد سافرت أسرتي إلى فلوريدا . وبقيت في البيت مع شقيقي . كان هنالك البيت ، والفراغ والطعام . كما تعلمين ، كان هذا هو أسوأ شيء . كان الكريسماس شنيعا . كان صديقي يخرج مع فتيات أخريات ، وكننت أنا في المدينة ، ولم يكن قد تبقى لي أحد من الأصدقاء ممن ظللت على صلة بهم . لقد كان الأمر شنيعا فعلا . وأذكر أن شقيقتي ذكرت الأمر لي . سألتني ”هل تعانين من البوليميا؟“ فقد كانت تعلم أنني أدافع عن طعامي . أخبرتها ، قلت ”نعم“ . فبدأت تبكي وانزعجت للغاية ، وقالت ”هلا بذلت جهدا أو ما شابه ذلك؟“ وهكذا عندما عدت إلى الكلية توقفت عن البوليميا حوالي الشهرين .

عند تأمل نص المقابلة مع أليسون ، يمكن تحديد عدة نقاط . أولا إن المقابلة المعمقة هي طريقة لاكتساب المعلومات والوصول إلى فهم من الأفراد عن موضوع معين . وقد انصب اهتمامنا في المثال السابق على فهم انتقال أليسون من المرحلة الثانوية إلى الجامعة ، وتجربتها مع البوليميا . ثانيا ، إن المقابلة المعمقة هي نوع محدد من التفاعل ونوع محدد من الحوار ، فالحوار في المقابلة المعمقة يعتمد على قيام الباحثة أو الباحث بطرح سؤال ما أو السعي للحصول على توضيح أو استفاضة بشأن ما يقوله المستجيب أو المستجيبة . ودور الباحثة أو الباحث هنا هو الإنصات إلى حكاية المستجيبة أو المستجيب . فإذا تأملنا مجرد عدد الكلمات التي يتضمنها الحوار بين الطرفين فسنلاحظ أن أغلب المحتوى صادر عن المستجيبة ، وتسعى الباحثة عادة إلى اكتساب المزيد من المعرفة عن حياة المستجيبة بطرح أسئلة تنقضي بشكل حيادي المزيد من المعلومات والفهم . وتكون الباحثة مندمجة في الحوار مع المستجيبة ، وهو ما يتبدى من خلال الإنصات والتعبير بإشارات تنم عن الاندماج في الحوار ، وهي إشارات كالإيماء بالرأس أو الطلب من

المستجبية توضيح نقطة أو مصطلح ما . ويمكننا اعتبار "التقصي" أداة جوهرية للمقابلة الفعالة ، كما يمكن لأسئلة التقصي (probes) أن تكون أساسية في المقابلة الجيدة ، ويجب عليك التمتع بالقدرة على التمييز بين اللحظة التي ترد فيها علامة تثير لديك الرغبة في الاستزادة ، وبين اللحظة التي يتعين فيها عليك التقصي والتعمق في ردود المستجبية . وتكون أسئلة التقصي مفيدة ومهمة خلال المقابلة المعمقة ، فإذا كانت المقابلة ذات بنية تتطلب منك طرح أسئلة قليلة فسيكون من المهم بالنسبة لك التعمق في الموضوعات التي ترغب المستجبية في مناقشتها . فأسئلة التقصي هي أسلوب الباحثة أو الباحث في جعل المستجبيين يواصلون الحديث ، والإسهاب أو الاستطراد ، ربما حتى بالاستعانة بأمثلة توضيحية . وأحيانا يكون سؤال التقصي مجرد علامة تشير إلى الفهم والاهتمام بما يقال ترسلها الباحثة للمستجبية . ولنرجع الآن إلى مقطع من حديثنا مع أليسون لفحص مختلف أنواع التقصي التي يمكن استخدامها في هذا النوع من المقابلات .

فن التقصي

إن أسئلة التقصي (probing) تتيح للباحثات والباحثين دعم وتشجيع المستجيبات والمستجيبين دون الدفع بأجنداتهم الشخصية في الحوار . وفيما يلي بعض الطرق الشائعة التي يمكنك بها الاستعانة بالتقصي عند عقد مقابلاتك المعمقة:

التقصي الصامت: يتم من خلال التزام الصمت مع الإيماء بالرأس . كما يمكنك أيضا التعبير عن الاهتمام والتأييد بالحفاظ على التواصل بصريا بالنظر إلى عيني المستجبية خلال حديثها .

التقصي بترديد الصدى: وهنا يمكنك تكرار ما قالته المستجبية ومطابقتها باستكمال الحديث . والمثال على ذلك في حوار ي مع أليسون حين سألتها وعندما قلت "لم يبد الأمر كافيا بصورة ما أو بأخرى" ، ماذا كنت تقصدين؟ فيمكنك ملاحظة أنني كررت ما قالته هي قبل طلبتي

توضيح ما قصدته بتلك العبارة . فقد سألت سؤالا جديدا ولكني تتبعته فيه اتجاه حديثها بطلبي المزيد حول تلك النقطة . وسؤال التقصي الحيادي لا يفرض مسارا جديدا ، وإنما هو طريقة لمواصلة الحوار وتشجيع المستجيبة على الاستمرار تبعا لأجندتها الخاصة بها .

التقصي بنعم : وهو الذي يمكنك من تشجيع المستجيبة على مواصلة سرد حكايتها بالتعبير بصيغة تأييد مثل ”نعم“ أو ”آه ، أفهم“ . ويمكننا أن نجد مثالا على ذلك في مقابلتي مع أليسون ، فبعدما أنهت حديثها قلت : نعم . وإلى متى استمر ذلك ؟ وهو ”سؤال نقص حيادي“ بمعنى أنك لا تحاولين توجيه دفعة الحوار في اتجاه معين ، وإنما تشجعين المستجيبة لمواصلة سرد حكايتها . وهو مؤشر على إنصائك وتأييدك لقيامها بسرد حكاياتها .

التقصي بتوجيه المستجيبة أو المستجيب : وهنا يمكنك التصريح بالتقصي ، وورغبك في توجيه المستجيبة أو المستجيب نحو سؤال بعينه أو التطرق إلى موضوع معين . ففي مقابلتي مع أليسون يمكنني طرح سؤال معين عن علاقتها بوالدتها .

• ”هل حدث أن كانت والدتك تنتقد جسدك“؟

• ”وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف كان ذلك؟“

وكان يمكنني مواصلة التقصي في نفس هذا الخط بطرح عدد آخر من الأسئلة على أليسون بناء على إجابتها . فإذا أخبرتكسي مثلا بأن والدتها كانت تنتقد جسدها وكيفية ذلك ، فربما كان سيهمني أن أعرف مدى تكرار ذلك الأمر ومتى كان يحدث - في طفولتها المبكرة ، أم على مدار طفولتها ، وما إلى غير ذلك . فأنا أتناول حينها خيطا من خيوط المقابلة وأستتبعه بعدد من الأسئلة الأخرى التي أعتبرها مهمة لموضوع الحديث . وبهذا المعنى فأنا أتتبع أليسون إلى حيث تسوقني ، ولكني أكون في الوقت ذاته واعية باهتماماتي وأجندة البحث فيما يتعلق بتوجه والدتها بشأن جسد أليسون .

معرفة موقعيتك بوصفك باحثة: المطاوعة خلال عملية البحث

إن منظور الباحثة النسوية المطاوعة ينطلق من إدراك أهمية قيم المرء وتوجهاته في علاقتها بعملية البحث ، وهو إدراك يبدأ قبل دخول ميدان العمل . أما المطاوعة (reflexivity) فتعني تبني نظرة نقدية إلى الداخل وتأمل واقع وتجارب حياة الباحثة ذاتها ، وهي عملية تأمل ذاتي أو رحلة يمكن أن تساعد في العملية البحثية . فلنتوقف أمام الأسئلة التالية: كيف تؤثر سيرة حياتك على مسار البحث؟ وما الذي يشكل المسائل التي تختارين دراستها ومدخلك إلى دراستها؟ كيف يؤثر السياق الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي تعيشين فيه على مسار البحث على كافة المستويات؟ إن المطاوعة هي العملية التي تقوم الباحثة أو الباحث من خلالها بدراسة وفهم والتعرف على الخلفية الاجتماعية والافتراضات الشخصية من حيث كيفية تدخلها في المسار البحثي . فالباحثة أو الباحث ، مثلها في ذلك مثل المبحوثين أو المستجيبين ، نتاج لبنى وهياكل مجتمعاتهم ، فمعتقداتنا وخلفياتنا ومشاعرنا جزء من عملية بناء المعرفة . وممارسة المطاوعة تعني الاعتراف بأن "المعرفة كافة تتأثر بالأوضاع الاجتماعية التي يتم إنتاجها في إطارها ، وأنها تمتد بجذورها في الموقع الاجتماعي والحياة الاجتماعية للمشاهد والمشاهد" (Mann & Kelly ، 1997 ، p. 392) . وفيما يلي مقطع من تأملات كتبتها حول كوني باحثة بيضاء من الطبقة الوسطى تقوم بعقد مقابلات مع مراقبات داخل مركز اجتماعي للسود في المدينة .

شارلين ناجي هيسي-بايبر:

هل يمكن لباحثة بيضاء من الطبقة الوسطى عقد مقابلة مع مرافقات أمريكيات ملونات؟

دخلت مركزا اجتماعيا في قلب مجتمع الأفروأمريكيين في حي متوسط الحجم من أحياء المدينة يقع في منطقة شمال شرق . وقد كان لدي موعد للقاء مجموعة من المرافقات الأفروأمريكيات البالغة أعمارهن ما بين 13 و 17 عاما للحديث معهن عن تجاربهن في "تجاوز الطفولة" في مجتمعهن وعن مواقفهن من المدرسة وكذلك عن آمالهن وهمومهن بشأن المستقبل . وقد كنت بالتأكيد أحتل موقعا "خارجيا" ، فقد كنت الباحثة والشخصية الوحيدة البيضاء الموجودة في المركز الاجتماعي في ذلك اليوم . وقد تركزت حرصي على بذل الجهد لعدم الالتزام ببرنامج أو أجندة صارمة - أي ألا أحمل حزمة من الأسئلة المعدة مسبقا ، والتي أطرحتها عليهن جميعا فيما هو أشبه باستطلاع لا يتيح مجالا للإنصات إلى الأصوات خارج إطار أجندة الأسئلة المعدة سلفا . كذلك كنت أريد أن أجد طريقة لأشغل مكانا بحيث أستطيع بدرجة ما كسر السلطة الكامنة عادة في علاقة الباحث-المبحوث . وأذكر أول أيامي في المركز ، فقد جمعتنا المديرة في حجرة كانت قد حجزتها لنا ، وفي أعقاب المقدمات المبدئية قدمت بعض المعلومات المفصلة عن نفسي فأخبرتهن بأني باحثة ومدرسة ، وبأنني لست خبيرة بل هن الخبرات فيما يتعلق بحيواتهن . وقد أردت تغيير محور التركيز ومسار الحوار تجاه همومهن وآمالهن ، وأن أتحوّل إلى الدارسة التي تشهد على حيواتهن . فما الأمور التي تهمهن؟ وكيف كن يرين تطور حيواتهن في البيت؟ وفي المدرسة؟ وفي أثناء المقابلة سألنني عدة أسئلة: ما الذي تقومين بتدريسه؟ هل أنت متزوجة؟ هل لديك أطفال؟ وأحيانا كن

يدعونني للانضمام إليهن في لعب كرة السلة أو لمشاهدة شيء رسمه ، فكنا نندمج في الحديث فيما بيننا . وقد تطوعت بيوم في الأسبوع للعمل في واحد من المراكز الاجتماعية حيث كنت أقوم بالتدريس لبعض الأطفال الصغار ومساعدتهم في حل الواجبات المنزلية . ولكنني كنت أتساءل بيني وبين نفسي: عمّ إذا كنت أنصت إلى الفتيات بما يشعرهن بأنهن مسموعات؟ فكيف أنصت إليهن عبر الاختلافات العديدة التي كانت تفصلنا - أي انتمائي العرقي والطبقي والعمرى ، وموقعي بوصفى باحثة؟

وتحتل المطاوعة موقعا في قلب المقابلة المعمقة ، فهي العملية التي تتمتع فيها الباحثة بحساسية تجعلها على وعي بديناميكيات "الموقف" القائمة بين الباحثة والبحوثة التي قد تؤثر على صياغة المعرفة . وفي سبيل فهم التحيزات التي تضيفها على البحث ، وقدر السلطة والامتيازات التي قد تفرضينها على بحثك ، يمكنك محاولة القيام بالتمرين التالي قبل البدء في البحث ، وهي لعبة محاكاة ربما تكون ذات فائدة إذ تستعدين لبدء مرحلة المقابلات في مسار بحثك .

تمرين بحثي: تحديد موقعيتك البحثية

استقطعي من وقتك 10 دقائق لكتابة كيفية تأثير موقعك الاجتماعي على أسلوب ملاحظتك ورؤيتك للآخرين في حياتك اليومية .

- ما التحيزات التي تضيفنها و/أو تفرضينها على بحثك؟
- وكيف يؤثر ذلك على أنواع الأسئلة التي تطرحينها خلال بحثك؟
- وكيف يؤثر ذلك على أسلوب البحث الذي تتبعينه؟

فكما رأينا في الفصل الثالث من هذا الكتاب بشأن إبستمولوجيا الموقعية النسوية، نجد أن ساندرا هاردينج (Sandra Harding 1993) تقدم مفهوم "الموقعية القوية" وترى أن التوقف أمام الموقعية الشخصية خلال كافة مراحل مشروع البحث تحقق "أقصى موضوعية" للباحثة. وهو الأمر الذي يضمن أيضا تمثيل صوت المستجيبة والإنصات إليه وفهمه على مدار البحث. وتدعو ساندرا هاردينج الباحثات والباحثين إلى فحص الأسئلة التي يطرحونها خلال المقابلات، وتلاحظ أن تلك الأسئلة ليست "خالية من القيمة" (value free) لما تعكسه عادة من قيم ومواقف وأجندات الباحثة أو الباحث. فالباحثات والباحثون الذين يمارسون "الموضوعية القوية" ربما يطرحون الأسئلة التالية:

- كيف تدخل قيمي ومواقفي وتوجهاتي طرفا في مسار البحث؟ وهل أطرح أسئلة تقتصر على منظوري الشخصي؟
- كيف تعمل أجندتي الخاصة على تشكيل الأسئلة التي أطرحها والنتائج التي أتوصل إليها؟
- كيف تؤثر موقعيتي على كيفية قيامي بجمع وتحليل وتأويل ما أجمعه من بيانات، وكيف تؤثر على المنظور الذي تعكسه؟

أهمية الإنصات

تدعو عالمة الاجتماع مارجوري ديفولت (Marjorie DeVault 2004) الباحثين والباحثات إلى الالتفات إلى اللغة التي يستخدمها المستجيب أو المستجيبة في التعبير عن واقعهم. ولا ينصب اهتمامها تحديدا على مجرد ما يقال، بل على ما لا يقال، أو ما قد يأتي يصل في صورة لغة "صامتة". فعلى سبيل المثال، في مقابلي مع أليسون، نجدها تستخدم كلمة "تعليمين" عدة مرات. ولنتوقف أمام مقطع قصير من تلك المقابلة لتوضيح المعنى الذي تقصده مارجوري ديفولت:

أليسون: في ليلة جمعة كنت وحدي في غرفتي داخل كلية لا تعجبني . تعلمين . لم يكن لي حياة اجتماعية متسعة . كانت لدي صديقة مقربة ، ولكنها لم تكن كافية . كان لي الكثير من المعارف ، ومنها واحدة مقربة حميمة وأهل للثقة ، ولكنني لست أدري ، لم يبد الأمر كافيا بصورة ما أو بأخرى .

ما قد يستوقف مارجوري ديفولت هنا هو التردد الذي يتضح في المقابلة مع أليسون من خلال استخدام اللغة ، وهو ما يبدو جليا تحديدا حين تبدأ في الحديث عن وحدتها . فهي تستخدم كلمة تعلمين حين تبدأ في وصف الوحدة ليلة الجمعة وهي في حجرتها بالسكن الجامعي . وأثناء نقل المقابلة من جهاز التسجيل إلى النص المكتوب قد تقرر الباحثة في الواقع إلغاء كلمة تعلمين إذ تبدو غير ذات أهمية . إلا أن مارجوري ديفولت تشير إلى ذلك قائلة:

أرى أن هذا الحديث المتقطع والتردد وغير الحاسم يشير إلى مجال من التجربة غير مكتملة التعبير ، حيث تكون فيها المفردات اللغوية قاصرة ، وحيث تحاول فيها المستجيبة الحديث من واقع التجربة فتجد اللغة عاجزة .
(DeVault 2004 ، p. 235)

وتدعونا مارجوري ديفولت هنا إلى احترام اللغة المترددة ، وما يرد خلال المقابلة من كلمات وعبارات مثل "تعلمين" . ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا بالاعتراف بتلك اللغة ، لا في حين استخدامها فقط خلال المقابلة ، بل أيضا حين يحين وقت تعبيرنا عن أصوات المستجيبات والمستجيبين عند قيامنا بكتابة نتائج البحث . ونجدها تقدم شرحا لما قامت به في مقابلة وموقف شبيه:

أومأت برأسي "آه . . آيوه" بحيث أجعل المقابلة مريحة ، فقامت تجاه المستجيبة بما نقوم به نحن النساء عبر الزمان - أي التفاهم فيما بيننا . ولكن أخشى أن يكون ذلك من الأمور التي تتعرض للنسيان عادة حين ننتقل كباحثات من

مجال حديث النساء إلى علم الاجتماع ، فنترك بالتالي المسكوت عنه خلف ظهورنا. وبشكل ما أو بأخر يعد ذلك خيانة للمستجيبة. وأنا أقول هنا بأنني أنفهم ، ولكن في حالة تعرضي لاحقاً "للنسيان" فإن حقيقة المستجيبة لا تكون ممثلة تمثيلاً كاملاً فيما أكتبه. (DeVault 2004 ، 236)

إن المنظور النسوي فيما يتعلق بالمقابلة المعمقة يستطيع رؤية عملية البحث باعتبارها صياغة مشتركة للمعنى. فيجب على الباحثة أو الباحث الحرص والحذر والإنصات بتركيز إلى ما يقوله المستجيب أو المستجيبة، فعلى الباحثة أو الباحث الاستعداد للتنازل عن أجندتهما وتتبع خطا المقابلة ذاتها. فالمقابلة والحوارات التي تتم مع المبحوثة أو المبحوث ستوجد أجندة مستقلة عن تلك التي يحملها الباحث أو الباحثة، ويتعين على الباحثين والباحثات التعامل مع تلك التغييرات، وهو أمر قد يصعب تحقيقه وهي المشكلة التي واجهتها كاثرين أندرسون خلال بحثها. فقد أرادت كاثرين أندرسون، وهي خبيرة في التواصل بالكلام، توثيق حيوات المزارعات في شمال غرب ولاية واشنطن ضمن "مشروع تراث نساء واشنطن" (1991). ولكن خلال مسار البحث، كثيراً ما كان تركيزها على توجهات ومشاعر المزارعات الريفيات يتأثر بأجندتها الخاصة، إذ كانت تأمل في التوصل إلى وصف معين لأنشطة حياة المزارعات بما يمكن استخدامه كمادة صالحة لعرضها. وفي هذا الصدد نجدها تشير إلى الآتي:

بالعودة إلى تلك الفترة أستطيع أن أرى الآن كيف أنني كنت أنصت إلى ما يقال مع تركيز جزء من انتباهي على إنتاج مادة صالحة للمعرض - أي وصف التجارب التي يمكن أن تصاحب الصور المعبرة عن أنشطة النساء. وإذا تصفح تلك المقابلات بعد مرور وقت كبير وقد تم تخزين مادة العرض بعد انتهاء المعرض، أدركت وبأسف بالغ قدر الفرص الضائعة التي تحرم النساء من تأمل الأنشطة والأحداث التي يصفنها وشرحها بقدر أشمل وبمفرداتهن الخاصة. (Anderson & Jack 1991 ، p. 13)

وللتنصت إلى إحدى مقابلات كاثرين أندرسون ، إذ تعقد مقابلة مع امرأة مزارعة تدعى فيرنا والتي تناقش بصراحة مدى صعوبة حياتها كأم . وبينما نجد فيرنا تفتّح قلبها لكاثرين أندرسون في المقطع التالي ، نلاحظ رد فعل كاثرين أندرسون لما تبوح به فيرنا من تعبير عن مشاعرها:

[فيرنا:] لقد مرت بي أوقات كنت أتمنى الهروب من كل شيء . ومرت بي أوقات كنت أود لو أخذ الأطفال وأتركهم في مكان ما لأسبوع -كلهم مرة واحدة- بحيث لا أضطر إلى التفكير فيهم . ولا أدري إن كانت تلك المشاعر قد عايشها أحد غيري ، ولكن مرت بي أوقات كنت أشعر فيها بأنني في حاجة للهروب من الجميع ، حتى من زوجي ، لفترة قصيرة . كانت تلك أوقات لم أشعر فيها سوى بحاجتي إلى الهروب . وكنت حينها قد أنجول في الغابة وأتأمل الزهور ، وربما أذهب لأجد بقرة عجوز حقيقية ورقيقة ، فأقترب منها وأربت عليها لفترة وجيزة - أي مجرد أن أهرب من كل شيء . كنت أشعر بحاجتي إلى ذلك ، ويبدو وكأن الأمر أحيانا . . .

[كاثرين أندرسون:] هل كان لك نشاط في الأندية؟ (Anderson & Jack 1991 ، p. 16)

يمكننا استخدام هذا المقطع كمثال على كيفية إمكانية تأثير أجندة الباحثة أو الباحث على مسار المقابلة . وتبين هذه المقابلة تتبع كاثرين أندرسون لأجندتها الخاصة ، ويمكننا أن نرى هنا أنها لم تكن فعلا "تنصت" لحديث فيرنا الخارج من القلب ، وإنما نجد كاثرين أندرسون تتتبع أجندتها الخاصة وتعجز عن إدراك مشاعر فيرنا القوية كما تعبر عنها . إن سؤال كاثرين أندرسون عن الأندية يقدم مثالا جليا على كيفية قدرة الأجندات الخاصة على الوقوف حائلا أمام حميمية وتلقائية مسار المقابلات الشخصية .

إن المنظور النسوي في المقابلات المعقدة يكشف عن أن المقابلة هي أقرب لحوار بين طرفين مشاركين فيها لا مجرد جلسة تقوم على الأسئلة والأجوبة . فالمعلومات تتوارد بين طرفي المقابلة ، مع أهمية التأكيد على دور الباحثة في تلك العملية . فوظيفة

الباحثة الأساسية هي الإنصات بانتباه وتركيز لتعليقات المبحوثة، وقد يرغب الباحث أو الباحثة في طرح أسئلة معينة متعلقة بمجال البحث، ولكن من المهم أن تنشأ تلك الأسئلة وتتطور بحيث تخرج من حديث المبحوثة أو المبحوث، وهو الأمر الذي يحول دون تركيز الباحثة أو الباحث على أجندتهما الخاصة مع ترسيخ دور الباحث أو الباحثة باعتبارهما مستمعين. ويقدم لنا كتاب كاثرين أندرسون ودانا جاك (Anderson & Jack 1991، p. 24)، دليلاً لصقل مهارات "الإنصات" خلال المقابلات، وهو دليل مفيد تحديداً في الإنصات مع تجاوز الاختلافات:

• لتكن مقابلتك قائمة على أسلوب المقابلة المفتوحة بما يمكن الطرف الآخر في المقابلة من التعبير عن توجهاته ومواقفه ومشاعره.

• التقصي لمعرفة المشاعر لا الحقائق فحسب. على سبيل المثال: كيف تفهم المستجيبة الأحداث؟ وما المعنى الذي تضيفه على مسار الأحداث في حياتها؟
• ما المسكوت عنه؟

كما يقترح الكتاب الرجوع إلى القائمة التالية قبل عقد المقابلات:

• كوني على وعي بأجندتك الخاصة.
• احمل معك "أحاسيسك ومشاعرك وردود أفعالك التي تنشأ من خلال الإنصات إلى الآخرين" (Anderson & Jack 1991، p. 24).

• إذا اختلط عليك أمر ما فلا تخشي من متابعة موضوع أو مسألة ما.
• ماذا عن الأمور التي تقلقك، وكيفية إمكانية تأثيرها على سياق المقابلة؟ هل يمكن لما يقلقك شخصياً أن يقدم لك إشارة ما بشأن الاتجاه الذي يجب أن تأخذه للنظر في "ما يقال" ومشاعر المستجيبة؟

كما أقدم هنا أيضاً "تمرين إنصات" قد ترغبين في القيام به مع باحثة رفيقة (انظر/ي النص في الصندوق التالي).

تطوير مهارات حسن الإنصات

مقدمة

إن الأسلوب السليم لعقد المقابلات يبدأ بحسن الإنصات. والغرض من هذا التمرين مساعدتك على التدريب على مهارات الإنصات. والتمرين يتطلب وجود شخص يقوم بدور القائم بالمقابلة، وطرف آخر يقوم بدور المستجيب للمقابلة، وشخص ثالث يقوم بضبط الوقت. ويبدأ الطرف القائم بالمقابلة بطرح سؤال واحد على المستجيب، ومن المهم هنا ألا يفكر الباحث أو الباحثة في السؤال التالي (الأجندة الخاصة). يجب على القائم بالمقابلة التركيز على ما يقال ومحاولة الصمت خلال المقابلة ذاتها.

تمرين الإنصات

1. يتم تشكيل فريق مكون من باحثين أو باحنتين.
2. يتم اتخاذ وضع المقابلة بحيث يجلس الطرفان وجها لوجه على مسافة مريحة لكليهما.
3. يتم استخدام القرعة (بواسطة عملة معدنية) لتحديد من يقوم بدور القائم بالمقابلة أولاً، على أن يقوم الطرف الآخر بدور المستجيب.
4. على المستجيب أو المستجيبة الحديث لمدة 30 ثانية حول موضوع ما يحدده القائم بالمقابلة. ويجب أن يكون موضوعاً على قدر من الحيادية مثل "مطعمي الفضل" أو "مكان الإجازة المفضل لدي".
5. يقوم الميسر أو الميسرة بالنداء بانتهاء الوقت بعد مرور 30 ثانية.
6. عندها يكون على الطرف القائم بالمقابلة تكرار ما قاله الطرف المستجيب للمقابلة.

7. ثم يتم قلب الأدوار .

8. عقب الانتهاء من ذلك يتم تزويد الوقت ليصل إلى 60 ثانية، ويجب حينها التطرق إلى أمور أكثر شخصية، مثل ”الشيء الذي يقلقك عن نفسك“ أو ”أصعب تحدٍّ واجهك في العام الماضي“.

9. ومن الأسئلة التي قد يتم التوقف أمامها: ما الاختلافات، إن وجدت، التي لاحظت حدوثها في المقابلة ما بين المقابلات صاحبة 30 ثانية، وتلك الممتدة إلى 60 ثانية؟ هل تغيرت لغة التعبير الجسدي؟ هل شهدت تلك المقابلات اختلافا في تواصلك بصريا مع الطرف الآخر؟ هل اختلفت تعبيراتك اللفظية؟ ما قدر ما أمكنك تذكره خلال المقابلات ذات 30 ثانية مقارنة بتلك الممتدة 60 ثانية؟ هل واجهت صعوبة في الإنصات؟ وكيف كان ذلك؟

التقاط ”العلامات“: استراتيجية للإنصات

العلامات هي معلومات قد تقدمها المستجيبة أو المستجيب خلال مناقشة أمر ما . ويقدم روبرت وايس فيما يلي شرحا للعلامة وظهورها:

إشارة عابرة يقوم بها المستجيب عن شعور أو وضع ما مهم ونظرا لظهور العلامات خلال الحديث عن أمر آخر فقد تضطر إلى تذكرها ثم الرجوع إليها حين يمكنك ذلك بالقول ”لقد ذكرت منذ دقائق . . .“ . ولكن يكون من المستحب التقاط العلامة كلما أمكنك ذلك ، إذا كان الأمر المشار إليه ذا علاقة ما بدراستك . إن ترك العلامة تمر سيشير إلى المستجيب بأن المجال المذكور غير ذي أهمية لك ، كما يمكنه أن يشير إلى أن اهتمامك مقتصر فقط على إجابات أسئلتك لا تجربة المستجيب الشاملة وأحيانا يقدم المستجيون العلامات بالإشارة إلى حدوث أمور كثيرة أخرى لا يتحدثون

عنها في المقابلة، فقد يقولون مثلا "لقد حدثت أمور كثيرة في تلك الفترة"،
ومن المفيد القول حينها "هلا حدثتني عنها؟" (Weiss 1994، p. 77)

ولنعد الآن إلى المقابلة التي تمت مع أليسون والتوقف أمام العلامات التي تظهر في ذلك النقاش. توجد لحظة في المقابلة تصف فيها أليسون شعورها بالوحدة، وهي مسألة تتكرر عدة مرات خلال المقابلة. وفيما يلي مقطع قصير مما سبق وروده أعلاه:

أليسون: نعم. وبعدها كنت أنا وصديقتي نشترك في جلسات المذاكرة. وكنت أعود حوالي الساعة العاشرة مساء، وكانت لدي ثلاثة في حجرتي، وكنت أشتري أشياء من البقالة، فكنت أعد لنفسني شطيرة خبز مع زبدة الفول السوداني والمربي، أو المربي والزبدة، أو أيا ما كان متوفرا لدي. وكنت أعلم بوجود آلة بيع في المبنى، فكنت أنزل وأعود، ثم أنزل وأعود. كذلك فإن صديقتي الحميمة التي كانت تسكن في الحجرة المجاورة لي كانت تذهب إلى بيتها في نهايات الأسبوع مرة شهريا أو ما شابه ذلك، وكنت أبقى أنا. وكنت أشعر بالوحدة. كان هناك أشخاص يمكنني الوجود معهم، ولكن لم يكن هناك أحد يعرفني جيدا، فكنت أذهب إلى آلات البيع، وأذكر أنني كنت أفكر بيني وبين نفسي "هذا لن يسعدني. ولن يجعل مساء الجمعة مثيرا، ولكن لم لا؟" وهكذا... كنت أمارس شراة الطعام 4 مرات أسبوعيا. وأحيانا كنت أتوقف عن ذلك.

نعم. وإلى متى استمر ذلك؟

في هذا الحوار تحديدا سمعت أليسون وهي تتحدث عن مدى شعورها بالفراغ والوحدة. وهي تذكر أعلاه ما يلي: "وكنت أشعر بالوحدة. كان هناك أشخاص يمكنني الوجود معهم، ولكن لم يكن هناك أحد يعرفني جيدا...". ومن المهم للقاء بالمقابلة النقاط هذه "العلامة" بعد انتهائها من ردها. ولعل ردي لتتبع تلك العلامة كان ليأتي في صورة سؤال "هلا أخبرتني المزيد عن شعورك بالوحدة؟" إن أليسون تذكر شعورها

بالوحدة عدة مرات خلال المقابلة، ولكنها لا تصف مشاعرهما بالتفصيل، وإنما يبدو وكأن كل تلك المشاعر مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بسلوكها البوليبي. وإنك عند إنصاتك إلى تلك العلامات إنما توضحين للمستجيبة أنك فعلاً تنصتين بانتباه إلى الإشارات والمسائل ذات الأهمية بالنسبة لها.

ولنتنقل هنا إلى ديفيد كارب من وراء الستار للحصول على لمحة من كيفية قيامه بعقد المقابلات والتعامل مع بعض القضايا التالية:

- كيف تجعل شخصا ما يبدأ في الحديث؟
- هل من الصعب أن تكون منصتاً نشطاً بينما تقوم بدور القائم بالمقابلة؟
- هل يرغب المستجيبون في الحديث عن حكاياتهم؟
- ما الذي يخرج به المستجيبون من تلك العملية؟

ما وراء الستار مع ديفيد كارب

حسنًا. أعتقد أنه يجب عليك تسهيل الأمور على الناس. يجب عليك البدء بطرح الأسئلة. يعني "ما الديانة التي نشأت في محيطها،... إلخ؟" وعدم طرح الأسئلة التي تمثل تهديداً ما، ومنح الناس فكرة عما تقوم به؛ لأن ما يحاولونهم التوصل إليه، مثلما يحدث في كل تعامل آخر، هو: من يكون هذا الرجل؟ وما الذي يسعى إليه؟ هل هو صادق؟ هل أغراضه حسنة؟ هل يحسن الإنصات؟ هل يبدو مهتماً بما أقوله؟ وحينما تقوم بعقد مقابلة ما يجب أن تجعل الطرف الآخر -رجلاً كان أم امرأة- أنه الشخص الوحيد في العالم الذي تتحدث إليه. وأنا لم يكن في وسعي على الإطلاق القيام بأكثر من مقابلة واحدة في اليوم الواحد قط! وذلك لأن قدر الطاقة المطلوب للإنصات بحق، والانتباه بحق هو قدر كبير للغاية، وكذلك معرفة الوقت الصحيح لطرح أسئلة كثيرة.

وجزاء من مسألة إدارة المقابلة هو تحقيق توازن فلا بد أن تحترم الحكاية التي يريد الشخص الذي تعقد معه المقابلة أن يحكيها . وحين يدخلون عليك ، قد يريدون في البداية الحديث عن الأذى الذي لاقوه من تناول دواء ما ، أو ما إلى غير ذلك . فهو الأمر الذي يريدون فعلا الحديث عنه ، ويجب عليّ أنا أن أساير هذا الحديث في البداية ، ولا أنفرهم مني ، فلا أقول ”حسنا لقد كنت لا أنوي التطرق إلى هذه النقطة إلا بعد ساعتين من بدء المقابلة“ . وأعتقد أن تحقيق التوازن بين إتاحة فرصة الإنصات إلى الناس والحديث عن مختلف جوانب الحكاية التي يريدون هم الحديث عنها -وكل حكاية لها خصوصيتها- وبين معرفة -في الوقت نفسه- ما الذي تريد تغطيته قبل انتهائك من مقابلة ذلك الشخص .

وأجد أنك خلال مقابلة إن سألت السؤال الصحيح في بداية المقابلة ، فإنك حين تصل فعلا إلى جوهر الموضوع فإنك عادة لا تجد نفسك مضطرا ل طرح المزيد من الأسئلة . ففي موضوع الاكتئاب يكون السؤال الأول الذي عادة ما أطرحه على الناس هو ”لعلك لم تطلق عليه مسمى الاكتئاب ، ولكن قل لي عن اللحظة الأولى التي خطر على بالك بأن هنالك شيئا ما على غير ما يرام ؟“ وأحيانا لم أكن مضطرا للحديث بعدها لمدة الساعات الثلاث التالية . فقد كانت للناس طريقتهم في سرد حكاياتهم ، وكانوا بتلقائية يغطون كافة مجالات الدراسة التي كنت أريد تناولها . والمسألة الثانية التي أود الإشارة إليها هي أن النساء حقا يريدن سرد حكاياتهن ، ففي كل الحالات تقريبا كان الناس يشكرونني في نهاية المقابلة على منحهم فرصة سرد حكاياتهم ، وأن تأتي الأسئلة من عالم اجتماع وكثيرا ما كانوا يحصلون على وجهة نظر جديدة بشأن حياتهم ، وهو منظور ما كانوا ليحصلوا عليه على مدار سنوات من العلاج النفسي؛ وذلك لأنني كنت أ طرح أسئلة ما كان يطرحها سوى عالم اجتماع .

وجهات نظر نسوية حول "الاختلاف" في المقابلات الشخصية

تنظر الباحثات النسويات إلى الواقع الاجتماعي باعتباره معقدا ومتعدد الأبعاد، وهو منظور يعمل على تشكيل رأيهن في عملية عقد المقابلات الشخصية. فطرفا البحث يلتقيان في المقابلة بخلفياتهما المختلفة من حيث النوع والعرق والميول الجنسية. كما يمكن للوضع الطبقي وغيره من الاختلافات أن تؤثر في سير المقابلة وتواصلها.

وقلما يلتفت الباحثون والباحثات إلى مدى إمكانية تلك الاختلافات في التأثير أو تحديد المقابلة. ويميل الباحثون الوضعيون تحديدا إلى تجاهل تلك الاختلافات، إذ يتعامل البحث الوضعي التقليدي مع قضية الاختلاف بتقليل تأثيره إلى أقصى حد من التقليل. فالباحثون الوضعيون يحددون معالم مشاركتهم في المقابلة بتوخي "الموضوعية" أو "الاستبعاد المؤقت" لتلك الاختلافات في موقعيتهم بالنسبة للمستجيبين، بما لا يؤثر في مسار المقابلة ذاتها. وهو الأمر الذي يؤدي إلى التقليل من آثار الاختلاف إلى أقصى حد، ولكنه يعني أيضا أنه قلما يتم التوقف أمام أسئلة كالاتية:

- هل يمكن لباحث أعزب أبيض من الطبقة الوسطى عقد مقابلة مع أم سوداء من الطبقة العاملة؟
- هل يمكن لامرأة بيضاء من الطبقة الوسطى عقد مقابلة مع امرأة من العالم الثالث تعيش في الفقر؟
- هل يمكن لرجل من الطبقة الوسطى ذي ميول جنسية غيرية أن يعقد مقابلة مع رجل من الطبقة العاملة ذي ميول جنسية مثلية؟

وترى الباحثات النسويات أن "الاستبعاد المؤقت" للتوجهات ليس بالسهولة التي قد يبدو عليها، فمن الصعب تجاهل التوجهات والقيم الصادرة عن أي مزيج من علاقات الموقعية لشخص ما، بل إن الاعتراف بأوجه الشبه والاختلاف بين طرفي المقابلة يتيح

في الواقع للباحثة أو الباحث تقييم مدى تأثير الاختلاف على المقابلة. كما أن مسائل الاختلاف تؤثر في كافة مراحل مسار البحث، من اختيار سؤال البحث، وصياغة فرضية ما، وحتى عملية جمع المادة بأكملها. إن التحليل والتأويل والكتابة النهائية لنتائج البحث تتأثر جميعها بإدراكنا للاختلاف.

من الداخل أم من الخارج؟

لقد وجد بعض الباحثين والباحثات طرقاً لتجاوز تأثير الاختلاف على مسار المقابلة الشخصية، وإحدى الطرق لتحقيق ذلك تتمثل في "التوفيق" فيما يتعلق بالخصائص الأكثر أهمية (من حيث اللون أو السن أو النوع أو الميل الجنسي) بحيث يمكنهم من الاستعانة بالموقع من الداخل لتحقيق المقابلة. وهو الأمر الذي قد يساعد أيضاً الباحثة أو الباحث على تحقيق التعاون والتواصل خلال المقابلة بما يعينهما على التوصل إلى مزيد من فهم المستجيبين. ففي نهاية الأمر يكون الباحث أو الباحثة من الداخل ويكونان بالتالي على دراية بالفئة التي ينتمي إليها المستجيب أو المستجيبة. كما أنه من المهم تحقيق توازن في بعض تلك المؤشرات المتعلقة بالفئة التي ينتمي إليها الطرفان، بما يقلل من إمكانية حدوث تفاوت سلبي في ميزان القوى والسلطة بما يخل بالمقابلة (Oakley 1981). فإذا كان ينظر إلى الباحثة أو الباحث باعتبارهما من الخارج، فمن المتعارف-عليه عامة- أن الاختلافات قد تصعب من توصلهما وتفهمهما لموقع "الآخر". ولكن هل يضمن الموقع "من الداخل" عقد مقابلة أكثر مصداقية ودقة؟ وكيف يمكن للاختلافات أن تؤثر على مسار البحث؟

وداخل هذا المثال على الاختلاف يكمن الإدراك بأن- ومنذ بداية مشروعنا البحثي- الشخص وموضوع البحث يعتمد على تقديرنا للاختلاف. إن موضوع البحث وشخصه يؤثر على إدراكنا للاختلاف وعلى مواقفنا العامة من تلك المسائل. وإن تقديرنا للاختلاف

يتيح لنا طرح الأسئلة التالية: أي نساء؟ هل كل نساء العالم متماثلات؟ ما أوجه الاختلاف فيما بينهم؟ وما الاختلافات ذات الأهمية بالنسبة لسؤال البحث الخاص بي؟

كذلك يكون للاختلاف أهمية بالغة فيما يتعلق بمحيط المقابلة-interview situation). فهل يمكن لباحث أو باحثة من بلدان العالم الأول تفهم معاناة النساء العاملات في أسواق العالم الثالث في ظل العولمة؟ ولنفترض أن الباحث رجل أبيض من الطبقة الوسطى ويقوم بمشروع بحثي، فكيف يمكن لانتماؤه إلى نوع ولون وخلفية عرقية ووضع اجتماعي ما أن يؤثر في مسار المقابلة؟ هل يمكن للباحثين "تجاوز" الاختلافات بين القائمين بالأبحاث وبين الأشخاص موضوع البحث؟ وهل يرغب الباحث في "تجاوز" كافة تلك الاختلافات؟

إذا كان طرفا المقابلة الشخصية ينتميان إلى نفس النوع والطبقة والعرق، فمن السهل أن نفترض سرعة قيام حوار مفتوح بينهما، وهو موقف قد يتيح أيضا أكبر فرصة لسماع صوت المستجيب وتمثيله. وهي افتراضات ليست بعيدة عن المنطق، ففي بحثها الميداني بين نساء مجتمع "جولاه" وجدت جوزفين بيوكو-بيتس (Beoku-Betts) (1994)، أن بحثها نال دفعة إلى الأمام حين أخبرت المشاركات في بحثها بأنها هي الأخرى قد نشأت في مجتمع ريفي تسوده ممارسات ثقافية شبيهة. فقد ساعدها هذا التصريح بموقعيتها وخلفيتها الاجتماعية في التواصل والحصول على البيانات التي ما كان لها أن تحصل عليها بشكل آخر. ونجد كاث ويتسون (Kath Wetson 2004) تتوقف أمام هويتها كمثلية وكيفية تأثير ذلك على ما تقوم به من بحث، فتشير إلى أنه بينما كانت ستختار دراسة الأسر المثلية فإن مشروعها كان سيختلف جدا في حال ما لم تكن مثلية. وهي تعترف أيضا بأن موقعها داخل المجتمع المثلي كان من الأسباب التي سهلت عليها العثور على مشاركات مثليات في بحثها، وهن مشاركات يبدون خافيات عن زملائها الرجال ممن كانوا يقومون بأبحاث حول الحياة والهويات الجنسية. وفي هذا الصدد نجدها تقول:

في حالتي كان كوني امرأة مؤثرا في كيفية عملي في الميدان: فقد كنت أقضي وقتا في أندية المثليات والمجموعات النسائية أكثر من بارات المثليين أو جمنازيوم الرجال. (Kath Wetson 2004، p. 202)

وأحيانا لا يكون الاشتراك مع المستجيبين في بعض الخصائص كافيا لضمان نجاح الباحث أو الباحثة في الاستيعاب التام للتجارب المعيشة لمن يتم تناولهم بالبحث. فقد قامت كاثرين كولر ريسمان (Catherine Kohler Riessman 1987) بدراسة سرديات الطلاق، وقدمت مثالا على ذلك، إذ وجدت أن كونها امرأة لم يكن كافيا لفهم تجارب النساء المطلقات ممن تختلف خلفياتهن الطبقية والعرقية عنها، فموقعيتها كأمرأة بيضاء من الطبقة الوسطى حاصلة على تعليم عال، وقف حائلا دون فهمها الكامل لخصوصية الطريقة التي كانت تقوم بها كل من هؤلاء المطلقات بصياغة سرديتها عن الطلاق (تبعاً للمواقف لا الترتيب الزمني للأحداث). وقد أدركت الباحثة مدى التحدي الذي واجهته في الفصل بين توقعاتها الثقافية من السرديات التي سمعتها من نساء من خلفيات عرقية وطبقية. وقد واجهت جوزفين بيوكو-بيتس (Beoku-Betts 1994) مسارا شبيها بذلك خلال بحثها الميداني بين نساء جولاه، فهي باحثة سوداء، وقد ساعدها انتماءها إلى السود في ضمان مكانة "من الداخل" في المجتمع الأسود الذي كانت تقوم بدراسته. وتذكر لنا كيف أن واحدة من المستجيبات أخبرتها بأنها "تفضل باحثة سوداء مثلي لنقوم بالبحث في مجتمعها لأن الباحثات أو الباحثين السود لديهم حس بشعبنا لأنهم عايشوا حياتنا" (Beoku-Betts 1994، p. 416). ولكنها وجدت أن موقعها العرقي من الداخل تداخل مع أوجه اختلاف أخرى من حيث الخلفيات الطبقية والثقافية، وهي اختلافات أثارت قدرا من المقاومة داخل المجتمع تجاه ما تقوم به من نشاط ميداني:

لقد لعبت خلفيتي العرقية دورا أساسيا في تمكيني من الوصول إلى المشاركات في البحث، وفي تقليل المسافة الاجتماعية خلال مرحلة مهمة من مسار البحث. إلا أنه تم تحديد هويتي باعتباري من الخارج بواسطة مجموعات فرعية أخرى داخل تلك الهوية. فعلى سبيل المثال

كان لانتمائي إلى جنس دون الآخر ووضعني الاجتماعي (غير متزوجة) ومكانتي المهنية كباحثة جامعية كلها عناصر مؤثرة إما بشكل منفصل أو بالاشتراك مع انتمائي العرقي في تسهيل أو تعقيد مسار البحث. (Beok- Betts 1994، p. 420)

كما تقدم جوزفين بيوكو-بيتس توضيحا جليا للتعقيدات التي نشأت في البحث نتيجة للاختلاف، فقد أوجد وضعها الاجتماعي باعتبارها غير متزوجة بعض التوتر في أحد المجتمعات التي درستها، وهي تذكر هنا كيف أدى الاختلاف إلى حدوث المواقف التالية خلال عملها في الميدان:

في أحد المجتمعات قام أحد رجال المنطقة بزيارة للأسرة التي كنت أسكن عندها، وحين تم التعارف بيننا تذكر أنه كان قد سمع عني وأخبرني بالشائعة التي كانت تتردد في المجتمع بأنني قد أنيت بحثا عن زوج.... وفي موقف آخر حدث في إحدى الكنائس في أحد أيام الأحد، أثار القس الأفروأمريكي موضوع جلسة استماع أنيتا هيل/كلارنس توماس وذلك في أعقاب تعريفي بنفسني لأبناء الكنيسة. وقد كان القس في البداية مشجعا ومرحبا بي في المجتمع باعتباري امرأة أفريقية أنت لدراسة أوجه من التراث التاريخي المشترك، ولكنه ما لبث أن انتقل إلى موضوع جلسات أنيتا هيل/كلارنس توماس، وشرع في الإشارة إلى أن أنيتا هيل كانت هي الأخرى امرأة متعلمة استخدمت تلك الميزة لتوجيه الاتهامات وإحراج كلارنس توماس (والتي كانت بلدتها لا تبعد كثيرا عن هنا). (Beoku Betts 1994، p. 428).

وقد وجدت جوزفين بيوكو-بيتس أن عليها التعامل والنقاش حول اختلافاتها إذا ما كانت تود عقد مقابلات مع المستجيبات، بما يعبر عن مشاعرهن الحقيقية تجاهها. ولم تتمكن من الوصول إلى الأشخاص ذوات بحثها إلا بعد انتهائها من مرحلة النقاش تلك، وعندها كان في وسعها البدء في العمل المشترك على خلق المعنى والفهم.

وبينما يكون من المهم التعرف على التحديات الناجمة عن الاختلاف ، فمن الجدير أيضا الإشارة إلى أن الوضع من الخارج قد يمثل في الواقع ميزة ، وهو أمر يعتمد على مسألة البحث والمجموعة البشرية التي اخترت دراستها ، إذ إن عدم الانتماء إلى فئة معينة قد يجعلك تبدين أكثر حيادية تجاه المستجيبة أو المستجيب . كذلك فإن الموقع من الخارج قد يشجعك على طرح أسئلة حول أمور قد تعتبر محسومة باعتبارها "معرفة مشتركة" ، وبالتالي يمكنك ذلك الموقع من اكتشاف وجهات نظر فريدة لدى المشاركين والمشاركات بشأن قضايا معينة . وقد علق عالم الاجتماع روبرت وايس على قضايا الاختلاف بين القائم بالمقابلة وبين المستجيب وأوردها فيما يلي :

يمكن صياغة تلك المسألة بطرح السؤال عن مدى ضرورة أن يكون القائم بالمقابلة من داخل عالم المستجيب ، في سبيل عقد مقابلة يتمتع القائم بها بالكفاءة ومن الصعوبة التنبؤ بالمزايا التي يتمتع بها القائم بالمقابلة والتي ستثبت أهميتها بالنسبة للمستجيب ، ورد فعل المستجيب تجاهها فهناك العديد من المزايا المختلفة للقائم بالمقابلة والتي قد يستجيب لها المستجيب برد فعل ما ، بحيث نجد القائم بالمقابلة يبدو بالضرورة وكأنه من الداخل بشكل ما أو من الخارج بشكل آخر وقد وجدت عموما أنه من الأفضل أن يكون الباحث من داخل المجتمع الذي يعيش فيه المستجيب ، لأنه يكون من الأسهل لي حينها أن أوجد علاقة شراكة بحثية مع المستجيب . ولكن من بين أفضل المقابلات التي عقدتها هي مقابلات اعتمدت جودتها على كوني من الخارج ، واحتياجي للإرشاد داخل نطاق حياة المستجيب . (Robert Weiss 1994 ، p. 137)

وتجدر الإشارة إلى أن موقع من الداخل/من الخارج هو موقع حدوده غير قاطعة ويمكن أن يتغير حتى أثناء المقابلة الواحدة . فقد يوجد اشتراك في دورك/مكانتك مع المستجيبة أو المستجيب فيما يتعلق ببعض المسائل ، ولكنك قد تكتشفين وجود اختلافات

جلية فيما يتعلق بنقاط تفصيلية أخرى في سؤال بحثك أو موضوع حوارك . ونجد مثالا جيدا على ذلك الموقف في البحث الذي قامت به روزاليند إدواردز (Rosalind Ed-wards 1990)، وهي امرأة بيضاء متعلمة من الطبقة الوسطى مهتمة بعقد مقابلات غير محكمة البناء مع الأمهات الأفروكاريبيات البالغات ممن هن في مرحلة الدراسة الجامعية، وكانت ترغب في فهم التجارب المعيشة لهؤلاء النساء فيما يتعلق بمسائل التعليم والعمل والحياة الأسرية، ولكنها واجهت صعوبة في الوصول إلى تلك الفئة البشرية وإلى الحصول على ثقتهم في مسارات المقابلات الشخصية. وقد اعترف الطرفان أخيرا بالاختلافات القائمة بينهما خلال نقاش عام، وحينها تمكن من مناقشة تجاربهن بصراحة. فقد عايشت روزاليند إدواردز تجربة أشبه بمشاعر المد والجزر في تحولها ما بين الموقع من الخارج إلى الموقع من الداخل، وهو التحول الذي حدث خلال مناقشتها مختلف القضايا مع المستجيبات. وتشير إلى أنها شعرت بكونها أقرب إلى أن تكون من الداخل حينما تركزت المناقشة على الأمومة: "لقد أشارت النساء السود إلى وجود قدر من التفاهم والموقع المشترك بيننا"، ثم حدثت نقلة واضحة عند تحول المناقشة إلى مجال أكثر "عمومية" مثل التجارب التعليمية، ومع أن روزاليند إدواردز شاركتهم أيضا في موقعية الأم البالغة والطالبة الجامعية، فإن الحوار تحول إلى مجال "كانت النساء السود أقل رغبة في الحديث معي حول أكثر ما كان يجمعنا" (Rosalind Edwards 1990، p. 488).

المطاوعة والاختلاف

يكتسب مفهوم المطاوعة (reflexivity) أهميته مرة أخرى حين نتطرق إلى الدراسة عبر الاختلاف. ويمكن للمطاوعة أن تكون أداة مهمة لتتيح للباحثات والباحثين إدراك موقعياتهم ونوعهم وعرقهم وطبقتهم وغيرها من العوامل التي قد تثبت أهميتها في مسار البحث. ويمكننا الاستعانة بالمشروعات البحثية سابقة الذكر لتأمل كيفية تأثير

أوجه التشابه والاختلاف على مسار المقابلة الشخصية . فقد استوجب الأمر من كل من الباحثات والباحثين المذكورين أعلاه مواجهة مدى التشابه والاختلاف بينهم وبين المجموعة التي تم بحثها ، ثم كان عليهم توجيه تلك العوامل وتوظيفها داخل الدراسة . إن ممارسة المطاوعة أدت في الواقع إلى تمكين طرفي البحث داخل محيط المقابلة . فتأمل الاختلاف أتاح لكل من جوزفين بيوكو-بيتس وروزاليند إدواردز وكاثارين كولر ريسمان وكاث ويتسون وروبرت وايس أن يقوموا بالتعامل والتفاوض بشأن أوجه الاختلاف والشبه مع المستجيبين والمستجيبات للوصول إليهم وللحصول على المادة التي ما كان لهم أن يتوصلوا إليها بدون ذلك . كما تمكنوا أيضا من اكتساب رؤى جديدة بشأن المادة المجموعة من منظور الاختلاف . فالمطاوعة التي مارستها كاث ويتسون بشأن هويتها المثلية وتأثيرها على بحثها أتاح لها سهولة الوصول إلى مجتمع المثليات . واعتراف روزاليند إدواردز بأوجه الشبه والاختلاف بينها وبين الأفروكاريبيات منحها فهما أعمق لكيفية حديث تلك المجموعة من البشر عن المسائل العامة والخاصة . كذلك أدرك كل من روبرت وايس وروزاليند إدواردز عدم وجود حدود فاصلة بين الموقع من الداخل والخارج ، والذي يمكن أن يشهد تحولا تبعا لموضوع بحثي ما والتيار الذاتي الذي يحكم المقابلة الشخصية .

وتذكرنا المطاوعة أيضا بأهمية دور الاختلاف في مشروعنا البحثي بأكمله ، فالاختلاف يدخل في كل وجه من أوجه المسار البحثي ، فهو يوجه المشروعات التي نختارها ، ويؤثر في الأسئلة التي نطرحها ، ويوجه الطريقة التي نجمع ونحلل ونكتب ونؤول بها المادة . ويجب تتبع الاختلافات ودراساتها واحتضانها ، لأن تجاهلها والاستهانة بها قد تترك تداعياتها السلبية على المادة وعلى المشروع بأكمله .

تحليل مادة المقابلة الشخصية وتأويلها

سأقدم في هذا الباب بعض المفاهيم العامة المفيدة خلال قيامك بتحليل مادة المقابلة .

ويقدم عالم الاجتماع ديفيد كارب مدخلا من الخطوات (الواردة لاحقا) والتي يمكن تتبعها عند البدء في تحليل مادة المقابلة، حيث يؤكد على أهمية الشروع في التحليل في مرحلة مبكرة لأن التحليل الكيفي للمادة هو عملية مكررة من الجمع والتحليل معا، وهما عمليتان يجب أن تتما أنيا. ويقترح ديفيد كارب كتابة المذكرات القصيرة (memoing) أثناء مسار البحث وذلك لتتبع مدى التجانس القائم بين المادة المجموعة، فكتابة المذكرات القصيرة سيساعدك على تتبع ما يطرأ على البحث من تقدم كما أنه يتيح فرصة تسجيل أية هواجس وأفكار قد تساورك خلال البحث بشأن الصلات بين مختلف المواد المجموعة. ويمكن تأمل اللحظات الفاصلة في البحث من خلال تدوين المذكرات القصيرة، ولكن تلك النصوص القصيرة ستساعدك أيضا على المزيد من المطاوعة بشأن موقعيتك ومدى تأثيرها على البحث. كذلك يؤكد ديفيد كارب أهمية السعي بحثا عن "الحالات السلبية" التي لا تتجانس تماما أو التي تخلق مشاكل داخل البحث، وهي حالات يمكنك التوصل إليها من خلال طرح السؤال التالي على نفسك: ما الذي لا يتماشى مع تأويلي؟

نصائح ديفيد كارب من أجل تحليل ناجح لمادة مقابلاتك المعقدة

فلنتذكر أن التحليل الذي تقوم به على مدار البحث هو بنفس القدر من أهمية جمع المادة. ولا تلجأ أبدا إلى التعامل مع مهمة جمع المادة باعتبارها مسألة أدنى مرتبة من التفكير وتحليل المادة. إن مصدر القوة التي تتمتع بها مناهج المقابلات المعقدة إنما يرجع إلى القدرة على القيام في نفس الوقت بجمع المادة وتحليلها، وهما عمليتان يجب أن تفيد إحداها الأخرى.

ولتبدأ بكتابة المذكرات القصيرة مع أول مقابلة. واترك المجال للمواد التي تجمعها منذ البداية أن تخبرك بما هي الأفكار السليمة وتلك التي تحتاج إلى إعادة تقييم. وفي البداية تحديدا ستسمع من يقول لك أشياء لم تكن قد خطررت على بالك من قبل، فابحث جيدا عن الاتجاهات الأساسية التي لم

يخطر على بالك تتبعها . إن إيقاع كتابة المذكرات القصيرة يكون كبيراً في بداية العمل ، وأنا أدعو إلى كتابة مذكرات "الفكرة" أو "المفهوم" والتي تمهد لنشأة فكرة ما ، وهي مذكرات تمتد صفحة أو صفحتين .

قم بإعادة تقييم دليل المقابلة الذي تستخدمه بعد عقد 10 مقابلات ، فعشر مقابلات تقدم معلومات كافية بما يتيح تقييم ما تتعلمه أو ما تعجز عن تعلمه . وربما تمثل نقطة جيدة لتأمل أسئلة بحثك والأفكار الأساسية الآخذة في التطور .

إذا كنت تعتقد أنك كنت قادراً على التوصل إلى فكرة محددة ، فقد حان الوقت لكتابة مذكرة "بيانات" ، وهي مذكرة تدمج الفكرة بالمادة وكل الأدبيات ذات الصلة . إن ما أعنيه بمذكرة البيانات هو أقرب إلى ما يبدو كورقة بحث مبدئية ، ويجب عليك فيها استخدام مادة تفوق ما ستستخدمه فعلياً حول نقطة ما في ورقة البحث . فإذا كانت لديك نقطة عامة ما ، وجدت بأنك تملك 10 نقاط فرعية من المادة البحثية التي تتماشى مع النقطة العامة ، ضعها جنباً إلى جنب وتأملها ثم استخدمها لاحقاً . وتأكد أيضاً من أنك تستعرض ما يقوله الأشخاص ممن لا يتماشون مع النسق العام لبحثك .

وبمجرد أن تبدأ الأفكار في التطور والتشكل اتبع طريقاً مختلفاً للعثور على حالات لا تتماشى معها . يجب أن تسعى بأقصى قدر ممكن لإثبات خطأ ما توصلت إليه من أفكار . ولا تخش من التعقيد والغموض في الأفكار ، فالعالم معقد ولا بد لكتابتك من أن تعكس هذا التعقيد . ويميل الباحثون في العلوم الاجتماعية إلى وصف الأنماط والأنساق المتجانسة والمتماثلة ، وهو أمر يقلل من التعقيد الكامن في الأشياء ، فلا تقع في غرام النظريات الأولية والممكنة .

بعد عقد 20-15 مقابلة قد يكون من المفيد إيجاد فئات للترميز ، وتتمثل المهمة هنا في البدء في إيجاد أكبر قدر ممكن من الفئات ، والترميز هو سبيل

آخر من سبل "الاقتراب من المادة" وإفصاحها لك عما تعرفه . ويمكنك في النهاية استخدام تلك الرموز أثناء مراجعتك للمادة قبل كتابة المذكرات .

قم بكتابة مذكرة كاملة نسبيا كلما اتخذ البحث مجرى جديدا (مثل حدوث تغيير في إجراءات اختيار العينة) ، مع تقديم شرح واف للتغيرات في اتجاهات التحليل . ويمكن لمذكراتك أن تشكل "مسارا" يمكن للآخرين تتبعه . وعلى من يقومون بالبحث الكيفي تحمل المسؤولية الكاملة عن الإجراءات المتبعة بنفس القدر الذي ينطبق على من يتبعون إجراءات محددة ومستقرة .

إذا كنت ترى أن لديك فكرة راسخة بما يتيح كتابة ورقة بحث للنشر ، قم بذلك فوراً . إن نشر أوراق البحث أمر يؤكد سلامة المسار ويصقل الأفكار . ولا يجب عليك الانتظار حتى تكتمل مادة البحث كلها قبل أن تشرع في كتابة ورقة بحث ، وستجد أن بعض أوراقك ستمثل "عينة فرعية" ضمن عينة أشمل .

ومن آن لآخر قم بكتابة خطوط عامة لما يمكن أن يبدو عليه كتاب أو رسالة أكاديمية أو تقرير مبني على المادة العلمية . وقم بإعداد خطط مبدئية ، واعمل كما لو كنت على وشك البدء في كتابة كتاب ، فهو تمرين جيد يتطلب منك رسم صورة متكاملة .

لا تكون مهووسا بالحصول على بيانات متطابقة من كل المستجيبين ، فستجد أن كل مستجيب يتميز بشيء من التفرد . وأثناء الكتابة لابد من الإشارة إلى الحكايات الفريدة هنا وهناك . ولعل من الصائب أن تكتب ملخصاً طوله صفحة تقريباً بحيث يصف الأفكار الأساسية الواردة في كل مقابلة شخصية .

اختبر فرضياتك من خلال المستجيبين ، قم بدمج فرضياتك داخل أسئلتك ("أتعلم أن الكثيرين ممن تحدثت إليهم أخبروني أن...؟ فهل

ترى في ذلك منطقاً ما؟“) فلا داعي لإخفاء الفرضيات والأفكار والمفاهيم .
انتبه إلى الحالات المتطرفة لأنها تحمل عادة الكثير من المعلومات .
وكن حريصاً دوماً على عمل “تحليل الحالات السلبية“ .

إن المقابلات الشخصية المعمقة تلتقط تجارب الحياة التي يعيشها الفرد، وتضفي الباحثات النسويات منظوراً فريداً على ممارسات المقابلات المعمقة نظراً لإدراكهن -عادة- بمسائل القوة والسلطة التي قد تؤثر في مسار البحث . وهؤلاء الباحثات حريصات على التوقف أمام موقعياتهن ، فالباحثات النسويات قادرات على تحديد كيفية تأثير قيمهن وتحيزاتهن الشخصية في عملية البحث في كافة مراحل المسار البحثي ، وهو ما يتضمن أنواع أسئلة البحث التي يتم طرحها وكيفية جمع المادة البحثية وتحليلها وتأويلها . إن الباحثات النسويات ملتزمات بالوصول إلى المعرفة التابعة التي تقع -عادة- مخفية عن عملية بناء المعرفة السائدة . والباحثات النسويات مهتمات تحديداً بقضايا العدالة الاجتماعية والتغيير الاجتماعي من أجل النساء وغيرهن من الفئات المهمورة .

وسننتقل في الفصل التالي إلى أشكال أخرى من البحث النسوي ، والتي تتضمن عقد المقابلات كوسيلة لجمع المادة . وسوف نتوقف أولاً أمام أبحاث التاريخ الشفوي النسوي ، ثم ننتقل إلى عقد المقابلات في مجموعات مناقشة (focus groups) . وسنركز على كيفية إمكانية الاستعانة بهذه المناهج في خدمة القضايا النسوية .

- Anderson, Kathryn, & Jack, Dana C. (1991). Learning to listen: Interview techniques and analyses. In Sherna B. Gluck & Daphne Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 11–26). New York: Routledge.
- Beoku-Betts, Josephine. (1994). When black is not enough: Doing field research among Gullah women. *NWSA Journal*, 6, 413–433.
- DeVault, Marjorie. (2004). Talking and listening from women's standpoint: Feminist strategies for interviewing and analysis. In Sharlene Hesse-Biber & Michelle Yaiser (Eds.), *Feminist perspectives on social research* (pp. 227–250). New York: Oxford University Press.
- Edwards, Rosalind. (1990). Connecting methods and epistemology: A white woman interviewing black women. *Women's Studies International Forum*, 13, 477–490.
- Harding, Sandra. (1993). Rethinking standpoint epistemology: What is "strong objectivity"? In Linda Alcoff & Elizabeth Potter (Eds.), *Feminist epistemologies* (pp. 49–82). New York: Routledge.
- Hesse-Biber, Sharlene Nagy, & Leavy, Patricia. (2006). *The practice of qualitative research*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Mann, Susan A., & Kelley, Lori R. (1997). Standing at the crossroads of modernist thought: Collins, Smith, and the new feminist epistemologies. *Gender & Society*, 11(4), 391–408.
- Oakley, Ann. (1981). Interviewing women: A contradiction in terms. In Helen Roberts (Ed.), *Doing feminist research* (pp. 30–61). London: Routledge and Kegan Paul.
- Patai, Daphne. (1991). U.S. academics and Third World women: Is ethical research possible? In Sherna Berger Gluck & Daphne Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 137–153). New York: Routledge.
- Patton, Michael Q. (2002). *Qualitative research and evaluation methods* (3rd ed.). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Reinharz, Shulamit. (1983). Experiential analysis: A contribution to feminist research. In Gloria Bowles & Renate Duelli-Klein (Eds.), *Theories of women's studies* (pp. 162–191). New York: Routledge.
- Reinharz, Shulamit. (1992). *Feminist methods in social research*. New York: Oxford University Press.
- Riessman, Catherine K. (1987). When gender is not enough: Women interviewing women. *Gender and Society*, 1, 172–207.

- Stacey, Judith. (1991). Can there be a feminist ethnography? In Sherna Gluck & Daphne Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 111–119). New York: Routledge.
- Weiss, Robert S. (1994). *Learning from strangers: The art and method of qualitative interview studies*. New York: Free Press.
- Weston, Kath. (2004). Fieldwork in lesbian and gay communities. In Sharlene Hesse-Biber & Michelle Yaiser (Eds.), *Feminist perspectives on social research* (pp. 198–205). New York: Oxford University Press.

الفصل السادس

ممارسة التاريخ الشفاهي النسوي

ومقابلات مجموعات النقاش

باتريشا لينا ليفي

في المقطع التالي من "ما وراء الستار"، تتيح لنا الباحثة النسوية ماكسين بيرتش الدخول وراء ستارة عملها البحثي، فتتناول بالدراسة القضايا المتعلقة بفكرها النسوي في ممارسة البحث الكمي. وهي تصف كيفية قيامها بالتفاوض بشأن بعض المسائل المعقدة التي تواجهها الباحثات النسويات خلال عملية بناء العلاقات في الميدان وأثناء المقابلات الشخصية، وهو الأمر الجوهرى في ممارسات التاريخ الشفاهي، والذي يتطلب درجات عالية من التفاهم والثقة وروح العمل المشترك. وينصب حديث ماكسين بيرتش (Maxine Birch) في جوهره على السؤال التالي: "هل يمكنك التعرف على 'النسوية' في الميدان؟"

* ملحوظة: بعض أجزاء هذا الفصل مأخوذة بموافقة المصدر التالي:

Hesse-Biber and Leavy (2006), The Practice of Qualitative Interviewing, Sage Publications, Inc.

ما وراء الستار مع ماكسين بيرتش

إن الدور البحثي الذي أتبعناه عند إجراء مقابلة أو المشاركة في سياق بحثي يسعى إلى أن يبدو "عاديا" بقدر المستطاع ، وهو دور ندين به لتراث علم الإثنوجرافيا وكثير من المساهمات المنهجية التفاعلية والنسوية . ويتيح البحث الكمي الفرصة أمام الحوارات لتجاوز المعاني العامة والمعممة ، بما يشجع على مزيد من التعبير الحميمي والخاص . وأرى أن الباحثة أو الباحث اللذين يختلطان بالناس وبالسباق الاجتماعي للبحث قادران على بلوغ أعماق المعنى اللازم للبحث الكمي المقبول والموثوق به . وأشعر أنا بالراحة عند القيام بدور البحث الطبيعي (naturalistic research) ، إذ أستمتع بالوقت الذي أقضيه مع الناس وفي التعرف عليهم ، كما أميل إلى دراسة السياقات الاجتماعية المحيطة بي ، حيث تتجانس تجاربي الشخصية مع تجارب الآخرين . إن الوجود في الميدان يشعرني بأنه امتداد لحياتي اليومية .

ولست على يقين من مصدر فضولي العميق لفهم الناس المحيطين بي ، فأنا أذكر طفولتي باعتبارها مرحلة خالية من أي وعي سياسي أو ثقافي ، فقد كانت أسرتي وأصدقائي يعيشون - كغيرهم - دون التوقف أمام حياتهم بالتفكير أو التساؤل . وفي سبيل فهم مصدر نشأة اهتمامي بالبحث يتعين علي أن أتناول كيفية تشكيل النسوية لما أنا عليه . فكوني امرأة شابة خلال السبعينيات من القرن العشرين استوعبت الكثير من الروايات الأدبية النسوية ، ثم اتجهت لدراسة النسوية في العلوم الاجتماعية خلال الثمانينيات . وقد كانت الحكايات النسوية تحمل تفسيراً لتجاربي وتأكيداً على كون التجربة الشخصية فعلاً سياسياً ، مما أدى إلى نشأة تلك الهوية النسوية القوية التي تجعلني الآن أعتبر نفسي نسوية . ولكن هل أنا باحثة نسوية؟ لقد أطلقت على نفسي هذا المسمى في نصوص أكاديمية ، ولكن

التوقف العميق أمام علاقتي بالمشاركين والمشاركات في الميدان يكشف عن أنني لا أعترف بهويتي النسوية أثناء بناء علاقات بحثية.

وأنا أقوم هنا بتناول ذلك الأمر من حيث ما إذا كان بسبب شعوري بعدم الراحة إزاء الإعلان عن نفسي باعتباري نسوية في الميدان؟ أم بسبب ما تتطلبه علاقات البحث من حساسية خاصة تجاه مدى رد فعل الطرف الآخر تجاه تلك المعلومة؟

وفي "الدراسة العلاجية" استخدم الكثيرون من المشاركين الذكور العلاج الجماعي (group therapy) لفهم تجاربهم مع العلاقات الشخصية مع النساء. وفي سبيل تشجيع المشاركين الذكور على التعبير لي عن مشاعرهم، نشأت لدي حساسية معينة للتعرف على نظرتهم تجاه النساء، والتي كثيرا ما كانت تتعارض مع قيمي الشخصية والأكاديمية بشأن النساء والفكر النسوي بأنواعه. ولم أعارض قط أيا من الافتراضات التي كانت لديهم عني، وكنت أمل في أن يعتبروني امرأة "عادية"؛ لأنني كنت أرى في ذلك أمرا ييسر كشفهم عما في أنفسهم. وقد كنت على قناعة بأن الإعلان الصريح عن أية آراء نسوية خلال هذه العلاقة البحثية قد يؤدي إلى تغيير الافتراضات تلك يحملونها تجاهي مما قد يغير بالتالي ما يحكونه لي. ولذا احتفظت بهويتي النسوية لنفسني كما لم أصرح بأثر الفكر النسوي على صياغة خطتي البحثية. ومن ناحية أخرى كثيرا ما كانت النساء المشاركات في هذه الدراسة يعبرن عن قيم نسوية شبيهة بقيمي، وبالتالي كانت هويتي النسوية تظهر على السطح، فكان اعتباري امرأة "عادية" في نظر هؤلاء النساء يشمل التعبير عن الكثير من الآراء النسوية عن الرجال عامة وبشأن كيفية تشكيل بنية العلاقات الشخصية. وهكذا كان إحساسي بذاتي النسوية عاملا مساعدا في تشجيعهن على التكلم معي عن مشاعرهن وتجاربهن. ومع ذلك لم أتطرق في مناقشات معهن إلى

كيفية تأثير الفكر النسوي على موقعي البحثي . وفي دراسة أخرى عن "الشباب وسرديات التدخين" كنت في حاجة إلى إثارة وعيي بالسياقات المختلفة والعلاقات الاجتماعية القائمة في حيوات الشباب ، فقد كان الشباب يعتبرونني "عادية" من منطلق كوني "محلية" و "أماً" و "مدخنة سابقة" ، ومن هذا الموقع كانوا يشعرون بأنني قادرة على تفهم أوجه متنوعة من حياتهم . وقد أدى ذلك إلى خلق علاقة بحثية تمتعت فيها بتلقي الكثير من الحكايات الشخصية والحميمية عن حيواتهم .

وهكذا فحين أتأمل مختلف العلاقات البحثية التي أدخل فيها وأبنيها ولا أندمج فيها ، فإنني أشعر بأنني أتعامل فيها على سجليتي مع وجود حدود تتلاءم مع الحدود التي تتطلبها مهنية البحث . إن الإعلان عن كوني باحثة نسوية أثناء خلق علاقة بحثية يبدو أمراً غير حيوي ومسألة إضافية ، فأنا أقوم طواعية بالإفصاح عن جوانب خاصة بذاتي في سبيل بناء قاعدة مشتركة في الحوار لأنه يشجع الآخرين على الكلام معي . ولكنني أحتفظ بأجزاء من ذاتي لنفسني ، وهي جوانب شخصيتي التي قد تعتبر فائقة الاختلاف أو التباين أو التعارض مع الآخرين ، فالطرف المشارك في البحث ليس منوطاً بالتفاعل مع ما قد أكون عليه في جوانب أخرى من حياتي . نعم ، أنا أقوم بتشكيل البحث ، وأقوم بتوجيه المسار والمشاركة في صياغة الروايات التي يتم سردها ، ولكنني لست العامل المحفز . نعم ، أقوم بالرد على الأسئلة المطروحة عني ، في حين وفي حال طرحها ، ولكن أي إضافة مني إنما تسعى لاكتشاف المزيد عما يقوله الطرف الآخر أو عما يحدث . ويمكنني أن أشبه هذا الدور بدور المعالج النفسي الذي يتبنى مدخل التركيز على الشخص (person-centered approach) ، وباعتباري باحثة؛ فإنني أتبني التركيز على المستجيبة أو المستجيب (re-spondent-centered) . فدوري في الميدان لا يقوم على الكشف عن كيفية تفهم الشخص لتجاربه أو تجاربها ، وإنما تيسير الزمان والمكان

للكشف واستيعاب الآراء والتفسيرات التي قد تنشأ عن تلك التجارب .

وفي نطاق الأبحاث التي قمت بها فإن الحكايات الشخصية والمعاني التي توصلت إليها من الملاحظة المباشرة هي تنتج داخل العوالم الشخصية التي ينتمي إليها المشاركون والمشاركات ، والعالم البحثي الذي أحده أنا هو جزء من حياتهم اليومية . فالمشاركات والمشاركون يفهمون قصص حياتهم بطريقةهم ، كما يشيرون في الوقت نفسه إلى كيفية إمكانية تأمل بعض جوانبها على المستوى السياسي . وهم ليسوا في حاجة لي كي أشير إلى ذلك الأمر بدلا منهم . وختاما فإن الدور البحثي الذي أتبناه ليس مخادعا بسبب عدم انزعاجي الشخصي من الإفصاح عن نفسي كباحثة نسوية ، وإنما يتيح لي ذلك العمل نحو تحقيق دور أكثر أصالة وانسجاما بما يتماشى مع الموقع الذي يرغب المشاركون والمشاركات والمشاركين في وضعي ضمنه . وأحيانا تتطور تلك العلاقة البحثية إلى شيء من الحميمية والراحة ، كلما ازداد الكشف عن التجارب وقصص الحياة . وفي أحيان أخرى يؤدي ذلك إلى فضول الوعي بالاختلاف والغربة في إطار من الاحترام . إن تلك العلاقة البحثية القائمة على "التعارف" والتفاعل والبناء وعدم التعامل مع شخص آخر يمكن أن تنتهي من أن إلى آخر بمشاعر البعد وعدم الاستلطاف ، ولكن نادرا ما تنتهي أية علاقة بحث دون الكشف عن أمر مهم للمشروع البحثي .

إن نصوص البحث النسوي تنبهننا إلى أشكال التفاوت الذي ينشأ بين الإنتاج الأكاديمي للمعرفة وبين ما تم في الميدان ، كما تقدم لنا تلك النصوص استراتيجيات منهجية ، مثل كتابة السيرة الذاتية ، لمواجهة ذلك التوتر القائم . وأنا أرى وجود حاجة لهذا التوتر للحفاظ على أكبر قدر من القرب و "الحقيقة" في هذا اللقاء البحثي ، وهو توتر يتغير تلقائيا عند انتهاء التعامل بين طرفي العلاقة البحثية . إن النسوية هي جزء من مفهومي عن هويتي ، وأنا أعلن عن ذلك في الظروف الملائمة ، وهو إعلان قد يفرض

على الطرف الآخر إحساسا قويا بـ "من أنا" قبل منح العلاقة الوقت الكافي لتطورها، فعلاقات البحث تتطلب الوقت لحمايتها من هذا الشكل من الفرض والإجبار. إن المسألة الشخصية هي أمر سياسي، والباحثات الكميات النسويات على علم جيد بالموقع المتميز الذي يتمتعن به، بما يجعل عمليات تسييس الأمر واضحة ومرئية. ولم يسبق لي أن دخلت سياقات بحثية حاملة نية سياسية صريحة لدعم التغيير الاجتماعي عبر العلاقة البحثية، إذ يتعين علي أن أتيح للمشاركات والمشاركين تفهم رواياتهم واستيعابها خلال مسار البحث، وهو ما يتطلب مني أن أتحمّل المسؤولية الأخلاقية لاختياري مكان وزمان وكيفية التعبير عما لدي من معرفة أو قيم أو قناعات خلال اللقاء البحثي. كما يتطلب مني أيضا أن أتحمّل نتيجة الخطوة التالية حين يصبح في وسعي تسييس الروايات الشخصية لإنتاج معرفة أكاديمية. ولذا فسأظل أطلق على نفسي مسمى الباحثة النسوية بما أن تلك هي المعرفة الأكاديمية التي اخترت أن أقوم بإنتاجها، وسأواصل في الميدان تبني دور التخفي على أمل أن يعكس ذلك كيفية قيام المشاركين والمشاركات بتفسير الأمر بأنفسهم.

ويشير الكثير من تجاربي في الحياة إلى كيفية التغيير الذي يطراً على الحوار عندما أعلن عن تمسكي ببعض المبادئ والقيم النسوية، ومن هنا فعند "قيامي بالبحث" يكون اختياري قائما على التحكم في كيفية تقديم مفهومي الشخصي للنسوية والمعرفة بالفكر النسوي الأكاديمي، وهو تحكم يتكيف مع الطريقة التي أحدد بها موقعي باعتباري باحثة نسوية في اللقاءات البحثية المتنوعة وفي إنتاج النص البحثي.

ملحوظة

أقدم بالشكر والامتنان لكل من ربيكا جونز ونينا نيسن، وهما زميلتان نسويتان ساعدتاني في تطوير أفكارتي المعروضة هنا.

وبشكل عام ، فإن التاريخ الشفاهي هو منهج مركز في عقد المقابلات وذو جذور أنثروبولوجية ، كما يكثر استخدامه أيضا بواسطة علماء الاجتماع والمؤرخين والمؤرخات ، وكيرا ما يرتبط بالنسويات . وتشرح إيلين كلارك أن التاريخ الشفاهي "يقع في المساحات ما بين الإثنوجرافيا وعلم الاجتماع والتاريخ" (Eileen Clark ، p. 3 ، 1999 . وهناك جانب يتسم بالأداء التمثيلي (performative) في التاريخ الشفاهي ، لأن الحكى يشتمل دوما على الأداء :

في إشارتها إلى الأداء التمثيلي في الحكى ، تؤكد فينيجان على أن هذه العلاقة الديناميكية هي ما يمكن الحكائين من اختيار الزمان والمكان الأنسب لتحقيق أقصى تأثير ، وصياغة الصور المجازية ، وإضافة التأكيد ، واستخدام الإيقاع لبناء المعنى الدرامي والقوي في كل مرة يتم فيها حكى حكاية ما . وقد واجهت هي بقوة ميل الباحثين إلى اختزال الحكايات الأفريقية في مجرد نص ، كما واصلت تأكيدها على القيمة الأدبية لفن الحكى . (Schneider 2002 ، p. 50)

وبينما يمكن القيام بالتاريخ الشفاهي من أي منطلق من المنطلقات النظرية والإبستمولوجية العديدة ، فإن التاريخ الشفاهي يعتبر بحق بالنسبة لبعض النسويات هو أداة مناسبة لاكتساب المعرفة عن تجارب الحياة من النساء وغيرهن . إن للتاريخ الشفاهي - كما هو الحال بالنسبة للفكر النسوي - أجندة سياسية . (Turnbull 2000 ، p. 16) ، كما يقوم بدمج النساء في البحث الأكاديمي (Sangster 1994 ، p. 5) . ويعتمد التاريخ الشفاهي على تراث طويل من الانتقال الشفاهي للمعرفة ، ويعتمد على التواصل القوي والحكي . وتختلف روايات التاريخ الشفاهي من المقابلات الشخصية المعمقة في أنها بطبيعتها أطول وتتوغل في الحوار ، حيث يقوم الباحث والباحثة تجاه الطرف الذي يمثل الذات في المقابلة (interview subject) بدور المستمع النشط والميسر . ويمكن لمقابلات التاريخ الشفاهي أن تصل إلى درجة العمق التي تجعل الباحث أو الباحثة يعقدان

جلسات عديدة مع نفس المستجيبة أو المستجيب، بل ويحدث أحيانا أن يعمل الباحث أو الباحثة مع مستجيبة أو مستجيب واحد أو أكثر على مدار شهور أو سنين. وكثيرا ما نجد أن المشروعات التي تستخدم منهج التاريخ الشفاهي تجمع المادة من عدد من المستجيبين أو المستجيبات أقل من عددهم في مشروع يستخدم المقابلات الشخصية المعمقة، ولكن الباحثة أو الباحث يكتسبان فهما أعمق لتجارب المستجيب أو المستجيبة، وعادة ما يكون ذلك على مدار فترة طويلة في حياتهم.

• لماذا تستخدم النسويات منهج التاريخ الشفاهي؟

• ما الصلات القائمة بين منهج التاريخ الشفاهي والاهتمامات النسوية؟

• كيف تستخدم النسويات التاريخ الشفاهي وكيف يحملن تصورا مختلفا بشأنه مقارنة بالباحثات والباحثين الآخرين الذين يستخدمون نفس المنهج؟

يكثر استخدام النسويات للتاريخ الشفاهي كسبيل لكسب مادة كمية وفيرة من أناس قلما تم تضمين تجاربهم ضمن أجندات البحث. وفي هذا الصدد يكون التاريخ الشفاهي أداة للتوصل إلى المعرفة المسكوت عنها أو المستبعدة، وذلك من أجل الكشف عن تلك المعرفة "الغائبة" والحفاظ عليها. فعلى سبيل المثال نجد كتاب روشيل سايدل بالغ الأهمية، عن النساء اليهوديات في معسكر تعذيب رافينسبروك (Rochelle Saidel، 2004 The Jewish Women of Ravensbrück Concentration Camp) يستخدم التاريخ الشفاهي ضمن غيره من المناهج لتسجيل التاريخ الذي سبق السكوت عنه بشأن اليهود الذين عانوا في معسكر رافينسبروك، وخاصة تجارب النساء اليهوديات اللاتي عانين بأشكال لها خصوصيتها. فهو جزء من التاريخ تم تجاهله. كما يكثر استخدام التاريخ الشفاهي أيضا بواسطة النسويات لدراسة تجارب القهر أو الانتماء لفئة مقهورة. فيقدم التاريخ الشفاهي للنسويات أداة للوصول إلى التجارب الشخصية مع القهر. فعلى سبيل المثال، نجد أن دراسة سباركس (Sparkes 1994) قامت على مشروع مقابلات للتاريخ الشفاهي مع مدرسة مثلية للتربية الرياضية من

أجل دراسة كيف شكّل التمييز والتحيز للجنسانية الغيرية (heterosexism) تجاربها في مكان العمل. وتشعر بعض النسويات بأن شخصنة تجربة القهر تحصل على دفعة فريدة من نوعها من خلالها التاريخ الشفاهي، كما أن منهج التاريخ الشفاهي يتيح أيضا للنسويات، الملتزمات -بالتركيز على أصوات النساء- فرصة مواجهة ما يحملنه من أساليب تفكير مسبقة وتصنيف للتجارب، كما يفسح المجال أمام أصوات النساء وغيرهن من الأصوات على تنوعها وتعددتها للظهور. ويتم تسليط المزيد من الضوء على هذا الجانب من بحث التاريخ الشفاهي النسوي عند تناول دور الباحث أو الباحثة باعتبارهما مستمعين، وباعتبار المشارك أو المشاركة في البحث حكاين.

إن الارتباط العضوي القائم بين التاريخ الشفاهي والفكر النسوي يتجاوز مسألة تضمين معرفة النساء ودراسة القهر، كما يتطرق إلى طريقة تصور الفكر النسوي للتجربة. وبصورة أكثر تحديدا، فإن ذلك الارتباط العضوي يتطرق إلى طريقة تصور كثير من النسويات للعلاقة بين الفاعلية (agency) والبنية (structure)، أو الفرد والمجتمع. وبما أن النسوية هي منظور سياسي بالضرورة، وأن قهر النساء وثيق الصلة بالتشكيل الاجتماعي للواقع، فإن حيوات النساء وتجاربهن متصلة ببنى رمزية ومؤسسية أشمل. ويتم استخدام التاريخ الشفاهي عامة بواسطة النسويات كطريقة لتجاوز الفجوة بين السيرة الشخصية للنساء وبين السياق الاجتماعي الذي تتم فيه كتابة هذه السيرة. فالتاريخ الشفاهي يصرح بإتاحة المجال أمام تسييس التجربة الفردية، وبالتالي يكون عميق الصلة بمشروع النسوية. وإذا نظرنا إلى الأمر بشكل مختلف قليلا فإننا نجد أن التاريخ الشفاهي قادر على الدمج بين العام والخاص، بين الفردي والمجتمعي، مع توضيح الزيف الكامن في تلك البنى الثنائية، والعلاقة بينها في الواقع المعيش. وتقدم أبحاث كريستين هيوارد (Christine Heward 1994) مثالا إمبريقيا على كيفية استخدام النسويات للتاريخ الشفاهي كوسيلة لتحديد موقع الفرد داخل السياق البنيوي. وقد قامت بالتاريخ الشفاهي لامرأة أكاديمية بغرض دراسة عدم تمثيل النساء بالقدر الكافي من أجل تتبع ظاهرة "السقف الزجاجي" في المجال

الأكاديمي (الذي يشير إلى ظاهرة إيقاف المسار العملي الأكاديمي للنساء وعدم تمثيلهن بالقدر الكافي في المناصب العليا، ... إلخ). ومن خلال منهج التاريخ الشفاهي تمكنت كريستين هيوارد من منح صوت لتجربة فردية تظل صاحبتها في بؤرة السرد، بينما تقوم في الوقت نفسه بدراسة مفهوم السقف الزجاجي، على سبيل فهم الظروف البنوية التي تعمل النساء الأكاديميات في إطارها. ومن الأمثلة الأخرى على استخدام التاريخ الشفاهي لفهم تجارب الحياة الفردية داخل السياق الاجتماعي الأشمل هو ما نجده في أبحاث ريتشيل سليتر (Rachel Slater 2000) حيث قامت بالتاريخ الشفاهي لأربع نساء في مدينة كيب تاون بجمهورية جنوب أفريقيا. وتشير أبحاث ريتشيل سليتر إلى فائدة التاريخ الشفاهي في فهم كيف يتعرض الأفراد لقيود مختلفة من منطلق سياقاتهم الاجتماعية والاقتصادية. كذلك ترى ريتشيل سليتر إلى أن أبحاث التاريخ الشفاهي يمكن أن تفيد الباحثات والباحثين في التنمية والمهتمين بفهم أثر التغير الاجتماعي على سير الحياة الفردية. وتستعين بعض النسويات بالتاريخ الشفاهي لتوثيق كيفية اختلاف تشكيلات النساء وتمثيلاتهن للتاريخ مقارنة بالروايات الموثقة عن الرجال. ويمكن أن تأتي النتائج بمفاجآت، ويجب على المؤرخات الشفاهيات النسويات الاستعداد للتخلي عن افتراضاتهن المسبقة. وقد توصلت كاباساكال آرات (Z. Kabasakal Arat 2003) إلى ذلك بشكل مباشر في دراستها للتاريخ الشفاهي، إذ اكتشفت أن النساء التركيات روين أحداثا معينة من الماضي بشأن التعليم بنفس الطريقة التي رواها بها الرجال. وهو الأمر الذي قد يقلب بعض الفرضيات رأسا على عقب فيما يتعلق بغياب العدالة بين الجنسين في هذا السياق تحديدا، أو قد يكون مؤشرا على تغلغل الفكر الذكوري.

ويمكن أن نتخذ الافتراضات عدة أشكال، بل وكما رأينا عبر صفحات هذا الكتاب، فإن النسوية نفسها قد تشكلت بفعل افتراضات مختلفة في لحظات زمنية مختلفة. وتحدث الباحثة النسوية شيرلي هيل عن إقصاء النساء الأفروأمريكيات عن النسوية حين نشأتها، كما تتطرق بالحديث إلى الطرق التي يؤثر بها هذا التاريخ وقضايا الاختلاف بشكل أعم في أبحاثها القائمة على المقابلات. فلننضم إذن إلى د. شيرلي هيل (Shirley A. Hill) فيما وراء الستار.

ما وراء الستار مع شيرلي هيل

العثور على صوتنا

إن عقوداً من البحوث في العلوم الاجتماعية التي عملت على تحقير و/أو تهيمش الأفروأمريكيين واجهت تحدياً كبيراً خلال الستينيات من القرن العشرين بظهور سيل من الباحثات والباحثين الجدد الذين أصرّوا لا على إتاحة المجال للسود كي يتحدثوا عن أنفسهم فحسب بل كذلك على احترام رؤى السود وتجاربهم المعيشية. وقد برزت النساء السود من بين هؤلاء المطالبين بالتغيير، إلا أن أصواتهن كانت كثيراً ما توضع في مرتبة أدنى من الرجال السود والنساء البيض. إن الادعاء السياسي السائد بأن النساء السود يتمتعن بالقوة و"الأمومة الحاكمة" خضع للرفض الصريح من قبل الزعماء الأفروأمريكيين، بينما كان يتم استدعاء نفس التصور عن النساء السود لإسكاتهن وتشجيعهن على تبني وضع غير قيادي في حركة الحقوق المدنية. وقد أدى ذلك إلى نشأة تصور "ذكوري" متزايد للقهر العنصري باعتبار الرجال السود هم ضحاياه الأساسيين. إن سياسات الجندر الشنعاء السائدة بين الأفروأمريكيين سايرت السياسات العنصرية الواضحة في النسوية الليبرالية. فقد جاءت الموجة الثانية من النسوية مخاطبة في الأساس هموم النساء البيض من الطبقة الوسطى، كما حاولت أحياناً بشكل مقصود تجنب تلوّث أجندتها بتناول قضايا القهر العنصري.

وقد قاومت النساء الأفروأمريكيات هذا التهميش الواقع عليهن في حركة تحرر السود والحركة النسوية، ونتيجة للجهود البالغة التي بذلتها باحثات، مثل بولا جيدنجنز وجاكلين جونز، أخذت حكايات

حياة النساء الأفروأمريكيات في الظهور التدريجي . وقد جاء كتاب باتريشا هيل كولينز الصادر عام 1990 عن "الفكر النسوي الأسود: المعرفة والوعي وسياسات التمكين" (Patricia Hill Collins ، Black Feminist Thought: Knowledge ، Consciousness ، and the Politics of Empowerment) ، بمثابة عمل محوري في وضع إطار نظري لتجارب النساء السود . فقد رأت باتريشا هيل كولينز أن النساء الأفروأمريكيات يتمتعن بموقعية تتشكل بفعل موقعهن الاجتماعي وتراثهن الثقافي وأوضاعهن المادية؛ مما مكنهن من رفض التقييم السلبي لحياتهن والمتداول في المجتمع السائد . ولكن التعبير عن هذا الموقع كثيرا ما كان صعبا ، فقد أصاب الإحباط الباحثات والباحثين الأفروأمريكيين الذين حاولوا تحقيق ذلك ، بسبب الضغوط القائمة عليهم بضرورة استخدام الأدوات والنظريات ولغة المجموعة المهيمنة ، على الأقل إذا ما كانوا يريدون لأبحاثهم أن تلقى قبولا في الأوساط الأكاديمية . أما بالنسبة للكثيرين من السود ، فقد جاءت نضالات الحياة اليومية وصراعاتها تاركة مجالا ضئيلا لتطوير و/أو التعبير عن موقعية محددة قاموا هم أنفسهم بتحديدتها وتوصيفها .

وقد تطور التنظير النسوي تطورا ملحوظا ، كما أنه يدعم تبني فهم للتداخل في أنظمة القهر على أساس اللون والطبقة والنوع . كما تقدم النسوية إبستمولوجيات ومنهجيات كثيرا ما ساعدت على منح الصوت لتلك الموقعية النسوية السوداء المميزة ، وما زال هنالك خطاب مستمر دائر حول ما الذي يصوغ البحث "النسوي" ، إلا أن من أهم أهدافه المحورية هو الإطاحة بالمسعى الوضعي صوب "الحقيقة" الموضوعية ، وذلك بالدعوة لاستخدام نطاق أوسع من مناهج البحث وخاصة تلك القادرة على تسهيل المسارات الاجتماعية . كذلك قامت النسويات بنقد العلاقة التراتبية القائمة

عادة بين الباحثة أو الباحث وبين موضوع البحث ، مع سعيهن للتوصل إلى أساليب تضيفي مزيدا من الديمقراطية على مسار البحث . ويعني ذلك لبعض الباحثات- وأنا منهن- التأكيد على استخدام البحث الكيفي ، وخاصة المقابلات والملاحظة بالمشاركة .

إن المدخل النظري الأساسي في عملي البحثي يقوم على مذهب التفاعلية الرمزية (symbolic interactionism) ، وهو مذهب يدفع الباحثين والباحثات إلى التغلغل داخل مسارات حياة الناس الذين يسعون لدراساتهم وفهمهم . وتتصل بذلك المقاربات التي يشار إليها على أنها تقوم على التشكيل الاجتماعي أو التأويل ، أي التي ترى أوجه الواقع والمعنى باعتبارها خاضعة للتشكيل الاجتماعي عبر التفاعل الإنساني . كما اعتمد أيضا على نظرية التقاطعات (intersectionality theory) لتوضيح كيف أن قضايا اللون والعرق والطبقة والنوع تعمل على تشكيل صياغة المعنى ، فعلى سبيل المثال سعت في بحثي عن: كيف تعامل الأسر السوداء أطفالها المصابين بمرض فقر الدم المنجلي؟ (sickle cell disease) سعيا للتعرف على مسائل مثل الرعاية الأسرية والقدرة على الحصول على رعاية طبية ، والسياسات العنصرية والأساطير التي تحيط بالمرض . فقامت بعقد مقابلات معمقة مع الأمهات اللاتي تم تشخيص أطفالهن بالمرض ، وقضيت وقتا في حضور اجتماعات الدعم والمواظرة الجماعية . كما قمت بمقابلات مع عاملين في مجال الرعاية الصحية والخدمة الاجتماعية وقمت بملاحظة أوجه تفاعلهم مع هؤلاء الأطفال وأسرهم . وقد مكنتني المادة التي جمعتها في هذا الصدد من فهم الاختلافات القائمة في التصورات الخاصة بالمرض من الناحية الطبية وفي المفهوم الدارج لدى العامة ، كما فهمت كيف تؤثر قيم كالأمانة في القرارات الإنجابية وكيف يؤثر النوع -أي نوع الطفل من ذكر أو أنثى- في الرعاية .

وقد عقدت ما يتعدى ربما 100 مقابلة ضمن عملي في مشروعات بحثية متنوعة، وتكون لدي تقدير لمزايا وعيوب عقد المقابلات والعمل الإثنوجرافي. ومن المشاكل التي أدركتها دوماً، هو أن أتوجه إلى أشخاص ممن يعيشون حياة مزدحمة وموترة بطلب منحي شيئاً من وقتهم للجلوس معي ومشاركتي تجاربهم، وأن يسمحوا لي بدخول المساحات الخاصة في حياتهم. ومن الأمور ذات العلاقة بالموضوع هو المقابل الذي يحصلون عليه نظير ما يمنحونني من وقت، ففي أحد المشروعات قدمت لكل مستجيبة ومستجيب مبلغ 10 دولارات؛ تعبيراً عن امتناني، فقبلها البعض شاكرًا، بينما تردد آخرون في قبولها أو قالوا بأنهم سيتبرعون بها لإحدى الجهات التي تجمع تبرعات لمرضى فقر الدم المنجلي. وعادة أجد في نوعية الأبحاث التي أقوم بها أن المستجيبات والمستجيبين يطلبون مني (وإن كان ضمنياً) النصيحة و/أو الدعم، وهو ما أحاول تقديمه باهتمام وحذر. فمن أهدافي دوماً أن أكون مستمعة مهتمة ومنصنة لما يقال، وأن أقبل بشرعية قيمهم، وأن أصارحهم بأرائي حين يطلب مني ذلك. إن تطوير موقعية ذاتية محددة هي مسألة تضفي على الفرد قوة، وأرى أن أفضل طريقة لتشجيع تلك الموقعية هي إعطاء الناس الفرصة لتأمل مواقفهم الحياتية والتعبير عن آرائهم والاعتراف بصحة تلك الآراء. وهو ما أرجو أن أنجح في تقديمه للمستجيبات والمستجيبين مقابل ما يقدمونه لي من عون.

النسوية وحسن الإنصات في مقابلات التاريخ الشفاهي

خلال مسار مقابلة التاريخ الشفاهي تقوم الباحثة أو الباحث بدور المستمع الفاعل، فنوعية الإنصات الذي يستدعيه هذا المنهج البحثي يتطلب استعداد الباحثة للتخلي عن رغبتها في السيطرة على مسار الحوار والإنصات الكامل والتام مع الالتزام والانتباه

لكل ما يحيط بالحديث ، مقارنة بطريقة الاستماع للحديث الجاري في المواقف العادية. وتوضح باحثة التاريخ الشفاهي النسوية دانا جاك أن علينا أن "ننغمس في المقابلة" (Anderson & Jack 1991 ، p. 18) للتوصل إلى المعنى من منظور المستجيبة أو المستجيب . فإننا باعتبارنا باحثي التاريخ الشفاهي نستمع إلى الكثير من الأشياء بما فيها كيفية قيام الراوي أو الراوية بخلق المعنى . فالمؤرخة الشفاهية لا يقتصر دورها على جمع المادة الموجودة مسبقاً ، وإنما هي جزء من عملية صياغة وبناء المعنى التي تحدث أثناء قيام الراوية بحكي قصتها .

في التراث الشفاهي فإن القرار بحكي قصة ما وطريقة حكي القصة وفهمها يكون عملية ديناميكية حيوية تتضمن الانتباه المتواصل لما "يدور في أذهانهم." ويمكننا أن نحصل على خلفية للموضوع تساعدنا على فهمه من خلال الحوار والاستجابة وتكرار أمور معينة في أماكن وأزمنة مختلفة ، وبما فيها من اختلاف في أسباب الحكي . وتخضع تأويلاتنا للاختبار مع ازدياد معرفتنا بالحكاة أو الحكاءة ، وكيفية استخدام كل منهما للحكاية على سبيل "صياغة المعنى" (negotiate meaning) في كل مرة من مرات الحكي . إن مفهوم صياغة المعنى خلال الحكي في التراث الشفاهي هو مفهوم معروف لدى الفولكلوريين . (Schneider 2002 ، p. 51)

إن الباحثات النسويات اللاتي يوظفن التاريخ الشفاهي في خدمة الحصول على معلومات من المستجيبين والمستجيبات ، وفي الأطر المرجعية الخاصة بهؤلاء المستجيبين والمستجيبات هن باحثات أقرب من غيرهن إلى محاولة الإنصات إلى حكايات الآخرين ، لا بالتركيز على الكلمات فحسب وإنما على المسافات الفاصلة بين الكلمات ، وعلى المعاني وعمليات صياغة المعاني ، وعلى المشاعر بل وعلى الصمت .

إن لحظات الصمت هي ذات أهمية خاصة للباحثات النسويات وذلك لعدة أسباب . والسبب الأساسي هو أن النسويات حريصات على الوصول إلى الصوت المخفي ، وهو

سبب أساسي يجعل الباحثة تستعين بالتاريخ الشفاهي من منطلق نسوي . فمن خلال الوصول إلى الأصوات المخفية والتجارب المقصية تحاول الباحثة النسويات عادة الربط بين سير الحياة الفردية وبين السياقات الثقافية والمؤسسية الأشمل ، والتي تمثل خلفية لتلك التجارب الفردية ، طبقا لما تؤكد به باتريشا هيل كولنز (Patricia Hill Collins 1990). وفي هذا الصدد نجد أن الالتفات إلى ما هو غائب عن حكاية الراوية يمكن أن يشير للباحثة إلى ما عايشته الراوية من نضال وصراع . فعلى سبيل المثال يمكن لمواضع الصمت أن تشير إلى الاختلافات القائمة بين مواقف الراوية الصريحة والضمنية ، وهي المواقف الناجمة عن العلاقة بين السياق الثقافي العام وبين طبيعة حياتها بالإضافة إلى عملية إعادة سرد سيرة حياتها تلك . إن الحذف الصريح -مثلا- قد يشير إلى وجود فجوة بين ما تؤمن به المستجيبة وبين ما تشعر بأنه يجوز لها حكيه ، وقد يأتي ذلك نتيجة لتصورها عن المعايير والقيم الاجتماعية أو لشعورها بأن آراءها تتعارض مع الأفكار والمشاعر والسلوك المتعارف عليه ، والذي قد يتصل بدوره بقضايا التشكيل الثقافي للنوع . إن المشروع البحثي في نظر الباحثات النسويات قائم على نية الوصول إلى الأصوات المهمشة وإلى رؤية فئة من الناس تم إقصاؤها إلى أطراف النظام الاجتماعي القائم على أساس النوع . كذلك فإن الإنصات إلى مواضع الصمت قد يشير أيضا إلى أن القنات والتصورات المتاحة لتأويل تجارب حياتنا وتفسيرها لا تعكس في واقع الأمر النطاق الكامل من التجارب الموجودة في العالم ، كتجارب النساء ، والمثليين ، والمستبعدين على أساس الجنس . فالباحثة النسوية التي تتبنى مقاربة ما بعد حداثة مثلا ، والمهتمة بالمنظومة الخطابية التي تتحرك في إطارها ، قد تستشعر أن الصمت يشير إلى أمر ما بشأن الثقافة عامة ووجود فجوة بين طرق تأطير التجربة وبين التجربة الخاصة بفرد خاضع لوضع معين على أساس الجنس أو النوع . وكما أوضح لنا البحث النسوي ، فإن المجتمع لا يوفر بالضرورة لكل أفراد الأدوات الملائمة التي يمكنهم بها التعبير الحر الكامل عن المعنى الذي يحمله شيء ما بالنسبة لهم . وهو سبب من الأسباب التي تجعل الباحثات النسويات أميل إلى استخدام منهج التاريخ الشفاهي حين يلائم أهدافهن البحثية . إن الإنصات العميق لأصوات الأفراد ، وخاصة أولئك الذين طالما تعرضوا

للإقصاء من عملية إنتاج المعرفة، هو مسألة ضرورية لإنتاج قاعدة معرفية تكون أكبر حجماً وأكثر تنوعاً بشأن التجربة الإنسانية.

إن عملية تحولنا إلى منصتين حسني الإنصات، بلا ميل منا لفرض الأحكام، ومنفتحين على أمور كثيرة، هي عملية تتطلب مرونة من جهة الباحثة أو الباحث وقد تتضمن التشكيك في المفاهيم والفئات التي سبق تمسكنا بها، والتي تشكل فهمنا للواقع الاجتماعي (Hesse-Biber & Leavy 2006).

وتستعين الباحثة النسوية أنطوانيت إرانت (Antoinette Errante) بتجربتها البحثية الشخصية لإلقاء الضوء على تلك القضايا في المقطع التالي من "ما وراء الستار". ففي ذلك النص التأملي القوي تتحدث أنطوانيت إرانت بالنقد والصراحة عن تشككها هي في الافتراضات التي سبق لها تبنيها، وهي تقوم بذلك من منطلق كونها باحثة نسوية وفي خضم قيامها بمشروع في التاريخ الشفاهي وعلم الإثنوجرافيا. ومستعينة برحلتها التأملية المطاوعة، تطالبنا لا بسمات التاريخ الشفاهي النسوي، بل كيف يمكن للمرء تأمل ممارسة التاريخ الشفاهي دون أن تكون ممارسة نسوية.

ما وراء الستار مع أنطوانيت إرانت

التجربة والتاريخ الشفاهي

في الأول من يونيو/حزيران 2001، وصلت ممثلة بالحماس إلى مدينة بيرافي موزمبيق، حاملة أمتعة بحوالي 100 كيلوجرام من الوزن الزائد، ومستعدة لقضاء شهر في رحلة في وسط موزمبيق للقيام بالتاريخ الشفاهي لتجارب الموزمبيقيين التعليمية الكولونيالية وما بعد الكولونيالية. وقد دفعت مقابل أحدث أجهزة العمل من جهاز الفيديو ماركة سوني، وأجهزة

التسجيل ماركة مارانتز، وحامل الكاميرا والبطاريات والأشرطة مبلغا يماثل ثلاثة أضعاف ثمن تذكرة الطيران، ولكن بدا لي الأمر يستحق تلك التكلفة نظرا لقضائي حوالي ستة أشهر في الإعداد لتلك الرحلة، وحوالي عشرة أعوام وأنا أحلم بها. وكنت قد قضيت الفترة منذ شهر أكتوبر عام 2000 في العمل الميداني تحضيراً لكتاب عن التعليم الموزمبيقي في فترة الاستعمار وما بعد الاستعمار. وقد كانت فترة ميمونة، إذ كنت قد حصلت على منحة للقيام بذلك، كما أن موزمبيق كان يسودها السلام، وهو ما كان يعني أنها أول مرة لي منذ رحلتي الأولى إلى موزمبيق عام 1989، والتي يتاح لي فيها الوقت الكافي والفرصة المواتية للتنقل عبر المناطق الريفية بالسيارة في أمان. وكنت أمل في جمع المزيد من التاريخ الشفاهي وخاصة من النساء. وقد كان معدل معرفة القراءة والكتابة بين الموزمبيين السود يبلغ 2% عند استقلال موزمبيق عن البرتغال عام 1975، وبالتالي كان مقدار الحاصلين على تعليم مدرسي مؤسسي صغير نسبياً. أما النساء فكانت فرصهن أقل من ذلك. ومع ذلك كنت حريصة على الحديث مع النساء عن "مرحلة التكوين" والتي تشير أيضاً في اللغة البرتغالية إلى التعليم أو النشأة بمعناها الأوسع. فقد أردت التعرف على كيفية معاشتهن للاستعمار والثورة والسنوات التي أعقبت الاستقلال.

وهكذا كنت متحمسة جداً ومتطلعة إلى لحظة وصولي إلى بيرا، حيث كنت سألتقي هناك بسائقي والمترجم/المرشد. وقد كان مرشدي رجلاً متقدماً في السن على معرفة واسعة بجغرافية ولغات الجزء الأوسط للبلاد بالإضافة إلى معرفته بكل الزعماء والقادة المحليين. وقد كان بالغ الأهمية بالنسبة لي لأنني كنت بحاجة لشخص موضع ثقة الزعماء والسكان المحليين ليقوم بدوره بتعريفي عليهم وضمان أمانتي. وقد كان في نيتي قضاء حوالي 4 أسابيع متنقلة بصحبته في شمال وسط موزمبيق ووسطها.

ومع خروجي من مطار بيرامحملة بأمّعتني التي يزيد وزنها على 100 كيلوجرام قابلت الشخص الذي كنت على صلة مسبقة به بشأن ترتيباتي في موزمبيق ، فأخبرني بكل أسى أنه تم نقل مرشدي إلى المستشفى في الليلة السابقة على وصولي مصابا بالتهاب في الزائدة الدودية . وهكذا وجدت نفسي بلا مرشد ومترجم ، وبلا رحلة برية . وبذلت قصارى جهدي في العثور على مرشد آخر أو وسطاء آخرين ، ولكن دون جدوى . وبسبب تكلفة الزيادة في وزن أمّعتني كنت قد اشتريت تذكرة سفر بسعر مخفض ، بما يعني عدم قدرتي على الرحيل من بيرام قبل مرور 3 أسابيع . ونظرا للنفقات والوقت الذي كنت قد قضيته مسبقا في الإعداد لهذه الرحلة كنت أعلم بأنه سيصعب علي تنظيم رحلة أخرى .

فما العمل؟ حملت نفسي التبعة وتوجهت إلى بار يطل على الشاطئ الذي يواجه الشقة التي أقمت فيها في ضيافة أحد الأصدقاء . وقد كان البار مكانا شعبيا معروفا ، وكنت قد زرت صديقي عددا من المرات يكفي لتعريفي على بعض الوجوه الأليفة . فكنا نجلس ، ونأمل غروب الشمس ، ونبادل على مدى ساعات الضحكات والحكايات .

فقد أدركت فجأة أنني إذا كنت أرغب في محادثة الناس فهناك الكثيرون منهم حولي ، وهكذا استدرت نحو الشابة الجالسة إلى جوارى قائلة ” أهلا ، أنا أنطوانيت “ . ومن هنا بدأت ” مقابلات شاطئ بيرام “ مع أي شخص مستعد لمبادلاتي الحديث . فمنهم ندلاء البار ، ومنهم أصدقاء لرفاق البار ممن أخبروا أصدقاءهم بكوني محل ثقة . ونحيت جانبا جهاز التسجيل الكبير الحديث ليحل محله جهاز التسجيل الصغير ماركة سوني ، فلم يكن هنالك مكان على المناضد لجهاز التسجيل ماركة مارانتز جنبا إلى جنب أطباق الدجاج المشوي .

وقد كانت معظم النساء اللاتي تحدثت إليهن من سكان المناطق العشوائية المحيطة بمدينة بيرا، ولم تتمكن غالبيتهن من تجاوز السنة الرابعة من التعليم الأساسي. وقد تحول برنامج الحديث مدة ساعتين إلى حوارات مدتها 4-5 ساعات. وكان يمتد بنا الحديث إلى العصر. ومن بين من النقيض "دينا"، ولم تكن تتذكر من الثورة سوى أن والدتها ماتت قبل الثورة بفترة قصيرة وأن مدرستها البرتغالية الحبيبة، والتي صارت أقرب إلى أم بديلة بالنسبة لها، اضطرت إلى الرحيل عائدة إلى البرتغال بصحبة زوجها الرجل العسكري. "الثورة لا تعني لي سوى أنني فقدت والدتي". قالتها وهي تهز كتفها. وكانت والدتها قد أصبحت زوجة من الدرجة الثانية لشقيق زوجها بعد وفاة والد دينا، كما تذكرت كيف أنها هربت من حياة الخدمة في بيت عمها إذ كانت تهرب مع رجال، منهم من كان يضربها ومنهم من كان يسرقها. وأخبرتني بوضوح عن اختيارها مواعيد الرجال البيض فقط، وعما كانت تحصل عليه منهم وما كانوا يحصلون عليه منها. وكانت من بينهن جوانا، وهي امرأة كانت والدتها أفريقية والداها يونانيا متزوجا من خالتها ووالدتها، وتذكرت كيف أن والدتها أخفت عن والدها قيامها بفرض كافة الطقوس التقليدية الخاصة بالانتقال من الطفولة إلى ما بعدها عليها. كما وصفت طفولتها باعتبارها عالما ضبابيا غير مرئي سوى للنساء المقيمات في مجمع عائلتها السكني. وتعرفت على الاختلاف القائم بين تعدد الأزواج في المدن (وهي الخيانة الزوجية الناتجة عن خيلاء الرجال) وبين تعدد الأزواج في الريف (وهو نظام عملي واقتصادي). ولم تقتصر هؤلاء النساء على سرد قصص حياتهن، بل بذلن جهدا في شرحها لي - أي التنظير حول حيواتهن.

وكنت كل يوم أرسل تحياتي للزائدة الدودية التي أعيت مرشدي. وقد

فرض علي الوضع مواجهة غروري الشخصي ، رغم ميولي النسوية ، فماذا غير الغرور يجعلني أندesh من قدرة هؤلاء النساء على التعبير عن نظريات بالغة العمق والتعقيد حول تجاربهن المتصلة باللون والعرق والطبقة والنوع ؟ فمن الواضح أنني كنت أحمل في أعماقي قناعة بأن النظريات تتشكل في رحاب الجامعات وبواسطة حاملي الدرجات العلمية الرفيعة ، وأن "المصادر المحورية من الأشخاص" يصنعون التاريخ (وأنتني أعر فهم) وأن علماء الاجتماع يحتكرون عملية تعريف أو فهم العالم . وقد علمت في بيرا أن الأحداث التاريخية الكبرى ، كالثورات ، ليست بالضرورة من الأشياء التي تغير حيوات الناس ، فبالنسبة لغالبية من قمت بعقد مقابلات معهم كانت الثورة والاستقلال غير ذات أهمية قصوى . فحتى ذلك الحين كانت معظم مصادري من الأشخاص ممن وقع اختياري عليهم بناء على تجاربهم في المدارس الاستعمارية أو ما بعد الاستعمار ، ولكن في بلد لا يعرف فيه القراءة والكتابة سوى 2% من إجمالي السكان عند الاستقلال (عام 1975) ، كانوا جميعا "مصادر محورية" من حيث مشاركتهم الفاعلة في الثورة . أما عينة شاطئ البحر العشوائية فقد كشفت لي إلى أي حد كان منظوري مائلا بفعل المنطق المتواتر القائل: المصادر المحورية هم الأشخاص المحوريون في حدث ما (الثورة) والذي اعتبرته أنا حدثا محوريا . وهكذا كفانا نظريات كبرى حول الثورة .

فكيف لهذه الحكاية الخارجة من العمل الميداني أن تعكس منظورا نسويا للتاريخ الشفاهي ؟ إن السؤال الصعب بالنسبة لي ليس في كيفية تصورنا لممارسة التاريخ الشفاهي من منظور نسوي ، وإنما هو كيفية تصورنا لممارسة التاريخ الشفاهي ممارسة غير نسوية ؟ فالتاريخ الشفاهي عضوي

وحميم ، ويكشف في نفس الوقت عن سلطة الفرد الواحد وسلطة الجمع ، ومدى ما في تجاربنا الفردية من تفرد بالإضافة إلى طرق الارتباط القائم بين تجاربنا معا . ويمكن لدراسة تاريخ شفاهي جيدة أن تضمن لك النشر ، بل وربما تجعلك من ضيوف برنامج ”جود مورنينج أميركا“ (صباح الخير يا أمريكا). ولكن هنالك ناتجا معينا من ممارسة جيدة للتاريخ الشفاهي وهو تعريفك بأشخاص يعلمونك الكثير ، لا باعتبارك باحثا أو باحثا فحسب ، وإنما باعتبارك من البشر . فكل منهم سيساهم في سيرة حياتك أنت وفي الحكايات التي قد تحكيها يوما ما في حال تم عقد مقابلة شخصية معك في إطار مشروع للتاريخ الشفاهي يقوم به غيرك .

لقد كنت على علم بكل ذلك عند وصولي إلى بيررا ، ولكنني رحلت عن بيررا حاملة درسا أدى إلى تعميق تقديري لتعددية الأصوات وأساليب معرفة العالم ، وهو درس مفاده: لا تدعي نظرياتك وسنوات دراستك تتدخل في قدرتك على تقدير سلطة التجربة - تجربتك وتجارب الآخرين . فالعمل الميداني لا يمضي أبدا في الاتجاه المتوقع ، ولكن قومي بالعمل الميداني في كافة الأحوال .

وكما نرى في هذا المقطع ، فإن التاريخ الشفاهي النسوي يتطلب إنصاتا معينا وشاملا من قبل الباحثة أو الباحث . وترى دانا جاك أشياء معينة يجب على المؤرخة الشفاهية النسوية الإنصات إليها . أولا ، يتعين على الباحثات النسويات تحديدا التوقف أمام ”اللغة الأخلاقية“ (Anderson & Jack 1991 ، 19) لدى المستجيبين والمستجيبات ، وهي اللغة التي تشير إلى تعليقات تكشف عن تقييم الذات :

على اختلافها في نبذة الحديث ، إلا أن تلك المقولات التي تقيم الذات

أخلاقيا تتيح لنا فرصة تأمل العلاقة بين تصور الذات وبين المعايير الثقافية، والعلاقة بين ما نراه نحن ذا قيمة وبين ما يراه الآخرون ذا قيمة، والعلاقة بين ما يفرضونه علينا من تصرفات وبين إحساسنا بأنفسنا حين نقوم أو نمتنع عن القيام بما يفرضونه علينا من تصرفات . (An-derson & Jack 1991 ، p. 20)

إن ما تشير إليه دانا جاك بمسمى اللغة الأخلاقية قد يشير بالنسبة للمستمع الجيد إلى مجموعة من القضايا، ولكن موضع الاهتمام النسوي يتمثل في المقولات التي ترد على لسان المستجيبة في المقابلة الشخصية، وهي تلك المقولات التي تشير إلى السياق الثقافي الذي تعيش فيه . فعلى سبيل المثال فإن الشعور بالحرج عند الحديث عن بعض مكونات الجنسية قد تكشف أشياء عن الثقافة العامة . وبصورة أكثر تحديدا، فإن المرأة التي تتحدث عن عدم الرضا الجنسي في علاقتها برفيقها، وهو شعور ربما لم يكن ينتابها في علاقتها بعشيقها، قد يعبر عن السياق الأبوي الذي يحيط بالجنسانية، والأنماط والمعايير الجنسية التي تؤكد الصيغ الذكورية الجنسية الغيرية لمفهوم الجنسية.

كما نجد دانا جاك تشجع أيضا الباحثات النسويات على الإنصات لسماع "المقولات العليا" (Anderson & Jack 1991 ، p. 21) أو تلك اللحظات التي ترد في المقابلة الشخصية حيث تتراجع فيها المستجيبة للمقابلة عن كلامها لتتوقف متأملة بشكل نقدي ما سبق لها قوله:

المقولات العليا تنبهنا إلى وعي الفرد بالتناقض داخل الذات المستجيبة للمقابلة عن العناصر التي تستخدمها في مراقبة أفكارها، كما يتيحون فرصة ملاحظة كيف يقوم الشخص بتفريق المشاعر والأفكار بما يتواءم مع معايير اجتماعية معينة . (Anderson & Jack 1991 ، p. 22).

إن مثل هذه المقولات يمكن أن تكون ذات أهمية تحديدا بالنسبة للباحثات النسويات في معرض دراستهن للتحيز الجنسي والتفرقة العنصرية أو جانب من جوانب الحياة في عالم يسوده تمييز على أساس النوع أو العرق واللون . فعلى سبيل المثال يمكن لأحد التصريح بمقولة يراها فيما بعد عنصرية أو متحيزة جنسيا أو تعبر عن فويا المثلية . ويمكن للشخص حينها التوقف أمام المقولة لتوضيحها أو مراجعتها أو وضعها في سياق معين ، وهي لحظات قد تكشف للباحثة النسوية المنتبهة ليس فقط مشاعر المستجيبة تجاه أمر ما ، بل ورأيها فيما يفترض أن تكون عليه مشاعرها في إطار المعايير الاجتماعية السائدة .

كذلك تدرك النسويات أن اللغة تساعد على تشكيل التجربة الاجتماعية وبلورتها ، بل إن اللغة قد قامت في الواقع بتشكيل كل منا . ولذا فإن اللغة التي تستخدمها النساء في سرد حكاياتهن تكشف عن جانبين ، فلا تقتصر فقط على سرد قصص حيواتهن الشخصية بل وكيفية تشكل قصة الحياة الشخصية بالواقع الاجتماعي .

وبالإضافة إلى مضمون المقابلة الشخصية يتعين على الباحثات والباحثين الالتفات إلى الشكل الذي يتم به سرد المضمون . فالناس على اختلافهم يتحدثون بطرق مختلفة ، وبالتالي فإن الإنصات إلى الطريقة التي تصوغ بها المستجيبة حكايتها يمكن أن يكشف أيضا عن معلومات مهمة . فعلى سبيل المثال نجد أنه في المجتمع الأبوي يتم جعل أشكال التواصل الذكوري هي المعيار السائد ، وبالتالي تؤثر في كيفية سرد الناس لحكاياتهم . فيجب على الباحثات والباحثين الانتباه لأساليب التفكير والمعايير والحديث الذكورية جنبا إلى جنب اللغة المتحيزة جنسيا . كذلك يتعين على الباحثات النسويات الانفتاح على أساليب التواصل التابعة من أساليب التفكير والمعرفة النسائية .

على الرغم من تكيف بعض الراويات من النساء مع نظام عقد المقابلات الشخصية الذكوري ، والذي يتعين على المؤرخات الشفاهيات اكتسابه ،

فإننا لن نحسن الإنصات إلى ما تعتبره النساء جوهرياً بالنسبة لحيواتهن إلا إذا اعترفنا بشرعية وجود سياق للتواصل الاجتماعي النسائي في إطار التاريخ الشفاهي فلن تتمكن من الإنصات لما تعتبره النساء ذا قيمة ولا تأويله إن لم نعرف كيف نتأمل وكيف ننصت وكيف نتحدث مع النساء باعتبارهن نساء . إننا في حاجة أولاً إلى الإدراك الواعي بكيفية تواصل النساء بشكل شخصي وفيما بينهن . (Minister 1991 ، p. 31-32)

كما أنه من الضروري على الباحثات النسويات المنخرطات في أساليب المقابلات الشخصية في التاريخ الشفاهي عدم تكرار أشكال التحيز القائمة داخل البحث النسوي من خلال إضفاء سمات الجوهرية على تجربة النساء . ومن المهم عدم افتراض وجود نوع معين من الحديث تشترك فيه النساء بنفس القدر الذي لا يجب علينا أن نفترض وجود تجربة أو منظور واحد مشترك . ومن هذا المنطلق يتعين على المؤرخات الشفاهيات النسويات الانتباه إلى الطرق المختلفة التي تصوغ بها الراويات المختلفة تجاربهن ، وبمعنى آخر يجب على المؤرخات الشفاهيات النسويات تأمل الأمور عبر صور الاختلاف والانفتاح على أساليب التواصل المختلفة إذا كنا بصدد الكشف عن مواطن المعرفة التي سبق خضوعها للاستبعاد . والنسويات اللاتي يكثر عملهن من منظور ما بعد حداثي ومتعدد الثقافات ومنظور العالم الثالث شغوفات بفهم تجارب الفئات المهمشة في المجتمع . فكيف أثر وضعهن داخل ثقافة ما على تجارب حياتهن كما يؤولنها؟ وكيف أثرت تلك التجارب بدورها في أسلوب السرد لديهن؟

يمكن لأنماط الحديث في الرواية الشفاهية أن تكشف عن المكانة الاجتماعية وعن العلاقات ما بين الأشخاص ، والتصورات عن اللغة والذات والعالم . وفي حالة النساء السود يجب أن نسأل أنفسنا عما تكشفه أنماط السرد لديهن بشأن حيواتهن . فكيف تؤثر تجاربهن الفريدة على الطريقة التي يسردن بها قصص حياتهن؟ (Etter-Lewis 1991 ، pp. 44-45)

وعند عقد مقابلة شخصية في إطار التاريخ الشفاهي ، نجد أن من بين ما قد تتوقف أمامه الباحثات النسويات ما يلي:

- ما الذي تشير إليه مساحات الصمت في حديث المستجيب؟ ما الذي لا تقوله ، ولماذا؟
- ما أنواع الأحكام الأخلاقية التي تنتمي إلى كيفية حديث المستجيب عن حياتها وتجاربها؟ وهل تتوقف لتأمل التعليقات أثناء حديثها وسردها لحكايتها؟
- ما الفئات التي تستخدمها والتي تمثل أساسا لطريقتها في التفكير والحكي؟ فعلى سبيل المثال ، ما الأفكار بشأن المعايير الطبيعية والجنسانية والنوع وغيرها التي تشكل طريقة تفكيرها؟
- كيف تعمل الأعراف والمعايير الاجتماعية بشأن النوع على تشكيل طريقة تفكيرها؟
- ما أسلوب حديث المستجيب؟ هل تستخدم اللغة الدارجة أو لغة أحتاج إلى استيضاحها؟ هل تتحدث بترتيب زمني للأحداث أم في شكل سلسلة من الحكايات المنفصلة أم تتبع بنية سردية أخرى؟ وما الذي يكشفه أسلوب حديثها عن منظورها؟
- ما إحساسي تجاه ما تقوله المستجيب؟ ما الذي تخبرني به أدوات استشعاري الداخلية عن لحظات الصمت ومواضع الحذف والتأكيد وما شابه ذلك؟

وبينما دأبت الباحثات النسويات على استخدام التاريخ الشفاهي كمنهج لسماع حكايات النساء ، ففي المقطع التالي من ”ما وراء الستار“ تحملنا كريستين أندرسون لتأمل من منظورها كيفية استخدامها للتاريخ الشفاهي في دراسة مجموعة معينة من الرجال الذين تختلف هي عنهم من عدة جهات . وتتناول كريستين أندرسون في هذا المقطع المليء بالتحديات قضايا مثل ديناميكيات النوع والسلطة في العمل البحثي ، وبناء المعرفة عبر الاختلاف ، والتحديات الكامنة في مراجعة الافتراضات المسبقة .

ما وراء الستار مع كريستين ل. أندرسون

تنظر النسويات منذ فترة طويلة إلى التاريخ الشفاهي باعتباره وسيلة لإتاحة فرصة الحديث أمام من خضعوا للإسكات. فما المعنى إذن من وراء استخدام هذا المنهج مع من يتم اعتبارهم فعليا، من وجهة النظر النسوية، بأنهم القائمون بإسكات الغير؟ هذا هو السؤال الصعب الذي واجهته أثناء قيامي بمقابلات تاريخ شفاهي مع رجال صدرت عليهم أحكام بحضور برامج للتأهيل والعلاج بسبب الأذى الذي أوقعوه برفيقاتهم أو زوجاتهم. هل كان في استطاعتي الإنصات إلى حكايات رجال قاموا بأفعال تثير اشمئزازي وخوفي؟ وما الذي يمكنني تعلمه من تاريخ حياتهم؟

وقبل أن أبدأ في المقابلات الشخصية كنت أتوقع أن تسود المقابلة ديناميكيات النوع (بوصفي امرأة تعقد مقابلات شخصية مع رجال)، وأذكر اليوم بشيء من الخجل كيف أنني وضعت في إصبعي خاتم زواج "زائف" خلال المقابلات الأولى بسبب خوف -في غير موضعه- من أن يدعوني أحد المستجيبين للخروج معه. ولكنني وجدت أن قضايا اللون/العرق والطبقة والسلطة المؤسسية كانت هي الأهم في ديناميكيات الحوارات التي عقدتها مع هؤلاء الرجال. فقد كنت أنا أتعامل مع جهاز التسجيل واستمارة الموافقة على المقابلة المطبوعة على ورق مبهر. وكنت أنا التي ألقى الأسئلة، كما كنت أنا المسكة بمبلغ 30 دولارا التي قدمناها لهم على سبيل "المكافأة" (أي "الحافز") مقابل المشاركة في الدراسة. وقد كان الرجال الذين تحدثت إليهم، في معظمهم، يصارعون البطالة والفقر وتناول المخدرات. وقد كنا نتحدث وبيننا اختلافات قوية من اللون/العرق وفي بعض الحالات كانت الاختلافات في اللغة الأم. وهي اختلافات كانت لها تبعاتها.

وقد تعلمت من هذه الحوارات أن السلطة معقدة. فالنسويات يناضلن على مدار الثلاثين عاما الماضية من أجل فهم العلاقة بين هياكل السلطة، وفهم التفاعلات (وأحيانا التناقضات) في أنظمة السلطة الأبوية والعنصرية والطبقية وتلك المتعلقة بالجنسانية الغيرية. وكان الدرس الأكثر أهمية بالنسبة لي هو أنه يمكن للبشر أن يتمتعوا بالسلطة المؤسسية أو الهيكلية دون أن يدركوا ذلك، ففي اتصالاتي التي تمت مع العديد من هؤلاء الرجال كنت أتمتع بامتيازات هيكلية بفعل انتمائي للطبقة الوسطى ولوني الأبيض وموقعي المرتبط بالمؤسسة الجامعية، وهي امتيازات ساعدتني على الشعور بالراحة والتحكم في مسار المقابلة الشخصية. أما الرجال الذين تحدثت معهم فكانوا كثيرا ما يبدون مترددين وغير واثقين من أنفسهم وحريصين على مساعدتنا في مشروعا. وحين تأملت كيف أن تجربة عقد المقابلات الشخصية جاءت مختلفة عن توقعاتي، بدأت أفكر في السلطة الذاتية والموضوعية، وكيف يفوتنا إدراك تعقيدات السلطة عند التفاتنا إلى نوع واحد فقط من السلطة. فما الذي جعلني أظن بداية أنني سأشعر بالضعف بالنسبة لهؤلاء الرجال؟ فحين ركزت على التحليل على أساس النوع كنت حينها أفكر في نفسي باعتباري امرأة بالنسبة لرجال يتسمون بالعنف. وحين ركزت على التحليل القائم على أساس الطبقة أو اللون، أدركت حينها أنني أشعر بالقوة والسلطة خلال تلك المقابلات لأنني كنت فعليا في حمى سلطة مؤسسات أعلى طبقيا. وكانت المقابلات مع الرجال الذين يضربون النساء تعقد أثناء ساعات النهار في مكاتب مقار برامج علاج العنف المنزلي، في وجود موظفي البرنامج على مقربة منا. وعلى الرغم من أنه لم يكن "في مكان خاص بي" فإنه كان مكانا أشعر فيه بالأمان والراحة، وهو ما لم يكن ينطبق على غالبية الرجال الذين عقدت مقابلات معهم ممن كانوا مجبرين على حضور برامج العلاج والتأهيل تلك.

وهو نفس الدرس الذي تعلمته من حكايات هؤلاء الرجال عن العنف في علاقاتهم ، فهم لم يكونوا مدركين للسلطة التي يتمتعون بها بفضل ذكورتهم ، فقد كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم ضعاف تتحكم نساؤهم فيهم وضحايا لنظام القضاء الجنائي المتحيز . إن هذا الإحساس الذاتي بالضعف وانعدام السلطة أعماهم في حالات كثيرة عن قيامهم هم أنفسهم باستغلال السلطة التي يتمتعون بها عند اعتدائهم على نساءهم . ولم يروا وضعهم المميز في سياق علاقاتهم الشخصية إلا من خلال المنظور النسوي بما أضفاه من إشكالية على العلاقة بين مسألة النوع والعنف . ولكن في نفس الوقت فإن الملاحظات النسوية بشأن كيفية عدم إمكانية فهم مسألة النوع بعزلة عن أنواع أخرى من السلطة ساعدتني على إدراك أن تجارب هؤلاء الرجال مع السلطة كانت تختلف تبعاً لمواقعهم الطبقيّة والعرقية . وهكذا تعلمت في نهاية الأمر أن الملاحظات النسوية بشأن التعقيدات الكامنة في السلطة من حيث تشكيلها لحيوات النساء هي تعقيدات يجب استخدامها أيضاً لمساعدتنا على فهم حيوات الرجال .

العمل المشترك والسلطة والتمكين في التاريخ الشفاهي النسوي

يعتمد التاريخ الشفاهي على البناء المشترك للمعرفة ما بين الباحثة أو الباحث والراوية أو الراوي ، إلا أن مدى تحقق العمل المشترك في مراحل مختلفة من المشروع البحثي وبالتالي فالمعرفة الناتجة عنه تكمن في الأسس الإستمولوجية المعرفية للمشروع . ونجد أن الباحثات النسويات يوجهن اهتماماً خاصاً إلى تلك المسائل لاهتمامهن بتجليات السلطة في المسار البحثي ودور علاقات القوى في تشكيل عملية بناء المعرفة . ويقدم التاريخ الشفوي للباحثات النسويات أسلوباً لخلخلة مركزية السلطة تبعاً لخطة عمل الدراسة البحثية ،

وهي خلقة تلقى صداها لدى كثيرات من الباحثات النسويات ، وخاصة أولئك المهتمات بالإمكانيات التحررية وظروف التمكين في الممارسة البحثية والبناء المشترك للمعرفة.

فكيف ترى النسويات اللاتي يمارسن التاريخ الشفاهي المسائل التالية:

• هل تمتد عملية المشاركة في تشكيل عملية جمع المادة العلمية فتستمر خلال عمليتي التحليل والتمثيل؟

• من يضع بصمته النهائية على الحكاية التي تتبلور وتنتج عن تلك العملية؟

• من يملك السلطة على الرواية؟

• ما الذي تعنيه "السلطة المشتركة" في الممارسة العملية؟ وهل هي ممكنة الحدوث أو حتى مرغوبة دائما؟ وما الاعتبارات الأخلاقية التي تلعب دورا عند تحديد مدى التشراك في العمل البحثي؟ وما أثر ذلك التعاون المشترك على الباحثة والراوي أو الراوية والبحث نفسه؟

• من يملك السلطة على المادة العلمية؟ وكيف نتوقف أمام صياغة المعنى والتعاون المشترك في بناء المعرفة؟

إن الإمكانيات الكامنة في التعاون المشترك في التاريخ الشفاهي ليست مجرد اختيار للمنهجية المتبعة ، وإنما تحمل معها حزمًا من السياسات ومجموعة من الاعتبارات الأخلاقية المتصلة بتمكين كل ذات في البحث بالإضافة إلى الجانب السياسي للبحث النسوي . إن مسألتَي العمل المشترك والسلطة تتناولان في نهاية الأمر كيفية بناء الرواية ، ومن هو الطرف الذي يملك تلك الرواية وكيفية تمثيلها . وأثناء عملية السرد والحكي تتم صياغة المعنى من خلال قيام الباحثة أو الباحث بحسن الإنصات وسبر الأغوار (probing) . ويمكن للعمل المشترك أن يستمر خلال التحليل والتمثيل ، وهو أمر يتعين على المؤرخات والمؤرخين الشفاهيين التوقف أمامه . ونجد أن بعض النسويات يضعن

مسألة التأليف المشترك للنص باعتباره أولوية خلال كل مراحل المشروع البحثي نظرا لالتزامهن بالالتفات إلى "صوت" المشاركين والمشاركات في البحث واسترجاعه، وكذلك لالتزامهم بمواجهة العناصر والقنات والمفاهيم والتصورات التي يستخدمونها في صياغة المعنى. ومن هنا فإن جينيفر سكانلون تدعو لأبحاث تتم مع النساء لا عن النساء باعتبارها وسيلة لتمكين الراويات، كما ترى أنه يجب على الباحثات النسويات خلق منهجية تقوم حقا على "الأخذ والعطاء" يتم فيها توفير الوقت أو المال أو غيرها من الإمكانيات مقابل مشاركتهم في البحث (Jennifer Scanlon 1993، p. 640). وهنالك نسويات أخريات، ممن يركز اهتمامهن على تسييس تجارب الأشخاص المهمشين، ربما يجدن قيمة كبيرة في الحفاظ على الصوت السلطوي في عملهن، بما يمكنهن من تناول النص المروي ضمن مناقشتهم للهموم النسوية. ومن المهم في هذا الصدد أن نفهم نقطتين مفادهما الآتي. أولا: إن العمل المشترك يتم في صورة خط ممتد ومتواصل، فكل مشروعات التاريخ الشفاهي تتطلب عملا مشتركا، ولكن هنالك درجات وطرقا متنوعة يمكن لهذا التنوع أن يظهر بها. وثانيا: إن النسويات تحديدا، والملتزمات منهن باسترجاع تاريخ النساء والتغيير الاجتماعي والسياسي، يعانين من التوتر الحقيقي القائم بين منح الصوت والسلطة للروايات مع قيامنا في الوقت ذاته باستخدام نظرتنا النسوية وعناصر الفهم النسوية في محاولة لإحداث تغيير اجتماعي إيجابي. كما تذكرنا أن ماري تيرنبول أيضا بأن العمل المشترك والرقابة عنصران متداخلان فيما بينهما تداخلا يصعب فصله:

عند الإعداد لمقابلات التاريخ الشفاهي والقيام بها يكون العمل البحثي منذ بدايته واقعا في شرك قرارات معقدة فيما يتعلق بالرقابة والعمل المشترك. إن كمية ونوعية المعلومات الخاصة بالبحث، والتي سيتم تناولها مع الطرف الآخر من المقابلة الشخصية قبل عقدها، قد تتباين تبائنا بالغابين مشروع وآخر. ومن الأمور التي قد يكون لها تداعيات مهمة في هذا

الصدد هو مدى المعلومات التي تعتبر ذات أهمية لتبادلها مع المشاركين والمشاركات في البحث بشأن المعرفة بالأصول الفكرية للبحث أو التفاصيل الدقيقة للمنهجية المتبعة فيه. إن الإعداد للمقابلات الشخصية ومحتواها وتوقيتها هي مسائل تثير في حد ذاتها مسألتين أخريين ، أولا هما هي كيفية التعامل مع موضوع المقابلة قبل وأثناء المقابلة الشخصية ، وثانيهما هي إلى أي مدى قام أحد طرفي المقابلة الشخصية بصياغة شكل المقابلة وتوزيع الأدوار فيها من حيث -على سبيل المثال- موقعها وزمانها واختيار مضمونها أو التأكيد على جوانب بعينها في محتواها . (Annmarie Turnbull 2000 ، p. 19)

فكما هو واضح ، فإنه عند التفكير في المسائل المتعلقة بالعمل المشترك نجد أنفسنا أمام اعتبارات أخلاقية واعتبارات عملية واعتبارات سياسية ، بالإضافة إلى القرارات العديدة التي يتم اتخاذها أثناء المسار البحثي والتي قد لا يدرك الباحث أو الباحثة قيامهما بها أو قد لا يعتبرانها ذات أهمية .

وتقدم لنا دراسة كاثرين بورلاند مثالا ممتازا ونموذجا اعتبره كلاسيكيا على التوتر القائم بين الرؤية النسوية المكتسبة والرغبة في بناء معرفة تعبر بصدق عن فهم الراوية لقصة حكايتها الذاتية . فقد قامت كاثرين بورلاند بمشروع مقابلات شخصية في التاريخ الشفاهي عقدتها مع جدتها . وقد مرت بتجربة صراع داخلي في مرحلة التأويل إذ إنها شاركت جدتها في تأويلاتها الأولى للمقابلات . فقد قامت الباحثة هنا بقراءة حكاية جدتها من منظور نسوي معاصر ، وبالتالي اهتمت اهتماما نقديا بالخلفية الأبوية لقصة حياة جدتها . ولكن المستجيبة ، جدتها بياتريس ، لم يسعدها أن ترى حكايتها مؤولة باعتبارها نضال امرأة من أجل الاستقلالية في بيئة ذكورية ، وكتبت رسالة لأن ماري تخبرها بأن حكايتها ضاعت وأن آن ماري قد استحوذت على الحكاية وأولتها إلى الحد الذي جعل الحكاية الآن مملوكة لأن ماري وليست ملكا لبياتريس . وهكذا فإن "الصراع التأويلي" يلقي بالضوء على كثير من القضايا التي تواجهها النسويات ، إذ يحاولن

الموازنة بين رغبتهم في تحري الصدق والأمانة تجاه راوياتهم وبين رؤيتهم النسوية المكتسبة بما فيها من إمكانيات سياسية وبما فيها أيضا- بلا شك- من قصور.

وليس من الصعب أن نفهم كيف يكون لتشارك السلطة من أثر في تمكين الراوية، فالناس قطعاً أميل إلى الشعور بالتمكين عندما يتم تضمينهم تضميناً كاملاً وعندما تلعب قيمهم أدواراً متساوية. كذلك فباستمرار النسوية منظوراً سياسياً مكتسباً، فإن الحفاظ على ملكية المعرفة الناتجة بحيث تخدم أهداف العمل النسوي هو قيمة لها أهميتها لكثيرات من الباحثات ومن يشاركن العمل في المشروع البحثي. فكل حزم الخيارات المتنوعة اعتباراتها الأخلاقية، وليست أي منها مجرد صحيحة أو خاطئة، أفضل أو أسوأ، أكثر أو أقل "نسوية".

حفظ المعرفة المستضعفة: أرشفة التاريخ الشفاهي

إن أرشفة النسخ المفرغة لمقابلات التاريخ الشفاهي هي جزء مهم من النظرية والممارسة النسوية (feminist praxis) والتي تسعى في جوهرها إلى استعادة تجارب النساء وتضمينها في السجل التاريخي. إن الكلام الذي تدلي به المستجيبات اللاتي يحكين قصصهن يجب أن تخضع للأرشفة وإتاحتها لأجيال المستقبل، وهو الأمر الذي يمثل جزءاً من الممارسة الأخلاقية عامة، كما أنه قد يرتبط لدى النسويات بقضايا العدالة الاجتماعية. إن أرشفة تلك المادة وإتاحتها هي مسألة بالغة الأهمية في الممارسة النسوية لأنها تتيح سماع الأصوات التي خضعت تاريخياً للإسكات، كما يجب نقل تلك المعرفة وبثها وإتاحتها بحيث تصبح جزءاً من السجل التاريخي، وبالتالي نضمن حفظها.

ويجب على الباحثات التفكير في كيفية تعامل الآخرين مستقبلاً مع النسخة المفرغة، وإلى أي مدى سترك الباحثة بصمتها على النص النهائي. إنها اعتبارات تدور حول ما إذا كان النص الذي تم تفرغته سيخضع لمراجعة في الصياغة وكيف يتم ذلك، وهو ما قد تتطرق إليه عملية التحليل والحفظ. ويجب على الباحثات التفكير فيما يلي:

• هل ستقومين بصياغة وتحرير النص الذي تم تفريغه؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف ستقومين بذلك؟ ما الافتراضات والأهداف التي ترشدك في اتجاه اختيارائك؟ وهل الراوية جزء من هذه العملية؟

• هل "ستقحين" النص من الوقفات وتعبيرات مثل "يعني" وغيرها مما يرد في الحديث الدارج؟ وهل ستصوبين اللغة طبقاً لقواعد النحو؟

• هل ستغيرين خصائص أسلوب الكلام؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف يؤثر ذلك على المعنى؟ وكيف تعكس تلك التغييرات السمات النسوية؟

• هل ستقومين بتعديل نقاط التأكيد لنقل المعنى؟ وإذا كان الأمر كذلك فنقل المعنى سيتم من أي منظور: منظورك أنت، منظور الراوية، أم تأويلك للمعنى الذي تنقله الراوية؟ وكيف تتأثر تلك الخيارات بالقاعدة النسوية التي يركز عليها عملك؟

• كيف تتأثر تلك الخيارات بالطبقة الاجتماعية والعرق والنوع والجنسانية والجنسية وغيرها من الخصائص؟

• ما تداعيات قيامك بتغييرات أو إضافة تفسيراتك الشخصية لما يرد من مفردات عامة أو دارجة قد تكون نتاجاً لخلفية عرقية معينة وغيرها من الخصائص الاجتماعية؟

إن التعامل مع النصوص المفرغة هي مسألة بالغة الأهمية لإنتاج بحث نسوي أخلاقي لأن الصياغة والتحرير يرتبطان بعملية صياغة المعنى، وكذلك لأن النسويات يعلمن بأن تلك الاختيارات وثيقة الصلة ومتداخلة مع السلطة الاجتماعية وإنتاج المعرفة:

من السمات المهمة للعلاقات الاجتماعية في مقابلات التاريخ الشفاهي هي علاقات القوى بين القائم بالمقابلة وبين الراوي. ويدخل النوع والطبقة والعرق وغيرها من الاعتبارات الاجتماعية بدرجة ما أو بأخرى طرفاً في سياق المقابلة الشخصية. وهي اعتبارات تؤثر في عملية الصياغة

والتحرير من خلال رؤى الراوي والقائم بالمقابلة/المحرر وتصوراتهم عن أوجه الشبه أو الاختلاف في المكانة الاجتماعية فيما بين طرفي المقابلة، بما يعمل بدوره على تشكيل فهمهما لدوريهما في المقابلة. وتكمن أهمية ذلك بالنسبة للصياغة والتحرير في الطريقة التي تتداخل بها علاقات القوى مع التجارب المتباينة تجاه الكلمة المكتوبة. إن كون الرواة يحملون تجارب متباينة تجاه الكلمة المكتوبة، وعالم الطباعة والنشر، والأرشفات البحثية، والمكتبات، وما إلى غير ذلك، هو أمر يؤثر على قرارات الصياغة والتحرير التي نتخذها، وعلى من يتخذ تلك القرارات، وأسبابها. (Wilmsen 2001، pp. 75-76)

وتعتبر الباحثات النسويات قضايا الاختلاف وعلاقات القوى البحثية جزءا من النظرية والممارسة الأخلاقية، ويقمن باختيارتهن بما يتماشى مع التزاماتهن الأيديولوجية والأطر النظرية وأهداف البحث العملية. إن المدى الذي تقوم به الباحثة بتحديد أولوياتها بشأن السلطة والتعاون المشترك، أو الإمكانيات السياسية للاحتفاظ بسلطة على النص، يرتبط ارتباطا وثيقا بالقرارات الخاصة بالتحرير وصياغة المعنى وحفظ نصوص التاريخ الشفاهي المفرغة.

الممارسة النسوية في أبحاث مقابلات مجموعات النقاش

إن مجموعات النقاش (focus groups) تختلف عن المقابلات الشخصية المتعمقة (in-depth interviews)، والتاريخ الشفاهي في أنها تضم عددا من المستجيبين والمستجيبات ممن يتم مقابلتهم معا في شكل مجموعة. وبينما تطور أسلوب مجموعات النقاش من أبحاث السوق لجمع بيانات عن المستهلكين، فإن هذا المنهج الفريد للمقابلات يلاقي حاليا رواجاً كبيراً في العلوم الاجتماعية، والرعاية الصحية، والتعليم. ويتم استخدام

مجموعات النقاش عموما في البحث الأكاديمي في ثلاثة أنواع من المشروعات البحثية: (1) الأبحاث التقييمية. (2) الأبحاث الاستكشافية. (3) مشروعات البحث متعددة المنهج. وقبل أن أتطرق إلى شرح موجز لكيفية الاستعانة بمجموعات النقاش الواردة في النقاط السابقة، أود الإشارة إلى أن مجموعات النقاش، مثلها في ذلك مثل غيرها من مناهج المقابلات الشخصية التي تناولناها في هذا الفصل من الكتاب، يمكنها أن توفر مادة وصفية ويمكن استخدامها لتوليد النظريات.

ويتم توظيف مجموعات النقاش في الأبحاث التقييمية (evaluation research) عند الحاجة إلى فحص برنامج أو بناء مؤسسي ما. وكثيرا ما يتم تقييم البرامج التعليمية الجديدة، وبرامج التدخل المبكر (Brotherson 1994) والبرامج المجتمعية (Matooe- sian & Coldren 2002). كما أن مجموعات النقاش كثيرا ما تلائم أيضا الأبحاث الاستكشافية عند توفر القليل من المعلومات عن موضوع ما، وهو منهج يتيح للباحثين والباحثين جمع بيانات عن المواقف والأفكار والمشاعر والتجارب الشخصية من عدد من المستجيبين والمستجيبين في المرة الواحدة. وهو أمر قد يساعد في توجيه الأبحاث المستقبلية بشأن موضوع لا يتوفر حوله سوى القليل من المعلومات. كذلك فإن البيانات التي يتم جمعها في هذا النوع من الأبحاث الاستكشافية قد تقدم معلومات مهمة عن موضوعات أساسية أو أساليب لغوية غير رسمية داخل مجموعات بعينها، وهذه من الأسباب التي تجعل مجموعات النقاش ملائمة لخطط البحث متعددة المنهج. فبينما يجب أن تسير خطة البحث دوما أهداف البحث، فإنه يكثر الاستعانة بمجموعات النقاش جنبا إلى جنب المقابلات المتعمقة واستطلاعات الرأي الكمية (حيث تساعد البيانات الناتجة عن مجموعات النقاش في تطوير الأسئلة الاستطلاعية المناسبة أو في تقديم تفسير كافي لنتائج الاستطلاعات). والآن وقد عرضت بعض التطبيقات العامة لمجموعات النقاش، سأنتقل لآتناول مجموعات النقاش النسوية مع تسليط الضوء على بعض أهم ملامح هذا الأسلوب من أساليب جمع البيانات.

- كيف يمكن للباحثات النسويات استخدام مجموعات النقاش؟
- كيف تخدم مجموعات النقاش المبادئ النسوية؟
- كيف يمكن للباحثات النسويات التفكير بشأن قضايا خطة البحث ، كاختيار العينة وتحديد المعايير وتحكم القائم بدور التيسير؟

النسوية ومجموعات النقاش

عادة ما تقوم النسويات بدراسة الموضوعات والمجموعات السكانية المعرضة للتجاهل من قبل المجتمع البحثي الأوسع ، وبالتالي قد يوظفن مجموعات النقاش في الأبحاث الاستكشافية . إلا أنني أعتقد أن أكثر العوامل جاذبية إلى هذا المنهج بالنسبة للنسويات تتمثل في قدرة القيام بالبحث داخل المجموعات المستبعدة والقدرة على الوصول إلى "الأصوات المستضعفة" .

ويتضح لنا أن مقابلات مجموعات النقاش تساعد بشكل خاص في جمع البيانات من مجموعات سكانية "صعبة" (Kitzinger 1994، p. 112)، والمقصود بكلمة "صعبة" هو الإشارة إلى البشر الذين قد يشعرون بالاستبعاد وعدم الأمان ، أو ممن قد يكونون غير متحمسين للمشاركة في دراسة بحثية ، كالأشخاص المصابين بأمراض تناسلية أو ممن يتعاطون المخدرات (Hesse-Biber & Leavy 2006، p. 197) . كذلك تكون مجموعات النقاش مفيدة في التوصل لمعرفة التوجهات والمشاعر والتجارب الشخصية لمجموعات تتعرض للتمييز أو الإسكات داخل المجتمع ، وتتضمن النساء والأقليات الجنسية، والأقليات العرقية ، وغيرها من المجموعات التي تهمل الباحثات النسويات .

- كيف تكون مجموعات النقاش مفيدة في اكتساب المعرفة من المجموعات المستبعدة أو المهمشة؟

إن نوعية التفاعل الجماعي والرواية متعددة الأصوات التي تتم في مقابلات مجموعات النقاش تجذب الباحثات النسويات المهتمات بالكشف عن المعرفة لدى الفئات المستضعفة. وينتج عن مقابلات مجموعات النقاش ما يشار إليه بمسمى "الحدث" (Hesse-Biber & Leavy 2006، p. 199) (happening)، والذي يشير إلى الحوار الذي رغم إعداده المسبق و"تركيز النقاش" من قبل الباحثة، إلا أنه يظل عملية سردية ديناميكية. ففي وجود سياق محدد يقوم أعضاء المجموعة بالتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم وتجاربهم بشروطهم الخاصة.

يضمن العمل الجماعي منح الأولوية لترتيب الأمور تبعا لأهميتها بالنسبة للمستجيبات وللمستجيبين من حيث لغتهم ومفاهيمهم الخاصة، وأطرهم الفكرية الخاصة لفهم العالم... إن أشكال التواصل اليومية... قد تكشف لنا عن الكثير، إن لم يكن كشفها عن قدر أكبر مما نعرفه عما "يعرفه" الناس. ومن هنا فإن مجموعات النقاش "تتوصل إلى تلك الجزئية التي لا تستطيع المناهج الأخرى الوصول إليها" - بما يكشف عن أبعاد عادة ما تظل غائبة عن الفهم عند استخدام المناهج الأكثر تقليدية كالمقابلة الشخصية الفردية أو الاستبيان. (Kitzinger 1994، pp. 108-109)

وبالنسبة للباحثات النسويات اللاتي يعملن مع فئات سكانية مستبعدة و/أو يحاولن الوصول إلى المعرفة عن الواقع الاجتماعي والتي طالما سبق إسكاتها قد يعتبر الحدث الجماعي سبيلا مثمرا لبناء المعرفة. قلنقل مثلا إننا مهتمون بتجارب الأمهات العاملات في الموازنة اليومية بين العمل والأسرة، فنجد في الاستطلاع أو المقابلة المكثفة غياب بعض تفاصيل التجارب اليومية، بالإضافة إلى كيفية استيعاب النساء لتلك التجارب. أما في الحوارات الجماعية فقد يتم التعبير عن تلك الجوانب المهمة من المعرفة من خلال الإفصاح عن التجارب ومقارنتها. فعلى سبيل المثال قد نتحدث إحدى النساء في المجموعة عن السرعة التي يجب عليها أن توصل بها طفلها إلى الحضانة ثم التوجه إلى

عملها، وفي تلك اللحظة قد تقول امرأة أخرى شيئا من قبيل: ”هذا إلى جانب الإحساس بالذنب حين يريدني أن أبقى بينما أكون مضطرة إلى الذهاب“، وهي عبارة قد تثير مزيدا من التعبير عن المشاعر والتجارب المشابهة والتي تؤدي إلى المزيد من المعلومات المتعمقة من المستجيبة الأساسية بالإضافة إلى النساء الأخريات في المجموعة. كذلك نجد أن النساء يشرحن تجارب حياتهن اليومية بالاستعانة بمفاهيمهن وأطرهن الخاصة في فهم تجاربهن، ومنها مصطلح الذنب المحمل بالمعنى الوارد في المثال السابق.

وتستخدم النسويات مجموعات النقاش بأشكال عديدة مختلفة ضمن سبل الوصول إلى المعرفة لدى المجموعات المهمشة. وفي المقطع التالي من ”ما وراء الستار“ تتناول كل من ليسا دودسون وليا شمالزباور وديورا بياتيللي تجاربهن في القيام بمشروعات بحثية تقوم على مجموعات النقاش مشبعة بالنسوية (feminist-infused)، تدخل فيها المشاركات في مستويات عدة من عملية بناء المعرفة. وقد قامت الباحثات الثلاث بكتابة ذلك النص في صورة حوار أقرب إلى أسلوب النص المفرغ الناتج عن مجموعات النقاش.

ما وراء الستار مع ليسا دودسون وليا شمالزباور وديورا بياتيللي

حوار حول مجموعات النقاش التأويلي

نقوم في هذه الصفحات بعرض موجز لحوار متواصل بشأن ممارسة منهجية نسوية تقوم على المشاركة، مع التركيز على مرحلة التأويل في البحوث الاجتماعية. وكغيرها من الأبحاث ”feminist infused“ القائمة على المشاركة (Lykes & Coquillon 2006) يسعى عملنا البحثي إلى تفاعل المشاركات والمشاركين تفاعلا ذاتيا يقوم على المطاوعة في أعمال بحثية تعتمد على التعاون المشترك، وتتعامل مع التجارب المعيشة

باعتبارها مسألة محورية في بناء المعرفة. ونحن نتناول في مجمل عملنا البحثي الغياب التاريخي للنساء والملونين وغيرهم من المجموعات التي تعرضت للتجاهل بل وأحيانا التشويه في إطار ما نعرفه عن العالم. وبينما نقوم بتوظيف مناهج متنوعة من مناهج المشاركة، فإن من ضمن ما نركز عليه هو "أخلاقيات تأويل" المادة المستقاة من حيوات الآخرين. وقد قمنا من وراء الستار، ومؤخرا بشكل مباشر وصريح، باستخدام منهج يطلق عليه مسمى "مجموعات النقاش التأويلي" (IFGs: interpretive focus groups)، الساعية للحفاظ على وضع المعرفة المحلية والعالم من منظور "الذوات" في بؤرة تحليل المادة المجموعة.

إن "مجموعات النقاش التأويلية" تضم مجموعة ممن يعيشون أو يعملون عموما في نفس الوضع الاقتصادي الاجتماعي الذي تنتمي إليه مجموعة الأشخاص "الخاضعين للدراسة"، وذلك للمساعدة في تحليل المادة العلمية (للمزيد انظر/ي: Dodson & Schmalzbauer 2005). ويطلب من المشاركين في هذه اللقاءات تحليل أنواع متنوعة من البيانات والمعلومات مثل: المفردات، والحكايات القصيرة (vignettes) والأفكار والتسلسل الرقمي (numeric trends) والمناقشات المسجلة وغيرها من أشكال التعبير، كما يطلب منهم القيام بالتعاون معا في تأويل "المعنى في سياقه". وهم بالتالي يشتركون في الكشف عن المعاني الكامنة وراء القوى المباشرة التي تؤثر على الحيات اليومية للمستجيبين والمستجيبات.

حكي قصص الحياة

ليسا دودسون: لقد بدا واضحا لي منذ فترة مبكرة من مراحل عملي البحثي أن معظم الأبحاث التي تتناول الحياة في الأجزاء الفقيرة من أمريكا كانت أبحاثا تركز على خطوط التماس (fault lines) الاجتماعية. وقد كنت

حينذاك ، ضمن عملي في مجال الصحة العامة ، أساعد في دراسات معقدة تتناول بالبحث مشاكل الإنجاب لدى المراهقات والأوضاع الصحية للأمهات والأطفال . وبينما كان هنالك جهد نظري مهم يتم في صياغة فرضيات البحث وإعداد عينات البحث ومناهج جمع المادة العلمية ، فإنني وجدت نفسي أتساءل : عَمَّ يجعلنا نتخيل أن ”ذوات“ البحث أي الأمهات المراهقات والأمهات من أصحاب الدخول المنخفضة سوف يخبرنا بما نريد أن نعرفه؟ فمن خلال عملي في منظمات مجتمعية في أحياء منخفضة الدخل أدركت إشارة مشتركة مفادها أنه من الحماقة بشكل عام أن نتصور قدرتنا على استخلاص روايات دقيقة عن الحياة اليومية ، بل وقد لا يقتصر الأمر على الحماقة بل قد يتعارض مع مصالح الفرد المادية المباشرة ، بل وقد يعتبر في بعض الحالات أمرا يحمل قدرا من الخطورة . فمن المقولات المتكررة ”إنني أحتفظ بشؤوني لنفسي“ وهي مقولة نسمعها في الحالات التي يعيش فيها الناس تهميشا اقتصاديا وعنصريا وغيره من صور التهميش . فأكثر أسئلة البحث الموجهة للأمهات المراهقات ”حيادية“ ، وهما سؤالان : ”أين تعيشين؟“ و”ما دار الرعاية أو الحضانه التي تستعينين بها عند ذهابك إلى المدرسة؟“ ، يحملان معهما عددا من المراقبين وصورا محتملة من العقاب . ففي الجزء الثامن (من برنامج دعم المسكن الفيدرالي) توجد قواعد بشأن المشاركة في المسكن (cohabitation) ، ومجرد كسر تلك القواعد قد يؤدي إلى فقدان هذا المسكن . وتقوم الولاية بتتبع أماكن وجود الآباء سعيا للحصول منهم على مقابل للدعم والرفاهية ، وبالتالي فإن تحديد مكان أحد الآباء الشباب والذي قد يقوم بتوفير الرعاية الضرورية للطفل ، دون تمكنه من توفير المال ، قد يسبب له المشاكل إن لم يكن يعرضه للسجن . وهي أمور لا تكشف سوى عن القليل من الوضع الملتبس الذي يشغله الناس عندما لا يملكون الدخل الكافي لإعاشة أنفسهم ، أو حين يحاولون الحصول على مزيد من الحق في

كوبونات الطعام والتأمين الصحي ليشمل عددا أكبر من الأفراد، أو حينما يوجدون في الولايات المتحدة الأمريكية بصفة "غير شرعية"، أو يكونون قد تعلموا بشكل ما إخفاء حقيقتهم الاجتماعية. وتبدو وعود الحفاظ على سرية المعلومات في أحسن حالاتها غير مضمونة على مستوى معظم هذا المجتمع.

وعلى مدار سنوات من تأمل مشكلة السعي للحصول على معلومات يكون لأصحابها أسبابهم الوجيهة في عدم الإفصاح عنها، قمت بتطبيق نموذج للبحث يقوم على مقاربة تشاركية نسوية (feminist participatory approach)، يقوم على إشراك الناس الخاضعين للدراسة في إعداد ومراجعة بل وحتى القيام بالبحث. ومع ذلك كنت على ثقة من أن اكتساب قدر أعمق من الفهم يتطلب إشراك الناس المنتمين إلى "مجتمع" البحث في تحويل البيانات والمادة العلمية إلى المعنى، أو خلال مرحلة التأويل في مسار البحث الاجتماعي. وقد بدأت منذ ما يزيد على العشر سنوات في إشراك الناس بشكل منهجي باعتبارهم خبراء في تحليل عالمهم، ولكني لم أقم سوى بالإشارة إلى الممارسة نفسها. وفي الوقت الذي بدا بوضوح أن مجموعات النقاش التأويلية (IFGs) تيسر الوصول إلى الروايات الخفية عن الحياة والمجتمع، فإن هذه المقاربة لم تنل حظها من حسن الاستقبال والتلقي في منابر البحوث التقليدية.

ومنذ عدة سنوات، عندما بدأت المناقشات بيني وبين ليا حول بحثها الذي يتناول المهاجرات والمهاجرين من هندوراس في مدينة بوسطن (وهو المسار الذي مضى في نفس الاتجاه بعد ذلك بعامين مع ديبورا) أرادت ليا معرفة المزيد عن مجموعات النقاش التأويلية وما يتصل بها من منهجيات تتناول "عادات إخفاء" المعلومات عن الحياة اليومية.

توضيحات: الإنصات طلباً للحقيقة المتأصلة مع المهاجرين من هندوراس

لياً شمالزباور: لقد قمت في رسالتي الجامعية بمشروع يتناول استراتيجيات البقاء لدى العائلات عبر القومية المهاجرة من هندوراس، وهم العائلات المقسمة بين الولايات المتحدة الأمريكية وهندوراس. وقد جاءت الغالبية من أعضاء العائلات التي تناولتها في البحث من المهاجرين الفقراء وغير المؤثمين ممن يعيشون في الولايات المتحدة الأمريكية، وبالتالي يعيشون فيما أسماه -بحق- الباحث الأنثروبولوجي ليو شافيز (Leo Chavez) (1998) حياة "الظلال" (the shadows). واستلهاها بقدر كبير لجهود ليزا البحثية كنت قد عزمت منذ البداية على القيام بأبحاث تتسم بتأصلها في المجتمعات الصغيرة وتعتمد على المطاوعة والتعاون المشترك - أي أبحاث نسوية تشاركية (feminist participatory research). وقد نلت في هذا المشروع الدعم والمشورة من ليزا وديورا، حيث كثيراً ما تناقشنا حول كيفية نقل الخطاب النسوي من الكتب الدراسية إلى ميدان البحث، وما يمثله ذلك من كفاح فريد من نوعه حينما يكون ميدان العمل مكاناً بالغ التهميش.

ومنذ ولادة الفكرة الأولى للبحث واجهتني تحديات عملية وعاطفية تتصل بمكانتي باعتباري شخصية تتمتع بامتيازات وأتية من خارج المجتمع الهندوراسي. فأنا أكاديمية بيضاء من الطبقة الوسطى. وأنا أتحدث اللغة الإسبانية وعملت لعدة سنوات في حركة تضامن أمريكا الوسطى، ولكن رغم التزامي الشخصي تجاه ذلك المجتمع، فإنه لم يكن ولن يكون في وسعي أبداً الادعاء بأنني على دراية تامة بـ "الحقيقة المتأصلة" (ground truth) (Dodson 1998) التي يعيشها أهل أمريكا الوسطى في حياتهم اليومية. وكنت على علم بأن قضاء عدة سنوات في البحث الميداني ليست

كفيلة بتغيير ذلك الأمر مهما تكن درجة صرامة مناهجي البحثية. وبالتالي قضيت ساعات طوال في تأمل المسائل الخاصة بالتمثيل والمشاركة مع محاولة صياغة منهجية يمكنها أن تساهم في نضالات المهاجرين من أجل العدالة الاجتماعية دون أن أتسبب في أي أذى بسبب سوء التمثيل. كما كنت على يقين أيضا من رغبتني في القيام بعمل بحثي يقوم على العمل المشترك مع المجتمع بحيث يتعاون المجتمع معي ثم يوجهني ويرشدني في تحليل المادة العلمية وتأويلها، فلم أكن أرغب في أن أكون مجرد متحدثة بلسان هذا المجتمع. فقررت الاستعانة بمنهج الملاحظة بالمشاركة، والمقابلات الشخصية المعمقة، ومجموعات النقاش التأويلي.

وبعد قضاء عام من الملاحظة بالمشاركة في منظمة قاعدية لحقوق المهاجرين بدأت في عقد مقابلات معمقة مع أفراد من المجتمع. وقد جاء ذلك بعد فترة قصيرة من أحداث 11 سبتمبر، بما شهدتها تلك الفترة من خضوع مجتمعات المهاجرين بطول البلاد وعرضها لثقافة الخوف: الخوف من الترحيل، والخوف من التمييز، والخوف من العنف. وعلى الرغم من شعوري بثقة المجتمع بي فإنني كنت أستشعر أحيانا وجود خوف كامن في عقول وقلوب المستجيبات والمستجيبين.

وكان هذا الخوف الكامن يتكشف لي حين كنت أطلب من المستجيبات والمستجيبين الحديث عن تصورهم للفرص المستقبلية المتاحة لهم في الولايات المتحدة، فقد كانوا يحكون في مقابلة تلو الأخرى حكايات عن التمييز في مكان العمل، وعن الحنين إلى الوطن، وعن العنصرية والمعاملة المجحفة والمؤذية التي يلقونها من أصحاب العمل. ولكن حين سألتهم عما إذا كانوا يشعرون بوجود حواجز وموانع للحراك الاجتماعي والاقتصادي في الولايات المتحدة، لم يجب على ذلك السؤال بالإيجاب

إلا عدد قليل جدا منهم . وقد أربكني ذلك فطرحته الموضوع للنقاش في مجموعة نقاش تأويلية تضم مهاجرات ومهاجرين من هندوراس ، وعدد من أصحاب الخدمات ، ومن العاملين في المجتمع .

وقد أدت مجموعة النقاش التأويلي بي إلى تعديل تحليل المادة ، فقد علمت من أبناء المجتمع الهندوراسي كيفية قراءة وتفسير شفرات الأدب والأمان التي يتسم بها موضوع "الفرصة المستقبلية" لكثير من المهاجرين والمهاجرات ، وخاصة غير الموثقين منهم (the undocumented) . كما اكتسبت فهما أعمق لما تحمله مكانتي من حيث اللون والعرق والطبقة والجنسية من تأثير كامن في تواصلتي مع المستجيبين والمستجيبات . وأخيرا ، وربما الأمر الأكثر أهمية هو أنني شعرت خلال ذلك المسار البحثي بتحول في ميزان القوى حين قام أبناء المجتمع أنفسهم بدور الخبراء المحللين بينما تراجعنا أنا إلى دور الطالبة أو الدارسة . وهو تحول في القوى أتاح قدرا أكبر من الوضوح والدقة في تحليل المادة كما قام بتغيير علاقتي مع المجتمع .

وأنا أعلم من واقع حواراتي مع ليسا وديبورا أنهما قد اكتسبتا معلومات وأفكارا من خلال ما عقدناه من مجموعات نقاش تأويلي ، بينما ما زالت أنا أستلهم تجاربهما .

التعديل: الكشف عن "عادات الإخفاء" لدى المجموعات السكانية المتميزة بشأن الخطاب العنصري

ديبورا بياتيللي: لقد شرعت ضمن إعدادي لرسالة الدكتوراه في توثيق التحديات التي تواجهها شبكة السلام والعدالة لأبناء الطبقة الوسطى من البيض وذلك من خلال سعي تلك الشبكة إلى تحويل نفسها إلى حركة

متعددة الثقافات . وكنت قد استشعرت منذ فترة مبكرة من عملي البحثي أن هنالك أبعاداً أعمق فيما يتصل بكيفية تناول الناس مسألة التنظيم مقارنة بما كنت قد لاحظته أو سمعت عنه . وقد كنت في حاجة لاكتشاف طرق تتسم بقدر أكبر من الإبداع عن الأشكال التقليدية للمشاركة في النصوص المفرغة للمقابلات الشخصية والتأويلات التي يتم التوصل إليها بالاشتراك مع المشاركات والمشاركين في البحث نحو تأويل المادة العلمية . ومن خلال القراءة والحوارات مع ليسا وليا بشأن أبحاثهما ، جذبتني الإمكانيات التي تتيحها مجموعات النقاش التأويلي في تحفيز وتضمين الخبرة المجتمعية في عملية التأويل . وقد استخدمت مجموعات النقاش التأويلي في المرحلتين المبكرة واللاحقة من مسار البحث ، ووجدت في هذا المنهج فائدة في الكشف عن الخطابات الخفية لدى الفئات المميزة داخل تلك الشبكة . كما كشفت لي مجموعات النقاش التأويلي أيضاً عن خطوط جديدة في البحث بالإضافة إلى ما وفرته من سبيل لإشراك أفراد المجتمع في البحث .

وقد جمعت الحوارات حول اللون والطبقة بين سمات التحدي والصعوبة . فعند التمازج مع الناس حول تجاربهم في التعامل عبر أوجه الاختلاف ، استكشفنا الصعوبات القائمة في العمل ضمن بناء اجتماعي محمل بعنصر اللون ، وكان مما أثار دهشتي هو الصراحة التي اتسمت بها الحوارات مع الملونات والملونين بشأن قضايا اللون . وقد جاءت حواراتنا مباشرة وصريحة ومريحة ، إذ تحدثوا عن أهمية فهم "القضايا الحقيقية" ، والإحساس بقيمة "العمل المجتمعي باعتباره عملاً سياسياً" ، ومعرفة معنى "أن تضع نفسك مكاني" . وقد ذكر شخص تحديداً ، وهو كين ، أنه كثيراً ما كان يشعر بالتعرض للإسكات عندما يكون وسط أشخاص من البيض ، فقال: "الناس البيض لا يريدون الدخول في حوارات لأنهم لا يرغبون في

التعامل مع العنصرية والطبقية، والعنصرية بالذات... فالناس البيض ببساطة لا يريدون الدخول في تلك المساحة... بل ولا أعتقد أنهم يرونها أصلاً. “وقد كانت تجربة الحوار مع البيض مختلفة للغاية وصعبة للغاية، فقد جاء الحوار مع الكثيرين متوتراً وغير مريح ومبهما ومتناقضاً. وقد واجهت لحظات صمت غريبة ومحاولات لتحويل دفة الحوار إلى وجهة أخرى - أي ساد إحساس عام من التوتر. وقد تذكرت كلا من ليا ولها تحكيان عن تجارب شبيهة بذلك عند تطرقهما مع المشاركات والمشاركين في البحث إلى موضوعات تثير مخاوف الكشف عن المخفي. فعند التطرق إلى موضوعات عن العنصرية، كثيراً ما كان الناس البيض ينخرطون في خطاب يتسم بعمى الألوان، فكانوا يؤكدون على أهمية بناء حركات متعددة الثقافات ولكن عندما كنت أسألهن عن سبب عدم وجود أي ملونين ضمن مجموعتهن كنوا يقولون: “إنهم غير منظمين، ويفتقدون إلى التسييس”، وأنه “أمر بالغ الصعوبة ويتطلب قدراً بالغاً من الوقت كي نبني تلك العلاقات”. ولكن الأمر كان مختلفاً عند التعامل مع غيرهم من البيض، فكانوا يعترفون بما يتمتعون به من امتيازات وكانوا يؤكدون على أهمية العمل مع الملونين ومع الفئات منخفضة الدخل في تناول “الأمر اليومي التي تعرضهم للقهر” بدلاً من “مطالبية الملونين بالانضمام إليهم”. وقد قالت امرأة اسمها بولين “إذا كنا نحارب الظلم هنا في هذا البلد [جنباً إلى جنب العراق]، فلا بد لنا من أن نتوقف أمام كيفية مساهمتنا، نحن البيض، في ذلك الظلم. والكثيرون من البيض لا يريدون القيام بتأمل ذلك.”

وقد تساءلت عن سبب ذلك التباين البالغ فيما بين بعض البيض في الآراء، وإذا كان الناس ملتزمين بالعمل عبر الاختلافات؛ فلماذا لم يتحقق ذلك

على أرض الواقع وخاصة في مجتمعات تتسم بالتعددية والتنوع؟ حملت تلك الألغاز إلى مجال مجموعات النقاش التأويلي حيث قمنا بمناقشة الأفكار التي تبلورت من خلال تلك الحوارات. وقد أدت مجموعات النقاش التأويلي تلك، والمكونة من ثلاثة إلى أربعة أشخاص من البيض، إلى الكشف عن أن مفاهيم الناس بشأن السلام والتنظيم هي نتاج لا للتجارب السياسية المختلفة فحسب وإنما للتجارب المعيشة والبنى المختلفة في المجتمع المحمل بعناصر اللون والطبقة والنوع. وقد كان الجو العام خلال تلك الجلسات مريحا بقدر أكبر مما كان عليه في المقابلات الشخصية، وقد أدى ذلك في بعض الحالات إلى تأملهم وطرحهم الأسئلة بشأن ما يتمتعون به من امتيازات وما يحملونه من قناعات. وقد كان الناس أكثر انفتاحا في الحديث عن مسألة اللون والامتيازات عند تأويل أصوات غيرهم من البيض مقارنة بتأويل أصواتهم هم أنفسهم، وذلك لوجود مسافة تبعدهم عن تلك الامتيازات بما يتيح حيزا آمنا.

متطلبات ومازق مجموعة النقاش التأويلي: هل الأمر يستحق ما يتطلبه من جهد؟

ليسا دودسون: لقد واجهت على مدار السنين قدرا من النقد لتلك الاستراتيجية التأويلية، وهو نقد يقع عادة في واحد مما يلي. إن مقارنة مجموعات النقاش التأويلي هي مقارنة بنائية (constructivist) (Charmaz 2000) وتقوم في جوهرها على المشاركة، وبالتالي لا يمكن تكرارها بنفس الشكل تماما. كما يستدعي هذا المنهج العمل المشترك بين الباحثين والباحثات من ناحية والمستجيبات والمستجيبين من ناحية أخرى، بالإضافة إلى أفراد من المجتمع الذي ينتمي إليه المستجيبون. وكما تكشف لنا كل من ليا وديبورا، فإن هذه المقاربة التأويلية تحتمل التوضيح

والتعديل ، حتى ولو تطلب ذلك قدرا من الجهد ، وخاصة عند الانتهاء من كل مراحل جمع البيانات والمادة العلمية الأخرى . ويشعر بعض الباحثين والباحثات بعدم الراحة تجاه ”التلقائية المنهجية“ نظرا لصعوبة تكرارها في خطوات منظمة ودقيقة.

أما وجه النقد الآخر الذي واجهته فيتمثل في أن مجموعات النقاش التأويلي تعمل على إحداث تحول في عملية الاكتشاف -أي تأويل المعنى بغرض ادعاء المعرفة - وهو تحول الباحثة أو الباحث إلى شخصين ليسا من المتخصصين في البحث ، وهو ما أشارت إليه ليا عند حديثها عن وجود لحظة شهدت ”تحول السلطة“ في قاعة النقاش . وقد لاحظت - أنا - أنه بينما تلقى مناهج التشاركية النسوية بالقبول نظريا (على الأقل في أوساط كثير من الباحثات والباحثين الاجتماعيين) فإن مفهوم فتح مجال لحظات الوعي الفكري في المسار البحثي تعتبر أقرب إلى الممارسة غير المشروعة ، فالمجال الأكاديمي يضفي قيمة كبيرة على ”أصحاب الفكر الجديد“ ، فأولئك الذين يسارعون في استعراض المساحة الفكرية التي يشغلونها هم الأكثر نجاحا أكاديميا . فيتم تدريب طلاب الدراسات العليا على العثور على الأفكار الجديدة وامتلاكها بشكل صريح دون مشاركة مع الآخرين ، بل مع التأكيد على الفردية الفكرية ، إن لم يكن التفوق الفردي . كذلك فإن الباحثات والباحثين الاجتماعيين ، سواء كانوا يعملون في الجامعات أم لا ، يعلمون أن حصولهم على الدعم المستمر لجهودهم يرتبط ارتباطا وثيقا بهويتهم باعتبارهم خبراء متخصصين . فهي مجتمعات نخبوية تقوم -منذ زمن- على تعليم الحرص والتمسك بالملكية الفكرية وهوية الخبرة والتخصص ، بينما نجد أن مقارنة مجموعة النقاش التأويلي تتعارض مع ذلك . فإننا وجدنا أن ما يفتح المجال أمام أفراد المجتمع في حمل المعرفة

ومشاركتنا في صياغة المعنى يتمثل تحديدا في طلب الحكمة من الآخرين مع الاعتراف بما لدينا من قصور والكشف عنه . كما تشير تجربتنا إلى أنه- مع ما تعكسه مجموعات النقاش التأويلي من مبادئ نظرية التشاركية النسوية، - يقوم هذا المنهج على مواجهة السلطات التقليدية في تأويل الظواهر الاجتماعية ويمكنه أن يساهم في إحداث تحول فيما يتصل بكيفية "معرفة" مجتمع ما .

ليا شمالزباور: ومع استمرار بحثي داخل مجتمع هندوراس عبر القوميات اتضحت لي أهمية توظيف المناهج التشاركية (participatory meth- ods) ، عامة ومجموعات النقاش التأويلي خاصة . إن النقطة المنهجية التي تشير إليها ليسا تحديدا حين أثارت مسألة النقد الموجه إلى مجموعات النقاش التأويلي، أي "فتح مجال لحظات الوعي الفكري في المسار البحثي"، هي النقطة التي أرى أنها تجعل بحثي حيويًا ومهما - أي إن عملي المشترك وتوجيه "الآخرين" ممن لا يملكون مؤهلات البحث التقليدي هو الذي شكّل ما أقوم به من تحليل وتنظير تشكيلا بالغ الأهمية.

ويرى بعض الأكاديميين أن مجموعات النقاش التأويلي (IFGs: In- terpretive Focus Groups) ، لا تختلف عن مجموعات النقاش التقليدية (traditional focus groups) ، ولكنني أؤكد أنهما منهجان حقا مختلفان ، فهما مختلفان اختلافا مهما من حيث نقل السلطة بجعل العمل المشترك عنصرا أساسيا في مسار البحث منذ بدايته ، ومن حيث دمج أفراد المجتمع في هذا المسار باعتبارهم "خبراء" في مرحلة التأويل . وبالتالي أعتبر مجموعات النقاش التأويلي أداة مفيدة إن لم تكن ضرورية لتعزيز صحة التحليل ودقته عندما يضرب البحث بجذوره في المجتمعات المهمشة .

وسأظل طوال حياتي أكافح في تعاملي مع المآزق المتصلة بالبحث الكيفي داخل المجتمعات التي لا أستطيع الادعاء بانتمائي إليها، ولكني لا أرى هذا الكفاح سلبيا، إذ إن مد جذور عملي بحيث يكون متجذرا ومتأصلا في إطار نسوي تشاركي يضمن لي الإدراك الدائم لأوجه الضعف والعرضة للأذى والمجازفة الكامنة في عملي البحث، بما يفرض عليّ دوام المطاوعة ومتابعة علاقات القوى والسلطة. إن تناولي للمناهج التشاركية، وتحديدًا منهج مجموعات النقاش التأويلي، سهل لي أيضا الالتزام بعمل مشترك متواصل مع مجتمع المستجيبات والمستجيبين. وإذا كنت قد انتهيت من أطروحتي الجامعية فإن العملية التي منحت بحثي الدفعة الأولى مستمرة، وعلاقة الشراكة مع المجتمع الذي درسته هي علاقة تزداد قوة. وأنا أرى أنني لن أستطيع المشاركة في خلق معرفة جديدة في المستقبل دون تلك القاعدة القائمة على القوة والثقة - نحو معرفة نبعت من الهوامش لا من المركز.

ديبورا بياتيللي: لقد وجدت في أبحاثي أن الرغبة في إقامة علاقة بحثية تشاركية ليست كافية لجعل الأمر حقيقة واقعة. فالمآزق الذي واجهته تمثل في تجاوز جو عام من انعدام الثقة وعدم الراحة تجاه الأغراب، بالإضافة إلى القناعة بأن البحث الأكاديمي لا علاقة له باحتياجات النشطاء، وهو المآزق الذي واجهته عند دخولي الميدان. فقد كافحت على مدى شهور قبل اكتسابي الاحترام والثقة اللازمين؛ لإثبات التزامي بإنتاج بحث مفيد يتم معهم ولهم، لا مجرد كونه عنهم. وقد نجحت مجموعات النقاش التأويلي في إشراك الكثيرين في البحث وتبسيط الضوء على طرق مهمة يمكن بها دمج نتائج البحث في عملهم. وقد فتحت مجموعات النقاش التأويلي الباب أمام بناء علاقات تشاركية، وتعزيز المزيد من الثقة والقبول لوجودي داخل الشبكة. إن محاولة الحديث إلى مجتمع غير راغب في الاشتراك

وإقناعه بالمشاركة في مشروع تشاركي، أو التوجه إلى الناس بطلب تأويل المادة هي محاولة كانت تبدو غير ملائمة، وبالتالي فمن خلال استثمار ساعات في أعمال تهمهم وفي التعامل مع أفراد المجتمع باعتبارهم هم حاملي المعرفة القيمة، أخذ هذا المشروع البحثي في التشكل ليصبح مشروعاً تشاركياً. وقد وفرت مجموعات النقاش التأويلي سبيلاً أمام الناس للتوقف أمام ما مروا به من مسارات وما يحملونه من قناعات، ولكي يقرروا بمحض إرادتهم مدى فائدة هذا البحث بالنسبة لهم وشكل تلك الفائدة.

وكما هو الحال بالنسبة لكل من ليا وليسا، فأنا أرى أيضاً أن مجموعات النقاش التأويلي تثبت التجارب المعيشة وتعترف بأن المشاركين في عملنا البحثي هم من حاملي المعرفة. وعلى الرغم من أن مجموعات النقاش التأويلي تستنفد الكثير من الوقت، وكثيراً ما تقودنا إلى مساحات غير معلومة، فإنه منهج يوفر لنا قدراً أكبر من العمق والفهم لما نقوم به من جهد، كما يعزز وجود أساليب أقل تراتبية وطرق تشاركية لبناء المعرفة.

ولنتنقل إلى مثال آخر لتوضيح كيف يمكن للنسويات توظيف مجموعات النقاش كوسيلة للوصول إلى المعرفة المستضعفة.

إن الحدث المحيط بمجموعة النقاش قد يكون أداة مفيدة للغاية في فهم تجربة القهر - وهي التجربة اليومية التي قد تبدو ثانوية بالنسبة للأفراد؛ وبالتالي قد تغيب جزئياً عن الأنظار أو الدراسة. فعلى سبيل المثال قد تظل التجربة اليومية المتعلقة بالعنصرية أو رهاب المثلية أو التحرش الجنسي تجارب غير مرئية بدرجة كبيرة بالنسبة لمن يتمتعون بامتيازات ثقافية في المجتمع، وبالتالي قد تتعرض التجارب اليومية والأفكار والمشاعر للكبت أو سرعة النسيان من قبل أبناء الأقليات ممن تعتبر تلك التجارب جزءاً عادياً

متكررا في حياتهم اليومية. وقد يؤدي ذلك "الغياب المزدوج" إلى صعوبة الوصول إلى تلك المعرفة المهمة، إلا أن ذلك الحدث الجماعي قد يسمح للباحث أو الباحثة بالكشف عن شيء من تلك المعرفة المخفية. فحين تعبر عضوة من أعضاء المجموعة عن الصعوبة التي تلقاها في العثور على كتاب لطفلها أو طفلتها يمثل "أسرتهم البديلة" (مثل الأسرة المكونة من أحد الوالدين فقط أو من والدين مثليين)، فقد يشجع ذلك أفرادا آخرين في المجموعة ممن تعاملوا مع مسائل عديدة شبيهة بذلك على التعبير عنها إذ لم يتح لهم مسبقا مجال للربط بين تلك المسائل أو ربما يكونون ببساطة سينسون التطرق إليها. وهكذا فإن ديناميكيات تفاعل المجموعة قد تنتج مادة غنية للغاية، ولكن يمكن للتفاعل داخل المجموعة أن يتسم بالتعقيد، كما تلعب اختيارات الباحث أو الباحثة في إعداد البحث دورا مهما في مدى تحقيق المقابلة لأهداف الباحث أو الباحثة:

- كيف تتطور ديناميكية المجموعة؟
- ما اختيارات إعداد البحث التي تواجه الباحثات النسويات؟

لقد شاع إطلاق مصطلح "الأثر الجماعي" على ديناميكيات المجموعة التي تتطور داخل مجموعات النقاش (Carey 1994; Morgan 1996; Morgan & Krueger 1993). ويمكن للأثر الجماعي أن يأتي بنتائج إيجابية وسلبية، وبطرق أساسية بالنسبة للممارسة النسوية تحديدا. فمن الجانب الإيجابي يمكن لديناميكيات المجموعة أن تؤدي إلى فتح الحوار حول موضوع صعب وإثارة نقاش مهم وتحقيق الفهم، بل وإثارة نقاش جدلي بين عدد من المشاركين والمشاركات، سواء من المتشابهين أو المتنوعين فيما بينهم. فعلى سبيل المثال وجدت فرانسيس مونتيل (Frances Montell 1999) في ديناميكيات المجموعة أهمية محورية في نجاح دراستها حول النوع والجنسانية والوسائط الإعلامية. فقد أوجد الجو الجماعي مستوى من الراحة فيما يتصل بموضوعات شخصية باللغة الخصوصية وذلك لعدم شعور أي من المشاركات بأن كل الانتباه موجه نحوها فقط. كذلك فإن التفاعل الجماعي أتاح المجال لمواجهة بعض القناعات والافتراضات وبالتالي عدم اعتبارها طبيعية، وهو جانب مهم من جوانب البحث النسوي.

يمكن للمشاركات والمشاركين مساعدة بعضهم البعض في التوصل إلى ما تعنيه الأسئلة بالنسبة لهم ، ويمكن للباحثة أو الباحث التوقف أمام كيف قد يسمع مشاركون مختلفون أسئلة قد تتسم بالغموض أو الالتباس . وهو أمر مهم عند دراسة الجنس والنوع نظرا لأن هذين الأمرين يتم التعامل معهما باعتبارهما مسألتين ”طبيعيتين“ إلى درجة وجود صعوبة بالغة في التعرف على ما يحمله المرء من مفاهيم مسبقة ، وهو الأمر الذي يفوق في صعوبته مواجهة ما لدى الآخرين من افتراضات مفروغ منها . إن توسيع نطاق الأدوار المتاحة للنساء في المقابلة الجماعية ، بحيث يتجاوز الفصل الصارم بين ”الطرف القائم بالمقابلة“ و”الطرف الخاضع للمقابلة“ ، يفسح المجال للتعامل والتفاعل بما يؤدي في الغالب إلى الكشف عن تلك الافتراضات المفروغ منها بل ومواجهتها . (Mortell 1999 ، p. 49)

وبينما يمكن لـ”الأثر الجماعي“ أن يساعد في تيسير بناء المعرفة النسوية ، فإنه أيضا قد يعرقله بجعل الهموم النسوية مرئية . وقد يقوم بعض أعضاء المجموعة أحيانا بإسكات آخرين من أعضاء المجموعة من خلال السيطرة على مسار الحوار أو جعله من الصعب على الآخرين التعبير عن آرائهم بيسر . وفي مجموعات النقاش التي يتمتع فيها بعض الأعضاء بموقعية الأغلبية بينما للبعض الآخر موقعية الأقلية ، قد يحدث تكرار لعلاقات السيادة الاجتماعية (Hesse-Biber & Leavy 2006 ، p. 214) ، وهو ما يحدث بسبب ما يتم عادة من ”إسكات“ (muted) أصوات الأقلية ضمن الأغلبية (Kitz- inger 1994 ، p. 110) . فعلى سبيل المثال ففي مجموعة نقاش تضم كلا من الرجال والنساء قد نجد ميل الرجال إلى السيطرة ، وهو الأمر الذي سيؤدي إلى إنتاج معرفة من موقع الفئة المتمتعة بالامتيازات ، وهو ما لا يتماشى مع النسوية . فالباحثات النسويات يتوقفن طويلا أمام تلك المسائل في مرحلة وضع خطط أبحاثهن ، حيث تتوقف النسويات تحديدا لتأمل مسألة اختيار العينة ، وتوحيد المعايير ، وأدوار الباحثة باعتبارها ميسرة .

مقاربات نسوية لإعداد خطة البحث

يشير مفهوم اختيار عينة البحث (sampling) إلى من هم أعضاء مجموعة النقاش الخاصة بالبحث. فمن المهم اختيار الأشخاص من المهتمين بالموضوع، وتميل النسويات إلى اختيار أفراد من المجموعات المهمشة أو المستبعدة (marginalized or disenfranchised)، التي قد تكون معتادة على معاشية الظلم الاجتماعي. وفيما بعد اختيار العينة يتعين على المرء توحيد المعايير عبر المجموعات، وهو قرار دقيق بالنسبة للباحثات النسويات. ويشير توحيد المعايير (standardization) إلى ما إذا كان أفراد المجموعة سيتسمون بالتشابه أم عدم التشابه فيما بينهم؟ فالمجموعات التي يتشابه أعضاؤها من حيث سمات معينة (مثل النوع أو الجنسية أو اللون أو الطبقة الاجتماعية) هي مجموعات يطلق عليها كونها متجانسة (homogeneous)، أما المجموعات التي لا يتشابه أعضاؤها فيما بينهم فيطلق عليها كونها متباينة (heterogeneous)، وهي مجموعات تقدم مادة علمية حول كيفية استجابة نطاق متباين من الناس لموضوع معين. وبينما يوجد هنالك بالتأكيد مساحة لهذا النوع من خطط البحث، فإن الباحثات النسويات هن الأقرب إلى اختيار المجموعات المتجانسة حيث تخلق أوجه الشبه بين أفراد المجموعة حالة من الراحة، وحيث يميل أعضاء المجموعة إلى الإفصاح عن سمات الانتماء للأقلية، وحيث تنال أصوات الأقلية الامتياز لا الإسكات. باختصار فإن التجانس يخدم ديناميكيات المجموعة بطريقة محورية ضرورية للبحث النسوي.

والتقسيم إلى شرائح هو استراتيجية شائعة تستخدمها النسويات لتحقيق أقصى فوائد التجانس في الوقت الذي يتم فيه دمج بعد مقارن في المشروع البحث. والتقسيم إلى شرائح (segmentation) يعني وجود عدد من مجموعات النقاش في الدراسة الواحدة، بحيث تتكون كل مجموعة نقاش من أعضاء متشابهين فيما بينهم، مع وجود اختلاف عبر المجموعات. فعلى سبيل المثال، في دراسة تتمركز حول قضايا النوع، وهو ما يتمثل في غالبية الأبحاث النسوية، قد نجد مجموعتي نقاش مكونتين من نساء ومجموعتين أخريين مكونتين من رجال، وذلك ضمن إجمالي أربع مجموعات

متجانسة تم تقسيمها إلى شرائح بناء على النوع . وهي آلية مهمة بالنسبة للباحثات النسويات لأنها تتيح لنا مقارنة المجموعات ذات الموقع المختلف داخل الثقافة الواحدة من حيث كيفية تفكيرها ومعايشتها لنطاق واسع من الموضوعات ، بينما نقلل الخلل في موازين القوى إلى أدنى حد .

وأخيرا فإن الباحثات والباحثين يتبنون دورا معيناً خلال مقابلات مجموعات النقاش ، وهو دور "الميسرة أو الميسر" . ويرتبط أسلوب التيسير بسؤال البحث ، كما يتصل أيضا بالإطار النظري والموقع الإستمولوجي للباحثة أو الباحث . وبالتالي تلعب النسوية دورا مهما في معدل التيسير المفروض في البحث . ويشير التيسير (moderation) ، إلى درجة التحكم التي يمارسها الطرف القائم بالمقابلة ، وهو تحكم يتخذ عدة صور بما في ذلك توجيه دفة الحوار ، وإتاحة مجال الحديث أمام الناس كما يريدون أو ضمان قيام كل شخص بالرد على سؤال معين ، وتوحيد المعايير (من حيث مدى التزام كل مجموعة بنفس دليل المقابلة) . إن الباحثات النسويات المهتمات بالتوصل إلى المعرفة المستضعفة الدفينة قد يملن إلى ممارسة معدل منخفض من التيسير حيث يتمتع المشاركون والمشاركات بتحكم أكبر في تركيز الحوار على موضوعات تهمهم وبلغتهم الخاصة وتبعاً لإيقاعهم . إلا أن الباحثة النسوية القائمة ببحث تقييمي ، بشأن برنامج جديد في التربية الجنسية أو برنامج للتدخل في العنف المنزلي ، قد تختار درجة أعلى من التحكم وتوحيد المعايير لتحقيق درجة أكثر فاعلية في التعبئة لوضع البرامج التعليمية أو تغيير السياسات . ويمكننا أن نرى هنا كيف تلعب أسئلة البحث المعينة والإستمولوجيا النسوية (مثل الموقعية أو الإمبريقية) دورا في إعداد خطط مجموعات النقاش .

وختاماً ، فإن مجموعات النقاش هي واحدة من ثلاثة أشكال أساسية من أشكال المقابلات التي تستخدمها النسويات . وفي هذا الشكل المحدد من أشكال المقابلات يقوم عدد من المشاركين والمشاركات بإنتاج سرديّة متعددة الأصوات تفوق مجمل أجزائها . ومثلما تتنوع الإستمولوجيات النسوية كذلك تتنوع أساليب توظيف النسويات لمجموعات النقاش عند دراسة نطاق متسع من القضايا الاجتماعية .

- Anderson, K., & Jack, D. C. (1991). Learning to listen: Interview techniques and analysis. In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 11–26). New York: Routledge.
- Arat, Z. Kabasakal. (2003). Where to look for the truth: Memory and interpretation in assessing the impact of Turkish women's education. *Women's Studies International Forum*, 6(1), 57–68.
- Borland, K. (1991). That's not what I said: Interpretive conflict in oral narrative research. In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 63–75). New York: Routledge.
- Brotherson, M. (1994). Interactive focus group interviewing: A qualitative research method in early intervention. *Topics in Early Childhood Special Education*, 14(1), 101–118.
- Carey, M. (1994). Forms of interviewing. *Qualitative Health Research*, 5(4), 413–416.
- Charmaz, K. (2000). Grounded theory: Objectivist and constructivist methods. In N. Denzin & Y. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative methods* (pp. 509–535). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Chavez, Leo. (1998). *Shadowed lives: Undocumented immigrants in American society*. New York: Harcourt Brace.
- Clark, Eileen. (1999). Getting at the truth in oral history. *Social Research and Social Change*, 6, 1–18.
- Collins, Patricia Hill. (1990). *Black feminist thought: Knowledge, consciousness, and the politics of empowerment*. Boston: Unwin Hyman.
- Dodson, Lisa. (1998). *Don't call us out of name: The untold lives of women and girls in poor America*. Boston: Beacon Press.
- Dodson, Lisa, & Schmalzbauer, Leah. (2005). Poor mothers and habits of hiding: Participatory methods in poverty research. *Journal of Marriage and Family*, 67, 949–959.
- Etter-Lewis, G. (1991). Black women's life stories: Reclaiming self in narrative texts. In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 43–58). New York: Routledge.

- Hesse-Biber, S. N. & Leavy, P. (2006). *The practice of qualitative research*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Heward, C. (1994). Academic snakes and merit ladders: Reconceptualising the glass ceiling. *Gender & Education*, 6(3), 249–262.
- Kitzinger, J. (1994). The methodology of focus groups: The importance of interaction between research participants. *Sociology of Health & Illness*, 16(1), 103–121.
- Lykes, M. Brinton, & Coquillon, Erzulie. (2006). Participatory and action research and feminisms: Towards transformative praxis. In Sharlene Nagy Hesse-Biber (Ed.), *Handbook of feminist research: Theory and praxis*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Matoesian, G., & Coldren, J. (2002). Language and bodily conduct in focus group evaluations of legal policy. *Discourse & Society*, 13(4), 469–493.
- Minister, K. (1991). A feminist frame for the oral history interview. In S. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 27–41). New York: Routledge.
- Montell, F. (1999). Focus group interviews: A new feminist method. *NWSA Journal*, 11(1), 44–70.
- Morgan, D. (1996). Focus groups. *Annual Review of Sociology*, 22, 129–152.
- Morgan, D., & Krueger, R. (1993). When to use focus groups and why. In D. Morgan (Ed.), *Successful focus groups: Advancing the state of the art* (pp. 3–19). Newbury Park, CA: Sage.
- Saidel, Rochelle G. (2004). *The Jewish women of Ravensbrück concentration camp*. Madison: University of Wisconsin Press.
- Sangster, Joan. (1994). Telling our stories: Feminist debates and the use of oral history. *Women's History Review*, 3, 5–28.
- Scanlon, Jennifer. (1993). Challenging the imbalances of power in feminist oral history: Developing a take-and-give methodology. *Women's Studies International Forum*, 16(6), 639–645.
- Schneider, W. (2002). . . . *So they understand: Cultural issues in oral history*. Logan: Utah State University Press.
- Slater, R. (2000). Using life histories to explore change: Women's urban struggles in Cape Town, South Africa. *Gender and Development*, 8(2), 38–46.
- Sparkes, A. (1994). Self, silence, and invisibility as a beginning teacher: A life history of lesbian experience. *British Journal of Sociology of Education*, 15(1), 93–119.
- Turnbull, Annmarie. (2000). Collaboration and censorship in the oral history interview. *International Journal of Research Methodology*, 3(1), 15–34.
- Wilmsen, C. (2001). For the record: Editing and the production of meaning in oral history. *Oral History Review*, 28(1), 65–85.

الفصل السابع

ممارسة الإثنوجرافيا النسوية

إيلانا د. بوتش

كارين م. ستالر

إن من أوجه صعوبة تعريف الإثنوجرافيا النسوية هو أن أشكال الإثنوجرافيا النسوية تكاد تتباين عند ممارستها بقدر تنوع الإثنوجرافيات النسويات أنفسهن. ولا يعني ذلك أن أنواع الإثنوجرافيا النسوية لا تشترك في نواح كثيرة، وإنما المقصود أن أنواع الكتابات الإثنوجرافية التي تقوم بها النسويات تعكس نطاقا واسعا من النظريات والأخلاقيات النسوية المعروضة في أجزاء أخرى من هذا الكتاب. إن الإثنوجرافيا شكل من أشكال البحث يتسم بالمرونة ويعتمد على الاستجابة ورد الفعل، والتكرار، وهو ملائم للإجابة على كثير من الأسئلة التي تهم النسويات.

إن الإثنوجرافيا بمعناها العام هي شكل من أشكال البحث، يطرح أسئلة عن الممارسات الاجتماعية والثقافية لمجموعات بشرية. وتشير شيري أورتنر إلى أن "الإثنوجرافيا" تعني -دوما بإيجاز وتصغير بالغ- محاولة فهم دنيا أخرى بواسطة الذات -بأكبر قدر ممكن من الذات- باعتبارها هي أداة المعرفة" (Sherry Ortner 1995، p. 173). وهنالك جزئتان مهمتان في هذا التعريف "الموجز المصغر" لمصطلح الإثنوجرافيا، وتتمثل الجزئية الأولى في "محاولة فهم دنيا أخرى"، وبالتالي فإن الإثنوجرافيين يدرسون التجارب المعيشة والأنشطة اليومية والسياق الاجتماعي للحياة اليومية من

منظور المدروسين من أجل تفهم دنياهم . فالدراسات الإثنوجرافية تطرح فهما شاملا لحياة البشر اليومية، بما يعني أن الإثنوجرافيين يسعون إلى توصيف وتحليل الروابط المنهجية القائمة بين مجالات الحياة كالدين والاقتصاد والقرابة .

أما الجزئية الثانية فتتمثل في أن الإثنوجرافيين يكتسبون تلك المعرفة "بواسطة الذات- بأكبر قدر ممكن من الذات"، فهم يقومون بأبحاثهم عن طريق الذهاب إلى البيئات أو الأماكن الطبيعية حيث تتبدى الحياة وعن طريق الانغماس في تلك البيئات لفترات زمنية طويلة للتوصل إلى فهم لممارسات البشر الثقافية . ومن الأهداف التي يصبو إليها الإثنوجرافيون هو النظر إلى العالم بعيون غير مألوفة، وهو ما يعني أنه بدلا من إدراك أنشطة الحياة اليومية عبر الحدس فإن الإثنوجرافيين يرون حتى التصرفات والعقائد والقناعات العادية الشائعة باعتبارها غير معتادة وجديرة بالتحليل الواسع . باختصار فإن "البحث الإثنوجرافي يهدف إلى الوصول إلى فهم عميق لكيفية إدراك الأفراد في مختلف الثقافات والمجموعات الثقافية لواقع حياتهم" (Hesse-Biber & Leavy 2006، p. 230).

والإثنوجرافيا ملائمة تماما لدراسة الحياة اليومية في المناطق المحلية، وذلك مع أن الإثنوجرافيين يقومون -مؤخرا- بتطوير مناهج لدراسة المسارات العالمية والمترابطة في أماكن متعددة . ومثلها مثل كل أشكال البحث تتسم الإثنوجرافيا أيضا بأوجه من القصور، فمن الصعب القيام بتعميمات واسعة بناء على العمل الإثنوجرافي نظرا لأن الإثنوجرافيا لا تستخدم عينات عشوائية أو ممثلة، وإنما يمكن الاستعانة بالدراسات الإثنوجرافية بشكل مقارن للتعرف على ما هو مشترك وما هو فريد في المجتمعات . ورغم ما يقدمه الإثنوجرافيون عادة من تفسيرات لأحداث أو عمليات ما، فإنه من الصعب إثبات علاقات السببية بالنسبة لأحداث بعينها بواسطة الإثنوجرافيا، وذلك لأنها لا تختبر الدرجة التي تؤثر بها العوامل المختلفة على النتائج . كما أن الدراسات الإثنوجرافية تكاد تكون مستحيلة التكرار والتثبت من صحتها (verify)؛ لأن قدرا

كبيراً من العمل الإثنوجرافي يعتمد على التفاعل الشخصي بين الباحثة الإثنوجرافية والمجتمع الذي تدرسه .

ومع أن الإثنوجرافيا وثيقة الصلة بالأنثروبولوجيا ، فإن الباحثين والباحثات قد استخدموا الإثنوجرافيا كثيراً في الأفرع المعرفية كعلم الاجتماع والعمل الاجتماعي والصحة العامة والدراسات النسائية والعلوم السياسية وعلم النفس والترخيص والتربية بل وحتى في مجال إدارة الأعمال . وقد وجد الباحثون والباحثات ممن يجمعون بين خلفية في العلوم الإنسانية وفي العلوم الاجتماعية أن الإثنوجرافيا مفيدة في جمع المعلومات عن الحياة الاجتماعية وتحليلها في كافة أرجاء العالم .

وعادة ما يمكن تتبع أصول المنهج الإثنوجرافي وإرجاعها إلى بدايات القرن العشرين عندما سعى علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا إلى فهم أساليب الحياة التي تختلف اختلافاً بالغاً عن أساليب حياتهم . إلا أننا نجد أن شولاميت رينهartz (Shu- lamit Reinharz 1992) ، تقوم بتوثيق جهود النساء ، مثل هاربيت مارتينو ، وأليس فليتشر ، وهيلين ميريل ليند ، وفيث ويليامز ، وإسهاماتهن في بواكير العمل الميداني وأسس المنهج الإثنوجرافي . فقد كان لمناهج البحث الجديدة التي ابتكرتها هؤلاء النساء دور في التأكيد على أهمية ذهاب الباحثة أو الباحث الإثنوجرافيين فعلاً إلى الميدان ، كما اعتمدت تلك المناهج على عقد المقابلات وملاحظة السكان المحليين للتعرف على معتقداتهم وعاداتهم . ففي خضم الحرب العالمية الأولى ، وخلال فترة بقائه الشهيرة والممتدة في جزر تروبياند (Trobriand Islands) ، قام برونيسلاف مالينوفسكي (Bronislaw Malinowski) بمزيد من التطوير لما يعتبر حالياً قاعدة الارتكاز في المنهج الإثنوجرافي ، أي الملاحظة بالمشاركة (participant observation) . وقد أكد مالينوفسكي على الآتي :

إن طرح سؤال مباشر على أحد السكان المحليين عن عادة ما أو معتقد ما لا يؤدي أبداً إلى الكشف عن موقفهم الفكري بنفس الدقة التي تحققها مناقشة

الحقائق المتصلة بالملاحظة المباشرة لعادة ما أو حدث متكرر معين الذي يشترك فيه كلا الطرفين بشكل مادي ملموس (cited in Stocking)

.1983, p. 97)

وقد ارتبطت الإثنوجرافيا تقليدياً بأهل الغرب المسافرين والمرحلين للقيام بأبحاث في قرى صغيرة في أماكن بعيدة وغريبة مع بشر ينتمون إلى خلفيات مختلفة جداً عن الباحثة أو الباحث الإثنوجرافيين. والإثنوجرافيون المحليون (native ethnographers) يقومون بأبحاثهم في أماكن مألوفة بالنسبة لهم، وبالتالي فبينما كانت الإثنوجرافيا التقليدية تسعى إلى وصف أساليب الحياة الغريبة بحيث يعتبرها القراء الغربيون مألوفة، فإن الإثنوجرافيين المحليين يعملون من أجل إزالة سمة الطبعية عن الجوانب المفروغ منها في عالمهم الاجتماعي، مع الكشف عادة عن تفاعلات القوى الخفية أو الأعراف الاجتماعية المشتركة. أما الإثنوجرافيا الحضرية (urban ethnography) فتقوم بدراسة جوانب من الحياة الاجتماعية في المدن. وتسعى الإثنوجرافيا متعددة المواقع والإثنوجرافيا العالمية (multisited and global ethnography) إلى وصف كيفية ارتباط الناس في أماكن متعددة فيما بينهم من خلال المسارات العالمية. ويقوم الباحث أو الباحثة في الإثنوجرافيا النقدية والإثنوجرافيا التطبيقية (critical ethnography) بالبحث في الإثنوجرافيا التطبيقية (applied ethnography)، بتضمين المجتمع في البحث للمساعدة في حل مشكلة ما أو تقييم سياسة معينة. وطبقاً لكل من روبرت تروتر وجين شينسول فإن الهدف الذي يصبو إليه الباحث الإثنوجرافي التطبيقي هو "القيام بالبحث بحيث يمكن استخدام النتائج المترتبة على البحث في التدخل المباشر أو قد يؤدي إلى توصيات لتغيير السياسات" (Robert Trotter and Jean Schensul 2000، p. 691). أما في الإثنوجرافيا الذاتية (autoethnography) يقوم الباحث أو الباحثة باستخدام التجارب الذاتية المعيشة كمصدر أولى للمادة الإثنوجرافية.

وكثيرا ما استعانت الباحثات النسويات في السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين بمزايا علم الإثنوجرافيا وغيره من أشكال البحث الكيفي لما تتمتع به من إمكانيات لصياغة فهم تأويلي ومتفاعل ذاتيا (intersubjective) للحياة الاجتماعية. "إن المناقشات المتصلة بالمنهجية النسوية تهدد عامة العلاقات التراتبية القائمة على الاستغلال التي يتسم بها البحث التقليدي ، إذ تدفع تلك المنهجية الباحثات النسويات إلى السعي لتتبع مسار بحثي عادل يتسم بالأصالة والعلاقة المتبادلة والتفاعل الذاتي بين الباحثة والذوات الواردة في بحثها" (Stacey 1991 ، p. 112). والمعرفة القائمة على التفاعل الذاتي (Intersubjective knowledge) هي تلك المعرفة التي تتم من خلال جهد مشترك بين الباحثة ومن تتناولهم بالبحث ، وهي أشكال من المعرفة كانت تعتبر أكثر التزاما بتوجهات النقد النسوي للمعرفة المبنية على الخبرة ، وتعكس وتعزز سلطة النخبة الأكاديمية على الخاضعين للبحث والدراسة (Stacey 1991). وباعتبارها عملية تفاعلية تعتبر الإثنوجرافيا عادة موفرة لوسيلة أكثر عدالة في توليد المعرفة والفهم مقارنة بغيرها من مناهج البحث الأخرى . وقد قامت الإثنوجرافيات النسويات في مرحلة لاحقة بتنفيذ الفرضية القائلة بأن المناهج الإثنوجرافية تتسم -بالضرورة- بقدر أكبر من العدالة والتفاعل الذاتي ، كما كشف عن قدر أعمق من الوعي بكيفية التزام الإثنوجرافيات النسويات بالحس تجاه قضايا السلطة والسيادة في ممارساتهن البحثية (Patai 1991; Reinhartz 1992; Stacey 1991).

إن ما يحول الإثنوجرافيا إلى إثنوجرافيا نسوية (feminist ethnography) يظل مسألة غير محسومة ، وهي ما نراه فيما يلي :

يوجد نطاق من المقاربات النسوية في علم الإثنوجرافيا وذلك بناء على المنظور التخصصي المعين والموقف النظري والأهداف السياسية لدى الباحثة الإثنوجرافية النسوية . وإن ما يوحد تلك المقاربات هو وجود التزام عميق بفهم قضايا النساء وهمومهن من منظورهن الشخصي ، مع

الالتفات تحديداً للنشطة و"مايدور" للنساء في زمان البحث ومكانه .
وقد قامت الجهود المبكرة للإثنوجرافيات النسويات بالكشف عن الكثير
من الجوانب "الخفية" لأدوار النساء في السياق الإثنوجرافي . (Hesse-
Biber & Leavy 2006 ، p. 237)

وهناك ثلاث طرق أساسية يمكن بها تمييز الإثنوجرافيا النسوية (feminist eth-
nography) ، عن غيرها من المقاربات الإثنوجرافية ، إذ تتضمن الإثنوجرافيا النسوية
مايلي:

- بحثاً إثنوجرافياً يركز على حيوات النساء وأنشطتهن وتجاربهن .
 - مناهج إثنوجرافية أو أساليب كتابة تقوم على النظريات والأخلاق النسوية .
 - تحليلاً إثنوجرافياً يستخدم منظورا نظريا نسويا و/أو يوجه انتباهها خاصا نحو التفاعل والتداخل بين مسألة النوع وغيره من أشكال السلطة والاختلاف
- وفيما يلي نتوقف سريعا أمام بعض الأمثلة على كل مقاربة من المقاربات السابقة .

بحث إثنوجرافي يركز على حيوات النساء وأنشطتهن وتجاربهن

إن من أوائل الأبحاث الإثنوجرافية الأكاديمية التي تضمنت وصفا وتحليلا تفصيليا
لأنشطة النساء هو كتاب أودري ريتشاردز عن "الأرض والعمل ونظام التغذية
في شمال روديسيا" (Audrey I. Richards ، Land ، Labour and Diet in
Northern Rhodesia 1939/1995) . وقد كانت أودري ريتشاردز من بين
طلاب مالينوفسكي ، وتأتي دراستها لنظام الزراعة والتغذية لدى قبيلة بيمبا ضمن أولى
الدراسات التي تقدم عرضا مفصلا لأعمال النساء ومسؤولياتهن المنزلية . كما قامت في
دراسة لاحقة (Richards 1956) بتقديم إضافة لما ورد عن طقوس تكريس (initia-

tion)، الأولاد حين نشرت واحدة من أولى الدراسات الإثنوجرافية عن احتفالات تكريس البنات في تناولها بالوصف لاحتفالية "تشيسونجو" عند قبيلة بيمبا.

وفي كتابها "هل صرت نحيفة بالقدر الكافي؟" (Hesse-Biber، Am I Thin Enough Yet، 1996) تستخدم المؤلفة المناهج الإثنوجرافية لدراسة أثر المثال الثقافي للجسد الأنثوي على الفتيات والشابات. وترى المؤلفة أن "النحافة" ظاهرة (cult) تسود ثقافة الولايات المتحدة الأمريكية، كما اتضح لها أنه يتم تعزيز مثال الجسد الأنثوي بواسطة التصورات والبنى الأبوية للنساء باعتبارهن أدوات ديكورية تجميلية، مدعومة بمصالح المؤسسات القائمة على أنظمة التغذية واللياقة البدنية. وتستخدم المؤلفة المقابلات الشخصية والبحث الإثنوجرافي في دراستها للنساء في المرحلة الجامعية لتوضيح أثر "ظاهرة النحافة" على حياتهن وللوصية باستراتيجيات ممكنة لتحسين حيوات النساء.

مناهج إثنوجرافية وأساليب كتابة تقوم على النظريات والأخلاق النسوية

تقوم روث بيهار في دراستها الإثنوجرافية النسوية (Ruth Behar، Translated Woman، 1993)، الكلاسيكية والمثيرة للجدل بنسج قصة حياة إسبيرانزا، وهي بائعة متجولة مكسيكية، في خيوط متداخلة مع تجارب الباحثة نفسها باعتبارها امرأة مهاجرة وأكاديمية. ونجد أن المقاربة التي تنتهجها روث بيهار تجاه عملها الميداني مع إسبيرانزا، نوع الكتابة وأسلوبها الذي اختارته الباحثة يتسم بعمق الجانب الشخصي فيه كما يكشف عن الطرق التي تتشارك بها إسبيرانزا وروث بيهار في تجارب الغضب والسلطة والخلاص (redemption). إن قيام روث بيهار بتضمين حكايتها الشخصية يدعم الأجندة النسوية القائمة على هدم الحدود التحليلية الفاصلة بين تجارب النساء عبر استخدام كتابة تتسم بالتفاعل الذاتي الصريح.

وتستخدم بيلي إيسابيل (Billie Isabell 1995) شكل المسرحية الدرامية لنقل الحوار القائم بين نساء العائلة في وصفهن للتجارب المؤثرة الناجمة عن الهجرة من

قرى الأنديز الصغيرة إلى مدينة ليما في بيرو . وترى بيلي إيسابيل أن استخدام هذا النوع من النص الحوارى لالتقاط أصوات النساء يعمل جزئيا على نقل سلطة التأويل من الباحثة الإثنوجرافية لتعود السلطة مرة أخرى إلى من تقوم هي بتوصيف حياتهن .

**تحليل إثنوجرافى يستخدم منظورا نظريا نسويا و/أو يوجه انتباها
خاصا نحو التفاعل والتداخل بين مسألة النوع وغيره من أشكال السلطة
والاختلاف**

قامت إلين ليوين (Ellen Lewin 1993) بدراسة تجارب الأمهات المثليات ، وذلك لفهم مدى تشابه أو اختلاف تجارب الأمومة لديهن عن الأمهات الغيريات . وتعكس تلك الدراسة النظرية النسوية التي تعترف بأشكال السلطة والاختلاف القائمة بين النساء وفيما بينهن وكذلك بين النساء والرجال .

كما قامت بيريت هونداجنو-سوتيلو (Pirette Hondagneu-Sotelo 2001) بعقد مقابلات شخصية إثنوجرافية والملاحظة بالمشاركة مع خادمت المنازل من أصول أمريكية لاتينية في مدينة لوس أنجلوس . فقد قامت بدراسة العلاقة المشدودة بين النساء الغنيات اللاتي يقمن بتوظيف الخدمة المنزلية وبين نساء الطبقة العاملة اللاتي يعملن وأحيانا يعشن بينهن . وتقدم الباحثة في هذه الدراسة وصفا وتحليلا تفصيليا لعلاقات اللون والطبقة فيما بين النساء وكذلك بين الخادمت من أصول أمريكية لاتينية والمجتمع الأوسع .

ونجد شولاميت رينهارتز ، وهي من الرائدات في تناول المناهج النسوية في الأبحاث الاجتماعية ، تقول الآتي بشأن الإثنوجرافيا النسوية: "إن رأيي في هذا الموضوع هو أنه لا يوجد تعريف متفق عليه للنسوية ، بل يوجد عدد كبير ممن يطلقن على أنفسهن اسم النسويات ومن يتبع بحثهن الإثنوجرافى تعريفهن الشخصي للنسوية" (Rein- harz 1992 ، p. 74) ، وقد يكون هذا في نهاية الأمر هو أفضل طريقة للتفكير في

الإثنوجرافية النسوية والحكم عليها. فبدلاً من محاولة صياغة تعريف واحد أوحد من الأفضل احتضان نطاق متنوع من المقاربات – فيمكننا بالتالي تقييم الباحثة والبحث تبعاً لفهمنا كيف تحدد الباحثة موقعها الشخصي وكيف تقوم بتضمين آرائها النسوية في مقاربتها المنهجية. وتختتم شولاميت رينهارتز قولها بأن الإثنوجرافيا في حد ذاتها لا تكون نسوية وإنما ”وجود الإثنوجرافيا بين يدي النسويات هو الذي يضيف على الإثنوجرافيا سمة النسوية“ (Reinharz 1992، p. 48).

كيف يمكننا القيام ببحث إثنوجرافي نسوي؟

كما رأينا في الأمثلة السابقة فإن الإثنوجرافيا النسوية منهج مفتوح ومرن، إذ تقوم كل باحثة إثنوجرافية بتوجيه اختياراتها المنهجية بما يعكس اهتماماتها النظرية والقيود المفروضة على أسئلة البحث ومجاله الذي تختاره. وعلى الرغم من تنوع الطرق التي يمكن للمرء بها القيام بعمل إثنوجرافي نسوي، فإن غالبية الباحثات والباحثين الإثنوجرافيين يتبعون نفس الخطوات ويواجهون خيارات متشابهة على مدار مسار البحث الإثنوجرافي. ونقوم في هذا الجزء بعرض الخطوات التالية في العمل الإثنوجرافي: اختيار مسألة إثنوجرافية للبحث، اختيار ميدان العمل، الوصول إلى الميدان، اتخاذ القرارات بشأن الأدوار والعلاقات، جمع المادة الإثنوجرافية، تحليل المادة الإثنوجرافية، كتابة التقارير الإثنوجرافية.

ولا يمكننا أن نجد فصلاً في كتاب تعليمي يخبرنا بآلاف القرارات التي تواجه الباحثة أو الباحث الإثنوجرافيين؛ لأن تلك القرارات تتأثر في نهاية الأمر بمواقفك النظرية والأخلاقية. ويمكن للنظرية النسوية أن تؤثر على أسئلة البحث المختارة، وعلى طريقة تعاملك في العمل الميداني، والعلاقات التي تنشأ بينك وبين الناس الخاضعين للدراسة، وعلى الأدوات التحليلية المستخدمة في البحث لتفسير المادة الإثنوجرافية،

وتحليلك وتوصيفك النهائي . ويقوم الإثنوجرافيون والإثنوجرافيات على اختلافهم باستخدام النظرية في مراحل مختلفة من العمل الإثنوجرافي ، ومن هنا فإن هذا الفصل من الكتاب يهدف إلى مساعدتك على الاستعداد للبحث الإثنوجرافي بتقديم الجو العام المحيط بالاختيارات والمشاكل الشائعة والتي تواجهها غالبية الإثنوجرافيين ، بالإضافة إلى الاستراتيجيات والآليات المتداولة في جمع الأدلة الإثنوجرافية وتحليلها .

ما المقصود بموضوع البحث الإثنوجرافي؟

إن كل مشروع بحثي ينطلق من سؤال أو تساؤل أو أمر يشير فضول الباحثة أو الباحث . وطبيعة السؤال وطريقة صياغته تعتمد بالطبع على مادة الموضوع ، وكثيرا ما لا يبدأ الباحثون بسؤال محدد ثابت ، وإنما يميلون إلى الانطلاق من مجالات اهتمام متسعة ومتداخلة . وهي مجالات قد تتضمن اهتماما بأنواع معينة من البشر أو الأماكن أو العادات أو الممارسات أو التوجهات وما إلى غير ذلك . فعلى سبيل المثال ، اهتمت بيت مونتيمورو (Beth Montemurro 2005) بالتغيرات في الأدوار لدى الجنسين والممارسات الاجتماعية ، وبالتالي قامت بدراسة ما يحدث حين يتم إشراك الرجال في احتفالات "ليلة الحنة" ، وهو طقس كان يقتصر تاريخيا على النساء . كما تهتم إيلانا بوتش (Elana Buch) بالطرق التي تقوم بها التحولات في نظام العمل والأسرة بالتأثير على نساء الطبقة العاملة ، وبالتالي تقوم حاليا بإعداد دراسة عن النساء اللاتي يقمن برعاية المسنين بمقابل مالي وذلك للتعرف على كيفية تأثير ذلك الشكل من أشكال العمل على أسرهن وعلى أسر المسنين . ومن خلال مسار البحث الإثنوجرافي كثيرا ما تبدأ تلك الموضوعات العامة في فتح المجال أمام أسئلة بحث أكثر تحديدا . وفي الواقع فإن الباحثات والباحثين كثيرا ما يستخدمون المناهج الإثنوجرافية لوضع أسئلة بحث صالحة ، وبالتالي يمكن استخدام البحث الإثنوجرافي لتناول أوسع وتطوير أفضل لأسئلة بحث تكون أكثر تنوعا ودقة وحساسية .

وكثيرا ما تقوم النظرية بتوجيه اختيار الباحثة أو الباحث بشأن موضوع البحث، فالخلفية النظرية للباحثة عادة ما توجهها لدراسة مجالات معينة وطرح أسئلة بعينها. وعند تحديد موضوع البحث تعتمد غالبية الباحثات على النظرية لمساعدتهن بشكل مباشر أو غير مباشر على اتخاذ القرار بشأن مجالات الحياة الاجتماعية التي يرغبن في دراستها. ونجد أن النظريات الشخصية أو غير الرسمية بشأن مسار العالم تأتي في الغالب من واقع فهم الباحثة الإثنوجرافية لتجارب حياتها اليومية - أي حسها الشخصي وتقديرها للأمور. وهي نظريات عادة ما تؤثر في كيفية اتخاذ الباحثة الإثنوجرافية لقراراتها فيما يتعلق بجوانب الحياة الاجتماعية التي تجذبها للقيام بدراستها على مدار فترة زمنية مطولة، وهي نظريات غير رسمية يمكن أن تفيد في تحديد مشكلة البحث وتعريفها، وعلى الباحثة أن تتوقع لتجاربها الميدانية أن تتعارض مع الفرضيات الثقافية التي كثيرا ما تكمن وراء النظريات الشخصية غير الرسمية. فالنظريات الرسمية تقدم تفسيرات أو تأويلات صريحة للعلاقات القائمة بين مجالات الحياة الاجتماعية، وعادة ما تأتي من خلال أعمال الباحثات والباحثين الآخرين، ولكن أحيانا ما يقوم الباحثون والباحثات بصياغة مشكلات البحث بطرق تسعى إلى مواجهة أو صقل وتحسين النظريات الرسمية والإسهام في تطوير النظرية بالإضافة إلى تقديم المعلومات عن البشر أو الظواهر التي لم يسبق دراستها. وهناك باحثون آخرون يعتمدون على النظرية الرسمية لاكتشاف مدى إمكانية تطبيقها على موقف ما معين، وعند ممارسة الإثنوجرافيا التطبيقية يستخدم الباحثون والباحثات النظرية بحيث تساعد في فهم الظاهرة الاجتماعية التي يدرسونها ولتوجيه تفكيرهم بشأن البرامج أو المداخلات التي قد تفيد من يعملون معهم. ونظرا لما تتضمنه الإثنوجرافيا عادة من عملية إعادة وتكرار (iterative process)، تؤدي المادة الإثنوجرافية فيها إلى جعل الباحثة تقوم بصقل أو إعادة صياغة أفكارها النظرية فيكون من المفيد للباحثات الإثنوجرافيات دخول ميدان العمل محملات بوعي بالتنوع القائم في النظريات الرسمية وغير الرسمية التي يمكنها أن تساعدن على فهم ما يواجهنه في الميدان.

وتقوم النظريات النسوية في الغالب بتوجيه الباحثات الإثنوجرافيات نحو طرح أسئلة عن سياق حيات النساء، والطرق التي تعيش وتقاوم بها النساء الأعراف المتعلقة بالنوع، وكيفية انتظام الاختلاف على مستوى النوع واللون والطبقة والجنسانية. فعلى سبيل المثال نجد أن كتاب إيميلي مارتن عن "المرأة في الجسد" (Emily Mar- tin 1992، *The Woman in the Body*)، متأثر بالنظريات النسوية عن كيفية قيام الخطاب الطبي الشعبي بتشكيل النوع وصياغة الأفكار عن أجساد النساء. ويبين هذا العمل الإثنوجرافي كيف تلتزم النساء وكيف يقوم الخطابات الطبية السائدة (التي يضعها الأطباء الذكور) والتي تعمل على إبعاد وتغريب أجساد النساء من خلال وصفها باعتبارها آلات إنجابية. وفي دراستها الإثنوجرافية لدورة تدريبية في الدفاع عن النفس قامت كريستين دي ويلد بوضع إطار عام للدراسة باستخدام "نظريات نسوية تركز على قوة وفاعلية النساء" مع استخدام منظور نسوي يساعدها على "استخلاص نتائج" عن البيانات والمادة العلمية (Kristine De Welde 2003، p. 248)، وبالتالي فإن منظور هذه الباحثة النسوي أثر على كيفية إعدادها لخطة البحث منذ بدايتها، ثم على كيفية قيامها في النهاية بتأويل مادة البحث.

ويحدث أحيانا أن تواجه الأفكار والاهتمامات النسوية بالمقاومة في الأوساط الجامعية وتوضع في مرتبة أدنى من غيرها من الأبحاث الأكاديمية الجادة. وقد قامت فريدا فورمان بطرح أسئلة مهمة حول "معنى الجسد الأنثوي وتجاربه بالنسبة للنساء المتقدمات في السن -اليهوديات في معظمهن- وذلك في سياق مجتمع محب للشباب ويسوده الرجال" (Frida Furman 1997، p. 5)، وذلك من خلال دراستها لمركز تجميل تتردد عليه غالبية من النساء اليهوديات المتقدمات في السن. وقد ذكرت الباحثة الآتي عن اهتمامها المبذول بتلك الدراسة، قائلة:

أتذكر حين سألت إحدى الصديقات، وهي أكاديمية مهتمة هي الأخرى بالعمل النسوي، "هل تعتبرينه على قدر كاف من الجدية؟" ومن الواضح أنني كنت قد استنبطت القيم السائدة وكنت أشعر بانزعاج حيال نظرة

المؤسسة الأكاديمية لمثل ذلك النوع من العمل . وقد شجعتني صديقتي فقطعت أشواطاً سريعة في العمل ، ولكن ثبت أن تكهناتي لم تكن بلا أساس من الصحة ، فسرعان ما اكتشفت أن دراسة تتناول مراكز التجميل التي تتردد عليها نساء يهوديات متقدمات في السن لم تكن بالدراسة التي تؤخذ مأخذ الجد من قبل الجميع ، بل كانت بالنسبة للبعض موضوعاً مسلياً . فعلى سبيل المثال عندما رددت يوماً على هاتفي المنزلي جاءتني كلمات أحد الزملاء قائلاً: "هل هذا صالون فريدا فورمان للتجميل؟" . . . كذلك حين أخبرت أحد زملائي في علم الاجتماع بأن الدراسة أكدت لي ضاحكاً أنه يعرف كل شيء عن ذلك الجيل من النساء اليهوديات ، مشيراً في ذلك بشكل غير مباشر إلى والدته . كما بدا لي زميل آخر من المتخصصين في علم الاجتماع مهتماً بالموضوع ومشجعاً ، إلا أنه كان يضحك واصفاً "الشعر الأزرق" على رأس النساء اليهوديات المتقدمات في السن ، موحياً بأن نمط تصفيف الشعر لديهن -وبالتالي هن أنفسهن يعشن في "منعطف زمني" . (Frida Furman 1997، p. 4)

وعلى الرغم من أن الإثنوجرافيات النسويات (كغيرهن من الباحثات النسويات) قد يتعرضن للمقاومة داخل المؤسسة الأكاديمية حول شرعية ما يقمن به من أبحاث ، فإن النسويات يملن إلى الاتفاق على أن مثل تلك المقاومة إنما تشير إلى أهمية أبحاثهن وضرورتها ، بدلاً من أن تدفعهن إلى التراجع عنها . فهذه المقاومة قد تمثل في حد ذاتها مشكلة بحث إثنوجرافي مثيرة!

اختيار ميدان العمل

بمجرد أن تقرر الباحثة الإثنوجرافية المجال العام لدراستها يتعين عليها اتخاذ قرار بشأن المكان الذي ستوجه إليه للدراسة والبحث . ويشير الميدان (field) إلى المجتمع أو

المؤسسة أو المكان الذي ستذهب إليه الباحثة لدراسة المسألة التي تهمها. فيمكن القيام بالعمل الميداني في حي حضري، وقرية ريفية، وصالون تجميل، ومحل للملابس، ومعسكر للمهجرين، وما إلى غير ذلك. ويتشكل الميدان في الإثنوجرافيا متعددة المكان (multisited ethnography) من خلال تتبع كيف يمكن للعمليات التي تتم على نطاق واسع أو انتقال الأشياء عبر الأماكن أن تربط بين البشر في أماكن متنوعة. فعلى سبيل المثال استخدمت جانيت فين (Janet Finn 1998) مدخلا متعدد المكان لدراسة مشاركة النساء في النشاط العمالي في مناجم النحاس المملوكة لنفس الشركة في كل من مدينة بورت في مونتانا بالولايات المتحدة الأمريكية، وفي مدينة تشوكويكاماتا في تشيلي. كذلك استخدمت راينا راب (Rayna Rapp 2000) نفس المدخل لدراسة كيف يؤدي استخدام التقنية الطبية المعروفة باسم الأمنيوسينتيسيسز (اختبار السائل الأمني للجنين-amnio centesis) إلى وضع النساء في مساحة غير معروفة تتضمن موقفا أخلاقيا. وفي كل من الدراسات الإثنوجرافية متعددة المكان وأحادية المكان (single-sited) يكون الميدان مكانا طبيعيا يحتوي البشر والعمليات التي تهم الباحث أو الباحثة الإثنوجرافيان. فبدلا من إحضار البشر إلى أماكن محايدة كالمعامل تقوم الباحثة الإثنوجرافية بالانتقال إلى الأماكن التي يوجد فيها البشر الذين ترغب في دراستهم. وهكذا فمن أولى القرارات التي يتعين عليك اتخاذها كباحثة إثنوجرافية هو مكان البحث.

وهناك عدة معايير قد تؤثر على اختيار الباحثة أو الباحث لميدان العمل، ومنها جوانب تتصل مباشرة بمجال البحث وتجب على السؤال التالي: "أين لي أن أذهب لرؤية الظاهرة التي أهتم بها؟" فإذا أخذنا في الاعتبار اهتمام فريدا فورمان (Furman 1997)، بتجارب النساء مع التقدم في العمر في مجتمع يميل إلى عبادة الشباب، فقد كان من المنطقي جدا اختيار صالون تجميل تتردد عليه نساء متقدمات في السن كمكان تستهل به بحثها. وكذلك عندما حددت الباحثة الإثنوجرافية النسوية كريستين دي ويلد اهتمامها بمجال "تراث النسويات اللاتي يعدن تصور السلطة ويضعن فاعلية النساء

ومقاومتهم في المقدمة“ (De Welde 2003 ، 249)، كان من المنطقي أن تختار ميدان عملها البحثي ليكون مكانا متخصصا في تدريب النساء على الدفاع عن النفس .

وترى شولاميت رينهارز أن الإثنوجرافيا النسوية هي الآتي:

بحث تقوم به نسويات يركزن على قضايا النوع في تقاليد أنثوية متجانسة (female-homogeneous traditions) أو في أماكن غير تقليدية، وكذلك في أماكن غير متجانسة تقليدية وغير تقليدية. وفي الإثنوجرافيا النسوية تقوم النساء بالبحث، وتكون ميادين العمل أحيانا أماكن تخص النساء، وتكون المصادر الرئيسية للبحث من النساء. (Re-inharz 1992، p. 55)

وهكذا فإن اختيار الميدان يكون في كثير من الأحيان -ولكن ليس دائما- جزءا من المقاربة النسوية للمشروع الإثنوجرافي. ولنتوقف أمام الاختلافات بين ماريسا كورادو (Marisa Corrado 2002) التي قامت بدراسة أحد محال ملابس الزفاف، وبين دراسة مونتورو (Montemurro 2005) التي تناولت حفلات ليلة الحنة. ويبدو في الظاهر أن كليهما تتماشيان مع توصيف شولاميت رينهارز لما أسمته ”التقاليد الأنثوية المتجانسة“ وأماكنها. ولكن ماريسا كورادو كانت مهتمة بكيفية تحكم البائعين والبائعات في سلوكيات الزبائن، فاخترت أحد محال فساتين الزفاف كميدان يمكنها فيه دراسة تلك ”العملية الاجتماعية العامة“ لأنها تقدم ”مكان مبيعات غير مألوف“؛ وبالتالي موقعا فريدا يمكن فيه مشاهدة التعاملات بين الزبائن والبائعين. وتنفي ماريسا كورادو تحديدا وجود اهتمام لديها بدراسة ”النوع في عمليات بيع فساتين الزفاف وشرائها“، فاخترت دراسة العمليات الاجتماعية العامة في هذا الصدد. وعلى النقيض من ذلك تتناول دراسة مونتورو احتفالات ليلة حنة العروس تحديدا بغرض التوقف أمام مسألة النوع في هذا الطقس الاجتماعي، وقد اهتمت تحديدا بتزايد حضور الرجال ليلة حنة العروس للتعرف عما إذا كانت تلك الممارسة ”مؤشرا على التلاقي بين الجنسين أو ما إذا كانت احتفالات ليلة حنة العروسين تعيد الأدوار التقليدية للجنسين“ (Mon-

7) ، p. 2005 ، temurro ، فقامت بدراسة إحدى التقاليد الأنثوية المتجانسة (ليلة حنة العروس) في مكان غير تقليدي (احتفالات ليلة الحنة بمشاركة الجنسين).

كذلك هنالك عدة اعتبارات عملية تتضمنها عملية اختيار الميدان ، فطبقا لشولاميت رينهارز "إن القيام بعمل إثنوجرافي مكثف كثيرا ما يتطلب القدرة على تعليق الالتزامات تجاه الحياة الشخصية والعمل ، ويتطلب السفر أو تعريض النفس للمخاطر" (Rein- (p. 73 ، 1992 ، harz . ويتطلب القيام بالأبحاث الإثنوجرافية قدرا كبيرا من الوقت ، يبلغ في أحيان كثيرة عدة سنوات ، كما تستدعي الملاحظة المباشرة ، وبالتالي فإن توفر الوقت والمال من الأمور العملية التي يجب أخذها في الاعتبار عند اتخاذ قرار اختيار الميدان . ومن المسائل العملية المهمة الأخرى التمتع بالمهارات اللغوية لأن الإثنوجرافيا تعتمد بشدة على التعامل المتواصل بين الباحثة الإثنوجرافية وبين من تقوم بدراساتهم ، فمن الصعب جدا القيام بعمل ميداني بين بشر دون إجادة لغتهم . ويمكن لبعد المسافة ومدى توفر المواصلات ووسائل الانتقال أن تكون من الاعتبارات العملية المهمة عند اختيار الميدان . كذلك فإن الموقعية والمكانة الاجتماعية من الاعتبارات ذات الأهمية ، كما تولي الإثنوجرافيات النسويات اهتماما بالغا بقضايا السلطة والاستغلال عند اختيار الميدان (Nader 1988; Spivak 1988) . ومن المهم التوقف أمام هويتك الشخصية من حيث مدى تأثيرها على أنواع المعلومات التي يمكنك جمعها في ميدان عمل معين: فكيف يمكن لطبقتك الاجتماعية أو نوعك أو لونك أن يؤثر في كيفية تعامل الناس معك في الميدان؟ وإلى أي مدى يمكن لوجودك في الميدان أن يسبب مشاكل لمن يعملون معك؟ ويجب على كل باحثة أو باحث إثنوجرافي أخذ عامل الأمان باعتباره من الأمور العملية والخطيرة الجديرة بالاهتمام قبل اختيار الميدان . وفي ذلك تكتب شولاميت رينهارز قائلة:

يتضمن الكثير من الكتابة الإثنوجرافية النسوية نقاشا صريحا مطاوعا حول تلك المشاكل ، وخاصة التحرش الجنسي والخطر الجسدي والتنميط على

أساس الجنس . ففي مجتمع منحاز لعناصر السن والجنس ويتسم بالغيرية الجنسية قد تجد الباحثة الشابة نفسها وقد تم تعريفها باعتبارها موضوعا جنسيا قابلا للغواية بواسطة الذكور الغيريين . (Reinharz 1992 ، p. 58)

وهكذا فإن الأمان النسبي لموقع ميدان العمل هو من الاعتبارات العقلانية والمهمة ، ويمكن للأماكن التي تبدو آمنة أن تفقد أحيانا إلى الأمان . وقد يختار الباحثون الإثنوجرافيون دراسة معسكرات اللاجئين بدلا من الحروب نظرا لأن المعسكرات أكثر أمانا . ولكن هنالك إثنوجرافيون آخرون قاموا بدراسة موضوعات عرضتهم للأذى ، مثل ثقافات المخدرات ، أو العصابات ، أو الدعارة ، أو الأوبئة . وعند تقييم كيفية تأثير عوامل الأمان على اختيارك للميدان فمن الأهمية التوقف أمام مدى توفر طرق أكثر أمانا لدراسة أسئلة البحث أو ما إذا كان الخطر جانبا كامنا في أسئلة البحث (مثل دراسة أحد الأمراض أو الحروب) . ما مقدار المجازفة التي أنت على استعداد للتعرض لها مقابل المعرفة المكتسبة؟ وبصرف النظر عن توقعاتك بشأن مدى خطورة الميدان ، فمن الأمور الجوهرية التفكير مسبقا في خطط احتياطية وطرق للخروج من الميدان في حالة تعرضك لعدم الأمان . كذلك من الأهمية التفكير في أنواع التدريب أو المعرفة المسبقة التي قد تعينك على البقاء في أمان داخل الميدان .

وباختصار فمن الأمور بالغة الأهمية للباحثة الإثنوجرافية اختيار الميدان بحرص شديد . فكري في كل مواقع الميادين الممكنة التي يمكنك أن تتصورى وجود تقاطعات فيها بين مجالات الحياة التي تثير اهتمامك ، ثم اطرحي على نفسك الأسئلة التالية:

- من أنا؟

- كيف يمكنني القيام بالدراسة في أمان؟
- ما المجازفات الشخصية التي أنا على استعداد لها؟
- ما المزايا التي أفترضها عند التفكير في إمكانية وصولي للميدان؟
- كيف يمكنني أن أجيب بنجاح على أسئلة البحث؟

الوصول إلى الميدان

إن مجرد اتخاذ الباحثة الإثنوجرافية قرارها بأن موقع ميدان ما هو المكان الأفضل لقيامها بالدراسة، لا يعني أنها تتمكن تلقائياً من الوصول إلى الميدان. إذ إن الوصول إلى داخل الميدان قد يكون أحياناً أصعب وعملية تستغرق وقتاً أكثر مما هو متوقع. وتميز بروك هارينجتون بين مفاهيم الوصول والدخول والتواصل (access، entry، and rapport). فهي ترى أن "الوصول" يرتبط بـ "الأهداف العلمية الاجتماعية للإثنوجرافيا" وخاصة إمكانية الوصول إلى المعلومات. كما تشير إلى أن الدخول يشير عامة إلى "بداية دخول الميدان أو الحصول على موافقة المشاركين والمشاركين في البحث على البدء في الدراسة" (Brooke Harrington 2003، p. 599). وأخيراً يشير التواصل إلى "نوعية العلاقة نفسها بين الباحثة والمشاركة، وعادة ما يتم تشبيهه بالصدقة" (Harrington 2003، p. 599). فعلى سبيل المثال نجد أن جينيفر لويس التي قامت بدراسة فريق تطوعي للبحث والإنقاذ في الجبال تقدم وصفاً لكل واحدة من تلك الأفكار في الجزئية الخاصة بالمنهجية، وذلك رغم عدم استخدامها للمصطلحات التي توردها بروك هارينجتون. وقد بدأت جينيفر لويس عملية الوصول عن طريق التطوع في مجموعة البحث والإنقاذ، فكانت تحضر "اجتماعين أسبوعياً عن العمل، وجلسة تدريب أسبوعياً، وعدة ساعات من التفاعل الاجتماعي في البار، والقيام ببعض المهام"، وذلك على مدار عدة أشهر قبل قيامها بمفاتيح مجلس الإدارة بشأن إمكانية قيامها بمشروع بحثي (Jennifer Lois 2001، p. 136). وقد حصلت بعدها على موافقة مجلس الإدارة وبالتالي أمكن لها دخول الميدان. وأخيراً، فقد قضت خمس سنوات ونصفاً في متابعة البحث والخروج في مهام إنقاذ بصحبة المتطوعين، بما جعلها تبني علاقة تواصل معهم بمرور الوقت، وهي العلاقة التي ظلت تساعدها على تعميق إمكانية الوصول إلى المعلومات. إن عملية الوصول إلى الميدان وإلى المعلومات هي عملية متعددة الملامح ومستمرة.

كذلك تصف لنا كريستين دي ويلد تجاربها في الوصول إلى موقع عملها الميداني ، وهو دورة تدريبية للنساء في الدفاع عن النفس ، وهي تجربة امتدت فترة زمنية وشهدت تطورا في علاقتها بمن كانوا في موقع الميدان :

بدأ دخولي المكان مع بداية الدورة التدريبية في شهر يوليو عام 1998 ، ثم التحقت بالمدرسة كدارسة لرياضة فن الدفاع عن النفس . وكونت صداقة حميمة مع صاحبة المدرسة ، إيلين ، وكذلك بعضوات أخريات في المكان . وبعد حوالي سنة من حضور فصول التدريب بدأت في مساعدة إيلين في تنظيم دورات الدفاع عن النفس وذلك لأغراض شخصية وبحثية . وقد أتاح ارتباطي بالمدرسة سهولة المشاركة في فصول الدفاع عن النفس بما مكنتني من انتهاز الفرصة للقيام بالبحث : (opportunistic research: Reimer 1977) . وعلى الرغم من وجود قائمة بدور المدربة المساعدة ، والتي تأسست سابقا على يد عضوة أخرى من أعضاء المدرسة ، وهي ماري ، فإنه تعين علي إيجاد دور المدربة المساعدة الثانوية ، وهو دور لم يكن له وجود من قبل . وقد جاء كوني امرأة ومشاركتي المسبقة في المدرسة بمثابة مزايا مكنتني من الوصول إلى المكان (Warren 1988) إذ إن الدورة قاصرة على النساء كما أنني كنت مندمجة في المدرسة مسبقا كدارسة . ومع تحولي إلى عضوة كاملة في المكان (Adler and Adler 1987) ، علّت مكانتي كدارسة وكمعلمة . وقد أخذت أبني على تلك الأدوار في الوقت نفسه الذي كنت أعمل فيه على تقوية صداقتي بالمدرسة إيلين . (De Welde 2003 ، p. 252) .

كثيرا ما تشير الباحثات والباحثون الإثنوجرافيون إلى الأفراد الذين يملكون مراكز تجعلهم يمسكون بمفاتيح المكان ، سواء كان هذا الإمساك بزمam الأمور رسميا أو غير رسمي داخل المكان ، والذين يساعدون الباحثة أو الباحث على الوصول إلى البشر والمعلومات ، فيطلق عليهم مسمى حراس الأبواب (gatekeepers) . وفي دراسة

كريستين دي ويلد كانت -بلا شك- حارسة للأبواب . وقد نجحت الباحثة في العبور إلى داخل المكان عن طريق مصادقة إيلين وغيرها ، ومن خلال تحولها إلى مشاركة كاملة في المكان ، إلا أن حراس الأبواب يشاركون أحيانا في وظيفة حراسة الأبواب بما قد يستبعد أو يعوق الباحثات والباحثين بدلا من تسهيل وصولهم إلى المكان ، إذ يمكنهم أن يتحدوا الباحثة أو الباحث في المشاركة في اختبارات أو استعراضات عامة ضمن محاولاتهم إيجاد طريق إلى داخل المجتمع ، وهو الأمر الذي قد يؤدي في نهاية المطاف إما إلى إعاقة أو تيسير وصول الباحثة أو الباحث الإثنوجرافيين إلى الميدان . فعلى سبيل المثال تعرضت ألكسندرا ميرفي لاختبار على يد مدير نادي التعري (strip club) الذي كانت تقوم بدراسته ، وهو ما تذكره فيما يلي:

خلال تلك الزيارات المبدئية ، كنت أشعر بالغربة وعدم الراحة ، وكأنتي دخلت عالما خياليا نمطيا خاصا بالرجال ، حيث تدور مباراة لكرة القدم على شاشة تليفزيونية عملاقة ملاصقة للساحة المركزية؛ حيث تتراقص النساء عاريات الصدور حول عامود مليء بالمياه المتدفقة . وقد جاءت زيارتي الرابعة للمكان بمثابة نقطة تحول في دراستي . ففي لحظة ما خلال ذلك المساء ، اقترب مني بوب ، مدير النادي ، وطلب مني أن أجلس على كرسي أتى به من طاولة مجاورة . ووجدت أمامي امرأة شقراء لا ترتدي سوى ملابس داخلية سوداء ، حاملة صينية عليها شراب مسكر في كؤوس أقرب إلى أنابيب الاختبار الصغيرة ، فسألني بوب: "أي شراب تريد: علاقة حميمة على الشاطئ؟" بينما أخذت أحاول فهم ما يجري حولي . فأجبت قائلة: "علاقة حميمة على الشاطئ لا بأس بها" ، غير واعية تمامًا بما تحويه إجابتي من إحياءات . فإذا بالمرأة تحمل إحدى أنابيب الاختبار من الصينية وتصب محتوى الأنبوبة في حلقها . وقد انحنت برأسها إلى الخلف ، ثم عادت فانحنت إلى الأمام وطرف الأنبوبة ما زال في فمها ، ومالت على لتدفع بالمشروب من طرف الأنبوبة

الآخر رأساً إلى حلقى عبر فمى . وسمعت تبادل الأمانى وأنا أبتلع جرعة المشروب ولم أعد حينها متفرجة على المشهد ، بل كنت قد صرت جزءاً منه . وأدركت لاحقاً أهمية تلك الجرعة ، فلو كنت قد رفضت تلقئها لكنت أعلنت موقفى الرفض لممارسات أعضاء تلك المجموعة التى كنت أحاول فهمها ودراستها . ومنذ ذلك المساء صرت أتمتع بحرية الحركة داخل النادي . (Alexandra Murphy 2003 ، p.332)

لا تقتصر جهود الوصول إلى الميدان على كونها قد تستهلك الكثير من الوقت بل قد تكون مزعجة أيضاً ، إذ إنها قد لا تؤدي أحياناً إلى دخول الميدان . فقد تثبت صعوبة الوصول إلى بعض المواقع ، وأحياناً يكون ذلك لأسباب غير متوقعة . فعلى سبيل المثال ما زالت بوتش تواصل جهودها للعثور على طريقة للوصول إلى عاملي الرعاية الذين ترغب في دراستهم في المستقبل ، ويرجع ذلك أساساً إلى سمة اللامركزية السائدة في هذا السياق الوظيفي وفي تردد مكاتب الرعاية في السماح للباحثات والباحثين بدراسة موظفيهم . وكثيراً ما يضطر الباحثون والباحثات إلى بذل جهد كبير لزرع الثقة لدى من يرغبون في دراستهم ، حيث قد تكون دوافع ونوايا الباحثات والباحثين غير واضحة ، كما تشبه بعض المجتمعات في كون الباحثين الإثنوجرافيين يعملون جواسيس أو مصادر معلومات لأصحاب مصالح عليا . فعلى سبيل المثال من الأسباب التي قد تحول دون موافقة مكاتب الرعاية تلك على السماح لبوتش بدراسة العاملين التابعين لها هو قلقهم من قيامها بتقييم سلبي للعاملين والعاملات ، أو الرعاية التي يوفرنها ، أو العمل الإداري بتلك المكاتب . كما قد لا يرغب العاملون أنفسهم في التعاون مع بوتش خوفاً من أن تقوم بالكشف عن ممارساتهم غير المقبولة وإخبار المشرفين عليهم بها بما قد يهددهم في وظائفهم .

ولتسهيل الوصول إلى الميدان يعتمد الباحثون الإثنوجرافيون أحياناً على حراس الأبواب من الأصدقاء أو الأقرباء أو غيرهم من المعارف ممن قد ييسرون الوصول إلى الميدان . إلا أن هنالك بعض المخاطر المتصلة بهذا الأسلوب ، وهي مخاطر جدية بإدراكها منذ البداية ، فبينما تبدو الاستعانة بشخص من داخل الميدان وكأنها مسألة

توفر الوقت والمشقة، إلا أنها قد تخلق أنواعاً أخرى من المشاكل، فقد تزداد صعوبة الوصول إلى أشخاص يحملون وجهات نظر معارضة إذا تم النظر إلى الباحثة أو الباحث باعتبارهما مقربين من شخص ما. فعلى سبيل المثال حاولت كارين ستولر (Karen Staller 2002) القيام بدراسة إثنوجرافية في إحدى وحدات الشرطة اعتماداً على "موافقة" من صديق يعمل شاوياً في الوحدة. ووحدات الشرطة، مثلها في ذلك مثل الوحدات العسكرية وبعض جهات العمل الأخرى، تتسم بالتراتبية الشديدة، فما حدث في دراسة كارين ستولر هو إحجام ضباط دوريات الشرطة عن التعاون مع هذا المشروع البحثي خوفاً من رد فعل ملازم الوحدة الذي كان يحتل درجة أعلى من الشاويش الذي أتاح لها الوصول. وبالتالي فإن العمل من خلال شخص -من الداخل- ذي سلطة ظاهرية ما يتيح الوصول إلى داخل الميدان لا يضمن في حد ذاته إمكانية النجاح في القيام بالدراسة.

ونماشياً مع الاهتمام النسوي بديناميكيات السلطة وتفاعلاتها، يتعين على الباحثة الإثنوجرافية دوماً الوعي بديناميكيات السلطة، بما في ذلك من علاقات رسمية وغير رسمية قائمة فيما بين من ترغب في دراستهم. وبالطبع قد لا يكون من الممكن التمتع بقدر متساوٍ من حيث الوصول إلى كل أعضاء المجتمع في كافة الظروف، فالدخول عن طريق مجموعة من اللاعبين الأساسيين في مؤسسة قد يؤدي إلى إعاقة أو الحيلولة دون الوصول إلى مجموعة أخرى من الأفراد لديهم معلومات مغايرة، وهو ما تبين في فشل كارين ستولر في الوصول إلى ضباط دوريات الشرطة. ومن هنا يجب أن تفكري جيداً في كيفية الوصول إلى الميدان لأنه قد يؤثر تأثيراً مباشراً في نوعية المعلومات (أو "البيانات") التي ستوفر للتحليل وبالتالي "النتائج" التي يمكن عرضها فيما بعد. فإن التباين في كيفية الوصول إلى مستشفى، -إذ يتم عبر موظف إداري أو أحد الأطباء أو هيئة التمريض أو من مساعدي التمريض أو أحد أفراد الخدمة الاجتماعية أو من حرس المستشفى أو أحد المرضى- فمن المرجح أن تجدي نفسك أمام أنواع متباينة تماماً من

التجارب والتأويلات . وبينما ترغبين في الحصول على مختلف الرؤى فإن اختيارك نقطة دخول بعينها قد تؤدي إلى إعاقة أو تقليص إمكانية الوصول إلى أصحاب الرؤى الأخرى . ولذا فمن المفيد التوقف أمام مزايا وعيوب أساليب الدخول إلى ميدان عمل ما وإدراك القيود التي يفرضها ذلك على المعلومات والبيانات التي سيتم جمعها . كذلك يجب التعرف على العلاقات الاجتماعية الرسمية في المجتمع أو المؤسسة الخاضعة للدراسة والعلاقات غير الرسمية القائمة . باختصار ، يجب عليك الوعي منذ البداية بأن الطريق المستخدم لدخول المجتمع يمكن أن يؤثر تأثيرا مباشرا في نوعية المعلومات التي سيتم جمعها خلال مسار عملك الميداني .

وتتضمن الأسئلة التي يجب طرحها قبل دخول الميدان ما يلي:

- ما علاقتي بالمجتمع؟
- ما الطريق الذي سأتبعه للوصول إلى الميدان؟
- ما مزايا ومخاطر الطريق الذي اخترته؟
- كيف للأساليب التي سأستخدمها في الوصول إلى الميدان أن تؤثر في المعلومات والبيانات التي سأتمكن من جمعها؟
- ما خطتي الاحتياطية في حال لم تمض الأمور تبعا للخطة أو في حال ما إذا وجدت نفسي في موقف يهدد أمني؟

الأدوار والعلاقات: الباحثة والمراقبة والمشاركة

من القرارات الأخرى التي يجب عليك اتخاذها هو القرار الخاص بدورك في المجتمع ومقدار تفاعلك معه . إذ يتعين على الباحثات والباحثين الإثنوجرافيين اتخاذ قرار بشأن نوع الدور الذي سيلعبونه ، وذلك قبل شروعاتهم في البحث ، وذلك على الرغم مما قد يطرأ على هذا الدور من تطور خلال الوقت الذي سيتم قضاؤه في الميدان .

وكما سبقت الإشارة ، كان مالينوفسكي هو أول من صاغ مفهوم الملاحظة بالمشاركة (participant-observation)، وهي المقاربة الإثنوجرافية الأكثر استخداماً رغم وجود نطاق من الأدوار التي يمكن القيام بها في إطار هذه المقاربة. ومن معايير هذا التنوع القائم في الأدوار التي يمكن للباحثة أو الباحث الإثنوجرافي أدائها هو المعيار الذي يقيس درجة اندماج الباحثة أو الباحث في الأنشطة اليومية للبشر والمؤسسات الخاضعة للبحث. ويتم أحياناً وصف مختلف أدوار الباحثة أو الباحث (researcher roles) بمسميات الملاحظ الكامل (complete observer)، الملاحظ كمشارك (observer-as-participant)، المشارك كملاحظ (participant-as-observer)، والمشارك الكامل (complete participant) (Hesse-Biber & Leavy 2006، pp. 245-251)، وتجدر الإشارة إلى أن ذلك يغطي نطاقاً يبدأ من الملاحظ الكامل المنفصل عن، بالمشارك الكامل المندمج تماماً في المجتمع. ومن الوارد أن تعتمد الاختيارات بشأن كيفية الموازنة بين المشاركة في مقابل الملاحظة على أسئلة البحث الخاصة بك من ناحية، وعلى موقفك النظري من ناحية أخرى، وعلى ما يمكن تحقيقه في الميدان من ناحية ثالثة. والتوازن بين تلك الأدوار لن يتحقق بنفس القدر في كافة المواقع أو في الإجابة على كافة الأسئلة. فعلى سبيل المثال نجد الباحثة (Murphy 2003) في دراستها التي تتناول أندية التعري (strip club) وقد اضطرت إلى المشاركة بقدر صغير لاكتساب الثقة، ولكنها ظلت في موقع الملاحظة (مع أن البعض قد يرى أنها "شاركت" باعتبارها من رعاة النادي). وعلى الجانب الآخر أصبحت الباحثة (Lois 2001) مشاركة كاملة في البحث وفي فريق الإنقاذ. ويمكن القول بأن دور الباحثة (De Welde 2003) في دراستها عن دروس الدفاع عن النفس قامت بدور يقع بين هذين الطرفين إذ وجدت لنفسها دوراً لم يكن قائماً قبل مشاركتها.

وفي كثير من الأحيان يشهد دور الباحثة تطوراً مع زيادة اقترابها وتآلفها مع ميدان العمل، ومع تزايد ما تلقاه من قبول من جهة مصادرها، فعلى سبيل المثال تغير دور الباحثة (Corrado 2002) بمرور الوقت مع ازدياد تقاربها وتآلفها مع المجتمع. ففي

دراستها عن محل أزياء العروس كانت بدايتها كملاحظة كاملة، ولكن بمرور الوقت وتعرفها على الفاعلين الاجتماعيين وعلى مجال العمل التجاري نفسه شرعت في القيام بدور "المساعدة" لمديرتي المحل، فبدأت في القيام بمهام مثل "جلب وإعادة الفساتين التي يحتاجها العاملون" (Corrado 2002، 38). وبقيامها بذلك أصبح دورها بطبيعتها أكثر اتساما بالمشاركة، إلا أنها لم تصبح قط موظفة تعمل كل الوقت في المحل الخاضع لدراستها، وبالتالي لم تبلغ مكانة "المشاركة الكاملة".

ويجدر التوقف أمام بُعد آخر للأدوار يتعلق بمستوى المشاركة، وهو الخاص بمدى كون الباحث أو الباحثة من داخل أو خارج (insider or outsider) المجتمع الخاضع للدراسة. وقد اختارت الباحثة (Murphy 2003) ألا تصبح واحدة من المتعريات أثناء دراستها لنادي التعري، وبالتالي ظلت باحثة من الخارج. أما الباحثتان (Lois 2001؛ De Welde 2003)، فقد أصبحتا من الداخل ولعبتا أدوارا فاعلة كل في المجتمع الذي تدرسه. وكثيرا ما نجد أن الاختيار الخاص بمدى كون الباحثة من الداخل قد يحمل جوانب أخلاقية أو قانونية أو خلقية معقدة، فالتوقف أمام مختلف اختيارات الأدوار والعلاقات يثير عددا من الأسئلة الشائكة: إذا أردت دراسة النساء بلا مأوى، فهل يجب أن تصبحي أنت نفسك بلا مأوى؟ وإذا كنت تدرسين العاملات متدنيات الأجور ممن يذهبن إلى أعمالهن بوسائل المواصلات العامة، فهل يجب عليك التخلي عن استخدام سيارتك؟ وإذا كنت تدرسين استخدام المخدرات، فهل يجب عليك تجربة المخدرات؟ إن اتخاذ تلك القرارات، مثل قرارك بشأن من تستعينين به للوصول إلى ميدان العمل الذي ناقشناه أعلاه، هو أمر له بالطبع تأثيره المباشر على البيانات والمعلومات التي سوف تتاح لك، وهو ما يتطلب موازنة البدائل بقدر من الحذر والحرص والتفكير.

والبعد الآخر الجدير بالتوقف أمامه هو ذلك المتعلق بسمات الباحثة نفسها والخصائص التي قد ينسبها المجتمع إليها. وهكذا بينما قد تدخل الباحثة الإثنوجرافية الميدان ولديها فكرة عامة عن الدور الذي تود أن تلعبه في المجتمع محل الدراسة، فإن أعضاء المجتمع أنفسهم كثيرا ما تكون لديهم آراء أخرى حول الأدوار الملائمة للباحثة. وحينما نقوم

امرأة بدور الباحثة ففي الغالب سيتوقع أعضاء المجتمع أن تقوم بأدوار شبيهة بتلك التي تقوم بها النساء في المجتمع ، وهو ما قد يتضمن دور الابنة أو القائمة بالرعاية والعناية . وكما ورد في المناقشة أعلاه ، فمن الشائع جداً أن تتعرض النساء غير المتزوجات للقائمات بالعمل الميداني لملاحقات بعروض الزواج أو الرفقة أو العلاقات الجنسية . وكما يتضح من الأمثلة السابقة فإن قرار قبول أو رفض الأدوار التي تجد الباحثة الإثنوجرافية نفسها فيها قد يؤثر تأثيراً كبيراً في مدى وصول الباحثة الإثنوجرافية للميدان ونوعية تواصلها مع المجتمع . كذلك لا بد من توجيه الاهتمام الواعي نحو العمليات التي تتصل بقيام المجتمع بوضع الباحثة الإثنوجرافية في أدوار اجتماعية بعينها ، إذ يمكن لتلك العمليات الاجتماعية أن تسلط الضوء على الأدوار القائمة على أساس النوع وغيرها من الأدوار السائدة في حياة المجتمع .

وفي أثناء قيام الباحثة الإثنوجرافية بتناول والتعامل مع كل تلك القرارات الصعبة والمعقدة بشأن دورها في الميدان ، نجد أنها تواجه بعدد من المسائل الأخلاقية بالغة الأهمية بل والصعبة في أحيان كثيرة ، وهي مسائل تتعرض لها أثناء وجودها في الميدان (وبعد تركه أيضاً) . ومن تلك القضايا الأخلاقية ما يتعلق بمستوى التدخل أو العون الذي تكونين على استعداد لتقديمه ، فعلى سبيل المثال إذا كان من قومين بدراساتهم يستخدمون وسائل المواصلات العامة بشكل يومي للوصول إلى أعمالهم ، فهل يتعين عليك عرض القيام بتوصيلهم بسيارتك في يوم بارد يتساقط فيه الثلج؟ وماذا لو طلبوا هم منك أن توصيلهم؟ إن هذا التدخل بما يبدو عليه من براءة هو تدخل يؤدي إلى تغيير بيئة وتجارب من هم محل دراستك . وماذا لو شهدت فعلاً عنيفاً ، كالعنف المنزلي ، أو الإساءة إلى كبار السن ، أو الإساءة إلى الأطفال؟ أو ماذا لو كنت تدرسين عصابة من المراهقين تخطط للقيام بنشاط إجرامي؟ فباعتبارك باحثة ، هل يجب عليك التدخل باستدعاء الشرطة؟ أو الإبلاغ عن الحالة لسلطات رعاية الأطفال؟ أو اصطحاب الضحية إلى إحدى دور الإيواء؟ أو تحذير الضحايا المستهدفين؟ ومن المهم الوعي بالتداعيات القانونية والأخلاقية والبحثية التي تترتب على كيفية إجابتك على هذه الأسئلة . فعند

اختيارك مثلاً القيام بتوصيل شخص ممن تعملين معهم ، فإنك تقومين بإحداث تغيير في التجربة محل الدراسة ، ولكن هل هو تغيير كبير ومهم؟ إذا شهدت شكلاً من أشكال الأذى فقد تجددين نفسك مضطرة إلى الموازنة بين اتفاق سرية المعلومات الذي أبرمته مع الأشخاص محل الدراسة ، وبين متطلبات الإبلاغ القانونية (والتي قد تنطبق أيضاً على الباحثات والباحثين في مجالات الصحة والتعليم والعمل الاجتماعي ، وغيرها) ، وبين موقفك الأخلاقي الشخصي .

ومن العضلات الأخلاقية الأخرى ما قد ينجم عن العلاقات الشخصية الناشئة خلال فترة عملك الميداني . ففي كثير من الأحيان نجد أن الأشخاص محل ”الدراسة“ ينسون أنهم محل ”البحث“ الذي تقومين به . فعملية الوصول إلى المجتمع لا تنتهي بالعلاقات الميدانية ، إذ إن وجود الباحثة الإثنوجرافية في الميدان لفترات زمنية طويلة وتعرفها باستمرار على أشخاص جدد في مواقف جديدة يحملها باستمرار مسؤولية التعريف بنفسها وبمشروعها لكل من هم محل دراستها . فكم مرة عليها أن تذكرهم بذلك؟

إن دور الباحثة في الميدان يرتبط دوماً بإدراك ووعي متواصل بالأخلاقيات وبالممارسة الأخلاقية . وهي أمور تحمل أهمية خاصة للنسويات ، وهو ما تناقشه جوديث بريسل (Judith Preissle) بالإضافة إلى تجارب أخرى ترد في المقطع التالي من ”ما وراء الستار“ .

ما وراء الستار مع جوديث بريسل

أوجه ندم إحدى دعاة تحرر النساء

لقد قالت ابنة أختي مرة إنها تحسني على مرحلة شبابي - حركة الحقوق المدنية ، وحركة الاحتجاج المناهضة للحرب ، وحركة تحرير النساء . فقد رأت فيها فترة زمنية مثيرة وجوا من التضامن التقدمي . أما أنا فأرى كل

ما تبقى لنا من عمل وأشعر بإحباط السعي لتحقيق أهداف دائمة التغير . ومن تلك الأهداف رؤى النسويات وتصوراتهن لمجتمع يضيف الكثير للفتيات والنساء ، ورؤى الباحثات النسويات وتصوراتهن لأخلاقيات البحث أي وجود إطار أخلاقي للقيام بما يصح في المجال البحثي . والنقطة الثانية هي المهمة التي أصبحت شاغلي الشاغل في السنوات الأخيرة ، وسأتوقف هنا لأنأمل المعضلات البحثية الأخلاقية من منظور علم أخلاق البحث النسوي الآخذ في التطور . وكما سأوضح لاحقاً فقد ندمت على بعض الاختيارات التي قمت بها على مر السنين ، ولكنني أعذر نفسي بإدراكي أن المثل العليا الآخذة في التطور ما كان لها أن تنشأ سوى بفضل تلك الخطأ المضطربة والأخطاء في الحكم على مجريات الأمور .

فما أخلاقيات البحث النسوي ؟ هي في رأيي أطر واعية لسبل اتخاذ القرار الأخلاقي - أي الأطر التي تساعد في تحديد ما إذا كانت القرارات صحيحة أم خاطئة من منطلق القيم والمعايير النسوية . ويتمثل الجزء الشائك هنا في أنه من المرجح وجود أطر أخلاقية نسوية مختلفة بقدر تعدد التوجهات النسوية . وبالنسبة لي يتضمن هذا الإطار العدالة للنساء ، والعناية بالعلاقات الإنسانية ، والالتزام بإيجاد الجانب السياسي في الأمر الشخصي . إن أخلاق البحث النسوي لدي تطلب مني التوقف أمام كل العناصر في صياغتي لأهداف البحث ، وفي الأدوار التي أتخذها أثناء البحث وكيفية قيامي به ، وفي كيفية تمثيلي للآخرين ، وبخاصة النساء ، في تقاريري البحثية . إن الإطار الأخلاقي يتطلب مني أن أتغير قبل أن أفترض إحداث تغيير لدى الآخرين . وقد خيبت أنا نفسي آمالي الشخصية في تحقيق تلك القواعد الأخلاقية كافة .

إن دراستي في مرحلة الدكتوراه على مدار 4 سنوات في بداية السبعينيات من القرن العشرين تركزت على دراسة علم الأنثروبولوجيا

وعلم التربية في جامعة إنديانا ، مدعومة برئيستي لجنة الإشراف: دوروثي سكيل (Dorothy J. Skeel) المتخصصة في علوم التربية في الدراسات الاجتماعية ، وجوديث فريدمان هانسن (Judith Friedman Hansen) المتخصصة في علم الأنثروبولوجيا . أما اجتهاداتي في القراءة الحرة فتمثلت في المقرر الأساسي لحركة تحرير النساء: الكاتبات فريدان (Friedan) ، دي بوفوار (de Beauvoir) ، جريير (Greer) ، فايرستون (Fire-stone) ، ومجلتي ”ذا ويمنز روم“ ”حجرة النساء“ (The Women’s Room) ، و”مز ماجازين“ (Ms. Magazine) . وباعتباري معلمة ومواطنة وفردا من أفراد أسرة ، كنت أعلم موقعي وما أصبو إليه من قيم . ولكن باعتباري باحثة ناشئة ، واجهت صعوبة في التوصل إلى كيفية دمج قيمي السياسية القوية في العمل البحثي الذي كنت أود أن يتسم بالتوازن والنقح والتشكك . ومع إلحاح رفيقتي في السكن كارول هان (Carole Hahn) وهي متخصصة في علوم التربية والدراسة المقارنة في الدراسات الاجتماعية في جامعة إمروبي ، قمت مع جوديث بإعادة التفكير ومراجعة كيفية تمثيلنا للباحثات والباحثين ، وذلك في مقال اشتركنا في كتابته في السبعينيات عن الآراء النظرية في أنثروبولوجيا التربية (Goetz & Hansen 1974) . فبدلا من استخدام البدائل الجمعية الشاملة اعتمدنا في التعميم على صيغة الاسم المفرد العام (the anthropologist ، the observer ، and the educational researcher) [وهي صيغة غير محددة النوع من حيث التذكير والتأنيث في اللغة الإنجليزية] وأشرنا إليها جميعا بصيغة الضمائر المذكرة (he and him) مع ندرة استخدامنا لصيغة ”هو أو هي“ منشورة هنا وهناك لتطبيب خاطرنا النسوي الناشئ . إنه أول أمر أندم عليه .

فما الجانب الأخلاقي في استخدام الضمائر؟ ونجد أن "دليل نشر الجمعية الأمريكية لعلم النفس" يرد فيه حالياً ما يلي: "إن المعاملة العادلة للأفراد والجماعات . . . تتطلب من المؤلفات والمؤلفين المشاركين بالنشر في إصدارات الجمعية أن يتجنبوا ترسيخ التوجهات والفرضيات غير الحيادية والمنحازة عند الكتابة عن البشر" (The Publication Manual of the American Psychological Association [APA] 2001 ، p. 61) فتغيير أنماط الكتابة استغرق الكثير من الوقت وتطلب كثيراً من الممارسة، ولكنني أتوقف الآن بقدر أكبر من الوعي أمام كيفية قيامي بتصوير المجموعات والأفراد، وكيف أكتب عن الجنس والنوع وتقديم النساء. ولكن تظل أولى كتاباتي في الأنثروبولوجيا والتربية قائمة أمام أعين طلبتي وزميلاتي وزملائي بما فيها من استخدامي المشين لصيغة المذكر.

عند انتهائي من إعداد رسالة الدكتوراه حول النظام الاجتماعي والمعاني المشتركة بين مجموعة من تلاميذ الفصل الثالث الابتدائي وبين معلمهم، وهي دراسة لم تتطرق إلى قضايا النوع، توقفت أمام الرسالة وتساءلت عن كيفية إمكان مساهمة عملي البحثي في خلق عالم أفضل للنساء والفتيات. ولكن ذاتي الباحثة، مثلها في ذلك مثل ذاتي الكاتبة، كانت مستغرقة في عالم من الفرضيات والانحيازات المفروغ منها بشأن النوع، وبالتالي فإن "رؤية" تلك الأنماط هي مسألة استغرقت هي الأخرى بعض الوقت والممارسة. وكنت أقرأ كل ما أجده من أدبيات حينذاك تتناول الاختلافات بين الجنسين وأصولها. وأثناء إشرافي على مدرسي المرحلة الابتدائية خلال فترة التدريب قبل تعيينهم، وذلك في الحي الواقع في إحدى الضواحي الحضرية حيث مقر جامعتي، بدأت ألاحظ -"أرى"- أن الأطفال يتم تربيتهم على أن يكونوا "بنات" و"أولاد" من خلال التعامل فيما بينهم، ومع المعلمين وفي المدارس.

وفي نفس الوقت كنت أعد نفسي للشروع في أول دراسة إثنوجرافية أقوم بها في منطقة وسط الغرب الأمريكي (Midwest)، وذلك بدراسة تتناول السلوك الاجتماعي في فصلين من فصول السنة الأولى من المرحلة الابتدائية في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية في منطقة مدارس ريفية حيث كنت أقوم بالعمل مشرفة. وهناك جانبان أخلاقيان أندم عليهما مما حدث في أثناء قيامي بتلك الدراسة. فنتيجة لعرض قمت به للأبحاث والدراسات التي تتناول ثقافات أدوار الجنسين في المدارس، وهو العرض الذي أعدته من قراءاتي الواسعة (Goetz 1978) طلب مني أن أشارك بكتابة فصل عن ثقافة أدوار الجنسين بناء على أبحاثي وملاحظاتي. وقد تركزت همومي على الغرض من البحث وأداء البحث ودوره. فأولا كان لدي الكثير من الملاحظات - من المادة الإثنوجرافية، ومواقع الإشراف، والموقع الريفي الجديد - ولكن لم أحصل سوى على القليل من الموافقات على نشر المادة. فبسبب قيامي بجمع المادة من موقع وسط الغرب الأمريكي دون نية تحليلها من جانب أدوار الجنسين، أو ما نطلق عليه حاليا الأدوار على أساس النوع، وبسبب عدم وجود أية اتفاقات على قيامي بدراسة في مواقع عملي مشرفة، فقد كانت مسألة استبعاد تلك المادة قرارا أخلاقيا سهلا. وكنت بالطبع قد تأثرت بتلك التجارب، وخاصة فيما يتصل بما اتضح لي كتفرقة مبالغ فيها بين البنات والأولاد في ذلك الحي في ضاحية حضرية. وحين أتأمل الموقف من موقعي الحالي فلعلي كنت قد سعيت للحصول على موافقة للقيام بدراسة "تفصح" تلك الممارسات، ولكن الأنماط القائمة في الموقع الريفي، بعمقها وتعقيدها، بدت لي أكثر أهمية وتشويقا لتوثيقها، وكنت قد التزمت فعليا بالقيام بدراستي هناك.

وقد بدت مسألة إعادة صياغة الأهداف تبعا لهذا الموقع أمرا بسيطا، وكنت قد حصلت على موافقة لدراسة ما تقوم معلمات السنة الأولى بتدريسه، وما يتعلمه تلاميذ السنة الأولى، وكيف يتم وضع الأطفال وكيف يقومون هم بوضع بعضهم البعض في إطار دور تلاميذ المدرسة. وقد كانت مديرة المدرسة والمعلمات على علم باهتمامي بتاريخ المدرسة وتركيباتها السكانية، وكانت جوانب اللون والطبقة الاقتصادية الاجتماعية والنوع جزءا من ذلك كله، ولكن مجال التركيز في البحث كان مفتوحا. وفي تلك الفترة كان نظام المراجعة المتخصصة للدراسات والأبحاث من خلال مجلس المراجعة المؤسسية (IRB: institutional review board)، وهو ما نعتمد عليه الآن عند اتخاذنا مثل تلك القرارات، كان نظاما في بداياته في جامعتي وكان المجلس مستغرقا في مرحلته التجريبية. ولا أعتقد أنني كنت حينها حتى قد سمعت عن مثل تلك المجالس.

فتمثلت ورطتي حينذاك أولا في كم المعلومات التي أعلنها لمديرة المدرسة والمعلمات حول تحديد نطاق البحث وتضييقه، وكانت المعضلة الثانية حول مدى إشراكي لهن في موضوع البحث. ومع سعيي لخلق تواصل معهن ونجاحي في ذلك بما يتيح لي حرية الحديث بصراحة حول قضايا اللون والطبقة، تساءلت حول مدى الصراحة التي يمكنني بها الانتقال إلى موضوع الجنس؟ وقد كنت أرى وقتها أنه يجب عليّ إخبار كل هؤلاء النساء الودودات أن الأطفال في مدارسهن يبدون بحق أقل تعرضا لضغوط للقيام بأدوار على أساس الجنس مقارنة بتلاميذ المدارس في المناطق المجاورة، وهو أمر كنت أراه إيجابيا، وسعيت للتأكيد على هذا النمط. ولكنني خشيت من هذا القدر من الصراحة. وتساءلت: ماذا لو لم تكن تلك البيئة مقصودة؟ ماذا لو شعرن بالخديعة من أهداف البحث المبدئية الواسعة؟ ماذا لو وجدوا في تأويلي للموقع مجالا للاعتراض عليه؟

فتوقفت . وقامت واحدة من معلمات السنة الأولى عن قصد بجعل الأطفال يتساءلون عن الأدوار التقليدية للجنسين ، أما المعلمة الأخرى فلم تتبن موقفا محددا . ولم أبدأ في الكشف عن اهتمامي بهذا الموضوع إلا قرب مرحلة الانتهاء من العمل الميداني ، وحين عرضت الدراستين اللتين قمت بهما عن ثقافة أدار الجنسين في المدرسة (Goetz 1981a ، 1981b) لم تبد المعلمات ولا مديرة المدرسة إلا القليل من الاهتمام بالموضوع .

إن وجود غرض بحثي نسوي ، أي استكشاف ما يتم في المدارس لتقييد البنات والأولاد ، بدا أمرا أكثر أهمية بالنسبة لي مقارنة بأهميته لهؤلاء النساء الثلاث . كذلك فإن مفهومهن لتبادل الأدوار كان مختلفا تماما عن مفهومي ، فقد كانت لديهن أهدافهن وأغراضهن في هذا الصدد . أعتقد أنه كان من الممكن لي أن أكون أكثر صراحة منذ البداية بشأن اهتمامي بتربية الأطفال لاكتساب أدوار تقليدية للجنسين ، ولكني أظن أن معلمة واحدة فقط كانت ستهم بتتبع تلك النقطة والتعاون معي بشأنها . وأنا نادمة على عدم أمانتي وصراحتي وعلى أنني لم أمنحها تلك الفرصة . وأعتقد أنها ربما كانت ستجد في مجال اهتمامي هذا دعما لموقفها . إن ما أراه الآن باعتباره مسألة أهمية الواضح بشأن الأغراض والسعي للعمل المشترك والتعاون مع المشاركات في البحث هو من الدروس الصعبة التي تعلمتها باعتباري واحدة من دعاة تحرير النساء التي تحولت إلى نسوية . والأمر الأكثر أهمية هو التأكيد من خلال تأملات كهذه كيف أن قناعاتي الأخلاقية النسوية كانت دوما متطورة وحيوية بدلا من أن تكون ساكنة ، وأنني أعتمد في كل لحظة على ما أتعلمه من الممارسة البحثية ومن غير من الباحثات والباحثين . إن أوجه الندم يمكن أن تكون طريقنا لإدخال ممارستنا في حوار مع نظريتنا ، وأن نتعلم تغيير كليهما .

جمع المادة الإثنوجرافية

عند القيام بـ "الملاحظة بالمشاركة" تنخرط الباحثة في الحياة اليومية لمن تقوم بدراستهم ، بينما تقوم في نفس الوقت بملاحظة التفاصيل الخاصة بالتفاعلات والأنماط الاجتماعية التي تقابلها . وعادة ما يجمع الباحثون الإثنوجرافيون بين الملاحظة بالمشاركة وبين المقابلات الشخصية (interviews) والمنتجات الاجتماعية (social artifacts) ، وذلك للتعرف على ما يقوله الناس والوثائق التي ينتجونها ومقارنتها بالطرق التي يتصرفون ويتحدثون بها في بيئاتهم الطبيعية . وباختصار فإن الإثنوجرافيين يميلون - على الأرجح- إلى الاعتماد على ثلاثة أشكال رئيسية من الأدلة الإمبريقية . أولها: الحديث الإثنوجرافي (ethnographic talking) مع المصادر (informants) أو الناس الموجودين في الميدان . ويمكن القيام بجمع المادة عبر الحديث مع الناس من خلال المقابلات الشخصية المنظمة ، ولكنها تتضمن -على الأرجح- حوارات غير رسمية تتم أثناء وجود الباحثة أو الباحث الإثنوجرافيين في الميدان . وعادة ما تعتمد البحوث والباحثون الإثنوجرافيون على بعض المصادر الرئيسية في الميدان ممن يقدمون معلومات مهمة ، ولكنهم نادرا ما يقتصرون على المعلومات التي يحصلون عليها من هؤلاء الأفراد . والباحثات والباحثون الإثنوجرافيون ملاحظون دقيقون للأماكن الاجتماعية ، فهم يراقبون كيفية قيام الناس بأمور حياتهم اليومية وكيف يتعاملون فيما بينهم ، من خلال جمع الملاحظات (observations) . وهم يفعلون ذلك عادة من خلال مشاهدة الأنشطة اليومية بالإضافة إلى الطقوس والمناسبات الخاصة ذات الأهمية والدلالة المعينة . أما الشكل الثالث من أشكال الأدلة الإمبريقية هو المنتج الاجتماعي ، والمنتجات الاجتماعية هي الأشياء التي تنتج عن البشر مثل الوثائق والصور وقوائم المشتريات واليوميات .

ويستخدم معظم الباحثات والباحثين الإثنوجرافيين توليفة كبيرة من الأدلة الإمبريقية ، فعلى سبيل المثال قضت الباحثة (Corrado 2002) ساعات طويلة في

ملاحظة التعاملات بين الباعة في محل أزياء العروس وبين العرائس والمخطوبين ووصيفات العروس والأمهات وغيرهم في محل واحد من محال أزياء العروس . كما قامت الباحثة أيضا بعقد مقابلات شخصية رسمية شبه محكمة البناء مع مساعدات المبيعات، كما زارت خمسة محال أخرى شبيهة في منطقة البحث باعتبارها زبونة، واستعانت بالمصادر الثانوية مثل مجلات العروس وأشرطة الفيديو وتعليقات لوحة الأخبار الإلكترونية، والتي ساهمت جميعها في فهم تجارب الناس في مجال أزياء العروس . كما قضت الباحثة (Lois 2001) خمس سنوات ونصف السنة متطوعة ضمن فريق إنقاذ جبلي كانت تقوم بدراسته، وقامت بتسجيل ملاحظات ميدانية (field notes)، مفصلة عن تجاربها، بالإضافة إلى جمع بطاقات شكر من الضحايا، وكذلك القيام بمقابلات معمقة مع أعضاء فريق الإنقاذ . وعقدت الباحثة (Martin 1992) مقابلات شخصية مع نساء في منطقة بالتيمور، ثم قامت بتحليل نصي للعديد من الوثائق بما في ذلك كتب دراسية طبية، ومقالات بحثية متخصصة، وكتب رائجة عن صحة النساء الإنجابية. وإلى جانب ما قامت به الباحثة (Furman 1997) من الملاحظة بالمشاركة المكثفة في مركز تجميل تتردد عليه نساء يهوديات متقدمات في السن، استخدمت الباحثة أيضا الاستنباط من الصور الفوتوغرافية كأداة بحثية؛ لأنها اكتشفت "أن الطلب من النساء تأمل التجاعيد على وجوههن وغيرها من علامات التقدم في العمر مسألة فيها تطفل وترهيب"، فطلبت منهن اختيار صور لهن من مرحلة الشباب ومنتصف العمر والفترة الحالية، ثم سألتهن عن حياتهن وعن ما يرينه بشأن مظهرهن، وأشارت قائلة: "بالتعامل مع الصورة الفوتوغرافية باعتبارها نوعا من المنتجات تمكنت المشاركات في البحث من وضع مسافة بينهن وبين الصورة مما قلل لديهن من الشعور الواعي بالذات" (Furman 1997، p. 10).

إن أنواع الأدلة الإثنوجرافية اللازمة لمشروعك ستعتمد بقدر كبير على مشكلة وأسئلة بحثك . وكثيرا ما تجد الباحثات والباحثون الإثنوجرافيون أنفسهم في أماكن غير متوقعة، أو يجدون أنفسهم يجمعون أنواعا غير متوقعة من المعلومات أثناء تعرفهم على

صلات وإمكانيات جديدة في موقعهم الميداني . ومن المهم التفكير بشكل متسع وخلاق عن الطرق التي يمكنك الحصول بها على الأدلة ، ونوعية الوثائق أو الملاحظات أو المقابلات التي يمكن اعتبارها معلومات تجيب على أسئلتك .

وبينما يتم الحصول على الأدلة الإثنوجرافية الأولية من خلال الحديث مع الناس وملاحظتهم ، فمن المهم أن تخضع تلك الأدلة الإثنوجرافية للجمع والحفظ المنظم والدقيق . وهكذا تعتمد الباحثات والباحثون الإثنوجرافيون على الملاحظات الميدانية للحفاظ على ملاحظاتهم يوما بيوم . ويجب تدوين الملاحظات الميدانية بأسرع وقت ممكن بعد انقضاء التجربة ، فيجب أن تكون الأحداث حاضرة في ذهن الباحثة أو الباحث الإثنوجرافيين . وهو أمر صحيح حقا؛ لأن التحليل والكتابة الإثنوجرافية تعتمد على الوصف الواضح والمفصل للحياة اليومية ، وهي التفاصيل التي يسهل نسيانها في حالة عدم تدوينها الفوري .

وعادة ما يتم كتابة الملاحظات الميدانية ضمن عملية تتم على مرحلتين . فأنشاء الوجود في الميدان يقوم الكثير من الباحثين والباحثات بكتابة نقاط سريعة موجزة (jottings) في مفكرة أو كراسة صغيرة أو على وريقات متناثرة؛ لمساعدتهم على تذكر كلام فريد أو تفاعلات يقومون - لاحقاً- بوصفها وتوضيحها في الملاحظات الميدانية . وتساعد كتابة النقاط الموجزة الباحثة أو الباحث على تسجيل التجارب الميدانية حين حدوثها وبأسلوب دقيق . وكثيرا ما قد لا تتضح أهمية حوار معين أو حدث ما عند لحظة حدوثه ، وقد لا تتضح أهميته إلا خلال عملية مراجعة التجربة الميدانية بأكملها . وهكذا فإن الملاحظات الميدانية تقدم سجلا زمنيا شاملا يحمل رأي الباحثة أو الباحث في كل ما حدث في الميدان ، ويمكن أن تكون كتابتها مرهقة للغاية كما لا تتضح أحيانا الأمور الجديرة بالتركيز فيها . وعادة ما تقضي الباحثات والباحثون يوما طويلا في الميدان ثم يعودون لقضاء ساعات أخرى من الليل في كتابة كل ما حدث أثناء النهار .

ويمكن للملاحظات الميدانية أن تكون وصفية أو تحليلية . فقد تقوم بتسجيل ملاحظات الباحثة أو الباحث (من كان موجودا، ماذا كانوا يرتدون؟ ماذا حدث؟) أو قد تتضمن أيضا بعض التأويلات أو الفرضيات أو التوقعات عما يحدث . وقد تبدأ الباحثة أو الباحث الإثنوجرافيان بتدوين تأويلات مبدئية (ربما فرضيات أولية) بعد قضاء يوم في الميدان ، ولكنها قد تتغير بمرور الوقت . وهكذا فإن عملية التحليل الإثنوجرافي تبدأ على الفور وتظل متواصلة . كذلك فإن الباحث أو الباحثة الجديدين سيظلان يتحديان تأويلاتهما هما نفسيهما مع انقضاء مزيد من الوقت في الميدان .

فعلى سبيل المثال تدون الباحثة (Murphy 2003) الآتي في ملاحظاتها الميدانية عن نادي التعري:

مباراة في كرة القدم على شاشة تليفزيون كبيرة وأمامها سلويت لامرأة نصف عارية تتراقص أمام صف من رجال يهتفون . تتجول النادلالات في أرجاء النادي مرتديات ملابس داخلية من الدانتيل البيضاء لا تغطي سوى منطقة العورة من الأمام . تسألني إحداهن عما أريد تناوله من شراب . اسمها إيلونا وتحدث بلكنة إسبانية خفيفة . مبلغ 4.50 دولار ثمن ”ميللر لايت“! ”ضع الأخضر في المشهد“ عبارة أسمعها بصوت مكبر يعلو فوق صوت مادونا وهي تغني أغنية ”لايك أفيرجين“ (كالعذراء) . ”هيا أيها السادة، فهؤلاء النساء لا يحصلن على راتب من هذه المؤسسة ، بل يعتمدن على كرمكم فيما تدفعونهن من بقشيش!“ ومع ما يتعرض له الزبائن من إثارة بصرية إلا أنهم يخضعون لسيطرة الصوت . تقوم راقصة برقصة على الطاولة لرجل جالس إلى جوارى . يجلس وحيدا . واسمها هي ”ملكة بولينيزيا“ . في هذه الحجرة المظلمة الممتلئة بالدخان يمكنه أن يدعي أنه ملكها . نهذاها يبدوان مستديرين بدرجة مبالغ فيها . هل هما طبيعيان؟ لا يبدو عليه الاهتمام بهذا الأمر . يراقب جسدها متراقصا على إيقاع أغنية جانيت جاكسون ”ناستي جيرل“ (فتاة سيئة) . تميل إلى الأمام وتضغط نهديها المتلاصقين في وجهه . تنحني إلى الأسفل وتضع رأسها في حجره . شعرها يغطي الشيء الذي لا تفعله - فيما

يبدو كما لو كان ممارسة جنسية. تستدير. تتحني مرة أخرى مولية ظهرها للرجل. هذه المرة أرى وجهها. تبدو غير مهتمة بالأمر. يبدو هو مبهوراً. تبهرني قدرتها على المشي مرتدية كعباً طوله 4 بوصات. يعلو صوت إيقاع الموسيقى فيهتز لها الكرسي الذي أجلس عليه. "مرحباً في الدمى الورقية" إعلان على اللوحة في المدخل. "أكثر العروض إثارة على وجه الأرض." (Murphy 2003، p. 306)

إذ تكتب الباحثة تلك الملاحظات فإنها تقوم بوصف كبير لما تلاحظه، فنحصل على إحساس بما يمس حواس الرؤية والسمع في المكان. وتجدر الملاحظة أن الباحثة تسجل هنا ملاحظات واقعية، مثل ثمن علبة مشروب "ميلر لايت"، ولكن باستخدامها علامة التعجب تسجل أيضاً تأويلها ورأيها وردود فعلها لهذا الثمن. وتجدر ملاحظة ما أضافته إلى تأويلها بأن الزبائن يتعرضون "لإثارة بصرية" ولكنهم "يخضعون لسيطرة الصوت" فتعبر عن سيطرة الصوت باستخدام خط بارز في ملاحظاتها الميدانية. كذلك فنلاحظ كيف تقدم تأويلاً لردود أفعال ثلاثة أفراد مختلفين في نفس اللحظة، إذ تكتب أن الراقصة "تبدو غير مهتمة" والزبون "منبهراً"، وتشير إلى الفكرة التي خطرت على بالها عن المهارة اللازمة للمشي "مرتدية كعباً طوله 4 بوصات."

وتستعين الباحثات والباحثون الإثنوجرافيون بالملاحظات الميدانية أيضاً في تأمل مواقفهم الشخصية في الميدان، وهو ما قد يتضمن التوصيف والقيام بالتحليل المبدئي بشأن كيفية تأثير المنهج المستخدم في الوصول والتواصل في الميدان على تجارب الباحثة والباحث. ويمكن للملاحظات الميدانية كذلك أن تسجل الأدوار التي تم وضع الباحثة فيها أو تلك التي اختارت القيام بها في الميدان، وكيفية تأثير ذلك على أنواع التفاعلات والتعاملات التي تستطيع ملاحظتها والمشاركة فيها. إن هذا النوع من التأمل لسلطة الباحثة وموقفها وتأثيرها على الميدان يعرف بمصطلح المطاوعة (reflexivity). فعلى سبيل المثال نجد أن الباحثة (Furman 1997) في دراستها للنساء المتقدّمات في السن وثقافة مراكز التجميل تقوم بتسجيل ما يلي في ملاحظاتها الميدانية:

ما مصدر الأمان هناك؟ هنالك شيء ما بخصوص ثقافة التسوق التي تذكرني بطفولتي من حيث بعض اللحظات الإيجابية - الوقت في صحبة الجدات والخالات والعمات؟ ما مصدر الراحة والرضا في الحديث عن التخفيضات في أسعار المعاطف؟ أو في تبادل آخر أخبار أمراضنا الجسدية في حالة أشبه بالتنافسية؟ هنالك أمر ما بالغ الإيجابية، كما لو كان المرء يشعر بتلقي العناية دون الاضطرار إلى تقديم مقابل سوى العناية بالآخرين، تلك العناية والرعاية التي تحدث بشكل طبيعي ومقصود. ما الذي يجعل التعبير عن هذا الاهتمام مصدر إحساس بالدفع؟ (Furman, 1997, p. 1).

ومن الجدير بالملاحظة أن الباحثة تستخدم المطاوعة هنا للربط بين مشاعرها أثناء وجودها في الميدان وبين تجارب من طفولتها. وهذه هي الطريقة التي تسعى هي بها لفهم تجاربها الميدانية، إلا أنها تطرح أيضا على نفسها أسئلة مهمة من قبيل: "ما الذي يجعل التعبير عن هذا الاهتمام مصدر إحساس بالدفع؟" وهو سؤال سيدفع بمسار بحثها إلى الأمام، فسوف تواصل سعيها للحصول على إجابات لهذا السؤال، وبالتالي مسعاها نحو فهم أفضل للثقافة التي غرست نفسها فيها.

والإثنوجرافيات النسويات يملن إلى الالتفات والانتباه للتجارب الذاتية لمصادرهن، بالإضافة إلى إدراكهن لعلاقات القوى القائمة وتقاسم سلطة التأويل. فعلى سبيل المثال تقول الباحثة (De Welde 2003): "بالتساق مع مناهج عقد المقابلات النسوية (Reinharz 1992)، تضمنت المقابلات الشخصية تناولا عميقا للتجارب الذاتية للنساء المشاركات في البرنامج، كما أتاحت لهن فرصة التفاعل مع العملية البحثية والنظرية الناشئة عنها" (De Welde 2003, p. 253). كذلك استعانت الباحثة بتجاربها الشخصية باعتبارها إحدى الدارسات في فصول الدفاع عن النفس، ودونت ملاحظاتها بأسلوب المطاوعة قائلة:

لقد تغلغت تجاربي الشخصية في البرنامج وتأثيره المتواصل على البيانات والمادة العلمية. فقد دخلت مشاعري وأرائي ضمن التجربة البحثية (Coffey 1999). وباعتباري "باحثة عضوة كاملة" تمكنت من تسليط الضوء على ملاحظاتي اللاحقة بشأن استراتيجياتي المستخدمة في البحث وصراعاتي العاطفية وهويتي وجسدي. (De Welde 2003، p. 253)

ولعل أهم ما يجب أن نتذكره بشأن قيام الإثنوجرافيين بجمع المادة هو أن عملية جمع المادة هي عملية إيجابية لا سلبية، إذ يجب على الباحثة الإثنوجرافية الملاحظة والانتباه -على الدوام- لكل ما يدور حولها، فيجب عليها باستمرار النظر بعين نقدية تحليلية حتى أثناء مشاركتها في الحياة الاجتماعية اليومية. فعليها دائماً أن تتذكر أو أن تدون في نقاط سريعة موجزة ما يدور من حوارات خلال وجودها في الميدان. فلا بد من الحفاظ على وجود عملية متواصلة ما بين المشاركة والملاحظة. فالعمل الإثنوجرافي يتطلب نوعاً خاصاً جداً من "الوجود في المكان" يتجاوز مجرد الوجود في المكان.

التحليل الإثنوجرافي

إن تحليل المادة الإثنوجرافية يبدأ، كما أشرنا أعلاه، يبدأ كجزء مصاحب لعملية جمع المادة. فالإثنوجرافيون الجيدون يبدأون في طرح الأسئلة على أنفسهم بشأن ما يرونه ويمرون به، فيشرعون بالتالي في عملية التأويل. ولكن تأتي لحظة على كل الإثنوجرافيين يواجهون فيها اقتراب موعد رجوعهم للتعامل مع كل المادة التي جمعوها (والتي قد تتضمن سنوات من الملاحظات الميدانية وتدوين النقاط الموجزة، وآلاف الصفحات من نصوص المقابلات الشخصية وما جمعه من أشياء بما فيها وثائق وصور وما إلى غير ذلك)، وأن يخرجوا من كل تلك المادة بشيء منطقي. ويعتبر هذا الجزء من العملية الإثنوجرافية جامعاً بين التأويل والتحليل. ويتم أحياناً الاستعانة بآليات التحليل (analysis technologies) من مجالات النقاشات المنهجية الأخرى،

فعلى سبيل المثال يستخدم البعض النظرية الموثقة، بينما يستخدم البعض الآخر تحليل الروايات الشفاهية، في حين يستعين كثيرون بمقاربة تعتمد على موضوعات البحث.

إن التحليل عادة ما يتضمن في قاعدته الأساسية بعض الخطوات التي يشترك فيها مع غيره من أشكال البحث الكيفي، مثل الترميز (coding) وتتبع الأنساق أو الأفكار، والمقارنة لكشف التشابه والاختلاف، ووضع المواقف والخبرات في سياقات اجتماعية وسياسية أوسع. إن الترميز (coding) هو عملية تقوم من خلالها الباحثة بمراجعة المادة المجموعة ووضع رمز لها (كلمة أو وصف موجز) بما يمثل شيئا تراه في المادة. أما تحليل النسق أو الموضوعات (pattern or thematic analysis) فيشير إلى عملية تحديد كيفية تكرار بعض المسارات أو الآراء العامة المتشابهة وظهورها في المادة. أما المقارنة (comparing and contrasting) فيمكنها أن تشير إلى عمليات تتبع أوجه الشبه والاختلاف بين مختلف الأطراف الفاعلة في الميدان، بالإضافة إلى أوجه الشبه والاختلاف بين كيفية التعامل مع بعض المواقف أو المعاملات في الميدان. وعادة ما تقوم الباحثات والباحثون الإثنوجرافيون بمقارنة أوجه الشبه والاختلاف في الأفكار خلال عملية التحليل للتوصل إلى أنواع السلوك والتصرفات أو الأفكار المتشابهة والمتباينة مقارنة بغيرها من التصرفات والأفكار. ويتضمن التحليل النسوي في علم الإثنوجرافيا عادة الالتفات المتواصل لكيفية تأثير الجنس و/أو النوع على أوجه الشبه والاختلاف تأثيرا ممنهجا ومنظما. وتشير عملية وضع المواقف والخبرات في سياقها (contextualizing)، إلى أسلوب التحليل الذي يربط بين طرق تنظيم ومعايشة مجالات الحياة الاجتماعية في الميدان وبين التيارات الاجتماعية والسياسية في الأمة أو على مستوى العالم. وعادة ما توجه الإثنوجرافيات النسويات اهتماما خاصا بالطرق التي تساهم بها أو تتأثر بها السياقات الاجتماعية والسياسية بنظام الاختلاف بين الجنسين وغيره من أنواع التمييز.

وقد اهتمت الباحثة (Lois 2001) بكيفية تعامل المتطوعين في جهود الإنقاذ في الجبال مع المشاعر والعلاقات المتصلة بالضحايا وأسره في سياق مهام الإنقاذ. وقد توصلت

في تحليلها لهذا السياق إلى فكرة "الإحكام" (tightness) التي تعرفها بوصفها "أسلوب إدارة الأمور الشخصية المتبادلة في الإشارة إلى المواقف التي تتطلب من القائمين بإدارة الأمور إلزام المتحكمين في المشاعر بتوجيه المشاعر" (Lois 2001 ، 139) للترقق أمام كيفية إدارة مشاعر الضحايا ، بينما حددت الباحثة من ناحية أخرى مشاعر أسر الضحايا بوصفها تدار بواسطة "التسيب" (looseness) . إضافة إلى ذلك فقد حددت الباحثة أن "الإحكام" في إدارة مشاعر الضحايا يتضمن تحييد مشاعر الحرج والتخفيف من مشاعر القلق ومنع حدوث انهيار سايكوسوماتي . ومن جانب آخر ، تتضمن إدارة مشاعر الأسر إدراك الإحساس بالذنب وإحداث توازن بين مشاعر الأمل والأمر الواقع . وعلى الرغم من عدم قيام الباحثة بتفسير استراتيجيتها في التحليل فإنه يمكننا فهم المسار الذي اتبعته بفضل قيامها بتقارير واضحة عن أسلوبها في التحليل . فعلى سبيل المثال نجدها قد قامت بترميز البيانات بتحديد مواقف معينة (كاستخدام الفكاهة أثناء عمليات الإنقاذ) ، وهو ترميز ربما يكون قد جعلها تجد أنساقاً أوصلتها إلى أفكار مثل تحييد الشعور بالحرج . ومن خلال المقارنة لاحظت في نهاية الأمر وجود اختلاف في كيفية قيام المنقذين بإدارة مشاعر الضحايا وأسرهـم ، استنتجت منها نتيجة مفادها "الإحكام" في إدارة مشاعر الضحايا و"التسيب" في إدارة مشاعر أسرهـم . ثم قامت في نهاية المطاف بوضع دراستها في سياق أوسع من الكتابات حول الجوانب الاجتماعية-العاطفية (socioemotional economy) . ومع أن الباحثة لم تضع نفسها في دور الباحثة "النسوية" فإنها التفتت إلى الاختلافات القائمة بين المنقذين من الرجال والنساء . فنجدتها على سبيل المثال تكتب قائلة "يتم منح النساء نفس القدر من الفرص المتاحة للرجال للقيام بالمهام التي تتطلب جهداً بدنياً ، ولكن فيما يتعلق بالتحكم في العواطف ، يتم تهميط النساء باعتبارهن أضعف من الرجال وبالتالي أقدر قدرة على القيام بالمهام الصعبة" (Lois 2001 ، 175) . وعلى الرغم من أن الباحثة لم تبدأ بحثها بمشكلة بحث تنطلق مباشرة من النظرية النسوية ، فإنها التفتت إلى قضايا ترتبط بالجندر في تحليلها وتسجيل نتائج بحثها .

ومن الأفكار التقليدية الشائعة بين باحثي الأنثروبولوجيا فيما يتصل بترتيب مادة البحث الإثنوجرافي استخدام بطاقات البحث المثقوبة بما يحمل رموزا موضوعية أو نظرية، ثم تجميعها باستخدام خيط يمر بالثقوب. وقد تم في السنوات الأخيرة استبدال بتلك الأساليب البسيطة بصيغ إلكترونية للترميز والتصنيف باستخدام برامج كمبيوتر حديثة. وينضم بعض الباحثين والباحثات الإثنوجرافيين إلى غيرهم من مستخدمي البحث الكيفي في الاستعانة ببرامج كمبيوتر للتحليل الكيفي بما يساعدهم في التعامل مع الكميات المهولة من البيانات وتحليلها. ويمكن لبرامج الكمبيوتر أن تقدم كونا كبيرا في الحفاظ على كميات كبيرة من البيانات وترتيبها وتصنيفها، إلا أنه من المهم جدا أن نتذكر بأنه على النقيض من برامج التحليل الكمي (التي يقوم فيها الباحث أو الباحثة أساسا بتغذية الكمبيوتر بالبيانات الرقمية، على أن يقوم البرنامج بوظيفة حسابية يعقبها تحليل النتائج) فإنه لا توجد أية خطوات آلية في عملية التحليل الكيفي، وبالتالي فيتعين على الباحثات والباحثين الإثنوجرافيين ممن يستخدمون برامج الكمبيوتر في التحليل الكيفي أن يكونوا باستمرار في حالة تفاعل مع البيانات والتفسيرات.

ومع استمرار تعامل الباحثين والباحثات الإثنوجرافيين مع البيانات وتكرار العودة إليها ومراجعتها كثيرا ما يجدون أنفسهم يحسنون ويجودون في الأسئلة التي يطرحونها ويجيبون عليها. وبينما قد يكون دخولهم الميدان حاملين مساحة واسعة متقاطعة من نقاط الاهتمام، فإن تلك الأفكار تتحول خلال عملية التحليل لتصبح أكثر تركيزا وتحديدا وتعقيدا بل وفي أحيان كثيرة أكثر تشويقا. والأمل دوما في أن تقترب الأفكار والأسئلة النابعة من العمل الميداني الإثنوجرافي لتعكس بقدر أكبر تجارب ومفاهيم الأشخاص الخاضعين للبحث لا آراء الباحثين والباحثات المسبقة. ويرى البعض أن الغرض من الدراسات الإثنوجرافية ليس مجرد الإجابة على بعض الأسئلة في ذهن الباحث أو الباحثة بل أيضا معرفة القدر الكافي لطرح أسئلة أفضل وأكثر تعقيدا وتنوعا في نهاية البحث.

وقد أكدت الباحثة رينهارتز على الآتي:

إن المنظور النسوي في تحليل البيانات يتضمن عددا من المكونات مثل فهم النساء في سياقاتهن الاجتماعية واستخدام لغة النساء وسلوكهن لفهم العلاقة بين الذات والسياق . كما يتضمن مسألة إيجاد سبيل لعدم حذف صوت أي شخص مع القدرة على صياغة نص معقول الطول . ويتضمن أيضا استخدام النظرية النسوية لتحليل المادة . (Reinhartz 1992 ، 71)

وباختصار فمن المشروعات الكبرى التي تتم أثناء التحليل هو الانتقال من مرحلة وجود أكوام من البيانات المرتبة ترتيبا زمنيا ومن الأفراد والأحداث ، إلى مرحلة إعادة ترتيب تلك البيانات تبعا للموضوع والفكرة وبما يجعلها قابلة للتفسير والتأويل . وهو أمر كثيرا ما يتطلب عملية أليمة من اختزال المادة بما يستدعي من الباحثة أو الباحث تناول معلومات غنية ومعقدة ومتصلة بسياقاتها ثم اختزالها في حزم مصغرة من الأفكار التي يمكن عرضها على جمهور من القراء . وهي عملية اتخاذ قرار تشير إليها الباحثة بوتش باعتبارها عملية اختيار "الخيوط التي ستقوم بجذبه" للتعامل مع دراستها ثم عرضها بعد مواجهة نسيج كامل متداخل من الأفكار . ويكون هنالك دائما الكثير من الخيوط التي يتعين الاختيار من بينها ، وبالتالي يواجه الإثنوجرافيون -كغيرهم من الباحثين والباحثات- اتخاذ قرارات بشأن الحكايات التي يتم حكيها ، كما توجد دائما أوجه سياسية عند اتخاذ تلك القرارات ، وعادة ما تختار الإثنوجرافيات النسويات الحكايات التي يروونها بما يعكس مواقفهن النسوية النظرية والأخلاقية .

كتابة التقارير الإثنوجرافية: التمثيل والعرض

إن الهدف الذي يصبو إليه أي باحث أو باحثة إثنوجرافية ، كأى مشروع بحثي ، هو كتابة تقرير سردي مشوق ودقيق لما تم التوصل إليه في البحث (مع وجود خلافات بشأن مفهوم الدقة) . وتزدهو الباحثات والباحثون الإثنوجرافيون بما يقدمونه من

الوصف الكثيف للحياة الاجتماعية بما يتضمنه من تفاصيل لسياقاتها مصحوبا بالتحليل الواضح (Geertz 1972). وهو أمر الحديث يكون عنه أسهل من تطبيقه ، وقد يتوقف الإثنوجرافيون والإثنوجرافيات أمام أسئلة مثل الآتي:

- كيف أحكي رواية مشوقة ودقيقة؟
- كيف يمكنني تمثيل أصوات ووجهات نظر من أقوم بدراستهم؟
- ما التداعيات السياسية والأخلاقية المترتبة على قيامي بسرد الرواية بالطريقة التي أقوم بها؟
- ما قدر السيطرة التي يجب أن تتاح للمجتمع على التأويل النهائي؟
- ما قدر السيطرة التي يجب أن تتاح لي على التأويل النهائي؟

إنها أسئلة تتناول أساسا كيفية تعامل الباحثة الإثنوجرافية مع مسألة تمثيل المشاركات والمشاركين في البحث ومجتمعهم ضمن عرضها النهائي للبحث .

وفي ذلك تكتب أورتنر قائلة:

مهمة الباحثة أو الباحث الإثنوجرافيين والمؤرخة أو المؤرخ تمثيل حيوات الناس الأحياء منهم أو من كانوا أحياء في يوم ما ، وفي أثناء محاولتنا الدفع بهؤلاء الناس داخل ثنايا نصوصنا نجدهم يدفعون بأنفسهم في الاتجاه المعاكس . ويأتي النص النهائي نتاجا لهذا الشد والجذب ولا يوجد نص خال من آثار هذا التجاذب مهما كانت قوة هذا النص وسيادته . (Ortner 1995 ، 189)

وقد ناضلت الإثنوجرافيات النسويات تحديدا بشأن مناهج تمثيل الأشخاص موضوع أبحاثهن بأساليب تسعى لإيجاد توازن بين رؤى المؤلفات ورؤى الأشخاص موضوعات أبحاثهن . وفي هذا الصدد كان للإثنوجرافيات النسويات الريادة في طرح مناهج بديلة في كتابة النصوص الإثنوجرافية ومنها ما يقترب من أسلوب الكتابة في العلوم الإنسانية

(كالشعر والرواية والسيرة) أكثر من أسلوب الكتابة العلمية التقريرية التقليدية. وهي أنواع من النصوص الإثنوجرافية تركز على الجوانب الذاتية والمتبادلة في تجارب البشر، وتسعى إلى التحكم في ذلك بواسطة استخدام لغة محملة بالذاتية والعاطفة لا معتمدة على الكتابة النثرية التحليلية أو غير المتأثرة بالعواطف. وعلى أية حال فإن هذه الأشكال من الكتابة الإثنوجرافية تشترك مع غيرها في الهدف وهو تصوير تجارب وخبرات الناس في سياقاتهم الاجتماعية، على تنوع تلك التجارب وثرائها.

وفي نهاية الأمر نجد أن التقرير الإثنوجرافي يستخدم التحليل الموصوف أعلاه لوضع نتائج البحث في سياقات اجتماعية وسياسية وتاريخية. وتتسم الكتابات الإثنوجرافية بالتشويق لأنها تحكي روايات عن البشر والأماكن والأحداث بما يمنح القراء صورة من الداخل لمجتمعات قد لا تكون مألوفة. وحتى في حالة المجتمعات المألوفة فإن الكتابات الإثنوجرافية عادة ما تقدم وتحلل جوانب من حياة المجتمع بما قد يخالف الأفكار الدارجة عن هؤلاء البشر وتلك الأماكن. وبالطبع فإن أفضل وسيلة للتعرف على "كتابة" البحث الإثنوجرافي تتمثل في قراءة بعض الدراسات الرائعة التي أنتجتها النساء تاريخيا وحاليا، ولا يرد فيه هذا الفصل سوى وصف لعدد قليل من مثل تلك الدراسات.

الأخلاقيات والمسؤوليات

يتطلب البحث الإثنوجرافي النسوي قيام الباحثة بتوجيه اهتمام خاص بممارساتها ومسؤولياتها الأخلاقية عند جمع المادة ونقل نتائج دراستها. وهناك نطاق واسع من الأسئلة الأخلاقية التي تظهر على السطح في كل مرحلة من مراحل المشروع الإثنوجرافي. وكثيرا ما لا يتم تناول تلك المشاكل الأخلاقية تناولا جيدا من قبل مجالس المراجعة المؤسسية بالجامعات (IRB: institutional review board) والتي عادة ما تضع القضايا الأخلاقية في إطار منظومات بحثية مغايرة. وهكذا نجد أن المسائل الحساسة مثل الوصول إلى المشاركات والمشاركين في البحث وإخبارهم بالمعلومات والحصول على موافقتهم والاعتماد على الصداقات وحماية الخصوصية وسياسات

عرض النتائج تظل مسائل غير محسومة في حالات كثيرة حتى بعد الحصول على موافقة مجلس المراجعة المؤسسية على القيام بالبحث . ويمكن لمسألة حل القضايا الأخلاقية في العمل البحثي أن تمثل تحديا تحديدا عندما تتوقف الباحثة النسوية أمام مواقع السلطة النسبية بينها وبين الأشخاص الذين تقوم بدراساتهم . وترى دافني باتاي أنه إذا كان لفكرة النسوية أن تعني شيئا

فيجب عليها أن تتضمن مراجعة نقدية للمفاهيم والبنى التقليدية التي همشت النساء ماديا ونفسيا ، في العالم بل وحتى في أرواحهن ونظرا إلى أن الفكر النسوي قد واجه موقف الحياد والموضوعية الذي طالما سيطر على العلوم الاجتماعية الوضعية ، فقد دفعنا إلى تمحيص ممارساتنا كباحثات . . . [عما إذا كان] من الممكن -لا على المستوى النظري بل في الوضع الفعلي للعالم الحقيقي اليوم- الكتابة عن المجهولين دون أن نتحول إلى واحد من القاهرين . (Daphne Patai 1991 ، 138)

وتضيف دافني باتاي قائلة إن النسويات عادة ما يقعن في خطأ التصور أن المشاركة البسيطة في خطاب النسوية يحميهم من احتمالات استغلال غيرهن من النساء حتى عند قيام ممارساتهن البحثية على قاعدة من التمتع بالوضع المتميز . فبصرف النظر عن موافقك النسوية من الضروري أن تتوقفي أمام علاقات القوى بما فيها من علاقات تراتبية على أساس الطبقة والأصل والتعليم والقدرة على الوصول إلى الآخرين ، ومدى تأثيرها جميعا على حيوات من قومين بدراساتهم . ونجد أن الكثيرات من الإثنوجرافيات النسويات ، مثل بالي (Paley 2001) ينظرن إلى الأشخاص موضوع دراساتهم باعتبارهم خبراء فيما يتصل بحيواتهم ومجتمعاتهم ، وبالتالي يعتبرنهم مشاركين فاعلين في المشروع البحثي لا مجرد موضوعات بحث سلبيين . ويختلف رد فعل النسويات تجاه اختلافات علاقات القوى وذلك تبعا لمواقفهن النظرية والأخلاقية ، وكثيرا ما تكون الحلول للمآزق الأخلاقية حولا صعبة وغير مناسبة . وهكذا يصبح من المهم تحديدا أن نهتم بتحركاتنا الواعية تجاه القضايا الأخلاقية التي تظهر لنا خلال مسار البحث .

يقضي الإثنوجرافيون وقتاً طويلاً بصحبة الناس الذين يعملون معهم في الميدان بما يجعل معظم الإثنوجرافيين والإثنوجرافيات راغبين ومضطرين لمواصلة العلاقات المهمة التي نشأت في ميدان البحث واستمرارها لسنوات. ومن المهم جداً الوعي بكيفية إمكان تأثير البحث المكتوب والمنشور على من قمت بالعمل معهم واحتمال عودتك للعمل معهم ثانية في المستقبل. وقد فوجئ بعض الإثنوجرافيين برد الفعل الذي قابله عند عودتهم للمجتمعات التي سبق وقضوا فيها وقتاً طويلاً (Ellis 1995; Scheper-Hughes 2000). بل إن أكثر الإثنوجرافيين اتساماً بحسن النوايا يقومون أحياناً بوصف المجتمعات أو البشر بصور يعتبرها الطرف الآخر من البحث ظالمة أو مسيئة، ويكون ذلك عادة لأسباب لم تتوقعها الباحثة أو الباحث الإثنوجرافيان. وفي أحيان أخرى قد تجد الباحثة الإثنوجرافية نفسها تنقد بصورة مقصودة ممارسات السيطرة أو التمييز أو الإجبار القائمة في المجتمع. ويكون على الباحثة الإثنوجرافية اتخاذ قراراتها بشأن ما تنشره من مادة قد تحمل تحليلاً مسيئاً للمجتمع محل الدراسة. وتؤكد الكثيرات من الباحثات على أهمية الالتزام والمسؤولية عند اتخاذ القرار بشأن ما ينشرنه، ويرين أن قدرتهن على القيام بالعمل البحثي كانت تعتمد (وسوف تعتمد في المستقبل) على المساهمات والمشاركات التطوعية لمن يقمن بدراستهم، فبدونهم لن يتوفر للباحثة ما تكتب عنه.

وتتفق معظم الباحثات على أنه من المهم عدم نشر المواد التي قد تجعل من يعملون معهن عرضة للعنف أو الصعوبات الاقتصادية أو الأذى العاطفي البالغ، كما نجد أن كثيراً من الباحثات والباحثين الإثنوجرافيين يعرضون نتائج أبحاثهم على المجتمع موضوع البحث قبل قيامهم بنشر أي منها وذلك للحصول على رأي المجتمع بشأن دقة الصورة المقدمة عنه وبخصوص المخاطر التي قد يتعرض لها المجتمع جراء نشر البحث. وبصرف النظر عن كيفية اختيارك للتعامل مع التحديات الأخلاقية العديدة المتصلة بالعمل الميداني الإثنوجرافي، إلا أنه من المهم الوعي بأن ما تقومين به في الميدان وما تكتبينه لاحقاً يمكن أن يحمل تداعيات خطيرة على البحث ومن تعملين معهم في الميدان. وهي مسألة ذات أهمية محورية بالنسبة للنسويات.

- American Psychological Association. (2001). *Publication manual of the American Psychological Association*. Washington, DC: Author.
- Behar, R. (1993). *Translated woman: Crossing the border with Esperanza's story*. Boston: Beacon Press.
- Coffey, A. (1999). *The ethnographic self*. London: Sage.
- Corrado, M. (2002). Teaching wedding rituals: How bridal workers negotiate control over their customers. *Journal of Contemporary Ethnography*, 31(1), 33–67.
- De Welde, K. (2003). Getting physical: Subverting gender through self-defense. *Journal of Contemporary Ethnography*, 32(3), 247–278.
- Ellis, C. (1995). Emotional and ethical quagmires in returning to the field. *Journal of Contemporary Ethnography*, 24(1), 68–95.
- Finn, J. (1998). *Tracing the veins: Of copper, culture, and community from Butte to Chuquicamata*. Berkeley: University of California Press.
- Furman, F. K. (1997). *Facing the mirror: Older women and beauty shop culture*. New York: Routledge.
- Geertz, C. (1972). *The interpretation of cultures*. New York: Basic Books.
- Goetz, J. P. (1978). Theoretical approaches to the study of sex-role culture in schools. *Anthropology and Education Quarterly*, 9(1), 3–21.
- Goetz, J. P. (1981a). Children's sex-role knowledge and behavior: An ethnographic study of first graders in the rural South. *Theory and Research in Social Education*, 8(4), 31–54.
- Goetz, J. P. (1981b). Sex-role systems in Rose Elementary School: Change and tradition in the rural-transitional South. In R. T. Sieber & A. J. Gordon (Eds.), *Children and their organizations: Investigations in American culture* (pp. 58–73). Boston: Hall.
- Goetz, J. P., & Hansen, J. F. (1974). The cultural analysis of schooling. *Anthropology and Education Quarterly*, 5(4), 1–8.
- Harrington, B. (2003). The social psychology of access in ethnographic research. *Journal of Contemporary Ethnography*, 32(5), 592–625.

- Hesse-Biber, S. (1996). *Am I thin enough yet? The cult of thinness and the commercialization of identity*. New York: Oxford University Press.
- Hesse-Biber, S. N., & Leavy, P. (2006). *The practice of qualitative research*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Hondagneu-Sotelo, P. (2001). *Domestica: Immigrant workers cleaning and caring in the shadows of affluence*. Berkeley: University of California Press.
- Isabell, B. (1995). Women's voices: Lima 1975. In D. Tedlock & B. Mannheim (Eds.), *The dialogic emergence of culture*. Chicago: University of Illinois Press.
- Lewin, E. (1993). *Lesbian mothers: Accounts of gender in American culture*. Ithaca, NY: Cornell University Press.
- Lois, J. (2001). Managing emotions, intimacy, and relationships in a volunteer search and rescue group. *Journal of Contemporary Ethnography*, 30(2), 131–179.
- Martin, E. (1992). *The woman in the body: A cultural analysis of reproduction*. Boston: Beacon Press.
- Monterurro, B. (2005). Add men, don't stir: Reproducing traditional gender roles in modern wedding showers. *Journal of Contemporary Ethnography*, 34(1), 6–35.
- Murphy, A. G. (2003). The dialectical gaze: Exploring the subject-object tension in the performances of women who strip. *Journal of Contemporary Ethnography*, 32(3), 305–335.
- Nader, L. (1988). Up the anthropologist—Perspectives gained from studying up. In J. B. Cale (Ed.), *Anthropology for the nineties* (pp. 470–485). New York: Free Press.
- Ortner, S. B. (1995). Resistance and the problem of ethnographic refusal. *Comparative Studies in Society and History*, 37(1), 173–193.
- Paley, J. (2001). *Marketing democracy: Power and social movements in post-dictatorship Chile*. Berkeley: University of California Press.
- Patai, D. (1991). U.S. academics and Third World women: Is ethical research possible? In S. B. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history*. New York: Routledge.
- Rapp, R. (2000). *Testing women, testing the fetus: The social impact of amniocentesis in America*. New York: Routledge.
- Reinharz, S. (1992). *Feminist methods in social research*. Oxford, UK: Oxford University Press.
- Richards, A. I. (1956). *Chisungu: A girls' initiation ceremony among the Bemba of Northern Rhodesia*. London: Faber & Faber.
- Richards, A. I. (1995). *Land, labour and diet in Northern Rhodesia* (2nd ed.). Munster-Hamburg: LIT with the IAI. (Original work published 1939)
- Scheper-Hughes, N. (2000). Ire in Ireland. *Ethnography*, 1(1), 117–140.
- Spivak, G. C. (1988). Can the subaltern speak? In C. Nelson & L. Grossberg (Eds.), *Marxism and the interpretation of culture* (pp. 271–316). Basingstoke, UK: Macmillan Education.

- Stacey, J. (1991). Can there be a feminist ethnography? In S. B. Gluck & D. Patai (Eds.), *Women's words: The feminist practice of oral history* (pp. 111–119). New York: Routledge.
- Staller, K. M. (2002). Working the scam: Policing urban street youth. *Qualitative Inquiry*, 8(5), 550–574.
- Stocking, G. W., Jr. (1983). Fieldwork in British anthropology. In G. W. Stocking Jr. (Ed.), *Observers observed* (pp. 70–120). Madison: University of Wisconsin Press.
- Trotter, R., & Schensul, J. J. (2000). Methods in applied anthropology. In H. Russell Bernard (Ed.), *Handbook of methods in cultural anthropology* (pp. 691–735). New York: AltaMira Press.

الفصل الثامن

الممارسة النسوية في تحليل المضمون

باتريشا لينا ليفي

من خلال اكتشاف الأنساق القائمة بين الوثائق الموجودة والمفقودة ، ومن خلال علاقات السلطة/ النوع في المجتمع في ذلك الزمان ، ومن خلال لفت انتباه الناس في يومنا هذا إلى تلك المواد ، يتم خلق روابط جديدة تساعد على فهم العلاقة الحالية القائمة بين النوع والسلطة ، ومنح بعض المجموعات قدرا أكبر من الإحساس بتاريخهم . ولايضاح تلك العلاقة بجلاء ، تقوم بعض النسويات بإعادة طباعة النصوص والصور الفوتوغرافية كي تتمكن مجموعات أخرى من صياغة تأويلاتها وروابطها. (Shulamit Reinharz 1992 ، p. 163)

إن التدخل النسوي في الثقافة الجماهيرية قد يقدم للسياسات النسوية استراتيجية براجماتية لإحداث تحول في موازين القوى وتمهيد الطريق أمام التغيير ، وبالتالي المساعدة في إحداث تحول في المجتمع . ونظرا إلى كون الثقافة الدارجة موقعا مهما للنضال حول المعنى ، بما تقدمه من تعريفات سائدة في الثقافة للنساء والرجال ، فلذا من الضروري التدخل في التيار السائد لجعل المعاني النسوية جزءا من الفهم الشائع في الحياة اليومية. (Suheyra Kirca 1999 ، p. 105)

إن الثقافة هي موقع تتم فيه الصراعات على المعنى ، وهي الموقع الذي يتم فيه لاحقا تضمين تلك الصراعات في عدد كبير من المواد الثقافية كالنصوص والمنتجات . وقد تؤدي صراعات ثقافية معينة حول المعنى إلى إنتاج ذاكرة جماعية أو وطنية لحدث أو زمن ما ، أو قد تكون النتيجة أكثر رحابة في شكل حزمة من الأفكار بشأن مجموعة أو فئة ما . إن مستودع المواد الثقافية (artefacts) الذي يتضمن هذه الرؤى والأفكار قد يتضمن أيضا تناقضات كامنة أو صريحة . ويمكن بدراسة الثقافة عموما والثقافة الجماهيرية (popular culture) تحديدا الكشف عن الروايات والصور والأفكار والتمثيلات النمطية السائدة وكذلك مواجهتها .

فعلى سبيل المثال ، استخدمت بعض النسويات تحليل المضمون (content analysis) ، لدراسة فكرة ”ما بعد النسوية“ (postfeminism) التي أخذت في الانتشار في ثمانينيات القرن العشرين وتسعينياته . وقد لاحظت إحدى الدراسات (Hall and Rodriguez 2003) ، أن وسائل الإعلام الجماهيرية (popular media) في الولايات المتحدة الأمريكية ادعت قيام عصر جديد من ”ما بعد النسوية“ ، وقامت بتحليل مضمون للخروج بتعريف ”المنظور ما بعد النسوي“ (postfeminist perspective) وتحديد نوع الأدلة الإمبريقية الدالة على هذا المنظور . وقد قامت الدراسة السابقة ، بواسطة تحليل المضمون ، من رفض وتفنيد تلك الادعاءات القائلة بوجود اتجاه ما بعد نسوي ، وأكدت على أن هذا المفهوم أو تلك الأيديولوجيا ساهمت في الواقع في زعزعة وإضعاف الجهود الرامية لتحقيق الوحدة النسوية (feminist unity) ، وبالتالي فقدت النسوية بعض الدعم العام بدءا من الثمانينيات وحتى التسعينيات . فقد تم النظر إلى النسوية باعتبارها أقل ارتباطا بالواقع ، وأن ما بعد النسوية تتمتع بمزيد من الاقتراب من جانب بعض الشباب ، وأن النسوية نفسها لم تتطور متخذة صورا جديدة بما ينطبق مع ما يوحي به مصطلح ما بعد النسوية . ويرد في الدراسة السابقة ما يلي : ”إن مجرد وجود منظور ما بعد نسوي في الخطاب العام هو أمر يحدث تغييرا بالغافي المشهد

الاجتماعي الذي تتم فيه نقاشات حول ما يجب عمله من أجل تحسين وضع النساء“
(Hall and Rodriguez 2003 ، p. 884).

وتوضح هذه الدراسة كيف يمكن للمنظور النسوي في الثقافة أن يواجه كثيرا من
الأيديولوجيات السائدة ، بما فيها الأيديولوجية النسوية ذاتها .

وتحتل النساء موقع الصدارة في التناول النقدي للنصوص والمنتجات التي تكوّن
الثقافة ، وذلك لمقاومة المفاهيم الأبوية للواقع الاجتماعي التي تدفع النساء وغيرهن من
الفئات المهمشة إلى أطراف ثقافتهم وعمليات التأويل الاجتماعي . إن قيام النسويات
بطرح المنظور النسوي والهموم النسوية ، مثل وضع النساء ، والمساواة ، والعدالة
الاجتماعية ، داخل دراسات الثقافة المادية (material culture) أي المنتجات ،
والثقافة الرمزية (symbolic culture) أي الصور والتمثيلات متعددة الوسائط ،
يجعل الباحثات النسويات يستخدمن تحليل المضمون بأساليب فريدة ويطرحن أسئلة ما
كان ليتم تناولها . كذلك ، فمن منطلق كون الثقافة موقعا يتم فيه خلق الأفكار ونشرها
واستهلاكها (بما في ذلك الصور المبالغ فيها والنمطية) ، إلا أن النساء صاحبات مصلحة
خاصة في الكشف عن النصوص والمنتجات التي تصير مكونا أساسيا من مكونات كيفية
النظر إلى النساء والرجال . ويقدم تحليل المضمون للباحثات النسويات منهجا يتسم
بالمرونة واتساع المدى في تفاعلهن مع هذه العملية الفكرية والسياسية . ونظرا إلى أن
الثقافة واسعة المدى للغاية فليس من الممكن تناول كافة الطرق التي يمكن بها للنسويات
دراستها دون عوائق في الطريق ، ولذا فالهدف من هذا الفصل هو تعريفك ببعض
القضايا والممارسات القائمة في هذا المجال .

وكما يتضح لك مما سبق فإن تحليل المضمون مجال متسع ، وبالتالي للبدء من نقطة
انطلاق راسخة فلنبدأ بأسئلة البحث:

• كيف يتم تمثيل النوع في الأفلام الجماهيرية؟

• وكذلك ، كيف يكون لتمثيل النوع في الأفلام الجماهيرية أثر على كل من "الجمهور الموضوعي" وعلى الأفراد الذاتيين؟

• هل من الحقيقي أن الثقافة الجماهيرية تقوم بإعادة تدوير (recycle) للصور النمطية على أساس النوع ، وإذا كان الأمر كذلك فما طبيعة هذه الصور النمطية؟

وقد كانت هذه هي الأسئلة التي أرشدت مارك هيدلي (Mark Hedley 2002) في بحثه الذي قام فيه بتحليل مضمون استقرائي لعينة من الأفلام الجماهيرية من الفترة ما بين عام 1986 وعام 2000. واستنادا إلى النظريات النسوية والنقدية يرى الباحث الآتي:

لقد استطاعت الثقافة الجماهيرية في عصر الحداثة تحديد ما ينتمي إلى الواقع ، وذلك من خلال تطبيقها لأشكال التقدم التكنولوجي . إن عالم النظام (system-world) القائم على التحكم التكنولوجي قد حل بالتالي محل عالم الحياة (life-world) القائم على التجارب الأصلية باعتبارها المصدر الأساسي للمعنى . كذلك فإن من يتحكمون في الإعلام المعني مدركون للقوة والسلطة التي يمنحها لهم هذا التحكم (Mark Hedley 2002، p. 202).

إن استخدام الباحث هنا تحليل المضمون التابع من البحث النسوي يوضحه لنا بقوله:

أستكشف كيفية تمثيل الصراع بين الجنسين كما يتم توصيله ، بدءا من الأنظمة النفسية للأفراد القائمين بعمل الأفلام وحتى الأنظمة النفسية لمن يعايشون الأفلام عبر النظام المجتمعي الخاص بصناعة الأفلام في الولايات المتحدة الأمريكية (Mark Hedley 2002، p. 202)

إن النتائج التي يتم التوصل إليها في تحليل المضمون الواسع الذي يقوم به مارك هيدلي هي نتائج متعددة الأوجه والسمات . أما النتيجة الشاملة فهي أن "وجهة النظر

القائمة على أساس النوع“ (gendered point of view) في تلك الأفلام على تنوعها تبين وجود ”تفضيل عام لرؤى الرجال“ (Hedley 2002، p. 211)، وهي نتيجة مهمة في مغزاها إذ نحاول فهم من هم أصحاب الرؤى التي يتم تسليط الضوء عليها، ومن هم أصحاب الرؤى والأصوات في العالم الذين يتم إسكاتهم أو تهميشهم في الأفلام المعاصرة. كذلك تكشف دراسة مارك هيدلي الأنماط العديدة داخل الأفلام الجماهيرية التي بوسعها أن تساعدنا على التوصل إلى فهم أفضل لكيفية تصوير النوع والعلاقات الجنسية الغيرية (heterosexual relationships). فعلى سبيل المثال وجد هيدلي أن الشخصيات النسائية يتم تصويرها على الدوام باعتبارها أكثر تميزاً من حيث ”الوضع الأخلاقي“ مقارنة بالشخصيات الرجالية، في حين يتم تمييز الشخصيات الرجالية من حيث ”السلطة الاجتماعية“ مقارنة بالشخصيات النسائية. (Hedley 2002، p. 207). كما وجد الباحث أن العلاقات الثلاثية التي محورها الرجل يتم فيها استدعاء خلفية أخلاقية تقوم على ثنائية السيدة البتول/العاهرة، بينما في العلاقات الثلاثية التي محورها المرأة تعتمد الخلفية الأخلاقية على ثنائية البطل/الشرير أو الأمير/الصلعوك. كما اتضح في البحث وجود صراع شامل بين الرجال والنساء في تلك الأفلام، بما يجعل الصراع بين الجنسين يبدو وكأنه أمر عادي. وقد جاءت طبيعة هذا الصراع عموماً رومانسية و/أو جنسية، وعادة ما أنت في سياق منافسة جنسية، لتشير بالتالي إلى كونها قاعدة واسعة للعلاقات بين الرجال والنساء. إن مثل هذا التحليل المتنوع، والذي لا يمكن تحقيقه من خلال تحليل مضمون منهجي للنصوص الثقافية يحمل أهمية بالنسبة لفهمنا للاختلاف القائم في تمثيل الرجال والنساء في الثقافة الأمريكية. إن دراسة هيدلي تتجاوز مرحلة مساعدتنا على فهم الأفكار التي يتم من خلالها التعبير عن قضايا النوع، فنقدم لنا نطاقاً من القضايا التي يمكن تناولها في أبحاث مستقبلية إذا ما أردنا الانتقال بهذا التحليل نحو تحقيق الأهداف النسوية من أجل العدالة. ويقترح هيدلي على الباحثين والباحثات مواصلة هذا النوع من الأبحاث من خلال طرح الأسئلة التالية:

ما أنواع المشاركة النسائية الأهم من أجل تجاوز المعايير السائدة في النظام القائم؟ وما قدر تلك الأنواع من المشاركة الضرورية لتجاوز النظام القائم؟ ما السياقات التي تمنع مشاركة النساء بأي شكل أو قدر في مواجهة الأنماط المعتادة؟ وما السياقات التي تسمح بمشاركة الرجال في طرح التحديات ومواجهة النظام حتى في حال ضالة أو غيابها مشاركة النساء؟ (Mark Hedley 2002 ، p. 213).

إن دراسة مارك هيدلي حول النوع في الأفلام الجماهيرية هي مثال على كيفية إمكان دمج تحليل المضمون مع الهموم والمبادئ النسوية لتناول نطاق من القضايا الخاصة بالتشكيل الثقافي للنوع والاختلاف على مدى واسع.

ويمكن للنسويات استخدام تحليل المضمون لدراسة مدى حضور الفكر النسوي في نطاق من المواد والمنتجات الثقافية. وهناك مثال آخر في دراسة تحليل مضمون لعدد 11 من الكتب الإرشادية (self-help books) للتعرف على مدى كون مضمون تلك الكتب نسوياً أو غير نسوي (Shindler Zimmerman ، Holm and Starretls 2001). وقد أشارت نتائج الدراسة إلى أن أكثر الكتب مبيعا (best-selling books) أصبحت أقل نسوية بمرور الوقت. إن هذا النوع من الأبحاث ربما ينجح في مواجهة التصورات الجماهيرية الرائجة بشأن حضور الفكر النسوي في الثقافة الجماهيرية.

إن تحليل المضمون يقدم منهجا في الكيفية التي يمكن بها للباحثة النسوية تناول أسئلة البحث ، ومنها ما يلي:

- من صاحب وجهة النظر الممثلة في الثقافة الجماهيرية والتجارية؟
- كيف يتم تمثيل الاختلاف في الثقافة؟ فعلى سبيل المثال ، كيف يتم تمثيل النوع في الثقافة؟ وكيف يتم تمثيل الجنسانية؟ وتمثيل الأصل والعرق؟
- كيف يتم نشر الرسائل إلى الناس عن طريق الثقافة الجماهيرية؟

- كيف يتم تشكيل الأفكار الخاصة بالذكورة والأنوثة، وإعادة تشكيلها، ومواجهتها داخل الثقافة عبر النصوص التي يتم إنتاجها داخل الثقافة؟
- من أصحاب الرؤى التي يتم إسكانها أو تهميشها داخل مواد ومنتجات ثقافية معينة؟
- ما الذي تكشف لنا عنه دراسة النصوص التي يتم إنتاجها في ثقافة معينة، وذلك بشأن كيفية إضفاء قيمة على الرجال والنساء؟

تحليل المضمون: عرض عام

إن تحليل المضمون (content analysis) هو الدراسة المنهجية للنصوص وغيرها من المنتجات الثقافية أو أشكال المواد غير الحية. والمادة المستخدمة في مثل هذا النوع من البحث تكون موجودة بصورة مستقلة عن مسار البحث. بمعنى آخر فإن الباحثة أو الباحث لا يقومان بخلق أو المشاركة في خلق المادة الخام من خلال استطلاعات الرأي أو العمل الإثنوجرافي أو المقابلات الشخصية، وإنما يقومان بجمع المادة الموجودة مسبقاً، كالصحف والكتب والمجلات والصور والبرامج التليفزيونية وغيرها. إن طبيعة تلك المادة تضيف عليها خاصيتين فريدتين وهما: أولاً، المادة توجد مسبقاً وبالتالي تكون طبيعية (naturalistic)، وثانياً، تكون المادة غير تفاعلية (noninteractive) (Reinharz 1992، p. 147). إن هاتين الخاصيتين تمنحان المادة مستوى جوهرياً من الأصالة (Reinharz 1992، p. 147; Hesse-Biber & Leavy 2006). ونجد أن مستوى الأصالة الذي تتمتع به المواد والمنتجات مسبقاً الوجود هو مسألة بالغة الأهمية للباحثات النسويات اللاتي تطاردهن أسئلة حول قيمة البحث وصحته من قبل المجتمع العلمي والبحثي الواسع الذي يقلل من قيمة البحث النسوي: "فمن خلال استخدام مثل تلك الوثائق تقوم الباحثات النسويات بتحديد المعايير الاجتماعية السائدة (social norms)، دون استخدام مناهج تفاعلية قد تؤثر في المعايير التي يسعين لدراستها" (Reinharz 1992، p. 151).

كذلك يمكن توظيف تحليل المضمون كميًا وكيفيًا، ومن أي موقع نظري أو إبستمولوجي، بما فيها العديد من أنواع النسوية. فيمكن للباحثات النسويات توظيف تحليل المضمون الكمي (quantitative content analysis) من أجل "تحديد الأنساق الواردة في التأليف والموضوع والمناهج والتأويل" (Reinharz 1992، p. 155). إن هذا النوع من المقاربات يمكنه أن يبني مادة علمية قابلة للاستخدام من أجل الدفع بالتغيير الاجتماعي في مجالات السياسة العامة أو التعليم. فعلى سبيل المثال، قد يكشف تحليل المضمون الكمي النسوي عن أنساق ذات أهمية إحصائية بشأن التحيز على أساس النوع أو الأصل في الاختبارات الوطنية الموحدة (national standard-ized tests). ويمكن للباحثات والباحثين استخدام نتائجهم في التعبئة من أجل التغيير. ومن جانب آخر فإن تحليل المضمون الكيفي يمكنه مساعدة الباحثات النسويات على تفسير وتأويل وثيقة ما بأكملها أو في أجزاء (Reinharz 1992، p. 159)، وعادة ما يتم ذلك بمقاربة تنطلق من قاعدة نظرية حيث "تخرج الفئات التحليلية" من المادة نفسها (Reinharz 1992، p. 161). وتحت مظلة هذه المقاربة النسوية الكيفية يمكن للباحثات والباحثين على سبيل المثال استخدام مفردات بشكل مباشر من النص المدرس لإعداد فئات التحليل، وهي مقاربة تنتج تحليلًا للأفكار يتضمن مادة وصفية غنية يمكن استخدامها في توليد النظرية.

وإلى جانب التطبيقات الكمية والكيفية العامة لتحليل المضمون، تقوم كثير من النسويات أيضًا بتطبيق ما بعد الحداثة (postmodern) وما بعد البنيوية (poststructural) من حيث النظرية والمبادئ التي تحكمها، في مشروعات تحليل المضمون. وبينما يمكن للباحثات النسويات الاستناد إلى نطاق من النظريات خلال إعداد خطط الأبحاث المعتمدة على تحليل المضمون، إلا أنني أرى من الأهمية الربط بين ما بعد الحداثة وبين تحليل المضمون النسوي الذي أراه ممارسة بحثية متزايدة داخل البحث النسوي. فكما رأينا في الفصل الرابع من هذا الكتاب، لقد شهدت العقود الأربعة

الماضية طفرة في تطور الاستمولوجيا والنظرية النسوية ما بعد الحداثية، وهي طفرة لم تظهر من فراغ بل ترتبط بالتزايد العام في الدراسات الثقافية داخل المجال الأكاديمي (Hesse-Biber & Leavy 2004).

فعلى مدار العقود القليلة الماضية فإن ظهور مفاهيم جديدة بشأن طبيعة الواقع الاجتماعي وطبيعة البحث الاجتماعي قد أدى إلى تزايد استخدام تحليل المضمون والتوسع فيه داخل مجال الدراسات الثقافية ذي السمة البينية (interdisciplinary). وعلى وجه الخصوص نجد أن المراجعات النقدية (critiques) ما بعد الحداثية وما بعد البنيوية الموجهة إلى بناء المعرفة (knowledge construction) قد أثرت على ممارسة البحث بشكل غير ملحوظ من خلال تغيير المنظور النظري الذي ينطلق منه كثير من الباحثين والباحثات في ممارسة تلك المنهجيات. فقد استندت الباحثات النسويات إلى التطورات الكبرى في هذا المجال للدمج بين الهموم والممارسات ما بعد الحداثية والنسوية، والتي نتج عنها تزايد في تحليل المضمون النسوي. وتحديدًا نجد أن الكثيرات من الباحثات النسويات يقمن بتحليل النصي (textual analysis) من منظور تفكيكي (deconstruction perspective) يتم فيه تحليل النص لا للتعرف على ما يحتويه وإنما أيضًا لمعرفة أوجه النقص أو الإسكات أو الغياب فيه. إن الهدف من مثل هذا النوع من البحث ليس لإيجاد تخمينات بشأن ما يجب توفره فيه، وإنما تفكيك النص لمعرفة ما يكشف عنه وما يخرج منه وما ينشأ من مقارنات بالتجاور (juxtapositions).

• كيف نشأ وتطور تحليل المضمون؟

إن تحليل المضمون، وبصورة أشمل، المناهج التي تتم بدون علم الطرف الخاضع للدراسة (unobtrusive methods)، نشأت من الافتراض بأن في إمكاننا أن نتعرف على مجتمعنا من خلال دراسة الأشياء المادية التي يتم إنتاجها داخل الثقافة. وبمعنى

آخر يمكننا أن نتعلم أشياء عن الحياة الاجتماعية، مثل المعايير السائدة، أو القيم، أو التعامل الاجتماعي، أو الشرائح الاجتماعية عبر تناول النصوص التي تنتجها، والتي تعكس العمليات الاجتماعية الشاملة (macrosocial processes) ورويتنا للعالم. كذلك فإن المواد والمنتجات الثقافية لا تعكس ببساطة المعايير والقيم الاجتماعية، وللنصوص أهمية محورية في معرفة كيفية تشكل المعايير والقيم (Reinharz 1992، p. 151). إن النصوص والأشياء التي تقوم المجموعات البشرية بإنتاجها تحمل في داخلها الأفكار الأشمل التي تعتقها تلك المجموعات، سواء كانت مشتركة بينهم أو مثيرة للجدل، مثل الأفكار المتصلة بالجنس والنوع. إن تلك المناهج تختلف عن غيرها من مناهج البحث التي نتناولها في هذا الكتاب من حيث كونها تستخدم النصوص وغيرها من المواد غير الحية كنقطة انطلاق لمسار البحث، وهي مسألة تميز تحليل المضمون عن الاستطلاعات والمقابلات والبحث الإثنوجرافي، وهي كلها مناهج تعتمد على الأفراد الذين "تطبعوا" بالمعايير والقيم المجتمعية كنقطة انطلاق مبدئية لبناء المعرفة. "إن أبحاث العلوم الاجتماعية عليها مواجهة بعد من أبعاد النشاط الإنساني لا يمكن احتواؤه في وعي الذات المنعزلة. وباختصار فإن عليها أن تنظر إلى ما هو قائم ما وراء العالم المكون من الأفراد فرادى" (Prior 2004، p. 318).

قالباحثات والباحثون لا يتطفلون على الحياة الاجتماعية عبر الملاحظة أو عمل الاستطلاعات أو عقد المقابلات الشخصية، وإنما يقومون بدراسة النصوص بلا تفاعل مباشر بين الطرفين، بما يجعل مسار البحث يتم بدون علم الطرف الخاضع للبحث (unobtrusive process). ويمكن دراسة العديد من أنواع النصوص والمواد الثقافية المختلفة التي تتضمن ولا تقتصر على الوثائق التاريخية والصحف والمجلات والصور الفوتوغرافية والكتب واليوميات والأدب والموسيقى والسينما والتلفزيون والمواقع الإلكترونية.

وتنظر الباحثات النسويات إلى المواد الثقافية عبر إطار معين والذي يميل إلى لفت انتباههن إلى المواد الثقافية ذاتها ككل و/أو في أجزائها المنفصلة، بالإضافة إلى جذور نشأتها وإنتاجها. "تميل الباحثات النسويات المعاصرات المتخصصة في النصوص الثقافية إلى اعتبار المعنى صادرا عبر وسيط ما، وبالتالي يملن إلى دراسة النص والمسارات التي أدت إلى إنتاجه" (Reinharz 1992، p. 145).

وتدرك النسويات أن النصوص لا تنتج داخل فراغ وإنما هي نتاج لزمان ومكان معين بكل ما يتضمنه من تقنيات الإنتاج وإعادة الإنتاج، وإلى التفاوت في إمكانية الوصول إلى هذه التقنيات، وإلى المعايير والقيم الثقافية التي توجه كافة مناحي الحياة الاجتماعية. فعلى سبيل المثال، من المرجح في المجتمع الأبوي أن تحتوي النصوص التي تم إنتاجها في أماكن بارزة داخل هذا السياق على آثار للأفكار متأثرة بعلاقات القوى بين الجنسين فيما يتعلق بالواقع الاجتماعي. "إن المواد الثقافية هي نتائج للنشاط الفردي، والتنظيم الاجتماعي، والتكنولوجيا القائمة والأنماط الثقافية" (Reinharz 1992، p. 147).

ومثلما يمكن للنصوص أن تكون جزءا أساسيا في خلق النظام السائد والحفاظ عليه، كذلك يمكن لها أيضا أن تساعد في مواجهة المعتقدات والممارسات الراسخة. فيمكن للنصوص أن تكون مصادر للمقاومة، بما في ذلك المقاومة النسوية، والتي يمكنها أن تكون جزءا من مشروع للتحليل النصي النسوي.

وفي هذا الصدد تقوم بعض الباحثات بتوظيف التفكيك (deconstruction) من منظور نسوي. فتطرح لوسي أيريجاراي (Luce Irigaray 1985) التفكيكية كمنهج "تنصهر فيه الآلة النظرية" من خلال الكشف عما هو غائب في التمثيل (representation) وما يتم اعتباره أمرا مفروغا منه، وما يحتل موقعا مركزيا مقابل ما يتم دفعه

عنة إلى الهوامش . إن هذه الجهود لا تركز دوماً على التمثيلات السائدة ولكنها قد تتضمن نصوصاً مقاومة ، فمثلاً تكون الثقافة الجماهيرية موقعا للصراع على المعنى كذلك هنالك آثار للمقاومة يمكن تتبعها في أنواع كثيرة من التمثيلات . والنسويات مهتمات بدراسة الصور المتنوعة التي تنشأ بها المقاومة والرؤى النسوية في أشكال تمثيلية مختلفة .

وبينما تشتمل المناهج التي تتم بدون تفاعل بشري على نطاق واسع من الإمكانيات المنهجية ، فإن "تحليل المضمون" كان تاريخياً منهجاً أساسياً من تلك المناهج . وكان تحليل المضمون يشير تقليدياً إلى دراسة النصوص المكتوبة ، وقد كانت هذه الممارسة في أصولها كيفية بطبيعتها ، فكان الباحثون والباحثات يتتبعون أمراً محل اهتمامهم ، كالمصطلحات المتصلة بالنوع أو الأصل ، ما من حيث ظهوره في صحيفة ما . ولكن الكثيرين من الباحثين والباحثات الآن لا يتوقعون أمام فكرة الكيفي والكمي عند التفكير في تحليل المضمون ، إذ يقوم تحليل المضمون بدمج هاتين الفئتين ؛ ولذا يمكن اعتباره منهجاً "هجيناً" (hybrid) . ويمكن تصور تحليل المضمون باعتباره في أساسه منهجاً مختلطاً يمزج بين المناهج في التحليل ، أو باعتباره منهجاً يتضمن دوماً إمكانية التطبيق الكيفي والكمي . وتشير دراسة باور (Bauer 2000) إلى تحليل المضمون بوصفه "أسلوباً هجيناً" كان على الدوام ، حتى عند القيام به كميًا ، مقارنة تكمن فيها سمات التهجين في البحث ، وهو ما يرد في الآتي :

بينما نجد أن معظم دراسات تحليل المضمون التقليدية تبلغ ذروتها في التوصيفات العددية لبعض سمات العمل النصي ، فإنه يتم توجيه قدر من التفكير صوب "الأنواع" و"الصفات" و"الفروق" في النص قبل القيام بأي تصنيف عددي . وبذلك يقوم تحليل المضمون ببناء جسر بين الشكلائية الإحصائية (statistical formalism) وبين التحليل الكيفي

للمواد. إن الفاصل بين ثنائية الكم/الكيف في الأبحاث الاجتماعية يكون تحليل الخطاب أسلوباً هجيناً قادراً على الوساطة (mediate) في هذا الخلاف غير البناء حول الفضائل والمناهج (Bauer 2000، p. 132).

وبصرف النظر عن المدى الذي نصل إليه عند التفكير في تحليل المضمون باعتباره هجيناً أو منهجاً ذا قدرات استقرائية واستنباطية، فإنه ما من شك أن علماء الاجتماع ساهموا بواسطة هذا المنهج في المعرفة ككيان عام وذلك بطرق مهمة تحمل قوة إحصائية ووصفية.

إن العملية التي يختارها الشخص عند استخدام منهج تحليل المضمون تعتمد على سؤال البحث، والأساس الإستمولوجي، والمقاربة المنهجية، ومدى كون مشروع البحث استقرائياً أم استنباطياً (أو كيفياً أو كمياً). إلا أن تحليل المضمون يتطلب عموماً عينة من المادة البحثية التي يتم تقسيمها إلى "وحدات التحليل" (مثل سطور النص، أو مشاهد الفيلم، وغيرها). ثم يتم تكويد المادة، بمعنى تصنيفها ضمن فئات مسبقة أو مستنبطة، والتي قد تكون إما حرفية/محددة أو أكواداً عامة (metacodes) أشمل وذات طبيعة ذهنية. أما نتائج التكويد فتتمثل بطرق عديدة. ويبين الشكل التوضيحي لتحليل المضمون التالي (Content Analysis Flowchart)، والمقتبس من كتاب عن ممارسات البحث الكيفي - (Hesse-Biber & Leavy، The Practice of Qualitative Research، 2006)، نماذج متعارف عليها لتحليل المضمون من المنظورين الكمي والكيفي.

الشكل التوضيحي لتحليل المضمون*

النموذج الكمي (الاستبائي)

1. سؤال البحث والفرضية. (research question and hypothesis)

↓

2. التصور الذهني. (conceptualization)

(ما المتغيرات المستخدمة؟ وكيف يمكن تعريفها؟)

↓

3. الإجراءات التنفيذية. (operational measures)

(تستهدف اكتساب صدق داخلي وصدق ظاهري)

أ. وحدة التحليل

ب. القياس

يمكن للتصنيفات أي تكون: مستنفذة

ومنفردة مقصية لغيرها

أو

”افتراضية“.

4. التكويد (coding)

↓

5. اختيار العينات (sampling)

(اختيار عينة عشوائية كمجموعة جزئية من المضمون)

↓

6. الثبات النهجي. (reliability)

يمكن استخدام: كودين للثبوت ما بين الأكراد

أو

برنامج كمبيوتر للتحقق

↓

7. إذا تم الثبوت يدوياً؛ (الخطوة رقم 6)

فيتم تطبيق اختبار إحصائي. (statistical check)

↓

8. العرض في جداول توضيحية والتمثيل (tabulation and representation)

* مصدر الشكل التوضيحي *The Practice of Qualitative Interviewing, adapted from Neucndork, K. Reprinted with permission*

النموذج الكيفي

(الاستقرائي)

6

ضبط الأكواد

5

ملاحظات

7

تحليل

3

توليد الأكواد

1

مجال الموضوع

2

تحليل المجموعة

8

التمثيل

4

إعاد تحليل المادة

تحليل المادة

الإضافية

التأويل المتجسد

تتعدد مزايا تحليل المضمون بالنسبة للباحثات النسويات من أوجه متنوعة. فقد تستخدم الباحثات النسويات تحليل المضمون لدراسة مدى تناول قضايا النساء والمنظور النسوي في وسيط ثقافي ما، وكذلك طبيعة المضمون (كتب التاريخ الدراسية، والمسلسلات الاجتماعية، والأدبيات الطبية، ... إلخ). كما قد تهتم النسويات باستخدام تحليل المضمون لتناول التنوع والاختلاف في وسيط ثقافي ما.

- إلى أي مدى تكون النساء، أو أي فئة مهورة، مرئية أو غير مرئية في وسيط ما؟
- كيف يتم إضفاء النوع على اللغة في وسيط ما؟ وكيف تستند التمثيلات إلى صور نمطية على أساس النوع أو الهوية الجنسية أو الأصل العرقي؟

هذان مجرد مثالين على الأسئلة التي قد تطرحها محلات المضمون النسويات عند التفكير في استخدام هذا المنهج عند جمع المادة البحثية.

وإذا أخذنا في الاعتبار أنواع القضايا التي قد تهتم بها الباحثات النسويات، فكيف استخدمت الباحثات النسويات هذا المنهج الفريد؟ وكيف يمكن للباحثات النسويات استخدام المواد غير الحية لدراسة العالم الاجتماعي؟ وكيف يمكن للنصوص - بأشكالها المتنوعة - أن تستخدم كنقطة انطلاق لفهم العمليات الاجتماعية ولتوليد نظريات عن الحياة الاجتماعية من منظور نسوي؟ وما فوائد استخدام مواد غير حية في الممارسة والتطبيق النسوي؟

التحليل النصي النسوي

لقد استخدمت الباحثات النسويات تحليل المضمون لأشكال الوسائط الإعلامية المتنوعة لتناول نطاق من الموضوعات التي تقع في القلب من فهمنا للنوع والاختلاف، بالإضافة إلى الأبحاث التي تستهدف إحداث فعل اجتماعي. وفي الواقع قامت الباحثات

النسويات باستخدام تحليل المضمون لدراسة مدى تناول الهموم النسوية بالبحث داخل المجال الأكاديمي .

وهناك تصور طال أمده في أوساط الباحثات النسويات بأن الهموم النسوية تتعرض للتهميش داخل المجال الأكاديمي ، وأن البحث النسوي لا ينال التمويل وفرص النشر بالمعدل الذي تناله الأبحاث غير النسوية ، بما يدفع الباحثات والباحثين إلى النشر خارج إطار الدراسات النسوية . وللأسف فإن كثيرا من هذا الانتقاد ينقصه ما يدعمه إمبريقيا . وفي هذا الصدد قامت دراسة بتحليل مضمون لأدبيات علم النفس المجتمعي (commu-nity psychology) ، لمعرفة مدى وشكل تناول الهموم النسوية في الدراسات المحكمة في هذا المجال (Angelique and Culley 2000) . وباختصار كانت الدراسة تبحث عن المضمون النسوي ، وكان القصد من هذا البحث ملء الفجوة القائمة في المعرفة حاليا بالاستناد إلى سلطة النصوص الموجودة مسبقا . ونظرا إلى أن المادة البحثية هنا تكونت من النصوص المكتوبة فإن هذا النوع المحدد من تحليل المضمون يشار إليه أيضا بمسمى التحليل النصي (textual analysis) .

وقد قامت تلك الدراسة على تحليل مضمون 2178 مقالة منشورة في دوريتين محكمتين في مجال علم النفس المجتمعي . وقامت الباحثتان بتعريف المضمون النسوي (feminist content) تبعا لثلاثة مكونات وهي كالآتي: "1) الوعي بقضايا النوع . 2) الخلل في موازين القوى على أساس تراتبية النوع . 3) التحليل السياقي متعدد المستويات" . (Angelique and Culley 2000، p. 797) . وقد أشارت الدراسة إلى وجود أوجه تقدم ومساحات مثيرة للقلق . فعلى الجانب الإيجابي ، اتضح وجود ميل نحو مزيد من الاهتمام بالقضايا "المتعلقة بالنساء" والنسوية ، ولكن مع ذلك اتضحت كثرة الصور النمطية للنساء وغيرهن من المجموعات المهمشة ، وعلى الرغم من زيادة المقالات التي تدور حول النساء فقد كان وجود النساء عامة غير مرئي في أحيان كثيرة .

إن هذه الدراسة تقدم نموذجاً لكيفية استخدام الباحثات النسويات لتحليل المضمون من أجل تنال التقدم والمشاكل القائمة في مجال الأبحاث المتصلة بالنساء . كذلك فإن استخدام تحليل المضمون سمح بإنتاج مادة إمبيريقية تحمل داخلها بعداً من الأصالة في مجال طالما ظل إلى حد كبير في نطاق التخمين .

كذلك تستخدم الباحثات النسويات التحليل النصي أيضاً في تناول القضايا ذات الأهمية المحورية في حيوات النساء - أي القضايا التي تم وضعها تاريخياً في مكانة غير مرئية داخل الأدبيات الأكاديمية . وفي دراسة تحليل مضمون طويلة (longitudinal) (Hall and Shepherd Stolley 1997) ، الدال (content analysis) ، للزواج والأسرة في الكتب الدراسية في الفترة ما بين عام 1950 وعام 1987 تم تتبع كيفية تمثيل الإجهاض والتبني في هذا النوع من النصوص ، وكيفية تغير التمثيلات بمرور الزمن . ومن خلال استخدام استراتيجيات التأكيد الكمية والكيفية في آن ، قامت الدراسة بتناول مدى التغطية التي تمت لهذين الموضوعين في تلك النصوص ، كما تمت تحليل للأفكار الرئيسية (thematic analysis) لتتبع نوع التغطية . وقد ورد شرح لأهداف البحث مفاده: ”إن هذا البحث يسعى لتحديد ما إذا كانت أنواع التصوير التي نجدها على مر الزمن تعكس التغيرات في المضمون المجتمعي للإجهاض والتبني باعتبارهما قضيتين اجتماعيتين“ (Hall and Shepherd Stolley 1997 ، p. 74) .

إن إدماج المنظور النسوي وتوظيفه في هذا البحث أثر في أنواع الموضوعات والأفكار الرئيسية التي خرجت من المادة البحثية . فقد أشارت الدراسة إلى أن موضوع الإجهاض لاقى تغطية أكثر بقدر ملحوظ من موضوع التبني ، ولكن العنصر الكيفي في هذا البحث ساعد على تسليط الضوء على أن طبيعة تصوير الإجهاض اختلفت بعد جعل الإجهاض قانونياً . كما اتضح في البحث أن المنظور النظري الوظيفي (functional-ist) ، يسود تلك النصوص ، وهو منظور كثيراً ما يحذف أصوات النساء والتجارب الشخصية ، مع إعلاء مثل الأسرة النووية بينما يقدم صورة سلبية للأسر ”البديلة“ ،

ويتعامل مع الإجهاض باعتباره انحرافاً. إن التحول الذي حدث بعد قضية (Roe v. Wade)، مع تأكيد المنظور الوظيفي، يشير إلى أن القوى الاجتماعية والعقابية فاعلة وبالتالي تعمل على تشكيل المنظور الذي يتم من خلاله تأليف تلك الكتب. ومن الأمور ذات الأهمية الخاصة بالنسبة للباحثات النسويات هو مدى تهميش المنظر النسوي في تلك الكتب، وهي مسألة بالطبع جديرة بالملاحظة من منطلق كون تلك الموضوعات تعتبر موضوعات تركز على النساء. وفي هذا الصدد نجد الآتي:

إننا نرى أن النظرية الوظيفية (functionalism) قد أصبحت جزءاً من ظواهر الحياة الأسرية ذاتها بدلاً من أن تكون مجرد منظور واحد من بين العديد منها المستخدم عند دراسة الحياة الأسرية. إن اعتبار المنظور الوظيفي أمر مفروغ منه يميل إلى تقليص إمكانيات إدخال أكثر من منظور متنوع إلى دراسات الأسرة (family studies). وقد تم في التخصصات التي تمتد بجذورها في المنظور الوظيفي دمج المنظور النسوي والمنظور متعدد الثقافات (multi-cultural)، ولكنهما أقرب إلى التعرض للعزلة والتقييد... أو التهميش.... ومع أن المنظور النسوي والمنظور متعدد الثقافات بشأن الحياة الأسرية هما منظوران متاحان بالفعل، فإننا نعتقد أن تأثيرهما علينا كباحثات وباحثين ومدرسات ومدرسين ربما يظل قاصراً ومحدوداً إلى أن تتطور النظريات النقدية التي تواجه صدارة "الأسرة التقليدية" لدى الوظيفيين لتصبح أكثر انتشاراً وقبولاً واعترافاً بها (Hall and Shepherd Stolley 1997، p. 81).

وبالإضافة إلى شرح كيفية تعرض المنظور النسوي في هذا المجال للتهميش، سعت الدراسة أيضاً إلى تسليط الضوء على التفاعل القائم بين الروى النظرية والممارسات البحثية.

ويوجد العديد من الأمثلة على النسويات القائمت بالتحليل النصي للنصوص الجماهيرية لدراسة المنظور الذي يتم تأكيده أو تهميشه في نصوص معينة. فعلى سبيل المثال قامت دراسة مضمون طويلة بتحليل مجلة سفنتين (Seventeen Magazine) الصادرة في الفترة ما بين عام 1945 وعام 1995، وذلك لتحديد أثر الحركة النسوية على هذه المطبوعة في لحظات مختلفة من الزمن (Schlenker، Caron and Halt- man 1998). كذلك قامت دراسة بتحليل مضمون للكتب الدراسية عن تاريخ العالم لبحث عدة جوانب من المضمون الذي يتناول النساء (Commeyras and Alver-mann 1996). وهناك دراسة لتحليل مضمون الكتب الدراسية الأمريكية في مدخل إلى العمل الاجتماعي، وذلك لتتبع مدى احتوائها على أبحاث نسوية وراديكالية ومناهضة للعنصرية.

إن التحليل النصي النسوي منهج مهم لأن الباحثات والباحثين يميلون عند استخدام منظور نسوي إلى طرح أسئلة بحث مختلفة ويتناولون المادة البحثية بشكل مختلف ويستخدمون النتائج المعرفية لإحداث تغيير فكري واجتماعي وسياسي.

وتتناول الباحثة سهيلة كيركا شرودر (Suheyra Kirca Schroeder) بعض تلك القضايا، بما في ذلك النظر إلى النساء باعتبارهن منتجات للثقافة الجماهيرية لا مجرد مستهلكات لها، بالإضافة إلى موضوعات حيوية أخرى نتعرف عليها في المقطع التالي من "ما وراء الستار".

ما وراء الستار مع سهيلة كيركا شرودر

مقاربة منهجية لدراسة النسوية والثقافة الجماهيرية:

حالة المجلات النسائية

لا يوجد اتفاق متعارف عليه بشأن الأمر الذي يشكل النسوية بوصفها نظرية وممارسة، أو الأمر الذي يشكل البحث النسوي. إذ نجد مقاربات متنوعة لدراسة ومواجهة عدم المساواة في النوع في العالم الاجتماعي. وبما أن عملي البحثي ينتمي إلى مجال الدراسات الثقافية، فإنني أقوم بتوظيف مقاربة الدراسات الثقافية لدراسة برمنجهام في دراسة النوع والإعلام والثقافة المعاصرة. فطبقاً لهذا المنظور يتم النظر إلى النصوص الإعلامية باعتبارها مواقع مركزية للتفاوض حول النوع، كما أنها تتسع للتمثيلات الثقافية المتناقضة للنوع، وحيث يتم تعديل تلك التمثيلات وإعادة تشكيلها وإعادة إنتاجها. وتعتبر النصوص الإعلامية مجالا للصراع والخلاف. فإذا تبيننا هذا الموقف فإن النصوص الثقافية تبدو مهمة بالنسبة للتحليل النسوي لقربها من عمليات إنتاج المعاني السائدة وتعزيزها بشأن فئتي الرجل والمرأة والاختلاف الجنسي. إلا أن أوجه الخلاف حول تلك المعاني لا يمكن النظر إليه كمجرد تمثيلات نصية لعلاقات النوع في أشكال معينة من الثقافة الجماهيرية، وإنما هي تحمل أهمية أيضاً "في حيات النساء والرجال الذين يستهلكونها ويستخدمونها ويستوعبونها في سياقات ممارساتهم وعلاقاتهم الاجتماعية اليومية" (Roman & Christian-Smith 1988، p. 4). إن الأشكال الثقافية تبدو بالتالي مصادر مهمة لتوفير السياقات التي تضم علاقات القوى المتصارعة التي تتعرف داخلها النساء والرجال على أدوارهم في إطار عملية التحول إلى الأنوثة والذكورة.

فكيف يمكننا دراسة هذه النصوص الثقافية التي تتضمن تمثيلات متعارضة ومتناقضة للرجال والنساء؟ أرى أن علينا الاقتراب من الموضوع بشكل يمكننا من دراسة الكيفية التي يتم بها إعادة إنتاج الذوات على أساس النوع، ومعرفة الطرف الذي يقوم بإعادة إنتاجها، والجهة التي يحقق ذلك مصالحها، وكيفية تشكيلها. وأود أن أطرح منهجية لدراسة تمثيلات هويات النوع التقليدية وكذلك الصور والقيم النسوية التي يتم التعبير عنها وتشكيلها و(إعادة) تعريفها في شكل ما من أشكال الثقافة الجماهيرية، أي المجلات النسائية. (ملحوظة: لقد استخدمت، في الواقع، هذه المنهجية في إحدى دراساتي التي قمت فيها بتتبع التبادل الحيوي بين السياسات النسوية ومصالح النساء السائدة أو الاستهلاكية، وفحص العلاقة بين مفهومي النسوية (feminism) والأنوثة (femininity) في المجلات النسائية المعاصرة. (انظر/ي: Kirca 2011).

إن المنهجية مشتقة من النظرية النقدية النسوية والدراسات الثقافية، وهي في الأساس كيفية بطبيعتها وتتضمن السيميولوجيا (semiology) وتحليل الخطاب والتحليل النفسي والمقابلات محكمة البناء. كما أقوم بتطبيق تحليل المضمون على النصوص المكتوبة. إن السبب من وراء القيام بتحليل المضمون يتمثل أولاً في التعرف على الموضوعات الواردة في المجلات النسائية ومدى تكرارها. والأمر الثاني وهو الأهم واكتشاف كيف تعمل هذه الموضوعات كأنظمة دالة (signifying systems) وحاملة لأيديولوجيا معينة، وكيف تتعامل تلك الأيديولوجيا مع تشكيل الأنوثة والمفاهيم والصور النسوية المعاصرة. إن هذه المنهجية تتيح لنا دراسة الطرق المختلفة التي يتم بها إدماج القيم النسوية والنقاشات الأوسع عن الأدوار غير التقليدية للنساء، وتناولها في المجلات النسائية الوطنية التي تتسم بارتفاع معدلات التوزيع.

وبينما يلقي تحليل المضمون قبولا في مجال العلوم الاجتماعية، فإنه لا توجد قواعد ثابتة تحدد إطاره. إذ تتنوع الأشكال والوحدات ومستويات التحليل ما بين نص وآخر، بناء على الهدف من البحث. وما أقصده أنا من استخدام تحليل مضمون المجلات النسائية هو إنتاج قاعدة كمية للتحليل الكيفي. فهو يقوم بتجميع مواضع التكرار في خصائص المضمون المختلفة -من مفردات أو نصوص- وبالتالي يحدث على المستوى السطحي. وهو منهج يساعد في التعرف على القضايا التي يتم تناولها أو تجاهلها في مجلات بعينها. أما المنهج الكيفي، على الجانب الآخر، فيتيح دراسة مستويات أعمق من المعنى ويهتم بصورة أكبر بالمضمون كوسيط أو عاكس للظواهر الثقافية الخفية. كذلك فإن هذا المنهج الكيفي يسمح بتحليل أعقد للأفكار الرئيسية على مستوى النص الفرعي (sub-textual). ولكن هنالك تداخلا ما بين المنهجين، وهو الأمر الذي نأمل في أن يأتي بنتائج جديدة.

إن المعلومات الإحصائية بشأن عدد الدوريات النسائية الحالية ومعدلات توزيعها هي من الأمور التي يتم أخذها هي الأخرى في الاعتبار. فهي أرقام تمكنتنا من رسم صورة لحجم السوق وموقع المجلات التي نحن بصدددها داخل النطاق الواسع الذي يضم كافة المجلات النسائية المتاحة الأخرى. إن التوقف أمام النصوص القائمة داخل أسواق بعينها وآليات إنتاجها قد يساعدنا "في توضيح السمات وآثار النصوص التي قد تغيب عن التحليل النصي أو يتم تقليل أهميتها فيه" (Douglas Kellner 1995، p. 9). إن إنتاج وتوزيع وبنية السوق هي الأمور التي عادة ما تحدد نوع النصوص الثقافية التي يتم إنتاجها والحدود الموجودة في بنيتها.

ولا يمكن تحليل أي منتج ثقافي أو تمثيلات إعلامية بمعزل عن السياق

الأعم للملكية والسيطرة التحريرية على المنتجات الإعلامية. ومن هنا يتم عقد مقابلات مع محررات المجلات النسائية ليقدمن آراءهن حول المجلات النسائية والقضايا النسوية. ويتم استخدام المعلومات الواردة في المقابلات جنباً إلى جنب التحليل النصي للمجلات النسائية؛ لمعرفة مدى التداخل بين ما تقوله المحررات والمضمون الفعلي للمجلات، بالإضافة إلى مدى تأثيرهن في صياغة مضمون المجلات وما الذي يمكن أن تحمله خصائصهن واستراتيجياتهن من دلالة على مستقبل المجلات النسائية من منظور السياسات النسوية.

إن المنهجية المقترحة هنا تشير إلى قضية مهمة للغاية في النظرية النسوية. فترات التحليل النصي وتحليل الاستجابة (reception analysis) يضع النساء في موضع المستهلكات للثقافة الجماهيرية، وبالتالي فإن هذه المقاربة لا تقتصر على دفع النساء المتزايد نحو قضايا المتعة والاستهلاك وإنما تحافظ أيضاً على الفجوة القائمة بين الأنوثة والذكورة: "هنالك عدد لا نهائي من النقاد... ممن يصرون على معادلة الأنوثة الاستهلاك والقراءة من جانب، والذكورة والإنتاج الكتابية من جانب آخر" (Modleski 1986، p. 41). وفي سبيل مواجهة هذه الثنائيات أو التأسيس لعلاقة مثمرة بين النساء والمنتجات الثقافية، فمن الضروري للنقد النسوي التفكير في تجارب النساء باعتبارهن ينتجن المعاني الثقافية. إن هذه المقاربة النسوية للثقافة الجماهيرية والنوع تساعد في فتح نصوص الثقافة الجماهيرية أمام نقاش أوسع، من خلال تحويل التركيز من الاستهلاك إلى الإنتاج بما يسمح بقيام طرق أكثر فاعلية في توصيل السياسات النسوية وتطوير النظريات التي تتناول تجارب النساء باعتبارهن منتجات ومستهلكات في آن للمعاني الثقافية.

تحليل المضمون البصري النسوي

• ما تحليل المضمون البصري؟

• ما الذي تكشف عنه الصور بشأن كيفية النظر إلى النساء والرجال في زمان ومكان معين؟

إن تحليل المضمون البصري (visual content analysis) يتضمن دراسة الصور المرئية. وأنواع الصور التي يمكن أن تقوم بدور المادة البحثية متنوعة وتتضمن الصور الفوتوغرافية والفنون والصور المصنوعة بالكمبيوتر. إن للثقافة نطاقاً مرئياً واسعاً من الصور التي يمكن من خلال تزايد تقنيات الإنتاج وإعادة الإنتاج أن تتسرب إلى مساحات ثقافية عديدة. ويمكن لدراسة هذه الصور أن يساعدنا في فهم التمثيل المتباين (differential representation). فعلى سبيل المثال يمكن للصور التي تتم بواسطة وسائل الإعلام، كتلك الموجودة في المجلات، أن تكشف عن الكثير من أنواع الجسد المثالي بالنسبة للنساء والرجال في مختلف المجموعات العرقية. فإذا كان لنا كنسويات أن ندرس مجلات تربية الأطفال للتعرف على كيفية تمثيل البنات والأولاد، فإذا كنا مهتمات بدراسة مجلات الموضة للتعرف على كيفية تمثيل النساء، فقد نتوقف أمام بعض الخصائص التالية: الوقفة، والموقف، والبروز في الصورة، والأدوار، والملابس، والهيئة، ومركزية كل شخص، والأصل العرقي وما إلى غير ذلك. وبالنظر إلى بعض الأمثلة على تحليل المضمون البصري النسوي يمكننا أن نكتسب فهماً أعمق لأسباب وكيفية دراسة النسويات للصور البصرية.

وقد اهتمت دراسة بالتغطية الفوتوغرافية الصحفية للاعبات واللاعبين الرياضيين في المدارس الثانوية. وقد وضعت الدراسة تصوراً بأن الإعلام والرياضة هما "المؤسستان الاجتماعيتان الأعلى مكانة والأكثر هيمنة" (Pederson 2002، p. 304). وقد سعت الدراسة إلى مقارنة أخبار التغطية الرياضية للرياضات التي يقوم

بها الرجال والنساء وذلك لدراسة مدى تصوير الذكورة المهيمنة في التغطية الرياضية بالصحف . وقد استعانت الدراسة بعدد 827 صورة فوتوغرافية من عدد 602 صحيفة تم اختيارها بشكل عشوائي ، ثم دراسة كمية الصور وأنواعها المستخدمة في تغطية الأخبار الرياضية للرجال والنساء . واستخدمت الدراسة "التحليل الوصفي" للصور للتحقق من المعلومات من حيث ما إذا كانت الصور تنقل لحظة ثبات أم حركة ، وهي مسألة بالغة الأهمية في دراسة النوع والتمثيل الإعلامي . وقد توصلت الدراسة إلى وجود عدم مساواة في التغطية الرياضية عبر حدود النوع ، وأكدت على أن التغطية الفوتوغرافية تعزز الذكورة المهيمنة . وقد أتاح تحليل المضمون البصري في هذه الدراسة طرح أسئلة وإجابات بحث عن عدم المساواة الاجتماعية في شكل ما كان ليتمكن الوصول إليه باستخدام منهج مغاير .

ونقدم هنا مثالا على كيف يمكن استخدام الصور الإعلامية كنقطة انطلاق في البحث . فحين قيامك باتخاذ قرار بشأن موضوع الدراسة والمادة المستخدمة تصبح خطة البحث بالغة الأهمية في إطار ممارسة الدراسات البصرية . إن عملية التحليل على وجه الخصوص تتضح جليا في هذا النوع من مشروعات البحث . وتوجد استراتيجيات كيفية عديدة يمكن للباحثين والباحثات استخدامها في تكويد المادة البصرية ، فكما رأينا في الدراسة أعلاه (Pederson 2002) ، إن الأكواد مثل "لقطة ثابتة" أو "لقطة متحركة" قابلة للتطبيق ، كذلك فيمكن للباحثات النسويات المهتمات بمسألة تمثيل الاختلاف وضع أكواد لكل من النوع والأصل والجنسانية وغيرها من السمات الاجتماعية . وهو مسار يمكن أن يتم من خلال مقارنة استقرائية حيث تنشأ الأكواد وتتطور من التحليل نفسه ، أو مقارنة استنباطية يتم فيها الاستعانة بأكواد مسبقة للفئات المتنوعة .

ويكثر استخدام تحليل المضمون البصري من خلال منظور نسوي لدراسة تمثيل النوع في كتب الأطفال والكتب المدرسية ، وهما عنصران تعترف النسويات بأهميتهما في التربية وبناء الهوية . وقد قدمت هذه الدراسة أدلة إحصائية ووصفية تثبت أن كتب

الأطفال بالفعل كثيرا ما تعتمد على تنميط الجنسين . ونجد أن دور النشر هي الأخرى تأثرت بالتحليل النسوية ، وهو ما نراه في قول دور نشر ماكميلان: ”الأطفال لا يتعلمون مجرد الحساب والقراءة ، وإنما هم يتعلمون أيضا ، وأحيانا بشكل ضمني ، نظرة المجتمع إلى بعض المجموعات البشرية“ (Britton & Lumpkin ، quoted in Evans & Davies 2000 ، p. 256).

• إذا كانت الصورة الواحدة أكثر تعبيراً عن ألف كلمة ، فما أنواع الصور الحاملة رسالة عن النوع والتي يتعرض لها الصغار خلال فترة بنائهم لهوياتهم الذاتية؟

وفي بحث تناول تمثيل الذكورة والأنوثة في الكتب المدرسية للمرحلة الابتدائية ، قامت الدراسة على ثلاثة أهداف مبدئية: لقد انطلقنا في بحثنا هذا للإجابة على ثلاثة أسئلة . أولاً: هل يتم تصوير الذكور في الكتب الدراسية بصورة يخطون فيها الحدود التقليدية للذكورة؟ وبمعنى آخر ، هل يتم تصوير الذكور حاملين الخصائص النمطية للذكورة والأنوثة؟ أم هل يتم -على الأرجح- تصوير الذكور في كتب القراءة المدرسية للمرحلة الابتدائية حاملين خصائص ذكورية فقط؟ ثانياً: هل يوجد اختلاف بين اثنتين من كبريات دور النشر في كيفية تصوير الذكور في إصداراتهما من الكتب المدرسية؟ وهل يمكن أن يكون أحد الناشرين يقدم الذكور في صورة أكثر تنميطة مقارنة بالآخر؟ ثالثاً: هل يوجد تنوع في تصوير خصائص الذكورة والأنوثة تبعاً للسنة الدراسية؟ (Evans and Davies 2000).

ونتائج هذه الدراسة ذات أوجه متعددة ، كما أنها توضح مجالا ما زال يتطلب إحداث تغيير اجتماعي فيه - تغيير يمكن الدفع به من خلال نتائج الدراسات الشبيهة بتلك التي بين أيدينا:

بالرغم من أن نتائج بحثنا تشير إلى عدد أكبر من المساواة العددية بين الذكور والإناث المصورين في الكتب المدرسية مقارنة بالدراسات السابقة، فإن الصورة التي يتم بها تصوير الذكور والإناث من خلال السمات الشخصية ما زالت تحمل تمييزاً جنسياً. إذ يزيد بقدر بالغ تصوير الذكور حاملين سمات العدوانية والمجادلة والتنافس، بينما يميل تصوير الفتيات إلى تقديمهن حاملات سمات العاطفية والتعبير عن المشاعر والسلبية. وهي نتائج تتعارض مع التوقعات التي وضعتها تعليمات دار النشر تلك ضمن جهودها لخلق كتابة لا تحمل تمييزاً جنسياً في الكتب الدراسية. (Evans & Davies 2000، pp. 268-269).

وتوضح هذه النتائج مدى أهمية مواصلة البحث النسوي مساره في أي مجال كان، إذ إن "اكتشاف" ما تحويه كتب الأطفال المدرسية من تمثيلات بها تمييز جنسي لم يكن كافياً لتغيير الوضع بأكمله، ولا يتحقق ذلك من خلال "تعهد" الناشرين بالقضاء على هذا الاختلاف. ومن هنا تتضح الأهمية البالغة لمواصلة البحث النسوي القابل للتطبيق في القضايا الاجتماعية. كذلك توجد أنواع أخرى من الكتب الدراسية التي تتضمن صوراً فوتوغرافية يمكن تناولها بمنهج تحليل المضمون. فعلى سبيل المثال قامت دراسة بتحليل مضمون الصور الفوتوغرافية لمعرفة كيفية تصوير النساء فيما يتصل بالجنسانية والزواج في الكتب العائلية. (Low and Sherrard 1999) (family textbooks). وقد ركزت الدراسة تحديداً على الصور البصرية الواردة في الكتب الدراسية لما تحمله من سلطة، إذ قد ينظر إليها القراء باعتبارها لقطات من الواقع.

تحليل المضمون السمعي-البصري النسوي

إننا نحيا في مشهد ثقافي عام تتدفق فيه باستمرار الروايات السمعية-البصرية (audio-

(visual narratives) ، الآتية من أجهزة التلفاز وشاشات السينما . ويتبدى لنا مضمون تلك الروايات من تفاعل أو تداخل العناصر البصرية والسمعية والنصية . وإذا أخذنا في الاعتبار الطبيعة الاعتيادية للمواد السمعية-البصرية في حيوات الناس اليومية ، فإننا نجد أن للنسويات مصلحة حقيقية في دراسة كيف تقوم الأنواع الفنية المختلفة من برامج التلفزيون والأفلام بتصوير النساء والملونين والملونات والأقليات الجنسية .

• كيف يتم تصوير البنات والنساء في أخبار المساء أو الحلقات الاجتماعية أو المسلسلات الدرامية؟

• ما الذي تشير إليه اللقطات البصرية وحركة الكاميرا وزاوية التصوير والحوار بشأن الشخصيات من الإناث في مقابل الذكور؟

• هل توجد قطيعة بين الحوار والصورة ، وفي تلك الحالة ما طبيعة الرسائل المختلطة التي تصلنا منها؟

إن الأسئلة السابقة هي مجرد خطوة أولى لمعرفة الأسباب التي قد تجعل الباحثات النسويات مهتمات بتحليل مضمون النصوص السمعية - البصرية . فللمادة السمعية-البصرية خصائصها المعينة التي تجعل تناولها ذا خصوصية وأهمية بالنسبة للباحثين والباحثات ، بما فيهم بالطبع الباحثات النسويات ، ممن يحملن همومهن الخاصة إلى مشروع البحث .

فالمادة السمعية-البصرية فريدة لأنها تتضمن مكونات متعددة ، كل في وسيطها أو لغتها الخاصة ، بما في ذلك الجانب البصري والصوت والحوار . كما يتزايد تعقيد المادة نظرا لكونها متحركة (Hesse-Biber & Leavy 2006 ، p . 304) . وقد قامت دراسة روز (Rose 2000) بتصوير النصوص السمعية-البصرية باعتبارها "مجالات متعددة" لأنها تتضمن أشكالاً نصية مميزة ومتداخلة (السمعية والبصرية والرواية النصية/الحوار) . وإن تحديد وحدة التحليل واستراتيجية التكويد هما القضيتان الأساسيتان اللتان تظهران على السطح عند تناول المادة البحثية المعقدة الموضحة أعلاه .

وتشير وحدة التحليل (unit of analysis) إلى كل جزئية (segment) من المادة السمعية-البصرية التي سيتم دراستها وتكويدها. ولا يوجد منهج واحد يناسب الجميع في تعريف وحدة التحليل، ولكن منها تغيير المشهد أو تغيير الكاميرا. فكما هو الحال دوماً، يجب على الإجراءات المتبعة أن تتناسب أهداف البحث. والنسويات اللاتي ينصب اهتمامهن على طريقة تصوير أجساد النساء (من حيث الزوايا والإضاءة والتجزيء،... إلخ) قد يجدن في تغيير الكاميرا نقطة فاصلة مناسبة لجزئيات المادة البحثية، إذ يقوم التحليل بتتبع الكاميرا على مستويات عدة. وعند التوقف أمام هذا الجانب من خطة البحث، سيكون عليك أيضاً صياغة تعريف عملي للمقصود من مصطلحات "تغيير المشهد" أو "تغيير الكاميرا" في دراستك تحديداً.

إن تكويد المادة السمعية-البصرية يحمل تحديات وأموراً كثيرة بسبب طبيعة المادة متعددة الحقول (multifield). ومن الأمور التي يتعين التوقف أمامها ما يلي:

- هل سيتم تكويد كل "الحقول" (الصوت والصورة البصرية والحوار)، أم ستكون الدراسة أكثر تركيزاً وتحديدًا لمجالها؟ وماذا عن اللون، والحالة المزاجية؟ جودة الفيلم/قوامه؟ وغيرها من أجزاء المادة الأكثر "تجريدًا"؟
- هل سيتم النظر إلى المادة في مجملها قبل تكويد كل وحدة تحليل، وإذا كان الأمر كذلك، فهل ستؤثر هذه الخطوة المبدئية على فئات التكويد؟ وهل سيتم تدوين ملاحظات موجزة؟
- هل سيتم وضع "الحقول" المتعددة تحت رمز كودي واحد مثلما تظهر في النص؟ أم سيتم تكويدها منفصلة؟ وما الإجراءات التي ستلي ذلك؟
- كيف سيتم تكويد النوع والاختلافات الجنسية والعرقية؟

وبالإضافة إلى التعقيد القائم في المادة، لابد للمرء من تحديد مدى كون التكويد استنباطياً أم استقرائياً. وتستخدم النسويات مقاربات تتراوح ما بين تلك بالغة الاستنباط

وبين باللغة الاستقراء تبعا لأهداف البحث والموقف الإستمولوجي . وبينما تقوم الباحثات النسويات بأبحاث ذات بعد سياسي واجتماعي ، ويسعين إلى إدخال أنفسهن كطرف فاعل داخل مشروعاتهن البحثية ، فإن اختيار أسلوب التكويد يتأثر بأمور عدة . فعند التفكير في إجراءات التكويد الاستنباطي والاستقرائي يكون من المهم إدراك أنه ليس قرارا يقوم على أساس إما/أو ، لأن مقاربات الاستنباط والاستقراء موجودان على خط واحد طويل وممتد (Hesse-Biber & Leavy 2006 ، p . 306) ، وهو ما تناولناه في هذا الكتاب ضمن الجزء الخاص بالإستمولوجيا . كذلك فإنه يمكن استخدام مقاربات الاستنباط والاستقراء "بدرجات" متنوعة أو بالمزج بينهما .

وتعتمد مقاربات الاستنباط (deductive approaches) على فئات التكويد المسبقة ، فعلى سبيل المثال إذا افترضنا اهتمامك بمراجعة موضوع بحثي ما سبق وأن خضع للدراسة ، فتكون المراجعة لمعرفة ما الذي يكشف عنه المنظور النسوي بشأن موضوع ما قد سبق تناوله بالدراسة بواسطة باحثين غير نسويين ، و/أو لرغبتك في معرفة كيف تتغير مسألة ما بمرور الزمن . ولناخذ تصوير النساء في تسجيلات الفيديو الموسيقية (music videos) على سبيل المثال . فقد أوضحت دراسة تمت في بداية التسعينيات من القرن العشرين وجود عدة أنماط لكيفية تصوير النساء في تسجيلات الفيديو تلك ، بما فيها ودون أن تقتصر على تجزئ أجساد النساء: التصوير من زاوية سفلية أو عليا ، ولقطات الكاميرا الأفقية الواسعة ، والنساء المرتديات أنواعا معينة من الملابس ، بما في ذلك الملابس الداخلية ، وتصوير النساء في أدوار بعينها بما في ذلك المغنيات الإضافيات البديلات ، وصديقات الفنانين الموسيقيين ، والعاهرات ، والنساء المسيطرات ، وعارضات الأزياء (Jhally & Bartone 1991) . إن الباحثة النسوية ، وربما الإمبيريقية النسوية ، المهتمة بكيفية تصوير النساء في نفس المجال الفني ولكن بعد 10 سنوات ، قد تقوم بإعداد قائمة تصنيفات الأكواد بناء على الأبحاث السابقة (أكواد استنباطية) وربما معها بعض التصنيفات الإضافية (الاستنباطية أيضا) من منطلق البحث

النسوي ، ثم تقوم بتكويد عينة من تسجيلات الفيديو تبعا لعدد المرات التي يرد فيها كل كود. والباحث أو الباحثة الاستنباطيان المهتمان بالنتائج "غير المتوقعة" قد يضيفان تصنيفات استنباطية إضافية تظهر على السطح خلال عملية التكويد، وقد تتبع التكويد الاستنباطي بمقاربة استقرائية لمعرفة كيف تختلف التصنيفات فيما بينها.

أما المقاربات الاستقرائية للتكويد، والتي عادة ما يتم استخدامها من منظور قاعدة نظرية ما، فتتيح للباحثة أو الباحث تطوير تصنيفات مشتقة مباشرة من المادة البحثية خلال عمليتي التكويد والتحليل. وبمعنى آخر فإن التصنيفات تظهر من خلال غربلة المادة البحثية، هي مقارنة تسمح للباحثات والباحثين استخدام لغة النص نفسه والمساهمة في خروج المادة، وهي سمة تعجب النسويات اللاتي يجذبهن الجانب الطبيعي القائم في النصوص الموجودة مسبقا. كذلك تتماشى المقاربات الاستقرائية مع الباحثات النسويات اللاتي يواجهن المقاربات الوضعية تجاه بناء المعرفة، ومنهن الباحثات اللاتي ينطلقن من منظور ما بعد الحداثة النسوية والموقعية النسوية.

وكما سبق ذكره في بداية هذا الجزء، توجد لدى الباحثات النسويات أسباب عديدة للقيام بتحليل المضمون السمعي-البصري. ومن الأسباب العامة لهذا النوع من الجهد هو اهتمام النسويات بما يطلق عليه "الإبادة الرمزية" للنساء في التلفزيون (والسينما) (Tuchman ، Daniels ، and Benet 1978). وهو وصف يشير إلى الإقصاء العام للنساء والتمثيلات المشوهة والنمطية التي يتم فيها تغييب منظور النساء. ومن منطلق الاهتمام بالتغيرات في "الإبادة الرمزية" للنساء في فترات ذروة المشاهدة التلفزيونية، قامت دراسة تحليل مضمون طويلة لبعض أبرز الشخصيات التلفزيونية في برامج أوقات الذروة (prime-time) في الفترة ما بين عام 1967 وعام 1998 (Signo- 1998) (relli and Bacue 1999)، وقد أشارت الدراسة إلى بعض التغيرات الإيجابية في التمثيل (representation) مع استمرار مشكلة قلة التمثيل أو سوء التمثيل. فقد تزايد عدد النساء على شاشة التلفزيون، ولكن عددهن ما زال أقل من عدد الرجال، كما

أن النساء يبدون أصغر سنا من الرجال ، ولكن قل ظهور النساء يقمن بأعمال "أنثوية" تقليديا ، وصرن يظهرن بدرجة أكبر في أعمال "ذكورية" أو محايدة من حيث النوع . إن هذه النوعية من الأبحاث المطولة مهمة لتعارضها مع التصور السائد لدى الجمهور العام بحدوث "تغير كبير" ، في حين أنها تتيح لنا التعرف بدقة عما تحسن بالفعل وما الذي ما زال يتطلب المزيد من التحسين .

الخاتمة

إن تحليل المضمون منهج فضفاض يمكن استخدامه من منظومات كمية أو كيفية ، ومن نطاق المنظر النظري ، بالاستعانة بخطط أحادية المنهج أو متعددة المناهج ، وبحيث تخدم مجالا واسعا من أسئلة البحث وأهدافه . ففي المساحة المتسعة لتحليل المضمون ، يلعب البحث النسوي دورا مهما للغاية في كيفية القيام بدراسة العالم الثقافي وفهمه . وتستخدم النسويات تحليل المضمون من أكثر من منظور ، ولكن بصرف النظر عن تعدد المشروعات التي يمكنهن استخدام تحليل المضمون فيها يظل المنظور النسوي في قلب العمل البحثي . إن تحليل المضمون الذي تقوم به النسويات ألقى بالضوء على أبعاد النوع في الثقافة عامة والثقافة الجماهيرية تحديدا . وتطرح النسويات أسئلة عن التمثيل ، والتنميط ، والصور المبالغ فيها ، واللغة ، وغيرها الكثير ، من أجل فهم العلاقة بين حيوات النساء والرجال والبيئات النصية (textual environments) التي يخلقونها ويسكنونها . ونظرا لاهتمام النسويات أساسا بالنساء وغيرهن من الفئات المهمشة ، فنجدهن يطرحن أسئلة خاصة بالثقافة الجماهيرية بأشكال ما كان في الإمكان طرحها من منظور سوى المنظور النسوي . وكما تشير العينة البسيطة من الدراسات المذكورة في هذا الفصل ، فإن المعرفة المشتقة من تلك الجهود البحثية أضافت الكثير إلى فهمنا لعدم المساواة بين الجنسين ، والسلطة الاجتماعية ، والفرضيات التي تعتبر أمرا مفروغا منه بشأن الأنوثة والذكورة .

وبالإضافة إلى اكتشاف التمثيلات السائدة للنوع والتي تتدفق من داخل البناء الاجتماعي الأبوي والنظرية الأبوية للعالم ، يمكن للنسويات استخدام تحليل المضمون لدراسة أو الكشف عن إمكانيات المقاومة في الثقافة الجماهيرية. إن الصور المبالغ فيها التي تقوم بتنميط النساء ، وغيرهن من الأقليات ، والتعامل معها على أساس جنسي وعنصري وتناولها باعتبارها أشياء ، هي الصور التي تحتل دورا بارزا في الثقافة الجماهيرية المعاصرة وتلقى قدرا من الاهتمام من الباحثات النسويات ، إلا أن النسويات وغيرهن من الباحثات والباحثين النقيدين ، مثل أولئك العاملين في مجال الدراسات الثقافية ، يقومون هم أيضا بالكشف عن مدى إمكانية أن تكون الثقافة الجماهيرية موقعا لمقاومة القوى الأبوية وغيرها من القوى الهدامة. فعلى سبيل المثال ، نجد أن حملة شركة مستحضرات التجميل "دوف" (Dove) المسماة "حملة الجمال الحقيقي" قد لاقت اهتماما إعلاميا ملحوظا كحملة إعلانية تهدف إلى تغيير معايير الجمال الأنثوي المستحيلة عبر صور تتسم بقدر أكبر من التعددية والواقعية. وهو مجرد مثال واحد صغير على إمكانيات المقاومة التي تحملها الثقافة الجماهيرية: وهو مجال يمكن فيه الكشف عن الأفكار السائدة بشأن الأنوثة والجنسانية والأصل ، وكذلك مواجهة تلك الأفكار وتغييرها.

إن التطورات التكنولوجية ، بما في ذلك ظهور الإنترنت ومكوناته المتزايدة باستمرار (البرونوجرافيا الافتراضية ، وخدمات المواعدة الإلكترونية ، والغرف النقاشية (chat rooms) ، والمنتديات (message boards) ، والصور الإلكترونية (clip art) وغيرها) ، بالإضافة إلى الصور الرقمية وما شابه ذلك ، أدت كلها إلى تغيير الحيز الثقافي وبالتالي وفرت فرصا مهمة لنشأة صور وروايات جديدة قد تواجه الأبوية أو تعززها. وتتناول دراسة مثلا كيف أصبح للصور المولدة بالكمبيوتر وجود متزايد في بيئات العمل التجاري والتعليم. (Carney and Seidman Milburn ، Ramirez 2001). فعلى سبيل المثال يكثر استخدام الصور الإلكترونية (clip art) حاليا في عرض المحاضرات لتزيين المعلومات المعروضة. وقد قامت الدراسة السابقة

بتحليل مضمون كمي لتصوير البشر في الصور الإلكترونية الجماهيرية من أجل دراسة كيفية تمثيل هذا الشكل الجديد من الصور الجماهيرية للنوع والأصل العرقي (مثلاً، ما إذا كانت الصور النمطية مستخدمة، أم ما إذا كان هذا الوسيط الجديد يحمل صوراً أكثر مساواة). وقد كشفت هذه الدراسة الرائدة أن الصور الإلكترونية تعكس غيرها من الوسائط من حيث قلة تمثيل النساء والملونين والملونات، وأن النساء عادة ما يقدمن باعتبارهن يقمن بأنشطة سلبية وأدوار الرعاية والعناية، بينما عادة ما يتم تصوير الرجال في حالة من الحركة والنشاط وفي سياقات غير متصلة بالرعاية والعناية كالعمل أو النشاط الرياضي. وتشير هذه الدراسة- من بين ما تشير إليه- إلى أهمية ما يتم من تحليل المضمون النسوي في المستقبل من حيث بحث الوسائط الجديدة ودراساتها.

وسيظل تحليل المضمون النسوي وتقديم منظور وأداة لدراسة التطورات التكنولوجية، والطرق المعقدة التي قد تؤدي إلى خنق و/أو دعم العدالة من أجل النساء. وفي هذا الصدد، ومع ما يحدث للثقافة من تغير ونمو وتحول، فسيحدث الأمر ذاته بالنسبة للأسئلة التي تطرحها النسويات بشأن الثقافة عبر منهج تحليل المضمون.

- Angelique, Holly L., & Culley, Marci R. (2000). Searching for feminism: An analysis of community psychology literature relevant to women's concerns. *American Journal of Community Psychology*, 28, 793-813.
- Bauer, M. (2000). Classical content analysis: A review. In M. Bauer & G. Gaskell (Eds.), *Qualitative researching with text, image and sound* (pp. 131-151). London: Sage.
- Commeyras, M., & Alvermann, D. (1996). Reading about women in world history textbooks from one feminist perspective. *Gender and Education*, 8(1), 31-48.
- Evans, L., & Davies, K. (2000). No sissy boys here: A content analysis of the representation of masculinity in elementary school reading textbooks. *Sex Roles: A Journal of Research*, 42, 255-270.
- Hall, E. J., & Rodriguez, M. (2003). The myth of postfeminism. *Gender & Society*, 17(6), 878-902.
- Hall, E. J., & Shepherd Stolley, K. (1997). A historical analysis of the presentation of abortion and adoption in marriage and family textbooks: 1950-1987. *Family Relations*, 46, 73-82.
- Hedley, Mark. (2002). The geometry of gendered conflict in popular film: 1986-2000. *Sex roles: A Journal of Research*, 17, 201-217.
- Hesse-Biber, S. N., & Leavy, P. (Eds.). (2004). *Approaches to qualitative research: A reader on theory and practice*. New York: Oxford University Press.
- Hesse-Biber, S. N., & Leavy, P. (2006). *The practice of qualitative research*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Irigaray, L. (1985). The power of discourse and the subordination of the feminine. In *This sex which is not one* (pp. 68-85; C. Porter & C. Burke, Trans.). Ithaca, NY: Cornell University Press.
- Jhally, Sut. (Producer), & Bartone, Joe. (Director). (1991). *Dream worlds II* [Motion picture]. United States: Media Education Foundation.
- Kellner, D. (1995). Cultural studies, multiculturalism and media culture. In G. Dines & J. M. Humez (Eds.), *Gender, race and class in media* (pp. 5-17). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Kirca, Süheyla. (1999). Popular culture: From being an enemy of the "feminist movement" to a tool for women's "liberation"? *Journal of American Culture*, 2(3), 101-107.
- Kirca, Süheyla. (2001). Turkish women's magazines: The popular meets the political. *Women's Studies International Forum*, 24(3/4), 457-468.

- Low, J., & Sherrard P. (1999). Portrayal of women in sexuality and marriage family textbooks: A content analysis of photographs from the 1970s to the 1990s. *Sex Role: A Journal of Research*, 40(3-4), 309-318.
- Modleski, T. (1986). Femininity as mas(s)querade: A feminist approach to mass culture. In C. MacCabe (Ed.), *High theory/low culture: Analysing popular television and film* (pp. 37-52). Manchester, UK: Manchester University Press.
- Neuendorf, K. A. (2001). *The content analysis guidebook*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Pederson, P. M. (2002). Examining equity in newspaper photographs. *International Review for the Sociology of Sport*, 34, 303-318.
- Prior, L. (2004). Following in Foucault's footsteps: Text and context in qualitative research. In S. N. Hesse-Biber & P. Leavy (Eds.), *Approaches to qualitative research: A reader on theory and practice* (pp. 317-333). New York: Oxford University Press.
- Reinharz, S. (1992). *Feminist methods in social research*. New York: Oxford University Press.
- Roman, L., & Christian-Smith, L. K. (1988). Introduction. In L. Roman, L. K. Christian-Smith, & E. Ellsworth (Eds.), *Becoming feminine: The politics of popular culture* (pp. 1-34). London: Falmer Press.
- Rose, D. (2000). Analysis of moving images. In M. W. Bauer & G. Gaskell (Eds.), *Qualitative researching with text, image, and sound* (pp. 246-262). London: Sage.
- Schlenker, J., Caron, W., & Halteman, W. (1998). A feminist analysis of *Seventeen Magazine*: Content analysis from 1945-1995. *Sex Roles: A Journal of Research*, 38(1-2), 135-149.
- Seidman Milburn, S., Carney, D. R., & Ramirez, A. M. (2001). Even in modern media, the picture is still the same: A content analysis of clip art images. *Sex Roles: A Journal of Research*, 44, 277-294.
- Shindler Zimmerman, T., Holm, K., & Starrels, M. (2001). A feminist analysis of self-help bestsellers for improving relationships: A decade review. *Journal of Marital and Family Therapy*, 27(2), 165-175.
- Signorielli, N., & Bacue, A. (1999). Recognition and respect: A content analysis of prime-time television characters across three decades. *Sex Roles: A Journal of Research*, 40, 527-540.
- Tuchman, G., Daniels, A. K., & Benet, J. (Eds.). (1978). *Hearth and home: Images of women in the mass media*. New York: Oxford University Press.

Wachholz, S., & Mullaly, B. (2000). The politics of a textbook: A content analysis of the coverage and treatment of feminist, radical, and anti-racist social work scholarship in American introductory social work textbooks published between 1988 and 1997. *Journal of Progressive Human Services, 11*(2), 51–76.

الفصل التاسع

مقاربات نسوية

إلى البحث متداخل المناهج

دينيز ليكينبي

شارلين ناجي هيسي-باير

حكاية متداخلة المناهج

زو، وهي مراهقة بيضاء من سكان الضواحي، متحدثة عن الجنسية والرغبة: "لا أعلم إن كان في استطاعتك الإحساس بها (الرغبة) في حال حدوثها مع شخص لا تحبينه."

بيفيرلي، مراهقة أفروأمريكية، متحدثة عن الجنسية والرغبة: "إن أردت فعل شيء فافعله. وإن لم تريدي فلا تفعله. . . . جسدي كان يقول نعم ولكن فمي كان يقول لا."

المصدر: (Tolman and Szalacha 1999، 114-115)

الفتاتان زو وبيفيرلي مراهقتان تختلفان من حيث الطبقة الاجتماعية والأصل والخلفية العرقية، وتعبيران عن جوانب مختلفة من تجاربهما حول الجنسية (sexual-ity)، والرغبة (desire). ولنفترض أن لديك اهتمامًا بدراسة تجارب المراهقات في الجنسية والرغبة، ولديك اهتمامًا بالتعرف على كيفية معاشة المراهقات لجنسائتهن،

ورأيهن في أجسادهن ، وكيف يتعاملن مع الاختيارات العديدة التي يتعين عليهن القيام بها باعتبارهن كائنات جنسية؟ ولنفترض أن في مجال تخصصك البحثي ، ولنقل إنه علم النفس ، تجددين أن الكثير من الدراسات الإمبريقية السائدة هي دراسات بطبيعتها كمية¹ (quantitative) ، تستخدم أبحاث المسح الاستطلاعي² (survey research) . والصورة التي تقدمها تلك الدراسات ، على أهميتها في مجال بحثك لفهم الصورة الأوسع للجنسانية والنشاط الجنسي لدى مجموعة معينة من الفتيات ، لا تبدو مشتملة على التفاصيل الدقيقة والعميقة التي تتوقعين وجودها في حياة الفتيات اللاتي تريدن دراستهن . كما تشعرين أنها منهجية³ لا تتضمن تفاصيل المعلومات والمعاني التي يعجز البحث الاستطلاعي عن الإمساك بها ، حيث تحمل -من وجهة- نظرك صورة صماء وأبوية داخل إطار البحث الوضعي الدارج .

ولنفترض أيضا أنك نسوية ، من حيث المنظور الإستمولوجي المعرفي⁴ النقدي الذي يساعدك في تناول عملك ومن حيث منظورك السياسي . فأنت تريدن إنتاج أبحاث من أجل النساء والفتيات ، لا عن النساء والفتيات . ويقدم لك منظورك النسوي حزمة من الأدوات التي تساعدك على نقد المناهج الكمية وتقنيدها ، وخاصة الطرق التي كثيرا ما يتم استخدامها في الأبحاث عن النساء والفتيات وغيرها من الفئات التابعة . إن هذه التفرقة مهمة بالنسبة إليك لأن المنظور النسوي الذي تنظرين إلى عملك من خلاله وكذلك نيتك من العمل هي إنتاج أبحاث قد تفسح مجالا للتغيير الاجتماعي . إن نظرتك للعالم تشجعك على القيام باستكشاف لما تقوم به النسويات الأخريات من عمل داخل مجال تخصصك وخارجيه . وتكونين مدركة لعدد من الدراسات التي قامت بها باحثات نسويات حول جنسانية الفتيات والنساء ، والتي تنطلق من أرضية تراث البحث الكيفي . (Fine 1988; Welsh ، Rostosky ، & Kawaguchi 2000; White ، Bondurant ، & Travis 2000) . تشعرين أن الأبحاث الكيفية التي تتناول تجارب الفتيات والنساء بشأن جنسانيتهن تعالج إحدى أهم مشاكل البحث الكمي حيث لا تختزل

أفعال الفتيات وسلوكهن ككائنات جنسية ضمن تصنيفات "صالحة" أو "سيئة" (Tolman & Szalacha 1999، 8). وتركز الأبحاث الكيفية على المعاني الذاتية وتأمل التجارب وعلى قدر كبير من التأمل الاستكشافي لجسديات الفتيات والنساء.

وعند تأمل الخيارات المنهجية المتاحة أمامك تجددين نقاط قوة في كل منهما، فالمنهج الكمية ملائمة تحديدا عند النظر إلى علاقات السببية "السبب والنتيجة" بين عدد من العوامل التي يتم الإشارة إليها بمفهوم المتغيرات (variables). كما تساعدك المناهج الكمية في اختبار الفرضيات والفحص الاستنباطي للنظريات القائمة بشأن جنسانية الفتيات. وهناك كثرة في المواقف النظرية داخل تخصص علم النفس والتي تجعلك تشعرين بوجودها الكامن وراء سؤال بحثك والمجموعة البشرية موضوع البحث. ومن جانب آخر فإنك تجددين أن الكثير من البحث الكمي والنظرية السائدة في مجال تخصصك تقدم صورة بالغة التبسيط لسلوك الفتيات وأفعالهن. فالنظر إلى العالم عبر منظور نسوي يجعلك أكثر اهتماما بتمثيل النساء والفتيات في البحث، ومنظورك السياسي يجعلك أكثر وعيا بأن دعاة السياسات العامة ومؤسسات التمويل والحكومة بل وحتى المؤسسات التعليمية تستخدم كلها قدرا كبيرا من أبحاث العلوم الاجتماعية الكمية حول جنسانية الفتيات. كما تدركين أن البحث الذي يدور عن الفتيات يؤثر على حياتهن. إن مصدر القوة الكامن في البحث الكمي يدفعك للتوقف برهة، فتتظرين بإمعان إلى الأبحاث التي تتم في مجال تخصصك. فقد تلاحظين مثلا في بحث استطلاعي ما عن جنسانية المراهقات وجود "استبيان كمية" قد يسأل الفتاة ما إذا كان قد سبق لها القيام بممارسة جنسية، ويكون لهذا السؤال إجابتان محتملتان: إما نعم أو لا. وباعتبارك نسوية فإن ما يهمك أيضا هو ما تم تجاهله عند صياغة السؤال بهذه الطريقة، ففي مثل هذا الاستبيان على سبيل المثال ما الإجابة التي يمكن للفتاة أن تختارها حين لا تكون هي نفسها متيقنة مما إذا كان قد سبق لها القيام بممارسة جنسية؟ وما الإجابة التي يمكن للفتاة أن تختارها إن لم تكن ذات هوية جنسية غيرية ولكنها في نفس الوقت تقوم

بممارسة جنسية؟ وما الإجابة التي ستختارها الفتاة إذا كانت قد قامت بممارسة جنسية ولكنها لا تستخدم موانع للحمل؟ وما النتائج المترتبة على السياسة العامة من هذه المادة الاستطلاعية؟

تشعر الكثيرات من الباحثات النسويات أن المادة الكمية الناتجة في موضوعات كهذه قد "أطرت وحددت للفتيات الأسئلة والإجابات المحتملة والملائمة لما هو مهم في تطور حياتهن الجنسية"⁶ (Tolman & Szalacha 1999 ، 8). إن أنماط الأسئلة المطروحة التي تتلاءم مع إطار الاستطلاع هي ببساطة أسئلة لا تلتقط المسائل التي تريدين فهمها. وبسبب بعض أوجه هذا القصور الموجودة في مناهج البحث الكمي مثلت الباحثات النسويات قوة دفع محورية في استكشاف مناهج بحث كيفية جديدة تتلافى ثغرات البحث الاستطلاعي. فعلى سبيل المثال نجد أن كتاب جويس لاردنر عن "غد الغد" (Joyce (Lardner ، Tomorrow's Tomorrow ، 1971) ، يقدم دراسة كيفية جديدة من نوعها في تناولها للفتيات السود وأفكارهن ومواقفهن وتجاربهن في الانتقال من الطفولة إلى الأنوثة، بما يوضح الأثر الذي يمكن أن يحققه تحطيم ما هو "صالح" و"سيئ" في مسار العمل البحثي. وتشير جويس لاردنر إلى أن الأفكار الخاصة بالعلاقات الجنسية قبل الزواج السائدة بين النساء كانت أفكارا محددة تقليديا بـ "المعايير المنظمة للسلوك الجنسي" والنابعة من آراء المجتمع الأمريكي بشأن معايير السلوك. (Lardner ، 196) ، 1971. وتقنيس جويس لاردنر عن إيراريس قولها: "تتضح ازدواجية المعايير بشأن السلوك الجنسي قبل الزواج في معاييرنا التي ترى أن العلاقة الجنسية قبل الزواج خاطئة للنساء كافة وبالتالي فالنساء اللاتي يمارسها هن نساء سيئات السلوك" (Lardner ، 196). وتتجنب جويس لاردنر عن قصد هذا التداخل بين الآراء المجتمعية البيضاء السائدة بشأن السلوك الأخلاقي وبين البحث الذي تقوم به، مشيرة إلى أن مثل هذه المقولات الأخلاقية تستند إلى ثنائية قوية وهي "ثنائية الأخلاقي-غير الأخلاقي" (Lardner ، 198). وقد أدى تأثير مثل تلك العناصر والثنائيات إلى تصنيف الفتيات

السود باعتبار أخلاقهم متسببة ويقمن بسلوك غير شرعي بما يضعهن ضمن فئة أصحاب السلوك "السيئ" دون التعمق في أفكارهن ومواقفهن. إن الدراسات كتلك التي تمت في هذا الصدد (Lardner 1971; Tolman & Szalacha 1999) تسعى إلى تجنب الغرض الأخلاقي الذي يشكل نتائج البحث لتندرج تحت فئات سرية منحرفة من جهة وطبيعية من جهة أخرى⁷. وعلى الرغم من أن جويس لاردنر (Lardner 1971) استخدمت المقابلات الشخصية الكيفية والأدوات الإثنوجرافية دون غيرها، فإن بحثها تطرق إلى الحدود التي سبق أن كانت تفصل جنسانية الفتيات وتضعها في صناديق محكمة من الأحكام الأخلاقية. كما اصطدم بحثها مع المنظومات النظرية الداعمة لنماذج الانحراف في جنسانية الفتيات. وقد فتحت أعمالها البحثية مساحات ما كان يمكن للتحليل الكمي المباشر للنشاط الجنسي أن يقترب منها، إذ وجدت أسباباً عديدة ومعقدة لقيام الفتيات بعلاقات جنسية قبل الزواج بما اعتبرته مؤدياً إلى تزايد في النضج و"مساعدة في عملية الانتقال إلى كيان المرأة" (Lardner 1971، 211). وقد قامت دراساتها، جنباً إلى جنب المناهج الكيفية الأخرى التي تم تناولها في الفصول السابقة، بالمساعدة في طرح أسئلة إمبيريقية جديدة في مجال العلوم الاجتماعية، بما يؤدي إلى توليد أنواع جديدة من المعرفة عن تجارب وخبرات النساء والفتيات.

ولتخيلي أنك أثناء استكشافك لأدبيات مجال بحثك تجددين أن دراسات كيفية-مثل ما قامت به جويس لاردنر- تساعد في تجنب الافتراضات النمطية أو الأيديولوجية التي تزينها متسربة إلى كثير من الدراسات الكمية في مجال تخصصك المعرفي، كتلك الموصوفة أعلاه، والتي تصنف الفتيات بصور مختزلة دون الالتفات إلى ذواتهن أو سياق حيواتهن. ومع ذلك وبالرغم من قدر التعقيد الكبير الذي يوفره البحث الكيفي، فإنك قد لا تكونين متيقنة تماماً من أن الدراسة الكيفية ستحقق كافة أهدافك البحثية. كذلك تتضمن أهدافك البحثية حرصاً على استخدام بيانات قابلة للتقدير الكمي لاستكشاف الاختلافات المهمة إحصائياً بين مجموعات الفتيات بما قد يساعد صانعي

السياسات والمربين والمربين في تطبيق خبراتهم وما لديهم من تمويل في التعامل مع القضايا والاحتياجات القائمة لدى مجموعة من الفتيات⁸. كما يهتمك أيضا استخدام المناهج الكيفية في تحديد القضايا المعنية في موضوع بحثك والتي ستؤثر على صياغة أسئلة البحث الاستطلاعي بحيث تقيس بدرجة أفضل ما تسعى لفهمه. فإذا كان الأمر كذلك فقد ترين المزج بين منهجي البحث الكمي والكيفي.

وسوف يتناول هذا الفصل الطرق التي تستخدم بها النسويات المناهج المتداخلة، (mixed methods) وكيف يمكن للمناهج المتداخلة أن تعمل على توسيع أو تضيق القدرة على بناء المعرفة النسوية؟ وبعد اكتساب المعرفة بنطاق خطط البحث متداخلة المنهج (mixed-methods designs) نعود إلى مسألة دراسة الفتيات. وسنتنظر لاحقا في هذا الفصل إلى الشرائح الجديدة من الأسئلة الإستمولوجية والمنهجية التي تطرحها الباحثات النسويات في مقدمة قراراتهن بشأن استخدام المناهج المتداخلة من عدمه.

ما البحث متداخل المناهج؟

بصفة عامة نجد أن الباحثات والباحثين الذين يستخدمون المناهج المتداخلة يوظفون نوعا من خطة البحث (research design) تستخدم الجمع والتحليل الكمي والكيفي للبيانات وذلك في الإجابة على سؤال أو حزمة من الأسئلة في خطة البحث الواحدة. (Lackey, 2001; Tolman & Szalach 1999; Wesmarland 1998; Moberg & ويرى بعض الباحثين والباحثات أن تداخل المناهج قد يشير أيضا إلى استخدام منهجين أو أكثر من المناهج الكيفية في دراسة بحثية واحدة، أو كذلك استخدام منهجين أو أكثر من المناهج الكمية في دراسة بحثية واحدة. كما يتفاوت توقيت جمع المادة بأنواعها المختلفة في البحث متداخل المناهج. فعلى سبيل المثال قد يقوم الباحث أو الباحثة بعملية "جمع المادة الكمية والكيفية على مراحل (متتابعة)"، أو قد يقوم الباحث أو الباحثة بعملية "جمعها في الوقت نفسه

(أنيا)“ (Creswell 2003 ، p. 211). ويقوم الباحثون والباحثات ، النسويات وغير النسويات ، باستخدام البحث متداخل المناهج بأشكال متنوعة تجمع بين الابتكار والإبداع .

ومثله في ذلك مثل كل المناهج التي يتناولها هذا الكتاب ، فلا يوجد منهج يتسم بأنه نسوي أو غير نسوي على وجه الخصوص⁹ . فالمناهج أدوات تستخدم في أيدي الباحث أو الباحثة ، بحيث يمكن له أو لها استخدام أو عدم استخدام تلك المناهج من منطلق نسوي ، أو من منظور نسوي . فالأبحاث متداخلة المناهج ليست في حد ذاتها نسوية بطبيعتها ، وإنما يمكننا التعرف على بعض الأساليب التي تمزج بها الباحثات النسويات بين المناهج . وعلى الرغم من تزايد الربط بين الباحثات النسويات ومناهج البحث الكيفي ، فإن الباحثات النسويات لا يحرصن أنفسهن في نطاق المناهج الكيفية تماما . فكما يتضح جليا في الفصول السابقة من هذا الكتاب ، أن الباحثات النسويات أكثر التفاتا ، على المستوى الإستمولوجي والمنهجي ، إلى قضايا السلطة والاختلاف والصوت والصمت والتعقيدات القائمة في المجتمع القابل للمعرفة . ويتم الدفع بالتجديدات التي تطورت من خلال استخدام المناهج الكيفية قدما إلى نطاق المناهج المتداخلة ، وذلك بأساليب لافتة تلقي أضواء وتطرح بالتساؤلات حول مواقع قوة كلا المنهجين ، في الوقت ذاته الذي يتم فيه التركيز على منظور نسوي ، (Deem 2002; Manfredi ، Lacey ، Warnecke ، Reinharz 1992; Balch 1997 & . فلنتأمل الأساليب التي تستخدم بها النسويات البحث متداخل المناهج .

وضع البحث متداخل المناهج قيد الممارسة: خطط البحث متداخل المناهج

تقدم دراسة ديفيد مورجان (David Morgan 1998) مجموعة من خطط البحث للقيام بدراسة متداخلة المناهج ، فيطرح خطة بحث رباعية المنهج (four-method re-

(search design) ، اعتمادا على التابع (الترتيب الزمني) والأهمية النسبية (الأولوية) الخاصة بكل منهج . ويرى مورجان أن يطرح الباحث أو الباحثة الأسئلة التالية خلال إعداد الخطة متداخلة المناهج:

• ما منهج البحث الأولي ، وما المنهج الثانوي (التكميلي)؟

• ما المنهج السابق؟ والمنهج اللاحق؟

إن إجابتك على كل من هذين السؤالين يؤدي إلى إمكانية وضع أربع خطط بحث متداخل المناهج ، كما هو موضح أدناه (الجدول 9.1) .

ولنتوقف أمام نماذج لأبحاث أفادت فيها الباحثات النسويات من تداخل المناهج بناء على نموذج ديفيد مورجان لخطة بحث متداخلة المناهج .

الجدول 9.1 الجمع بين المنهجين الكيفي والكمي

الخطة الأولى	الكيفي يعقبه <u>الكمي</u> *
الخطة الثانية	الكمي يعقبه <u>الكيفي</u>
الخطة الثالثة	الكمي يعقبه <u>الكيفي</u>
الخطة الرابعة	<u>الكيفي</u> يعقبه الكمي

المصدر: مقتبس عن كتاب ديفيد مورجان (David Morgan 1998) .

* الكلمات التي تحتها خط تشير إلى المنهج الأولي ، والكلمات المكتوبة بخط عادي تشير إلى المنهج الثانوي .

كيفية يعقبه كمي

خطة البحث الأولى (كيفية يعقبه كمي) تتضمن البدء بالجزء الكيفي من مشروع البحث مع احتفاظه بمكانة ثانوية (المكتوبة بخط عادي) ضمن أهداف البحث . ويكون المنهج الكمي (الذي تحته خط) هو المنهج الأولي ، على أن يتم تنفيذه كمتابعة للدراسة الكيفية . إن استخدام خطة كيفية قبل الكمية يوفر للباحثة أو الباحث غير الملم بالموضوع الفرصة لتوليد أفكار أو فرضيات تمكنه وتمكنها من تناول الموضوع بشكل أكثر تحديدا في الجزء الكمي من المشروع . ولدينا مثال توضيحي على ذلك في خطة البحث متداخل المناهج المستخدمة في المشروع البحثي لكل من لافي وموبيرج (Lackey and Moberg 1998) . فقد اهتمتا بفهم جنسانية المراهقين الأمريكيين في المناطق الحضرية . وبدءا بحثهما بمجموعات مناقشة مبدئية (prefocus groups) في 10 منظمات محلية مع التركيز على الشباب وأولياء أمورهم ، وطلب منهم "تحديد الموضوعات التي يرون ضرورة دراستها"؛ كأساس لبث موسع (كمي) يشمل عدد 593 من الشباب وعدد 95 من أولياء أمورهم . كذلك تم التوجه إلى عدد 13 مجموعة (كيفية) أكثر إحكاما تشتمل على عدد 10-6 من الشباب ، بعضهم في مجموعات مختلطة الجنسين بينما جاء بعضها في مجموعات غير مختلطة ، وطلب منهم جميعا وصف تجاربهم في سياقات معروف عنها تأثيرها على سلوك المراهقين ووصف نوعية الرسائل (إن وجدت) والتي تعكسها تلك السياقات عن المعايير والممارسات الجنسية (Lackey and Moberg 1998، p. 494) . وقد مكنت النتائج ، التي تم التوصل إليها من مجموعات المناقشة المبدئية والمحكمة (الكيفية) ، كلا من الباحثة والباحث من صياغة بنود الاستبيان ضمن استطلاع (كمي) واسع يعكس تجارب المجتمع ، وخاصة ذلك البند الذي تناول "تعرض الشباب لوسائل الإعلام والثقافة الجماهيرية ، والوقت الذي يقضونه بصحبة رفاقهم ، وكذلك العوامل البيئية" (Lackey and Moberg 1998، p. 495) . وفي الواقع فإن نتائج البحث التي تم التوصل إليها من الاستطلاع (الكمي) كشفت عن أن العديد

من المتغيرات التي طرحتها المجموعات النقاشية "شكّلت معدلات مهمة" في الدراسة الاستطلاعية (Lackey and Moberg 1998، p. 499).

كمي يعقبه كيفي

نجد في خطة البحث الثانية -الكمي يعقبه الكيفي- أنه يتم استخدام البحث الكمي باعتباره ثانويا (كمي)، بينما يتم استخدام البحث الكيفي باعتباره هو البحث الأولي (كيفي). وفي هذه الحالة يتم استخدام البحث الكمي من أجل تحديد مجموعات سكانية أو موضوعات محددة مما يتطلب تناولها بمزيد من التعمق. وتتكامل الدراسة الكمية مع الكيفية (كيفي)، ولدينا مثال جيد على ذلك في عمل باحثة علم الجغرافيا كيم إنجلاند (Kim England 1993)، حيث تتبنى "فكرة الحصار المكاني" (spatial entrapment thesis)، كتفسير لتقسيم القوى العاملة، وتحديد وقوع النساء في شراك نطاقات "العمل الوردية" (pink-collar ghettos) [وهو مصطلح يشير إلى العمالة النسائية في الأعمال الخدمية]، فقد أشارت الحكمة التقليدية لدى باحثي علم الجغرافيا آنذاك إلى قيام الشركات بتوظيف النساء في العمل الوردية (pink-collar women) في الضواحي للاستفادة من الحصار المكاني للعاملات، فقيام النساء بدور مزدوج كزوجات وأمّهات حرمهن من الاستفادة من فرص العمل الأوسع، إذ تظلّ العاملات محصورات داخل نطاق العمل الوردية في الضواحي. فقد توصلت الدراسات الجغرافية المبكرة، حول الوقت الذي يقضيه العمال والعاملات الأمريكيون في التنقل، إلى أن العاملات في الوظائف المكتبية يقطعن مسافات أقصر مقارنة بالرجال العاملين في نفس النوع من الوظائف، لأن التزامات النساء الأسرية قلصت من قدرتهن على اتخاذ وظائف أبعد مسافة من أماكن سكناهن. وقد سعت الباحثة كيم إنجلاند إلى اختبار فكرة "الحصار المكاني" من خلال دراسة حالة لمدينة كولومبوس في أوهايو بأمريكا، وهي الولاية التي تتسم صناعاتها بـ"الاعتماد الكبير على العمالة الوردية" (Kim England

(228 p. ، 1993 . وقد قامت فيها ببحث متداخل المناهج باستخدام المادة الكمية (كمي) لتحديد الفترة الزمنية التي يقضيها كل من الرجال والنساء في التنقل بين المسكن والعمل في نطاق ضواحي مدينة كولومبوس ، وذلك عن طريق جمع البيانات بشأن التنقل بين أماكن السكن والعمل المدونة في سجلات العاملين ، واستبيان استطلاعي ، ودليل أرقام هواتف المنازل في الضواحي . وقد وجدت أنه في الوقت الذي توضح فيه تلك البيانات أن النساء أكثر خضوعاً للحصار المكاني مقارنة بالرجال ، إلا أن ذلك ينطبق بدرجة أقل على النساء اللاتي ينتمين إلى أسر مكونة من شخصين بالغين وأطفال يعولونهم! وقد وجهتها نتائج بحثها الكمي للقيام بدراسة كيفية (كيفية) . وتقوم فيها بعقد سلسلة من المقابلات العميقة مع مديري شؤون العاملين داخل شركات تقع في الضواحي ، وكذلك مع النساء في نطاق العمل الوردي . ومن منطلق كونها باحثة نسوية اهتمت كيم إنجلاند بالتجارب المعيشة للنساء العاملات . وتشير قائلة:

إن الغرض الأساسي من البحث الذي أقوم به ليس التوصل إلى تعميمات إمبيريقية ، بل تطوير فهم متعمق لموقع محدد للتقاطع المحلي للجغرافيا المتغيرة لمواقع المكاتب ، وتقسيم العمل بين الجنسين ، وأسواق العمل الحضري ، والقائمة على قاعدة من تقبل الناس باعتبارهم فاعلين عارفين . وقد أتاحت لي المقابلات الشخصية تحديداً أن أطور فهمي بناء على مرجعية الشخصية التي قمت بمقابلتها ، وأن أستكشف موضوعات معينة داخل سياق مجموعة المعاني التي تحملها الشخصية التي أقوم بمقابلتها . (England 1993 ، p. 227)

وفي مقابلاتها الشخصية مع مديري ومديرات شؤون العاملين أرادت الباحثة تقييم الأسباب التي جعلت الشركات تنتقل إلى الضواحي ، وتتبع ما إذا كان دافع المديرين من ذلك هو الاستفادة من العاملات والعاملين المحاصرين . وقد تم اختيار المديرين والمديرات من دليل الشركات في مدينة كولومبوس ، وتم عقد مقابلات شخصية مع

مديري ومديرات شؤون العاملين في عدد 10 شركات خاصة تضم عددا كبيرا من القوى العاملة في وظائف مكتبية. وقد قامت بعقد 30 مقابلة شخصية مع نساء ضمن عينة كمية تشتمل على 200 امرأة اختارتهن من دليل الضواحي، (وقد شكلت تلك البيانات السكنية لعدد 200 امرأة في الأصل جزءا من دراستها الكمية لتقييم الزمن الذي يتم قضاؤه في الانتقال من المسكن إلى العمل). وقد شكلت هؤلاء النساء عينة هادفة من القاطنات في مدن ذات ضواحي باعتبارها "أماكن رائجة في انتقال الشركات إليها"، وقد بذلت الباحثة جهدا في اختيار نساء "يكون تنقلهن بين المسكن والعمل ممثلا لعينة أكبر" (England 1993، p. 234).

عند قيام كيم إنجلاند بدراساتها الكيفية فإن أسئلة البحث تتبع مباشرة من نتائج دراستها الكمية: لماذا لم تنطبق فكرة الحصار المكاني على النساء اللاتي يقمن بعمل مزدوج؟ كيف تتعامل النساء مع التنقل بين المسكن والعمل في سياق أسرهن وحياتهن العملية؟ وعند صياغة هذه الأسئلة تفترض الباحثة وجود درجة من الفاعلية لدى النساء، وهي مسألة لا توجد ضمن فرضية الحصار التقليدية بما فيها من افتراضات بشأن التقسيم التقليدي للعمل بين الجنسين. إن ما تكشفه نتائج دراستها الكيفية في الواقع هو وجود فاعلية إنسانية في قلب فهم البنى الأكبر، مثل أنساق التنقل بين المسكن والعمل. إن التركيز على سياق حيوات النساء هو وحده ما يمكن للباحثة أن تفهمه بصورة أفضل، وأن تبدأ في تفتيت الصور النمطية للمادة المتصلة بالتنقل بين المسكن والعمل على مداها الواسع. وتخلص الباحثة إلى نتيجة مؤداها أن العاملات لسن "ضحايا سلبيات للبنى المكانية"، وإنما يقمن عند اتخاذ قراراتهن بشأن مسافة التنقل بين العمل والمسكن بالموازنة بين عدد من العوامل المتصلة بالعمل (مثل سلم الترقى الوظيفي، والطموحات الوظيفية) وبالأسرة (مثل ترتيبات رعاية الأطفال وتوفير المدارس الجيدة في منطقة السكن)، وفي ذلك تشير قائلة: "يجب إعادة التفكير في المسافات التي تقطعها النساء إلى العمل باعتبارها جهدا مبذولا من هؤلاء النساء في التوفيق بين أدوار وعوامل مكانية متعددة، متداخلة ومتناقضة في أحيان كثيرة" (Kim England 1993، p. 237).

كمي يعقبه كفي

الخطوة الثالثة، أي البحث الكمي يعقبه الكفي، تعتمد على كون الدراسة الكمية هي الأولية، بينما تكون الدراسة الكيفية ثانوية. وتستخدم خطة البحث هذه عادة عند وجود حاجة للإسهاب وتوضيح نتائج البحث الكمية. وتساعد الدراسة الكيفية على فهم أمور مثل النتائج السلبية وما يطلق عليه "النتائج الخارجية" (outliers)، وهي النتائج التي لا تبدو متسقة مع الفرضية العامة أو المنظور النظري. ومن حيث المبدأ، يمكن استخدام المادة الكيفية باعتبارها مكملة للمادة الكمية وذلك لمساعدة الباحثة أو الباحث الكمي على "إنقاذ" المادة البحثية من خلال فهم "النتائج الخاطئة" في المادة الاستطلاعية (Wein- holtz، Kacer، and Rocklin 1995). ونجد مثالا على هذا النوع من الدراسات في البحث الذي قامت به الباحثة في علم النفس بولا نيكلسون (Paula Nicholson 2004)، التي قامت بتتبع الدراسات الإكلينيكية حول اكتئاب ما بعد الولادة. وهي ترى أن الأبحاث التي تمت في هذا المجال هي أبحاث تكون تقليديا أبحاثا كمية وكثيرا ما تستخدم الأبحاث الإكلينيكية من خلال تقسيم المستجيبات للبحث تقسيما عشوائيا ضمن فئات تتضمن مجموعة ضابطة. وبناء على هذا النموذج الإكلينيكي، والمعروف باسم التجربة الضابطة العشوائية (RCT: Randomized Control Trial) يتم توزيع النساء اللاتي يعانين من اكتئاب ما بعد الولادة توزيعا عشوائيا على مجموعة تجريبية، مثل مجموعة اللاتي يتناولن مضادات للاكتئاب، أو علاجا ذا تأثير الغفل (pla-cebo). كذلك يتم تشكيل مجموعة ضابطة لنفس الدراسة. وعادة ما يتم تمويل هذه المناهج البحثية بواسطة الحكومة الفيدرالية أو شركات الأدوية، في سبيل اختبار مدى نجاح بعض الأدوية في علاج حالات معينة. وفي حالة البحث الذي قامت به بولا نيكلسون، كانت تقوم باختبار مدى قدرة مضادات الاكتئاب على علاج اكتئاب ما بعد الولادة. ويبحث الباحثون والباحثات عن طريقة "كمية" لقياس مدى فعالية العلاج الدوائي للاكتئاب. ولكن ما يتضح لنا من البحث الذي قامت به بولا نيكلسون هو

غياب "الإنصات" إلى هموم الأمهات. فبدلاً من الشروع في القيام بدراسة عشوائية، قررت بولا نيكلسون البدء بمشروع استطلاعي مع الأمهات اللاتي يعانين من اكتئاب ما بعد الولادة. فقامت بمقابلات شخصية كيفية مع عينة صغيرة من هؤلاء النساء على أمل فهم تجاربهن. فعقدت مقابلات شخصية مع عدد 17 امرأة، بمعدل أربع مرات على مدار ستة أشهر بدءاً من الولادة. وقد كشفت هذه الدراسة الاستطلاعية أن القيام بدراسة كيفية في أعقاب الدراسة الكمية (كمي يعقبه كيفي) تضفي مزيداً من المصداقية على الجزء الكمي من البحث. كما لاحظت أيضاً وجود عدد من الفوائد المهمة التي قد يضيفها الجزء الكيفي على المشروع البحثي بأكمله، وتشير إلى أن الباحث أو الباحثة يزدادان تمكناً من اتخاذ قرار بشأن متى "يجب تقييم نتيجة" ما. وترى الباحثة بولا نيكلسون من واقع تتبع النساء على مدى طويل تجاوز الستة أشهر أنه "رغم تشابه السلوك والمزاج بعد ثلاثة وستة أشهر من الولادة، فإن بناء التجارب ومعناها يختلف"، وتشير إلى أن لذلك تداعياته المهمة بشأن "متى وماذا يخضع للتقييم" (Paula Nicholson 2004، p. 224). كما يقدم الجزء الكيفي أيضاً سياقاً لنتائج البحث، فعلى سبيل المثال إذا أظهرت النتائج الكمية أن العامل المتغير الخاص بـ "العلاقة الزوجية الضعيفة" كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً باكتئاب ما بعد الولادة، وأن الجزء الكمي قد يقدم فكرة راسخة بشأن ما يعنيه هذا المتغير في سياق حياة الأم. كما يتيح ذلك الفرصة أمام الباحثات والباحثين للتوصل إلى فهم أعمق لدى تقييم المستجيبات أنفسهن لتدخل دوائي ما، بالإضافة إلى تقييمهن لتجربة البحث نفسها وبرمتها، بما يقدم للباحثات والباحثين معلومات قيمة سوف "تؤدي إلى إجراءات تدخلية ووقائية أكثر فاعلية" (Paula Nicholson 2004، p. 226).

وتتبنى أبحاث بولا نيكلسون مقارنة نفسية نسوية إلى موضوع اكتئاب ما بعد الولادة، وذلك بالتركيز على التجارب المعيشة للأمهات اللاتي يعانين من الاكتئاب. ومن خلال تأكيدها على أهمية استخدام مقارنة متداخلة المناهج، تجمع بين المادة الكمية والكيفية،

نجد أن الباحثة هنا تنتقد الاعتماد فقط على مقارنة التجارب الضابطة العشوائية والتي تراها مقارنة تؤكد على ميل الممارسين الإكلينكيين إلى "التعامل مع جسد وعقل النساء من منطلق المرض ، دون التفات إلى تجارب النساء مع رعاية الأطفال والسياق الذي تتم فيه تلك الرعاية" (Paula Nicholson 2004 ، p. 210).

كيفي يعقبه كمي

الخطوة الرابعة، أي البحث الكيفي يعقبه الكمي ، تكون الدراسة الكيفية أولية (كيفي) وتعقبها الدراسة الكمية (كمي). ويمكن للدراسة الكمية أن توضح أو تضيف إلى نتائج الدراسة الكيفية ، أو أن تستخدم لاختبار النتائج على مجموعات مختلفة للتأكد مما إذا كانت النتائج الكيفية "تنتقل" إلى مجموعات سكانية أخرى (Morgan 1998 ، p. 370). ونجد بحثاً بدأ عام 2003 (Cuyvers ، Wets ، Zuallaert ، and Van Gils 2003) كجزء من مشروع بحثي مستمر تدعمه هيئة السياسة الاجتماعية الفيدرالية البلجيكية (Belgian Federal social Policy Office) ، وتمثل رؤية الباحثين والباحثات لدراساتهم باعتبارها دراسة بينية (interdisciplinary study) ويشيرون إلى أنها تقع "عند تقاطع تخصصين علميين حديثين آخذين في التطور السريع ، وهما: علم اجتماع الطفولة و"البعد الاجتماعي" لعلوم المرور" (the sociology of childhood ، and the sociological dimension of traffic sciences). إذ يصل الأطفال في الفترة العمرية 10-13 عاماً إلى مرحلة أكثر استقلالية فتتسم حركتهم "بالتزايد الملحوظ في الاستقلالية". ومع ذلك توجد ندرة في الأبحاث التي تتناول رأي الأطفال في مسألة التنقل ، ومدى خبراتهم فيما يتعلق باستقلالية التنقل أو اعتمادهم على الغير فيه. ويقوم منظور الباحثات والباحثين في هذا المشروع على وضع هموم الأطفال في قلب هذا العمل البحثي ، ويتبنون منظورا تأويليا في فهم جوانب تطور الأطفال ، وتحديد تجربة التحول من الاعتماد على الغير إلى الاستقلالية في التنقل. ويقوم البحث على تناول تلك

الأفكار من منظور تصورات الأطفال بشأن تحركاتهم: كيف يرى الأطفال التحرك؟ ما احتياجاتهم؟ ماذا يفضلون؟ ما الممارسات الفعلية التي يقوم بها الأطفال بالتحرك والتنقل في حياتهم اليومية؟ إلى أي مدى تعتبر الاستقلالية في التحرك مسألة ذات أهمية بالنسبة للأطفال؟ وما العوامل التي يرونها عائقاً أو عاملاً مساعداً على استقلاليتهم؟ كما يمكن لنا أن نرى هذا البحث مشروعا تحريراً ونسويًا بمعنى أن الأطفال، وهم فئة كثيراً ما لا تُسمع أصواتهم في مثل هذا النوع من الدراسات، تتاح لهم فرصة الإفصاح عن أنفسهم، كما أن أغراض الباحثين والباحثات من هذا البحث تتوجه نحو السعي لاتخاذ أفعال وإحداث تغيير اجتماعي. إذ تسعى مجموعة هؤلاء الباحثين والباحثات إلى ترجمة احتياجات الأطفال وهمومهم إلى مبادرات للسياسة الاجتماعية المتبعة عند التخطيط لسياسات المواصلات والتخطيط المدني المستقبلية. ويشتمل ما تم جمعه من مادة أولية على مقابلات شخصية ومجموعات نقاشية تضم فتينا وفتيات في المرحلة العمرية 10-13 عاماً، ممن يقطنون بيئات حضرية وريفية. وقد أعقب ذلك إعداد دراسة كمية لعينة ممثلة تضم 5000 من الأطفال، في مقاطعة فلاندر بشمال بلجيكا، وذلك "لمراجعة النتائج التي تم التوصل إليها في المرحلة الكيفية" وكذلك "لقياس العوامل التي تم تحديدها خلال البحث الكيفي باعتبارها ذات صلة بالموضوع". ويأمل الباحثون والباحثات في أن يعقب دراستهم جزء بحثي فاعل يتم في منطقتين ريفيتين ومنطقتين حضريتين، وذلك بهدف تشجيع الأطفال على المشاركة في مشروعات التحرك والتنقل داخل مجتمعاتهم (Cuyvers et al. 2003).

ولكن مع ذلك هنالك عدد كبير من خطط البحث الأخرى التي تجمع بين المنهجين الكيفي والكمي باستخدام فئات ومعايير مختلفة. فبعض الخطط متداخلة المناهج تجمع بين المناهج أنياً، مع الحفاظ على الفارق أولي/ثانوي (انظر/ي: Creswell 2003). أما خطة مورجان (Morgan 1998) فتتوقف أمام الدراسات المتابعة زمنياً، أي تتلو إحداها الأخرى. بينما يقوم بعض الباحثين والباحثات الآخرين بأبحاث متداخلة المناهج

تعتمد على التزامن بين المناهج ، مع وضع كلا المنهجين على درجة واحدة دون تمييز بين منهج أولي ومنهج ثانوي (Creswell ، Fetters ، and Ivankova 2004) . وهو الأمر الذي يبدو مستخدما في خطة تداخل المناهج التي استخدمتها أبحاث تولمان وشالالاكا (Tolman and Szalacha 1999) والتي سنقوم بتناولها بعمق أكبر في الجزئية التالية من هذا الفصل . ونجد باحثات وباحثين آخرين يقومون بتضمين منهج واحد (كفي أو كمي) "داخل" المنهج الآخر ، وفي هذه الحالة يكون المنهج المتضمن عادة هو الأقل أولوية . وقد يقدم هذا المنهج حلا لسؤال بحثي مختلف ، ولكن كلا المنهجين يستخدم لتحليل المادة (Creswell ، Plano Clark ، Gutmann ، and Hanson 2003 ، p. 229) . كما توجد أيضا إمكانية المزج بين دراستين كيفيتين ودراسيتين كميتين في بحث واحد .

دراسة حالة لاستخدام بحث متداخل المنهج: دراسة جنسانية الفتيات

تقدم الباحثتان ديورا تولمان ولورا شالالاكا مثالا توضيحيا ومبتكرا لنوعية البحث الذي يتبلور عند استخدام البحث متعدد المناهج من منظور نسوي . ونعود الآن إلى المثال الذي قدمناه في بداية هذا الفصل ، مع ما أضيف لهذا المثال الآن من معرفة حول نطاق الخطط متداخلة المناهج التي استخدمتها النسويات ودوافعهن للانخراط في أبحاث متداخلة المناهج .

وقد سعت الباحثتان (Tolman and Szalacha 1999) إلى تقديم صورة لجنسانية الفتاة المراهقة ، وذلك باستخدام نقاط القوة الكامنة في كلا النوعين من مناهج البحث . فقد تأملتا بعمق أنواع الأبحاث التي يتم العمل بها في العلوم الاجتماعية ، مع التركيز تحديدا على علم النفس ، كما بحثتا عن الحكايات التي تحكيها تلك الدراسات عن جنسانية المرأة . وقد توصلتا إلى منظور قوي وموضوعي ومتفرد نسبيا بشأن جنسانية الفتيات ،

نظرا لوجود "إنكار تاريخي وحط من قدر جنسانية المراهقات (ص8).¹⁰ ومثلها في ذلك مثل المراجعات النقدية للدراسات البحثية التي قامت بها جويس لاردنر ، فإننا نجد أن البحث الكمي يميل إلى وضع الفتيات ضمن فئتين وتصنيفهن إما باعتبارهن صالحات أو طالحات . ولم يسبق لتلك الأصوات الموضوعية والأبوية أن حكّت أبدا حكايات عن الفتيات اللاتي يعشن حيوات معقدة ، ممن لسن من الصالحات أو الطالحات . وقد رأت الباحثتان ديورا تولمان ولورا شالاكا أن كل تلك الأبحاث القائمة كانت تفتقد إلى العمق والتعقيد والدقة . ومن منطلق يتمركز داخل المنظور النسوي رأت كل من ديورا تولمان ولورا شالاكا أن السبيل الوحيد لتقديم رواية متعددة الأوجه بشأن جنسانية الفتيات هو الجمع بين استخدام المناهج الكيفية والمناهج الكمية في الدراسة الواحدة . وقد استخدمتا "التكامل التتابعي" للمناهج وسعتا لخلق فهم واضح ومركب عن تطور جنسانية الفتيات ، وقد أوصلهما ذلك إلى مساحة أدركتا فيها أن "التحدي القائم في التعامل مع المشاكل الاجتماعية المتزايدة في التعقيد . . . يتطلب منا مزيدا من الفحص للإمكانيات الكامنة في الجمع بين مناهج البحث الكيفية والكمية" (Tolman and Szalacha ، p. 8) . إن هذا الالتزام بالسعي للوصول إلى المناهج التي تعكس العالم المعقد ومتعدد الأوجه الذي يحيط بنا واستخدام تلك المناهج يدعم استخدام تداخل المناهج . وتؤكد أهمية استخدام تداخل المناهج ، بالنسبة لبعض الباحثات النسويات ، عندما يدركن مدى قدرتهن على الوصول بطرق واعية إلى أصوات وتجارب النساء والفتيات باستخدام تداخل المناهج .

ومثلها في ذلك مثل الكثيرات من الباحثات النسويات ، نجد أن ديورا تولمان ولورا شالاكا (Tolman and Szalacha 1999) وضعتا مصالحيهما وأسئلتهما أمامهما على الطاولة قبل البدء في تحديد منهج البحث الضروري للتعامل مع تلك المسائل ، وطرحتا ما تحملانه كنسويتين من منظور سياسي وإبستمولوجي ، إصرارا منهما على الإنصات إلى أصوات الفتيات وحكاياتهن . ويقع سياق خطتهما البحثية داخل المجال الذي يسوده المنهج الكمي ، وحيث يمكن لد جسر بين البحث الكيفي والكمي أن يلقي بالضوء وأن

يثيري النظريات القائمة بالفعل عن جنسانية الفتيات . كذلك فإن السياق الذي تصبو إليه الباحثتان يقع داخل مساحات الفراغ الكائنة في الأبحاث القائمة . وقد تمكنت الباحثتان - من خلال المادة البحثية الكيفية والكمية وبواسطة التحليل الدقيق - من خلق رواية حيوية ومتآزرة لحكايات الفتيات عن أجسادهن ورغباتهن وجنسانياتهن . إن هذه الفكرة القائمة على بناء جسر بين منهجين في مشروع بحثي واحد ، مع التمسك بالأهداف الخالصة للبحث النسوي الساعية للوصول إلى تجارب النساء والفتيات هي فكرة تمنحنا أول مثال لما يمكن أن يكون عليه البحث النسوي متداخل المنهج . ومثلما نجد أن القصد في استخدام منهج بعينه ، كالتاريخ الشفاهي ، يتطلب نوعا معينا من أسئلة البحث ، كذلك فإن الرغبة في استخدام تداخل المناهج لا تأتي للنسويات من لا شيء .

وعلى الرغم من النقص في كثير من الدراسات الإمبريقية في مجال تخصصهما ، وأملهما في استخدام مناهج البحث الكيفي ، فإن ديورا تولمان ولورا شالاكا لم ترغبا في علاج المشاكل الناجمة عن الالتزام فقط بمنهجية كيفية ، بل سعت الباحثتان إلى توضيح الطرق التي يمكن لمجال تخصصهما ولبحثهما أن يستفيد بها من مقاربة تداخل المناهج ، وقد جاء نجاحهما في ذلك باهرا يفوق كافة التوقعات . وقد قامت الباحثتان - من منطلق كونهما نسويتين - بوضع الاهتمام النسوي في قلب عملهما البحثي ، وهو الاهتمام بجعل أصوات النساء في قلب العمل البحثي بينما إضافة المادة الكمية الإمبريقية التي "تمكننا من الإجابة على كل سؤال يطرح نفسه ، وجاءت النتيجة بتداخل انتقائي للمنهجين داخل المنهجية النسوية ، بما أدى في المحصلة النهائية إلى نوع من الانتقائية النسوية (feminist eclecticism) في قلبها منظور هؤلاء الشابات وتجاربهن" (Tolman and Szalacha 1999 ، p. 11) .

فعلى سبيل المثال انخرطت الباحثتان أولا في عقد مقابلات شخصية مكثفة ، ووجدتا من خلال تحليلهما السردي وجود أربعة أصوات ضمن تجارب الفتيات مع الرغبة الجنسية: "صوت الذات ، وصوت شقيقي ، وصوت الجسد ، وصوت الاستجابة لرغبة

الذات“ (Tolman and Szalacha 1999 ، p. 14). ثم تم بعدها إعادة تشكيل تلك الروايات الكيفية وترتيبها للمقارنة بين سياقات الحضر وسياقات الضواحي. وقد جاءت الفروق الكيفية بين هاتين المجموعتين من الفتيات خاصة في الروايات التي تتحدث عن قابليتهن للتعرض للأذى، مما أدى إلى توجيه دفة البحث في مرحلته الثانية، حيث تم استخدام المنهج الكمي. وقد سعت الباحثتان -على وجه الخصوص- إلى دراسة “كيفية اختلاف المتعة والقابلية للأذى بين هاتين المجموعتين من الفتيات .. [وكذلك] ... ما إذا كان هنالك تأثير متفاعل في الأذى أو العنف الجنسي“ (Tolman and Szalacha ، p. 17). وبانتقالهما من المقابلات الشخصية المكثفة مع ثلاثين فتاة، قامت الباحثتان بإعادة صياغة وحدثهما التحليلية تبعا لعدد الروايات الواردة في المادة البحثية وعددها مائة وثمانية وعشرون رواية، تم ترميزها وتصنيفها إلى فئتين: القابلية للأذى والمتعة، بما يتيح المجال أمام تتبع العلاقات الكمية. إن مثل هذه المقاربة التكاملية تتماشى جيدا مع الرؤية الإستمولوجية الجدلية بشأن كيفية إمكان المزج بين المناهج.¹¹ إلا أننا يجب أن نتذكر أن الباحثات النسويات لا يرتحن جميعا إلى فكرة مناهج البحث المتداخل، ويرجع ذلك جزئيا إلى رغبتهم في تجنب استخدام منظومة البحث الكمي، إذ تشعر بعض الباحثات النسويات أن تلك المنظومة تتجاهل هموم ومصالح الفئات الأكثر تعرضا للقهر داخل النظام الاجتماعي - أي النساء وغيرهن من الفئات المهمورة. وهنالك باحثات نسويات أخريات يؤكدن على أن المزج بين المناهج يعني تخطي بعض الافتراضات الإستمولوجية الأساسية فيما يتعلق بطبيعة الواقع الاجتماعي في حد ذاته - أي ما يمكن معرفته ومن هو الطرف الذي يقوم بالمعرفة، وهي القضايا التي تنتقل إليها وإلى غيرها في هذا الجزء من الفصل. ففي المقابلة الشخصية الواردة في جزئية “ما وراء الستار“ تتحدث الباحثة الكيفية المتميزة، جانيس مورس، إلى عالم الاجتماع، سيزار سيسنيروس-بويلا (Cisneros-Puebla 2004). جانيس مورس هي مؤسسة المعهد الدولي للمنهجية الكيفية بجامعة ألبيرتا في كندا، وفي هذا المقطع تقدم ملاحظات مهمة في مشاكل وإمكانيات البحث متداخل المناهج.

ما وراء الستار مع

سيزار سيسنيروس-بويلا وجانيت مورس

البحث متداخل المناهج و"الدافع النظري"

سيزار سيسنيروس بويلا: كيف ترين تطور البحث متعدد المناهج (mul-timethods) وكيف ستتعامل الباحثات والباحثون الكيفيون مع مثل هذه التعددية والتنوع؟

جانيت مورس: أعتقد أن هذا النوع من البحث سيدخل في حالة من الارتباك الرهيب، ولكنه سينتظم في نهاية المطاف.

سيزار: ما نوع "الارتباك الرهيب" الذي تتحدثين عنه؟

جانيت: أعتقد أن الناس يفتقدون المهارات التحليلية اللازمة للتعامل مع البيانات والمادة الكيفية والكمية. ولا أعتقد في وجود قدر كاف من الأبحاث حول تطوير النظرية، وأعتقد في عدم وجود حتى قدر كاف من الناس الراغبين في القيام بالتطوير النظري، وهم يكتفون بما يقومون به من توصيف. أعتقد أن الضغط في اتجاه القيام ببحث متداخل المناهج، والحصول على التمويل، هي ضغوط تغطي على أهداف البحث الكيفي. وأعتقد أن جهات التمويل تقول إنها تمويل البحث الكيفي بينما تعني تمويلها البحث متداخل المناهج، وهو ما يضع البحث الكيفي في مكانة أدنى.

سيزار: ما التداعيات الإمبيريقية لاستخدام البحث متداخل المناهج؟ أعني

أن في مواجهة التعقيد القائم في العالم الواقعي يكون كل واحد منا بالتأكيد أكثر احتياجا للمناهج المتداخلة والمتعددة .

جانيت: لا أعتقد أننا جميعا مضطرون للرضوخ لتلك الضغوط . أشعر أنني أستخدم البحث متعدد المناهج حين يكون ضروريا في خطة البحث لا مجرد إرضاء جهات التمويل .

سيزار: وهل ذلك لأننا في حاجة إلى هذا النوع من البحث متعدد المناهج لإنتاج المعرفة؟

جانيت: كلام فارغ . فالمعرفة الأساسية تأتي أيضا من إجراء البحث الكيفي وحده .

سيزار: ولكن البحث الكيفي يحتاج إلى بحث متعدد المناهج . أليس كذلك؟

جانيت: كلا، إنه لا يحتاج إلى بحث متعدد المناهج ، وإنما جهات التمويل تحتاج إلى البحث متعدد المناهج ، وبعض أسئلة البحث تحتاج إلى بحث متعدد المناهج .

سيزار: استخدام البحث متعدد المناهج ليس سؤالا مرتبطا بالبحث الكيفي - وهل البحث متعدد المناهج يقدم في رأيك إجابة بالنسبة لجهات التمويل؟

جانيت: كلا، إنك تطرح أسئلة ملغمة . فأنا لم أقل أيا مما تقوله! أعتقد أن أكثر قدر من التقدم يمكن أن يتحقق من المعرفة المشتقة من البحث الكيفي . وهناك مشاكل تميل في حلها إلى بعض خطط البحث متداخلة المناهج . فلماذا لجهات التمويل أن تواصل تمويل البحث الكيفي إن لم يكن بوسعه الوقوف وحده على قدميه؟

سيزار: وما رأيك فيما يدور من نقاش معاصر حول البحث متعدد المناهج؟

جانيت: لا أعتقد أن من يكتبون عن المناهج المتعددة يلمون بمفهوم الدافع النظري (theoretical drive)، وأعتقد أن الأدبيات تفتقد إلى الإرشادات عن كيف ومتى وأين يجب على المرء ترجمة البيانات الكيفية إلى بيانات رقمية، كما تفتقد إلى إرشادات جيدة لتجميع النتائج.

المصدر: تمت إعادة النشر بموافقة من: Forum: Qualitative Social Research

المناهج: المزج أم عدم المزج؟

ما القضايا؟

سيتناول الجزء الثاني من هذا الفصل الطريقة التي تتفاعل وتوظف بها المنظومات الإيستمولوجية البحث متداخل المناهج. وهنالك أكثر من منظور إيستمولوجي لا يقبل بالمقاربات متداخلة المناهج، في حين تتبناها الأخرى ضمن خياراتها. وسيتم في هذا الفصل تناول الاختيارات المتعلقة بالمنظومات والتي يقوم بها الباحثون والباحثات في سبيلهم لمزج مناهج البحث. أما الجزء الثالث فسيتناول الأسباب التي تدعو النسويات إلى مزج المناهج. ويأتي الجزء الأخير لينظر إلى كيفية تعامل النساء مع النتائج التي تجيء أحيانا غير مرتبة عند مزج المناهج. إن البحث متداخل المناهج الذي يتم فيه المزج بين المناهج المتنوعة يعتبر مجالا صاعدا في مناهج البحث، وقد شهدت العقود الماضية الأساليب المبتكرة والناشئة في النقاش الدائر حول البحث متداخل المناهج وفي تطويره وتوظيفه. ونجد أن تلك المناهج تكتسب مقاصد مختلفة وتطرح أسئلة مختلفة على أيدي النسويات، إذ يتم استخدامها في خدمة طرح أسئلة ساعية إلى تمكين النساء أو إفساح مساحات من الإمكانيات. فهي تسعى لإيجاد إجابات على الأسئلة التي تهم النساء، وخاصة تلك التي تتناول الحدود القائمة بين الأصل واللون، والطبقة، والنوع

الاجتماعي . كذلك فإن تأمل البحث متداخل المناهج من منظور نسوي يمكنه أن يساعدنا في دراسة الصلات بين النظرية والمنهج حيث تتداخل الإستمولوجيا والمنهجية والمنهج تداخلا عميقا في الجهود الساعية للتعامل مع تلك الموضوعات . إن استكشاف تلك الصلات يقترب بنقاشنا هنا إلى مجال التحديات الإستمولوجية التي تواجه استخدام البحث متداخل المناهج .

التحديات الإستمولوجية - منظومات المقاربات إلى تداخل المناهج:

النقائي ، والبراجماتي ، والجدلي (Purist ، Paradigmatic ، and Dialectical)

هنالك نطاق واسع من البحث النسوي وغير النسوي يواجه تحديا في استخدام تداخل المناهج . فهل يجب استخدام البحث متداخل المناهج؟ ومتى؟ إن هذين السؤالين وغيرهما يشكلان قاعدة لأحد المواقف المعارضة لاستخدام البحث متداخل المناهج ، حيث تنشأ تلك التداخليات من عدة رؤى إستمولوجية بشأن ما إذا كان يجب استخدام تداخل المناهج أم لا . ولا تتمسك النسويات بمنظور إستمولوجي أوحده ، ولا يشتركن في موقف موحد حين يتعرضن للسؤال القائل: "كيف يمكننا أن نتعرف على العالم من حولنا؟" إن النسويات يتجاوزن كافة الحدود الإستمولوجية ، كما أن أصواتهن على تعددها تتحدث من داخل إستمولوجيات وضعية ، ومابعد وضعية ، ونقدية ، وبنائية ، وما بعد بنوية (Lincoln & Guba 2000) . وإن كلا من تلك المواقف الإستمولوجية ، والتي تم تناولها مسبقا في فصول هذا الكتاب ، تحمل منظورا متباينا بشأن قدرة الباحثة أو الباحث (الفرد) على توظيف تداخل المناهج . ويتركز السؤال الآن على أي المنظومات هي الأكثر استيعابا للاعتراف بالبحث متداخل المناهج والتعرف عليه وتوظيفه . وتميل منهجيات البحث الكمي إلى الاعتماد على منظومة وضعية أو مابعد وضعية حيث يكون البحث مدفوعا بالفرضية وقائما على الاستنباط . ويسعى البحث الإمبريقي الخاص

بالمنظومة الوضعية أو ما بعد الوضعية إلى الوصول إلى المعرفة الموضوعية عن العالم الذي يحيط بنا. وكثيرا ما يعتمد البحث الكيفي على منظومة نقدية أو تأويلية أو بنائية أو ما بعد بنوية حيث يكون البحث استقرائيا ومنطلقا من تجارب الأفراد والمعاني التي يصفونها على العالم المحيط بهم.¹² ولكن يجب إدراك أن بعض الباحثات والباحثين الكيفيين يكونون وضعيين أو ما بعد وضعيين في مقارباتهم الإستمولوجية. وكثيرا ما يتم وضع قطبي الإستمولوجيا باعتبارها في حالة تعارض، وهو وضع سيتم تناوله بالمزيد لاحقا في الجزئية التالية من هذا الفصل. ويتطلب المزج بين المناهج تجاوز ما كان يطلق عليه تقليديا فجوة المنظومة (paradigmatic chasm) في تناول نوعين من المناهج. إن أمورا مثل الإنصات إلى أصوات النساء، واستكشاف وتمكين تجاربهن، ودراسة العلاقات بين السلطة والمعرفة، أدت جميعها إلى مراجعة نقدية قوية للمنظومة الوضعية للعلوم. وقد جاءت النسويات المتخصصة في العلوم الاجتماعية في صدارة تلك الجهود النقدية، كما توجد جهود عديدة لتطوير أكثر من منظور إستمولوجي نقدي جديد، بما في ذلك ما تم تناوله في الفصول السابقة من هذا الكتاب. إن الطرق المتنوعة والحيوية التي قامت بها النسويات بالتعامل مع المنظور الإستمولوجي على تعدده، والطرق التي تفاعلت بها سياساتهن مع اختياراتهن المنهجية، تلقي جميعها الضوء على كثير من التحديات المنظومية التي يتم التعامل معها من قبل عديد من الباحثات والباحثين ممن يستخدمون البحث متداخل المناهج.

المقاربة المنظومية: النقائية

إن التقاطع مع كل منظور منظومي بشأن طبيعة المعرفة وطرق معرفتنا بالعالم يؤدي إلى سؤال مهم مفاده: هل تسمح عدستنا الإستمولوجية بتداخل المناهج؟ ويلخص كتاب جينيفر جرين وفاليري كاراتشيلي المقاربات الإستمولوجية الثلاث الرئيسية في تطبيق واستخدام تداخل المناهج، وأولى هذه المقاربات هي المقاربة "النقائية" (purist approach).

يرى أنصار الموقف النقائي أن الأطر أو المنظومات البحثية المختلفة تجسد -في أساسها- افتراضات مختلفة وغير متماشية بشأن الطبيعة الإنسانية والعالم وطبيعة مطالب المعرفة، وما يمكن معرفته، كذلك أن تلك الافتراضات تشكل كيانا كاملا متصلا لا يمكن تقسيمه مع الحفاظ على المعنى. وبالتالي فمن غير الممكن ولا المعقول المزج بين منظومات بحثية مختلفة داخل دراسة أو مشروع واحد. (Greene and Caracelli 1997، p. 8)

ولعل دعاة النقائية هم أكثر الشخصيات المؤثرة في خلق الفجوة الإستمولوجية والمنهجية بين المناهج الكيفية والكمية. وهم يؤكدون على أننا إما أن نكون وضعيين نستخدم المناهج الكمية أو أن نكون بنائيين نقديين (critical constructionists) نستخدم المنهجيات الكيفية. وهم يرون عدم وجود حدود تسمح باستخدام تداخل المناهج مع الحفاظ في الوقت نفسه على موقف أمين ومطاور فيما يتصل بمسألة الإستمولوجيا.

إن استخدام مقارنة نقائية في المثال الذي سبق أن قدمناه بخصوص جنسانية الفتيات سيتطلب من الباحثات والباحثين الاختيار ما بين المنهجيات الكيفية أو الكمية، وهو منظور إستمولوجي سيتناول سؤال البحث إما من موقع وضعي يستخدم معايير قياس موضوعية قابلة للتحديد الكمي والتي يتم تعميمها على مجموعة محددة من البشر، أو موقع نقدي يرى جنسانية الفتيات قابلة للتناول بمنهج البحث الكيفي. فلا مجال في المقاربة النقائية لما هو "بين اثنين" ولا مزج. ويتشكك أنصار النقائية تماما في محاولات تجاوز الفجوة بين المنهجيتين ويرون تداخل المناهج غير متوافق مع الحس القوي بالمنظور الإستمولوجي، فيرى المؤمن بالنقائية أن الباحثة أو الباحث يتجنبان عندها طرح أسئلة حول طبيعة متطلبات المعرفة وينحيان جانبا الأسئلة عن كيف يمكن للبشر معرفة العالم المحيط بهم. ويضطر أنصار النقائية إلى اختيار جانب واحد من جانبي تلك الفجوة وأن يتناولوا عملهم البحثي بالتالي تبعا للجانب الذي اختاروه، فلا يمكنهم استخدام الجانبين أو توليفات من الجانبين في مقارباتهم لدراسة سؤال البحث.

وتجيب النقائية الإستمولوجية (epistemological purism) على السؤال المطروح حول جنسانية الفتيات بالتركيز على واحدة فقط من المقاربتين . فالباحثة أو الباحث النقائيان الكيفيان (qualitative purist) سيتناولان سؤال البحث من منطلق منظور نقدي أو بنائي أو تأويلي منفتح على كل البيانات والمادة والمعاني التي تتيحها المقابلة الشخصية الكيفية أو مجموعة النقاش ، وسيؤكد أن البحث الاستطلاعي الذي يختبر بالاستنباط الفرضيات المطروحة بشأن جنسانية الفتيات هو بحث يعجز عن الإمساك التام بتفاصيل الواقع المعقد المبنية على التجربة والمحملة بالمعاني . أما الباحثة النقائية الكيفية التي تجمع إلى جانب ذلك كونها نسوية فقد تؤكد على أن البحث الاستطلاعي قد يؤدي بطبيعته إلى عدم تمكين الفتيات بإسكاتهن وتسطيح تجاربهن في شكل إجابات ثنائية البعد وقابلة للدراسة الكمية . وعلى الجانب الآخر فمن المرجح أن تؤكد الباحثة أو الباحث الكمي أن مناهج البحث الكيفي تتطلب رؤية لجنسانية الفتيات لا تمثل جهدا علميا سليما ولا تساعد في بناء معايير بحثية مهمة وموضوعية . ويرى هؤلاء أن البحث النقائي والصحيح والمضمون والموضوعي الذي يصف نتائج بحث قابلة للتعميم هو أهم جانب من جوانب بناء المعرفة ، فالباحثون النقائيون يرون أن البحث يحتاج إلى التعميم بحيث يمكن طرح مقولات عن المجموعة السكانية بأكملها . وأحيانا ترتبط النقائية الكمية أيضا بالبنى التنظيمية والمؤسسية والانضباطية التي تساعد في الحفاظ على استخدام مناهج البحث الكمي بشكل متنسق مع فرضها وتشجيعها . فعلى سبيل المثال تشير دراسة ديورا تولمان ولوراشالاكا (Tolman and Szalacha) (1999) ، إلى أنه داخل تخصص علم النفس البحثي (research psychology) نجد أن المقاربة السائدة في الإجابة على الأسئلة هي مقارنة كمية خالصة . كذلك فإن فرض الموقع النقائي الكمي يعتبر هو تراث الوضعية الطويل في العلوم الاجتماعية الذي تم تناوله في الفصول السابقة من هذا الكتاب . فبالنسبة لأنصار النقائية من المنهجين الكيفي والكمي لا يمكن التنازل عن الاختلافات الفلسفية بشأن طبيعة الواقع الاجتماعي ، فالمزج بين المناهج يمثل بالنسبة لبعض أنصار النقائية انتهاكا للمعايير الفلسفية والإستمولوجية .

وعلى الرغم من الموقف القوي الذي يتبناه النقائليون فإن هذا الموقف قد تعرض للنقد من داخل الدوائر النسوية وخارجها على السواء . فقد أكدت النسويتان جووي سبراج وماري زيمرمان أنه في واقع الأمر "كثيرا ما جاءت البدائل المنهجية التي قدمتها النسويات مجرد صورة متطابقة مع الوضعية" (Sprague and Zimmer- man 2004، p. 39)، وتؤكدان على أن الالتزام الوضعي والنسوي تجاه إما النقائنية الكمية أو الكيفية يخدم عملية إعادة بناء وإعادة تدعيم الثنائيات (dualisms) الراسخة، وتواصلان حديثهما كالآتي:

ينتظم كل من المقاربة الوضعية والمقاربة النسوية الشائعة حول أربع ثنائيات: الموضوع/الذات، العقلاني/العاطفي، المجرد/المحدد، والكمي/الكيفي، ولكن المقاربتين تختلفان في أي نصف من الثنائية يتم التركيز عليه وتقييمه باعتباره المعيار السائد. إذ تدعي الوضعية وجود واقع موضوعي، قابل للإدراك بشكل مستقل عن التجربة الذاتية، كما يعطي من قيمة ما هو عقلاني ومجرد وكمي. وعلى النقيض من ذلك نجد أن النسويات يمنحن الأولوية للتجربة الذاتية الخاصة بالأطراف الفاعلة، مع التأكيد على الجوانب العاطفية للحياة الاجتماعية الراسخة في التجارب اليومية المحددة. ويرين أن البيانات والمادة البحثية يجب أن تكون كيفية من أجل الكشف عن تلك الجوانب. (Sprague and Zimmerman 2004، p. 39)

إن اهتمامهما بالطبيعة الثنائية الكامنة داخل المقاربة النقائنية تجاه تلك الأسئلة الإستمولوجية تنقلنا إلى المقاربة الأولى التي تجد مساحة للمزج بين المناهج، ألا وهي مقارنة البراجماتيين الذين يتجنبون الترتيب الثنائي الاستقطابي لمنهج فوق الآخر وإنما يسعون إلى المناهج الأكثر ملاءمة لتناول سؤال البحث المطروح.

المقاربة المنظومية: البراجماتية

إن المجموعة الثانية من المقاربات ، وهي الموقف البراجماتي (pragmatic)

يرى وجود اختلافات فلسفية بين منظومات البحث المختلفة . ولكن الباحثة أو الباحث البراجماتيين يعتبران تلك الافتراضات الفلسفية مستقلة استقلالاً منطقياً وبالتالي يمكن مزجها والجمع بينها ، مقترنة بالاختيارات المتاحة بشأن المناهج ، وذلك من أجل الوصول إلى التركيبة الأكثر ملاءمة للمشكلة البحثية المعنية . (Greene and Caracelli 1997 ، p. 8)

وبمعنى آخر ، فإن ذلك المنظور الإستمولوجي للبحث متداخل المناهج يتطلب وجود مقاربة مرنة تعتمد تماماً على احتياجات خطة البحث . وبشكل ما أو بآخر فإن هذه المقاربة البراجماتية تعكس صورة الباحثة أو الباحث اللذين يقيمان ويقبلان بالتعبير عن موقف إستمولوجي ، ولكن فيما يتعلق بالقيام بالبحث تكون تلك الافتراضات الفلسفية منفصلة عن المطلوب للقيام بالبحث في سبيل الإجابة على أسئلة الباحث أو الباحثة .

وقد تقترب الباحثة أو الباحث البراجماتيان من المثال الذي يتكرر ذكره هنا ، ويتم طرح السؤال التالي: "ما المطلوب للإجابة على الأسئلة التي أطرحها حول جنسانية الفتيات؟" وللإجابة على هذا السؤال لا تتوجه الباحثة أو الباحث البراجماتيان إلى منظور كل منهما الإستمولوجي للاسترشاد به ، وإنما يتوجهان إلى أسئلة البحث ويسعيان إلى أفضل منهج أو مناهج لحل سؤال البحث . وتسعى الباحثة البراجماتية إلى تناول موضوع الدراسة من كافة الزوايا الممكنة مستخدمة كل الأدوات المتاحة لها للحصول على أكمل إجابة لسؤال بحثها . إن المقاربة البراجماتية للبحث متداخل المناهج تتماشى جيداً مع الأدوات المتنوعة والمعقدة التي تستخدمها الإمبريقيات النسويات عندما تمتلئ أهداف البحث الجيد بمعايير موضوعية للإجراءات التي تستدعي من خطة البحث أن تكون مدفوعة بأفضل السبل لتناول فرضية ما .

فكيف للبراجماتيين أن يتناولوا أسئلة البحث في مقاربتهم بالنسبة لثال جنسانية الفتيات؟ لعل مركز اهتمام الباحثات والباحثين ينصب على المقارنة بين نوعين من برامج التربية الجنسية في حي مدرسي معين. إن الدراسة الدقيقة والشاملة لمضمون مقرر التربية الجنسية قد تستدعي من هؤلاء الباحثات والباحثين استخدام تحليلات كيفية، مثل الملاحظة بالمشاركة، والمقابلات الشخصية، ودراسات الحالة التفصيلية. ويكون قصدهم الأساسي في ذلك الجانب من خطة البحث هو فهرسة وتوصيف واستكشاف الاختلافات الكيفية بين هذين النوعين من برامج التربية الجنسية. أما الجانب الثاني من خطة البحث فقد تتضمن استطلاعاً كمياً يقيم التغيرات السلوكية لدى التلاميذ فيما يتعلق بالتجربة الجنسية والمعرفة التي يكتسبونها في كل برنامج من هذين البرنامجين. وقد يختار هؤلاء الباحثون والباحثات إدماج أبحاثهم متداخلة المناهج في نص تحليلي نهائي يوجد ترابطاً بين مضمون وناتج تلك البرامج التربوية بالنسبة لجنسانية الفتيات. فإذا ركزت هؤلاء الباحثات والباحثون الافتراضيون الاهتمام على فاعلية أنواع معينة من برامج التربية الجنسية، وما يشتمل عليه محتواها ونتائجها، فيمكن لهم استخدام المقاربة البراجماتية في مزج المناهج للحصول على أكثر الإجابات شمولية. إن الدراسة التي سبقت الإشارة إليها - كمثال على الكيفي يعقبه الكمي - (Lackey and Moberg 1998) تتماشى جيداً مع الموقف الإستمولوجي البراجماتي، إذ يندمج بحثهما مع الجهد البحثي الأكبر في تناول طرق الوقاية من مخاطر السلوك الجنسي لدى المراهقين والمراهقات. وقد رأت الدراسة السابقة أن معظم الباحثين والباحثات "يقصرون أبحاثهم وتحليلاتهم على عوامل مسبقة كالمهارات الفردية، والعلاقات الأسرية، وضغوط الرفاق" (Lackey and Moberg 1998، p. 491). إلا أن الباحثين وجدوا في هذه الدراسة أن تلك العوامل غير فعالة في الكشف عن الحكاية الكاملة للمجازفات المتصلة بالحياة الجنسية، فمثلها كغيرها ممن يستخدمون مقاربات براجماتية نجدهما قد سعيا ببساطة للوصول إلى "أفضل" طريق يمكنهما من الإجابة على سؤالهما، وذلك بدلاً من التعامل مع الفجوات الإستمولوجية التي تتفاعل مع النقاشات المنهجية الأخرى. فقد سعيا للوصول

إلى فهم وقياس أكثر صحة وأكثر تعقيدا لانخراط المراهقات والمراهقين الأمريكيين في الحضر في الممارسات الجنسية، إلا أنهما لم يحصرا نفسيهما في تحليل يتسم بقدر أكبر من الإحكام في بنيته، والذي نشأ من الأبحاث الاستطلاعية التي تمت في الماضي. بل اختار الباحثان استخدام مقاربة تداخل المناهج التي تعترف بأهمية عوامل البنى الفردية والأسرية والمتصلة بمجموعة الرفاق، بينما تقوم في الوقت ذاته بتضمين فهم متنوع للإطار الثقافي الذي يتم التوصل إليه من خلال المناهج الكيفية. إن الجانب الذي يميز المقاربة البراجماتية عن غيرها من المقاربات الإستمولوجية للبحث متداخل المناهج هو أن الباحثات والباحثين الذين يستخدمونه لا يشعرون بالحاجة إلى وضع تحليل لموقفهم الإستمولوجي. وهم يسعون إلى الإجابة عن السؤال المطروح بأكبر قدر وقصد، دون أن يتوهوا- من وجهة نظرهم- في النقاش والجدل الإستمولوجي. وبشكل ما يكون من الأسر على البراجماتيين والبراجماتيات المزج بين المناهج، إذ إنهم ليسوا مقيدين بالجدل الإستمولوجي الذي قد ينخرط فيه النقائيون والجدليون، وإنما هم يهتمون بالنتائج التي يتوصلون فيها في بحثهم. إلا أن بعض الباحثات والباحثين يمكنهم الحصول على فوائد كثيرة من الاعتراف بالاختلافات القائمة بين المناهج التي يتم المزج بينها، إذ يرى البعض أن هنالك تداعيات سياسية وإستمولوجية مترتبة على اختيار تداخل المناهج وأن مزج المناهج يجب أن يكون أمرا يتسم بالصعوبة ويحمل تحديات. ويرى بعض الباحثين والباحثات وجود مصدر قوة كبيرة فيما يكشفون عنه من تناقض وتجانس في مزج المناهج، وخاصة أولئك الملتزمين بالمقاربة الجدلية.

المقاربة المنظومية: الجدلية

أما المقاربة الثالثة التي يعرضها كتاب جينيفر جرين وفاليري كاريتشيلي فهي الموقف الجدلي (dialectical position) الذي

يرى أن الاختلافات بين المنظومات الفلسفية لمنطق التبرير في أبحاث العلوم الاجتماعية ليست قائمة بالفعل فقط وإنما هي مهمة. وهي اختلافات لا يمكن تجاهلها أو التصالح معها، وإنما يجب احترامها بطرق تحافظ على اتساق المنظومات المتباينة. وكذلك يجب استخدام تلك الاختلافات عن قصد داخل الدراسات وعبرها نحو التوصل إلى كشف جدلي للفهم المتطور ومعان ورؤى جديدة وخاضعة للمراجعة. (Greene and Caracelli 1997، p. 8).

هنا نجد أن الموقف الجدلي يخلق حواراً حلزونياً بين المنظومات الإستمولوجية والمناهج ذاتها. فداخل تلك المساحات الحلزونية (spirals) يميل الباحثون والباحثات إلى فحص جانب العمل البحثي، سعياً للتعبير والكشف عن المكاسب والخسائر المتعلقة بالمناهج ونتائج المزج بينها. إن خطة البحث تتضمن لحظات يتحاور فيها المنهجان، متجاوزين وجهات النظر الإستمولوجية دون هدمها، وهي وجهات النظر التي تضع المنهجيات الكيفية والكمية في وضع تنفصل فيه الواحدة عن الأخرى. إنه مثال لعبور الحدود يتضح فيه التوتر القائم بين المناهج من ناحية وبين عمليات المزج بينها، وكثيراً ما تنشأ عنه أفكار مفيدة. إن الأطر التأويلية والبنائية التي يقوم عليها البحث الكيفي تؤثر أيضاً على أنواع المقاييس الكمية المستخدمة، ووجهات النظر الوضعية وما بعد الوضعية التي تبني منهجيات كمية تهدف إلى صياغة محتوى قابل للتعميم في جوانب البحث الكيفية.

إن هذه المقاربة الجدلية تتناسب أكثر ما تتناسب مع القصد والنتائج الخاص بالمشروع البحثي لدى ديورا تولمان ولورا شالاکا، إذ قامت الباحثتان بتضمين خطة بحثهما "ثلاث إعادات تنظمها ثلاث أسئلة بحث منفصلة ومتآزرة، والتي نشأت بالتتابع استجابة للنتائج المتولدة عن تتبع سؤال البحث السابق" (Tolman and Szalacha 1999، p. 13). ففي كل مرحلة من هذا البحث، وعند كل تحول في بؤرة اهتمام البحث، واصلتا توجيه نتائج البحث إلى بؤرة الجدول الحلزوني. فقد قامتا ببناء صورة

متعددة الطبقات لجنسانية الفتيات بدأت بإطار كفي يركز على السؤال التالي: "كيف تصف الفتيات تجاربهن الخاصة بالرغبة الجنسية؟"

ومثلهما في ذلك مثل العديد من الباحثين والباحثات ممن يعتمدون على السؤال الإستمولوجي بشأن عما إذا كان في وسع المرء مزج المناهج وكيفية القيام بذلك، توجهت الباحثتان ديورا تولمان ولورا شالاكا إلى عوامل القوة الكامنة في كلا المنهجين. وبدلاً من الابتعاد بمشروعهما البحثي عن الأسئلة الفلسفية المتعلقة بالمشروع،¹³ وهو ما نراه لدى بعض البراجماتيين، نجدهما تتعاملان مباشرة مع القضايا الفلسفية القائمة، وفي ذلك تعقبان قائلتين:

كثيراً ما يتم فهم المقاربات الكمية والكيفية باعتبارهما منظومتين بحثيتين منفصلتين، بينهما افتراضات ومتطلبات وإجراءات مختلفة جذرياً تضرب بجذورها في إستمولوجيات مختلفة تماماً. إذ يرى موقف من هذا الجدل الفلسفي أن الدمج بين المنظومتين الكمية والكيفية مستحيل؛ لأنهما تمثلان رؤيتين منفصمتين للعالم. أما الموقف الآخر القائم على أسس فلسفية وبراجماتية فيرى أن كلتا المنظومتين يمكن الجمع بينهما على مستوى الممارسة البحثية الفعلية، وأنه يجب الجمع بينهما على مستوى الافتراضات المنهجية لعلم الاجتماع، ويرجع ذلك إلى أن تلك الاهتمامات تسبقها في الأهمية الأغراض السياسية بشأن كيفية استخدام نتائج البحث. (Firestone 1993; Tashakkori & Teddlie 1998 cited in Tolman & Szalacha 1999, p. 9).

إنهما توجهان تركيزهما التام إلى بناء جسر بين المناهج الكمية والكيفية للوصول إلى مزايا كلا المنهجين والتفاعل معهما، بدلاً من احتلال مواقع متعارضة على النقيض من أحدهما الآخر. إن النقاط الإستمولوجية المشتركة التي تعرضها ديورا تولمان

ولورا شالالاكا تقوم على مقدمة منطقية وهي أن "التحدي القائم في التعامل مع المشاكل الاجتماعية المعقدة ، وخاصة تلك التي تواجه علم النفس التطبيقي الناشط كعلم النفس النسوي ، تتطلب مزيداً من الفحص للإمكانيات الكامنة في الجمع بين المناهج الكمية والكيفية" (Tolman & Szalacha 1999 ، p. 10). وترى الباحثتان أن الإمكانيات الكامنة لتوحيد هذين الشكلين من مناهج البحث ، بالتلاحم والتفاعل ، هي وحدها القادرة على جعل تعقيدات عالمنا الاجتماعي في بؤرة الإدراك . وتسعى هاتان الباحثتان إلى معرفة أمر ما عن العالم ، وهو أمر شعرنا أنه قابل لإستمولوجياً للتحقيق عن طريق واحد وهو التوحيد بين هاتين المنهجيتين وبناء جسر بين هاتين المنظومتين .

أما الأسئلة حول هل وكيف ومتى يجب الجمع بين المناهج فهي أسئلة تنطلق مباشرة من المنظور الإستمولوجي ، فالجدل القائم حول تلك الأسئلة يتسم بالحيوية داخل الدوائر المنهجية . كما أن الحدود بين المواقف الإستمولوجية: النقائية والبرجماتية والجدلية فيما يتصل بالبحث متداخل المناهج هي مواقف ، مثلها في ذلك مثل غيرها من التصنيفات ، تتسم بقدر من الضبابية . وكما تشير الباحثتان يوجد في بعض الحالات كثير من الباحثين والباحثات ممن يستشعرون الحاجة إلى تجاهل النقاش السياسي والإستمولوجي ويواصلون ببساطة البحث متداخل المناهج باعتباره يلائم سؤال البحث المطروح . إلا أن هذا افتراض يصعب على الكثيرات من الباحثات النسويات تبنيه لقناعتهم بأن المناهج المعنية لها تأثير حقيقي وقوي ودائم على العالم الذي يسعين إلى التفاعل معه وفهمه .

حوارات منهجية عبر الحدود: لماذا تختار النسويات البحث متداخل المناهج؟

نظرا لقدرة البحث النسوي على تناول أو تجنب الفخاخ النظرية والسياسية والإستمولوجية التي وضعتها العلوم الكيفية الوضعية ، فقد أصبح البحث النسوي

وبشكل متزايد مرادفا للبحث الكيفي ، كما أخذت الكثيرات من الباحثات النسويات في الدفع باستخدام منهجيات البحث الكيفي والكمي على السواء (Brannen 1992; Devine & Heath 1999; Maynard & Purvis 1994). إن النقاشات والجدل ، بما يحمله من قوة بيان وبلاغة تعبير تؤدي إلى انقسامات بالغة داخل المجتمع النسوي ، جعلت الكثيرين مترددين في فرض مثل تلك الثنائيات ، وقد عملت التنازلات المتبادلة والجسور المقربة بين هذين المنهجين (الكيفي والكمي) ، بالإضافة إلى الضرورة الملحة لتناول سؤال البحث ، أدت جميعها إلى تضيق الهوية القائمة بين المناهج . إن التعامل مع المناهج وحدودها ، والتعامل مع الثنائيات المتصلة (Fine 1994) تلقي بالضوء على التعقيدات الكامنة في الاختيارات المنهجية . فالتعامل مع الثنائيات المتصلة (working the hyphen) ، في سياق تداخل المناهج يبني جسورا تزيد من مساحة الإجابات التي يمكن الوصول إليها عند طرح الأسئلة بشأن ما الذي يمكننا تأكله؟ وكيف يمكننا فهم حقائق عالمنا؟ إن التعامل مع الثنائيات المتصلة يمكنه أن يلائم برنامج العمل النسوي الذي ”يطرح منهجية نسوية جامعة مبنية على المقدمة المنطقية القائلة بأن البحث الاجتماعي يجمع بين كونه جمعيا ومساريا“ (Sprague & Zimmerman 2004 ، p. 39). وفي خضم الروح المنهجية الخاصة بالجمع بين تلك الثنائيات ، نجد أن تفكيك ثنائية إما/أو قد يتضمن المزج بين المنهجين الكيفي والكمي . ويتضمن بناء الجسور توسيع مجال المعنى الذي يمكن الوصول إليه داخل نطاق البحث الواحد . ونجد أن الأسباب والأغراض المتصلة بقرار اختيار الاستعانة بالبحث متداخل المناهج تتنوع بتنوع الباحثات والباحثين وموضوعات البحث . إلا أنه يمكننا في بعض المناهج المتداخلة التي تم تناولها في هذا الفصل أن نتوقف أمام عدد من الأسباب التي قد تجعل الباحثة النسوية تختار التعامل مع الثنائيات المتصلة والمزج بين مناهج البحث .¹⁴

وقد ترى بعض النسويات اختيار البحث متداخل المناهج لنفس الأسباب التي تراها الباحثات والباحثون غير التسويين ، وهي الأغراض الخاصة بما يلي: الدحض ، واستخدام ثلاث أدوات بحث (triangulation) ، وفحص الإجراءات ، ومد شبك

البحث إلى أوسع مدى ، والتراث الملتنزم بالتخصص الواحد. وإلى جانب الأسباب العامة لاستخدام تداخل المناهج تميل الباحثات النسويات إلى إضافة طبقات جديدة من التفسير المنطقي للاختيارات التي يقمن بها في بداية إعداد خطة البحث ، وهي أسباب تتضمن إحساسا بازدواج الوعي ، والاهتمام بالمعرفة الخاضعة والأصوات المعرضة للإسكات ، وكذلك تمكين كل من الباحثة والمشاركة في البحث .¹⁵

الدحض

إن تناول الأسباب التي قد تجعل الباحثة أو الباحث يتبعان مقارنة تقوم على تداخل المناهج توصلنا إلى الهدف المتمثل في السعي إلى دحض (falsification) أو اختبار فرضية ما . وهو ما يتضح في أعمال كل من جويس لادنر (Ladner 1971) وديورا تولمان ولورا شالاكا (Tolman and Szalacha 1999) . فنجد أن خطتي البحث السابقتين تنطلقان بغرض دراسة ودحض المفاهيم السائدة القائلة بأن النشاط الجنسي للمراهقات هو سلوك منحرف أو غير سوي . كما توضح لنا ديورا تولمان ولورا شالاكا أيضا أن بوسع البحث متداخل المناهج بناء جسور بين حزم النظريات الكلية والجزئية (macro and micro sets of theories) عن الجنسية ، فتقوم الباحثتان بتطوير مقاييس جزئية (micromeasures) جديدة تنطلق من المادة الكيفية لأصوات الفتيات عن الجسد والرغبة . ثم تقوم الباحثتان بتوضيح كيف يمكن التوحيد بين تلك المقاييس الجزئية بطرق جديدة للفهم ، ودراسة البنى الكلية (macrostructures) التي تشكل النظريات الخاصة بالانحراف والجنسانية .

استخدام ثلاث أدوات بحث

إن استخدام ثلاث أدوات بحث هو سبب آخر من الأسباب التي قد تدفع بالباحثات والباحثين إلى اتباع تداخل المناهج . واستخدام ثلاث أدوات بحث (triangulation)

يشير عموماً إلى استخدام منهجين للوصول إلى حزمة بيانات مفردة تجيب على سؤال معين . وعلى الرغم من أن هذا المفهوم يحمل معاني تختلف من باحثة إلى أخرى فإنه يمكننا التوقف أمام الأسباب التي قد تجعل استخدام ثلاث أدوات بحث أمراً ذا أهمية بالنسبة للباحثة النسوية في معرض نقاشنا هنا.¹⁶ ويمثل استخدام ثلاث أدوات بحث بالنسبة للباحثة أو الباحث البراجماتي مبرراً قوياً لتبني البحث متداخل المناهج ، فتكون الباحثة أو الباحث البراجماتي حريصين حرصاً بالغاً على توضيح الأمور باستخدام الصور ، فقد أوضح جيل لافي وبول موبيرج (Lackey and Moberg 1998) هذا الأمر في محاولتهما لجمع أكثر قدر ممكن من حزمة البيانات المكتملة حول مسألة جنسانية الفتيات . وبالنسبة للباحثات النسويات:

يعكس استخدام المناهج المتعددة هوية كثير من الباحثات النسويات من حيث تعدد أوجهها . فنحن متعدّدات الأوجه لأننا نعمل في عصر نهضة نسوية تتجاوز حدود التخصصات العلمية وتتحدى كثيراً من قدراتنا في آن . إن هذه التعددية التي نتسم بها تجعل البحث أحادي المنهج يبدو مسطحاً وغير ملائم للكشف عن تعقيدات حيوات النساء والتعبير عنها . (Reinharz, 1992, p. 202)

ويعكس منظور شولاميت رينهارتز بشأن أسباب مزج المناهج عن رغبة الكثيرات من النسويات في خلق أكثر قدر ممكن من التعددية والتعقيد في عرض تحليل البيانات والمادة العلمية .

فحص إجراءات البحث

كثيراً ما تستخدم الباحثات النسويات وغير النسويات تداخل المناهج في فحص إجراءاتهن وتحسينها في جمع المادة (interrogating research measures) ، فنقوم بعضهن بتطوير أسئلة استطلاع الرأي بعد قيامهن بجمع مكثف للمادة العلمية ،

ويستخدم من القضايا واللغة والمصطلحات التي تظهر في المادة الكيفية في صياغة أسئلة استطلاع الرأي. ونجد أن جيل لاكي وبول موبيرج (Lackey and Moberg 1998)، يقدمان لنا مثالا على مزج المناهج "للكشف عن آراء المشاركين والمشاركين بغية استخدام تلك الآراء لتطوير واختبار أداة ما على عينة من مجموعة بشرية ما" (Creswell 2003، p. 100). وقد بدأت جيل لاكي وبول موبيرج بحثهما بمجموعة نقاشية كيفية، أدت بالتالي إلى قيامهما بإضافة أسئلة استطلاعية تلتفت إلى القضايا المذكورة في تلك المجموعات النقاشية وتقيسها. أما غالبية الإضافات التي أضافها على استطلاع الرأي فتتناول "الاتصال بالإعلام والثقافة الرائجة" (Lackey and Moberg 1998، p. 495). وقد اكتشفا وجود فكرة بالغة الشيوع ظهرت لهما من خلال المجموعات النقاشية، وهي الفكرة الخاصة بانتشار الرسائل الداعية إلى الممارسة الجنسية في وسائل الإعلام والثقافة الرائجة. وقد دفعتهما تلك الفكرة من منطلق برجماتي إلى إضافة إجراءات البحث الاستطلاعي وتعديلها.¹⁷

مد شباك البحث

من الأسباب الأخرى الدافعة إلى مزج المناهج والتي يتم عادة ربطها باستخدام ثلاث أدوات بحث هو السبب الذي تبينه شولاميت رينهارتز التي تصف الباحثات النسويات اللاتي يستعن بكل من المناهج الكمية والكيفية

من أجل مد الشباك إلى أوسع مدى ممكن بحثا عن فهم للقضايا الملحة في حيوات النساء. إن المقاربة متعددة المناهج زودت من إمكانية توصل هؤلاء الباحثات إلى فهم لما يدرسون، وما يمكنهن به من إقناع الآخرين بصدق نتائج بحثهن. ويعمل تعدد المناهج على تحسين الفهم، وذلك من خلال إضافة طبقات من المعلومات، وباستخدام نوع واحد من البيانات لتأكيد صحة البيانات الأخرى وصقلها. (Reinharz 1992، p. 201)

إن مد شباكنا إلى أوسع مدى هو سبب قوي وبراجماتي لاستخدام تداخل المناهج. إن القصد عند ترك كافة الأبواب مفتوحة هو عملية مقصودة وقوية تحرر الباحثة والباحث أمام اختيار المنهج الذي قد يحسن أوضاع النساء، أو قد يجيب على سؤال مهم. ففقدرة النسويات على اختبار وتحسين مناهجهن المختارة عبر التفاعل مع المناهج الآتية من منهجيات أخرى هو مبرر آخر مهم لتداخل المناهج.

أطر التخصصات المعرفية

هنالك جوانب للمنظور المنهجي تعتمد ببساطة على إطار التخصص المعرفي (dis-iplinary framework)، الذي تعمل الباحثة النسوية من داخله. وفي ذلك ترى شولاميت رينهارتز أن "النسوية تضيف إلى المنظور، والتخصصات تضيف إلى المنهج. والباحثة النسوية تقع عند تقاطعاتها" (Reinharz 1992، p. 243). أما بالنسبة لديورا تولمان ولورا شالاكا فإن علم النفس، باعتباره تخصصا معرفيا، يفضل ويشجع منهجيات البحث الكمي. في حين أنه بالنسبة للباحثات والباحثين الآخرين، ممن تتقبل تخصصاتهم المعرفية استراتيجيات البحث الاستقرائي والكيفي، فقد تتيح مناهج البحث الكيفي القاعدة الأساسية لخطة البحث متداخل المناهج.

الوعي المزدوج

حين يتصل الأمر بفهم الأسباب التي تجعل النسويات راغبات في مزج المناهج يمكننا أيضا القول بإيجاز بأن البحث النسوي يمكنه تحديدا إتاحة مساحة لاستكشاف تداخل المناهج. فقد عكفت الباحثات النسويات منذ فترة طويلة على مناقشة الطرق المتعددة لاكتساب المعرفة والمواقع المتعددة للرؤية والتأمل التي تمكن النساء من معرفة العالم

عموماً. والأسباب التي تدفع إلى تفكيك وتجنب الثنائية المتعارضة الزائفة بين المناهج الكيفية والكمية هي أسباب تتضمن أهدافاً تخصصية نسوية تهدف إلى تجنب التراتيبات وتمييز المنهجيات الكمية بدون وجه حق.¹⁸ وربما يتيح تداخل المناهج للنسويات مساحة جديدة للتعبير عن تلك الطرق العديدة للمعرفة واستخدامها. وتناقش باربرا دي بويس المقصد العام من وراء البحث النسوي باعتباره مقصداً عاطفياً يهدف إلى "رؤية ما هو موجود هناك، لا ما تعلمنا أنه موجود هناك، ولا حتى ما قد نتمنى أن نجده، بل ما هو موجود. فنحن لا نستطيع رؤية النساء من خلال العلوم والنظريات التقليدية" (Barbara DuBois 1983، p. 109-110). كما تشير إلى أن البحث النسوي:

هو مهمة جماعية لا فردية، حيث يتطور لدى النساء "وعي مزدوج"، فتكون النساء داخل مجتمعنا ومن مجتمعنا، ولكنهن أيضاً وبشكل ما مهم أيضاً لسن "من" المجتمع... ونحن ندرك، حتى وإن كان ذلك بشكل بدائي غير مكتمل، حقيقة رؤانا وتجاربنا، وندرك أن تلك الحقيقة كثيراً ما كانت غير مسماة أو غير قابلة للتسمية، ونفهم أن وضعنا غير المرئي وسكوتنا يحملان بذور الجنون والقوة في آن، وبذور الفناء والخلق في آن. (Barbara DuBois 1983، p. 111-112)

المعارف الخاضعة للتبعية والأصوات الخاضعة للإسكات

انطلاقاً من أفكار باربرا دي بويس حول الوعي المزدوج (double-consciousness)، يمكننا التفكير في مدى قدرة تداخل المناهج على الوصول إلى المعارف الخاضعة للتبعية (subjugated knowledges) والأصوات الخاضعة للإسكات (silenced voices). ومثلها في ذلك مثل جويس لادنر وكل من ديبورا تولمان ولورا شالاكا، تقترب باربرا دي بويس من الأهداف النسوية الساعية إلى تسمية الأشياء غير المسماة،

وتناول ما هو تقليدي غير مرئي في أنماط إنتاج المعرفة التقليدية وجعله مرئيا . ومن الممكن لاستخدام "الوعي المزدوج" لدى النساء ضمن جهود توسيع وتوظيف تداخل المناهج أن يتيح طرقا ممكنة لخلق المعرفة . ومن أجل تسليط المزيد من الضوء على الأبعاد والاهتمامات والسياقات التي تضيفها الباحثات النسويات إلى النقاش الدائر حول تداخل المناهج ، سنعود إلى المثال الذي سبق أن طرحناه للبحث متداخل المناهج في تناول جنسانية الفتيات ونشاطهن الجنسي . إن المقاربة متداخلة المناهج لباحثة أو باحث غير نسوي ربما تتفاعل بقدر أقل مقارنة بالباحثة النسوية مع الافتراضات الإستمولوجية والمنهجية التي يتطلبها البحث الكمي والبحث الكيفي على السواء . أما الباحث النسوي أو الباحثة النسوية فتكون أقرب إلى الانطلاق في البحث من منظور كيفي ، وذلك نتيجة للاهتمام بأصوات النساء وتجاربهن . ومن هذا المنطلق قد تعمل الباحثة النسوية أو الباحث النسوي على وضع الإجراءات الكمية داخل خطة البحث برجماتيا ، أو تضمين جانبي مناهج البحث المستخدمة جدليا .

وقد توجه العمل البحثي الذي قامت به ديورا تولمان ولورا شالاكا بداية إلى أصوات الفتيات من خلال عقد مقابلات شخصية مكثفة ، ثم تمت إعادة تناول روايات الفتيات بوضعها في سياق كمي للمقارنة بين البيئة الحضرية والضواحي . وبعد ذلك تم تناول الروايات بمزيد من الدراسة الكمية لمقارنة جنسانية الفتيات في أبعادها العديدة من متعة ، وقابلية التعرض للأذى ، وعلاقة ذلك بالعنف أو الأذى الجنسي . إن مثل هذه المقاربة التكاملية تتماشى جيدا مع الرؤية الإستمولوجية الجدلية لكيفية إمكان المزج بين المناهج.¹⁹

التمكين

إن البحث النسوي بانخراطه في المنهج الكيفي أو الكمي أو المتداخل يركز دائما بصورة أو بأخرى على السعي لتحسين أوضاع الإنسانية عامة والنساء خاصة .

وتضفي الباحثات النسويات على تداخل المناهج تركيزاً محورياً على قضايا النساء؛ اعتماداً على اهتمامهن السياسي بإلقاء الضوء على المؤسسات والمشاكل الاجتماعية التي تؤثر على حيوات النساء. كذلك فإن الباحثات النسويات، من كافة الاتجاهات، موجودات وحاضرات في مشروعاتهن البحثية، إذ يحددن موقعهن من خلال المنظور السياسي المتبع في المسار البحثي، متعاملات ومتفاعلات مع منظورهن الإستمولوجي والمنهجيات المستخدمة والمناهج المتبعة. ومن متطلبات البحث لديهن وجود إحساس بالتكرار والتأمل المكثف للمناهج التي يخترنها في البحث. وتهتم الكثيرات من النسويات تحديداً بالدور الذي قد تلعبه مناهجهن البحثية في تغيير أو تفعيل علاقات القوى خلال مسار البحث، فنجدهن يتساءلن: "هل تداخل المناهج مفيد من أجل تحقيق أهدافي البحثية؟ وهل هو مفيد لي شخصياً؟" ويسعين إلى المناهج التي تدعم وتمكن المستجيبات والمشاركات والمشاركين في البحث، وكذلك ما يدعم ويمكن البحث نفسه. وتقوم الباحثات النسويات ببناء جسور تتخطى الفجوة لقناعتهم بأن الأمر يستحق العبور. والمنظور النسوي يتيح للباحثة أن تتفاعل وتتلاحم مع ثلاث لحظات من البحث بحيث لا تنفصل أبداً عن بعضها البعض مثلما يكثر حدوثه في البحث غير النسوي.²⁰ إن البحث متداخل المناهج يعزز من التأمل العميق للمنهجية المتبعة؛ اعتماداً على نقطتي بداية المسار الممتد ونهايته، فهو يتيح للباحثات النسويات تحقيق كثير من أهداف البحث بما في ذلك تقويض الانحيازات والعمل من أجل التغيير الاجتماعي والكشف عن أصوات النساء.

فعلى سبيل المثال تميل الباحثات النسويات إلى طرح التساؤلات حول إجراءات البحث الاستطلاعي الكمي الذي يقمن به، كما يدرسن مدى احتمالية عمل أسئلتهن على إسكات النساء وإضعافهن. ومن الوارد جداً أن تتوقف الباحثات النسويات أمام السؤال الاستطلاعي القائل: "هل سبق أن أقمت علاقة جنسية؟" باعتباره سؤالاً إشكالياً. فمع حساسيتهن وانتباههن إلى قضايا القوة والنزعة الجوهرية، نجدهن أميل إلى الالتفات إلى أن الفتاة التي قد لا تعتبر نفسها غيرية الجنسية (heterosexual) قد تكون نشطة جنسياً

دون أن يقاس ذلك بدقة أو بصورة مناسبة عن طريق مثل هذا السؤال الاستطلاعي . وقد تقوم الباحثة النسوية حينها بإعادة صياغة استطلاع الرأي بحيث تطرح أسئلة محددة عن النشاط الجنسي بما يتضمن نطاقاً أوسع من التفاعل الجنسي بين الأفراد . وبالتالي فإن الاستبيان البحثي الذي تقوم به باحثة نسوية أو باحث نسوي لن يقتصر في الغالب على مفهوم العلاقة الجنسية الغيرية .

وسنجد الإحساس بقضايا الفتيات من حيث التمكين والاعتداد بالنفس والسرية قائما في كل مراحل إعداد البحث ، فعلى سبيل المثال نجد ديبورا تولمان ولوراشالاكا تناقشان الأسباب التي دعتهم إلى عدم جمع المعلومات عن الوضع الاقتصادي الاجتماعي (so-cioeconomic status) ، للمشاركات ، وذلك لقلقهما من أن طرح سؤال عن الطبقة أو الدخل أو الوضع الأسري قد يؤدي إلى الصمت عن المعلومات الخاصة بموضوعات أخرى شائكة كالرغبة الجنسية والعنف الجنسي . وتذكر الباحثتان في كتابهما أنه نظراً إلى أن ديبورا تولمان كانت "تطلب من الفتيات الحديث عن أمر هو في جوهره غير قابل للحديث عنه ، ولذا فقد اختارت -بحرص- الأمور التي ستسأل عنها وتلك التي لن تتطرق إليها بما يؤدي إلى بناء الثقة" . (Tolman and Szalacha 1999 ، p. 12) . وقد وجدت الباحثتان في حالات كثيرة أن الوضع الاقتصادي الاجتماعي كان يطرح خلال المجموعات النقاشية ، ولكن جاءت الاختلافات في المواقع ما بين الحضر والضواحي؛ لتكون هي في الواقع مؤشراً أفضل على الاختلاف فيما يتعلق بالرغبة الجنسية . فبدلاً من البحث عن معلومات بشأن الوضع الاقتصادي الاجتماعي والاكتفاء بها في التحليل ، جاءت أصوات الاختلافات ما بين الحضر والضواحي معبرة عن نفسها بقوة في المادة المجموعة:

إن حجم الاختلاف الذي لاحظناه كيفياً كان في تجارب الرغبة لدى الفتيات بين الحضر والضواحي . كما تمكنا أيضاً من إلقاء الضوء على: (هنالك علاقة بين مواقع هؤلاء الفتيات الاجتماعية وبين تاريخهن

الشخصي مع التعرض للانتهاكات الجنسية)، والذي اتضح جليا في كيفية معاشتهن وإضافتهن المعنى على رغباتهن الشخصية، وخاصة في تحديد مدى القيود المفروضة أو الدعم المقدم لهن في تمكينهن من الربط بين ما يعايشنه شخصا من رغبة جنسية ومتعة. (Tolman and Szalacha، 1999، p. 21)

ومن جانب آخر فإن منهجيات البحث الكمي غير النسوي التي تستخدم مناهج البحث الاستطلاعي، تميل إلى عدم فحص البيانات الناجمة عن هذا السؤال المطروح، فلن يتم توجيه اهتمام كبير بالطريقة التي قد تتناول بها المستجيبة هذا السؤال ومدى تأثيره على الثقة. ففي سياق المقابلات الشخصية كانت الصراحة والثقة والاعتبارات العاطفية لمشاعر المستجيبات من الجوانب المهمة بالنسبة لديبورا تولمان ولورا شالاكا، كما هو الحال بالنسبة لكثيرات من الباحثات النسويات.

فقد توقفتا لتأمل مراحل منهجيتهما في البحث واستخدامهما لمناهج بحثهما قبل بدء التعامل مع المستجيبات. وقد أرادتا أن تشعر المستجيبات بأكثر قدر ممكن من الراحة داخل سياق البحث، بحيث تتمكن المستجيبات من الوصول إلى أكبر قدر من الفهم لتجاربهن ومشاعرهن. فقد توقفت الباحثتان أمام اهتماماتهما الإستمولوجية والسياسية التي قد تعمل على إسكات أصوات الفتيات إذا ما طرحتا عليهن أسئلة التقصي (prob-ing questions)، في استطلاع الرأي. وقد تم تناول موضوع الجنسانية والنشاط الجنسي بقدر من الرقة والحرص والوضوح بهدف زيادة سبل تمكين هؤلاء الفتيات وتقليل سبل إسكاتهن بفعل أدوات البحث والقائمات به.

وبينما نجد أن عددا قليلا من الباحثات النسويات هن اللاتي يتنقلن بسلاسة عبر الحدود الإستمولوجية، فإن هنالك تنوعات واهتمامات معينة تؤثر في تشكيل المنهجيات النسوية. فالالتفات إلى أصوات النساء، والاختلاف بين مجموعات النساء وداخل تلك

المجموعات ، وتجارب النساء المحددة والمرتبطة بالسياقات ، وموقعية -positional) ity) ، الباحثة أو الباحث ، تمثل -عادة- جزءا من النقاشات النسوية حول المنهجيات المستخدمة ، سواء كانت كيفية أو كمية أو متداخلة المناهج . وهي هموم تجعل استخدام النسويات لتداخل المناهج مغايرا للمقاربات غير النسوية . فالمقاربة متداخلة المناهج تلائم كثيرا من أسس البحث النسوي ، وخاصة باعتباره سبيلا يفتح اختيارات عديدة أمام الباحثات ، كما أن خطط البحث متداخل المناهج تستطيع أن تحقق كثيرا من الأهداف التي تعمل على تمكين البحث النسوي إذا ما تم اختيارها بحكمة .

مزج المناهج: النسويات في غمار فوضى نتائج البحث متداخل المناهج

بالنسبة للباحثات النسويات يختص المنهج بالاختيارات المتاحة ، وعند القيام بتلك الاختيارات تسعى النسويات إلى الأدوات التي تمكنهن من القيام بعملهن . ونجدهن يدرسن مدى التأثير الإستمولوجي الفعال الذي يمكن لبحثهن أن يحققه . فما الذي يحدث عند مزج المناهج؟ مناهج جمع المادة لا تحمل في حد ذاتها سياسات أو سلطة أو تركيزا برجماتيا ، والمناهج تمنح الباحثين والباحثات سبيلا للوصول إلى العالم المحيط بهم بما يتيح لهم التفاعل والإنصات وجمع المعلومات . ولا تحمل المناهج إمكانية إسكات أو تمكين العالم إلا تبعا لاستخدام الباحثة أو الباحث لها . وبالتالي نجد الباحثات النسويات منتبهات للقدرة والقوة التي تحملها المناهج عند تفعيلها في العالم . إن كيفية مزج المناهج وكيفية تعامل الباحثة أو الباحث مع النتائج هي من السبل التي يتم من خلالها تفعيل المنظور الإستمولوجي والاختيار المنهجي ، فالمناهج أدوات في أيدي النسويات العاملات من أجل العدالة الاجتماعية والتغيير الاجتماعي . إلا أن تلك الطبقات والمستويات المتعددة والمعقدة تحمل أيضا بعض المخاطر ، فكثيرا ما نجد أن المستويات المعقدة القائمة في البحث متداخل المناهج تكون متضاربة فيما بينها .

المزج بين الأوجه المتضاربة: ما تكشفه لنا المآزق والنتائج غير المرغوبة

إن مبررات مزج المناهج لا تؤدي على الدوام إلى نتائج متسقة وغير مثيرة للجدل، كما نرى في المثال الذي تناولته دييورا تولمان ولورا شالاكا. والنسويات راغبات وقادرات تحديدا على مناقشة أوجه التعقيد الموجودة في مزج المناهج، فكثيرا ما أدى وعي الباحثات النسويات ومطاولتهن إلى دراسة أوجه التضارب والمآزق (inconsistencies and dilemmas) الموجودة في البحث متداخل المناهج. إن الباحثات والباحثين غير النسويين الذين قاموا بأبحاث متداخلة المناهج وتوصلوا إلى نتائج متضاربة قد يميلون إلى تنحية نتائج البحث الكيفي جانبا، أما الباحثات النسويات فيتحركن عند حدود الصواب والخطأ ويقمن بتحليل معنى التضارب.

إن الدمج بين المناهج الكمية والكيفية في سؤال بحثي واحد شامل قد يؤدي إلى نتائج مرتبكة، ونجد أن الباحثات النسويات مؤهلات للتوقف عند الحقائق المتعددة الموجودة في خطة البحث الواحدة. وتعلق جووي سبراج وماري زيرمان على الباحثات النسويات في محاولة الدمج بين مناهج البحث الكيفية والكمية بالقول: "عندما نواجه نتائج مختلفة ظاهريا بين كل من المنهجين، فلا يجب أن نفترض على الفور ضرورة رفض أحد المنهجين وقبول الآخر" (Sprague and Zimmerman 2004، p. 21). ومن النماذج المعبرة عن الباحثين والباحثات ممن يلقون بالضوء على أوجه التجانس والتضارب في نتائج البحث هو الدراسة الجماعية التي تمت من خلال بحث استطلاعي ومقابلات ضمن مجموعات نقاشية بمشاركة نساء أفرو-أمريكيات، بهدف فهم الدوافع وراء التوقف عن التدخين أو الاستمرار فيه (Manfredi et al. 1997). فقد قامت الدراسة بفحص المعاني المختلفة المتصلة بالسياق والتي طبقتها النساء على تجاربهن كمدخنات. وقد توصلت الدراسة إلى نتائج متناقضة ما بين نتائج المنهج الكمي والكيفي، وفي ذلك يرد في الدراسة أن "الكثير من التضارب يصبح مفهوما فقط في السياقات التي يحدث فيها التدخين دون أن ينتج عن البيانات الواردة في الاستطلاع،

فبدون مرجعية السياق لم تعكس الإجابات على استطلاع الرأي بدقة اعتماد المستجيبات على التدخين للتعامل مع ضغوط حيواتهن اليومية“ (Manfredi et al. 1997، p. 796). إن التوصيفات الكيفية للسياق الذي تختار فيه النساء التدخين، ألقى بالضوء على جوانب عادة ما تكون مخفية وأحيانا مستبعدة غير مرئية في عملية جمع المادة الاستطلاعية. إن السياقات الموصوفة تحمل أصداء التجارب اليومية، وهي مساحات يتم عادة إسكاتها في مناهج البحث غير النسوية. إن تجارب الحياة اليومية التي تدور حول الروتين اليومي وأعمال المنزل ورعاية الأطفال أوجدت كلها معا سياقاً من الضغط النفسي، أحاط بالمكان الذي اختارت النساء التدخين فيه، ولم تكن تلك التجارب اليومية جزءاً من أسئلة البحث الاستطلاعي وتم تغييبها تماماً في إجراءات جمع المادة العلمية. ”إن التدخين في هذا السياق هو رد فعل محدد للواقع، ينبع من الأحداث والسلوك، ولا تنتقل بالضرورة عبر عمليات معرفية تفترضها النماذج النظرية“ (Manfredi et al. 1997، p. 796). ويتم تناول العمليات المعرفية والنماذج النظرية تناولاً جيداً في مناهج البحث الكمي. إن التوحيد بين منهجي البحث الكيفي والكمي، على الرغم من النتائج التي تأتي متناقضة أحيانا، يوضح بعض الأسباب المهمة والحيوية بشأن التفاعل مع البحث متداخل المناهج. وتبين الدراسة السابق ذكرها قدرة مؤلفيها على التفرقة بين أنواع جمع المادة التي اختاروا استخدامها في البحث وأشكال تحليلها.

إن جمع المادة الاستطلاعية ليس مصمماً من أجل تقييم أهمية الموضوع، وإنما هو يفترض تلك الأهمية. والمعنى السياقي لا يظهر في الاستطلاع وإنما يجب أن يكون متضمناً داخل بنية الاستبيان، ويتم بناء أسئلة الاستطلاع وتصميمها بحيث تقوم بتقييم العمومية والتغاير (generality and covariation). ومن جانبها تكون المجموعة النقاشية كيفية ومفيدة في تحديد المنظور أكثر من تقييم قابليته للتعميم، فالمجموعات النقاشية تقيس وجهة النظر الذاتية للمشاركة في البحث وذلك في سياق يتشكل بواسطة الطرف الفاعل، وهو بدوره أمر قد يبالغ في أهمية بعض الموضوعات بسبب علاقتها بمساق المجموعة المعنية (Manfredi et al. 1997، p. 798).

إن الباحثات والباحثين في هذا المثال لا يتناولون بحثهم بقصد تقديم مراجعة نقدية لمنظومة أو منهجية ما ، وإنما يقتربون من موضوع البحث مما يبدو مقاربة برجماتية ، وبشكل ما موقفا جدليا يهدف إلى تقديم أفضل عمل بحثي وبناء أدق معرفة ممكنة . وهم يرون الدمج بين البحث الكيفي والكمي أمرا مفيدا ، لا في إطار تخصصهم المعرفي فحسب وإنما في مجالات الصحة والسياسات العامة أيضا والتي يمكنها الاستفادة من تلك النتائج بمستوياتها المتعددة .

وهناك مثال آخر على النتائج المتضاربة ما بين المنهجيات الكيفية والكمية ، وهو مثال يقع داخل أساليب النساء في تسمية (naming) تجاربهن التي كثيرا ما تتعرض للإسكات أو التغييب في البحث الاستطلاعي . وقد قامت نيكول ويستمارلاند باستطلاع للرأي وعقدت مقابلات شخصية مع سائقات لسيارات الأجرة بشأن التحرش الجنسي والعنف الذي يواجههن في عملهن . وقد وجدت أن سائقات سيارات الأجرة "قلما قمن بتسمية تجاربهن بمسمى "العنف" في الاستطلاع ، ولكن مقابلات المتابعة غير محكمة البناء كشفت أن النساء كثيرا ما يقلن من أهمية تجارب العنف التي يتعرضن لها ويتعاملن معها باعتبارها أمرا طبيعيا" (Westmarland 2001) . ونجد أن بحثها الاستطلاعي لم يقيّم بقياس ما سعت منذ البداية لدراسته؛ لعدم رغبة النساء أو قدرتهن على تصنيف تجاربهن باعتبارها تجارب تتضمن العنف إلا إذا تضمنت هجوما ماديا ملموسا . أما الأشكال الأخرى من العنف والتي سعت نيكول ويستمارلاند إلى دراستها فلم يكن يتم تعريفها بوصفها عنفا بواسطة النساء في إجاباتهن على أسئلة استطلاع الرأي . وقد واجهت الباحثة هنا تحديا من التضارب المعقد القائم في نتائج بحثها ، ونجدها تطرح السؤال التالي: "أي تعريف يجب عليّ استخدامه؟ إن استخدمت تعريفي للعنف فهل يوحي ذلك بأن تعريفي للعنف هو التعريف الأكثر دقة (الأكثر صدقا) مقارنة بتعريفات سائقات سيارات الأجرة أنفسهن للعنف؟ وهل سأكون عندها أقوم بتسمية تجاربهن بالنيابة عنهن؟" ثم تواصل الباحثة طرح مزيد من التساؤلات حول نفسها

كباحثة وحول منهجها في الاستطلاع من خلال النتائج التي تتوصل إليها فيما تقوم به من مقابلات شخصية مكثفة²². ومرة أخرى تقودها مقاربتها النسوية إلى أن تكون هي نفسها مشاركة ذات حضور فكري في تحليلها. وتعتمد مقاربتها على خطة البحث الكمي التي تتكامل وتتجاوز مع إجراءات المقابلات الشخصية المكثفة والمصغرة، وذلك من أجل زيادة صحة نتائجها وقدرة بحثها الاستطلاعي على قياس ما تسعى هي لقياسه.

وكذلك تحاول ديورا تولمان ولورا شالاكا إضفاء الصوت والتجربة على سؤال البحث الإحصائي والقابل للتحديد كميًا.

إن الاعتراف بإمكانية الفاعلية والرغبة والمتعة والخيال الجنسي لدي المراهقات، وذلك من خلال القيام بطرح أسئلة عن أنواع تلك التجارب، يحول تلك المقاربة إلى منهج بحث نسوي. فهو منهج يبتعد عن خطة استطلاع الرأي، إذ يتيح الفرصة للفتيات أن يعبرن عن تجاربهن بالكلمات وأن يسمين تجاربهن، كما يطرح أسئلة عن مجال حيواتهن الذي يظل مسكوتاً عنه في الثقافة العامة. (Tolman and Szalacha, 1999, p. 13)

وعندما توجد اختلافات بين النتائج المنهجية وفيما بينها، فإن وجود منظور نسوي يساعد -عادة- في علاج وإعادة تأويل والدمج بين أوجه التضارب والأصوات الواردة في المادة العلمية. ويقوم الباحثون والباحثات في كافة المجالات باختيارات بشأن ما يعتبرونه أهم وأقوى والأكثر تشويقاً في نتائج البحث. ولكن بالنسبة للباحثة النسوية فإن الإجابة على تلك الأسئلة، والتي تطرأ عند ظهور تناقضات، تتطلب أن يكون المنظور النسوي جزءاً من عملية حل التناقضات.

تقوم الباحثات النسويات بتمكين أنفسهن في المجالات الكيفية والكمية لجمع المادة وذلك من خلال تناول الأسئلة بسبل مبتكرة. إن موضوع أو سؤال تناول جنسانية المراهقات -على سبيل المثال- يكون متعدد الأوجه، ومتعدد الأبعاد، ومعقدا بالدرجة التي تجعل مجرد وصف جزء ضئيل منه أمرا قد يتطلب مقاربة بينية (interdisciplinary) ومتداخلة المناهج. وبالتالي فإن الخطط متداخلة المناهج تتيح تمكين الباحثة أو الباحث من تناول القضايا المعقدة التي تتبدى على مستويات متعددة - فردية ومجتمعية.

وإلى جانب ذلك، يمكن للبحث متداخل المناهج تحسين صحة ومصداقية مشروعات البحث الكيفية والكمية في آن. فعند استخدام المنهجين يضيف الباحث أو الباحثة قدرا من التلاحم في مشروع البحث (مثلا: بتعزيز الصحة من خلال استخدام ثلاث أدوات بحث)، مع تعويض النواقص الموجودة في غيره. وهنالك فكرة مفادها أنه باستخدام تداخل المناهج "يصبح الكل أكبر من مجموع أجزائه". إلا أن هنالك أيضا نذيرا يتعين الالتفات إليه عند استخدام خطط تداخل المناهج التي تمتد من المجال الفكري إلى العملي، إذ إن تداخل المناهج يعتمد الحد الفاصل بين المنظومات البحثية، ومن غير الواضح إلى أي مدى يجب على الباحثين والباحثات الانتباه إلى ذلك الأمر. فكما أوردنا سابقا، يدعو "البراجماتيون" إلى استخدام المناهج التي تحقق نتائج دون التفات كبير إلى قضايا الإستمولوجيا والمنهجية، أما "النقائيون" فيعتبرون تخطي الحد الفاصل بين المنهجين الكيفي والكمي مسألة مربكة تهز أسس الفكر العلمي. وآخرون يحتلون مواقعهم بين هذين الموقعين المتقابلين على طرفي مسار بناء المعرفة.

إن تداخل المناهج ليس بمثابة شراب سحري يعالج كل داء يمكن إضافته إلى الدراسة البحثية لضمان القيام بمشروع ناجح، فتداخل المناهج عبارة عن حزمة من الأدوات للمشروع في بناء المعرفة. والأكثر ليس بالضرورة هو الأفضل. بل نجد في الواقع أن المقطع الوارد في "ما وراء الستار" تشير فيه جانيس مورس - وهي الباحثة الكيفية المتميزة - إلى أن مزج المناهج ليس بديلا عن الجهد الشاق الخاص بالتفكير والتحليل.

كما توجد أيضا بعض القيود الاقتصادية التي تستدعي التوقف عندها لأن تكاليف القيام بمشروع متداخل المناهج والتدريب اللازم للقيام به قد ترفع الميزانية الإجمالية لمشروعك البحثي. كذلك لدينا المسائل الخاصة بمدى تمكن الباحثة أو الباحث من المنهجين في نفس الوقت. فهل يمكن أن تكون العيوب أكثر من المزايا عند القيام بمشروع متداخل المناهج في حال عدم حصول الباحثين والباحثين على القدر المطلوب من التدريب وإجادة استخدام كلا المنهجين؟ وتثير جانيس مورس قضايا إضافية نابعة من توقعات الجهات المانحة، والتي قد تضع ضغوطا على الباحثين والباحثات لتنفيذ خطة بحث متداخل المناهج بصرف النظر عما إذا كانت مشكلة البحث تستدعيه.

إن النقطة التي تركز عليها جانيس مورس هي أننا كباحثات وباحثين يجب ألا ننسى الإسهام الذي تقدمه المناهج الكيفية في شكلها النقي الخالص (pure form) بما تضيفه على فهمنا لطبيعة الواقع الاجتماعي.

إن تداخل المناهج قد يحمل مخاطر، إذ تجازف الباحثات النسويات بالجهد المبذول، ويجازفن بمواجهة الفجوات الإستمولوجية الصعبة، وباحتمال التوصل إلى نتائج متضاربة، ضمن جهودهن للفاك من الثنائية الفاصلة (dichotomy) بين مناهج البحث الكيفي والكمي. والباحثات النسويات يجازفن باحتمال إخضاع عملهن البحثي لمكانة ثانوية من قبل النقائيات النسويات (feminist purists)، ممن ينادين بالمناهج الكيفية. وهن يجازفن أيضا باحتمال بقاء المسائل الإستمولوجية قائمة بما قد يعوق أي نسوية من تبني مقاربة إستمولوجية جدلية ربما تتضمن انتهاكات للبحث الجيد من منظور النقائيين. كذلك تجازف الباحثات النسويات باحتمال أن تؤدي النتائج المتضاربة إلى ضغوط تدفع إلى الاعتماد على النتائج الكمية على حساب الكيفية. ومع ذلك فإن تلك المخاطر والمجازفات يوازنها ويتفوق عليها أحيانا العمل على الحدود بجوانبه العاطفية والإبداعية والبهجة.

الهوامش

- 1- تشير ليونور تايفر إلى أن "الاستبيان واستطلاع الرأي والدراسات التجريبية، على سبيل المثال، والتي تمثل الكم الأكبر من أبحاث الجنس النفسية يمكن اعتبارها تراثا تطور عندما ميز علماء النفس أنفسهم عن الفلاسفة في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين في أوروبا وإنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية" (Leonore Tiefer 2000، p. 84-85).
- 2- تقوم الأبحاث الاستطلاعية الكمية بجمع المادة التي يمكن اختزالها في قيم عددية، ثم يقوم الباحثون الكميون باستخدام تلك المادة للقيام بتحليل رياضي وإحصائي للأنماط والعلاقات الموجودة في المادة والبيانات. ويتمتع علم النفس البحثي بتراث طويل من استخدام وتطوير مناهج البحث الكمي، وذلك مع عدم استبعاد المناهج الكيفية. للاطلاع على عرض عام للموضوع، انظر/ي: (Glynis M. Breakwell، Sean Hammond، and Chris Fife-Shaw 2000).
- 3- عند الحديث من منطلق المنهجية (methodology) فإننا نشير إلى مجموعة الأفكار والممارسات التي تساعد الباحثين والباحثات في التعبير عن أسئلة البحث واتخاذهم القرار بشأن الأدوات والمناهج التي سيستخدمونها.
- 4- عندما نتحدث عن الإبستمولوجيا (epistemology) فإننا نشير إلى مجموعة النظريات التي تؤثر في كيفية تفكير الباحثة أو الباحث في طبيعة المعرفة والحقيقة.
- 5- إن هذه التصنيفات إلى ما هو "صالح" و "سيئ" هي مسألة تتوقف عندها الباحثات النسويات من ناحيتين. أولا، من ناحية المنظور الأخلاقي والإبستمولوجي والسياسي تهتم الباحثات النسويات تحديدا بالطرق التي يتم بها تمثيل الفتيات في عمليات البحث وبناء المعرفة، وهو ما سبق تناوله في الفصول السابقة. إن اختزال أفعال وسلوكيات الفتيات والنساء في تصنيفات ثنائية فاصلة ثابتة يتجاهل سياق تجارب الفتيات والنساء. ثانيا، إن "الصالح" و "السيئ" يشكلان ما هو معروف باعتبارها متغيرات اسمية (nominal variables). وبمعنى آخر هي أنواع المتغيرات الكمية التي تمثل حكما قاطعا دون أن تمثل أي شيء كمي أو عددي. ومن المنطلق الإحصائي لا يمكن لما هو صالح وسيئ أن يمثل قيما عددية بنفس الطريقة التي قد يمثلها الطول أو سنوات التعليم في التحليل الكمي.
- 6- والموضوع هنا شبيه بإشارة باميلاريد وقانمبا بينج إلى أن سياقات البحث النفسي وكذلك الثقافة الدارجة "تمثل النماذج الأصلية الكلاسيكية (classical archetypes) النساء على أساس

خصائصهن البيولوجية والنفسية. فهي إما صالحة أو سيئة. ويتم تمثيل المرأة الصالحة بيولوجيا باعتبارها عذراء (أي إنها طاهرة وبريئة وساذجة)، ونفسيا على أنها الأم المتفانية والمضحية. أما المرأة الشريرة فتُمثل في صورة العاهرة، فهي مأكرة وطموحة ولديها ذكاء الغواية (Reid and Bing 2000، p. 144). وتضيف الباحثتان على هذا التصنيف معلقتين بأن تلك الافتراضات والصور النمطية محملة على وجه الخصوص بصور نمطية عنصرية وطبقية.

7- تطلق دراسة دييورا ويلش وآخرين على ذلك مصطلح "مقاربة تناول المشاكل" (problem-oriented approach)، حيث "المفاهيم الدارجة بشأن المراهقات الحوامل، وبالتالي الجنسية باعتبارها وباء منتشر في البلاد ويهدد أجيال المستقبل، أطلقت سيلا من الدراسات والبرامج المعدة بهدف إلقاء الضوء على 'المشكلة' والقضاء عليها" (Welsh et al. 2000، p. 112). وتضيف الدراسة أن تلك المقاربة الموجهة صوب "المشاكل" في تناول جنسانية المراهقات تبتعد في واقع الأمر عن نظريات التطور النفسية. إن النظريين لعلم التطور النفسي "قاموا دوما بتعريف الجنسية باعتبارها جانبا أساسيا من جوانب الهوية الشخصية والتي يعتبر تشكلها من أهم المهام في تطور مرحلة المراهقة" (Welsh et al. 2000، p. 112).

8- فعلى سبيل المثال سعت دراسة جيل لافي وبول موبيرج إلى النظر إلى المعاني والممارسات الجنسية لدى المراهقين والمراهقات "الكامنة في الممارسات الثقافية" (Lackey and Moberg 1998، p. 491). إذ تم عقد عدد 13 مجموعة نقاشية، والقيام باستطلاع رأي مستعرض (cross-sectional survey)، لعدد 593 من الشباب وعدد 95 من أمهاتهم وأبائهم؛ للنظر إلى الطرق التي يتم بها إضفاء بريق على النشاط الجنسي في الثقافة الأمريكية الدارجة. وقد جاءت دراستهما لتؤكد أن "الفرد والأسرة والرفاق والبنى البنوية لها تأثير مهم على جنسانية المراهقات والمراهقين، ولكن من الأفضل تناولها ضمن نموذج ثقافي متكامل" (Lackey and Moberg 1998، p. 491-492). وتنتهي دراستهما بمقترحات وتوصيات لبرامج الشباب الاجتماعية والتعليمية، بالإضافة إلى مجموعات من المجتمع لتناول النشاط الجنسي ومخاطره في أوساط المراهقين والمراهقات. كما تؤكد الدراسة على أن استخدام مقارنة تداخل المناهج في تناول سؤال البحث مكنهما بشكل أفضل من التوصل إلى المقولات والتوصيات. وهو بحث سيتم تناوله لاحقا في هذا الفصل من الكتاب.

9- تعلق باربرا ريزمان وجووي سبراج وجودي هاوردي في دراستهن بالقول:

يجب على السؤال أن يحدد المنهجية، ولا يوجد أي منهج أكثر نسوية مقارنة بغيره مسبقا. والنسويات الكميات لسن بالضرورة هن الأكثر نخبوية أو تطلعا لحياتهن العملية أو تعرضا للاضطهاد بما يحول دون استخدامهن للأساليب الأكثر راديكالية، وهي أساليب قد تكون ببساطة غير ملائمة للسؤال المطروح. فيعض الأسئلة النسوية تتطلب إجابات كمية. (Barbara Risman ، Joey ، 1993 ، p. 608) . Sprague ، and Judy Howard

10- تشير ديورا تولمان ولورا شالالا إلى أن مجال علم النفس تناول السلوك الجنسي لدى الإناث مثلا: (DeLameter & MacCorquodale 1979; Lees 1986; Levinson 1986; Scott- Jones & Turner 1988) ، وكذلك تاريخ التنظير لتطور الجنسية مثلا: (Benjamin 1988; Freud 1905; Jordan 1987) ، ولكنهما تشيران إلى "عدم وجود دراسات تتضمن مسألة رغبة الفتيات الجنسية" (Tolman and Szalacha 1999 ، p. 8) .

11- وهو ما أحسن جون كريسويل التعبير عنه قائلا: "التوصل إلى فهم أفضل لمشكلة البحث من خلال الجمع (أو استخدام ثلاث أدوات بحث) بين الاتجاهات العددية العامة في البحث الكمي وبين تفاصيل البحث الكيفي" (Creswell 2003 ، p. 100) .

12- للاطلاع على مناقشة مفيدة لدعوى المعرفة ومقاربة البحث وعدة استراتيجيات بحثية، انظر/ي: (John Creswell 2003 ، chap. 1) .

13- المقصود بالابتعاد هنا هو الموقع الثانوي الذي تحتله القضايا الإستمولوجية عند تبني الباحثين أو الباحثات مقاربة برجماتية. فبدلا من القلق بشأن التداعيات السياسية والإستمولوجية المترتبة عن اختيار المنهج المتبع، يقوم البراجماتيون بإبعاد تلك الأسئلة من مسار العمل. أما أصحاب المواقف الجدلية فيميلون إلى ربط سؤال البحث بالمنهج مع الرجوع باستمرار إلى قضايا الإستمولوجيا والمنهجية والمنهج.

14- يجب أن تشير هنا إلى أن الموقف الإستمولوجي الذي تحتله الباحثة أو الباحث يلعب في الأغلب دورا في تشكيل أسباب اختيار كل منهم استخدام تداخل المناهج.

15- البحوثات النسويات اللاتي يقررن مزج مناهجهن يطرحن عددا كبيرا من الأسئلة حول الواقع الاجتماعي. وهن يسعين إلى طرق للوصول إلى المعرفة الثانوية عبر حدود العرق والطبقة والنوع الاجتماعي، وعادة ما تهدف أسئلتهن إلى إحداث تغيير اجتماعي. كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن البحث متداخل المناهج الموجه صوب خلق تغيير اجتماعي يسعى عادة إلى الحصول

على تمويل مؤسسي . وتقوم بعض الباحثات النسويات بتوظيف تداخل المناهج ضمن جهودهن لتجاوز الحدود الفاصلة التي طالما أدت إلى بقاء البحث الكيفي الدائر حول النساء بلا تمويل وبلا دعم (Spalter-Roth & Hartman 1999).

16- يمكن أن يشير مفهوم استخدام ثلاث أدوات بحث (triangulation) إلى تلك المنهجية التي يتم فيها استخدام عدة مناهج لدراسة سؤال بحثي واحد . كما يمكن أن يشير أيضا إلى مفهوم استخدام ثلاث أدوات بحث من البيانات (data triangulation) حيث يتم استخدام مجموعات متعددة من المادة والبيانات من أجل الإجابة على سؤال بعينه . إن دمج نظريات عدة ضمن خطة بحثية واحدة قد يتطلب من الباحثة أو الباحث طرح عدة تفسيرات وروى متعددة النظريات ، تتعامل جميعها مع سؤال واحد . وأخيرا فقد يشير مفهوم استخدام ثلاث أدوات بحث أيضا إلى استخدام ثلاث أدوات بحث نظرية (theory triangulation) ، حيث يتم استخدام أكثر من منظور أو اختباره ضمن مجموعة واحدة من البيانات (Janesick 2000 ، p. 391) . للاطلاع على مناقشة متنوعة للنقاش الدائر حول مفهوم استخدام ثلاث أدوات بحث وتداعياته على أبحاث العلوم الاجتماعية ، انظر/ي: (Udo Kelle 2001) .

17- تحدد دراسة جون كريسويل أيضا الغرض العكسي من الانخراط في البحث متداخل المناهج ، والمتمثل في الحصول "من العينة على نتائج إحصائية كمية ، ثم المتابعة من خلال عدد من الأفراد يقومون بمزيد من التقصي أو الاستكشاف لتلك النتائج بمزيد من التعمق" ، (Creswell 2003 ، p. 100) .

18- قد يبدأ البحث متداخل المناهج في العمل كمساحة يمكن القيام فيها بأبحاث بينية ومتعددة التخصصات ، مع مد مزيد من الجسور وعقد مزيد من الحوارات فيما بين الباحثات النسويات ممن قد لا تتاح لهن مجالات التعاون والعمل المشترك إلا في تلك المساحات .

19- وهو ما أحسن جون كريسويل التعبير عنه قائلا: "التوصل إلى فهم أفضل لمشكلة البحث من خلال الجمع (أو استخدام ثلاث أدوات بحث) بين الاتجاهات العددية العامة في البحث الكمي وبين تفاصيل البحث الكيفي" (Creswell 2003 ، p. 100) .

20- يصف جون ماككيندريك مقاربات البحث متعدد المناهج في دراسة الجغرافيا السكانية ، فيأتي بمنظور وسؤال بشأن فهمنا لتداخل المناهج كما يتم توصيفه في هذا الفصل . فيقدم لنا تنويعا نجد من الضروري - بناء على هذا المقصود في هذا الفصل - ذكرها في الهوامش ، إذ يقول :

من الممكن التأكيد على أن استخدام أكثر من مشروع بحثي واحد هو بمثابة استخدام بحث متعدد المناهج (multimethod). إلا أنه من الممكن التأكيد أيضا على أنه بينما قد تتضمن مثل تلك المشروعات أكثر من منهج فإن ذلك لا يعتبر كافيا لتصنيف البحث باعتباره متعدد المناهج. إن الانتشار التكتيكي يتبع ممارسة -لا مبادئ أو روح- البحث متعدد المناهج، وقد يكون من الأدق التفكير في المثال الممتد للبحث باعتباره سلسلة من المشروعات المنفردة تتبع مناهج مختلفة بدلا من برنامج واحد متجانس متعدد المناهج. وأن رد الفعل البراجماتي، مع اعتماده على المناهج المختلفة، يكون متعدد المناهج بالمصادفة لا تبعا للخطة المتبعة. ويتم التأكيد هنا على أن الانتشار التكتيكي ورد الفعل البراجماتي يقدمان مثالين على البحث متعدد المناهج إذ يتضمنان مواقف يتم فيها تطبيق منهج واحد بالرجوع إلى منهج آخر لتحقيق برنامج بحثي ما (McKendrick 1999، p. 42).

كذلك فإن البحث الذي يدرس حيوات النساء قد لا يكون بالضرورة نسوياً في غرضه وروحه وخطته، فالبحث متعدد المناهج أو متداخل المناهج قد يمزج فنيا بين المناهج، ولكنه قد لا يكون متداخل المناهج في روحه أو خطته. وتتعمق مقالة جون ماككيندريك داخل بعض المقاربات الإستمولوجية والمنهجية المتنوعة تجاه البحث متعدد المناهج أو متداخل المناهج. وفي ذلك انظر/ي إلى الجدول الذي يقدمه بشأن كيف تؤثر الإستمولوجيا على الاستراتيجية المنهجية.

21- تحدد دراسة جووي سبراج وماري زيمرمان المساحات التي يمكن للنسويات فيها التعامل مع أوجه التضارب. وتؤكد الباحثتان على أنه بوسعنا أن نرى -عندما يتضمن كل منهما الاختيار والتأويل- احتمالية أن تكون "كل نتيجة 'حقيقة جزئية' تحتاج إلى نسجها معا من أجل تمثيل أكثر اكتمالا" (Sprague and Zimmerman 2004، p. 53-54).

22- على الرغم من عدم قيام نيكول ويستمرلاند بمناقشة أي نقاط تالية قد تتوقف عندها في مشروعاتها البحثية مستقبلا، فإنه يمكننا أن نتوقع قيامها بمراجعة الاستبيان الذي قامت بإعداده. إن تحسين إجراءات استطلاع الرأي هو أحد الأسباب أو النتائج المترتبة على مزج المناهج كما هو موصوف أعلاه. وقد يبدو أنها قد استخدمت مادتها الكيفية لتحسين الإجراءات التي تستخدمها في الاستبيان الاستطلاعي وذلك لتحقيق قياس أفضل للعنف والحديث عنه بشكل أفضل مع المستجيبات في بحثها.

23- أجزاء من هذه الخاتمة مشتقة من دراسة شارلين ناجي هيسي-باير وباتريشا ليفي (Hesse- Biber and Leavy 2006).

- Benjamin, Jessica. (1988). *The bonds of love*. New York: Pantheon Books.
- Brannen, Julia. (1992). *Mixing methods: Qualitative and quantitative research*. Aldershot, UK: Avebury.
- Breakwell, Glynis M., Hammond, Sean, & Fife-Schaw, Chris. (2000). *Research methods in psychology* (2nd ed.). London: Sage.
- Cisneros-Puebla, César A. (2004). "Let's do more theoretical work...": Janice Morse in conversation with César A. Cisneros-Puebla. *Forum Qualitative Sozialforschung/Forum: Qualitative Social Research*, 5(3), Art. 33. Retrieved February 26, 2006, from www.qualitative-research.net/fqs-texte/3-04/04-3-33-e.htm
- Creswell, John W. (2003). *Research design: Qualitative, quantitative, and mixed methods approaches*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Creswell, John W., Fetters, Michael D., & Ivankova, Natálya V. (2004). Designing a mixed methods study in primary care. *Annals of Family Medicine*, 2(1), 7–12.
- Creswell, John W., Plano Clark, Vicki L., Gutmann, Michelle L., & Hanson, William E. (2003). Advanced mixed methods research designs. In Abras Tashakkori & Charles Teddlie (Eds.), *Handbook of mixed methods in social and behavioral research* (pp. 209–240). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Cuyvers, Rob, Wets, Geert, Zuallaert, Jos, & Van Gils, Jan. (2003). *Transportation dependence and transportation autonomy of children (aged 10 to 13)*. Research Project CP/61. Belgian Federal Science Policy Office (FEDRA). Retrieved February 26, 2006, from www.belspo.be/belspo/fedra/proj.asp?l=en&COD=CP/61
- Deem, Rosemary. (2002). Talking to manager-academics: Methodological dilemmas and feminist research strategies. *Sociology*, 36, 835–855.
- DeLameter, John, & MacCorquodale, Patricia. (1979). *Premarital sexuality: Attitudes, relationships, behaviors*. Madison: University of Wisconsin Press.
- Devine, Fiona, & Heath, Sue J. (1999). *Sociological research methods in context*. London: Macmillan.
- DuBois, Barbara. (1983). Passionate scholarship: Notes on values, knowing and method in feminist social science. In Gloria Bowles & Renate D. Klein (Eds.), *Theories of women's studies* (pp. 105–117). London: Routledge & Kegan Paul.

- England, Kim. (1993). Suburban pink collar ghettos: The spatial entrapment of women? *Annals of the Association of American Geographers*, 83(2), 225–242.
- Fine, Michelle. (1988). Sexuality, schooling, and adolescent females: The missing discourse of desire. *Harvard Educational Review*, 58(1), 29–53.
- Fine, Michelle. (1994). Working the hyphens: Reinventing self and other in qualitative research. In Norman Denzin & Yvonna Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (pp. 70–82). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Freud, Sigmund. (1905). The transformations of puberty. In Sigmund Freud, *Three essays on the theory of sexuality* (pp. 73–96). New York: Basic Books.
- Greene, Jennifer C., & Caracelli, Valerie J. (Eds.). (1997). *Advances in mixed-method evaluation: The challenges and benefits of integrating diverse paradigms*. San Francisco: Jossey-Bass.
- Hesse-Biber, Sharlene Nagy, & Leavy, Patricia. (2006). *The practice of qualitative research*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Janesick, Valerie J. (2000). The choreography of qualitative research design: Minuets, improvisations, and crystallization. In Norman K. Denzin & Yvonna S. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (pp. 379–400). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Jordan, Judith. (1987). Clarity in connection: Empathic knowing, desire and sexuality. *Work in progress/Stone Center for Developmental Services and Studies* 29. Wellesley, MA: Wellesley College, Stone Center for Developmental Services and Studies.
- Kelle, Udo. (2001). Sociological explanations between micro and macro and the integration of qualitative and quantitative methods. *Forum Qualitative Sozialforschung/Forum: Qualitative Social Research*, 2(1). Retrieved July 8, 2004, from www.qualitative-research.net/fqs-texte/1-01/1-01kelle-e.htm
- Lackey, Jill F., & Moberg, D. Paul. (1998). Understanding the onset of intercourse among urban American adolescents: A cultural process framework using qualitative and quantitative data. *Human Organization*, 57, 491–501.
- Ladner, Joyce A. (1971). *Tomorrow's tomorrow: The black woman*. Garden City, NY: Anchor Books.
- Lees, Sue. (1986). *Losing out: Sexuality and adolescent girls*. London: Dover.
- Levinson, Ruth. (1986). Contraceptive self-efficacy: A perspective on teenage girls' contraceptive behavior. *Journal of Sex Research*, 22, 345–369.
- Lincoln, Yvonna S., & Guba, Egon G. (2000). Paradigmatic controversies, contradictions, and emerging confluences. In Norman K. Denzin & Yvonna S. Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (pp. 163–188). Thousand Oaks, CA: Sage.

- Manfredi, Clara., Lacey, Loretta, Warnecke, Richard, & Balch, George. (1997). Method effects in survey and focus group findings: Understanding smoking cessation in low-SES African American women. *Health Education and Behavior*, 24, 786–800.
- Maynard, Mary, & Purvis, June. (Eds.). (1994). *Researching women's lives from a feminist perspective*. London: Taylor & Francis.
- McKendrick, John H. (1999). Multi-method research: An introduction to its application in population geography. *Professional Geographer*, 51, 40–50.
- Morgan, David. (1998). Practical strategies for combining qualitative and quantitative methods: Applications to health research. *Qualitative Health Research*, 8, 362–376.
- Nicolson, Paula. (2004). Taking quality seriously: The case for qualitative feminist psychology in the context of quantitative clinical research on postnatal depression. In Zazie Todd, Brigitte Nerlich, Suzanne McDeown, & David D. Clarke (Eds.), *Mixing methods in psychology: The integration of qualitative and quantitative methods in theory and practice* (pp. 207–23). New York: Psychology Press.
- Reid, Pamela T., & Bing, Vanessa M. (2000). Sexual roles of girls and women: An ethnocultural lifespan perspective. In Cheryl B Travis & Jacquelyn W. White (Eds.), *Sexuality, society and feminism* (pp. 141–166). Washington, DC: American Psychological Association.
- Reinharz, Shulamit. (1992). *Feminist methods in social research*. Oxford, UK: Oxford University Press.
- Risman, Barbara J., Sprague, Joey, & Howard, Judith. (1993). Comment on Francesca M. Cancian's "Feminist Science." *Gender & Society*, 7, 608–609.
- Scott-Jones, Diane., & Turner, Sherry L. (1988). Sex education, contraceptive and reproductive knowledge and contraceptive use among black adolescent females. *Journal of Adolescent Research*, 3, 171–187.
- Spalter-Roth, Roberta, & Hartmann, Heidi. (1999). Small happinesses: The feminist struggle to integrate social research with social activism. In Sharlene N. Hesse-Biber, Christina Gilmartin, & Robin Lyndenberg (Eds.), *Feminist approaches to theory and methodology: An interdisciplinary reader* (pp. 333–347). New York: Oxford University Press.
- Sprague, Joey, & Zimmerman, Mary K. (2004). Overcoming dualisms: A feminist agenda for sociological methodology. In Sharlene Nagy Hesse-Biber & Patricia Leavy (Eds.), *Approaches to qualitative research: A reader on theory and practice* (pp. 39–61). New York: Oxford University Press.

- Tiefer, Leonore. (2000). The social construction and social effects of sex research: The sexological model of sexuality. In Cheryl B. Travis & Jacquelyn W. White (Eds.), *Sexuality, society and feminism* (pp. 79–107). Washington, DC: American Psychological Association.
- Tolman, Deborah L., & Szalacha, Laura A. (1999). Dimensions of desire: Bridging qualitative and quantitative methods in a study of female adolescent sexuality. *Psychology of Women Quarterly*, 23, 7–39.
- Weinholtz, Donn, Kacer, Barbara, & Rocklin, Thomas. (1995). Salvaging qualitative research with qualitative data. *Qualitative Health Research*, 5, 388–397.
- Welsh, Deborah P., Rostosky, Sharon S., & Kawaguchi, Myra C. (2000). A normative perspective of adolescent girls' developing sexuality. In Cheryl B. Travis & Jacquelyn W. White (Eds.), *Sexuality, society and feminism* (pp. 111–140). Washington, DC: American Psychological Association.
- Westmarland, Nicole. (2001). The quantitative/qualitative debate and feminist research: A subjective view of objectivity. *Forum for Qualitative Social Research*, 2(1). Retrieved June 19, 2006, from www.qualitative-research.net/fqs-texte/1-01/1-01-westmarland-e.htm
- White, Jacquelyn W., Bondurant, Barrie, & Travis, Cheryl B. (2000). Social construction of sexuality: Unpacking hidden meanings. In Cheryl B. Travis & Jacquelyn W. White (Eds.), *Sexuality, society, and feminism* (pp. 11–34). Washington, DC: American Psychological Association.

الفصل العاشر

البحث الاستطلاعي النسوي

كاثي ماينر-روبينو

توبي إبستين جايارانتي

ما وراء الستار مع

كاثي ماينر-روبينو وتوبي إبستين جايارانتي

إننا عالمتا نفس نسويتان ، نركز برامجنا البحثية على المادة الكمية، مستخدمتين في الأساس مناهج الاستطلاع ، بهدف استكشاف القضايا ذات الأهمية بالنسبة للنساء وذات توجه نحو العدالة الاجتماعية. ومن هذا المنطلق فنحن على وعي بأن بعض النقد النسوي يتجه إلى البحث الاستطلاعي (survey research) والبحث الكمي عموماً. ويدعي كثير من هذا النقد أن مثل هذا البحث يتعارض مع الأهداف النسوية. ونحن نحمل رؤية معارضة لذلك؛ إذ نعتبر البحث الكمي منهجاً من مناهج الدراسة يمكنه تحقيق إسهام بارز نحو تعزيز الهدف النسوي الخاص بتحسين حيوات النساء. فما الذي دفعنا لتبني هذا المنظور ودمج قيمنا النسوية مع تخصصنا كباحثتين كميتين؟

بالنسبة لي ، أنا كاثة ، لم يبدأ الأمر تماماً بالجمع بين النسوية والبحث الكمي. لقد كنت نسوية بالفعل قبل فترة طويلة من البدء في القيام بأبحاث كمية. فخلال

مرحلة المراهقة بدأ وعيي بما تواجهه النساء من ظلم ، وقد أغضبني ذلك الوعي أشد الغضب . فقد كنت أغضب لقيام والدتي بأعمال الطهي والغسيل ، بينما كان والدي يجلس في كرسيه الوثير يشاهد التلفاز . وكنت أغضب لحصول شقيقتي على أجر مقابل عملها ضمن فريق إعداد التقارير في الجريدة المحلية ، وذلك مقارنة بزميلها الذي يحمل نفس مؤهلاتها ، ويجلس في المكتب المجاور لها . وكنت أغضب حين كان الرجال يصفرون لي بينما أمر بهم في الطريق ، ثم يشتمونني حين أمرهم بالتوقف عن الصفير . كنت أغضب لكثرة تركيزي على ما أكله والكميات التي أتناولها بدلا من التفوق في المدرسة أو التعرف على الأحداث العالمية . ولما التحقت بالجامعة أدركت - لأول مرة - وجود اسم لما أشعر به: النسوية . لقد كان للنسوية معناها بالنسبة لي وصارت جزءا من هويتي .

وفي الجامعة أدركت أيضا أن هناك أناسا يدرسون أشكال ذلك الظلم دراسة منظمة . وقد تسمرت حين علمت بأن في وسع الباحثات والباحثين تقديم "مادة علمية ملموسة" (hard data)؛ لتوثيق ما كنت ألاحظه حولي . ونظل ملاحظاتي حينذاك تتردد أصدائها في ذهني: النساء يقمن بقدر من الأعمال المنزلية ، ورعاية الأطفال أكثر كثيرا مما يقوم به الرجال في العلاقات الجنسية الغيرية (heterosexual relationships) Bianki ، Milkie ، & Sayer 2000) ، والنساء البيض لا يحصلن سوى على نسبة 76% من أجر الرجال البيض عن نفس العمل ، وتخفض هذه النسبة في حال النساء الملونات (National Com-mittee on Pay Equity 2005) ، وأن نسبة 54% من طالبات الجامعات مررن بتجربة ما من تجارب الأذى الجنسي (مثل الاغتصاب أو محاولة الاغتصاب: Koss ، Gidycz ، & Wisniewski 1987) ، وأن نسبة 56% من المراهقات يعانين من أنماط غذائية مضطربة (Sz-Neumark ، Croll ، tainer ، & Story 2002) ، وأن 55% من الفتيات اللاتي تتراوح أعمارهن ما بين 8 إلى 10 سنوات يشكون من زيادة الوزن (Wood ، Becker ، & Thompson 1996) . لقد أثرت في هذه المعلومات الإحصائية كما تؤثر في كل من أنقلها لهم . فعندما يسمع الناس هذه الإحصائيات يتأثر معظمهم بها بشكل ما

أو بآخر. وفي أغلب الأحيان تكشف تلك الأرقام بوضوح تام الظلم الاجتماعي الملتصق بدور النساء في المجتمع.

ومع ازدياد تمكني من علم الإحصاء، ازداد فهمي للقصة التي تحكيها الأرقام وقوتها في التعبير عن حيوات النساء - لا مجرد من حيث نسبة النساء المتأثرات بهذا أو ذاك، وإنما التداعيات المترتبة عن تلك التجارب. فعلى سبيل المثال، أنا أركز في برنامج البحث الذي أقوم به حالياً على التداعيات بالنسبة للموظفات اللاتي يلحظن سلوكاً وقحاً أو فوقياً أو متحرشاً تجاه النساء في أماكن العمل. وحين أتحدث عن هذا البحث لا أشير فقط إلى مدى تكرار تلك السلوكيات وإنما تداعيات تلك الملاحظات، (مثل الانخفاض الملموس في درجة الرضا عن العمل والصحة النفسية بالنسبة لمن يلاحظ تلك السلوكيات). وسرعان ما أدركت أن الناس الذين لا يطلقون على أنفسهم صفة النسوية (بل وفي الواقع يقاومون تلك الصفة بشدة) أنصتوا إليّ حين أوضحت النتائج بشكل كمي. لقد أنصتوا بالفعل. وسواء شئنا أم أبينا، فإن الناس يستجيبون للبيانات الكمية. فالأرقام كفيلة بإلهام بعض الناس كي يصبحوا ناشطين اجتماعياً، ويمكنهم التأثير على المشاركين في صياغة السياسة العامة بحيث يقومون بتفعيل القوانين والتشريعات بما يحسن حيوات النساء. ومن هذا المنطلق جاءت ولادة باحثة استطلاعية كمية. إن تطلعي إلى العدالة الاجتماعية للنساء وإدراكي أن الأرقام تحرك الناس جعلاني أريد القيام بأبحاث كمية بالنيابة عن النساء ومن أجلهن.

أنا، اسمي توبي، نشأت خلال فترة الحقوق المدنية في أسرة نشطة في الدفع ببرنامج سياسي تقدمي. وتعلمت منذ سن مبكرة أهمية فهم العوامل التي تدعم سياسات الظلم، وذلك من أجل مواجهة مثل تلك الممارسات. وقد أتاحت لي الفرصة - خلال دراستي الجامعية - أن أساعد في دراسات تتناول عدة قضايا اجتماعية، وذلك في معهد أبحاث تابع لجامعتي. وكان من أعمل معهم، وكذلك الكثير من الباحثات والباحثين المتخصصين في المعهد، يقومون بأبحاثهم بغرض توثيق غياب العدالة وتحديد أكثر السبل الفعالة لتعزيز العدالة الاجتماعية. وقد

كانت الأجواء ملهمة بالنسبة لي في أن أجد نفسي محاطة بمن أوقفوا حياتهم العملية كلها من أجل هذا العمل. وفي أغلب الحالات كان هؤلاء الباحثون والباحثات يستخدمون مناهج الاستطلاع. ونظرا لارتفاع مستوى أبحاثهم والاحترام الذي كانت تلقاه من الآخرين، جاءت نتائج دراساتهم مؤثرة بقوة في الدفع نحو التغيير الاجتماعي.

مع أخذ نشأتي في مجال العمل الاجتماعي في الاعتبار، كان اكتسابي الهوية النسوية مسألة سهلة في ستينيات القرن العشرين. ومع ما تلقينته من تدريب وتخصص في البحث الاستطلاعي، رأيت أن بوسعي توظيف ما تعلمته من مهارات كمية خلال سنواتي بالجامعة في دراسة كيفية حدوث التمييز الجنسي (sexism) في مجتمعنا، واستكشاف أفضل الوسائل لتحقيق الأهداف النسوية. وبمجرد أن بدأت في القيام بأبحاثي الاستطلاعية وجدها أسلوبا فعالا في إقناع الآخرين بالحاجة إلى دعم القضايا النسوية المتنوعة. ولكن بعد سنوات قليلة، وأثناء مشاركتي في مؤتمر للدراسات النسائية، واجهتني إحدى المشاركات بنقد مناهج البحث الاستطلاعي التي أستخدمها قائلة: إن مثل تلك المناهج ليس بالأدوات الملائمة للباحثات النسويات. وكرد فعل لذلك قمت بتطوير عين نقدية أستطيع بها الحكم على المناهج التي أستخدمها، ووعيت بقيمة الاستراتيجيات البحثية الكيفية البديلة على تنوعها. إلا أنه بدلا من رفض المناهج الكمية برمتها، أصبحت على قناعة بأنه من المهم للباحثات النسويات البقاء منفتحات تجاه استخدام إحدى تلك المناهج (أو كليهما)؛ لأنها تجيب على أنواع مختلفة من أسئلة البحث. وباعتباري باحثة في العلوم الاجتماعية يركز موضوع بحثها الأساسي على التداعيات السياسية المترتبة على التفسيرات الوراثية لدى الرأي العام بشأن ما يراه من اختلافات على أساس الجنس والطبقة والعرق، وهو ما يدعوني لمحاولة تتبع تلك المقولة. وأنا أستخدم المناهج الكيفية عندما أسعى لجمع معلومات مبدئية عن قضية ما أو لتطوير فهم أعمق لموضوع ما. ومع ذلك فعندما أدرس نماذج فكرية معقدة أو أختبر بعض النظريات، فأنا أستخدم حينها مناهج (كمية) إحصائية؛ لأنها هي الأفضل لتحقيق هذا الغرض. إن تجربتي المهنية ساعدتني

على إدراك أنه لا يوجد أسلوب بحثي أوحد يكون هو الأفضل في الإجابة على كل سؤال ، وإنما كل عملية استكشاف بحثي جديد تتطلب تقييما فكريا نقديا لا اختيار استراتيجيية بحثية .

على الرغم من أننا سلكتنا طرقا مختلفة أوصلتنا إلى مواقع متشابهة ، فإن كلينا يعترف بتأثير خبراتنا الدراسية على تطور منظورنا البحثي . فالتوجيه الذي تلقيناه خلال تلك المرحلة ، علمنا أن نلاحظ كيف يؤثر سياق البحث على كافة أوجه ما نقوم به من عمل بحثي ، وأن نحافظ على وعينا بالقضايا الأخلاقية والسياسية المتعلقة والناجمة عن البحث الذي نقوم به . أما الأمر الأهم فهو أننا قد تعلمنا خلال سنوات الدراسة أن نفكر في مشروع البحث باعتباره رحلة سعي من أجل المعرفة في خدمة التقدم الاجتماعي ، وهي الفكرة التي حملناها باعتبارنا نسويتين وباعتبارنا متخصصتين في البحث الاستطلاعي .

إن أهداف هذا الفصل من الكتاب هي تقديم توصيف لعملية البحث الاستطلاعي ، وتوضيح كيف يمكن تطبيقها عند استكشاف القضايا النسوية ، وتوضيح أسباب كون هذا النوع من الأبحاث موردا مهما وقيما للباحثات النسويات . وعلى مدار التاريخ وكذلك في الفترات القريبة نجد أمثلة عديدة لكيفية تأثير نتائج البحث الاستطلاعي على حيوات النساء وغيرهن من البشر المهمشين . وسندم وصفا لبعض تلك الأمثلة عبر صفحات هذا الفصل ، وسنشير إلى الآثار الفريدة والفعالة التي يمكن للبحث الاستطلاعي أن يحملها من أجل فهم القهر القائم على أساس النوع والتخفيف من حدته .

إننا إذ نكتب هذا الفصل من الكتاب فإننا نقرب منه بخلفياتنا المتخصصة في معايير البحوث السائدة في العلوم الاجتماعية ونحمل تقديرا لما في بحوث الاستطلاع الكمي من فوائد . إلا أننا باعتبارنا نسويتين ، فنحن على وعي أيضا بأشكال النقد النسوي الموجهة للبحث الكمي ، وهو وعي يضيف إلى جهدنا في تعزيز العدالة الاجتماعية من أجل

النساء . وبالتالي فمن خلال بناء جسر بين علوم الدراسات النسائية (women's studies) ، وعلم النفس ، نحن نرى أنفسنا باعتبارنا باحثين في العدالة الاجتماعية من منظور نسوي ، نجتهد في استخدام البحث الاستطلاعي كوسيلة للدفع قدما بالبرنامج النسوي .

ويركز الجزء الأول من هذا الفصل على عدد من القضايا الواسعة المتعلقة باستخدام المناهج الكمية عموما ، والبحث الاستطلاعي تحديدا ، وذلك في تناول نسوي يتضمن الآتي: (1) التطور التاريخي للبحث الاستطلاعي . (2) الانتقادات النسوية الأساسية تجاه المناهج الكمية . (3) الاختلاف بين البحث الكمي والكيفي . (4) المزايا الفريدة التي يتمتع بها البحث الاستطلاعي الكمي لتحقيق أهداف نسوية . أما في الجزء الثاني من الفصل فسوف نقدم المكونات الأساسية للبحث الاستطلاعي ، مع تسليط الضوء على القضايا البارزة التي يتعين تناولها عند القيام ببحث استطلاعي نسوي جيد .¹

تاريخ البحث الاستطلاعي

لعل من أوائل أنواع المسح الاستطلاعي (survey) وأكثرها شهرة هو الإحصاء السكاني (census) والذي بدأ في الولايات المتحدة الأمريكية عام 1790 ، وتقوم به كل عقد من الزمان الحكومة الفيدرالية (U.S. Census Bureau 1989) . ويسعى الإحصاء السكاني إلى وصف خصائص (مثل النوع ومتوسط عدد أفراد الأسرة) مجموعة سكانية كاملة (مثلا في الولايات المتحدة الأمريكية) . وقد تم القيام بأخر إحصاء سكاني [حتى صدور هذا الكتاب] في عام 2000 ، وتم فيه استطلاع رأي ما يزيد على عدد 281 مليون شخص أمريكي (U.S. Census Bureau 2005) . إن تلك الفرصة الحديثة لتأمل الأمريكيين والأمريكيات قدمت معلومات مهمة تخص عددا من الهموم النسوية ، كعدد النساء اللاتي يعانين من الفقر ، وعدد النساء العاطلات ، وعدد الأمهات اللاتي يربين أبناءهن بلا زوج . وهي كلها معلومات بالغة القيمة بالنسبة للنسويات لأنها تخبرنا عن أوضاع النساء الحالية .

وكان الغرض الآخر من هذه الاستطلاعات في بداياتها هو اكتساب فهم للمشاكل الاجتماعية، وبالفعل حتى النسويات أنفسهن استخدمن مثل هذه المناهج آنذاك. فعلى سبيل المثال، قامت النسويات في جامعة شيكاغو، في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، بإعداد استطلاعات وتطوير تقنيات إحصائية للمساعدة في جهود الإصلاح الاجتماعي (Deegan, cited in Spalter-Roth & Hartmann 1996). إن هذا الجيل الأول من باحثات الاستطلاع النسويات استخدمن نتائج الاستطلاعات لتوعية الرأي العام والتأثير على التشريعات الداعمة لحزمة من القضايا التقدمية كتقليل معدلات الفقر والبطالة وعمالة الأطفال.

وقد جاءت الحرب العالمية الثانية لتقدم دفعة قوية لتطور البحث الاستطلاعي السائد، إذ كانت الحكومة الفيدرالية مهتمة بتقييم آراء ومواقف الأمريكيين والأمريكيات تجاه الحرب وغيرها من القضايا الاجتماعية (Groves et al. 2004). وقد كانت تلك فترة حاسمة في تطور تلك المناهج؛ لأن الباحثين والباحثات في مناهج الاستطلاع بدأوا يتعلمون أهمية كيفية صياغة السؤال، وتقنيات جمع المادة والبيانات، وتدريب القائمين بالمقابلات الشخصية، وإجراءات اختيار العينة (Converse 1987; Groves et al. 2004)، وكيف يمكن لتلك العوامل التأثير في نتائج الدراسات. وتحديدًا وجد الباحثون أن بعض المناهج أثبتت كونها أفضل من غيرها في جمع المادة وتحليلها؛ نظرًا لأنها كانت تعكس بدقة أكبر آراء ومواقف الرأي العام.

وخلال الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين تم تدريب جيل ثانٍ من باحثات وباحثي الاستطلاع النسوي. ومثلهم كمن سبقهم كان لديهم حرص على الدفع بالسياسة العامة إلى الأمام، وكانوا ناشطين وناشطات يملؤهم الشغف سعيًا من أجل إحداث تغيير اجتماعي للنساء (Spalter-Roth & Hartmann 1996). ولكن هذا الجيل كان عموماً ينتقد العلوم التقليدية لأن العلم يفترض إمكانية التثبت من "الحقيقة" بالملاحظة والتجربة. وقد لعبت هؤلاء النسويات دوراً مهماً في توضيح كيف أن عوامل

معقدة (وأحيانا غير معقدة) استمرت في جعل البحث العلمي متحيزا لصالح "المنظور الذكوري". وقد تناولت كثير من الأبحاث الاستطلاعية السائدة تلك الهموم ، وبالتالي تحسنت مناهج البحث الاستطلاعي نتيجة لذلك . ومع ذلك تظل أصداء بعض تلك المراجعات النقدية مسموعة حتى يومنا هذا ، وكذلك الحوار المتصل حول أفضل الطرق للقيام ببحث استطلاعي لأنه عملية دائمة التطور . وهكذا فإن الباحثات الاستطلاعيات أثرن ضمن الجهود الواسعة لتطوير معايير القيام بالبحث الاستطلاعي بما يساعد على تقليل التحيزات وتحقيق نتائج تعكس الظواهر الاجتماعية بأكبر قدر ممكن من الدقة .

الانتقادات النسوية للبحث الكمي ومنهج البحث الاستطلاعي

بينما شهد استخدام الاستطلاعات وتعقيدها طفرة سريعة ، فإن بعض التخصصات النسويات واجهن انتقادات لمنهج البحث الاستطلاعي كشكل من أشكال البحث الكمي . وقد تم تناول ذلك النقد الإستمولوجي والمنهجي في الفصل الثاني من هذا الكتاب ، وبالتالي فلن نتعمق في شرحها هنا . ولكننا نشير إلى عدة قضايا ذات أهمية خاصة للباحثات والباحثين المتخصصين في الاستطلاع النسوي . فعلى سبيل المثال ، وكما سبق تناوله ، فإن النقد الإستمولوجي الأساسي الموجه للبحث الاستطلاعي كان بشأن انطلاقه من تراث الفكر الوضعي (positivism) وهو منظور يعلي من قيمة العلم الموضوعي المتحرر من القيمة (value-free) . وقد تم عرض بعض مشاكل التراث الوضعي في الفصول السابقة .

ومن اللافت للانتباه أن بعض الباحثات النسويات دعون في الواقع لمزيد من الموضوعية الشديدة على سبيل دمج المبادئ النسوية في أبحاثهن ، وهي استراتيجية تم إطلاق مسمى الوضعية النسوية (feminist empiricism) عليها ، (Harding 1987) (1998) . وتقوم الوضعيات النسويات (feminist empiricists) بتعزيز الموضوعية

التقليدية ، ويؤكد على أنه من الممكن القضاء على التحيز الذكوري (male-centered bias) ، في العملية البحثية شريطة الالتزام التام بمبدأ الموضوعية الوضعي . كما يؤكد على أن الالتزام بمفهوم الموضوعية سيؤدي في الواقع إلى أن تكون المادة المجموعة أكثر ، لا أقل ، تمثيلا لتجارب النساء لأن مسار البحث لا يكون متأثرا بمنظور معين .

وكثيرا ما يتم افتراض أن الباحثات الكميات النسويات هن باحثات وضعيات نسويات مخلصات يتبنين ذلك الموقف الإيستمولوجي المحدد (أي الوضعية) . ولكن الأبحاث الكمية النسوية تحمل بالفعل رؤى عديدة مختلفة بشأن الإيستمولوجيا . ونحن نرى أن الافتراض بأن كل الباحثات والباحثين النسويين يشتركون في نفس المنظور الفلسفي هو خطأ يماثل الافتراض بأن كل الباحثات والباحثين الكميّين يشتركون في منظور واحد معين . وعلى الرغم من أننا نقوم بأبحاث منية تضرب بجذورها في التراث الوضعي ، فإننا أيضا نميز أنفسنا عن ذلك التراث في أننا لا نتفق مع الأسس الفلسفية للوضعية والتي ترى وجود حقيقة "هناك" يمكن حقا الوصول إليها . كما أننا لا نرى أن البحث العلمي قادر أو يجب أن يكون محايدا تماما . وفي نفس الوقت فإننا نعترف أيضا بأهمية القيام بالبحث بأسلوب يقلل (خطأ) الانحياز بأقصى قدر ممكن ، سواء صدر هذا الانحياز عن منظور نسوي أو تمييز جنسي (أو أي موقف أيديولوجي آخر) . وبمعنى آخر فإذا كان لنا أن نفهم بوضوح كيفية حفاظ البناء الاجتماعي (وهو ما سيتيح لنا تحديد أفضل الطرق لتغييره من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية) ، يجب علينا أن نحاول إزالة الانحيازات من أبحاثنا ، وهي مقاربة تم مؤخرا إطلاق مصطلح الموضوعية القوية عليها (Harding 2004) (strong objectivity) ، كما كان يطلق عليها مسبقا اسم الموضوعية النسوية (Haraway 1988) (feminist objectivity) ، والتي تم إيجازها باعتبارها

المعرفة والحقيقة الجزئية ، والمحددة بموقع ما ، والذاتية ، والمحملة بعلاقات القوى ، والعقلانية . وتتضمن هدف الموضوعية التقليدية ، أي القيام بأبحاث خالية تماما من التأثير الاجتماعي أو القناعات الشخصية ،

بناء على الواقع القائل بأنه ليس في وسع أحد تحقيق هذا الهدف ...
كما تعترف بعدم إمكانية ممارسة الموضوعية إلا داخل إطار القيود
التي تفرضها قناعات العلماء وتجاربهم الشخصية. (Hesse-Biber،
Leavy، and Yaiser 2004، p. 13)

ومن هذا المنطلق، الذي يعترف بأن المعرفة محددة بموقع معين، تبلغ الموضوعية
في الواقع أقصى مداها. فهكذا على الرغم من قيامنا بأبحاثنا داخل منظومة أكثر تقليدية
فإننا نفعل ذلك باستخدام الموضوعية النسوية، وهدفنا الأسمى هو تحقيق فارق حقيقي
في حيوات النساء.

وإلى جانب القضايا الإستمولوجية قامت النسويات أيضا بالتعبير عن المشاكل
المنهجية في البحث الاستطلاعي الكمي. فعلى سبيل المثال، رأت النسويات أحيانا أن
استخدام المناهج الكمية يؤدي بالباحثات والباحثين إلى اختزال الناس في مجرد أرقام
مع تجاهل حيواتهم في السياقات التي يعيشونها. وهو الأمر الذي يؤدي بالنسويات إلى
خلاصة مفادها أن مناهج البحث الكيفي "أفضل" و"أكثر نسوية" من مناهج البحث
الكمي. وفي الواقع فإن الجدل الدائر حول مناهج البحث الكيفي والكمي صار من أكثر
النقاشات الحيوية الدائرة في الدراسات النسوية، كما أن بعض الباحثات يرين أن القيام
ببحث نسوي قد يستلزم استخدام المناهج الكيفية مثلا: (Condor 1986; Landrine،
Klonoff، and Brown-Collins 1992; Marecek، Fine، and Kidder
1987; Sherif 1979; Smith 1987). ونحن نرى أن كلا من مناهج البحث الكيفي
والكمي مفيد في البحث النسوي، وأنه يتعين على الباحثات والباحثين اختيار منهج
البحث الأكثر فاعلية في الإجابة على أسئلة البحث بدلا من اختيار المنهج الذي يعتبر
"الأكثر نسوية". وللقيام بهذا الاختيار يكون من المهم معرفة الاختلافات الأساسية بين
مناهج البحث الكمي والكيفي.

الاختلافات بين المناهج الكيفية والكمية

حينما تقوم الباحثة أو الباحث بجمع المادة الكمية، يتم تحويل خصائص وتجارب المشاركات والمشاركين في البحث إلى فئات رقمية، وذلك بناء في العادة على تعريف مسبق تقدمه الباحثة أو الباحث، وتقييمه باستخدام التحليلات الإحصائية. فعلى سبيل المثال حين تهتم الباحثة أو الباحث بالأصل العرقي للمشاركات والمشاركين في البحث فقد تختار الباحثة أو الباحث تضمين عدد من الفئات التحليلية التي يكون في إمكان المشاركات والمشاركين توصيف أنفسهم تبعاً لها: مثل الأصل الأوروبي-أمريكي أو الأفرو-أمريكي أو الأصل الهسباني-الأمريكي أو الآسيوي-الأمريكي. كما يكون من الشائع بين هؤلاء الباحثات والباحثين استخدام فئات تحليلية عند تقييم الميول الجنسية مثل الهوية الجنسية الغيرية، والمتليات، والمتلين ومزدوجي الجنسية والمتحولين من نوع إلى آخر (heterosexual، LGBT: lesbian، gay، bisexual، transgen-dered). ثم يتم بشكل عشوائي تحديد رقم لكل فئة تحليلية (مثلاً: أبيض=1، أفرو-أمريكي=2) لاستخدامه في التحليل. كما قد يرى الباحثون والباحثات طرح سؤال على المشاركات والمشاركين؛ لمعرفة درجة رفضهم أو موافقتهم على بعض المقولات مثل "يجب أن تستطيع النساء اتخاذ قرارات بشأن أجسادهن"، أو "النساء أفضل من الرجال في تربية الأطفال" أو "كثيراً ما أشعر بالقلق" بحيث يبدأ المقياس مثلاً من الرقم 1 (أرفض بشدة) انتهاء بالرقم 5 (أوافق بشدة). وفي هذه الحالة يتم استخدام الأرقام التي يختارها كل مشاركة ومشارك في التحليل الإحصائي.

وتجدر الإشارة إلى أنه في تلك الأمثلة الأخيرة سيتطلب الأمر من المشاركات والمشاركين في البحث تقييم مواقفهم أو قناعاتهم تقييماً عاماً، دون إمكانية تقديم معلومات إضافية (مثل: متى ومع من يشعرون بأكثر قدر من القلق). كما قد يكون من الصعب على هؤلاء المشاركات والمشاركين ممن يجيبون على الأسئلة الخاصة بالأصل العرقي أو الميل الجنسي أن يضيفوا معلومات معينة مثل تعدد الأصل العرقي، أو عدم ثبات ميولهم الجنسية وتغيرها بمرور الوقت. وهكذا يتم تعريف بعض الفئات التحليلية

تعريفاً ضيقاً مع قيام الباحثين والباحثات مسبقاً بتحديد قدر التفاصيل الممكن ورودها في الإجابات، وهي قرارات لا تأتي بصورة عشوائية، وإنما تعتمد على عدد من العوامل العملية الخاصة بالشاركون والمشاركات مثل السن والمستوى التعليمي والحاجة لتحديد الفترة الزمنية التي يستغرقها الشخص في استكمال استمارة استطلاع الرأي. إن استخدام فئات مسبقة التعريف لا يتيح للمشاركات المشاركين مجالاً كبيراً للتأثير في المعلومات الخاضعة للتحليل (Jayaratne & Stewart 1991). كذلك فنظراً إلى التعريف المسبق للفئات يكون على الباحثات والباحثين معرفة قدر كاف من المعلومات عن الظاهرة؛ ليتمكنوا من تضمين فئات شاملة (وهو ما يسعى إليه غالبية الباحثين والباحثات). ومن الجدير الإشارة إلى أن البحث الكمي لا يتم كله بهذه الطريقة، فأحياناً يقوم الباحثون والباحثات بجمع المادة دون حصرها ضمن فئات مسبقة التحديد (مثل السؤال عن الأصل العرقي بإطلاق الإجابة في صورة أسئلة تتطلب الإجابة بملء الفراغات)، ثم يتم تحويل تلك الإجابات إلى فئات كمية تستخدم في التحليلات الإحصائية (مثل دمج الإجابات من فئات مختلفة).

وعلى نقيض جمع المادة الكمية فإن المادة الكيفية (كالمعلومات الواردة في صورة مفردات لغوية بدلاً من الأرقام العددية) يتم تقييمها عموماً عبر استخدام موضوعات أو فئات تتضح بعد جمع المادة (مع أن تلك الممارسة ليست عامة وقائمة في كافة المناهج الكيفية). ويمكن لهذه العملية أن تزيد من إمكانية قيام الباحثة والباحث بالأخذ في الاعتبار بكل التفاصيل والتنوعات الكامنة في إجابات المشاركات والمشاركين مع إتاحة فرصة اكتشاف عدد من التأويلات المختلفة لها. وهكذا، ولعدم وجود تعريف مسبق لموضوعات الفئات كثيراً ما تتوفر للمشاركات والمشاركين حرية الإجابة على أسئلة البحث بما يعبر عنهم. ونتيجة لذلك تتضمن تلك البيانات معلومات يعتبرونها هم أنفسهم ذات أهمية. ويرى دعاة مناهج البحث الكيفي أهمية هذا الجانب من البحث الكيفي، ويتعين على المشاركات والمشاركين القدرة على وصف التجارب طبقاً لما يرونه لا من خلال ما يحمله الباحثون والباحثات من أفكار عن عالمهم (Landrine et al. 1992; Marecek et

(1992; Wallston & Grady 1997; al. ولا يعني ذلك أن المادة الكيفية هي الأكثر دقة، بل إن البحث الكيفي هو أيضا خاضع حقا لتأويلات الباحثات والباحثين

ففي نهاية المطاف أنا من طرحت السؤال ، وأنا أقرأ النص بعد التفريغ ، وأنا أختار المادة التي يتم وضعها في النص فأتساءل محاولتي أن أحقق أكثر درجات الأمانة في تناول المعاني . . . أكون على وعي تام أن "منح الصوت" لغيري ليس في النهاية أمرا بسيطا . . . فهو مليء بالتأويل .
(Gorelick 1996، p. 38)

وهكذا كما هو واضح فكل من منهجي البحث الكمي والكيفي عيوبه من حيث إمكانية تعديل المعنى المقصود في إجابات المشاركين والمشاركات. إلا أن مثل هذا التشويه قد يتكرر بدرجة أقل في مناهج البحث الكيفي ، وهذه هي الميزة الأساسية لاستخدام تلك الأساليب .

مزايا المناهج الكمية

رغم قيام بعض النسويات بطرح إشكاليات البحث الاستطلاعي الكمي ، فإنه يمكن لهذا المنهج أن يخدم كأداة فعالة لدعم الأهداف والفلسفة النسوية ، كما يمكنه أن يقدم عددا من المزايا غير الموجودة في البحث الكيفي .

أولا: يمكن للبحث الاستطلاعي الكمي أن يوفر وسيلة تقوم النسويات من خلالها بتناول التمييز الجنسي (sexism) والتمييز العنصري (racism) والتمييز الطبقي (classism) ، والغيرية الجنسية (heterosexism) ، وغيرها من قضايا العدالة الاجتماعية وإدخالها ضمن النقاشات السائدة (مثل مجال السياسات العامة والتشريع). ولعل هذه هي الميزة الكبرى لمناهج البحث الكمي . ونظرا إلى أن أبحاث العلوم الاجتماعية مبنية

على مثال الموضوعية فقد يجد الباحثون المنتمون إلى التيار السائد والرأي العام أنفسهم غير مرتاحين لمناهج البحث التي يعدونها أقل موضوعية (كالبحت الكيفي). وإلى جانب ذلك فإن من لا يدعمون القيم النسوية بقوة قد يميلون تحديدا إلى عدم الثقة في المادة الكيفية التي تحمل رسالة نسوية، مدعين في ذلك أن مثل تلك المادة منحازة لأجندة سياسية معينة (رغم كون كل بحث يحمل أجندة ما). وقد يمثل البحث الكمي عامل جذب أكبر لتلك المجموعات من الأفراد، وبالتالي قد يجعلهم أكثر استعدادا للإنصات واعتبار البحث الكمي شرعا (Spalter-Roth & Hartmann 1996). ولا يمكن المبالغة في تأكيد أهمية تلك الفائدة، فمن أجل حدوث تغيير اجتماعي لصالح النساء يجب علينا أن نستطيع من عرض نتائج بحثنا بشكل يجذب انتباه الناس ويقنعهم بالحاجة لحدث تغيير اجتماعي. والأرقام والإحصائيات تتحدث عن نفسها، وبصوت عال ومقنع. إننا نريد حقا لنتائج بحثنا أن تكون مؤثرة بما يجعلها غير قابلة للتجاهل من قبل غير النسويات وعموم الناس. والبحث الاستطلاعي الكمي قادر على مساعدتنا في تحقيق ذلك.

ثانيا: إن الإيجاز الذي تتسم به الإحصائيات يجعلها سهلة التذكر والفهم، وبالتالي سهلة التواصل مع الآخرين (Reinharz 1992). ومن أكثر النماذج المؤثرة هو ما حدث في الستينيات من القرن العشرين عندما نقلت وسائل الإعلام أن أجر المرأة يقدر بمبلغ 59 سنتا مقابل كل دولار يحصل عليه الرجل. وقد كان ذلك رقما إحصائيا بسيطا، ولكنه قام بدور كبير في تعريف الجمهور العام بغياب المساواة بين الجنسين في مكان العمل، وأصبح بصورة ما وسيلة حشد للتسويات (فعلى سبيل المثال ظهرت ملصقات للسيارات ودبابيس للملابس لا تحمل سوى عبارة "59 سنتا"). وهكذا يمكن للبيانات الكمية أن توصل أفكارا نسوية مهمة توصيلا مؤثرا على الجمهور العام بأسلوب بسيط ولكنه قوي.

ثالثا: تساعد المناهج الكمية في تحديد أفضل مسار للعمل على تحقيق التغيير الاجتماعي لصالح النساء؛ لأن تلك الأساليب تساعد في تحديد أنماط القهر على أساس النوع وفي الكشف عن كيفية حدوث القهر. فعلى سبيل المثال يمكن للبحث الاستطلاعي أن يوثق

التداعيات الاقتصادية والنفسية والمتعلقة بالصحة الجسدية ذات الصلة بالعنف المنزلي وغياب عدالة الأجور والاضطراب الغذائية وغيرها مما يتضح لدى مجموعات كبيرة من النساء. فإذا أوضحت نتائج البحث الاستطلاعي الكمي أن الآلاف (أو الملايين) من النساء يتشابهن في التأثير سلبيا بمثل هذه التجارب، فمن المرجح أن ينعكس ذلك على التشريعات أو السياسات المقدمة لصالح النساء.

وأخيرا: فإن المناهج الاستطلاعية تتيح للباحثين تقييم تجارب أو آراء أعداد كبيرة من الأفراد (بدلا من أعداد أصغر كما هو الحال في البحث الكيفي). وبالتالي فإن مثل تلك المناهج تحمل إمكانات توليد مادة يمكنها أن تمثل طيفا أوسع من الرؤى ووجهات النظر، فنتج عنها مقارنة أشمل وتغيير اجتماعي أكثر انتشارا، وهو أمر مهم في البحث النسوي.

ونرجو أن يكون من الواضح أن هنالك فوائد لا يمكننا نكرانها فيما يتصل باستخدام البحث الاستطلاعي والمناهج الكمية في سبيل تعزيز التغيير الاجتماعي النسوي. وقد يطرأ التساؤل لديك الآن حول كيفية القيام فعلا بالبحث الاستطلاعي. وسنقضي بقية هذا الفصل في شرح كيفية قيامنا بالبحث الاستطلاعي حول القضايا النسوية. وسوف نشرح الإطار العام للقيام بمثل هذا البحث، ونصف المكونات والقرارات الرئيسية المتعلقة بكل مرحلة، مع تسليط الضوء على كيفية تأثير هذه العملية بكوننا نسويات.

كيف تكون بداية قيامك بمشروع بحث استطلاعي؟ إطار عمل البحث الاستطلاعي

قبل أن نبدأ العمل من المهم بالنسبة لك معرفة أن القيام بالبحث الاستطلاعي -عموما- يتضمن نفس المكونات والقرارات العامة سواء تم البحث بمنظور نسوي أو غير نسوي. وبمعنى آخر فإن الباحثات الاستطلاعيات النسويات ومن يقومون بالبحث

الاستطلاعي السائد ينخرطون بشكل عام في أنشطة بحثية متشابهة. أما ما يميز البحث الاستطلاعي النسوي عن غيره من الأبحاث الاستطلاعية فهو أن البحث الاستطلاعي النسوي يتسم بالآتي: (1) أسئلة البحث المبدئية التي يتم تناولها (أي الأسئلة الرئيسية التي سيسعى البحث إلى الإجابة عليها) تركز في حد ذاتها على قضايا تهم النسويات. (2) أن تأويل النتائج وتطبيقها يتم بشكل يحاول الدفع بالقيم النسوية. وهو ما يتماشى مع الرأي القائل بأن المنظور النسوي هو الأكثر تطبيقاً خلال نقطتين معينتين في مسار البحث، وهي: وضع أسئلة البحث وتأويل النتائج (Kelly 1978). وهما نقطتان تقعان -على الترتيب- في بداية مراحل البحث الاستطلاعي ونهايتها. ويمكن إدراك مسألة قابلية المنظور النسوي للتطبيق من خلال فكرة "طرفي الكتاب" بالنسبة لمسار البحث الاستطلاعي، إذ تجعل جوهر البحث متماسكا فيما بينهما (أي "طرفي الكتاب") كما تضيف على كل مكون من مكوناته شكلا وبنية ومعنى.

إن مكونات منهج البحث الاستطلاعي، التي تلي مرحلة وضع أسئلة البحث وتسبق تأويل النتائج (أي منتصف "الكتاب")، تتضمن قرارات بشأن اختيار أساليب معينة للبحث الاستطلاعي. فعلى سبيل المثال، هذه هي المرحلة التي يجب فيها على الباحثة أو الباحث اختيار نوع الاستطلاع المستخدم، ومن سيتم عقد المقابلات معهم، وإعداد استمارة الاستطلاع، وكيفية جمع المادة، وكيفية تحليل المادة. وعموما فإن الباحثات والباحثين الاستطلاعيين (النسويات وغير النسويين على حد سواء) يجب أن يتعاملوا مع القرارات المتعلقة بتلك المكونات قبل بدء عملية البحث الاستطلاعي فعليا. وهكذا فهناك الكثير من العمل الذي يتم حتى قبل جمع المادة! كما نود التأكيد على أنه من أجل ضمان بحث جيد القيمة فمن المهم للغاية أن تأتي القرارات الخاصة بالمكونات في المرحلة الوسطى من البحث معتمدة على المبادئ العامة للبحث الاستطلاعي (والتي تتسق تماما وبطرق عديدة مع المبادئ النسوية، كما سيتضح لاحقا). إن المرحلة الوسطى من مسار البحث الاستطلاعي يجب -بالتالي- أن تتأثر على الأقل بالمنظور النسوي (أو أي منظور آخر)، لأن تلك المرحلة هي التي تتطلب اتباع بروتوكول البحث الاستطلاعي المتفق عليه.

المرحلة الأولى من البحث الاستطلاعي: صياغة أسئلة البحث وفرضياته

إن الخطوات الأولى في مسار البحث المتعارف عليه (ولا يقتصر على البحث الاستطلاعي) هي صياغة أسئلة البحث ووضع فرضياته. إن أسئلة البحث (research questions)، هي ببساطة مجموعة الأسئلة التي سيحاول البحث الإجابة عليها. وبالنسبة للنسويات فإن أسئلة البحث تنبع من الاهتمام بتحسين حيوات النساء وتحقيق العدالة الاجتماعية عامة. فعلى سبيل المثال، قد تطرح الباحثة النسوية السؤال التالي: "ما أفضل طريقة لجعل البيانات الأكاديمية أكثر دعماً للطالبات المثليات؟"، أو "كيف تؤثر عدم المساواة في الأجر بين الجنسين في مكان العمل على الأطفال؟"، أو "لماذا يقوم بعض الرجال بضرب النساء؟" وهي بطبيعة الحال مجرد أمثلة على العديد من الأسئلة التي قد تهتم الباحثة بدراستها.

أما الفرضيات (hypotheses) فهي التنبؤات التي تقوم بها الباحثة أو الباحث بشأن نتائج الدراسة: أي ما يعتقدانه من إجابات لسؤال البحث. ويتم وضع الفرضيات بناء على تحليل للأبحاث والنظريات السابقة. فإذا أخذنا في الاعتبار أسئلة البحث المطروحة أعلاه، على سبيل المثال، فبناء على نتائج الدراسات السابقة، قد تفترض الباحثة أو الباحث أن تنفيذ السياسات الرافضة للتحرش بالطالبات المثليات يؤدي إلى بيانات تعليمية أفضل لهن، وأن عدم المساواة في الأجر بين الجنسين في أماكن العمل يقلل من تقدم الأطفال في الدراسة، أو أن بعض الرجال يعنفون النساء كوسيلة لفرض السلطة والسيطرة. ونجد في بعض الأبحاث السائدة أن أسئلة البحث تنطلق فقط من اهتمام بالنظرية دون تطبيق مباشر لحل المشاكل الاجتماعية. إلا أن النسويات هن الأقرب إلى طرح أسئلة (على شاكلة تلك الواردة أعلاه) ووضع فرضيات بصورة تجعل لنتائج البحث علاقة مباشرة بالتغيير الاجتماعي النسوي. وهكذا يؤثر المنظور النسوي على صياغة أسئلة البحث وكذلك على طريقة التعبير عن الفرضيات. فالغرض في الواقع من القيام بالبحث هو الإجابة على أسئلة البحث تلك.

الأسئلة التي يجب طرحها خلال المرحلة الأولى من مسار البحث الاستطلاعي تتضمن ما يلي:

• ما سؤال البحث، وما أهميته كقضية نسوية؟

• ما الفرضية التي أطرحها؟ وهل تعتمد على تقييم دقيق للنظرية القائمة والأبحاث الإمبريقية؟

المرحلة الثانية من البحث الاستطلاعي: القيام بالبحث

لا يمكن للمرء التفكير في منهج البحث الذي يتعين اختياره إلا بعد صياغة أسئلة البحث وفرضياته. فما العوامل التي تؤثر على قرار استخدام منهج البحث الاستطلاعي؟ بشكل عام، إذا كان الهدف من البحث هو تطبيق النتائج على نطاق أوسع من المشاركات والمشاركين في البحث، أو التأثير في صانعي السياسات والرأي العام، أو اختيار بعض الفرضيات أو النماذج النظرية المعقدة، فقد يكون البحث الاستطلاعي اختياراً ملائماً لذلك. فعلى سبيل المثال تم استخدام البحث الاستطلاعي لتقييم برنامج للتدخل (intervention programme)، تم إعداده للحفاظ على اهتمام تلميذات مرحلة التعليم المتوسط بالعلوم (Jayaratne، Thomas، and Trautmann 2003). وقد كان الهدف المحدد لهذا البحث هو تحديد فاعلية مختلف جوانب البرنامج بين الفتيات المنتميات إلى أقليات وغير المنتميات إلى أقليات. وتم اختيار البحث الاستطلاعي في هذا المشروع لأنه أتاح للباحثات ما يلي: (1) جمع الآراء من عدد كبير من الفتيات. (2) تعميم النتائج على الفتيات في التعليم المتوسط. (3) التأثير على صناع السياسات بشأن أهمية التدخل لصالح الفتيات في مجال العلوم. (4) القيام باختبار إحصائي للفرضيات القائمة بشأن الاختلافات الناتجة بين الفتيات المشاركات في برامج التدخل وأولئك غير المشاركات في تلك البرامج. وعلى الرغم من أنه قد تم التفكير مبدئياً في القيام بمقابلات

شخصية كيفية لما ستوفره من فهم معمق لآراء الفتيات في البرنامج ، فإن احتياجات الباحثات ، الواردة أعلاه ، كانت تتطلب استخدام الاستطلاعات بشكل أفضل مقارنة بغيرها من الاستراتيجيات . إن استخدام البحث الاستطلاعي يعكس منظوراً نسوياً من حيث إن الهدف الأسمى هو توليد معلومات يتم استخدامها في تطوير برامج لزيادة مشاركة الفتيات من الأقليات وغير الأقليات في مجال العلوم .

أنواع استطلاعات الرأي

التصنيف المتعارف عليه لاستطلاعات الرأي يعتمد على كيفية القيام به ، أي كيفية جمع البيانات . فالمناهج التقليدية تتضمن مقابلات تتم وجها لوجه (بحيث يقوم الباحث أو الباحثة شخصياً بطرح الأسئلة) ، والمقابلات الهاتفية (التي يتم خلالها طرح الأسئلة عبر الهاتف) ، وأسئلة الورقة والقلم أو الاستبيانات المرسلة بريدياً (وهي تلك التي يقوم فيها المستجيبون والمستجيبات بالإجابة في الورقة ثم إعادة الاستبيان إلى الباحثة أو الباحث) . أما المناهج الأحدث في القيام بالاستطلاعات فتقوم على الاستعانة بالحاسب الآلي في عمليات جمع البيانات ، بما في ذلك الاستطلاعات الإلكترونية (Web surveys) والتي يستخدمها كثير من الباحثين والباحثات حالياً بدلاً من استبيانات الورقة والقلم التقليدية (Groves et al. 2004).

إن كل أسلوب من هذه الأساليب الاستطلاعية يحمل مزايا وعيوباً متنوعة . فالمقابلات وجها لوجه تميل إلى ارتفاع تكلفتها ولكنها تتيح التفاعل المباشر من قبل المشاركين والمشاركات في المقابلات الشخصية ، وهو بالتالي المنهج الأمثل للاستطلاعات التي تتطلب تفصيلاً متعمقاً وتوضيحاً للإجابات . ولكن حينما يكون موضوع البحث حساساً بدرجة ما ، فإن المادة العلمية المجموعة من المقابلات القائمة وجها لوجه قد تحمل بيانات متأثرة بالرغبة في الرضا الاجتماعي (social desirability) مثلما يحدث عندما يدفع

حضور الباحثة أو الباحثة بالشاركين والمشاركات في البحث إلى الإجابة على الأسئلة بصورة تجعلهم يبدون "صالحين" في نظر القائمين بالمقابلة (انظر/ي: Campbell 1971; Rogers 1982). كما قد يقوم المستجيبون بالإجابة على الأسئلة بالإجابة التي يعتقدونها هي المفضلة للقائم بالمقابلة (أي بما يدعم فرضيات البحث). وهي مسألة من المهم التوقف أمامها عند القيام بأبحاث عن قضايا النوع أو الأصل أو الجنسية، والتي قد تتضمن أمورا حساسة وخلافية. ومع ذلك فقد تم القيام بأبحاث نسوية عالية الجودة حول قضايا حساسة للغاية وذلك باستخدام مثل هذه الأساليب الخاصة بالمقابلات الشخصية. فعلى سبيل المثال نجد بحثا تناول قضايا النوع والأصل والجنسانية في الحياة الأكاديمية (Stewart and Dottolo 2005)، حيث يتم في هذا البحث عقد مقابلات شخصية مع مجموعات متنوعة من هيئة التدريس بالجامعات حول تجاربهم مع التمييز الجنسي، والتمييز العنصري والهوية الجنسية الغيرية في مكان العمل، وقد حملت المقابلات إجابات عميقة فكريا وأمنية. فالمقابلات التي تتم وجها لوجه يمكنها في حال القيام بها باحترام ومهنية أخلاقية يمكن أن تقدم كما غنيا من المعلومات عن موضوعات حساسة.

لقد اتضح أن المقابلات الهاتفية تأتي بنتائج شبيهة عموما مع مناهج المقابلات وجها لوجه (groves & Kahn 1979). ومع أن المقابلات الهاتفية تعتبر أقل تكلفة وتفرض نفسها بدرجة أقل على الطرف الآخر، فإن النتائج يمكن أن تتأثر أيضا بمسار المقابلة، وعادة تتأثر بما يقوله الطرف القائم بالمقابلة (أو بما لا يقوله) خلال المقابلة. ونجد في السنوات الأخيرة أن التطورات التي شهدتها أدوات أو خدمات مراقبة الاتصالات الهاتفية (أي خاصية التعريف الشخصي) أدت إلى انخفاض معدلات الاستجابة للاستطلاعات الهاتفية. وتبين الأبحاث عامة أن انخفاض تلك المعدلات لم يؤثر في إجمالي أنواع الأفراد الذين يجيبون على الاستطلاعات الهاتفية (Pew Research Center 2004)، إلا أنه يتعين على الباحثات والباحثين الوعي بتلك المسألة وكيف يمكنها أن تؤثر في المادة المجموعة.

ومن المتعارف عليه أن استطلاعات الورقة والقلم أو الاستطلاعات البريدية والاستطلاعات الإلكترونية هي أقل تكلفة من الاستطلاعات الهاتفية أو التي تتم وجها لوجه ، ولكنها أقل تعرضا للتأثير في كيفية القيام بها نظرا إلى قيام المستجيبين والمستجيبات بملئها في ظروف غير معلومة . فعلى سبيل المثال قد يقوم المستجيبون والمستجيبات بإكمال الاستطلاع في مكان وزمان واحد أو على مدار عدة أيام أو بالاسترشاد بآراء الأصدقاء أو أفراد الأسرة . كذلك فإن هذه الأنواع من الاستطلاعات قد تحمل معدلات إجمالية أقل بسبب سهولة رفض الناس المشاركة فيها . ويمكن للحوافز أن تساعد كثيرا في حل هذه المشكلة (كما يرد بالتفصيل في المصدر التالي: Dillman 1978) ، كما يقوم كثير من الباحثين والباحثات بتعويض المشاركين والمشاركات عن الوقت والجهد المبذول (في كافة أنواع الاستطلاعات) . ومن مزايا استطلاعات الورقة والقلم هو أنها تتيح قدرا أكبر من الخصوصية وعدم كشف الهوية ، وبالتالي تساعد في تناول القضايا الحساسة . وهو أمر قد يوجد ميزة مهمة للباحثات النسويات لأن المشاركات والمشاركين قد يشعرون بدرجة أكبر من الراحة في موقف البحث وأن يفصحوا عن أصواتهم في التعبير عن آرائهم وتجاربهم الحقيقية في ظل تلك الخصوصية . ومن الواضح أن القرار الخاص باختيار نوع الاستطلاع هو قرار ذو أوجه متعددة ، ولكنه قرار مهم من حيث تأثيره على كافة جوانب البحث ولما له من تداعيات كبيرة على جودة وقيمة ما تم جمعه من مادة .

اختيار المستجيبات والمستجيبين

بعد اختيار نوع الاستطلاع يتعين على الباحثة أو الباحث اتخاذ القرار بشأن كيفية اختيار المشاركات والمشاركين في البحث . ويشير مصطلح اختيار العينة (sampling) إلى اختيار أشخاص من بين مجموعة بشرية يتم عمل الاستطلاع من خلالها (Stangor 2004) . أما مجتمع البحث (population) فيتم تعريفه بوصفه مجموعة الأفراد الشاملة ممن يرغب الباحثة أو الباحث في دراستهم . فعلى سبيل المثال ، قد يمثل مجتمع البحث

في كل النساء الأفروأمريكيات ممن تزيد أعمارهن عن 50 عاما في الولايات المتحدة الأمريكية، أو كل النساء السجينات في نيومكسيكو، أو كل النساء اللاتي وضعن أطفالا خلال دراستهن في جامعة يال. وعلى النقيض من ذلك فإن العينة هي مجموعة جزئية (subset) أصغر عددا تتضمن الأفراد المشاركين المشاركات في البحث. فعلى سبيل المثال، وبناء على ما سبق، قد تتضمن العينة نساء أفروأمريكيات ممن تزيد أعمارهن عن 50 عاما من المقيمت في المقاطعة التي تنتمي إليها الباحثة واللاتي يستجبن للإعلان المنشور في الصحيفة المحلية بشأن الحاجة إلى مشاركات في البحث، أو مجموعة صغيرة من النساء السجينات في كل مكان حبس في نيومكسيكو، أو النساء اللاتي وضعن أطفالا خلال دراستهن في جامعة يال ممن توجد قائمة بأسمائهن في دليل خريجات جامعة يال وخريجيهن. وكثيرا ما يحرص الباحثون والباحثات على تطبيق نتائج البحث التي تمت على العينة بتوسيع الدائرة لتشمل المجموعة الأشمل أي مجتمع البحث، وذلك في عملية اسمها التعميم (generalization). وهي مسألة مهمة تحديدا لأن نتائج البحث يصبح لها معنى لمجموعة أكبر من الأفراد ولا تقتصر على المشاركات والمشاركين في البحث. ومع ذلك لا يكون التعميم ممكنا إلا إذا كانت العينة ممثلة (representative)، أي تتمتع بخصائص تكاد تماثل خصائص مجتمع البحث في جوانبها المهمة. وهذه هي أهمية اختيار العينة، فكيفية اختيار المشاركين والمشاركات في البحث هي التي تحدد ما إذا كان من الممكن تعميم نتائج البحث على مجتمع البحث بناء على العينة.

إن أفضل طريقة لضمان قابلية العينة للتعميم هي اختيار المشاركين والمشاركات بشكل عشوائي من بين مجتمع البحث، بما ينتج عينة احتمالية (probability sample). وتوجد أنواع كثيرة مختلفة من العينات الاحتمالية، ولكنها تتضمن جميعها نوعا ما من الاختيار العشوائي للمستجيبين والمستجيبات (Czaja & Blair 1996). فعلى سبيل المثال إذا كان اهتمام الباحثة منصبا على تجارب السجينات في نيومكسيكو (مجتمع البحث)، ولكن تعذر القيام بالبحث بالاستعانة بمجتمع البحث بأكمله يمكنها حينها الحصول على عينة احتمالية لهؤلاء النساء. ويمكن القيام بذلك عن طريق اختيار عشوائي لمجموعة

جزئية صغيرة من النساء من كل سجن للمشاركة في الاستطلاع ، وهو أسلوب سينتج على الأرجح عينة احتمالية ممثلة لمجتمع البحث من النساء السجينات . ونظرا إلى أن اختيار العينة الاحتمالية يتميز بتحقيق نتائج قابلة للتعميم على مجتمع البحث المعني ، وبالتالي يكون مقنعا ، فإن استراتيجية اختيار العينة تكون مفيدة تحديدا إذا كان هدف البحث هو التأثير على السياسة العامة فيما يتعلق بقضايا النساء .

وعلى الرغم من هذه الميزة الخاصة باختيار العينة الاحتمالية فإن الباحثة أو الباحث لا يكونان قادرين أحيانا على استخدام هذا المنهج في اختيار المستجيبين والمستجيبات . وهو أمر قد يحدث بسبب صغر حجم مجتمع البحث (مثل النساء الملونات اللاتي يشغلن منصب رئيس مجلس إدارة الشركة) ، أو بسبب صعوبة الوصول إليه (مثل العاملين في الاتجار بالجسد) . كما قد يصعب الاستعانة باختيار العينة العشوائية بسبب نقص التمويل ، إذ إن أساليب تشكيل العينة الاحتمالية تكون مكلفة أحيانا . فبسبب تلك الصعوبات يستخدم الكثير من الباحثين والباحثات عينات غير احتمالية (nonprob-ability samples) ، في أبحاثهم .

والعينات غير الاحتمالية هي تلك العينات التي لا تكون العينة فيها ممثلة لمجتمع البحث . وفي هذه الحالة يمكن للباحثة أو الباحث تطبيق نتائج البحث فقط على مجموعة معينة من الأفراد الذين شاركوا في البحث ، وذلك رغم أنهما قد يتأملان كيف يمكن للنتائج أن تنطبق على مجتمع البحث الأشمل . إن الميزة الأساسية لاختيار عينة غير احتمالية تتمثل في أنها قد لا تكون مكلفة نسبيا ويمكنها عادة أن تولد عينة كبيرة بسرعة تفوق استراتيجيات اختيار عينة احتمالية (Biemer & Lyberg 2003) . وللحصول على عينة غير احتمالية تقوم الباحثة أو الباحث بتحديد مجتمع البحث المعني (مثل كل النساء الأفروأمريكيات ممن تزيد أعمارهن عن 50 عاما) مع الاقتصار في العينة على الأفراد الذين تنطبق عليهم بعض السمات الإضافية ، مثل النساء القاطنات مدينة موسكو في أيداهو بالولايات المتحدة الأمريكية حيث تعيش الباحثة أو الباحث . إن مثل هذا النوع من العينات لن تمثل بالطبع مجتمع البحث بأكمله .

ومن أنواع اختيار العينات غير الاحتمالية الشائعة، وهي تلك المذكورة أعلاه، هو اختيار العينة الملائمة (convenience sampling)، والذي يشير إلى الاستعانة بمشاركين ومشاركات في أماكن يسهل الوصول إليها. فعلى سبيل المثال نجد أن الكثير من الأبحاث في علم النفس الاجتماعي النسوي يستعين بعينات من طلاب وطالبات الجامعات التي ينتمي إليها الباحث أو الباحثة (مثلاً: Smith & Frieze 2003)، كما أن كثيراً من الباحثين والباحثات يستعينون بعينات من المشاركات والمشاركين المقيمين في نطاق سكنهم الجغرافي. وبينما يمكن لاختيار العينة الملائمة أن يقدم ملاحظات عميقة عن مجتمع البحث، فإنه على الباحثين والباحثات الحذر كي لا يقوموا بتعميم نتائجهم خارج نطاق خصائص العينة. فعلى سبيل المثال إذا قام باحث أو باحثة بدراسة عن تجارب طالبات الجامعة اللاتي وضعن أطفالاً خلال الدراسة، وعند اختيار نساء للمشاركة في البحث ممن يدرسن في الجامعة التي ينتمي إليها الباحث أو الباحثة، فسيكون في الإمكان بلا شك الحصول على معلومات قيمة عن تجارب هؤلاء الطالبات. ولكن لن يكون من الصواب تعميم النتائج على كل النساء اللاتي وضعن أطفالاً خلال مرحلة الدراسة الجامعية. إن قرار اختيار استخدام عينة احتمالية أو غير احتمالية يعتمد في نهاية الأمر على الموارد المتاحة للباحثة أو الباحث، ومدى أهمية تعميم النتائج. ويجب على الباحثين والباحثات توخي الحرص والدقة في قرار منهج اختيار العينة بالموازنة بين مزايا الأساليب المختلفة وعيوبها في اختيار العينة.

إعداد الاستطلاع

قد يكون من المفيد عند البدء في مرحلة إعداد الاستطلاع عقد مناقشات معمقة (مجموعات نقاشية) مع الأفراد الممثلين لمجتمع البحث المعني، وهو أمر قد يساعد الباحثة أو الباحث في فهم الطريقة التي يتحدث بها الناس عن القضايا التي سيتناولها الاستطلاع وفي اختيار المفردات وصيغ الأسئلة المناسبة. وهي مناقشات قد تطرح قضايا وهموماً وصوراً لتناول الموضوع مما لم يخطر على بال الباحثة أو الباحث (Fowler 1984).

وهكذا يمكن لتلك المناقشات أن تكون أداة قيمة لاكتساب المعرفة ، وخاصة حول فئة تابعة . فعلى سبيل المثال قامت دراسة حول السلوكيات والمواقف المتصلة بمرض نقص المناعة المكتسبة (الايدز) بعمل مجموعات نقاشية لعينيتين مجتمعتين من النساء الحاصلات على قدر قليل من التعليم واللاتي عبرن عن آرائهن حول هذا الموضوع (Quina et al. 1999). وقد أتاح ذلك الأمر لمجتمع البحث (أي النساء الحاصلات على قدر قليل من التعليم) المشاركة في مسار البحث وأن يكون لهن صوت فيه . وهي كلها جوانب تحتل موقعا مركزيا ضمن المبادئ والقيم النسوية .

أما الخطوة التالية فهي مرحلة عمل الاستطلاع ، وتختص عملية تشكيل الاستطلاع وصياغته (survey construction) أولا بالقرارات الخاصة بما توجد أهمية لقياسه (أي الأسئلة التي سيتم طرحها) ، ثم كيفية طرح الأسئلة (Fowler 1984) ، وهي قرارات لا بد أن تعتمد على المعلومات التي يجب توفرها لتقييم الفرضيات . إن تحديد الأسئلة التي يتعين تضمينها في الاستطلاع يجب أن تكون عملية مباشرة إلى حد كبير . ولنفترض أن باحثة ما مهتمة بدراسة سلوكيات المواعدة لدى المراهقات المثليات ، وتقوم فرضيتها على أن الفتيات اللاتي ينتمين إلى أسر تتقبل مثليتهن سيكشفن عن تجارب مواعدة أكثر إيجابية مقارنة بالفتيات المنتميات إلى أسر أقل تقبلا لها . ومن الواضح أن الباحثة يجب أن تضمن في استطلاع الرأي أسئلة عن تجارب الفتيات مع المواعدة ومستوى تقبل أفراد أسرهن لميولهن الجنسية (بالإضافة إلى أي قضية أخرى ذات أهمية) . ومع ذلك يجب على الباحثة أيضا أن تقرر بالضبط كيف سيتم طرح هذه الأسئلة ، وهي مهمة أكثر صعوبة من سابقتها . فكيف للباحثة أن تقوم بذلك؟

إعداد الأسئلة

عند وجود مقاييس راسخة في أدبيات البحث يكون من المفضل الاعتماد عليها في حال ما إذا كان قد ثبتت صحتها (Fowler 1984). والمقاييس الصحيحة (valid)

(measures) ، هي تلك التي تم تقييمهما إمبريقيا وتعمل فعليا على تقييم ما يفترض قدرتها على الوصول إليه . فعلى سبيل المثال ، يجب عند السؤال عن دخل الأسرة أن يوضح للمشاركة أن المقصود هو الدخل الإجمالي لكل أفراد الأسرة . فإن لم يتم توضيح ذلك من خلال صيغة السؤال سنجد أن المقياس يقيم هنا في الواقع دخل المشاركة وحدها ، وبالتالي لن يكون مقياسا صحيحا لدخل الأسرة . فمسألة صحة السؤال هي مسألة جديرة بالاهتمام سواء عند استخدام المقاييس المعروفة أو إعداد مقاييس جديدة .

وفي حال عدم توفر المقاييس المعروفة والمضمونة ، أو إذا جاءت صيغتها المضبوطة غير عملية ، سيحتاج الباحث أو الباحثة إلى صياغة أسئلة أو تكييف مقياس ما قائم بالفعل وملامح لمجتمع البحث . أما القضايا الأساسية التي يجب تناولها عند إعداد الأسئلة فهي: الفهم (comprehension) أي درجة السهولة التي تقوم المشاركة أو المشارك بها بتفسير السؤال وفهمه) ، والاستعادة (retrieval) أي درجة قدرة المشاركة أو المشارك على تذكر المعلومات اللازمة للإجابة على السؤال) ، والرد (reporting) أي القدرة على صياغة إجابة ووضعها في الشكل المطلوب في الاستبيان (Groves et al. 2004) . ومن الواضح أنه في حال عدم فهم المشاركة أو المشارك للأسئلة ، فستأتي كل من الاستعادة والرد غير دقيقة .

ومن أمثلة البحث النسوي الممتازة والتي قامت بتكييف الاستطلاع بما يحقق مزيدا من الفهم هو الدراسة التي سبق ذكرها بشأن السلوكيات والمواقف المتعلقة بمرض الإيدز (Quinas et al. 1999) . فخلال عملية تكييف الاستطلاع تبعا لمجتمع البحث ، قام البحث بخفض مستوى القدرة على قراءة الاستطلاع من مستوى الفصل الثاني عشر من التعليم المدرسي (والذي كان قد تم أصلا إعداداه تبعا له) إلى مستوى الفصل السادس من التعليم . وقد تحقق ذلك بناء على التعليقات وردود الأفعال التي تلقوها من مجموعات من النساء اللاتي يشبهن المجموعة المستهدفة من الاستطلاع (أي النساء ذوات القدرة المنخفضة على القراءة والكتابة) . وقد سمحت تلك الاستراتيجية للنساء

في مجتمع البحث المعني بإدراج أصواتهن في البحث الذي جاء في الأساس عنهن ومن أجلهن - وهي مسألة نسوية مهمة عند القيام بالبحث .

وتبين لنا الأبحاث أن المستجيبات والمستجيبين قادرين ويقومون أحياناً بتفسيرات مختلفة لنفس الأسئلة، وخاصة حين تكون تلك الأسئلة غامضة أو متضمنة مصطلحات متخصصة (Groves et al. 2004; Schwarz, Groves & Schuman 1998). ونتيجة لذلك فمن المهم كتابة الأسئلة بحيث يميل المشاركون والمشاركات إلى تفسيرها بصورة متشابهة (fowler 1984). وفي سبيل تقليل إمكانية اختلاف التفسيرات إلى أقصى مدى فمن المفيد استخدام لغة الحياة اليومية، غير المبهمة، والخالية من المصطلحات المتخصصة عند صياغة الأسئلة. كذلك، ومن منطلق اتباع مبادئ البحث النسوي، فمن المهم الأخذ في الاعتبار الاختلافات القائمة بين الفئات الاجتماعية (مثل العرقيات أو الطبقات أو الثقافات المختلفة: Fowler 1984)، مع استخدام لغة خالية من الاضطهاد (أي لغة تخلو من التمييز الجنسي، والتمييز العنصري) (Eichler 1988). وقد تم في أحد الأبحاث دراسة تأويلات النساء البيض والسود للمفردات والعبارات المتعلقة بالنوع (مثل: "أنا ذات أنوثة"، و"أنا سلبية"، و"أنا حاسمة")، فظهر أن النساء على اختلافهن أضعفن معاني متباينة جداً على المفردات المؤثرة على إجاباتهن (Landrine et al. 1992). فعلى سبيل المثال، بينما قامت النساء السود بتعريف كلمة السلبية باعتبارها تشير إلى عدم الإفصاح عما يدور في ذهن، قامت النساء البيض بتعريفها باعتبارها تعني التكاسل/التساهل، بما يكشف عن اختلافات في معنى السؤال وتأويله.

أنواع الأسئلة

يوجد عامة نوعان مختلفان من الأسئلة المستخدمة في البحث الاستطلاعي: الأسئلة المغلقة (close-ended) والأسئلة المفتوحة (open-ended). وتقدم الأسئلة المغلقة للمشاركين والمشاركات قائمة بأسئلة تحمل اختيارات محددة للإجابات عليها، في حين

أن الأسئلة المفتوحة تفسح المجال أمامهم لتقديم إجاباتهم عليها (بما يشبه مناهج البحث الكيفي). وتكون الأسئلة المفتوحة في البحث الاستطلاعي شبيهة بالأسئلة التي تتطلب ملء الفراغات أو كتابة إجابات قصيرة، بينما الأسئلة المغلقة أقرب إلى شكل الأسئلة متعددة الإجابات للاختيار من بينها (Groves et al. 2004). فعلى سبيل المثال في حال اهتمام الباحثين والباحثات بتقييم المشاعر تجاه تجنيد المثليين والمثليات في الجيش، فقد يطلبون من المستجيبين والمستجيبات الاختيار بين اثنين في وصف آرائهم في هذا الموضوع (مثلا: "لا يجب السماح لهم بالخدمة العسكرية" أو "يجب السماح لهم بالخدمة العسكرية"). ويمكن للباحثة أو الباحث أيضا طرح نفس السؤال في صيغة سؤال مفتوح (مثلا: "ما رأيك في وجود المثليين والمثليات في الجيش؟").

ومن الأمثلة التي توضح استخدام الأسئلة المفتوحة والمغلقة، معا ما نجده في بحث تم على العنف ضد النساء (Smith 1994). وقد توصلت الدراسة إلى أن تضمين كلا النوعين من الأسئلة عند السؤال عن مدى تعرض المرأة الدائم للعنف على مدار حياتها ساعد كثيرا في التواصل بين طرفي البحث، مما أدى في نهاية الأمر إلى فهم أوسع وأكثر تنوعا لتجارب الضحايا. وأوضح الباحث في دراسته ضرورة استخدام الأسئلة المغلقة والمفتوحة معا عند تقييم التجارب الحساسة كالعنف من خلال الاستطلاع. وعلى الرغم من أن الأسئلة المغلقة قد تفرض قيودا على ثراء التجربة وتنوعها لأنها لا تسمح للمستجيبة أو المستجيب بالإجابة باستخدام مفرداتهم الشخصية، فقد تكون مفيدة أيضا لأنها عادة ما تكون أسرع وأسهل في الإجابة، بما يشجع الأفراد على الاستجابة والإجابة (Fowler 1984).

عقد اختبارات قبلية (pretesting)

بعد وضع تصميم مبدئي لأداة الاستطلاع، يكون من المفيد اختباره، أي اختباره على مجموعة صغيرة من الأفراد (يشبهون المجموعة التي سيتم تضمينها في العينة النهائية)،

وذلك للتأكد مما إذا كان يتطلب مزيداً من المراجعة. ويطلب الباحث أو الباحثة في مرحلة الاختبار القبلي من المستجيبين عدم الاقتصار على الإجابة على الأسئلة بل أيضاً التعبير عن آرائهم بشأن صيغ الأسئلة ذاتها (مثلاً: مدى وضوح الأسئلة). وهي عملية يمكنها أن تحمل ملاحظات على كيفية تفسير وتأويل معاني الأسئلة (Schwarz et al. 1998)، وبالتالي قد تعمل على تحسين جودة المقاييس.

جمع المادة

يشير مفهوم جمع المادة (data collection) إلى عملية الحصول الفعلي على المعلومات (أي المواقف والتجارب والأفكار والمشاعر، وغيرها) والتي تساعد في الإجابة على أسئلة البحث. ومن المهم فهم كيف يمكن للعوامل المختلفة المتعلقة بجمع المادة (مثل القائمة أو القوائم بالمقابلة، مكان المقابلة وزمانها، الاختيارات المتاحة في الإجابات، والظروف العامة غير المتصلة مباشرة بالمقابلة) أن تؤثر بشكل غير مقصود في المادة وبالتالي يمكنها في نهاية الأمر أن تؤثر في نتائج الدراسة. وقد كانت بواكير البحث الاستطلاعي تميل إلى تجاهل أثر بعض تلك العناصر، بما ينتج عنه مادة كثيراً ما كانت تتسم بعدم الحيدة والانحياز لرؤية الباحثة أو الباحث أو الخطاب الاجتماعي السائد. إن هذا الجانب من جوانب البحث الاستطلاعي التقليدي كان موضوعاً محورياً أساسياً تعرض لكثير من النقد النسوي لأنه كان يعني أحياناً تعرض المنظور النسوي للتشويه. فقد قامت دراسة ريسمان (Riessman 1987) على سبيل المثال بتوثيق كيفية تأثير كل من الانتماء العرقي والطبقة الاجتماعية على مسار المقابلة، وبالتالي كيفية تأويل المادة البحثية. فقد قامت في تلك الدراسة امرأة أنجلوأمريكية من الطبقة الوسطى بعقد مقابلة مع امرأتين إحداهما أنجلوأمريكية من الطبقة الوسطى والأخرى امرأة بورتوريكية من الطبقة العاملة، وكان موضوع المقابلة الانفصال الزوجي والطلاق. وقد جاءت روايتا المرأتين مختلفتين تماماً فيما بينهما عند وصف تجاربهما، بما يمثل خلفياتهما المتباينة. وقد توصلت الباحثة عند تقييمها لنصي المقابلتين إلى أن تعليقات

القائمة بالمقابلة (بما تعكسه خلفيتها المنتمية إلى الطبقة الوسطى) أثرت في مسار المقابلة. وقد أوضحت الباحثة في دراستها كيف أن الانتماء إلى طبقة اجتماعية مختلفة (رغم الاشتراك في النوع) قد يغير في المعنى الذي تحمله روايات المستجيبات، بما يمكنه من أن يزيد من معدلات الخطأ في المادة. إن أساليب البحث الاستطلاعي الحالية تؤكد على قيمة تقليل تأثير الخطأ خلال جمع المادة (انظر/ي: Groves et al. 2004). وهكذا فإن الباحثات النسويات والباحثين عموماً يدعمون الوعي بكيفية تأثير سمات المستجيبين وسمات القائمين بالمقابلات على قيمة وجودة المادة البحثية.

التعامل بأخلاقيات المهنة مع المشاركات والمشاركين

للمبادئ الأخلاقية علاقة بكثير من جوانب المسار البحثي (مثل الصدق في نقل المادة، والإشارة إلى دور المشاركات والمشاركين في البحث). إلا أن غالبية المناقشات الخاصة بأخلاقيات البحث (research ethics) تميل إلى التركيز على كيفية المعاملة التي يلقاها المشاركون والمشاركات في البحث من قبل الباحثة أو الباحث، وهو تركيز على الأرجح ناتج عن الانتهاكات التي كان يتعرض لها المشاركون والمشاركات حتى وقت غير بعيد. ولعل من أغرب الأمثلة وأكثرها شهرة هي دراسة الطاعة (obedience study) (Milgram 1974) (ies)، ودراسة مرض الزهري (Tuskegee syphilis study) (Jones 1981)، إذ اعتمدت الدراسة الأولى على جعل المشاركين يعتقدون أنهم يقومون بصدمات تجاه الآخرين بغرض "تعليمي"، وهي عملية أزعجت الكثيرين من المشاركين إزعاجاً بالغاً، بينما اعتمدت التجربة الثانية على دراسة حكومية لتطور مرض الزهري بين الأفروأمريكيين الذكور دون إخبارهم عن المرض ولا علاجهم منه على الرغم من وجود عقار البنسلين كعلاج ناجع للمرض. ومع أن هذين المثالين ليسا نموذجين للبحث الاستطلاعي في حد ذاته، فإن الوعي بمثل هذا الاستغلال أدى إلى قيام جهود واسعة لمنع سوء معاملة المشاركين والمشاركات في كافة الأبحاث التي تتناول البشر.

وقد جاءت أصوات الباحثات النسويات من ضمن الأصوات التي تضمنتها تلك الحركة من أجل تنفيذ معايير صارمة للمعاملة الأخلاقية تجاه المشاركين والمشاركات في الأبحاث. وفي الواقع فإن الكثير من الانتقادات النسوية الأولى استهدفت هذا الجانب بعينه من المسار البحثي؛ نظرا إلى أن استغلال المشاركين والمشاركات في الأبحاث يتعارض مع القيم الإنسانية الأساسية التي تستند إليها النسويات. وهي انتقادات عادة ما دعت إلى الحد من أو القضاء على التفاوت في السلطة بين الباحثة والمبحوثة (Du Bois 1983; Fee 1983). فعلى سبيل المثال نجد باحثات نسويات (Reinharz 1979) يرين أن العلاقة المتكافئة بين الطرفين ستؤدي -على الأرجح- إلى توفير معلومات تعكس واقع حياة الطرف المشارك لا واقع حياة الطرف القائم بالبحث. كما دعت نسويات أخريات إلى ضرورة إعادة تعريف العملية البحثية بوصفها "بحثا يتم مع" أو "بحثا يتم من أجل" بدلا من "بحث يتم عن" شخص ما (Stanley & Wise 1983). وهكذا سعت النسوية إلى إعلاء قيمة المشاركين والمشاركات في البحث بدلا من اعتبارهم "موضوعات" للبحث. ومن نتائج هذه الجهود لضمان المعاملة الأخلاقية للذوات البشرية جاء تأسيس مجالس المراجعة المؤسسية (Institutional Review Boards) والموجودة حاليا في معظم المنظمات البحثية، وهي الجهة التي تقوم بوضع المعايير الإلزامية للقيام بالبحث، وهي معايير عادة ما تحدد الآتي: (1) احترام الأشخاص (بأن يتم الحصول على الموافقة بناء على معرفة الأشخاص بتفاصيل البحث، وحمايتهم من مخاطر الأذى). (2) الفائدة العامة (رفع الفائدة إلى أقصى حد وخفض المخاطر إلى أدنى حد). (3) العدل (العدالة في توزيع فوائد البحث، والمساواة في المعاملة). وبينما لا تضمن تلك المعايير لكل الأبحاث التي تتضمن عناصر بشرية أن تكون ملتزمة بالمبادئ الأخلاقية، فإنها تقطع شوطا في دعم تلك الأهداف وتعزيزها.

إعداد المادة وتحليلها وتقييم الفرضيات

إعداد المادة للتحليل

بمجرد جمع المادة يتطلب الأمر عادة القيام ببعض الإجراءات قبل إمكانية تحليلها، وهي إجراءات تتضمن إدخال البيانات (data entry) أي إدخال المادة الرقمية الخام في ملفات الكمبيوتر، وعمل دليل الأكواد (codebook) أي إعداد دليل إرشادي يوثق كافة الأسئلة والإجابات الاختيارية). وهي إجراءات روتينية تساهم في الحد من معدلات الخطأ في المادة البحثية مع رفع كفاءة تحليل المادة. ومن المصاعب التي تتسم بها مرحلة إعداد المادة هي توكيد (coding) الأسئلة المفتوحة وترميزها. ونظرا إلى أن الأسئلة المفتوحة كثيرا ما تكون هي الأسئلة المفضلة بالنسبة للباحثات الاستطلاعية النسويات، فسنتناول توكيد هذا النوع من الأسئلة بإيجاز أدناه.

إن الهدف من وراء توكيد الأسئلة المفتوحة هو تأويل الإجابات وتصنيفها بحيث يمكن إضفاء قيمة رقمية عليها استعدادا للتحليل الإحصائي للمادة. والأسئلة المفتوحة ذات الاختيارات المحدودة أو التي تتطلب إجابات قصيرة وبمبسطة والتي يسهل تأويلها (مثل الحالة الوظيفية) يمكن توكيدها بطريقة مباشرة من خلال تحديد كود رقمي لكل فئة. أما الإجابات المفتوحة الأكثر تعقيدا، كالآراء السياسية التي يتم التعبير عنها بلسان المشاركين والمشاركات، فمن الضروري الحرص والحذر في عملية التوكيد. فمن ناحية، ونظرا إلى مدى إمكانية خضوع التأويل للجانب الذاتي، فإن تطبيق المنظور النسوي (أو أي منظور آخر) عند التوكيد قد يشوه المعنى المقصود في الإجابة. ومن ناحية أخرى فقد ينظر إلى مثل هذا التأويل باعتباره يستخدم عدسة نسوية للنظر من خلالها إلى المادة ثم التعبير عن وجهة نظر نسوية (والتي قد تخضع للإسكات في وضع آخر). إن الجانب الجدلي الذي يتسم به البحث الاستطلاعي النسوي يمثل قضية مهمة في البحث النسوي، إذ تحاول الباحثة الحفاظ على الموضوعية التقليدية بينما تمنح في

نفس الوقت صوتا للنساء أو لأية فئة مضطهدة أخرى . ويتم استخدام أساليب متنوعة من قبل باحثات الاستطلاع النسويات لتحقيق توازن بين تلك الأهداف . ومع ذلك لا يمكن لأي أسلوب بعينه أن يضمن حدوث تأويل دقيق للمعنى المقصود ، وبالتالي تحتاج باحثات الاستطلاع النسويات (مثلهن ككل الباحثات والباحثين) إلى توخي الحذر والدقة عند تكويد الأسئلة المفتوحة .

تحليل المادة

إن التحليل الإحصائي هو أسلوب يستخدم في تلخيص وتفسير المعلومات التي يقدمها المشاركون والمشاركات في الاستطلاع (مثلا: نسبة مئوية أو متوسط قيمة شيء ما) ، وهو جزء ضروري من أجزاء البحث الاستطلاعي لأن المعلومات التي يتم جمعها لا يسهل فهمها أو عرضها في شكلها الخام ، ولأنها تمثل الآراء أو القنوات المتعددة والمتنوعة لدى كثير من الأفراد . فبدون التحليل الإحصائي قد يصبح تحديد معنى هذه المعلومات صعبا وخاضعا لنطاق واسع من التأويلات . كذلك فلأن الإحصائيات تسمح لنا لتحديد احتمالية أو إمكانية التوصل إلى نتائج مترتبة على المعلومات التي جمعناها ، فهي تقدم لنا سبيلا للحكم على الفرضيات المتنوعة (Jayaratne 1983) . فعلى سبيل المثال إذا قامت بعض النسويات بطرح استراتيجيتين مختلفتين ولكن على نفس القدر من الرجاحة لإقناع الناخبين والناخبات بدعم تشريع ما يقر بحق النساء في الاختيار ، فإن التحليل الإحصائي للبيانات حول مواقف الناخبين قادر على توضيح الأسلوب الأكثر فاعلية في تحقيق هذا الهدف .

وتتقد بعض النسويات استخدام الإحصائيات ، ويرين أن تحويل التجارب الشخصية إلى قيم كمية لا يكشف بالقدر الكافي عن مدى الثراء القائم في حيوات النساء (مثلا: Marecek et al 1997; Wallston & Grady 1992) ، وبالتالي يبدو على طرف النقيض من التراث النسوي . وبينما نتفق على أن استخدام الإحصائيات ، كمخلصات للمعلومات ، يتضمن فقداناً لقدر من المعنى العميق ، فإننا نرى أيضا أن مثل

هذا الاستخدام لا ينتهك أي مبادئ نسوية. كذلك، وكما سبق لنا ذكره، يمكن استخدام الإحصائيات لتدعيم الأهداف النسوية تدعيماً فعالاً. ونجد أن بعض الباحثات النسويات المتخصصات يؤكدن - بما يتفق مع رأينا - أن الاعتراض ليس موجهاً إلى الإحصائيات في حد ذاتها، وإنما إلى كيفية استخدامها داخل السياق الأوسع للأبحاث بما يحدد ما إذا كانت تنتهك المثل النسوية العليا (مثلاً: Jayaratne & Stewart 1991; May - nard 1994; Peplau & Conrad 1989). وقد تم استخدام الإحصائيات بالطبع في تدعيم نظريات التمييز الجنسي أو العنصري (مثلاً: Buss 1989; Herrnstein & Murray 1994)، ولكنها وثقت أيضاً فوائد التمييز الإيجابي (affirmative action) وأثبتت فعاليتها في صياغة سياسات اجتماعية تقدمية (مثلاً: Gurin, Dey & Hur - tado 2002). ومن هنا فإننا نعتقد أن الإحصائيات مفيدة في البحث النسوي.

ومن القضايا المهمة معرفة الأساليب الإحصائية الملائمة لإجابة سؤال بحثي معين؛ وذلك نظراً إلى أن استخدام إحصائيات غير ملائمة قد لا يؤدي إلا إلى تشويه نتائج الدراسة، بل وقد تؤدي في أسوأ الأحوال إلى نتائج على النقيض من تلك التي تعكس المادة البحثية بصورة دقيقة. ولذا فنحن نؤكد على أهمية فهم الإحصائيات حين القيام ببحث استطلاعي (أو تقييمي). وعلى الرغم من عدم قدرتنا على تفسير تلك الأساليب هنا (فهناك مصادر مطولة سبق أن تناولت الاستخدام الملائم للإحصائيات، فإننا نود توضيح هذه النقطة من خلال مثال واحد. فلنفترض أن باحثة استطلاع نسوية أرادت توثيق ونشر مدى انتشار الفقر بين النساء في بلد ما، حيث يقل الأجر السنوي لغالبية النساء فيه عن مبلغ 1,000 دولار أمريكي سنوياً، بينما توجد نسبة مئوية صغيرة من النساء يزيد أجرهن عن 50,000 دولار أمريكي سنوياً. فإذا استخدمت الباحثة أو الباحث أسلوباً إحصائياً لتحديد "الوسط الحسابي" (mean value) أي القيمة المتوسطة بالنسبة للنساء كافة لوصف دخول النساء هناك، فسيبدو الأمر وكأن دخل المرأة في المتوسط يبلغ 10,000 دولار أمريكي سنوياً. ولعل هذا الإحصاء سليم، ولكنه مضلل. ويوجد أسلوب إحصائي البديل وهو "الوسيط" (median) والذي يقوم على

تقسيم توزيع دخول النساء إلى نصفين ، بحيث يحتل نصف هؤلاء النساء موقعا أعلى هذا المستوى ، بينما يحتل النصف الآخر موقعه أدناه ، فقد يؤدي إلى نتيجة مؤداها أن متوسط أجر النساء حوالي 1،500 دولار أمريكي سنويا . كذلك يمكن استخدام "النوال" (mode) ، والذي يمثل معدل الدخل الأكثر شيوعا ، وسيشير إلى أن الدخل السنوي لغالبية النساء أقل من 1،000 دولار أمريكي . ويمكن لأسلوب الإحصاء الوسيط والنوال تقديم صورة أوضح كثيرا لدخول النساء مقارنة بالوسط الحسابي . ولكن الطريقة الأفضل لنقل المعلومات تتمثل ببساطة في تقديم أسلوب "التوزيع النسبي المئوي" (percent distribution) لفئات متنوعة من الدخل . إنه مثال يوضح قيمة التمتع -على الأقل- بمعرفة بسيطة لعلم الإحصاء ، وخاصة في ضوء كثرة استخدام الإحصاء في البحث المتصل بالقضايا النسوية .

تقييم الفرضيات

عند اكتمال التحليل الإحصائي ، يستخدم الباحثون والباحثات النتائج لتقييم الفرضيات وتحديد ما إذا كان النتائج تدعمها . ومع ما يبدو عليه ذلك الأمر من بساطة فإنه قلما يكون عملية مباشرة ، فعلى سبيل المثال ليس من المستغرب على التحليل الإحصائي الانتهاء إلى نتائج ملتبسة ، ففي بعض الأحيان تبدو حزمة من النتائج وكأنها تتناقض مع غيرها من النتائج . كما قد يحدث وأن تبدو نتائج البحث متعارضة مع المثل والمصالح النسوية . وفي تلك الحالة قد يكون من الجدير إعادة تقييم البحث لاستكشاف ما إذا كانت تلك النتائج ترجع إلى خروج عن بروتوكول أو خطة عمل البحث (مثل إساءة تأويل صيغة أحد الأسئلة) . كما قد يكون من المفيد التساؤل عن السبب الذي يجعل نتيجة ما تبدو متعارضة مع المبادئ النسوية . وقد يؤدي ذلك إلى أشكال أخرى بديلة لفهم ظواهر المصالح التي لم يسبق التوقف عندها . وعلى الرغم من الإحباط الذي قد يصاحب عدم وجود تقييم قاطع للفرضية ، فإن الكثيرين يجدون في دراسة الظواهر المعقدة دون وجود إجابات محددة جزءا قيما وغنيا ضمن مسار البحث ، كما أنه كثيرا

ما يولد أسئلة بحث إضافية تتطلب مزيدا من الدراسة.

وتتضمن الأسئلة التي يجب طرحها في بداية المرحلة الثانية من مسار البحث الاستطلاعي ما يلي:

- ما منهج البحث الاستطلاعي الأكثر ملاءمة للإجابة على سؤال البحث؟
- كيف يجب عليّ أن أختار من سيشاركون في الدراسة التي أقوم بها؟
- ما الأسئلة التي يجب أن أطرحها في الاستطلاع ، وكيف يجب أن أصوغها؟
- كيف لي أن أضمن أن المشاركات والمشاركين في الدراسة يلقون معاملة أخلاقية؟
- ما الأسلوب الإحصائي الأفضل لاختبار فرضية البحث الذي أقوم به؟

المرحلة الثالثة من البحث الاستطلاعي: تأويل النتائج العامة وعرضها

في المرحلة الأخيرة من البحث الاستطلاعي (أي الطرف الآخر من الكتاب) يتم تأويل النتائج وعرضها. ونحن نعتبر المنظور النسوي قابلا جدا للتطبيق وضروريا في هذه المرحلة، لأنها تمثل النقطة التي يتم فيها تطبيق البحث على العالم الواقعي ويمكن استخدامه لتحسين حيوات النساء .

تأويل النتائج من منظور نسوي

إن الكيفية التي يؤول بها الباحث أو الباحثة النتائج العامة تمثل ذروة الجهد البحثي ، بمعنى أنها تجيب على سؤال البحث الذي تم طرحه ضمن الخطوات الأولى لمسار البحث. ولكن بالنسبة لنسويات فإن الإجابة على سؤال البحث عادة ما تحمل أيضا معنى نسويا . فبخلاف تقييم الفرضيات باستخدام معلومات إحصائية (وهي عملية تتبع ممارسات البحث الاستطلاعي المألوفة) يجب أن يخضع تأويل النتائج العامة للبحث من

منظور نسوي . وتوضيح المغزى المهم لتلك المسألة ، فلنفترض أن الباحثة أو الباحث قاما بدراسة تستكشف الاختلافات بين النساء الأمريكيات والرجال الأمريكيين من حيث القدرة الحسابية والرياضية ، فأشارت النتائج العامة للدراسة إلى أن الرجال يؤدون أداء أفضل من النساء . وسنجد تأويلات كثيرة جدا لمعنى ذلك الأمر . فقد يرى المرء تلك النتيجة كمؤشر يدعم "الفرضية المنقوصة" (deficit hypothesis) ، أي إن النساء بطبيعتهن أدنى مرتبة من الرجال - وهي فكرة كثيرا ما تتردد في الأبحاث النفسية والاجتماعية المبكرة (وأحيانا الحالية) ، وتتعرض لكثير من النقد على أيدي الباحثات النسويات (Eichler 1988; Jayaratne & Kaczala 1983) . ومن جانب آخر ، يمكن للمرء تأويل هذا الاختلاف باعتباره يعبر عن آثار الصور النمطية على أساس النوع في تأثيرها على أداء النساء في الرياضيات (بما يزيد من معدل قلق الأداء وتوتره) ، ويعبر أيضا عن النظام التعليمي الذي يضع قيودا على فرص النساء التعليمية في مجال الرياضيات ، أو كيف يقوم الآباء والأمهات بتشجيع التفوق في الرياضيات لدى أبنائهم أكثر من بناتهم . وتشير كل التأويلات السابقة إلى الحاجة إلى إحداث تغيير اجتماعي (تحسين الأوضاع التي تدعم وتعزز أداء النساء في الرياضيات) بدلا من قبول تراجع مستوى النساء في هذا المجال . كما تشير أيضا إلى وجود بعض الإمكانيات لإحداث هذا التغيير والذي من المرجح أكثر أن يتم بأيدي النسويات لا ممن يفتقدون إلى الوعي بما تتعرض له النساء من قهر ، أو ممن لا يدعمون الأهداف النسوية . كما تجدر الإشارة إلى أن الأبحاث الجيدة عموما كثيرا ما تطرح أيضا أفكارا جديدة وأسئلة بحثية جديدة بدلا من مجرد الإجابة على الأسئلة المطروحة فيها . وباختصار فإن المعاني النسوية التي نضيفها على نتائج أبحاثنا هي التي تجعل الجهد البحث مشروعاً نسوياً مميزاً بما يعمل على تحسين حيوات النساء .

نشر نتائج البحث

ويمكن للخطوة الأخيرة في مسار البحث بأكمله أن تصبح جزءا يحقق قدرا بالغا من الرضا في رحلة البحث ، لأنها خطوة تتعلق بالهدف الأساسي للبحث النسوي ، ألا وهو

تحقيق التغيير الاجتماعي لصالح النساء على أرض الواقع . إنها الخطوة الخاصة بنشر النتائج والتي تشير إلى عرض النتائج على الباحثات والباحثين المتخصصين ، وعلى الرأي العام ووسائل الإعلام وصانعي السياسات العامة ، وذلك عن طريق إعادة ربط النتائج بحيوات النساء ، مع توفر فهم لكيفية إقادة النساء بها . ومن هذا المنطلق يقوم البحث بدور العامل المحفز للتغيير الاجتماعي . فكما سبق أن أكدنا ، البحث الاستطلاعي النسوي يصلح تحديدا لتدعيم أوضاع النساء لأنه يستخدم عددا من مناهج البحث السائدة التي من المرجح أن تلقى قبولا لدى الأفراد الذين قد يتشككون في النتائج المشتقة من مناهج أخرى بديلة .

ومن الأمثلة الممتازة على كيفية قابلية البحث الاستطلاعي للتطبيق في التغيير الاجتماعي لصالح النساء على أرض الواقع ما نجده في أحكام القضاء العالي بشأن التمييز الإيجابي في جامعة ميشيجان . ففي عام 2003 قامت الجمعية الأمريكية لعلم النفس بتقديم مذكرة إلى القضاء العالي داعمة سياسة جامعة ميشيجان في قبول الطلاب والطالبات مع أخذ الأصل والنوع في الاعتبار عند القبول في مستوى التعليم العالي . وقد قامت الجمعية بتقديم مذكرة بشأن قضيتين مرفوعتين في المحكمة (Gratz v. Bollinger 2003; Grutter v. Bollinger 2003) . وقد استندت المذكرة استنادا كبيرا إلى البحث الاستطلاعي لباحثة علم النفس الاجتماعي باتريشا جورين حول فوائد التعددية والتنوع في الحياة الأكاديمية (والتي ترد موجزة في كتاب: Gurin et al. 2002) . وقد جاء قرار المحكمة بإقرار مبدأ وضع الأصل والنوع في الاعتبار في سياسات القبول بالجامعات ليقدم مجرد مثال واحد يوضح كيف يمكن لنتائج بحث ما أن تصبح جزءا مهما ضمن جهود تغيير السياسات العامة .

وتتضمن الأسئلة التي يتعين طرحها خلال المرحلة الثالثة من مسار البحث الاستطلاعي ما يلي:

- كيف أقوم بتأويل النتائج بطريقة يمكن استخدامها لتدعيم الأهداف النسوية؟
- كيف أقوم بنشر نتائج البحث لتصير تلك الأهداف حقيقة واقعة؟

الخاتمة

يتضمن البحث النسوي عديدا من المناهج ، التي يمكن لكل منها سواء فرديا أو مع غيرها إحداث أثر على جهود التغيير الاجتماعي من أجل تحسين حيوات النساء . وقد ركزنا في هذا الفصل على منهج البحث الاستطلاعي والدور المهم الذي يمكنه أن يلعبه في هذا الصدد . ونأمل أن يقدم هذا الفصل من الكتاب للباحثات النسويات الناشئات فهما للكيفية التي يمكن لهذا المنهج أن يقدم بها أداة قوية في جهودهن لصالح النساء وغيرهن من الفئات المهمشة اجتماعيا . كما نتمنى أن نكون قد أكدنا -بالقدر الكافي- على أهمية الالتفات إلى تلك الجوانب من مسار البحث الاستطلاعي القادرة على توفير معلومات يمكنها أن تقف راسخة في مواجهة ما يوجه إليها من نقد . إن مثل هذه الأبحاث قادرة على الدفع قدما بالأهداف النسوية . وبالطبع يوجد عدد لا نهائي من القضايا النسوية التي تحتاج إلى الدراسة الفاحصة ، وكثير منها يمكن تناوله بفاعلية باستخدام مناهج البحث الاستطلاعي أو غيرها من مناهج البحث المذكورة في هذا الكتاب . وإننا نتمتع جميعا بإمكانيات المساهمة في الجهود البحثية نحو إفادة النساء أو غيرهن من مجموعات الأفراد الذين يعانون من أضرار النظام الاجتماعي القائم حاليا . ومن منطلق الانتماء إلى المجتمع النسوي فإننا ندعوك إلى الانضمام إلينا في هذا المسعى .

الهوامش

1- على الرغم من أن هذا الفصل يقدم لك مقدمة عامة للبحث الاستطلاعي ، فإننا نقترح في حال اهتمامك باستخدام تلك المناهج أو التعرف على المزيد عنها بالرجوع إلى عدد من المصادر الممتازة بما تحمله من معلومات إضافية: (مثلا: Alreck & Settle 1995; Czaja & Blair 1996; Dillman 1978, 2000; Groves 1989; Groves et al. 2004; Tourangeau, Rips & Rasinski 2000).

- Alreck, P. L., & Settle, R. B. (1995). *The survey research handbook: Guidelines and strategies for conducting a survey*. Burr Ridge, IL: Irwin.
- Bianchi, S. M., Milkie, M. A., & Sayer, L. C. (2000). Is anyone doing the housework? Trends in the gender division of household labor. *Social Forces*, 79, 191–228.
- Biemer, P. P., & Lyberg, L. E. (2003). *Introduction to survey quality*. Hoboken, NJ: Wiley.
- Buss, D. M. (1989). Sex differences in human mate preferences: Evolutionary hypotheses tested in 37 cultures. *Behavioral and Brain Sciences*, 12, 1–49.
- Campbell, P. B. (1982). Racism and sexism in research. In H. Mitzel (Ed.), *Encyclopedia of educational research* (5th ed., pp. 1515–1520). New York: Free Press.
- Condor, S. (1986). Sex role beliefs and “traditional” women: Feminist and intergroup perspectives. In S. Wilkinson (Ed.), *Feminist social psychology: Developing theory and practice* (pp. 97–118). Philadelphia: Open University Press.
- Converse, J. (1987). *Survey research in the United States*. Berkeley: University of California Press.
- Croll, J. K., Neumark-Sztainer, D., & Story, M. (2002). Prevalence and risk and protective factors related to disordered eating behaviors among adolescents: Relationship to gender and ethnicity. *Journal of Adolescent Health*, 31, 166–175.
- Czaja, R., & Blair, J. (1996). *Designing surveys: A guide to decisions and procedures*. Thousand Oaks, CA: Pine Forge Press.
- Dillman, D. A. (1978). *Mail and telephone surveys: The total design method*. New York: Wiley-Interscience.
- Dillman, D. A. (2000). *Mail and Internet surveys: The tailored design method*. New York: Wiley.
- Du Bois, B. (1983). Passionate scholarship: Notes on values, knowing and method in feminist social science. In G. Bowles & R. Duelli Klein (Eds.), *Theories of women's studies* (pp. 105–116). Boston: Routledge & Kegan Paul.
- Eichler, M. (1988). *Nonsexist research methods: A practical guide*. New York: Routledge.
- Fee, E. (1983). Women's nature and scientific objectivity. In M. Lowe & R. Hubbard (Eds.), *Woman's nature: Rationalizations of inequality* (pp. 9–27). New York: Pergamon Press.

- Fowler, F. J. (1984). *Survey research methods*. Beverly Hills, CA: Sage.
- Gorelick, S. (1996). Contradictions of feminist methodology. In H. Gottfried (Ed.), *Feminism and social change: Bridging theory and practice* (pp. 23–45). Urbana: University of Illinois Press.
- Gratz v. Bollinger*, 539 U.S. 244 (2003).
- Groves, R. (1989). *Survey errors and survey costs*. New York: Wiley.
- Groves, R., Fowler, F. J., Couper, M. P., Lepkowski, J. M., Singer, E., & Tourangeau, R. (2004). *Survey methodology*. Hoboken, NJ: Wiley.
- Groves, R., & Kahn, R. (1979). *Surveys by telephone: A national comparison with personal interviews*. New York: Academic Press.
- Grutter v. Bollinger*, 539 U.S. 306 (2003).
- Gurin, P., Dey, E. L., & Hurtado, S. (2002). Diversity and higher education: Theory and impact on educational outcomes. *Harvard Educational Review*, 72, 330–366.
- Haraway, D. (1988). Situated knowledges: The science question in feminism and the privilege of partial perspective. *Feminist Studies*, 14, 575–599.
- Harding, S. (1987). Introduction. Is there a feminist method? In S. Harding (Ed.), *Feminism and methodology* (pp. 1–14). Bloomington: Indiana University Press.
- Harding, S. (1998). *Is science multicultural? Postcolonialisms, feminisms, and epistemologies*. Bloomington: Indiana University Press.
- Harding, S. (2004). Rethinking standpoint epistemology: What is “strong objectivity”? In S. N. Hesse-Biber and M. L. Yaiser (Eds.), *Feminist perspectives on social research* (pp. 39–64). New York: Oxford University Press.
- Herrnstein, R. J., & Murray, C. (1994). *The bell curve: Intelligence and class structure in American life*. New York: Simon & Schuster.
- Hesse-Biber, S. N., Leavy, P., and Yaiser, M. L. (2004). Feminist approaches to research as a process: Reconceptualizing epistemology, methodology, and method. In S. N. Hesse-Biber and M. L. Yaiser (Eds.), *Feminist perspectives on social research* (pp. 3–26). New York: Oxford University Press.
- Jayaratne, T. E. (1983). The value of quantitative methodology for feminist research. In G. Bowles & R. Duelli Klein (Eds.), *Theories of women's studies* (pp. 140–161). Boston: Routledge & Kegan Paul.
- Jayaratne, T. E., & Kaczala, C. M. (1983). Social responsibility in sex difference research. *Journal of Educational Equity and Leadership*, 3, 305–316.
- Jayaratne, T. E., & Stewart, A. J. (1991). Quantitative and qualitative methods in the social sciences: Current feminist issues and practical strategies. In M. M. Fonow & J. A. Cook (Eds.), *Beyond methodology: Feminist scholarship as lived research* (pp. 85–106). Bloomington: Indiana University Press.

- Jayaratne, T. E., Thomas, N. G., & Trautmann, M. T. (2003). An intervention program to keep girls in the science pipeline: Outcome differences by ethnic status. *Journal of Research in Science Teaching*, 40, 393–414.
- Jones, J. (1981). *Bad blood: The Tuskegee syphilis experiment*. New York: Free Press.
- Kelly, A. (1978). Feminism and research. *Women's Studies International Quarterly*, 1, 225–232.
- Koss, M. P., Gidycz, C. A., & Wisniewski, N. (1987). The scope of rape: Incidence and prevalence of sexual aggression and victimization in a national sample of higher education students. *Journal of Consulting and Clinical Psychology*, 55, 162–170.
- Landrine, H., Klonoff, E. A., & Brown-Collins, A. (1992). Cultural diversity and methodology in feminist psychology. *Psychology of Women Quarterly*, 16, 145–163.
- Marecek, J., Fine, M., & Kidder, L. (1997). Working between worlds: Qualitative methods and social psychology. *Journal of Social Issues*, 53, 631–644.
- Maynard, M. (1994). Methods, practice and epistemology: The debate about feminism and research. In M. Maynard & J. Purvis (Eds.), *Researching women's lives from a feminist perspective* (pp. 10–26). Bristol, PA: Taylor & Francis.
- Milgram, S. (1974). *Obedience to authority*. New York: Harper & Row.
- National Committee on Pay Equity. (2005). Retrieved December 7, 2005, from www.pay-equity.org/
- Peplau, L. A., & Conrad, E. (1989). Beyond nonsexist research: The perils of feminist methods in psychology. *Psychology on Women Quarterly*, 13, 379–400.
- Pew Research Center. (2004). *Polls face growing resistance, but still representative survey experiment shows*. Retrieved April 14, 2005, from <http://people-press.org/reports>
- Quina, K., Rose, J. S., Harlow, L. L., Morokoff, P. J., Deiter, P. J., Whitmire, L. E., et al. (1999). Focusing on participants: Feminist process model for survey modification. *Psychology of Women Quarterly*, 23, 459–493.
- Reinharz, S. (1979). *On becoming a social scientist*. San Francisco: Jossey-Bass.
- Reinharz, S. (1992). *Feminist methods in social research*. New York: Oxford University Press.
- Riessman, C. K. (1987). When gender is not enough: Women interviewing women. *Gender & Society*, 1, 172–207.
- Rogers, T. F. (1971). Interviews by telephone and in person: Quality of responses and field performance. In E. Singer & S. Presser (Eds.), *Survey research methods: Scheduling telephone interviews*. Chicago: University of Chicago Press.

- Schwarz, N., Groves, R. M., & Schuman, H. (1998). Survey methods. In D. T. Gilbert, S. T. Fiske, & G. Lindzey (Eds.), *The handbook of social psychology* (Vol. 1, pp. 143–179). New York: McGraw-Hill.
- Sherif, C. W. (1979). Bias in psychology. In J. Sherman & E. T. Back (Eds.), *The prism of sex: Essays in the sociology of knowledge* (pp. 93–133). Madison: University of Wisconsin Press.
- Smith, C. A., & Frieze, I. H. (2003). Examining rape empathy from the perspective of the victim and the assailant. *Journal of Applied Social Psychology*, 33, 476–498.
- Smith, D. E. (1987). *The everyday world as problematic: A sociology for women*. Boston: Northeastern University Press.
- Smith, M. D. (1994). Enhancing the quality of survey data on violence against women: A feminist approach. *Gender & Society*, 8, 109–127.
- Spalter-Roth, R., & Hartmann, H. (1996). Small happinesses: The feminist struggle to integrate social research and social activism. In H. Gottfried (Ed.), *Feminism and social change: Bridging theory and practice* (pp. 206–224). Urbana: University of Illinois Press.
- Stangor, C. (2004). *Research methods for the behavioral sciences*. Boston: Houghton Mifflin.
- Stanley, L., & Wise, S. (1983). *Breaking out: Feminist consciousness and feminist research*. London: Routledge & Kegan Paul.
- Stewart, A. J., & Dottolo, A. L. (2005). Socialization to the academy: Coping with competing social identities. In G. Downey, J. Eccles, & C. Chatman (Eds.), *Navigating the future: Social identity, coping and life tasks* (pp. 167–187). New York: Russell Sage.
- Tourangeau, R., Rips, L., & Rasinski, K. (2000). *The psychology of survey response*. Cambridge, UK: Cambridge University Press.
- U.S. Census Bureau. (1989). *A century of population growth, from the first census of the United States to the twelfth, 1790–1900*. Baltimore: Genealogical Publishing.
- U.S. Census Bureau. (2005). *Census 2000 demographic profile highlights*. Retrieved December 8, 2005, from http://factfinder.census.gov/servlet/SAFFacts?_sse=on
- Wallston, B. S., & Grady, K. E. (1992). Integrating the feminist critique and the crisis in social psychology: Another look at research methods. In J. S. Bohan (Ed.), *Seldom seen, rarely heard: Women's place in psychology* (pp. 307–336). Boulder, CO: Westview Press.
- Wood, K. C., Becker, J. A., & Thompson, J. K. (1996). Body image dissatisfaction in preadolescent children. *Journal of Applied Developmental Psychology*, 17, 85–100.

الباب الثالث

البحث النسوي

في

الممارسة والتطبيق

الفصل الحادي عشر

التجميع والتركيب

ممارسة البحث النسوي وتطبيقه .

شارلين ناجي هيسي-بايبر

إن القاعدة الأساسية التي يقوم عليها هذا الكتاب بأكمله تتمثل في تقديم تجربة عملية مباشرة في القيام بالبحث من منظور نسوي . وقد تناولنا أنا وشريكاتي وشركائتي في تأليف هذا الكتاب نطاقا من المناهج التي تستخدمها النسويات في مشاريعهن البحثية ، من البحث الاستطلاعي ، والإثنوجرافيا ، والمقابلات الشخصية المتعمقة ، والمجموعات النقاشية ، والتاريخ الشفاهي ، وحتى البحث القائم على مزج المناهج . وأتركك مع مثال على تجميع أفكار البحث ووضعها قيد الممارسة ، كما أقدم لك مثالا يوضح نشأة وتحليل مشروع البحث النسوي . وبينما لا يمكنني أن أتناول في هذا الفصل الأخير كافة المناهج التي تعلمناها ، فإنني سأختار منها واحدا وأتبعه بداية من أسئلة البحث الخاصة بك وانتهاء بكيفية بدء تفكيرك في تحليل مادتك البحثية . كما سأتناول بعض القضايا العامة التي قد تواجهك عند تأويل نتائج بحثك وكتابتها . وأخيرا فسوف أقدم لك قائمة عامة بالأشياء التي يجب عليك التفكير فيها بمجرد اكتمال بحثك .

(*) يتم نشر أجزاء من هذا الفصل بموافقة من :

Hesse-Biber and Leavy 2006, The Practice of Qualitative Interviewing, Sage Publications, Inc.

وضع الأمر قيد الممارسة: القيام بمشروع بحثي

إعداد الساحة لمشروع البحث

إن المقاطع التالية هي أصوات طالبات جامعيات تم عقد مقابلات معهن حول تصورهن عن أجسادهن خلال السنة الأولى من دراستهن بالجامعة، وتحديدًا بشأن مشاعرهن عن "15 رطلا السنة الأولى" (Freshman 15) التي تشير إلى ما يتكرر ذكره لدى النساء عن زيادة أوزانهن 15 رطلا خلال السنة الأولى من دراستهن الجامعية. وقبل التوقف أمام مسار البحث فلننصت إلى بعض تعليقاتهن:

بام: أذكر عندما كنت في السنة الأولى أنني بدأت الدراسة وزاد وزني بذلك المعدل، وعندما عدت إلى البيت لقضاء إجازة عيد الميلاد أذكر أن والدي أشار إلى أنني قد ازددت سمنة وخاصة في مؤخرتي. وأعتقد أنه كان من الأسباب الرئيسية التي جعلتني عند عودتي أبدأ بشدة في إنقاص وزني.

إميلي: لقد ازداد وزني بسرعة، فحين عدت إلى البيت لقضاء إجازة عيد الميلاد كان وزني قد زاد 15 رطلا!

وهل لاحظ أحد تلك الزيادة؟

إميلي: نعم، أسرّتي بأكملها.

وماذا حدث بعد ذلك؟

إميلي: بعدها عدت من إجازة الفصل الدراسي، ولاحظت أن صديقتي اللاتي التحقن بالدراسة لم تزد أوزانهن. وقد لاحظ ذلك والداي وأخوأي. وهكذا عندما عدت توقفت عن تناول أي طعام بين الوجبات ونادرا ما كنت أتناول طعام

الإفطار . أخذت أركض مسافة ميلين كل يوم فقد أردت إنقاص وزني .
ولتجنب تناول الطعام ليلا كنت أذهب إلى المكتبة للمذاكرة هناك . هذا ما فعلته .
المذاكرة في المكتبة ، تعني أنني لا أجلس في حجرتي . وعندما كنت أعود كنت أقول
إن عليّ الذهاب للنوم لأنني مريضة ، وهكذا كنت أقصد الذهاب إلى النوم مبكرا .

جودي : تعلمين ، الوقت الذي كنت أكل فيه أكثر من حاجتي كانت السنة الأولى من
دراستي بالجامعة . وهي أكبر كمية أكلتها في حياتي كلها . ولم أكن أستفرغها
قط . لم أكن أعرف كيفية القيام بذلك . وقد كنت أقوم بذلك بشكل يمكنك اعتباره
سريا نوعا ما . فزيميلتي في السكن ، تعملين ، كانت نحيفة وعلى ما يرام وكان
في إمكانها أن تأكل ما تشتهي . ولم تكن تأكل أكثر من حاجتها . فكانت تأكل
همبورجر وبطاطس في وجبة الغداء . ولكنها ما كانت لتخرج وتتناول آيس
كريم وغيره زيادة على الوجبة . لقد كان هذه طبيعة الأيض عندها . وتأتي السنة
الأولى ومعها النقاظ والدكان والكعك والحلوى . ولم تكن والدتي تشتري لي كل
ذلك ، وهو أمر عظيم . فلم يكن أي من هذه الأطعمة السريعة متاحا لنا . ومن
آن لآخر كانت والدتي تشتريه فلتهمه سريعا ، وقد كان الآيس كريم متاحا لنا
بكثرة ، فلم أكن ألتهمه بنهم . لم أكن أحتاج إليه . وعندما ذهبت إلى الجامعة كنت
أشتري الكعك والحلوى ، وفي غيابها كنت أكلها كلها . كنت أكل وحدي .

مشروع البحث

ما التجربة التي تعيشها طالبات السنة الأولى في الجامعة بشأن تصوراتهن عن صور
أجسادهن في الجامعة؟

إن هدفي من هذا المشروع ذو طبيعة استكشافية . فأنا مهتمة بفهم المسائل المتعلقة
بصورة الجسد التي قد تعيشها طالبات السنة الأولى من المرحلة الجامعية . وقد قرأت

بعض الأدبيات التي تناول هذا الموضوع ، ولكنني أود تعميق فهمي للتجارب الذاتية النسائية. ولدى بعض العناصر العامة التي أهتم بها تحديداً، مثل ما إذا كانت طالبات السنة الأولى في الجامعة يعايشن ما درج على تسميته "15 رطلاً السنة الأولى" والتي تشير إلى الزيادة بمقدار 15 رطلاً من الوزن التي يقال إن الكثيرات من الطالبات يتعرضن لها خلال السنة الأولى من المرحلة الجامعية.

قررت القيام باختيار عينة ملائمة (convenience sample) من طالبات السنة الأولى في الجامعة التي أعمل فيها أستاذة. وسأقوم بدعوة الطالبات للمشاركة في البحث من خلال وضع إعلانات في مختلف أنحاء الحرم الجامعي، بما في ذلك مركز النساء المحلي. وأود الحصول على عينة عمدية ملائمة (purposive convenience sample)، من طالبات السنة الأولى من خلفيات متنوعة، إذ أنني مهتمة بتمثيل عادل على أساس الأصل والخلفية العرقية والطبقة الاجتماعية بقدر المستطاع. وأنا حريصة على الحصول على 25 مقابلة شخصية للوصول إلى نتائج تتعلق ببعض الاختلافات القائمة بين النساء على أساس الأصل والعرق والوضع الطبقي كلما أمكن ذلك. وقد حصلت على موافقة للقيام بهذا البحث من مجلس المراجعة المؤسسية (IRB: institutional review board)، في جامعتي من خلال الالتزام باتباع بعض الخطوات البسيطة. فبعد كتابة مشروع بحث يتبع إرشادات هذا المجلس، وبعد وضع عدد من الأسئلة المفتوحة التي أنوي طرحها على المستجيبات، يكون عليّ تقديم تلك الأوراق إلى المجلس مصحوبة باستمارة الموافقة المفصلة (detailed consent form) التي تحمل موافقاتهن على المقابلات، إذ يجب أن تكون استمارة الموافقة موقعة من المستجيبات ومتفقا عليها قبل بدء المقابلات الشخصية.

وقد اخترت أن أبدأ كل مقابلة بعدد من الأسئلة العامة المفتوحة بهدف التوصل إلى فهم أعمق لحيوات طالبات السنة الأولى. وسأقوم فيها باتباع الإرشادات الخاصة بالمقابلات التي تم تناولها في الفصل الخاص بالمقابلات المتعمقة. وأنا مدركة إلى كوني

أحتل موقعا "من الخارج" وكذلك "من الداخل" في مجتمع جامعتي . فباعتباري أستاذة بيضاء من الطبقة الوسطى ، أقوم بعقد مقابلات مع طالبات في جامعتي بما يحمله ذلك من علاقات قوى ضمنية في علاقتي بهن . وفي مقابلاتي مع الطالبات الملونات سيتعين الأخذ في الاعتبار الاختلافات القائمة على أساس انتمائي العرقي وربما وضعي الطبقي . ومن المهم بالنسبة لي في هذه المرحلة أن أسجل ملاحظاتي في "مذكرة البحث" (research memo) بشأن تلك الاختلافات ومدى إمكانية تأثيرها على موقف البحث . فكيف تصطدم اختلافاتي الفريدة مع الطرف الذي أقوم بعقد مقابلة معه؟ وما التحيزات التي أحملها معي إلى موقف البحث؟

وأقوم بجمع مادة بحثي باستخدام جهاز تسجيل رقمي وبموافقة من المستجيبة . وأنا حريصة في نهاية كل مقابلة على سؤال كل مستجيبة ما إذا كان هناك ما تود الحديث عنه ولم نتطرق إليه في المقابلة . كما أنني واعية بالمادة القيمة التي قد تظهر بعد انتهائي من التسجيل ومواصلة الحديث مع المستجيبة ، فأحاول بمجرد انتهاء المقابلة أن أتذكر بأكبر قدر من الدقة ما ورد في الحديث بعد الانتهاء من التسجيل . كما أنني حريصة على اتباع ما تعلمته بشأن أهمية خلق تواصل مع المستجيبة والحرص على حسن الإنصات إلى كل ما تقوله لي ، مع الأخذ في الاعتبار لغة الصمت التي يتضمنها الحوار .

وأقوم بعد كل مقابلة بالغوص في المادة التي جمعتها من خلال إعادة الإنصات إلى التسجيل ، ومع بداية قيامي بتدوين المقابلة كتابيا (transcribe) أشرع في تحليل مادة بحثي وتأويلها ، أي إنني أدون الأفكار التي تخطر على ذهني (تدوين الملاحظات) ، وتحديد الأفكار التي أجدها ذات أهمية خاصة . وبعد القيام بعدد من المقابلات أبدأ في البحث تحديدا عن خطوط وأنماط السلوك المشتركة التي تعايش بها المستجيبات أجسادهن داخل إطار ثقافة المجتمع الجامعي (college culture) . وأحرص تحديدا على كتابة أفكار في صورة مذكرات ملحقه بمادة البحث (data memos) .

تحليل المادة.

إن المدخل الأساسي لتحليل المادة هو البحث عن المعاني الكامنة داخل مادة البحث . وتدوين الملاحظات (memoing) والتكويد (coding) سيبلان مهمان للتوصل إلى تلك الرسائل والمعنى . وأقدم في الجدول التالي مقطعاً من إحدى مقابلاتي مع طالبات السنة الأولى بخصوص أنماط التغذية وعادات تناول الطعام غير المنتظمة .

تكويد مقابلة شخصية: مقطع من مقابلة مع بام ، طالبة السنة الأولى بالجامعة

النص/المقطع/الجزء)	الكود
كنت أريد دائماً أن أكون الأنحف ، الأجل ،	← الأنحف ، الأجل
كنت أريد أن أبدو كالفتيات في المجلات ،	← أبدو كفتيات المجلات .
وسيكون لي عدد كبير من الأولاد الذين أواعدهم ،	← سيحبني الأولاد .
وسيحبونني ويعشقونني ،	← صورة إيجابية عن الجسد .
ولن أضطر إلى العمل ،	← يوفر إمكانيات اقتصادية
وسأجد من يعتني بي	← منطق النحافة .
حتى آخر العمر .	← النحافة كسبيل لتأمين المستقبل .
	← الإعلام يخلق المعايير .

* تم اقتباس أجزاء من هذه النقطة ، وتعديلها كلياً أو جزئياً ، من المصدر التالي :

Hesse-Biber, Sharlene Nagy, and Leavy, Patricia, "Analysis, Interpretation, and the Writing of Qualitative Data" in Sharlene Nagy Hesse-Biber and Patricia Leavy (eds.), *Approaches to Qualitative Research: A Reader on Theory and Practice*, New York: Oxford University Press, 2004, pp. 409-425.

وكما يتضح في هذا المقطع ، لقد قمت بوضع "أكواد" للسطور الأولى من إحدى المقابلات باستخدام الأكواد "الحرفية" التي تستخدم المفردات الواردة على لسان المستجيب . وهي تصنيفات توصيفية . فإذا تتبعنا القائمة سنرى أن الأكواد تصبح "تحليلية" أكثر ، وعبرة صورة إيجابية عن الجسد هي مثال ممتاز على ذلك التحول . فلا يرد هذا مباشرة على لسان المستجيب في أي مكان من المقابلة ولكن الباحثة هنا قادرة على توليد كود نظري "صورة الجسد" بناء على كلام المستجيب . وهو يبدو متناسبا مع قول المستجيب "سيكون لي عدد كبير من الأولاد الذي أواعدهم ، وسيحبونني ويعشقونني" . وكلما واصلنا تتبع القائمة كلما أصبحت الأكواد "تأويلية" بشكل متزايد .

يجب علينا أن نتذكر أن صياغة "الكود" تعني أخذ جزء من النص ومنحه "اسما" أو أحيانا رقما ما . وتوجد أنواع عديدة لوضع أكواد لنص ما . وقد بدأت بوضع بعض الأكواد "الحرفية" ثم سرعان ما انتقلت إلى صياغة أكواد "مركزة" . وتستخدم عالمة الاجتماع كاثي تشارماز (Kathy Charmaz 1995) مصطلح التكويد المركز (fo-cused coding) ، وترى أن يتأمل الباحثون والباحثات كل المادة التي قاموا بتكويدها في المقابلة . وفي المثال الذي بين أيدينا ، ستتوقف الباحثة أمام "صورة إيجابية عن الجسد" وتتأمل كل مقطع من النص مرتبط بهذا الكود في كل المقابلات . ثم تقوم الباحثة بمقارنة كل مقطع بغيره للوصول إلى فكرة محددة بدقة لما يعنيه مفهوم الصورة الإيجابية عن الجسد (Chamraz 1983 ، p. 117) .

هذا ويختلف التكويد المركز عن التكويد "الحرفي" في عدم قيامك بإضفاء "عنوان" (label) على أمر ما لوصفه ، وإنما يكون البحث عن توصيف للكود يسمح بخلق فهم أو تأويل لما تقوله المستجيبات عن صورة أجسادهن . والقيام بالتكويد المركز يعني ترتيب الأكواد الحرفية ووضعها في تصنيفات أكثر تجريدا ، وهي عملية تعديل في التصنيفات تنتقل بالتحليل من المستوى الحرفي إلى مستوى أكثر تجريدا . وهو منهج مهم في توليد الأفكار النظرية .

وقد يبدأ العمل في هذا المسار بعد تكويد عدد من المقابلات مع طالبات السنة الأولى واسترجاع بعض النصوص المتصلة بأكواد معينة. ولنرجع في ذلك إلى الجدول الوارد أعلاه. فلنفترض أنني قد استرجعت كل النصوص المتصلة بكود "نحيفة"، فحين أقرأ كل مقاطع النصوص المتصلة بهذا الكود أستطيع أن أرى أن المستجيبات يتحدثن في الواقع عن النحافة بطرق متباينة. فعلى سبيل المثال، وفي النص الوارد أعلاه، ذكرت في نهاية المقطع عبارة "النحافة كسبيل لتأمين المستقبل" و"الإعلام يخلق المعايير". عن "النحافة كسبيل لتأمين المستقبل" تحتوي ما تعبر عنه المستجيبة بقولها إنها تريد صديقا وحبا ومالا ورعاية، ولكنه تعريف يختلف عن "الإعلام يخلق معايير النحافة". فكل فكرة عن النحافة صوتها وتصورها، وسرعان ما وجدت أن هناك مقابلات أخرى تكشف عن نطاق من الأسباب وراء رغبة المستجيبات في النحافة. فقد رأت بعضهن أن "النحافة مصدر الصحة" بينما رأت أخريات أن "النحافة مصدر تمكين"، واستمرت الأسباب تتكشف من خلال المقابلات. وقد أدى ذلك في نهاية الأمر إلى قيام تصنيف كودي أشمل أسميته "منطق النحافة" الذي أصبح كود "النحافة كسبيل لتأمين المستقبل" مجرد فئة جزئية. أما التصنيف الثاني الأشمل وهو "الإعلام يخلق معايير السلوك" فقد تطور بصورة شبيهة لما سبق. وهكذا قمت في نهاية الأمر بسلسلة كاملة من الأكواد التي عدلتها، ثم تحولت إلى أكواد أكثر تجريدا. فعلى سبيل المثال، فيما يتعلق بالصورة الإيجابية عن الجسد لدى طالبات السنة الأولى، يمكننا أن نرى أن كود "الملابس المصنوعة للنحيفات" تطور ليصير تصنيفا كويذا هو "الملابس التي تناسب حجمنا"، ثم تحول ذلك الكود التصنيفي ليصبح جزءا من كود أشمل وهو "مراقبة الجسد"، والذي يمثل فكرة قيام النساء على الدوام بمراقبة ومتابعة أجسادهن. ويمكن له أن يتضمن متابعة ما إذا كانت ملابسهن تناسب أجسادهن، وملاحظة صورهن في المرايا، والوقوف على الميزان أكثر من مرة خلال اليوم الواحد، بل وحتى مقارنة أجسادهن بأجساد عارضات الأزياء في الإعلام. إن هذا المثال يوضح لنا كيف أن الأكواد المبدئية تصبح جزءا من التصنيف الفكري الأشمل الذي يتضمن أهمية المراقبة

كآلية "سيطرة وتحكم" تستخدم لتوجيه أجساد النساء صوب نموذج مثالي للنحافة ينطلق من الذات ومن المجتمع. يمكنك رؤية كيف تنتقل بالتحليل من المستوى الحرفي إلى فهم أكثر تجريداً وتنتظيراً لاهوم النساء بشأن صورة الجسد، كما أننا نبدأ في معرفة ما قد يمثل بعض العوامل التي تساعدنا على فهم حاجتهم إلى النحافة. وقد نبدأ حينها النظر إلى الاختلافات القائمة بين المشاركات في العينة من حيث ما إذا كانت النساء مختلفات فيما بينهن حول تلك المسائل من حيث الأصل والعرق وإن أمكن الطبقة.

تغير الأكواد المبدئية في دراسة صورة الجسد

من	إلى
ملابس مصنوعة للنحيفات	ملابس مناسبة حجماً
نظام تخصيص محدود	التحكم في الجسد والأكل
المجلات	الإعلام يخلق المعايير
الرغبة في أن أكون دوماً نحيفة	تؤمن بقيمة النحافة
1. النحافة كسبيل لتأمين المستقبل	الأربع نقاط مصنفة:
2. النحافة والصحة.	
3. النحافة جزء من الهوية	"منطق النحافة"
4. النحافة/الجمال مصدر تمكين	

المصدر: (Hesse-Biber and Leavy, 2004, p. 412. Reprinted with permission of Oxford University Press)

إن النظرية الموثقة (grounded theory) تقدم نافذة لفهم المعنى في المادة البحثية، وهي منهج ونظرية في آن. وهي باعتبارها منهجاً للتحليل تقدم طريقة لتطوير "تصنيفات فكرية تجريدية وتقديمية من أجل تجميع وتفسير وفهم" مادة البحث (Charmaz 1995)

(p. 28). فإذا راجعنا المثال التحليلي الذي عرضته أعلاه يمكننا تمييز الخطوط العريضة للمنهج التحليلي. فالتحليل تبعاً للنظرية الموثقة (grounded theory analysis) يبدأ بقراءة متعمقة للمقابلات، وتقتصر دراسة كاثي تشارماز (Charmaz 1995) أن نبدأ من "التكويد المفتوح" (open coding) والذي يتكون من قراءة حرفية للمادة "سطراً سطراً" وتكويد كل سطر من النص. ومن الأسئلة التي يمكننا التوقف أمامها أثناء تلك العملية ما يلي (Charmaz 1995، p. 38):

- "ما الذي يحدث؟"
- "ما الذي يفعله الناس؟"
- "ما الذي يفعله الشخص؟"
- "ما الأمور التي تعتبر مفروغا منها في هذه الأفعال والأقوال؟"
- كيف تعمل البنية والسياق على تدعيم أو الحفاظ أو إعاقة أو تغيير تلك الأفعال والأقوال؟"

توجد علاقة تفاعلية حيوية بين تدوين الملاحظات والتكويد. وأنا أشتق أفكارى مباشرة من مادة بحثي، لا من نظرية عامة ما أنطلق منها حول صورة الجسد لدى النساء. ويتيح تدوين الملاحظات للباحثة والباحث "التناول التفصيلي للمسارات والافتراضات والأفعال" التي عادة ما تكمن في الأكواد (Charmaz 1995، pp. 42-43). كما أن تدوين الملاحظات يسمو بالكود الحرفي إلى مستوى "الفئة التصنيفية" (category) ويحتل التفاعل بين تدوين الملاحظات والتكويد موقعا في القلب من التحليل الموثق (grounded analysis)، لأنني بهذه الطريقة أقوم حرفياً بتوثيق أفكارى وترسيخها انطلاقاً من مادة البحث. ويجب أن تتم عملية تدوين الملاحظات على مدار كل خطوات من خطوات التحليل، إذ يمكن للملاحظات المدونة الدقيقة أن تساعد في توجيه دقة البحث. فمثلاً نقوم بمراجعة نصوص المقابلات المكتوبة يجب على المرء أيضاً قراءة الملاحظات المدونة وترتيبها. فمن بالغ الأهمية قراءة تلك الملاحظات ومراجعتها؛

لأنها خطوات تساعدنا في تطوير وتفصيل الأفكار والنظريات. والملاحظات المدونة تساعد تحديدا فيما يتيح لي من رؤية للعلاقات القائمة بين فئات التكويد وبين تخميناتي وإحساسي بما قد يكون مخفيا داخل مادة بحثي. والملاحظات غاية في الأهمية لأنها خارطة طريق لمعرفة ما تعنيه أكواد البحث، بل وقد تولد الأفكار المدونة أفكارا جديدة وتكشف عن علاقات قائمة داخل مادة البحث. ومن هنا تأتي الأهمية البالغة لمراجعة وإعادة قراءة ملاحظات البحث ومذكرات العمل الميداني.

وحينما نناقش مقارنة النظرية الموثقة، فمن المهم أن نتذكر أن هنالك طرقا أخرى عديدة لتسريح مادة البحث وتطويرها. فقد يكون قرارك القيام بتحليل سردي (narra- tive analysis)، الذي يدفعك للقيام بتكويد النص سطرا سطرا، ولكن قد يهمك أيضا تتبع الأساليب التي تقوم بها المستجيبة أو المستجيب بصياغة المعنى في إطار الحكايات التي يحكونها لك خلال المقابلة. وقد ينصب اهتمامك على دراسة بنية الرواية والتفكير في أسئلة التقصي في تناول الحكاية التي يتم سردها. فهل ترتيبها يقوم بناء على حلقات أم يتبع ترتيبا زمانيا؟ وما معاني الحكايات المعينة التي تحتويها المقابلة؟ وكيف تقوم المستجيبة أو المستجيب بتمثيل واقعهما المعيش في إطار شكل قصصي؟ إنها جميعها أسئلة محورية، وهنالك مزيد لا نهائي مما يمكنه الكشف عن مساحات أعمق داخل المقابلة. إن الوحدة التحليلية في المقابلة ليست هي السطر الواحد، وإنما هي بداية الحكايات ونهايتها التي تحتويها المقابلة.

وفي المقطع التالي من "ما وراء الستار"، تدخلنا الباحثة النسوية دانا كرولي جاك (Dana Crowley Jack) ما وراء ستار مسارها البحثي، متطرفة إلى قضايا مثل التكويد، والنظرية الموثقة، وتحليل المادة بمساعدة الكمبيوتر.

ما وراء الستار مع دانا كرولي جاك

عن لحظات إعادة التركيز السريع وما يؤدي إليها

في مساء يوم بارد من أيام شهر نوفمبر ، جلست مع مساعدتين من الطالبات نفحص المقابلات الشخصية المطولة ، بالتركيز على روايات النساء لما يثير غضبهن وكيفية تعبيرهن عن الغضب . وكان الوقت آخذاً في التأخر ، بينما نحن مستهلكات ذهنياً وتكاد عقولنا تتوقف عن التفكير من مشقة تفاصيل إعداد دليل التكويد ومراجعته (coding manual) يستخدم منهج النظرية الموثقة (Strauss & Corbin 1990) . وترى بعض الباحثات النسويات أن هذا المنهج يسهل التزامنا بالإنصات إلى المشاركات بشروطهن الخاصة بدلاً من توظيف ما نقوله النساء بما يناسب النظريات القائمة . وكنت قد قمت بالمقابلات باستخدام مقاربة ارتباطية متمحورة حول الصوت (voice-centered relational approach) ، تقوم على تتبع مسار حديث المستجيبة للمقابلة وطرح أسئلة حول تاريخ النساء وأفكارهن ومخاوفهن المتصلة بالغضب (Jack 1999) .

فطبقاً للنظرية الموثقة ، المادة البحثية هي التي تقود الباحث أو الباحثة؛ أي إن الفئات والتصنيفات والنظريات تتبع من المادة البحثية . ومع استحالة تناول المقابلات دون أي منظومات مسبقة ، فإن هذا المنهج ينجح في تصحيح التصورات الخاطئة لدى الباحثة أو الباحث ، وخاصة حين تجبرنا المادة على ملاحظة الأثر الكامنة التي قد نحملها بدون وعي . كذلك فقد أوضحت النسويات أن النساء كثيراً ما يسكتن مشاعرهن ورواياهن ، وهو ما يجعلهن معرضات للقهر (Jack 1979; Rich 1979; Lorde 1984; 1991) . ولتجاوز مساحات الصمت عن تجارب النساء ، فإننا في حاجة إلى قراءة روايات النساء وإعادة قراءتها مع إدراكنا وجود جوانب مختلفة من التجارب التي يتم تناولها والإنصات إلى مناحي مختلفة من "صوت" المرأة . إن "دليل الإنصات" ، وهو منهج تأويلي نسوي ، يمكننا من سماع مساحات الصمت من خلال تركيز انتباه الباحثة على صوت الراوية

وعلى ردود أفعال المكودة (المنصنة) (Brown & Gilligan 1992; Brown ، Tappan ، Gilligan ، Miller & Argyris 1989) . وسأحاول في هذا العرض القصير أن أصف التصورات الخاطئة التي كانت عندي عن غضب النساء وكيف صححها المنهج والمادة البحثية.

فقد قمت استعدادا للدراسة التي تتناول الغضب بإدخال المقابلات في برنامج الكمبيوتر "إثنوجراف" (Ethnograph)، وهو برنامج موجه لأجهزة الكمبيوتر. وتم نزع كافة المعلومات التي تحدد هوية المستجيبة للمقابلة، وترقيم سطور نص المقابلة استعدادا للتكويد.

وقد قمت مع الطالبتين الساعدتين لي في هذا البحث (Samya Clumpner and Athena Stevens) ، باتباع المسار الآتي: (1) قراءة المقابلات كل على حدة؛ لمعرفة الأفكار الرئيسية التي تخرج منها. (2) مقارنة الأفكار فيما بينها، مع استخدام أمثلة من مادة المقابلات، واتخاذ قرارات بشأن الفئات التصنيفية التي تشتمل على الأفكار. (3) مراجعة فئات التصنيف وتطبيقها على بقية المقابلات لمعرفة ما إذا كانت الفئات/الأفكار الجديدة تتعارض مع ما تم التوصل إليه مسبقا. وكنا قد وصلنا إلى الخطوة الثالثة من تلك العملية في ذلك المساء المظلم المطير.

وفيما يلي ما حدث: كان قد استغرقنا العمل في تكويد التعبير عن الغضب لدى النساء باستخدام المصطلحات السائدة وهي "الإبطان" (internalization) و"الإظهار" (externalization)، وهما مصطلحان يسودان علم النفس واللغة المتداولة. وهما يوحيان بصورتين للغضب باعتباره مستوعبا داخل الشخص (حيث قد يغلي أو يزد أو يحرق) أو باعتباره يتفجر خارج هذا الوعاء/الشخص بقوة وتداعيات متفاوتة في قوتها. وتقوم دراسة تتناول أبعاد الغضب الداخلي والغضب الخارجي (Charles Spielberger et al. 1985) باستخدام مقياس التعبير عن الغضب (Anger Expression Scale). ولكوني نسوية كنت أعلم أن النساء والرجال يواجهون ردود فعل متباينة لأشكال تعبيرهم المباشر عن الغضب، إذ تتعرض النساء لقدر أكبر من التداعيات الشخصية والاقتصادية

والقانونية مقارنة بالرجال . وقد ملأت النساء في هذه المقابلات الشخصية رواياتهن بحكايات عن ردود الأفعال السلبية المتوقعة تجاه غضبهن ، حتى عند التعبير عن الغضب بنبرة صوت معتدلة ، كما وصفن بقدر من التفصيل كيفية استخدامهن للغضب بمثابة درع حماية في المواقف الخطرة . ولم أكن قد توصلت إلى طريقة لتمثيل الأساليب المعقدة التي تقوم النساء بها بالتعبير عن غضبهن وأسباب قيامهن بذلك ، ولكنني اعتمدت على فئتين قائمتين بالفعل واسعتي الاستخدام ، وهما الإبطان والإظهار ، اللتان كانتا موجودتين في مجال النظرية واللغة وعقلي .

كنا منغمكات في دراسة رواية إحدى النساء عن غضبها العارم من زوجها . فماذا عن سبب الغضب؟ الأعمال المنزلية؟ فتركت البيت ، وركبت السيارة وانطلقت بها في حالة من الغضب العارم ، دون أن تظهر أي قدر من الغضب أمام زوجها . وعلى بعد عمارتين سكنيتين أوقفت السيارة وأخذت تضرب مقود السيارة بيديها وتصرخ وتبكي من الغضب . وقد جاء التصنيف الكودي لذلك بوصفه "إبطاناً" ، ولكنه تجاهل الكثير من أفكارها ، ولم يكن لينطبق مع الموقف . وأثناء نقاشنا حول تلك الحالة فجأة اتضحت لنا الأمور ، إذ انتقلت الصورة من الموقف ذاته إلى هموم تلك المرأة . فقد كان حرصها هنا على تداعيات غضبها على العلاقة . وسرعان ما انتقلت بؤرة تركيزي بتتبع آثار كلماتها ، من التركيز على المرأة باعتبارها وعاء للغضب إلى التركيز على العلاقة باعتبارها هي السياق المهم . فالمسألة المهمة تمثلت فيما إذا كانت على استعداد لإدخال غضبها في العلاقة أم حاولت كتمه عن طريق -مثلاً- ضرب مقود السيارة بعيداً عن زوجها .

ومن عناصر الغضب الواردة في قائمة مقياس التعبير عن الغضب في كتاب سبيلبرجر (Spielberger et al . 1985) "كثراً ما أصفق الأبواب" . إن هذا العنصر غير المتصل بالسياق لا يكشف عن مخاوف النساء بشأن التداعيات على العلاقات الشخصية: وهناك فارق كبير بين ما إذا كان صفق الباب يتم في وجه شخص ما ، أم في بيت خال من البشر . فبدلاً من أن يكون الشخص وحدة التحليل

(وعاء يتحرك الغضب فيه أو منه) أصبحت العلاقة هي وحدة التحليل الجديدة التي التفتنا إليها: ما إذا حاولت المرأة الاحتفاظ بغضبها خارج العلاقة؟ أم أدخلته داخل العلاقة؟ والغرض منذ ذلك ، والسلوك الذي لجأت إليه حينها . وهكذا صار من السهل علينا ، بالتركيز على هذه النقطة الجديدة ، أن نصنف الطرق التي تعاملت بها النساء مع الغضب بالنسبة لعلاقاتهن الشخصية (Jack 2001) .

وقد احتفلنا بهذا الإنجاز بتناول القهوة وتبادل الضحكات . إن هذه العملية الخاصة بتوثيق كلمات النساء عبر منظور كل واحدة منهن -وهي مسألة تقع في قلب البحث النسوي- تتطلب التمكن من نظريات علم النفس . ولكنها تتطلب أيضا أن نراجع الأساليب المألوفة في التأمل والاستماع ، وأن ننصت إلى ما لم يتم احتواؤه في الفئات والتصنيفات والنظريات القائمة . كذلك يمكننا الإنصات إلى المخاوف ومساحات الصمت والحوارات الداخلية التي تدور داخل المشاركات في البحث ، حتى وإن تعارضت مع التفسيرات القائمة بالفعل .

والآن وقد قدمت مثالا على عملية التأكيد ، فلنتنقل إلى عملية التأويل والكتابة اللتين تم تناولهما جزئيا عبر صفحات هذا الكتاب .

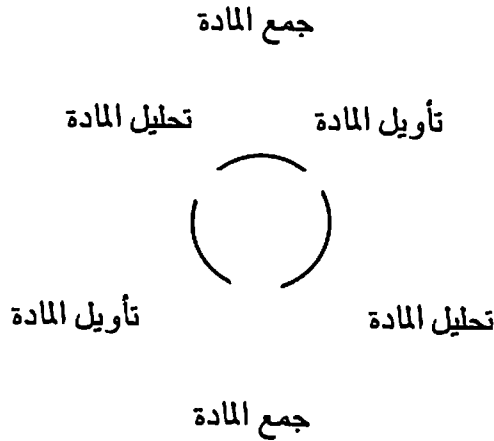
تأويل مشروعك البحثي وكتابته

سأقدم في الأجزاء التالية عرضا عاما لما يتعلق بالتأويل وكتابة مشروعك البحثي . وتشير دراسة نورمان دينزين إلى وجود "فن التأويل" قائلا:

يمكن وصف ذلك أيضا بأنه الانتقال من الميدان إلى النص ثم القارئ . إن ممارسة هذا الفن تسمح للعامل في الميدان كـمجمع للأجزاء (field-work)

er-as-bricoleur) . . . تناول ما تعلمه وترجمته إلى كتلة نصية تنقل تلك المفاهيم إلى القارئ. (Norman Denzin 2000، pp. 313-314)

ولا يوجد طريق معين لتأويل مادتك البحثية، بل إن الباحثة أو الباحث يظلان في الواقع يتنقلان بين تحليل المادة وتأويلها، وهي رحلة تؤدي في نهاية المسار إلى جمع مادة مناسبة بدرجة أكبر. وهي ليست مراحل منفصلة في الجهد البحثي، وإنما يمكن أن نرى صورة توضيحية لتلك العملية في الشكل التالي (الشكل: 11.1).



الشكل 11.1: شكل توضيحي للعملية "التكرارية" (iterative process) في تحليل المادة البحثية وتأويلها مقتبس من المصدر التالي: Hesse-Biber & Leavy، The Practice of Qualitative Interviewing، Sage Publications، 2006.

ويوضح الشكل التوضيحي أعلاه مرونة المسار البحثي إذ يظل الباحث أو الباحثة في حالة انخراط في جمع المادة وتحليلها وتأويل نتائج البحث بشكل حيوي. وكتابة الملاحظات والمذكرات يمثل رابطاً بين التحليل. (ما توصلت إليه؟) وبين التأويل (ما معنى ما توصلت إليه؟). ويجب على الباحثين والباحثات استخدام الملاحظات والمذكرات التي سجلوها في مراحل مبكرة من البحث لتطوير عملية التحليل وإثرائها. وعليك العودة للتفكير في الأسئلة التي طرحتها في البداية: "ما معنى ذلك؟ وأي من

أفكاري تجد ما يدعمها في المادة؟ وما الأسئلة الإضافية التي أحتاج إلى طرحها ولم يسبق لي طرحها؟ ومن هم الأشخاص الآخرون الذين يجب أن أقوم بعقد مقابلات معهم؟ وما الذي لم أقم بمتابعته؟ وما المادة البحثية الجديدة التي يجب علي أن أجمعها؟“ وقد تساعد المذكرات المدونة في مراحل مبكرة في توجيه البحث في اتجاه جديد. ويشير ديفيد كارب (David Karp) إلى الآتي فيما يتعلق بكتابة المذكرات في مراحل مبكرة من البحث:

سوف يكون في وسعك في بداية البحث على وجه الخصوص سماع أشياء لم يسبق لك التفكير فيها. عليك النظر الدقيق نحو الاتجاهات الأساسية التي لم يخطر على بالك تتبعها. ويجب أن يكون إيقاع كتابة المذكرات القصيرة مسألة عظيمة خلال بداية عملك. وإننا ندعو إلى كتابة المذكرات عن “الفكرة” أو “المفهوم” والتي تمثل مدخلا إلى ظهور الأفكار. ويتراوح طول مثل هذه المذكرات عادة ما بين صفحتين وثلاث صفحات. (quot ed in Hesse-Biber & Leavy، 2006، p. 142)

ويرى ديفيد كارب أن ترتيب مذكراتك وقيامك ببعض التأكيد الأساسي يجعلك في وضع جيد “للمساك بفكرة رئيسية”، وهي اللحظة التي يجب البدء فيها فيما يطلق عليه كتابة “مذكرات المادة”. وأعني بذلك مذكرة تجمع بين الفكرة والمادة وأي أدبيات متاحة متعلقة بالموضوع. وتبدو مذكرة المادة (data memo) كورقة البحث، ولكنها تتضمن مادة بحثية تفوق ما يتم استخدامه فعليا في ورقة بحثية. فإذا توصلت إلى نقطة أو فكرة عامة ما وشعرت بأن لديك 10 مقتطفات من المادة البحثية التي تدعم تلك الفكرة، فاعرضها كلها لمزيد من الفحص والاستخدام لاحقا. ويؤكد ديفيد كارب على أن الباحث الجيد يجب “أن يتأكد من عرض كلام الأشخاص الذين لا يتماشون مع النسق العام للبحث” (quoted in Hesse-Biber & Leavy 2006، p. 143).

وهناك المزيد من الأسئلة التي تظهر على السطح عندما نشرع في تجميع الحكاية التي وجدناها خلال البحث. ونبدأ في ملاحظة قضايا ورؤى معينة في حكايات المستجيبات، التي توضح لنا كيفية عرض الفهم الذاتي وتمثيله لدى المستجيبات لتجاربهن المعيشة. والسؤال الذي يحتل موقعا مركزيا في هذه المرحلة من مراحل عملية البحث هو السؤال الخاص بالحكاية نفسها التي نقوم في الواقع بعرضها وتمثيلها: هل هي حكاية المستجيبة للبحث أم حكايتنا؟

إن الباحثات النسويات واعيات تحديدا بالقوة والسلطة (power and author-ity)، التي تتمتع بها الباحثات والباحثون، من حيث كيفية التعامل مع عرض وتمثيل نتائج البحث وتأويلاته. وقد رأينا العديد من أشكال تناول تلك القضايا عبر صفحات هذا الكتاب، ومنها على سبيل المثال: عند التفكير في صياغة نصوص التاريخ الشفاهي وتحريرها، وطبيعة العمل المشترك في البحث الكيفي، والمنظور ما بعد الحدائي في استخدام فئات مثل "المرأة" أو "تجارب النساء".

"ما الدور الذي يلعبه الباحث أو الباحثة في عملية تأويل مواد أبحاثهما؟"

"إلى أي مدى يسمح الباحث أو الباحثة بمشاعرهما للدخول في عملية التأويل؟"

"من صاحب وجهة النظر التي يقوم الباحث الإثنوجرافي أو الباحثة الإثنوجرافية في الواقع بتمثيلها بمواد أبحاثهما؟" (Van Maanen 1995، pp. 16-17).

هذا وتدرك الباحثات النسويات مآزق السلطة عموما في العملية البحثية ككل، وهن يتناولن تحديدا علاقات القوة والسلطة في تأويل أصوات النساء وخاصة النساء اللاتي تعرضن للقهر على أساس النوع أو الأصل أو الطبقة أو العمر، وهلم جرا. ويمكن

للباحثات النسويات استخدام هذه التجارب في استكشاف وتناول القضايا موضوع أبحاثهن ، كما أن الفهم الشخصي لدى الباحثة لتلك القضايا قد يعتبر ميزة كبيرة في البحث. وفي الواقع ترى عالمة الاجتماع النسوية دوروثي سميث (Dorothy Smith ، cited in Lemert 1999) ، أن علم الاجتماع يعتبر بالنسبة للنساء مجالا بحثيا يحتضن منظور "الآخر".

استخدام برنامج كمبيوتر في تحليل مادة بحثك وتأويلها : برامج الكمبيوتر والبحث النسوي

• هل لي أن أستخدم برمجيات كمبيوتر (computer software)؟ وما الذي ستحققه تلك البرامج في تحليل مادة بحثي وتأويلها؟

قد يطرأ تحسين على عملية التحليل التي تقوم بها الباحثة أو الباحث باستخدام حزم برامج الكمبيوتر (software packages). وقد جاءت العقود الأخيرة بتطورات في برامج الكمبيوتر التي أحدثت تحولا في عمل علماء الاجتماع والباحثين والباحثات (Field-ing & Lee 1998). ويمكن تصنيف برامج الكمبيوتر ضمن نوعين رئيسيين ، يتكون أولا من "البرمجيات النوعية" (generic software) التي لم تكن مصممة خصوصا للبحث الكيفي. وتوجد ثلاثة أنواع من البرمجيات ضمن هذه الفئة ، أولها أنواع "معالج الكلمات" (word processors) التي يمكن استخدامها في طباعة وترتيب المقالات ومذكرات العمل الميداني بالإضافة إلى تطوير نظام لترتيب تلك المادة البحثية ، وثانيها هي مسترجعات النصوص (text retrievers) والتي يمكن استخدامها في فرز المادة للوصول إلى نسق أو "خيط" (string) من الحروف التي قد تساعد الباحثة أو الباحث في تحديد أفكار أو موضوعات معينة داخل كم المادة البحثية ، أما ثالثها فهي البرامج المسؤولة على تشغيل "قواعد بيانات النصوص" (textbase managers) ، وهي أنظمة قواعد البيانات الكبيرة التي تتيح استرجاع المعلومات المبرمجة برمجة شبه

مركبة (semistructured information) والتي يتم إدخالها في البرنامج من خلال "التسجيلات" (records) و"الحقول" (fields) (Fielding & Lee 1998).

ثانياً، توجد برمجيات تم تصميمها خصيصاً لتحليل المادة الكيفية، وهي "حزم التحليل الكيفي المخصصة" (dedicated qualitative analysis packages). وهناك أربعة أنواع من البرمجيات التابعة لهذه الفئة. أولها برنامج "التكويد والاسترجاع" (code and retrieve)، والذي يتيح تحديد كود لكل جزء من النص، وهي تسهل استرجاع فئات أكراد جديدة عند استخدام الباحثة أو الباحث "وظائف البحث البوليانية" المعقدة (sophisticated Boolean search functions). أما الحزمة الثانية فتتكون من "برامج بناء النظرية على أساس الكود" (code-based theory building programs)، والتي تتيح للباحثة أو الباحث تحليل العلاقة المنهجية القائمة بين المادة والأكراد وفئاتها وتصنيفاتها. وتقدم بعض البرامج مقارنة منهجية على أساس القاعدة (rule-based systematic approach) تسهل اختبار الفرضية، بينما تتيح برامج أخرى التمثيل البصري للمادة. أما الحزمتان الأخيرتان (الثالثة والرابعة) من هذا النوع المتخصص من البرمجيات فهما "بناء الشبكات الفكرية" (conceptual net-work building) و"برمجة المسح النصي" (textual mapping software)، وتسمحان للباحثة أو الباحث بالربط بين الأكراد والتصنيفات القائمة في البحث. ويمكن اعتبار هذه الخاصية من الخصائص "الإضافية" (add-ons) في "برامج بناء النظرية على أساس الكود" (Fielding & Lee 1998، pp. 9-11). وقد شهد مجال البرمجيات الكيفية (qualitative software) تطوراً ملحوظاً بمرور الزمن، كما أن تلك البرمجيات أثبتت كونها منتجات عادة ما تلقى القبول. وتشير دراسة إلى تنامي مستخدمي البرمجيات واتساعهم على المستوى الوطني والعالمي.

وتحمل تقنيات الحاسب وعوداً بإحداث ثورة في أسلوب قيام الباحثات والباحثين بتحليل المادة البحثية، ولكنها تحمل أيضاً في الوقت نفسه عدداً من المخاطر للقائمين بالبحث الكيفي. ويتعين على الباحثات والباحثين التجريب بالاستعانة بتلك البرامج من أجل تقييم مواطن قوتها وضعفها، مع تأمل التداعيات المترتبة على استخدام برمجيات الحاسب الآلي في تحليل المادة الكيفية. ونحن نوصيك بتجربة هذه البرامج في مواضيعها المناسبة والتعرف على مدى ملاءمتها لك لأبحاثك.

كتابة البحث:

يشير نورمان دينزين إلى أن "الكتابة ليست ممارسة بريئة" وإنما هي أداة تساعد في تغيير العالم (Norman Denzin 2000، p. 898). فاللغة قوة ثقافية مؤثرة، وتحول الكتابة إلى وسيلة للباحثة أو الباحث في إيصال معلومات وتأويلات قيمة إلى جمهور أوسع من القراء. كما يصبح الباحثون والباحثات أكثر انخراطا في العمل، ولذا تؤثر مقاصدهما الشخصية في تشكيل وصياغة أسلوب وعملية الكتابة. ويكاد يستحيل الفصل بين نطاق الكتابة ونطاق التأويل، فالكتابة شكل تأويلي قوي من أشكال الخطاب الذي له "حضور مادي في العالم" ويمكن أن يكون "محوريا في تفاعلات المجتمع الديمقراطي الحر" (Norman Denzin 2000، p. 898-899).

وعند الشروع في مرحلة كتابة البحث، يجب على الباحثين والباحثات الانتباه إلى العلاقة الحميمة القائمة بين ما يكتبونه وبين عملية التأويل التي وجهت تناولهم للبحث. والعلاقة بين الكتابة والتأويل مهمة ولكن يمكن أيضا اعتبار هذين العنصرين ضمن عملية واحدة مشتركة. وتعتبر قضايا التأويل والتمثيل أمرا بارزا في البحث النسوي إذ إنه بالإضافة إلى المسائل الأخلاقية والبراجماتية التي تواجه الباحثين والباحثات عموما، يجب على الباحثة النسوية أيضا التفكير في العلاقة بين مشروعها السياسي، ومقاصدها كناشطة نسوية، والتزاماتها الإستمولوجية، ورغبتها في الكشف وإتاحة المعرفة المعرضة للإقصاء، وكذلك واجبها في تمكين غيرها لا قهرهم.

ويجب على الباحثة أو الباحث أن يتذكرا أنهما في الوقت الذي توجد فيه عدة روايات يتم جمعها من الميدان، فإن الأمر ينتهي بالباحثة أو الباحث إلى كتابة رواية واحدة منها، وبالتالي لا يعني ذلك تجاهل إمكانية وجود أشكال أخرى لتمثيل ما تم في العمل الميداني. وقد قامت دراسة بنقد الإثنوجرافيا التقليدية وتعريف الباحثات والباحثين المعاصرين بالفكرة القائلة بأن الروايات الفردية الواردة في الدراسات الميدانية هي

(*) تم اقتباس أجزاء من هذه النقطة، وتعديلها كليا أو جزئيا، من المصدر التالي:

Hesse-biber Sharlene Nagy, and Leavy, Patricia, "Analysis, Interpretation, and the Writing of Qualitative Data" in Sharlene Nagy Hesse-biber and Patricia Leavy (eds.) Approaches to Qualitative Research: A Reader on Theory and Practice, New York: Oxford University Press, 2004, pp. 409-425.

روايات محدودة وقاصرة في أحسن الأحوال (Van Maanem 1995). كما تؤكد الدراسة على أنه يمكن إنتاج أكثر من رواية بناء على التجربة الميدانية الواحدة، إذ تتعدد الأصوات، ولكن بعضها يتعرض بالضرورة إلى الاستبعاد. ومن هنا "يوجد منطق قوي في العمل على مواجهة أية قناعة تامة محسومة في عالم يتسم بالبساطة أو الشفافية" (Van Maanem 1995، p. 18).

وفي إطار رفض وجود حقيقة وواقع واحد أوحد، تؤكد دراسة نورمان دينزين على نشأة نوع جديد من الكتابة في عصر ما بعد الحداثة. وقد تم تناول بعض تلك الأساليب في الفصل الرابع من هذا الكتاب عند الحديث عن النسوية ما بعد الحداثة. كما يتم اختبار الأساليب المختلفة بواسطة الباحثات والباحثين والصحافيات والصحافيين على السواء، وتؤكد الدراسات على ضرورة التعامل مع الحقائق باعتبارها تتشكل اجتماعيا (Denzin 2000، p. 899).

وبينما كان "النمط المنطقي-العلمي" (logico-scientific mode) للبحث في العلوم الاجتماعية يسعى في الماضي إلى الحصول على أدلة إمبيريقية وجمع "شروط للحقيقة العامة" (universal truth conditions)، فإن الاختبار يعتمد حاليا على تفكيك (deconstruct) هذا النوع من العقلانية المتفحشية. (Richardson 1995، p. 201). فنحن لا نرى وجود حقيقة واحدة، وتجربة واحدة، وبداية ووسط ونهاية واحدة للرواية، إذ إن خطوط الحقيقة وحدودها غير واضحة، ويتم إعادة تشكيلها من قبل الباحثات والباحثين الذين يبذلون كل الجهد من أجل التوصل إلى أفضل طريقة لكتابة أبحاثهم. وتوجد أسئلة عديدة تواجه وتوجه عملية كتابة البحث، فهل تبدو الأسئلة التالية مألوفة لك؟

• ما المعايير التي يتعين وجودها لدى الباحثة أو الباحث؟ وفي عالم الكتابة التأويلية بمرورنته، كيف يمكن للباحثة أن تقوم بتمثيل الآخر دون أن تقوم بتمثيل نفسها بصورة ما أو بأخرى؟

ومع معرفتهم بأن الكتابة ليست "تمثيلا" "حقيقيا" لـ "واقع" موضوعي، فإن الباحثات والباحثين ما بعد الحداثيين يسعون للتعرف على جماهيرهم وأهدافهم البحثية

وتعريفها وإعادة تعريفها (Richardson 1995، p. 199). وتتضمن الكتابة قرارات مهنية وأخلاقية وشخصية، ويمكن لاختيارات الباحثة والباحث اللغوية والأسلوبية أن تخلق قيمة وتضفي معنى وتصوغ شكل الذوات والموضوعات التي تنشأ في الدراسة (Shapiro 1985-1986، as cited in Richardson 1995، p. 199).

وهكذا فإن الكتابة تمنح الجماهير فرصة تطوير ما يطلق عليه "المخيلة الاجتماعية" (sociological imagination)، عبر تأمل السياق الاجتماعي الذي تشكلت حوله التجارب الشخصية (C. Wright Mills، 1959، quoted in Richardson 1995، p. 216). حقا "إن الناس في كل مكان يعيشون ويؤولون حيواتهم في علاقتها بالزمن" ويصبحون أقدر على "التحكم في 'مصائرهم'" عندما تساعدهم الكتابة على فهم السياق التاريخي الاجتماعي (sociohistorical context) لحيواتهم (Richardson 207، 215، pp. 1995). وترى دراسة ميلز هذا الأمر بمثابة الوعد الذي يحمله علم الاجتماع، كما يوضح كيف يمكن للكتابة أن تحمل معاني مختلفة باختلاف البشر.

إن باحثة مثل لوريل رتشاردسون، التي تدعو إلى استخدام السرد كوسيلة للتواصل في مجال علم الاجتماع، ساهمت مع غيرها فيما يطلق عليه عدم وضوح (blur-ring)، الواقع الاجتماعي. ففي نقاشها حول السرد كأسلوب مفيد في "التفكير والتمثيل" تؤكد لوريل رتشاردسون أن علينا التفكير في أشكال بديلة من الكتابة (Richardson 200، p. 1995). إن استبعاد السرد كأداة للتعبير عن التجارب الاجتماعية سيؤثر بالسلب على المجتمع ككل، فالكتابة في مجال العلوم الاجتماعية تؤثر على النقاش العام الدائر حول السياسة والسياسات العامة والهوية والتحول، ويمكن للسرد أن يؤثر ويساعد في توجيه دقة تلك النقاشات المجتمعية.

وترى الباحثة أيضا أن الشكل السرد يحمي حكاية "تعكس التجربة الإنسانية العامة مع الزمن، وتربط بين الماضي والحاضر والمستقبل" (Richardson 218، p. 1995). فالسرد الذي يجمع بين الأدب والتاريخ، وبين ما هو فردي ومجتمعي، يجعل "الأفراد والثقافات والمجتمعات والعصور التاريخية مفهومة ككل" (Richardson 200، p. 1995)؛ إذ يساعد الناس على رؤية أنفسهم باعتبارهم جزءا من نظام أشمل. وهكذا يمكن للسرد أن يحفز على قيام نقاشات تحررية بشأن الهموم المجتمعية

المهمة لأنه يشجع القراء على استخدام ما لديهم من "مخيلة اجتماعية" في "الكشف عن المشاكل الشخصية باعتبارها قضايا عامة، وجعل من الممكن تحقيق الهوية الجمعية والحلول الجماعية" (Richardson 1995، p. 216).

وتشهد الروايات السردية تزايدا في شعبيتها بين الباحثات والباحثين، كما أن الأساليب التجريبية في تأويل المجتمع عبر الكتابة أوجدت أساليب جديدة من الروايات الاجتماعية. إذ يستخدم الباحثون والباحثات روايات سردية من الحياة اليومية، والحوار اليومي، ووجهات النظر المتعددة وأسلوب الكتابة السهل البسيط في التعبير عن صوت الكاتب أو الكاتبة التأويلي (Harrington 1997، as cited in Denzin 2000، p. 899)، وانظر/ي أيضا: Denzin 2000، p. 902. إنها حكاية تمثل مدخلا مهما لمسار البحث، لأنها تساعد القارئة والقارئ وكذلك الباحثة والباحث على اكتشاف الحقائق الأخلاقية ووجهات النظر المتعددة بشأن قضية محددة.

إن تلك الممارسات الجديدة في الكتابة قطعت أشواطاً كبيرة نحو التوصل إلى جوهر بعض أصوات المجتمع الضائعة. فقد طال على سبيل المثال أمد إسكات النساء في الدراسات الإثنوجرافية، وتم عادة التحيز إلى الدراسات التي يقوم بها الرجال (Clough، as cited in Van Maanen 1995، p. 2). إن الاهتمام بالقضايا النسوية مؤخراً أدى إلى بدايات الاعتراف بوجود النساء في المجتمع، وما يواجهنه من مشاكل حتى يومنا هذا. إن الأبحاث وحدها هي التي أدت الآن إلى القيام بأفعال لعلاج تلك المشاكل، ومن المهم أن يستمر الإنتاج المتواصل لمثل هذه الكتابة حول هذا النوع من الموضوعات. فلا بد من تقديم ومناقشة لغة وتجارب المجموعات المهمشة وتناولها على أرض الواقع بواسطة الكلمات، بحيث يمكن رفع مستوى الوعي الاجتماعي.

وكما يشير نورمان دينزين، فإن مثل هذه الكتابة توضح "اهتماماً حميماً بحياة البشر" (Denzin 2000، p. 899)، ويمكن عبر هذا النوع من الكتابة الدفع نحو التغيير الاجتماعي. فيمكن للغة المؤلفة أو المؤلف أن تنتج هذا المسار، ولكن تجارب "الآخر" هي القادرة على توجيه هذا المسار. وسيتم بلا شك نسج الصوتين معا داخل النص، وسيعملان في نهاية المطاف معا لتمكين من يحتاجون إلى كسر صمت الماضي.

الخاتمة

إنني إذ أختتم هذا الفصل من الكتاب ، أقدم لك قائمة للاستعانة بها عند شروعك في القيام بمشروع بحثك . وقائمة الأسئلة ليست جامعة وإنما القصد منها هو تسليط الضوء على بعض العوامل المهمة التي قد تستوقفك عند قيامك بتقييم مشروع بحثك ككل .

قائمة التقييم

أسئلة للطرح عند تقييم مشروعك البحثي (Hesse-Biber & Leavy 2006)

سؤال البحث العام

السؤال: ما الذي يجعل أي أحد "يقبل" روايتك؟ يثق في روايتك؟

قضايا المصادقية

السؤال: ما بعض المعايير لتقييم مصداقية الدراسة؟ هل يتعرف المشاركون والمشاركات على تجاربهم في تحليلك وتأويلك للمادة البحثية؟ ولماذا أو لم؟ هل يتضمن البحث "توثيقا لمسار" عملك (audit trail)؟ هل يمكن للقارئة أو القارئ تتبع الخطوات التحليلية دليلاً على المصادقية ؟

جمع المادة

السؤال: هل المنهج متوافق مع الغرض (سؤال البحث)؟ ما مدى دقة وجودة وصفك لاستراتيجيات جمع المادة؟

العينة

السؤال: كيف تم اختيار المستجيبات والمستجيبين؟ هل يمثلون اختياراً موقفاً لهذا البحث؟

أخلاقيات المهنة

السؤال: كيف يتم التعامل مع مسائل ذاتية البشر؟

التحليل

السؤال: كيف توصلت إلى نتائج البحث؟ هل تم تناول استراتيجيات البحث المحددة؟ هل فعلت ما قلت ببنيتك القيام به؟ هل مقاربات تحليل المادة تتوافق مع سؤال البحث؟

التأويل

السؤال: هل يمكن للقارئة أو القارئ إدراك (gestalt) المعنى الذي تحمله مادة البحث بناء على النتائج المكتوبة؟ هل تم وضع نتائج البحث في سياق الأدبيات التي تتناول موضوع بحثك؟ هل تتناسب الأدلة مع المادة؟ هل تتماشى المادة مع سؤال البحث؟

الخاتمة/التوصيات

السؤال: هل تعكس الخاتمة نتائج بحثك؟ هل يقدم بحثك بعض التوصيات للأبحاث المستقبلية؟

أهمية البحث

السؤال: ما أهمية بحثك؟

لقد أوضح هذا الفصل كيف أن مسار البحث التكراري، "جينة وذهابا"، هو أشبه بتجميع قطع منفصلة تشكل معا صورة كاملة (a puzzle). ويمكن لمقطعات من المادة البحثية أن تحقق الكثير في تجميع المعنى، ولكن لا يجب على المرء الاندفاع في جمع قدر مبالغ فيه من المادة دون تأمل المعلومات شيئا فشيئا. إن النزعة الإبداعية وحزمة المهارات التحليلية والتأويلية ضرورية في هذه العملية. والتكويد وتدوين الملاحظات والمذكرات هما آليتان قويتان يمكن توظيفهما في عملية فهم مادة بحثك وتأويلها. وقد تواجهك بدايات خاطئة وكذلك لحظات من الاكتشافات العظيمة وتوليد رؤى نظرية داخل تحليلك وتأويلك لمادة بحثك. إن هذا النوع من العمل البحثي لا يتلاءم مع الشخصيات الضعيفة، كما أنه يتطلب على الدوام حسن الانتباه إلى التفاصيل، والعمل الدؤوب في مواجهة الفوضى، والقدرة على احتمال الغموض. كذلك فإن كتابة بحثك تتطلب منك تأمل موقعيتك، أي مجموعة السمات الاجتماعية والاقتصادية التي تحملها

فتؤثر في تحليلك و تأويلك لمادة بحثك . إنها رحلة جديرة بالمضي فيها ، لأنها تقودنا في آخر المطاف إلى فهم أفضل وإدراك أعمق وتمكن من الواقع المعيش لمن نقوم ببحثهم .

أما بالنسبة للنسويات ، فهي رحلة مقيدة وموجهة بمجموعة من المبادئ والالتزامات والهموم التي تتجاوز حدود مشروع بحث معين . فالباحثة النسوية تعتبر عملية بناء المعرفة مرتبطة بالضرورة بالالتزام بالكشف عن معارف النساء وغيرهن ممن تعرضن تاريخيا للتمييز . والرحلة بالنسبة لنا موقع يتداخل فيه الجانب الشخصي والسياسي ، ويتم فيه اكتشاف الحقائق المتعددة والكشف عن أصواتها حيث ساد الصمت من قبل .

والآن وقد قاربت رحلتنا على الانتهاء ، فإنني وباتريشا ليفي نتمنى أن تكون رحلتك معنا قد أضافت لك فكرا ، كما نعتقد أن الرؤى والأدوات التي قدمناها في هذا الكتاب ستثبت فائدتها عند شروعه في رحلتك عبر الحياة بطرقاتها وشوارعها الخفية وأرجائها المجهولة .

المراجع

- Brown, Lyn M., & Gilligan, Carol. (1992). *Meeting at the crossroads*. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Brown, Lyn M., Tappan, Mark, Gilligan, Carol, Miller, Barbara, & Argyris, Dianne. (1989). Reading for self and moral voice: A method for interpreting narratives of real-life moral conflict and choice. In Martin Packer & Richard Addison (Eds.), *Entering the circle: Hermeneutic investigation in psychology* (pp. 141-164). Albany: State University of New York Press.
- Charmaz, Kathy. (1983). The grounded theory method: An explication and interpretation. In Robert M. Emerson (Ed.), *Contemporary field research: A collection of readings* (pp. 109-126). Prospect Heights, IL: Waveland Press.
- Charmaz, Kathy. (1995). Grounded theory. In Jonathan Smith, Rom Harre, & Luk Van Langenhove (Eds.), *Rethinking methods in psychology* (pp. 27-49). London: Sage.
- Denzin, Norman K. (2000). The practices and politics of interpretation. In Norman Denzin & Yvonna Lincoln (Eds.), *Handbook of qualitative research* (pp. 897-922). Thousand Oaks, CA: Sage.

- Fielding, Nigel, & Lee, Raymond. (1998). Introduction: Computer analysis and qualitative research. In *Computer analysis and qualitative research*. London: Sage.
- Hesse-Biber, Sharlene Nagy, & Leavy, Patricia. (2004). *Approaches to qualitative research: A reader on theory and practice*. New York: Oxford University Press.
- Hesse-Biber, Sharlene Nagy, & Leavy, Patricia. (2006). *The practice of qualitative research*. Thousand Oaks, CA: Sage.
- Jack, Dana C. (1991). *Silencing the self: Women and depression*. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Jack, Dana C. (1999). *Behind the mask: Destruction and creativity in women's aggression*. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Jack, Dana C. (2001). Understanding women's anger: A description of relational patterns. *Health Care for Women International*, 22(Special issue), 385-400.
- Lemert, Charles. (Ed.). (1999). *Social theory: The multicultural and classic readings* (2nd ed.). Boulder: Westview Press.
- Lorde, Audre. (1984). *Sister outsider: Essays and speeches* (The Crossing Press Feminist Series). Trumansburg, NY: Crossing Press.
- Rich, Adrienne C. (1979). *On lies, secrets, and silence: Selected prose, 1966-1978*. New York: Norton.
- Richardson, Laurel. (1995). Narrative and sociology. In John Van Maanen (Ed.), *Representation in ethnography* (pp. 198-221). Thousand Oaks, CA: Sage.
- Spielberger, Charles D., Johnson, E. H., Russell, S. F., Crane, R. J., Jacobs, G. A., & Worden, T. I. (1985). The experience and expression of anger: Construction and validation of an anger expression scale. In Margaret A. Chesney & Ray H. Rosenman (Eds.), *Anger and hostility in cardiovascular and behavioral disorders* (pp. 5-30). New York: Hemisphere/McGraw-Hill.
- Strauss, Anselm, & Corbin, Juliet. (1990). *Basics of qualitative research: Grounded theory procedures and techniques*. Newbury Park, CA: Sage.
- Van Maanen, John. (1995). An end to innocence: The ethnography of ethnography. In John Van Maanen (Ed.), *Representation in ethnography* (pp. 1-35). Thousand Oaks, CA: Sage.

المؤلفتان فى سطور:

د. شارلين ناجي هيسي-بايبر

أستاذة علم الاجتماع فى كلية بوسطن فى تشيستنت هيل بولاية ماساتشوستس . لها دراسات عديدة منشورة حول أثر العوامل الثقافية الاجتماعية على صورة الجسد لدى النساء ، بما فى ذلك كتابها الذى تم اختياره فى مجلة تشويس (Choice magazine) كأفضل كتاب أكاديمي عام 1996 (Am I Thin Enough Yet? The Cult of Thinness and the Commercialization of Identity 1996) . كما شاركت فى تأليف كتاب عن النساء العاملات فى أمريكا (Working Women in America: Split Dreams 2005) . كذلك شاركت فى تحرير كتاب عن المقاربات النسوية (Feminist Approaches to Theory and Methodology: An Interdisciplinary Reader 1999) ، وعن البحث الكيفي (Approaches to Qualitative Research: A Reader on Theory and Practice 2004) ، وعن مناهج البحث الجديدة فى البحوث الاجتماعية (Emergent Methods in Social Research ، Sage 2006) . كما شاركت فى تأليف كتاب عن البحث الكيفي (The Practice of Qualitative Research ، Sage 2006) . وقامت بتحرير كتاب فى البحث النسوي (Handbook of Feminist Research: Theory and Praxis ، Sage 2006) ، وكتابين قيد النشر أحدهما عن النحافة (The Cult of Thinness) ، والآخر عن البحث متعدد المناهج . كما شاركت فى تطوير برنامج فى برمجيات الحساب (HyperResearch) ، وهو برنامج لتحليل المادة الكمية ، وكذلك أداة جديدة لتحويل النص المسجل إلى نص مكتوب - (HyperTRANSCRIBE) (www.researchware.com) .

د. باتريشا لينا ليفي

أستاذة مساعدة في علم الاجتماع بكلية ستونهيل في إيستون بولاية ماساتشوستس . وهي مؤسسة ومديرة برنامج دراسات النوع (الجندر) في الكلية. لها مقالات منشورة في مجالات الذاكرة الجماعية، ووسائل الإعلام، والثقافة الجماهيرية، وصورة الجسد، والنسوية، ومناهج البحث الكيفي، كما يكثر الاستشهاد بأقوالها في الصحف لخبراتها في الثقافة الجماهيرية والأحداث الجارية وقضايا النوع. وقد شاركت في تأليف كتاب عن البحث الكيفي (Patricia Lina Leavy، The Practice of Qualitative Research، Sage 2006)، وشاركت في تحرير كتاب عن البحث الكيفي (Ap-proaches to Qualitative Research: a Reader on Theory and Practice (Emergent Methods in Social Research، Sage 2006). ولها كتاب قيد النشر (Iconic Events: Me-dia، Power and Politics in Retelling History) وقد كتبت أجزاء كثيرة من هذا الكتاب أثناء استماعها إلى موسيقى توري أموس.

المساهمات فى سطور:

1 - أبيجيل بروكس (Abigail Brooks)

باحثة دكتوراه فى علم الاجتماع فى كلية بوسطن . تتضمن مجالات اهتمامها النظرية النسوية ، علم اجتماع النوع ، وعلم الشبخوخة النقدي ودراسات الشبخوخة النسوية ، وعلم اجتماع الجسد ، ودراسات العلوم والتكنولوجيا ، والنظرية الاجتماعية . تتناول أطروحتها لنيل درجة الدكتوراه تجارب النساء المعيشة بشأن التقدم فى السن وتأويلاتها وذلك على خلفية سياق الانتشار والتقبل المتزايد لجراحة التجميل . ولها مقالة منشورة مؤخرا عن جراحة التجميل (Under the Knife and "Proud of It: An Analysis of the Normalization of Cosmetic Surgery" ، in Critical Sociology)

2 - إلانا بوتش (Elana D. Buch)

باحثة دكتوراه فى البرنامج المشترك للعمل الاجتماعي والأنثروبولوجيا فى جامعة ميشيجان . وهى مهتمة بشكل عام بدراسة العلاقات بين السياسات الاجتماعية ، وممارسات القرابة ، وعمل النساء بأجر وبدون أجر . وتركز أطروحتها على الاختلافات فى أيديولوجيا القرابة وتجارب الرعاية وتأثيرها على ممارسات رعاية المسنين المنزلية مدفوعة الأجر فى الولايات المتحدة الأمريكية . وهى تحمل درجة الماجستير فى العمل الاجتماعي من كلية العمل الاجتماعي بجامعة ميشيجان ، ورسالة ماجستير فى الأنثروبولوجيا من جامعة ميشيجان .

3 - د . توبي إبستين جاياراتني (Toby Epstein Jayaratne)

باحثة علم النفس فى جامعة ميشيجان . تدير حاليا دراسة قومية تتناول آراء الأمريكيين والأمريكيين بشأن المؤثرات الوراثية المحتملة على ما يتم تصويره من اختلافات النوع والطبقة والأصل والميول الجنسية . وتتركز اهتماماتها الأكاديمية على استخدام التفسيرات الوراثية (genetic) لتبرير وتعزيز أيديولوجيات اجتماعية وسياسية متنوعة . وقامت بكتابة وعرض العديد من الأوراق البحثية فى موضوع المنهجية النسوية ، وحصلت على درجة الدكتوراه فى علم النفس التنموي من جامعة ميشيجان .

4 - دينيز ليكنبي (Denise Leckenby)

باحثة دكتوراه في علم الاجتماع بكلية بوسطن . تتضمن مجالات اهتمامها منهجيات البحث الكيفي ، والمنهجية النسوية ، والنظرية النسوية ، والجنسانية . وشاركت في تحرير كتاب ، (Women in Catholic Higher Education: Border Work ، Living Experiences and Social Justice 2003) .

5 - د . كاثي ماينر روبينو (Kathi Miner-Rubino)

أستاذة مساعدة في علم النفس بجامعة ويسترن كنتاكي . لها العديد من الأبحاث المنشورة في مجالات النوع ، والطبقة الاجتماعية ، والرفاهة النفسية . وتركز أحدث أبحاثها على التعرض لسوء المعاملة (أي قلة الأدب والتحرش) التي تواجهها النساء في أماكن العمل . وتقوم بتدريس مناهج في علم النفس الاجتماعي ، وعلم نفس النساء ، ومناهج البحث . وقد حصلت على درجة الدكتوراه في علم النفس والدراسات النسائية من جامعة ميشيغان .

6 - د . كارين ستالر (Karen M. Staller)

أستاذة مساعدة في كلية العمل الاجتماعي بجامعة ميشيغان . تتضمن اهتماماتها البحثية دراسة الشباب الهاربين من أسرهم بلا مأوى ، وتعرض الأطفال للأذى الجنسي ، والتقاطعات بين القانون والعمل الاجتماعي . قامت بأبحاث بينية على مستوى المجتمعات الصغيرة إلى جانب المشروعات التاريخية . تقوم بالتدريس في مجالات سياسات الرفاهة الاجتماعية ، ومناهج البحث الكيفي ، والعمل الاجتماعي والقانون . حصلت على درجة الدكتوراه من جامعة كولومبيا ، وكذلك دبلومة متخصصة من كلية الحقوق والقانون في جامعة كورنيل .

المشاركات والمشاركون في "ما وراء الستار" في سطور :

1 - أنطوانيت إيرانت (Antoinette Errante)

أستاذة مساعدة في التربية المقارنة وتاريخ التربية بجامعة ولاية أوهايو . وتركز أبحاثها في الولايات المتحدة وأفريقيا الجنوبية على دور التعليم المدرسي في الحركات الاجتماعية وتشكيل الهوية . كذلك قامت بأبحاث مقارنة للعنف والتصالح والعلاج باعتبارها ممارسات ثقافية .

2 - باتي لاذر (Patti Lather)

أستاذة في الدراسات الثقافية في برنامج التربية بكلية السياسات التربوية والقيادة ، بجامعة ولاية أوهايو ، حيث تقوم بتدريس البحث الكيفي في الدراسات التربوية ، والمنهجية النسوية ، والنوع والتربية . بدأت حياتها العملية كعضوة هيئة تدريس في جامعة ولاية مانكاتو في مجال الدراسات النسائية . عملت أستاذة زائرة في كل من جامعة كولومبيا البريطانية ، جامعة جوننيورج ، وجامعة التربية الدنماركية ، بالإضافة إلى قضاء إجازة دراسية في معهد البحوث الإنسانية ، وجامعة كاليفورنيا في إيرفين ، قامت خلالها بتدريس سمنار في منهجية البحث النسوي ، كما حصلت على منحة مؤسسة فولبرايت عام 1989 قضتها في نيوزيلاندا . لها كتاب عن البحث النسوي والتربية وما بعد الحداثة / (Getting Smart: Feminist Research and Pedagogy With/ In The Postmodern ، 1991 Critic Choice Award) ، واشتركت مع كريس سميثيز في تأليف كتاب عن النساء المريضات بالإيدز : (Troubling the Angels: Women Living with HIV/AIDS ، One of CHOICE's Outstanding Academic Titles for 1998) . نشرت مقالاتها في الدوريات التالية: (Harvard Educational Review; Qualitative Studies in Education; Educational Theory; Signs: Journal of Women in Culture and Society) . تتضمن أحدث إصداراتها: " -Scientific Research in Education: A Critical Per-

spective” a joint publication in the British Educational Research Journal and the Journal of Curriculum and Supervision and “This IS Your Father’s Paradigm: Government Intrusion and the Case of Qualitative Research” in Qualitative Inquiry) (Handbook of Research and Teaching، edited by V. Richardson 2001)، وفي كتاب عن النظرية المناهج النسوية في علم التربية (Working the Ruins: Feminist Theory and Methods in Education، edited by P. Atkinson et al. 2001). وتعكف حاليا على كتاب (Getting Lost: Feminist Efforts Toward a Double(d) Science، under contract with SUNY Press). ومن ضمن آمالها أن تتعلم هواية العزف على آلة الأكورديون ولعب البريدج.

3 - جوديث بريسل (Judith Preissle)

أستاذة أدروولد لعام 2001 في برنامج البحث الكيفي بكلية التربية، جامعة جورجيا (UGA)، وعضوة منتسبة إلى معهد الدراسات النسائية بالجامعة. بدأت حياتها العملية بالتدريس في مرحلة التعليم المتوسط عام 1965، ثم عملت بجامعة جورجيا منذ عام 1975، حيث تقوم بالتدريس والأبحاث والكتابة في موضوعات الأنثروبولوجيا التربوية، والبحث الكيفي، ودراسات النوع (الجنس)، وعلم الأخلاق. ويعمل زوجها مديرا لشبكة الحاسب الآلي بجامعة جورجيا، ولديها كلبان صغيران من فصيلة شناوتزر، وكلبان من فصيلة كلاب صينية، يشاركونها جميعا في تأملاتها الفلسفية.

4 - دانا كرولي جاك (Dana Crowley Jack)

حاصلة على دكتوراه التربية في التطور الإنساني وعلم النفس. وهي أستاذة في كلية فيرفاغن متخصصة في الدراسات البينية، جامعة ويسترن واشنطن. ومن مؤلفاتها كتاب (Destruction and Creativity in Women’s Ag- عن العدوانية عند النساء

(Silencing the Self: Women and Depression 1999)، وآخر عن النساء والاكتئاب (Moral Vision and Professional Decisions 1989) ، إلى جانب مقالاتها ومساهماتها بفصول في عدد من الكتب. وقد تم ترجمة "مقياس إسكات الذات"، والذي أعدته لاختبار نظريتها في عرضة النساء للاكتئاب، إلى لغات عديدة. قضت فترة في عام 2001 في نيبال، في منحة فولبرايت لكبار الباحثين والباحثات، حيث قامت بالتدريس في برنامج الدراسات العليا في الدراسات النسائية بجامعة تريوفان، وقامت خلالها ببحث حول الاكتئاب والنوع في نيبال. وتعكف حالياً على تحرير كتاب عن الرؤى الدولية لإسكات الذات والاكتئاب لدى النساء.

5- ديبورا بياتيلي (Deborah Piatelli)

ناشطة وباحثة دكتوراه في علم الاجتماع بجامعة بوسطن، حيث تقوم بإعداد أطروحة الدكتوراه عن التحديات التي تواجهها الجهود المعاصرة في الحشد والتعبئة من أجل السلام والعدالة الاجتماعية، وذلك على أساس الأصل والطبقة والنوع.

6- ديانا راسل (Diana E. H. Russell)

أستاذة متفرغة في علم الاجتماع بكلية ميلز في أوكلاند بكاليفورنيا. لها سبعة عشر كتاباً ما بين التأليف والمشاركة في التأليف والتحرير والمشاركة في التحرير، ويدور معظمها حول الأذى الجنسي و/أو العنف الجنسي ضد النساء والفتيات. وحصلت على جائزة مشتركة في عام 1986، وهي جائزة رايت ميلز (C. Wright Mills Award) لما قامت به من بحث متميز في العلوم الاجتماعية في كتابها: (The Secret Trauma: Incest in the Lives of Girls and Women). وتتضمن كتبها الرائدة كتباً عن سياسات الاغتصاب (The Politics of Rape; Rape in Marriage; Sexual Exploitation: Rape، Child Sexual Abuse، and Workplace Harassment). كانت أيضاً رائدة كناشطة، وتحقق حلمها بقيام "محكمة دولية للجرائم ضد

النساء“ في بلجيكا عام 1976 ، حيث اجتمعت أكثر من ألفي امرأة من أربعين دولة وشاركن في الشهادة بجرائم الأبوية ضدنا كنساء . وقد وجهت سيمون دي بوفوار (Simone de Beauvoir) ، تحية لهذه المحكمة الدولية باعتبارها ”بداية للتحرر الجذري للنساء“ (“the beginning of a radical decolonization of women”).

7-ديفيد كارب (David Karp)

أستاذ علم الاجتماع في كلية بوسطن . ومن مؤلفاته كتاب عن عبء التعاطف (The Burden of Sympathy 2002) وعن الحزن والاكتئاب (Speaking of Sadness: Depression, Disconnection, and the Meanings of Illness 1997) ، وعن سوسيولوجيا حياة المدينة (Being Urban: A Sociology of City Life 1994) ، وعن علم الاجتماع في الحياة اليومية (Sociology in Everyday Life 1993) ، وعن الشيخوخة والتقدم في السن (Experiencing the Life Cycle: A Social Psychology of Aging 1993) ، وعن مناهج البحوث الاجتماعية (The Research Craft: An Introduction to Social Research Methods 1992) . وقد حصل على درجة الدكتوراه من جامعة نيويورك عام 1971 .

8-ساندرا هاردينج (Sandra Harding)

تقوم بتدريس الفلسفة والعلوم الاجتماعية والدراسات ما بعد الكولونيالية والنسوية في جامعة كاليفورنيا ببلوس أنجيليس . شاركت بتأليف وتحرير أربعة عشر مؤلفا ما بين كتاب وعدد خاص من الدورات التي تركز على الإيستيمولوجيا والمنهجيات النسوية وما بعد الكولونيالية ، وعلى فلسفة العلوم . ولها كتاب عن نظرية الموقعية النسوية (The Feminist Standpoint Theory Reader: Intellectual and Political Controversies 2004) ، وكذلك كتاب (Science and Social Inequality: Feminist and Postcolonial Issues, April 2006) . شاركت لسنوات

في تحرير دورية "ساينز" (Signs: Journal of Women in Culture and Society، 2000-2005)، وتعكف حالياً على كتاب عن النساء والعلوم والحداثة (Women، Science، and Modernity)

9- سهيلة كيركا شرودر (Suheyra Kirca Schroeder)

تعمل في كلية الاتصالات بجامعة باتشيشيهير (Bahcesehir University) في تركيا. نشرت العديد من المقالات حول قضايا النوع، الهوية والتمثيل، الدراسات الثقافية النسوية، الثقافة الجماهيرية والإعلام، عولة الثقافة، الموسيقى، والشباب. وإلى جانب عملها الأكاديمي شاركت في مشروع "بناء الديمقراطية والقيادة النسائية" (2004-2005)، وتعمل حالياً على مشروع عنوانه "العنف ضد النساء في تركيا". حصلت على الدكتوراه في الدراسات الثقافية البريطانية من جامعة ووريك بإنجلترا، ودرجة الماجستير في الإعلام والثقافة بجامعة سترانكلاند بإسكتلندا، كما تحمل درجة الليسانس في الأنثروبولوجيا الاجتماعية من جامعة إسطنبول بتركيا.

10- شيرلي هيل (Shirley A. Hill)

أستاذة علم الاجتماع في جامعة كنساس، حيث تقوم بتدريس مقررات في الأسرة، علم الاجتماع الطبي، البحث الكيفي، الظلم الاجتماعي. تركز في أبحاثها على السياسات الصحية وخاصة في تأثيرها على الأسر، وخاصة بفعل الظلم القائم على أساس الأصل والطبقة والنوع، وهو موضوع أحدث كتبها: (Black Intimacies: A Gender Perspective on Families 2005). كذلك قامت بتأليف كتاب عن أطفال الأسر الأفروأمريكية (African American Children: Socialization and Development in Families، Sage 1999)، وآخر عن مرض كريات الدم الحمراء المنجلية في الأسر منخفضة الدخل (Managing Sickle Cell Disease in Low-Income Families 1994)، وكلاهما يعتمدان على البحث الكيفي. وهي نائبة تحرير "دورية الزواج والأسرة" (Journal of Marriage and Families)،

وعضوة عدد من اللجان في جمعية علم الاجتماع الأمريكية-American Sociolog-ical Association) وعلماء الاجتماع من أجل النساء في المجتمع (Sociologists for Women in Society).

11- كريستين أندرسون (Kristin L. Anderson)
أستاذة مساعدة في علم الاجتماع بجامعة ويسترن واشنطن. تتضمن أبحاثها المنشورة حديثاً الآتي: -“Theorizing Gender and Intimate Partner Violence Research,” in Sex Roles 2005; and “Perpetrator or Victim? Relationships Between Intimate Partner Violence and Well-Being,” in Journal of Marriage and Family 2002).

12- ليا شمالزباور (Leah Schmalzbauer)
أستاذة مساعدة في علم الاجتماع بجامعة ولاية مونتانا، وعضوة مجلس إدارة مشروع (Proyecto Hondureno) في تشيلسي ماساتشوستس. تتناول أبحاثها وكتاباتها استراتيجيات الحياة اليومية للأسر عابرة القوميات الفقيرة. وتواصل عملها في الأبحاث التشاركية في الولايات المتحدة وأمريكا الوسطى.

13- ليا دودسون (Lisa Dodson)
أستاذة باحثة في علم الاجتماع بكلية بوسطن. قامت على مدار ما يزيد على العقدين بالبحث والتدريس والمساهمة في السياسات العامة لتخفيض الدخول في الولايات المتحدة.

14- ليا كوسجروف (Lisa Cosgrove، PhD)
مختصة في علم النفس في كلية الدراسات العليا في التربية بقسم الإرشاد وعلم النفس المدرسي في جامعة ماساتشوستس بوسطن. وشاركت مع بولا كابلان في تحرير كتاب عن التشخيص النفسي (Bias in Psychiatric Diagnosis 2004)،

والذي ألقت عددا من فصوله. لها مقالات وفصول في كتب منشورة تتناول علم النفس النقدي، قضايا السياسات الاجتماعية، مناهج البحث، قضايا نظرية وفلسفية متعلقة بالممارسة الإكلينيكية (العيادية). وقد حصلت في أبحاثها على دعم من كل من جامعة هارفارد (NIMH: Murray Center، Radcliffe Institute، Harvard University) وجامعة ماساتشوستس. حصلت على زمالة مركز ويليام جوينر لدراسة الحروب وتداعياتها الاجتماعية في الفترة 2002-2003، كما قامت بأبحاث على الأثر الممتد عبر الأجيال لاضطراب كرب ما بعد الحروب (PTSD: Post-traumatic stress disorder).

15-ماكسين بيرتش (Maxine Birch)

محاضرة في الصحة العقلية بكلية الصحة والرعاية الاجتماعية في الجامعة المفتوحة. رسخت دراستها لنيل درجة الدكتوراه لاهتمامها بتناول الروايات والحكايات التي تحال فهم التجارب المعيشة. وأبحاثها في الطب النفسي البديل، وحكايات هوية الذات، والتعبير عن الروحانية منشورة في كتاب (Post-Modernity، Sociology & Religion 1996). لها كتابات في جوانب متعددة من العمل البحثي مدعومة بنشاطها داخل شبكة الباحثات الأكاديميات النسوية. وتتناول مقاربة السيرة الذاتية في كتاب عن البحث الكيفي (Feminist Dilemmas in Qualitative Research، Sage 1998)، وكذلك العلاقات البحثية القائمة في المقابلات الشخصية عن التجارب الشخصية والخاصة (International Journal of Social Research 2000). وهي إحدى محررات كتاب عن أخلاقيات البحث الكيفي شاركت فيه أيضا بفصل عن المشاركة في البحث ("Encouraging Participation: Ethics and Responsibilities"، in Ethics in Qualitative Research، Sage، 2002).

التصحيح اللغوى : خالد رجب

الإشراف الفنى : حسن كامل



يقدم هذا الكتاب مقارنة فريدة ومباشرة لتناول نطاق واسع من الرؤى النسوية حول المسار البحثي من أجل تجاوز الفجوة القائمة بين النظرية ومناهج البحث، كما يربط بين النظرية والمنهج، و يقدم رؤية شاملة ونظرة عامة للبحث النسوي، كما يستكشف نطاقاً واسعاً من الرؤى النسوية، بما فيها النسوية الإمبريقية، والموقعية النسوية، والمنظور ما بعد الحداثي. وتغطي الأمثلة المتعمقة أسئلة بحث متنوعة من البحث النسوي، بما في ذلك قضايا غياب المساواة على أساس النوع، والعنف ضد النساء، وصورة الجسد، والتمييز.